



مجلس شورای اسلامی
آستان قدس رضوی

نُصُوصُ

فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ

تَأْلِيفُ

السَّيِّدِ عَلِيِّ الْمَوْسَوِيِّ الدَّرَانِيِّ

المجلد الثاني

(النزول)

بإشراف

مدير قسم القرآن

الأستاذ العلامة محمد واعظ زاده الخراساني



بسم الله الرحمن الرحيم



نُصُوصُ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ

تَأْلِيفُ
السَّيِّدِ عَلِيِّ الْمَوْسَوِيِّ الدَّارَانِيِّ

المجلدُ الثَّانِي
(النُّزُولُ)

بإشراف
مُديْرِ قِسْمِ الْقُرْآنِ

الْأَسْتَاذِ الْعَلَامَةِ مُحَمَّدِ وَاعِظِ زَادَةِ الْخُرَاسَانِيِّ

موسوي دارابي، علي، ١٣٣٤ -
نصوص في علوم القرآن / تأليف علي الموسوي الدارابي: بإشراف محمد واعظزاده
الخراساني. - مشهد: مجمع البحوث الإسلامية، ١٤٢٩ق. - ١٣٨٦ش.
ISBN set 978-964-444-380-0
ج.
ISBN 978-964-444-569-9 (٢ج)

فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیها.

عربی

کتابنامه

١. قرآن - - علوم قرآنی. ٢. قرآن - - وحی. الف. واعظزاده خراسانی،
١٣٠٤ - . ب. بنیاد پژوهشهای اسلامی. ج. عنوان.

٢٩٧/١٥

٦ ن ٨ م / ٥ / ٦٩ BP

م٧٩-٢٤١٢٩

کتابخانه ملی ایران



نصوص في علوم القرآن

المجلد الثاني

(الرول)

السيد علي الموسوي الدارابي
ياشرف الأستاذ محمد واعظزاده الخراساني

الطبعة الثالثة ١٤٣٢ق / ١٣٩٠ش

١٠٠٠ نسخة / الثمن: ١٤٠٠٠٠ ريال

الطبعة: دقت

مجمع البحوث الإسلامية، ص.ب ٣٦٦-٩١٧٣٥

هاتف و فاكس وحدة المبيعات في مجمع البحوث الإسلامية: ٢٢٣٠٨٠٣

معارض بيع كتب مجمع البحوث الإسلامية، (مشهد) ٢٢٣٣٩٢٣، (قم) ٧٧٣٣٠٢٩

www.islamic-rf.ir;

E-mail: info @islamic-rf.ir

حقوق الطبع محفوظة للناس

الفهرس العام (المجلد الثاني)

الباب الثاني^١ من القسم الأول كيفية نزول الوحي وأقسامه و فيه فصول:

١٥	نص البخاري	الفصل الأول
١٧	نص الصَّغَار	الفصل الثاني
٢١	نص النَّسَائِي	الفصل الثالث
٢٤	نص الطَّبْرِي	الفصل الرابع
٢٨	نص الكُلَيْبِي	الفصل الخامس
٣٤	نص القُمِّي	الفصل السادس
٣٧	نص الصَّدُوق	الفصل السابع
٤٠	نص المفيد	الفصل الثامن
٤٤	نص المرتضى	الفصل التاسع
٤٨	نص البَيْهَقِي	الفصل العاشر
٥٨	نص الطُّوسِي	الفصل الحادي عشر
٥٩	نص الطَّبْرِي	الفصل الثاني عشر
٦٣	نص الفَخْر الرَّازِي	الفصل الثالث عشر
٦٨	نص ابن كثير	الفصل الرابع عشر
٧١	نص ابن حَجَر	الفصل الخامس عشر

٧٨	نص السيوطي	الفصل السادس عشر
٨٣	نص صدر المتألهين	الفصل السابع عشر
١١٢	نص المجلسي	الفصل الثامن عشر
١٢٢	نص البروسوي	الفصل التاسع عشر
١٣٠	نص الآلوسي	الفصل العشرون
١٣٩	نص الشعرائي	الفصل الحادي والعشرون
١٤٢	نص الطباطبائي	الفصل الثاني والعشرون
١٥٣	نص المصطفوي	الفصل الثالث والعشرون
١٦٢	نص معرفة	الفصل الرابع والعشرون
١٩٦	نص أبي شهبة	الفصل الخامس والعشرون
٢٠٣	نص القطان	الفصل السادس والعشرون
٢٠٩	نص السبحاني	الفصل السابع والعشرون
٢١٣	نص مير محمدي	الفصل الثامن والعشرون
٢١٩	نص خليفة	الفصل التاسع والعشرون
٢٢١	نص الصغير	الفصل الثلاثون

الباب الثالث من القسم الأول

بدء الوحي، أول وآخر ما نزل وفيه فصول:

٢٣١	نص البخاري	الفصل الأول
٢٣٥	نص التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام	الفصل الثاني
٢٣٧	نص اليعقوبي	الفصل الثالث
٢٣٩	نص مسلم	الفصل الرابع
٢٤٢	نص الترمذي	الفصل الخامس
٢٤٤	نص الطبري	الفصل السادس

٢٥٩	نصّ القُمِّيّ	الفصل السابع
٢٦٥	نصّ المسعوديّ	الفصل الثامن
٢٦٦	نصّ الحاكم النّيسابوريّ	الفصل التاسع
٢٦٩	نصّ الطّوسيّ	الفصل العاشر
٢٧١	نصّ الواحديّ	الفصل الحادي عشر
٢٧٧	نصّ الميمنيّ	الفصل الثاني عشر
٢٨٠	نصّ أبي الفتوح	الفصل الثالث عشر
٢٨٥	نصّ الزّمخشريّ والشّريف الجرجانيّ	الفصل الرابع عشر
٢٨٧	نصّ الطّبرسيّ	الفصل الخامس عشر
٢٩٠	نصّ ابن شهر آشوب	الفصل السادس عشر
٢٩٣	نصّ ابن الجوزيّ	الفصل السابع عشر
٢٩٥	نصّ الفخر الرّازيّ	الفصل الثامن عشر
٢٩٨	نصّ الخازن	الفصل التاسع عشر
٣٠٢	نصّ القرطبيّ	الفصل العشرون
٣٠٦	نصّ ابن كثير	الفصل الحادي والعشرون
٣٢٤	نصّ الزّركشيّ	الفصل الثاني والعشرون
٣٢٨	نصّ ابن حجر	الفصل الثالث والعشرون
٣٣٩	نصّ السيوطيّ	الفصل الرابع والعشرون
٣٥١	نصّ ملاّ صالح المازندرانيّ	الفصل الخامس والعشرون
٣٥٣	نصّ البّحرانيّ	الفصل السادس والعشرون
٣٥٦	نصّ العلامة المجلّسيّ	الفصل السابع والعشرون
٣٦٠	نصّ البرّسويّ	الفصل الثامن والعشرون
٣٦٢	نصّ الآلوسيّ	الفصل التاسع والعشرون
٣٦٧	نصّ رشيد رضا	الفصل الثلاثون

٣٧٣	نصّ الرّنجانيّ	الفصل الحادي والثلاثون
٣٧٥	نصّ سيّد قطب	الفصل الثاني والثلاثون
٣٧٩	نصّ عزّة دروّزة	الفصل الثالث والثلاثون
٣٨٧	نصّ الزُّرقانيّ	الفصل الرابع والثلاثون
٣٩٥	نصّ العلامة الطّباطبائيّ	الفصل الخامس والثلاثون
٣٩٩	نصّ الأشيقر	الفصل السادس والثلاثون
٤٠٤	نصّ مصطفى الخمينيّ	الفصل السابع والثلاثون
٤٠٨	نصّ الآصفيّ	الفصل الثامن والثلاثون
٤٢٨	نصّ معرفة	الفصل التاسع والثلاثون
٤٣٦	نصّ أبي شهبّة	الفصل الأربعون
٤٥١	نصّ حجّتيّ	الفصل الحادي والأربعون
٤٥٤	نصّ عيّاد	الفصل الثاني والأربعون
٤٥٩	نصّ السُّبحانيّ	الفصل الثالث والأربعون
٤٧٠	نصّ الأراكيّ	الفصل الرابع والأربعون
٤٧٥	نصّ الوشنويّ	الفصل الخامس والأربعون
٤٨١	نصّ المرتضى العامليّ	الفصل السادس والأربعون
٥٠٠	نصّ الملكيّ	الفصل السابع والأربعون
٥٠٦	الدُّوزدُوْزانيّ	الفصل الثامن والأربعون

الباب الرابع من القسم الأوّل

السُّور المكيّة والمدنيّة و ترتيب نزولها وفيه فصول:

٥١٧	نصّ اليعقوبيّ	الفصل الأوّل
٥١٩	نصّ ابن النّديم	الفصل الثاني
٥٢٠	نصّ مؤلّف كتاب انباني	الفصل الثالث

٥٢٤	نصّ الطبرسي	الفصل الرابع
٥٢٦	نصّ الشهرستاني	الفصل الخامس
٥٢٧	نصّ ابن طاووس	الفصل السادس
٥٣٩	نصّ الخازن	الفصل السابع
٥٤٠	نصّ الزركشي	الفصل الثامن
٥٥٢	نصّ الفيروزآبادي	الفصل التاسع
٥٥٤	نصّ السيوطي	الفصل العاشر
٥٧١	نصّ الشّطّالاني	الفصل الحادي عشر
٥٧٣	نصّ القاسمي	الفصل الثاني عشر
٥٧٥	نصّ رشيد رضا	الفصل الثالث عشر
٥٧٧	نصّ الزنجاني	الفصل الرابع عشر
٥٨٣	نصّ الرّقاني	الفصل الخامس عشر
٥٩٣	نصّ عزة دروّزة	الفصل السادس عشر
٦٠٥	نصّ الشعرائي	الفصل السابع عشر
٦٠٧	نصّ أبي زهرة	الفصل الثامن عشر
٦١٢	نصّ الطباطبائي	الفصل التاسع عشر
٦١٨	نصّ الخصري	الفصل العشرون
٦٢٣	نصّ الأشيقر	الفصل الحادي والعشرون
٦٢٨	نصّ صبحي الصّالح	الفصل الثاني والعشرون
٦٤٤	نصّ الصّعيدي	الفصل الثالث والعشرون
٦٥٨	نصّ الخطيب	الفصل الرابع والعشرون
٦٧٢	نصّ العطار	الفصل الخامس والعشرون
٦٧٨	نصّ معرفة	الفصل السادس والعشرون
٦٨١	نصّ أبي شهبة	الفصل السابع والعشرون

٦٨٥	نصّ حَجَّتَيَّ	الفصل الثَّامِن والعشرون
٦٨٧	نصّ الحَكِيم	الفصل التَّاسِع والعشرون
٦٩٧	نصّ الأَبْيَارِيَّ	الفصل الثَّلَاثُونَ
٧٠١	نصّ مير مُحَمَّدِيَّ	الفصل الحَادِي والثَّلَاثُونَ
٧١٠	نصّ الصَّغِير	الفصل الثَّانِي والثَّلَاثُونَ
٧١٧	جداول السُّور المَكِّيَّة والمدنِيَّة	

تصدير

بقلم العلامة آية الله الشَّيخ محمَّد واعظ زاده الخراساني
مدير قسم القرآن بمجمع البحوث الإسلامية

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

نحمد الله تعالى ونصلِّي ونسَلِّم على رسوله الأمين وآله الميامين ومن والاهم إلى يوم الدِّين. ونشكر الله تعالى أن وقَّنا لإعداد الجزء الثاني من الكتاب القِيم: «نصوص في علوم القرآن» الحاوي لثلاثة أبواب الباقية، فتَمَّت بذلك أربعة أبواب للقسم الأوَّل من الكتاب و موضوعها (التَّزول). وقد جمع الجزءان مستوعبين النُّصوص المهمَّة قديمها وحديثها في شأن نزول القرآن و سورها المكيَّة والمدنيَّة حسب التَّرتيب الرُّمَني ما أمكن العثور عليها، تمهيداً و تسهيلاً لمن أراد التَّحقيق في علوم القرآن، و الدِّراسات القرآنيَّة.

و جُلَّ هذه النُّصوص مقتبسة من كتب العلوم القرآنيَّة، و كتب تاريخ القرآن، و من مقدِّمات التَّفاسير. و أخذ بعضها من خلال تفاسير الآيات المشيرة التَّزول. وقد غفل عنها بعض الدَّارسين وفيها فوائد جَمَّة.

و سيتلوها في الجزء الثالث، القسم الثاني من الكتاب بنفس الأسلوب، و موضوعه (جمع القرآن و المصاحف)، نسأل الله تعالى دوام التَّوفيق للمؤلِّف السَّيِّد الموسويِّ الدَّارابي و لقسم القرآن و لمجمع البحوث الإسلامية و كلِّ من أعان على إخراج هذا السَّفر الجليل.

و في الختام يجب الالتفات إلى نكتة و هي: أنَّ الاهتمام باستيعاب النُّصوص القرآنيَّة و جمعها من مؤلِّفات جميع المسلمين و لاسيَّما أحاديثهم، و فيها مواضيع مختلفة بين المذاهب الإسلاميَّة فنحن لانكاد نوافق على كلِّ ما في هذه النُّصوص و لاسيَّما ماخالف أصول مذهب

أهل البيت عليهم السلام بما يمس عصمة النبي صلى الله عليه وآله ونحوها: كبعض روايات البخاري ومسلم والطبري وابن كثير والسيوطي وأقوالهم. وقد أشرنا إلى ذلك في مواضعها في الهامش، كما حكينا نصوصاً من علمائنا في الفصول المتأخرة من هذا المجلد وهي تحلل وتنقد تلك الروايات والأقوال فلتكن على علم بذلك. وصلى الله على نبينا محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين ومن والأهم إلى يوم الدين.

محمد واعظ زاده الخراساني

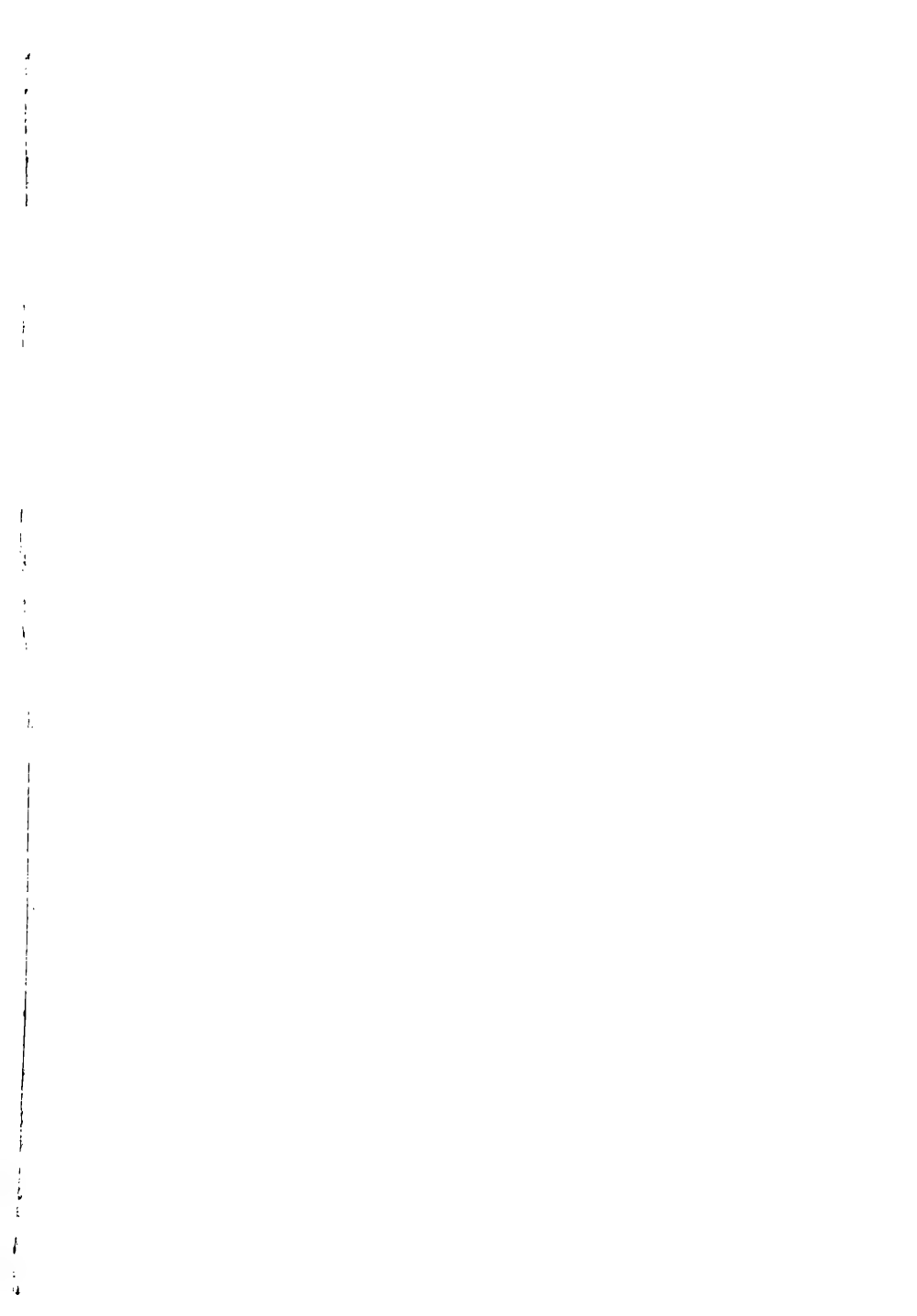
مدير قسم القرآن بمجمع البحوث الإسلامية في الأستانة الرضوية

الثاني من شهر شوال المكرم، عام: ١٤٢٣ هـ. ق.

الباب الثاني من القسم الأول

كيفية نزول الوحي وأقسامه

وفيه فصول



الفصل الأول

نص البخاريّ (م: ٢٥٦) في «الجامع الصحيح»

كيف نزول الوحي^١

١- حدّثنا موسى بن إسماعيل، حدّثنا مُعْتَمِر، قال: سمعت أبي عن أبي عثمان قال: أنبئت أنّ جبريل أتى النَّبِيَّ ﷺ وعنده أمّ سَلَمَة فجعل يتحدث، فقال النَّبِيُّ ﷺ لأمّ سَلَمَة: من هذا؟ أو كما قال، قالت: هذا رَحِيّة. فلَمَّا قام قالت: والله ما حَسِبْتُهُ إِلَّا إِيَّاه حَتَّى سَمِعْتُ خطبة النَّبِيِّ ﷺ يُخَبِّر خبر جبريل، أو كما قال أبي: قُلْتُ لأبي عثمان: ممّن سمعتَ هذا؟ قال: من أسامة بن زيد.

٢- حدّثنا عبد الله بن يوسف، حدّثنا اللَّيْث، حدّثنا سعيد المَقْبُرِيّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحِيًّا أَوْ حَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

٣- حدّثنا عمرو بن محمّد، حدّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدّثنا أبي عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب قال: أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَابِعَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ حَتَّى تَوَفَّاهُ أَكْثَرَ مَا كَانَ الْوَحْيُ، ثُمَّ تُوَفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدُ.

٤- حدّثنا أبو نُعَيْمٍ، حدّثنا سُفْيَانُ عَنْ الْأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدَبًا يَقُولُ: اشْتَكَى النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَقَمْ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ مَا أَرَى شَيْطَانَكَ إِلَّا قَدْ تَرَكَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَعَدَكَ رَبُّكَ وَمَا أُفَىٰ﴾^٢.

٥- حدّثنا أبو نُعَيْمٍ، حدّثنا هَمَّامٌ، حدّثنا عطاء، وقال مُسَدَّدٌ: حدّثنا يحيى عن ابن

جُرَيْج، قال أخبرني عطاء، قال: أخبرني صفوان بن يعلى بن أمية: أن يعلى كان يقول: ليتني أرى رسول الله ﷺ حين يُنزل عليه الوحي، فلما كان النبي ﷺ بالجعرانة عليه ثوب قد أظّل عليه و معه ناس من أصحابه، إذ جاءه رجل مُتَضَمِّخٌ بطيب فقال يا رسول الله: كيف ترى في رجلٍ أحرم في جبّةٍ بعدما تَضَمَّنَّ بطيب؟ فنظر النبي ﷺ ساعة فجاءه الوحي، فأشار عمر إلى يعلى أن تعال، فجاء يعلى فأدخل رأسه، فإذا هو مُحَرَّمُ الوجه يَنْفُطُ كذلك ساعة، ثم سُري عنه، فقال: أين الذي يسألني عن العُمرَةِ آنفا؟ فالتبس الرجل فجيء به إلى النبي ﷺ فقال: أما الطيب الذي بك، فاغسله ثلاث مرّات، و أما الجبّة فانزعها ثم اصنع في عُمرتك كما تصنع في حجّك. (٢٢٣-٢٢٥)

٦- حدّثنا عبدالله بن يوسف، قال: أخبرنا مالك عن هشام بن عروّة، عن أبيه، عن عائشة أم المؤمنين، أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ ... [و ذكر كما سيأتي عن التّسائي مع شرح الزّعم ٢]

﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ سبأ/٢٣.

[استراق السّمع قبل نزول الوحي]

٧- حدّثنا الحُمَيْدِيّ، حدّثنا سُفيان، حدّثنا عهرو، قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: إذا قضى الله الأمر في السّماء، صرّبت الملائكة بأجنحتها خضعاً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان ﴿إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا - الَّذِي قَالَ - الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فيسمعها مسترق السّمع، و مسترقو السّمع هكذا بعضه فوق بعض، و وصف سُفيان بكفه حفرها، و بدّد بين أصابعه، فيسمع الكلمة فيلقها إلى من تحته، ثم يلقها الآخر إلى من تحته حتّى يلقها على لسان السّاحر أو الكاهن، فرّما أدرك الشّهاب قبل أن يلقها، و ربّما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا و كذا: كذا وكذا؟ فيصدّق بتلك الكلمة الّتي سمعت من السّماء. (١٥٢:٦)

الفصل الثاني

نص الصَّفَّار (م: ٢٩٠) في «بصائر الدرجات»^١

[الفرق بين النَّبيِّ والرَّسول والإمام «أوالمحدَّث» في الوحي]

١- حدَّثنا مُحَمَّد بن هارون عن أبي يحيى الواسطيِّ، عن هشام بن سالم ودُرُست بن أبي منصور الواسطيِّ عنهما عليه السلام قال: الأنبياء والمرسلون على أربع طبقات: فنبِّيٌّ مَنبَأٌ في نفسه لا يعدو غيرها؛ ونبِّيٌّ يرى في النَّوم ويسمع الصَّوت ولا يعاين في اليقظة ولم يبعث إلى أحد، وعليه إمام مثل ما كان إبراهيم على لوط؛ ونبِّيٌّ يرى في منامه ويسمع الصَّوت ويعاين الملك وقد أُرسِلَ إلى طائفة قَلَّوا أو كَثُرُوا كما قال الله [يونس]: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾^٢ قال: يزيدون ثلاثين ألفاً،^٣ ونبِّيٌّ يرى في نومه ويسمع الصَّوت ويعاين في اليقظة وهو إمام مثل أولي العزم، وقد كان إبراهيم نبياً وليس بإمام حتَّى قال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي - بَأَنَّهُ يَكُونُ فِي وَلَدِهِ كُلَّهُمْ - قَالَ لَا يَبْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^٤ أي من عبد صنماً أو وثناً.

٢- حدَّثنا إبراهيم بن هاشم قال: أخبرنا إسماعيل بن مهران قال: كتب الحسن بن العباس بن المعروف إلى الرضا عليه السلام جعلت فداك أخبرني ما الفرق بين الرَّسول والنَّبِيِّ والإمام؟ قال: فكتب أوقال: الفرق بين الرَّسول والنَّبِيِّ والإمام هو أنَّ الرَّسول الَّذي ينزل عليه جبرئيل، فيراه ويسمع كلامه، والنَّبِيُّ الَّذي ينزل عليه جبرئيل وربما نُبِّيٌّ في

١ - هذا الكتاب رفضه الشيخ الصدوق وآخرون ضعُفوا رواياته. (م)

٢ - الصَّافَات / ١٤٧.

٣ - جاء في «الاختصاص» للشيخ المفيد: ٢٣ بعده «و عليه إمام». (م)

٤ - البقرة / ١٢٤.

منامه نحو رؤيا إبراهيم؛ والتَّيِّ رُبَّمَا يسمع الكلام وربما يرى الشَّخْص ولم يسمع الكلام، والإمام هو الَّذِي يسمع ولا يرى الشَّخْص.

٣- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الْعَطَّارُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ فَرْوَخِ الصَّفَّارِ، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ مَعْرُوفٍ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ بُرَيْدِ الْعِجْلِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنِ الرَّسُولِ وَالتَّيِّ وَالمَحْدَّثِ، قَالَ الرَّسُولُ الَّذِي تَأْتِيهِ المَلَائِكَةُ وَيَعَايْنُهُمْ وَتَبْلُغُهُ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَالتَّيِّ الَّذِي يَرَى فِي مَنَامِهِ، فَهُوَ كَمَا رَأَى، وَالمَحْدَّثُ الَّذِي يَسْمَعُ كَلَامَ المَلَائِكَةِ وَيَنْقُرُ فِي أُذُنِهِ وَيَنْكُتُ فِي قَلْبِهِ.

٤- حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي نَصْرٍ، عَنْ ثَعْلَبٍ، عَنْ زُرَّارَةَ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^١ قُلْتُ: مَا هُوَ الرَّسُولُ مِنَ التَّيِّ؟ قَالَ: التَّيِّ هُوَ الَّذِي يَرَى فِي مَنَامِهِ وَيَسْمَعُ الصَّوْتِ، وَلَا يَعَايِنُ الْمَلِكَ، وَالرَّسُولُ يَعَايِنُ الْمَلِكَ وَيَكَلِّمُهُ، فَلَا إِمَامَ مَا مَنْزِلَتُهُ؟ قَالَ: يَسْمَعُ الصَّوْتِ وَلَا يَرَى وَلَا يَعَايِنُ، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾^٢ وَلَا مُحَدَّثٍ^٣.

٥- حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ ابْنِ فَضَّالٍ، عَنْ ابْنِ بُكَيْرٍ، عَنْ زُرَّارَةَ قَالَ سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنِ الرَّسُولِ وَالتَّيِّ وَالمَحْدَّثِ، فَقَالَ: الرَّسُولُ الَّذِي يَأْتِيهِ الْمَلِكُ، فَيَحْدِثُهُ وَيَكَلِّمُهُ، كَمَا يَحْدِثُ أَحَدَكُمْ صَاحِبَهُ، وَالتَّيِّ الَّذِي يُؤْتَى فِي مَنَامِهِ، نَحْوُ رُؤْيَا إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: قُلْتُ: وَمَا عَلِمَ أَنَّ الَّذِي رَأَى فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ حَقٌّ؟ قَالَ: يُبَيِّنُهُ اللَّهُ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ حَقٌّ، وَيَنْزِلُ عَلَيْهِ، وَقَدْ كَانَ رَسُولَ اللَّهِ عليه السلام نَبِيًّا، وَالمَحْدَّثُ يَسْمَعُ الصَّوْتِ وَلَا يَرَى شَيْئًا.

٦- حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ يَزِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ عَيْسَى عَنْ حَرِيزٍ، بِعَنْ زُرَّارَةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ عَلَى خَمْسَةِ أَنْوَاعٍ: مِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ الصَّوْتِ مِثْلَ صَوْتِ السَّلْسِلَةِ، فَيَعْلَمُ مَا عُنِيَ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْبَأُ فِي مَنَامِهِ كَمِثْلِ يُوسُفَ وَإِبْرَاهِيمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعَايِنُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْكُتُ فِي قَلْبِهِ وَيُوقِرُ فِي أُذُنِهِ.

٢- الحج / ٥٢.

١- مريم / ٥١.

٣- كأنها قراءة عند أهل البيت ولم تثبت بالتواتر، وقد جاءت في هذا الكتاب روايات أخرى بمعناها.(م)

٤- هكذا في النسخ واستظهر المصنف ولكن الصحيح «أربعة».(م)

٧- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَسَنٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنْ ابْنِ بُكْرٍ، عَنْ زُرَّارَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ سَأَلْتُهُ عَنِ الرَّسُولِ، فَقَالَ: الرَّسُولُ الَّذِي يَعَايِنُ مَلَكًا يَجِيئُهُ بِرِسَالَةٍ عَنْ رَبِّهِ فَيَكَلِّمُهُ كَمَا يَكَلِّمُ أَحَدُكُمْ صَاحِبَهُ، وَالتَّبَيُّ لَا يَعَايِنُ مَلَكًا إِنَّمَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ وَيَرَى فِي مَنَامِهِ، قُلْتُ: مَا عِلْمُهُ إِذَا رَأَى فِي مَنَامِهِ أَنَّ هَذَا حَقٌّ قَالَ: يَبَيِّنُهُ اللَّهُ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ حَقٌّ، وَالْمُحَدَّثُ يَسْمَعُ الصَّوْتَ وَلَا يَرَى شَيْئًا.

٨- حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مَحْبُوبٍ، عَنِ الْأَحْوَلِ قَالَ: سَمِعْتُ زُرَّارَةَ يُسْأَلُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: أَخْبَرَنِي عَنِ الرَّسُولِ وَالتَّبَيِّ وَالْمُحَدَّثِ، فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام الرَّسُولُ الَّذِي يَأْتِيهِ جَبْرِيْلُ قُبْلًا^١، فَيَرَاهُ وَيَكَلِّمُهُ فَهَذَا الرَّسُولُ، وَأَمَّا التَّبَيُّ فَإِنَّهُ يَرَى فِي مَنَامِهِ عَلَى نَحْوِ مَا رَأَى إِبْرَاهِيمُ، وَنَحْوَهُ مَا كَانَ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله مِنْ أَسْبَابِ النَّبُوَّةِ قَبْلَ الْوَحْيِ حَتَّى أَتَاهُ جَبْرِيْلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِالرَّسَالَةِ، كَانَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله حِينَ جُمِعَ لَهُ النَّبُوَّةُ وَجَاءَتْهُ الرِّسَالَةُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَجِيئُهُ بِهَا جَبْرِيْلُ وَيَكَلِّمُهُ بِهَا قُبْلًا، وَمِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَنْ جُمِعَ لَهُ النَّبُوَّةُ وَيَرَى فِي مَنَامِهِ، يَأْتِيهِ الرُّوحُ فَيَكَلِّمُهُ وَيَحْتَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ رَأَاهُ فِي الْيَقِظَةِ، وَأَمَّا الْمُحَدَّثُ فَهُوَ الَّذِي يَحْدُثُ فَيَسْمَعُ وَلَا يَعَايِنُ وَلَا يَرَى فِي مَنَامِهِ.

[مثله عن الكليني في باب الفرق بين الرسول والتبَيِّ والمُحَدَّثِ، بإسناده عن محمد بن يحيى... عن الأحول قال: سألت أبا جعفر عليه السلام ...]^٢

٩- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حَسَّانٍ، عَنْ ابْنِ بُكَيْرٍ، عَنْ زُرَّارَةَ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام مِنَ الرَّسُولِ؟ مِنَ التَّبَيِّ؟ مِنَ الْمُحَدَّثِ؟ فَقَالَ: الرَّسُولُ الَّذِي جَبْرِيْلُ فَيَكَلِّمُهُ قُبْلًا فَيَرَاهُ كَمَا يَرَى أَحَدُكُمْ الَّذِي يَكَلِّمُهُ، فَهَذَا الرَّسُولُ، وَالتَّبَيُّ الَّذِي يُوتَى فِي النَّوْمِ، نَحْوُ رُؤْيَا إِبْرَاهِيمَ، وَنَحْوِ مَا كَانَ يَأْخُذُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله مِنَ السَّبَاتِ، إِذْ أَتَاهُ جَبْرِيْلُ فِي النَّوْمِ، فَهَكَذَا التَّبَيُّ وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْتَمِعُ لَهُ الرِّسَالَةُ وَالتَّبُوَّةُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله رَسُولًا يَأْتِيهِ جَبْرِيْلُ قُبْلًا فَيَكَلِّمُهُ وَيَرَاهُ وَيَأْتِيهِ فِي النَّوْمِ. وَأَمَّا الْمُحَدَّثُ فَهُوَ الَّذِي يَسْمَعُ كَلَامَ الْمَلِكِ فَيَحْدُثُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْتِيهِ فِي النَّوْمِ. [و ذكر مثله أيضًا باختلاف يسير بطريق آخر: ٣٧٣، الرقم ١٩]

١ - بَضْمَتَيْنِ أَوْ بَضْمَةً وَفَتْحَةً (كَأَذْنٍ وَصُرْدٍ) أَيْ عَيْنَانَا وَمُقَابَلَةً (م).

٢ - الكافي ١: ١٧٦.

١٠- حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ فَضَّالٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُكَيْرٍ عَنْ زُرَّارَةَ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنِ الرَّسُولِ وَ عَنِ النَّبِيِّ وَ عَنِ الْمَحَدِّثِ، فَقَالَ: الرَّسُولُ الَّذِي يَعَايِنُ الْمَلِكَ يَأْتِيهِ بِالرَّسَالَةِ مِنْ رَبِّهِ يَقُولُ: يَا مَرْكَ كَذَا وَ كَذَا، وَ الرَّسُولُ يَكُونُ نَبِيًّا مَعَ الرَّسَالَةِ، وَ النَّبِيُّ لَا يَعَايِنُ الْمَلِكَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ النَّبَأُ عَلَى قَلْبِهِ، فَيَكُونُ كَالْمُغْمَى عَلَيْهِ فَيَرَى فِي مَنَامِهِ قَلْتَ: فَمَا عَلِمَهُ أَنَّ الَّذِي يَرَى فِي مَنَامِهِ حَقٌّ؟ قَالَ: يَبَيِّنُهُ اللَّهُ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ حَقٌّ، وَلَا يَعَايِنُ الْمَلِكُ، وَ الْمَحَدِّثُ الَّذِي يَسْمَعُ الصَّوْتَ وَ لَا يَرَى شَاهِدًا.

١١- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مَحْبُوبٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ عَلِمَ النَّبُوءَةُ يَدْرَجُ فِي جَوَارِحِ الْإِمَامِ. (٣٦٨-٣٧٣)

١٢- حَدَّثَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ مَعْرُوفٍ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ عَيْسَى، عَنْ رَبْعِيِّ عَنْ زُرَّارَةَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: كُنْتُ بِالْمَدِينَةِ، فَلَمَّا شَدُّوا عَلَى دَوَائِبِهِمْ وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ الْمَحَدِّثِ، فَأَتَيْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام فَاسْتَأْذَنْتُ فَقَالَ: مِنْ هَذَا؟ قُلْتَ: زُرَّارَةَ، قَالَ: أَدْخُلْ، ثُمَّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام يُمْلِي عَلَى عَلِيِّ عليه السلام فَنَامَ نَوْمَةً وَ نَعَسَ نَعْسَةً، فَلَمَّا رَجَعَ نَظَرَ إِلَى الْكِتَابِ، فَمَدَّ يَدَهُ قَالَ: مَنْ أَمْلَى هَذَا عَلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْتَ، قَالَ: لَا، بَلْ جَبْرِئِيلُ. (ص: ٣٢٤)

الفصل الثالث

نصّ النسائي (م: ٣٠٣) في «سُننه» و السيوطيّ (م: ٩١١) في «شرحها»^١

[كيفية نزول الوحي]

١- أخبرنا إسحاق بن إبراهيم، قال: أنبأنا سُفيان، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: سأل الحارث بن هشام رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي^٢ قال: في مثل

١- و سَمَّاها «زَهْرَائِيَّ عَلَى الْمُجْتَبَى».

٢- قال السيوطيّ: (كيف يأتيك الوحي) يحتمل أن يكون المسؤول عنه صفة للوحي نفسه، و يحتمل أن يكون صفة حامله أو ما هو أعمّ من ذلك. قال: أحياناً نصب على الظرف و عامله «يأتيني»: مؤخّر عنه. «في مثل صَلَواتِ الجَرَس»: بصادين مهملتين مفتوحتين بينهما لام ساكنة، و هي في الأصل صوت وقوع الحديد بعضه على بعض ثم أطلق على كلّ صوت له طنين. و قيل: هو صوت متدارك لا يدرك في أول و هلة، و الجَرَس: الجَلْجَل الذي يعلّق في رؤوس الدواب.

فإن قيل: كيف شبّه المحمود بالمذموم؟ فإنّ صوت الجَرَس مذموم لصحّة النّهي عنه، و الإعلام بأنّ الملائكة لا تصحب رفقة فيها جرس.

فالجواب: أنّه لا يلزم في التّشبيه تساوي المشبّه بالمشبّه به في كلّ صفاته، بل يكفي اشتراكهما في صفة ما، و المقصود هنا بيان الحسّ فذكر ما ألف السّامعون سماعه تقريباً لأفهامهم، و أخذ من هذا جواز تشبيه الشّعاء ريق المحبوبة و نحوه بالخمر، و استدلّ عليه بقول كعب: كأنّه منهل بالراح معمول. و قد أنشده في حضرة النبي ﷺ و أفترّه و الصّلوة المذكورة، صوت الملك بالوحي، قال الخطّابي يريد أنّه صوت متدارك يسمعه و لا يشبهه أول ما يسمعه حتّى يفهمه بعد. و قيل: بل هو صوت حفيف أجنحة الملك. و الحكمة في تقدّمه أن يفرغ سمعه للوحي فلا يبقى فيه مكان لغيره (وهو أشدّه عليّ): قال البلّغينيّ: سبب ذلك أنّ الكلام العظيم له مقدّمات تؤدّن بتعظيمه للاهتمام به و قال بعضهم: إنّما كان تديباً عليه ليستجمع قلبه فيكون أوعى لما سمع، و قيل: إنّما كان ينزل هكذا إذا نزلت آية و عيد أو تهديد، و فائدة هذه الشّدّة ما يترتّب على المشقّة من زيادة الزّلفى و الدّرجات. «فيفصم عني»: يفتح أوله و سكون الفاء و كسر الهلة، أي يقطع و ينجلي ما يغشائي. و يروى بضمّ أوله من الرّباعي و أصل القصم القطع، و قيل: القصم بالفاء القطع بلا إبانة، و بالفاء القطع بإبانة.

«و أحياناً يتمنّل لي الملك رجلاً»: التّمنّل مشتقّ من المتل، أي يتصوّر. و اللّام في الملك للعهد أي جبريل، و صرح به

صَلْصَلَةُ الْجَرَسِ فَيَفْصِمُ عَنِّي وَ قَدْ وَ عَيْتُ عَنْهُ وَ هُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، وَأَحْيَانًا يَأْتِينِي فِي مِثْلِ صُورَةِ الْفَتَى فَيَنْبُذُهُ إِلَيَّ.

٢- أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ وَ الْحَارِثُ بْنُ مِسْكِينَ قِرَاءَةً عَلَيْهِ وَ أَنَا أَسْمَعُ، وَ اللَّفْظُ لَهُ عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَحْيَانًا يَأْتِينِي فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَ هُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيَفْصِمُ عَنِّي وَ قَدْ وَ عَيْتُ مَا قَالَ، وَ أَحْيَانًا يَتِمَثَّلُ لِي

→ رواية ابن سعد، و (رجلاً) منصوب نصب المصدر، أي مثل رجل. أو الحال أي هيئة رجل أو التمييز. قال المتكلمون: الملائكة أجسام علوية لطيفة تتشكل أي بشكل أرادوا. و قد سأل عبدالحق الصقليّ إمام الحرمين حين اجتمع به بمكة عن هذه و كيف كان جبريل يجيء مرة في صورة دحية، و جاءه مرة في هيئة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر و صورته الأصلية، وله ستمائة جناح و كل جناح منها يسد الأفق، فقال من قائل إنه سبحانه يفني الزائد من خلقه ثم يعيده. و من قائل: إن ذلك إنما هو تمثيل في عين الزائي لا في جسم جبريل و هو الذي يعطيه قوله: (يتمثل) قال: و تحقيقه أن جبريل عبارة عن الحقيقة الملكية الخاصة و ملك لا يتغير بالصور و القوال، كما أن حقيقتنا لا تتغير بها، ألا ترى أن الجسم يتغير و يفنى، مع أن الأرواح لا تتغير كما أنها في الجنة تركب على أجسام لطيفة نورانية ملكية تنعكس الأبدان الأدمية الكثيفة هناك إلى عالم الكمال الجسماني على نحو الأجسام الملكية الآن، فحقيقة جبريل كانت معلومة عند النبي ﷺ مجمولة في أي قالب كان. قلت: و لهذا ورد في حديث مجيبه و سؤاله عن الإيمان «ما جاءني قط إلا و أنا أعرفه إلا أن يكون هذه المرة» ثم قال: و من هذا فهم السر المودع في عصا موسى كيف كانت تارة ثعباناً فاتحاً فاه، و أخرى شمعاً، و مرة شجرة صورتهامشعة، و أخرى سميراً يحادثه إذا استوحش، فتارة عوداً، و أخرى ذو روح، و انحطت مرة على فرعون و جعلت تقول يا موسى مرني بما شئت، و يقول فرعون: أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها فياخذها فتعود عصا. و قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام و الشيخ سراج الدين البلقيني: ما ذكره إمام الحرمين لا ينحصر الحال فيه، بل يجوز أن يكون الآتي هو جبريل بشكله الأصلي إلا أنه انضم فصار على قدر هيئة الرجل، و إذا ترك عاد إلى هيئة، و مثل ذلك القطن إذا جمع بعد أن كان منتفشاً، فإنه بالثشي يحصل له صورة كبيرة و ذاته لم تتغير، و هذا على سبيل التقريب. و الحق أن تمثل الملك رجلاً ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلاً بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيساً لمن يخاطبه، و الظاهر أيضاً أن القدر لا يزول و لا يفنى بل يخفى على الزائي فقط «فيكلمني» قال الحافظ ابن حجر: وقع في رواية البيهقي من طريق القتيبي عن مالك (فيلمني) بالعين بدل الكاف، و الظاهر أنه تصحيف، فقد وقع في «الموطأ» رواية القتيبي بالكاف، و كذا للدرا رقتني في حديث مالك من طريق القتيبي و غيره «فأعني ما يقول»، زاد أبو عوانة في صحيحه (و هو أهون عليّ)، «و إن جبينه ليتفصد عرقاً»: بالفاء و تشديد المهملة مأخوذ من الفصد و هو قطع العرق لإسالة الدم. شبه جبينه بالعرق المقصود بمبالغة في كثرة العرق، و (عرقاً) تمييز. و حكى العسكري بالتصحيف عن بعض شيوخه أنه قرأه ليتفصد بالكاف، قال العسكري: فإن ثبت فهو من قولهم تقصد الشيء، إذا تكسر و تقطع، و لا يخفى بعده. قال الحافظ ابن حجر: وقد وقع في هذا التصحيف أبو الفضل بن طاهر، فردّه عليه المؤمن الساجي بالفاء، قال: فأصر على الكاف.

الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

٣- أَخْبَرَنَا قُتَيْبَةُ قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُغَيِّرَ بِهِ...﴾ [وذكر كما تقدّم عن البخاري

في باب كيفية النزول]. (٢: ١٤٦-١٤٩)

الفصل الرابع

نص الطبري (م: ٣١٠) في تفسيره: «جامع البيان»

[كيفية الوحي واستراق السمع قبل نزوله]

«حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» سبأ / ٢٣

١- حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: ثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، قَالَ: ثَنَا عِيسَى؛ وَحَدَّثَنِي الْحَارِثُ، قَالَ: ثَنَا الْحَسَنُ، قَالَ: ثَنَا وَرْقَاءُ، جَمِيعًا عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ «حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ» قَالَ: كَشَفَ عَنْهَا الْغَطَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

٢- حَدَّثَنَا بِشْرٌ، قَالَ: ثَنَا يَزِيدٌ، قَالَ: ثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: إِذَا جُلِّيَ عَنْ قُلُوبِهِمْ. وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الْمَوْصُوفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مَنْ هُمْ، وَمَا السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: الَّذِي فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، قَالُوا: وَإِنَّمَا يُفَرِّعُ عَنْ قُلُوبِهِمْ مِنْ غَشِيَةٍ تَصِيهِمُ عِنْدَ سَمَاعِهِمُ اللَّهُ بِالْوَحْيِ.

٣- حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ، قَالَ: ثَنَا ابْنُ عُثَيْبٍ عَنْ دَاوُدَ، عَنْ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ» قَالَ: إِذَا حَدَّثَ أَمْرٌ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ، سَمِعَ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ صَوْتًا كَجَرِّ السَّلْسِلَةِ عَلَى الصِّفَا، فَيُغْشَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا ذَهَبَ الْفَرْعُ عَنْ قُلُوبِهِمْ تَنَادَوْا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالَ: فَيَقُولُ مَنْ شَاءَ قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ.

٤- حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، ثَنَا الْمُعْتَمِرُ، قَالَ: سَمِعْتُ دَاوُدَ عَنْ عَامِرٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ؛ قَالَ: إِذَا حَدَّثَ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ أَمْرٌ، سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ صَوْتًا، كَجَرِّ السَّلْسِلَةِ عَلَى الصِّفَا، قَالَ: فَيُغْشَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالَ: فَيَقُولُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ.

٥- حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُنْتَنَى، قَالَ: ثَنِي عَبْدِ الْأَعْلَى، قَالَ: ثَنَا دَاوُدُ، عَنْ عَامِرٍ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ قَالَ: إِذَا حَدَّثَ أَمْرٌ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ، ثُمَّ ذَكَرَ نَحْوَ مَعْنَاهُ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: فَيُعْشَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَرْعِ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ذَلِكَ عَنْهُمْ تَنَادَوْا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟

٦- حَدَّثَنَا ابْنُ حَمِيدٍ، قَالَ: ثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قَالَ: إِنَّ الْوَحْيَ إِذَا أُلْقِيَ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ صَلَصلةً كَصَلِصلةِ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفْوَانِ، قَالَ: فَيَتَنَادَوْنَ فِي السَّمَوَاتِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالَ: فَيَتَنَادَوْنَ الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. وَبِهِ عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي الصَّحْحِيِّ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ مِثْلَهُ.

٧- حَدَّثَنَا ابْنُ حَمِيدٍ، قَالَ ثَنَا يَعْقُوبُ، عَنْ جَعْفَرٍ، عَنْ سَعِيدٍ، قَالَ: «يُنْزَلُ الْأَمْرُ مِنْ عِنْدِ رَبِّ الْعَرْشِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، يَفْزَعُ أَهْلُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حَتَّى يَسْتَبِينَ لَهُمُ الْأَمْرُ الَّذِي تَنْزَلُ فِيهِ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ...﴾.

٨- حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الصَّبِيِّ، قَالَ: ثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: ثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا قَضَى أَمْرًا فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنَحَتِهَا جَمِيعًا، وَلِقَوْلِهِ صَوْتُ كَصَوْتِ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَا الصَّفْوَانِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

٩- حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ، قَالَ: ثَنَا ابْنُ عَلِيَّةٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ،... [وَذَكَرَ كَمَا تَقَدَّمَ عَنِ النَّسَائِيِّ، الرَّقْمُ ١ ثُمَّ قَالَ].

١٠- حَدَّثَنِي زَكَرِيَّا بْنُ أَبَانَ الْمَصْرِيُّ، قَالَ: ثَنَا نُعَيْمٌ، قَالَ: ثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي زَكَرِيَّا، عَنْ جَابِرِ بْنِ حَيَّوَةَ، عَنْ الثَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ، تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتْ السَّمَوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً، أَوْ قَالَ: رَعْدَةً شَدِيدَةً خَوْفُ أَمْرِ اللَّهِ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ صَعَقُوا، وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جَبْرَائِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جَبْرَائِيلُ: قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ

جَبْرَائِيلَ، فَيَنْتَهِي جَبْرَائِيلُ بِالْوَحْيِ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ».

١١- حَدَّثَنَا عَنْ الْحُسَيْنِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا مُعَاذٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عُبَيْدٌ، قَالَ: سَمِعْتُ الضَّحَّاكَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾... الْآيَةِ، قَالَ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُوحِيَ إِلَى مُحَمَّدٍ، دَعَا جَبْرِيْلَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ رَبُّنَا بِالْوَحْيِ، كَانَ صَوْتُهُ كَصَوْتِ الْحَدِيدِ عَلَى الصَّفَا؛ فَلَمَّا سَمِعَ أَهْلَ السَّمَوَاتِ صَوْتَ الْحَدِيدِ، خَرُّوا سُجَّدًا؛ فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِمْ جَبْرَائِيلُ بِالرَّسَالَةِ، رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ فَقَالُوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ وَهَذَا قَوْلُ الْمَلَائِكَةِ».

١٢- حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ، قَالَ: ثَنِي أَبِي، قَالَ: ثَنِي عَمِّي، قَالَ: ثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ - إِلَى - وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ قَالَ: لَمَّا أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ دَعَا الرَّسُولَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَبَعَثَ بِالْوَحْيِ، سَمِعْتُ الْمَلَائِكَةَ صَوْتَ الْجَبَّارِ يَتَكَلَّمُ بِالْوَحْيِ؛ فَلَمَّا كُشِفَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، سَأَلُوا عَمَّا قَالَ اللَّهُ، فَقَالُوا: الْحَقُّ، وَ عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا، أَنَّهُ مُنْجَزُ مَا وَعَدَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَصَوْتُ الْوَحْيِ كَصَوْتِ الْحَدِيدِ عَلَى الصَّفَا؛ فَلَمَّا سَمِعُوهُ خَرُّوا سُجَّدًا؛ فَلَمَّا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ، ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ ﴿قُلْ مَنْ يَزُودُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ - إِلَى قَوْلِهِ - فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

١٣- حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: ثَنَا أَبُو عَامِرٍ، قَالَ: ثَنَا قُرَّةٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْقَاسِمِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾... الْآيَةِ قَالَ: الْوَحْيُ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، فَإِذَا قَضَاهُ ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

١٤- حَدَّثَنَا ابْنُ حَمِيدٍ، قَالَ: ثَنَا جَرِيرٌ عَنْ مُغِيرَةَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قَالَ: إِنَّ الْوَحْيَ إِذَا قَضِيَ فِي زَوَايَا السَّمَاءِ، قَالَ: مِثْلُ وَقْعِ الْفُلُودِ عَلَى الصَّخْرَةِ، قَالَ: فَيُشْفِقُونَ لَا يَدْرُونَ مَا حَدَثَ فَيَفِرُّونَ، فَإِذَا مَرَّتِ الرَّسُلُ ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

وَقَالَ آخَرُونَ مَعْنَى قَالَ: الْمَوْصُوفُونَ بِذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ: إِنَّمَا يُفَرِّعُ عَنْ قُلُوبِهِمْ فَرَعُهُمْ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ الَّذِي يَقْضِيهِ، حَذَرًا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قِيَامَ السَّاعَةِ.

١٥- حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد عن قتادة، قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾... الآية، قال: يُوحى الله إلى جبرائيل، فَتَفَرَّقَ الْمَلَائِكَةُ أَوْ تَفْزَعُ، مخافة أن يكون شيء من أمر الساعة، فإذا جُلِّيَ عن قلوبهم، وعلموا أنه ليس ذلك من أمر الساعة ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

وقال آخرون: بل ذلك من فعل ملائكة السموات إذا مَرَّتْ بِهَا الْمُعَقَّبَاتُ، فزَعًا أن يكون حدث أمر الساعة.

١٦- حَدَّثْتُ عَنْ الْحُسَيْنِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا مُعَاذٍ يَقُولُ: أَخْبَرَنَا عُثَيْدٌ، قَالَ: سَمِعْتُ الضَّحَّاكَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾... الآية، زعم ابن مسعود: أن الملائكة الْمُعَقَّبَاتُ، الَّذِينَ يَخْتَلِفُونَ إِلَى الْأَرْضِ، يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ، إِذَا أَرْسَلَهُمُ الرَّبُّ فَاَنْحَدَرُوا، سَمِعَ لَهُمْ صَوْتٌ شَدِيدٌ، فَيَحْسِبُ الَّذِينَ هُمْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُ مِنْ أَمْرِ السَّاعَةِ، فَخَرُّوا سُجَّدًا، وَهَكَذَا كَلِمًا مَرُّوا عَلَيْهِمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ مِنْ خَوْفِ رَبِّهِمْ.

وقال آخرون: بل الموصوفون بذلك المشركون، قالوا: وإِنَّمَا يُفْزَعُ الشَّيْطَانُ عَنْ قُلُوبِهِمْ؛ قَالَ: وَإِنَّمَا يَقُولُونَ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ عِنْدَ نَزُولِ الْمَنِيَّةِ بِهِمْ.

١٧- حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قَالَ فُزِعَ الشَّيْطَانُ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَفَارَقَهُمْ وَأَمَانَتَهُمْ، وَمَا كَانَ يَضْلُهُمْ، ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ قَالَ: وَهَذَا فِي بَنِي آدَمَ، وَهَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ، أَقْرَوَاهُ حِينَ لَمْ يَنْفَعَهُمُ الْإِقْرَارُ.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: القول الذي ذكره الشَّعْبِيُّ عن ابن مسعود، لصحة الخبر الذي ذكرناه عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ بتأنيده. (٩٢: ٩٠-٩٢)

الفصل الخامس

نص الكليني (م: ٣٢٨) في «الكافي»

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾

الشورى / ٥٢

١- محمد بن يحيى، عن عمران بن موسى، عن موسى بن جعفر، عن علي بن أسباط، عن محمد بن الفضل، عن أبي حمزة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن العلم، أهو علم يتعلمه العالم من أفواه الرجال، أم في الكتاب عندكم تتقرونه فتعلمون منه؟ قال: الأمر أعظم من ذلك وأوجب، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ ثم قال: أي شيء يقول أصحابكم في هذه الآية، أيقرون أنه كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان؟ فقلت: لا أدري - جعلت فداك - ما يقولون، فقال: بلى قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان حتى بعث الله تعالى الروح التي ذكر في الكتاب، فلما أوحاها إليه علم بها العلم والفهم، وهي الروح التي يعطيها الله تعالى من شاء، فإذا أعطاها عبداً علمه الفهم.

٢- محمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن علي بن أسباط، عن الحسين بن أبي العلاء، عن سعد الإسكاف قال: أتى رجل أمير المؤمنين عليه السلام يسأله عن الروح أليس هو جبرئيل؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: جبرئيل عليه السلام من الملائكة، والروح غير جبرئيل، فكرر ذلك على الرجل، فقال له: لقد قلت عظيماً من القول، ما أحد يزعم أن الروح غير جبرئيل، فقال له: أمير المؤمنين عليه السلام: إنك ضالٌ تروي عن أهل الضلال، يقول الله تعالى لنبيه عليه السلام:

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ * يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ ١ وَالرُّوحُ غير الملائكة صلوات الله عليهم.

٣- عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن النّصر بن سويد، عن يحيى الحلبي، عن أبي الصباح الكناني عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾، قال: خلق من خلق الله عزّ وجلّ أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله عليه السلام يخبره يسدّده وهو مع الأئمة من بعده.

٤- محمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن علي بن أسباط، عن أسباط بن سالم قال: سأله رجلٌ من أهل هيت ٢ - وأنا حاضر - عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ فقال منذ أنزل الله عزّ وجلّ ذلك الرّوح على محمد عليه السلام ما سعد إلى السماء وأنّه لفينا.

٥- علي بن إبراهيم، عن محمد بن عيسى، عن يونس، عن ابن مسكان، عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ٣ قال: خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله عليه السلام وهو مع الأئمة، وهو من الملكوت.

٦- علي، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن أبي أيوب الخزاز، عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ قال: خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل، لم يكن مع أحد ممّن مضى، غير محمد عليه السلام وهو مع الأئمة يسدّدهم، وليس كلّ ما طلب وجّد. (٢٧٤-٢٧٣:١)

[موضع نزول جبرئيل في مكة]

٧- علي بن ابراهيم، عن أبيه؛ ومحمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، عن صفوان بن يحيى، وابن أبي عمير، عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا أشرفت المرأة على مناسكها وهي حائض فلتغتسل ولتحتش بالكرسف، ولتقف هي ونسوة خلفها فيؤمنن على دعائها وتقول: «اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك أو سميت به لأحد من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، وأسألك باسمك الأعظم الأعظم وبكل حرف أنزلته على موسى وبكل حرف أنزلته على عيسى وبكل حرف أنزلته على محمد عليه السلام إلا أذهبت عني هذا الدم، وإذا أرادت أن تدخل المسجد الحرام أو مسجد الرسول عليه السلام فعلت مثل ذلك، قال: وتأتي مقام جبرئيل عليه السلام وهو تحت الميزاب فإنه كان مكانه إذا استأذن على نبي الله عليه السلام قال: فذلك مقام لا تدعو الله فيه حائض تستقبل القبلة وتدعو بدعاء الدم إلا رأت الطهر إن شاء الله.

٨- محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ذكره، عن ابن بكير، عن عمر بن يزيد قال: حاضت صاحبتى وأنا بالمدينة وكان ميعاد جمالنا وإيان مقامنا وخروجنا قبل أن تطهر، ولم تقرب المسجد ولا القبر ولا المنبر، فذكرت ذلك لأبي عبد الله عليه السلام فقال: مرها فلتغتسل ولتأت مقام جبرئيل عليه السلام فإن جبرئيل كان يجيء فيستأذن على رسول الله عليه السلام وإن كان على حال لا ينبغي أن يأذن له في مكانه حتى يخرج إليه، وإن أذن له دخل عليه، فقلت: وأين المكان؟ فقال: حيال الميزاب الذي إذا خرجت من الباب الذي يقال له: باب فاطمة بحذاء القبر إذا رفعت رأسك بحذاء الميزاب، والميزاب فوق رأسك والباب من وراء ظهرك، وتجلس في ذلك الموضع وتجلس معها نساء، ولتدع ربها ويؤمنن على دعائها، قال: فقلت: وأي شيء تقول؟ قال: تقول: «اللهم إني أسألك بأنت أنت الله ليس كمثلك شيء أن تفعل لي كذا وكذا». قال: فصنعت صاحبتى الذي أمرني فطهرت. دخلت المسجد، قال: وكان لنا خادم أيضاً فحاضت، فقالت: يا سيدي ألا أذهب أنا زيادة^١ فأصنع كما صنعت سيدي، فقلت: بلى، فذهبت فصنعت مثل ما صنعت مولاتها فطهرت و دخلت المسجد. (٤: ٤٥٢ - ٤٥٣)

١ - هذه الكلمة تستعمل بمعنى أيضاً، وهي متعارفة في كلامهم وشائعة بين العرب.

[طبقات الأنبياء]

٩- محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن أبي يحيى الواسطي، عن هشام بن سالم: دُرُست بن أبي منصور، عنه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام الأنبياء والمرسلون على أربع طبقات: فنبِيُّ مُنبَأ في نفسه لا يعدو غيرها، ونبِيُّ يرى في النَّوم ويسمع الصَّوت ولا يعاينه في اليقظة، ولم يبعث إلى أحد و عليه إمام مثل ما كان إبراهيم على لوط عليه السلام، ونبِيُّ يرى في منامه و يسمع الصَّوت و يعاين الملك، وقد أُرسل إلى طائفة قُلُوبًا أو كُتُوبًا، كيونس قال الله ليونس: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾^١ قال: يزيدون ثلاثين ألفًا، و عليه إمام، والذي في نومه و يسمع الصَّوت و يعاين في اليقظة وهو إمام مثل أولي العزم، وقد كان إبراهيم عليه السلام نبياً وليس بإمام حتَّى قال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فقال الله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ من عبد صنماً أو وُتِنًا لا يكون إمامًا.

١٠- محمد بن الحسن عمّن ذكره، عن محمد بن خالد، عن محمد بن سنان، عن زيد الشحام قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ الله تبارك و تعالى اتَّخَذَ إبراهيم عبداً قبل أن يتَّخذه نبياً، و إنّ الله اتَّخذه نبياً قبل أن يتَّخذه رسولاً، و إنّ الله اتَّخذه رسولاً قبل أن يتَّخذه خليلاً، و إنّ الله اتَّخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلمّا جمع له الأشياء قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال: فلمّا عَظَّمَهَا في عين إبراهيم قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالِ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^٢ قال: لا يكون السّفيه إمام التّقيّ.

١١- عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن محمد بن يحيى الخثعمي، عن هشام عن ابن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: سادة التّبيين والمرسلين خمسة وهم أولو العزم من الرّسول و عليهم دارت الرّحى^٣: نوح إبراهيم و موسى و عيسى و محمد صلّى الله عليه و آله و على جميع الأنبياء.

١٢- عليّ بن محمد، عن سهل بن زياد، عن محمد بن الحسين، عن إسحاق بن

٢- البقرة / ١٢٤.

١- الصافات / ١٤٧.

٣- أي و حي النبوة و الرّسالة و الشريعة، و سائر الأنبياء تابعون لهم.

عبد العزيز أبي السّفاتج^١، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: إنّ الله اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذ نبيّاً، واتّخذ نبيّاً قبل يتّخذ رسولاً واتّخذ رسولاً قبل أن يتّخذ خليلاً واتّخذ خليلاً قبل أن يتّخذ إماماً، فلمّا جمع له هذه الأشياء - وقبض يده -^٢ قال له: يا إبراهيم ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فلمّا عظّمها في عين إبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ - يارب - وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

الفرق بين الرّسول والنّبيّ والمحدّث

١٣- عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن أحمد بن أبي نصر، عن ثعلبة بن ميثون عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾... [وذكر كما تقدّم عن الصّفار، الرّقم ٤].

١٤- عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن إسماعيل بن مهران قال: كتب الحسن بن العباس المعروف إلى الرضا عليه السلام: جعلت فداك أخبرني ما الفرق بين الرّسول والنّبيّ والإمام؟ قال: فكتب أو قال: الفرق بين الرّسول والنّبيّ والإمام، أنّ الرّسول الذي ينزل عليه جبرئيل فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه الوحي، وربّما رأى في منامه نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام، والنّبيّ ربّما سمع الكلام وربّما رأى الشّخص ولم يسمع، والإمام هو الذي يسمع الكلام ولا يرى الشّخص.

١٥- محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الحسن بن محبوب، عن الأحول قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن الرّسول والنّبيّ والمحدّث... [وذكر كما تقدّم عن الصّفار الرّقم ٢]

١٦- أحمد بن محمد ومحمّد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن عليّ بن حسان عن ابن فضال، عن عليّ بن يعقوب الهاشمي، عن مروان بن مسلم، عن بريد، عن أبي

١ - بالسّين المهملة والفاء والألف والتاء المثناة من فوق والجيم.

٢ - إمّا من كلام الرّواي أي قبض الباقر عليه السلام أصابعه الخمس حكاية عن اجتماع تلك المقامات الخمسة في إبراهيم عليه السلام، وإمّا من كلام الإمام عليه السلام أي قبض الله يد إبراهيم عليه السلام وهو كناية عن كمال لطفه تعالى بإبراهيم حين خاطبه كما قد يخاطب الإنسان خليله، وقد قبض يده وجعل كفّه في كفّه (الفقاري في تعليقاته على الكافي)

جعفر وأبي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ^١ وَلَا مُحَدِّثٍ^٢» قلت: جعلت فداك ليست هذه قراءة، فما الرسول والنبي والمحدث؟ قال: الرسول الذي يظهر له الملك فيكلمه، والنبي هو الذي يرى في منامه، وربما اجتمعت النبوة والرسالة لواحد، والمحدث الذي يسمع الصوت ولا يرى الصورة، قال: قلت: أصلحك الله كيف يعلم أن الذي رأى في النوم حقاً، وأنه من الملك؟ قال: يوفق لذلك حتى يعرفه، لقد ختم الله بكتابكم الكتب وختم بنبيكم الأنبياء. (١: ١٧٤ - ١٧٧)

١ - الحج / ٥٢.

٢ - قوله: «ولا مُحَدِّثٍ» إنما هو منسوب إلى قراءة أهل البيت عليهم السلام ولم تُثبت بالتواتر. (م)

الفصل السادس

نص القمّي (م: ٣٢٨) في «تفسيره»

[كيفية نزول الوحي]

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا...﴾

الشورى / ٥١-٥٢

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ قال: وحي مشافهة، وحي إلهام، وهو الذي يقع في القلب. ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾: كما كلم الله نبيه ﷺ وكما كلم الله موسى ﷺ من النار. ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ﴾ قال: وحي مشافهة، يعني إلى الناس، ثم قال نبيه ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ قال: روح القدس، هي التي قال الصادق ﷺ في قوله: ﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ فَلِ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^١ قال: هو ملك أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله ﷺ وهو مع الأئمة. (٢٧٩:٢) قال علي بن إبراهيم في قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾^٢ قال: اللوح المحفوظ له طرفان: طرف على يمين العرش وطرف على جبهة إسرافيل، فإذا تكلم الرب جلّ ذكره بالوحي ضرب اللوح جبين إسرافيل، فينظر في اللوح إلى جبرئيل ﷺ.

(٤١٥ و ٤١٤:٢)

في رواية أبي الجارود، عن أبي جعفر ﷺ في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^٣: «وذلك أنّ أهل السماوات لم يسمعوا وحيًا فيما

بين أن بعث عيسى بن مريم عليه السلام إلى أن بعث محمد عليه السلام فلما بعث الله جبرئيل إلى محمد عليه السلام سمع أهل السماوات صوت وحي القرآن كوقع الحديد على الصفا، فصعق أهل السماوات، فلما فرغ من الوحي انحدر جبرئيل، كلما مرّ بأهل السماء فزع عن قلوبهم، يقول: كشف عن قلوبهم، فقال بعضهم لبعض: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. (٢٠٢:٢)

﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمُشُّونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾

الإسراء/ ٩٥

حدثني أبي عن أحمد بن النضر، عن عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: بينا رسول الله عليه السلام جالس وعنده جبرئيل، إذ حانت من جبرئيل عليه السلام نظرة قبيل السماء، فامتقع لونه حتّى صار كأنّه كُرْكُمَةٌ.^١

ثمّ لا ذبر رسول الله عليه السلام، فنظر رسول الله عليه السلام إلى حيث نظر جبرئيل فإذا شيء قد ملأ ما بين الخافقين مُقبلاً حتّى كان كقاب من الأرض، ثمّ قال: يا محمد! إني رسول الله عليه السلام إليك أخبرك أن تكون ملكاً رسولاً أحبّ إليك، أو تكون عبداً رسولاً؟ فالتفت رسول الله عليه السلام إلى جبرئيل وقد رجع إليه لونه، فقال جبرئيل: بل كن عبداً رسولاً، فقال رسول الله عليه السلام: بل أكون عبداً رسولاً فرفع الملك رجله اليمنى فوضعها في كبد السماء الدنيا، ثمّ رفع الأخرى فوضعها في الثانية، ثمّ رفع اليمنى فوضعها في الثالثة، ثمّ هكذا حتّى انتهى إلى السماء السابعة، كلّ سماء خُطوة، وكلّما ارتفع صغر حتّى صار آخر ذلك مثل الذرّ^٢ فالتفت رسول الله عليه السلام إلى جبرئيل فقال: لقد رأيتك ذعيراً، وما رأيت شيئاً كان أذعر لي من تغيير لونك، فقال: يا نبيّ الله! لا تلمني، أتدري من هذا؟ قال: لا، قال: هذا إسرأفيل حاجب الرّب، ولم ينزل من مكانه منذ خلق السماوات والأرض، فلما رأيتنه منحطاً ظننت أنّه جاء بقيام الساعة، فكان الذي رأيت من تغيير لوني لذلك، فلما رأيت ما اصطفاك

١ - الكُرْكُمُ [أو الكُرْكُمَة]: نبات طبيّ عسقلانيّ هنديّ من الفصيلة الزنجبارية... (المعجم الوسيط ٢: ٧٨٤). قال اللّيث: هو

الرّعفران، قال: الكرْكُمانيّ: دواءٌ منسوبٌ إلى الكرْكُم، وهو نبات شبيه بالكمّون يخلط بالأدوية. (لسان العرب ٢: ٥١٦).

٢ - وفي خبر آخر «الصر».

الله به رجع إليّ لوني و نفسي، أما رأيته كلما ارتفع صغر، أنّه ليس شيء يدنو من الرّب إلّا صغر لعظمته؟! إنّ هذا حاجب الرّب وأقرب خلق الله منه واللّوح بين عينيه من ياقوتة حمراء، فإذا تكلم الرّب تبارك وتعالى بالوحي ضرب اللّوح جبينه فنظر فيه، ثمّ يلقيه إلينا فنسعى به في السّماوات والأرض، إنّهُ لأدنى^١ خلق الرّحمان منه، وبينه وبينه^٢ سبعون حجابًا من نور تقطع دونها الأبصار ما لا يُعدّ ولا يوصف، وإنّي لأقرب الخلق منه، وبينه مسيرة ألف عام. (٢: ٢٧ و ٢٨)

١ - المراد بالدنو: القرب المعنوي لا المكاني.

٢ - قال العلامة المجلسي: قوله: «و بينه وبينه» أي و بين الموضع الذي جعله محلّ صدور الوحي من العرش، أو المراد بالحجب: الحجب المعنويّة. (بحار الأنوار ١٨: ٢٥٨).

الفصل السابع

نصّ الشّيخ الصّدوق (م: ٣٨١) في «الاعتقادات»

في كَيْفِيَّةِ نزول الوحي

قال أبو جعفر (الشّيخ الصّدوق): اعتقدنا في ذلك [أي في نزول الوحي] أنّ بين عيني إسرَافيل لوحًا، فإذا أراد الله عزّوجلّ أن يتكلّم بالوحي ضرب اللّوح جبين إسرَافيل، فينظر فيه فيقرأ ما فيه، فيلقيه ألى ميكائيل، ويلقيه ميكائيل إلى جبرئيل ويلقيه جبرئيل إلى الأنبياء، وأمّا الغشوة التي كانت تأخذ النَّبِيَّ ﷺ فإنّها كانت تكون عند مخاطبة الله تعالى إيّاه حتّى يثقل ويعرق. فأما جبرئيل فإنّه كان لا يدخل على النَّبِيِّ ﷺ، حتّى يستأذنه إكرامًا له، وكان يقعد بين يديه قعدة العبد. (الاعتقادات ضمن شرح الباب الحادي عشر): ٩٢

و نصّه في «التّوحيد»

[كَيْفِيَّةِ نزول الوحي]

١- [فيما أجاب به أميرالمؤمنين ﷺ عن أسئلة الزّنديق المدّعي للتّناقض في القرآن] فقال ﷺ: «وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ»^١ فَإِنَّهُ مَا يَنْبَغِي لِبَشَرٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا وَلَيْسَ بِكَائِنٍ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِأُذُنِهِ مَا يَشَاءُ»^٢ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَواً كَبِيرًا، قَدْ كَانَ الرَّسُولُ يُوْحِي إِلَيْهِ مِنْ رَسْلِ السَّمَاءِ، فَيُبَلِّغُ رَسْلَ السَّمَاءِ رَسْلَ الْأَرْضِ، وَ قَدْ كَانَ الْكَلَامُ بَيْنَ رَسْلِ أَهْلِ الْأَرْضِ وَ بَيْنِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُرْسَلَ بِالْكَلامِ مَعَ رَسْلِ أَهْلِ السَّمَاءِ. وَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا

جبرئيل هل رأيت ربك؟ فقال جبرئيل: إِنَّ رَبِّي لَا يُرَى، فقال رسول الله ﷺ: من أين تأخذ الوحي؟ فقال: آخُذْهُ مِنْ إِسْرَافِيلَ، فقال: و من أين يأخذه إِسْرَافِيلُ؟ قال: يأخذه من ملك فوقه من الرُّوحَانِيِّينَ، قال: فمن أين يأخذه ذلك الملك؟ قال: يَقْذِفُ فِي قَلْبِهِ قَذْفًا، فهذا وحي، وهو كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وكلام الله ليس بنحو واحد، منه ما كَلَّمَ الله به الرُّسُلَ، منه ما قَذَفَهُ فِي قُلُوبِهِمْ، ومنه رؤيا يَرِيهَا الرُّسُلَ ومنه وحي و تنزيل يُنْزِلُ وَيُقْرَأُ فهو كلام الله، فَكَتَفَ بِمَا وَصَفْتُ لَكَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ فَإِنَّ مَعْنَى كَلَامِ اللَّهِ لَيْسَ بِنَحْوِ وَاحِدٍ، فَإِنَّ مِنْهُ مَا يُبَلِّغُ بِهِ رَسْلَ السَّمَاءِ رَسْلَ الْأَرْضِ. قال: فَرَجَّتْ عَنِّي فَرَجَ اللَّهِ عَنْكَ، وَحَلَلْتَ عَنِّي عَقْدَةً، فَعَظَّمَ اللَّهُ أَجْرَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. (ص: ٢٦٤)

٢- أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَاشِمٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي نَجْرَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَالْفَضْلِ ابْنِي مُحَمَّدٍ الْأَشْعَرِيِّينَ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ زُرَّارَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ جَعَلْتَ فِدَاكَ، الْغَشِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ تَصِيبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ: «ذَاكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ أَحَدٌ، ذَاكَ إِذَا تَجَلَّى اللَّهُ لَهُ». قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «تِلْكَ التَّبَوَّةُ يَا زُرَّارَةَ» وَأَقْبَلَ بِتَخَشُّعٍ. (ص: ١١٥).

ونصّه في «كمال الدين و تمام النعمة»

٣- إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَكُونُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ فَيُعْمَى عَلَيْهِ وَهُوَ يَتَصَابَّ عَرَفًا، فَإِذَا أَفَاقَ قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: كَذَا كَذَا، وَأَمْرُكُمْ بِكَذَا، وَنَهَاكُمْ عَنْ كَذَا. وَأَكْثَرُ مَخَالِفِنَا يَقُولُونَ: إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يَكُونُ عِنْدَ نَزُولِ جِبْرِئِيلَ ﷺ عَلَيْهِ، فَسُئِلَ الصَّادِقُ ﷺ عَنِ الْغَشِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَأْخُذُ النَّبِيَّ ﷺ أَكَانَتْ تَكُونُ عِنْدَ هَبُوطِ جِبْرِئِيلَ؟ فَقَالَ: لَا، إِنَّ جِبْرِئِيلَ ﷺ إِذَا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْتَأْذِنَهُ، فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ قَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَعْدَ الْعَبْدِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ عِنْدَ مَخَاطَبَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِيَّاهُ بِغَيْرِ تَرْجُمَانٍ وَوَاسِطَةٍ.

حَدَّثَنَا بِذَلِكَ ابْنُ إِدْرِيسَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلَوَانَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ ثَابِتٍ، عَنِ الصَّادِقِ ﷺ. (ص: ٨٥)

و نصّه في «علل الشرايع»

٤- حدّثنا عليّ بن أحمد بن عبد الله البرقيّ، قال: حدّثني أبي عن جدّه، عن ابن أبي عمير، عن عمرو بن جُمَيْع، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان جبرئيل إذا أتى النَّبِيَّ ﷺ قعد بين يديه قعده العبد، وكان لا يدخل حتّى يستأذنه». (ص: ٧)

٥- حدّثنا محمّد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقانيّ قال: حدّثنا أبو العباس أحمد بن إسحاق الماذرانيّ بالبصرة قال: حدّثنا أبو قلابَة عبد الملك بن محمّد قال: حدّثنا غانم بن الحسن السعديّ، قال حدّثنا مُسلم بن خالد المكيّ، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه عليه السلام قال: «ما أنزل الله تبارك و تعالى كتابًا ولا وحيًا إلّا بالعربيّة، فكان يقع في مسامع الأنبياء بالسنة قومهم، وكان يقع في مسامع نبيّنا ﷺ بالعربيّة، فإذا كَلَّمَ قومه كلّهم بالعربيّة، فيقع في مسامعهم بلسانهم، وكان أحدنا لا يخاطب رسول الله بأيّ لسان خاطبه إلّا وقع في مسامعه بالعربيّة، كلّ ذلك يترجم جبرئيل عليه السلام له و عنه تشريفًا من الله عزّ وجلّ له ﷺ».

(ص: ٥٣)

و نصّه في «الأمالي»

٦- الحسين بن إبراهيم الفزوينيّ، عن محمّد بن وهبان، عن أحمد بن إبراهيم بن أحمد، عن الحسن بن عليّ الزعفرانيّ، عن البرقيّ، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال بعض أصحابنا: أصلحك الله أكان رسول الله ﷺ يقول: قال جبرئيل، و هذا جبرئيل يأمرني، ثم يكون في حال أخرى يُعْمَى عليه؟ قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: أنّه إذا كان الوحي من الله إليه ليس بينهما جبرئيل أصابه ذلك لتقل الوحي من الله، و إذا كان بينهما جبرئيل لم يصبه ذلك فقال: قال لي جبرئيل، و هذا جبرئيل. (ص: ٦٦٣)

الفصل الثامن

نص الشيخ المفيد (م: ٤١٣) في «تصحيح الاعتقاد»

[بعد ذكر قول الصدوق كما تقدّم عنه آنفاً في أول الفصل السابق قال:]

هذا أخذه أبو جعفر رحمه الله من شواذ الحديث، وفيه خلاف؛ لما قدّمه من أن اللوح ملك من ملائكة الله تعالى. وأصل الوحي هو الكلام الخفي، ثم قد يطلق على كل شيء قصد به إفهام المخاطب على السّرّ له عن غيره، والتخصيص له به دون من سواه. وإذا أُضيف إلى الله تعالى كان فيما يخصّ به الرّسل صلى الله عليه وسلم عليهم خاصّة، دون من سواهم على عرّف الإسلام وشريعة النبي ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾^١. فاتفق أهل الإسلام على أن الوحي كان رؤيا مناماً أو كلاماً سمعته أمّ موسى في منامها على الاختصاص. قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾^٢ يريد به الإلهام الخفي؛ إذ كان خاصّاً لمن أفرد به دون من سواه، فكان علمه حاصلًا للنحل بغير كلام جهر به المتكلّم فأسمعه غيره.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾^٣، بمعنى ليوَسِّسون إلى أوليائهم بما يلقونه من الكلام في أقصى أسماعهم، فيخصّون بعلمهم دون من سواهم. وقال سبحانه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾^٤ يريد به أشار إليهم من غير إفصاح الكلام، شبه ذلك بالوحي لخفائه عنّ سوى المخاطبين، ولسرّه عنّ سواهم.

وقد يُري الله سبحانه وتعالى في المنام خلقاً كثيراً ما يصحّ تأويله ويثبت حقّه لكنّه لا يطلق بعد استقرار الشريعة عليه اسم الوحي، ولا يقال في هذا الوقت لمن أطلعه الله

على علم شيء: أنّه يُوحى إليه وعندنا أنّ الله تعالى يسمع الحجج بعد نبّيه ﷺ كلاماً يليقه إلهيم في علم ما يكون، لكنّه لا يطلق عليه اسم الوحي؛ لما قدّمناه من إجماع المسلمين على أنّه لا وحي إلى أحد بعد نبّينا ﷺ، وأنّه لا يقال في شيء ممّا ذكرناه: أنّه وحي إلى أحد، والله تعالى أن يبيح إطلاق الكلام أحياناً ويحظره أحياناً، ويمنع السّماع بشيء حيناً، ويطلقها حيناً، فأما المعاني فإنّها لا تتغيّر عن حقائقها على ما قدّمناه.

فأما الوحي من الله تعالى إلى نبّيه ﷺ فقد كان تارة بإسماعه الكلام من غير واسطة، وتارة بإسماعه الكلام على ألسن الملائكة. والذي ذكره أبو جعفر؛ من اللّوح والقلم وما ثبت فيه فقد جاء به حديث، إلّا أنا لا نعزم على القول به ولا نقطع على الله بصحّته، ولا نشهد منه إلّا بما علمناه، وليس الخبر به متواتراً يقطع العذر، ولا عليه إجماع، ولا نطق به القرآن، ولا ثبت عن حجّة الله تعالى فينقاد له، والوجه أن نقف فيه ونجوّز، ولا نقطع به ولا نجزم له ونجعله في حيّز الممكن.

فأما قطع أبي جعفر به وعلمه على اعتقاده فهو يستند إلى ضرب من التّقليد، ولنا من التّقليد في شيء. (تصحیح الاعتقاد: ٩٩)

و نصّه في «أوائل المقالات»

إنّ العقل لا يمنع من نزول الوحي إلهيم ﷺ وإن كانوا أئمّة غير أنبياء فقد أوحى الله عزّ وجلّ إلى أمّ موسى «أَنْ أَرْضِعِيهِ»^١ الآية، فعرفت صحّة ذلك بالوحي وعلمت عليه ولم تكن نبّياً ولا رسولاً ولا إماماً ولكنها كانت من عباده الصّالحين، وإنّما منعت نزول^٢ الوحي إلهيم والإيحاء بالأشياء إلهيم للإجماع على المنع من ذلك والاتّفاق على أنّه من زعم أن أحداً بعد نبّياً ﷺ يوحى إليه فقد أخطأ وكفر.

ولحصول العلم بذلك من دين النّبّي ﷺ كما أنّ العقل لم يمنع من بعثة نبّي بعد نبّينا ﷺ ونسخ شرعنا كما نسخ ما قبله من شرائع الأنبياء ﷺ وإنّما منع ذلك الإجماع و

العلم بأنه خلاف دين النبي ﷺ من جهة اليقين وما يقارب الاضطرار، والإمامية جميعاً على ما ذكرت ليس بينها فيه على ما وصفت خلاف....

ثم قال رحمه الله: القول في سماع الأئمة كلام الملائكة الكرام وإن كانوا لا يرون منهم الأشخاص، وأقول بجواز هذا من جهة العقل وإنه ليس بممتنع في الصديقين من الشيعة المعصومين من الضلال وقد جاءت بصحته وكونه للأئمة عليهم السلام ومن أسمى من شيعتهم الصالحين الأبرار الأخيار واضحة الحجة والبرهان، وهو مذهب فقهاء الإمامية وأصحاب الآثار منهم، وقد أباه «بنو نوبخت» وجماعة من الإمامية لا معرفة لهم بالأخبار ولا يمعنوا النظر ولا سلكوا طريق الصواب.

ثم قال رحمه الله: وأقول: إن منامات الرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام صادقة لا تكذب، وإن الله تعالى عصمهم عن الأحلام، وبذلك جاءت الأخبار عنهم عليهم السلام وعلى هذا القول جماعة فقهاء الإمامية وأصحاب النقل منهم، وأما متكلموهم فلا أعرف منهم نفيًا ولا إنباتًا ولا مسألة فيه ولا جوابًا، والمعتزلة بأسرها تخالفنا فيه انتهى. (ص: ٣٩-٤٢)

و نصّه في «الاختصاص»^٢

أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن ثعلبة بن ميمون، عن زرارة قال سألت أبا جعفر عليه السلام، عن قول الله عز وجل: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾: علمنا الرسول ومن النبي؟... [وذكر كما تقدم عن الضنار، الرقم ٤] (ص: ٣٢٨).

قرن إسرافيل برسول الله ﷺ ثلاث سنين يسمع الصوت ولا يرى شيئاً، ثم قرن به جبرئيل عليه السلام، عشرين سنة، وذلك حيث أوحى إليه فأقام بمكة عشر سنين، ثم هاجر إلى المدينة فأقام بها عشر سنين، وقبض ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة. (ص: ١٣٠)

أبو محمد بن الحسن بن حمزة الحسيني، عن محمد بن يعقوب، عن عدة من

أصحابه، عن أحمد بن محمد بن عيسى عن أبي يحيى الواسطي، عن هشام بن سالم، و
 درُست بن أبي منصور عنهم عليهم السلام، قال: إنّ الأنبياء المرسلين على أربع طبقات... [وذكر
 كما تقدّم عن الصّفّار، الرّقم ١]. (ص: ٢٢)

الفصل التاسع

نص الشريف المرتضى (م: ٤٣٦) في «الأمالى»

تأويل آية

إن سأل سائل عن تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾. الشورى ٥١ / فقال: أوليس ظاهر هذا الكلام يقتضي جواز الحجاب عليه أنتم تمنعون من ذلك؟ الجواب قلنا: ليس في الآية أكثر من ذكر الحجاب، وليس فيها أنه حجاب له تعالى أو لمحل كلامه أو لمن يكلمه وإذالم يكن في الظاهر شيء من ذلك جاز صرف الحجاب إلى غيره عز وجل، مما يجوز أن يكون محبوبًا. وقد يجوز أن يريد تعالى بقوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ أنه يفعل كلامًا في جسم يحتجب على المكلم، غير معلوم له على سبيل التفصيل، فيسمع المخاطب الكلام ولا يعرف محله على طريق التفصيل، فيقال على هذا: هو مكلم من وراء حجاب.

وروي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ قال: هو داود أوحى في صدره فزبر الزبور، ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ وهو موسى ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ وهو جبريل إلى محمد ﷺ.

فأما الجبائي فإنه ذكر أن المراد بالآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ﴾ إلا مثل ما يكلم به عباده من الأمر بطاعته، والنهي لهم عن معاصيه، وتنبيه إياهم على ذلك من جهة خاطر أو المنام، وما أشبه ذلك على سبيل الوحي.

قال: وإنما سمى الله تعالى ذلك وحياً لأنه خاطر وتنبيه، وليس هو كلاماً لهم على سبيل الإفصاح، كما يفصح الرجل منّا لصاحبه إذا خاطبه، والوحي في اللغة إنما هو

ماجرى مجرى الإيحاء والتنبية على شيء من غير أن يُفصح به؛ فهذا هو معنى ما ذكره الله تعالى في الآية.

قال: وعنى بقوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ أن يحجب ذلك الكلام عن جميع خلقه، إلّا مَنْ يُريد أن يكلمه به؛ نحو كلامه تعالى لموسى ﷺ، لأنّه حجب ذلك عن جميع الخلق إلّا موسى ﷺ وحده في كلامه إياه أولاً. فأما كلامه إياه في المرّة الثانية فإنّه إنّما أسمع ذلك موسى والسبعين الذين كانوا معه، وحجب عن جميع الخلق سواهم. فهذا معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ لأنّ الكلام هو الذي كان محجوباً عن الناس.

وقد يقال: إنّّه تعالى حجب عنهم موضع الكلام الذي أقام الكلام فيه؛ فلم يكونوا يدرون من أين يسمعون؛ لأنّ الكلام عزّض لا يقوم إلّا في جسم.

ولا يجوز أن يكون أراد بقوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ أن الله تعالى كان «مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ» يكلم عباده؛ لأنّ الحجاب لا يجوز إلّا على الأجسام المحدودة.

قال: وعنى بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ إرساله ملائكته بكتبه و بكلامه إلى أنبيائه ﷺ، ليبلّغوا عنه ذلك على سبيل إنزاله القرآن على محمد ﷺ وإنزاله سائر الكتب على أنبيائه.

فهذا أيضاً ضرب من الكلام الذي يكلم الله تعالى عباده ويأمرهم فيه بطاعته، و نهاهم عن معاصيه؛ من غير أن يكلمهم على سبيل ما كَلّم به موسى، وهذا الكلام هو خلاف الوحي الذي ذكره الله تعالى في أوّل الآية لأنّه قد أفصح لهم في هذا الكلام بما أمرهم به و نهاهم عنه. والوحي الذي ذكره تعالى في أوّل الآية إنّما هو تنبيه و خاطر، و ليس فيه إفصاح وهذا الذي ذكره أبو علي أيضاً سديد، والكلام محتمل لما ذكره.

و يمكن في الآية وجه آخر، وهو أن يكون المراد بالحجاب البعد والخفاء، ونفي الظهور. وقد تستعمل العرب لفظة «الحجاب» فيما ذكرناه؛ يقول أحدهم لغيره إذا استبعد فهمه، و استبطأ فطنته: بيني وبينك حجاب، و تقول للأمر الذي تستبعده و تستصعب طريقه: بيني وبين هذا الأمر حجب و موانع و سواتر؛ وما جرى مجرى ذلك؛ فيكون معنى الآية: أنّه تعالى لا يكلم البشر إلّا وحيًا؛ بأن يُخطر في قلوبهم، أو بأن ينصب لهم أدلّة

تَدَلُّهم على ما يريدُه أو يكرهه منهم؛ فيكون من حيث نصبها للدلالة على ذلك والإرشاد إليه مخاطبًا ومكلمًا للعباد بما يدلُّ عليه. وجعل هذا الخطاب من وراء حجاب من حيث لم يكن مسموعًا - كما يُسمع الخاطر وقول الرُّسول - ولا ظاهرًا معلومًا لكلٍّ من أدركه؛ كما أنَّ أقوال الرُّسل المؤدِّين عنه تعالى من الملائكة بهذه الصِّفة. فصار الحجاب هاهنا كناية عن الخفاء وعبارة عمَّا تدلُّ عليه الدلالة. وليس لأحد أن يقول إنَّ الذي تدلُّ عليه الأجسام من صفاته تعالى وأحواله ومراده ولا يقال: إنَّه تعالى مكلمٌ لنا به؛ وذلك أنَّه غير ممتنع على سبيل التَّجَوُّز أن يقال فيما يدلُّ عليه الدليل الذي نصَّه الله تعالى ليدلَّ على مراده، ويرشد إليه: إنَّه مكلمٌ لنا ومخاطب به؛ ولا يمتنع المسلمون أن يقولوا: إنَّه تعالى خاطبنا بما دلَّت عليه الأدلَّة العقلية، وأمرنا بعبادته واجتناب ما كرهه ممَّا، وفعل ما أَرادَه، وهكذا يقولون فيمن فعل فعلاً يدلُّ على أمر من الأمور: قد خاطبنا فلان بما فعل من كذا وكذا، وقال لنا، وأمرنا وزَجَرنا، وما أشبه ذلك من الألفاظ التي يُجرونها على الكلام الحقيقي. وهذا الاستعمال أكثر وأظهر من أن يورد أمثلته ونظائره. (٢: ٢٠٥ - ٢٠٧)

سئل المرتضى: نزول جبرئيل بالوحي في صورة دحية الكلبي كيف كان يتصوَّر غير صورته؟ هو القادر عليها، أو القديم تعالى يشكِّل صورة وليست صورة جبرئيل؟ فإن كان الذي يسمع من القرآن من صورة غير جبرئيل ففيه ما فيه، وإن كان من جبرئيل فكيف يتصوَّر بصورة للبشر؟ وهذه القدرة قد رويت أنَّ إبليس يتصوَّر وكذلك الجنُّ، أريد أن توضَّح أمر ذلك. وما كان يسمعه جبرئيل من الوحي من الباري تعالى أو من حجاب وكيف كان يبلغه؟ وهل جبرئيل يعلم من صفات الباري أكثر ممَّا نعلمه أو مثله؟ وأين محلُّه من السَّماء؟ وهل القديم إذا خطر ببال جبرئيل يكون متحيِّرًا فيه مثلنا، ويكون سبحانه لا تدركه الأوهام أو ميَّزه علينا وجميع الملائكة أيضًا؟

فأجاب رحمه الله بأنَّ نزول جبرئيل بصورة دحية كان بمسألة من النَّبي ﷺ الله تعالى في ذلك، فأما تصوُّره فليس بقدرته، بل الله يصوِّره كذلك صورة حقيقة لا تشكيل، والذي كان يسمعه النَّبي ﷺ من القرآن كان من جبرئيل في الحقيقة، وأمَّا إبليس والجنُّ فليس يقدرُون على التَّصوُّر، وكلُّ قادر بقدرة فحكمهم سواء في أنَّهم لا يصحُّ أن يصوِّروا

نفوسهم، بل إن اقتضت المصلحة أن يتصور بعضهم بصورة صورته الله للمصلحة، فأما جبرئيل عليه السلام وسماعه الوحي فيجوز أن يكلمه الله بكلام يسمعه فيتعلمه، ويجوز أن يقرأه من اللوح المحفوظ، فأما ما يعلم جبرئيل من صفات الله فطريقه الدليل، وهو والعلماء فيه واحد. فأما محلّه من السماء فقد روي أنه في السماء الرابعة. فأما ما يخطر بباله فلا يجوز أن يتحيّر فيه، لأن جبرئيل معصوم لا يصحّ أن يفعل قبيحاً (أه). وفي بعض ما أفاده نظر لا يخفى على المتأمل. (عنه: المجلسي في البحار ٥٩: ٢٠٩ - ٢١٠)

الفصل العاشر

نص البيهقي (م: ٤٥٨) في «الأسماء والصفات»

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا...﴾ الشورى ٥١.

قال بعض أهل التفسير: فالوحي الأول ما أرى الله سبحانه وتعالى الأنبياء ﷺ في منامهم، كما أمر إبراهيم ﷺ في منامه بذبح ابنه، فقال فيما أخبر عن إبراهيم ﷺ: «إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَبِي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ^١ قال الإمام المطلبي الشافعي رحمه الله: قال غير واحد من أهل التفسير: رؤيا الأنبياء وحي، لقول ابن إبراهيم الذي أمر بذبحه: «افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ».

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أحمد بن محمد بن عبدوس ثنا عثمان بن سعيد الدارمي، ثنا علي بن المديني، ثنا سفيان، قال: قال عمرو - هو ابن دينار - سمعت عبيد بن عمير يقول: رؤيا الأنبياء وحي، وقرأ: «إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَبِي أَذْبَحُكَ...» رواه البخاري في الصحيح عن علي بن المديني، ورويناه في ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأما الكلام من وراء حجاب فهو كما كلم موسى ﷺ من وراء حجاب، والحجاب المذكور في هذا الموضع وغيره يرجع إلى الخلق دون الخالق.

أخبرنا أبو علي الحسين بن محمد الروذباري أنا أبو بكر بن داسه، ثنا أبو داود، ثنا أحمد بن صالح، ثنا ابن أوهب، قال: أخبرني هشام بن سعد عن يزيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «إِنَّ مُوسَى ﷺ قَالَ: «يَا رَبِّ ارْنَا الَّذِي أَخْرَجَنَا وَنَفْسَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَأَرَاهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ آدَمَ ﷺ، فَقَالَ: أَنْتَ أَبُونَا آدَمُ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمُ:

نعم، قال أنت الذي نفخ الله فيك من روحه؟ وعلّمك الأسماء كلّها وأمر الملائكة فسجدوا لك؟ قال: نعم، قال: فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ قال له آدم: و من أنت؟ قال: أنا موسى، قال: أنت موسى بنى إسرائيل الذي كلّمك الله من وراء حجاب^١ لم يجعل الله بينك وبينه رسولا من خلقه؟ قال: نعم، قال: فما وجدت أن ذلك كان في كتاب الله عزّ وجلّ قبل أن أخلق؟ قال: نعم، قال: فبم تلومني في شيء سبق من الله عزّ وجلّ فيه القضاء قبلي؟ قال رسول الله ﷺ عند ذلك: فحجّ آدم موسى، فحجّ آدم موسى.

وأما الكلام بالرّسالة فهو إرساله الرّوح الأمين بالرّسالة إلى من شاء من عباده، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ^٢﴾.

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبوسعيد بن أبي عمرو، قالوا: ثنا أبو العباس محمّد بن يعقوب، ثنا هلال بن العلاء الرّقّي، ثنا عبد الله بن جعفر، ثنا المُعْتَمِر بن سليمان، ثنا سعيد بن عُبيد الله الثّقفي، أنا بكر بن عبد الله المُزنيّ وزياد بن جُبَيْر عن جُبَيْر بن حَبّة، فذكر الحديث

١ - وفي شرح المقاصد: موسى عليه السلام بأنّه كليّم الله تعالى فيه أوجه:

أحدها - وهو اختيار الغزالي أنّه سمع كلامه الأزليّ بلا صوت ولا حرف، كما ترى في الآخرة ذاته بلا كلّ ولا كيف، وهذا على مذهب من يجوز تعلّق الرّؤية والسماع بكلّ موجود حتّى الدّات والصفات، ولكن سماع غير الصّوت والحرف لا يكون إلّا بطريق خرق العادة.

وثانيها - أنّه سمعه بصوت من جميع الجهات على خلاف ما هو العادة.

وثالثها - أنّه سمع من جهة لكن بصوت غير مكتسب للعباد على ما هو شأن سماعنا. وحاصله أنّه أكرم موسى عليه السلام فأفهمه كلامه بصوت تولّى بخلقه من غير كسب لأحد من خلقه، وإلى هذا ذهب أبو منصور الماتريديّ وأبو إسحاق الإسفراينيّ.

وقال الإسفراينيّ: اتفقوا على أنّه لا يمكن سماع غير الصّوت، إلّا أنّ منهم من بتّ القول بذلك، ومنهم من قال: لما كان المعنى القائم بالنفس معلوماً بواسطة سماع الصّوت كان مسوعاً فلا اختلاف لفظيّ لا معنويّ. اهـ والصّوت سواء كان من جهة أو الجهات كلّها حادث مخلوق لا يقوم بالله سبحانه. وفي طبقات الحنابلة لأبي الحسين بن أبي يعلى عند ترجمة أبي العباس الإصطخريّ في صدد ذكر عقيدة أحمد: «... وكلم الله موسى تكليماً من فيه، وناوله التّوراة من يده إلى يده»، ومن هذا يعلم مبلغ ضلال هؤلاء المجسّمة المتسرّين بالانتساب إليه زوراً وحاش لله أن يكون الإمام أحمد يثبت لله فعلاً، وما إلى ذلك من وجوه الضلال في العقيدة المعزّوة إليه هناك.

الطَّوِيل فِي بَعَثِ التُّعْمَانِ بْنِ مُقْرِنٍ إِلَى أَهْلِ الْأَهْوَازِ، وَ أَنَّهُمْ سَأَلُوا أَنْ يُخْرَجَ إِلَيْهِمْ رَجُلًا، فَأَخْرَجَ الْمُغِيرَةَ بْنَ سَعْبَةَ، فَقَالَ تَرْجِمَانُ الْقَوْمِ: مَا أَنْتُمْ؟ فَقَالَ الْمُغِيرَةُ: نَحْنُ نَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ، كُنَّا فِي شِقَاءٍ شَدِيدٍ، وَ بَلَاءٍ طَوِيلٍ، نَمُصُّ الْجِلْدَ وَ النَّوْءُ مِنَ الْجُوعِ، وَ نَلْبَسُ الْوَبَرَ وَ الشَّعْرَ، وَ نَعْبُدُ الشَّجَرَ وَ الْحَجَرَ، فَبَيَّنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَ رَبُّ الْأَرْضِ إِلَيْنَا نَبِيًّا مِنْ أَنْفُسِنَا نَعْرِفُ أَبَاهُ وَ أُمَّهُ، فَأَمَرْنَا نَبِيَّنَا رَسُولَ رَبِّنَا ﷺ أَنْ نَقَاتِلَكُمْ حَتَّى تَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، أَوْ تُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ.

وَ أَخْبَرَنَا نَبِيَّتَانِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ رِسَالَةِ رَبَّنَا أَنَّهُ مِنْ قُتِلَ مِنَّا صَارَ إِلَى جَنَّةٍ وَ نَعِيمٍ لَمْ يَرِ مِثْلُهُ قَطًّا، وَ مِنْ بَقِيَ مِنَّا مَلَكَ رِقَابِكُمْ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ عَنْ فَضْلِ بْنِ يَعْقُوبَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ. أَخْبَرَنَا أَبُو نَصْرٍ عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ قَتَادَةَ، أَنَا أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ ابْنُ زَكَرِيَّا الْأَدِيبُ، ثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ زِيَادِ الْقَبَّانِيِّ ثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَنَا وَهَبُ ابْنُ جَرِيرٍ، ثَنَا أَبِي، ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، وَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَثْبَةَ وَ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَ صَوَّبَ الْحَدِيثَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا فَتَنَ أَصْحَابَهُ بِمَكَّةَ أَشَارَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَلْحَقُوا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ»، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَ قَالَ فِيهِ: فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ لِلنَّجَاشِيِّ: «بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْنَا رَسُولًا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَ صِدْقَهُ وَ عَفَافَهُ، فَدَعَا [نَا] إِلَى أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَ نَخْلَعُ مِنْ يَعْبُدُ قَوْمَهُ وَ غَيْرَهُمْ مِنْ دُونِهِ، وَ أَمَرَنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَ نَهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَ أَمَرَنَا بِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَ الصِّيَامِ وَ صَلَاةِ الرَّحْمِ، وَ كُلِّ مَا نَعْرِفُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، وَ تَلَا عَلَيْنَا تَنْزِيلًا لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ غَيْرُهُ، فَصَدَّقْنَاهُ وَ آمَنَّا بِهِ، وَ عَرَفْنَا أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ».

قُلْتُ: وَ قَدْ كَانَ لِنَبِيِّنَا ﷺ جَمِيعُ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ، أَمَّا الرِّسَالَةُ فَقَدْ كَانَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ يَأْتِيهِ بِهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَ أَمَّا الرُّوْيَا فِي الْمَنَامِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْوَهْيَ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾^١ وَ ذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَرَى وَ هُوَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ أَنَّهُ يَدْخُلُ

مكة هو وأصحابه آمنين مُحلّقين رؤوسهم ومقصرين، فقال له أصحابه حين نحر بالحديبية: أين رؤياك يا رسول الله ﷺ؟ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ - إِلَى قَوْلِهِ - فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، يعني النحر بالحديبية، ثم رجعوا ففتحوا خيبر، ثم اعتمر بعد ذلك، فكان تصديق رؤياه ﷺ في السنة المُقبلة.

أخبرنا بذلك أبو عبدالله الحافظ، أنا عبدالرحمان بن الحسن القاضي، ثنا إبراهيم بن الحسين، ثنا آدم، ثنا ورقاء عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد ذكره.

ورؤينا عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أول ما بُدِيَ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، وكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»، تريد ضياء الصبح إذا انفلق.

وأما التكليم فقد قال الله عز وجل: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾^١ ثم كان فيما إليه ليلة المعراج خمسين صلاة، فلم يزل يسأل ربه التخفيف لأُتمته حتى صار إلى خمس صلوات، وقال له ربه تبارك وتعالى: إنني لا يبدل القول لدي، هي كما كتبت عليك في أم الكتاب، و لك بكل حسنة عشر أمثالها، هي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك. وقد مضى الحديث فيه.

واختلف الصّحابة رضي الله عنهم في رؤيته ربه عز وجل، فذهبت عائشة رضي الله عنها إلى أنه ﷺ لم يره ليلة المعراج، وذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنه ﷺ رآه ليلة المعراج.

وقد ذهب الزُّهري رحمه الله في تقسيم الوحي إلى زيادة بيان، وذلك فيما أخبرنا أبو عبدالرحمان السلمي، أنا أبو الحسن المحمودي، ثنا أبو عبدالله محمد بن علي الحافظ، ثنا أبو موسى محمد بن المثنى، ثنا حجاج بن منهال، ثنا عبد الله بن عمر، عن يونس بن يزيد: سمعت الزُّهري حين سئل عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ...﴾ قال: نزلت هذه الآية تعم من أوحى الله إليه من النبيين، قال: فالكلام كلام الله تعالى الذي كلم به موسى من وراء حجاب، والوحي ما يوحى الله به إلى

النَّبِيِّ من أنبيائه فيثبَّت الله تعالى ما أراد من وحيه في قلب النَّبِيِّ، فيتكلَّم به النَّبِيُّ عليه الصَّلَاة والسلام وبيئته، وهو كلام الله ووحيه. ومنه ما يكون بين الله ورسله لا يكلم به أحد من الأنبياء أحدًا من النَّاس، ولكنه سرٌّ غُيِّب بين الله ورسله.

ومنه ما يتكلَّم به الأنبياء ولا يكتبونه لأحد ولا يأمرُون بكتابتِه، ولكنهم يحدثُون به النَّاس حديثًا، ويبيِّنون لهم أَنَّ الله تعالى أمرهم أن يبيِّنوه للنَّاس ويبلِّغُوهم.

ومن الوحي ما يرسل الله به من يشاء فيوحون به وحيًا في قلوب من يشاء من رسله، وقد بيَّن الله عزَّ وجلَّ لنا في كتابه أَنَّهُ يرسل جبرئيل عليه السلام إلى مُحَمَّد ﷺ قال الله عزَّ وجلَّ في كتابه: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^١ وذكر أَنَّهُ الرُّوح الأمين فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾^٢ الآية. فذهب في الوحي الأوَّل إلى أَنَّهُما يوحى الله به إلى النَّبِيِّ فيثبَّت ما أراد من وحيه في قلبه، فيتكلَّم به النَّبِيُّ، وهذا يجمع حال البيقظة وال النوم. وذهب فيما يوحى الله تعالى إلى النَّبِيِّ بإرسال الملك إليه إلى أَنَّهُ يكون على نوعين: أحدهما - أن يأتيه الملك فيكلِّمه بأمر الله تكليمًا.

والآخر - أن يأتيه فيلقى في روعه ما أمره الله عزَّ وجلَّ، وكلَّ ذلك بيَّن في الأخبار. أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد بن غالب الخوارزمي الحافظ ببغداد، ثنا أبو العباس محمد بن أحمد النيسابوري، ثنا منجاب ابن الحارث، ثنا علي بن مسهر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: ... [وذكر كما تقدَّم عن النَّسائي الرُّقم ٢، ثم قال:]

أخبرنا أبو سعيد بن أبي عمرو في آخرين قالوا: ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، أنا الربيع بن سليمان، أنا الشافعي، أنا عبدالعزيز بن محمد عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب، عن المطلب بن حنطب عليه السلام قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما تركت شيئًا ممَّا أمركم الله به إلَّا وقد أمرتكم به، ولا تركت شيئًا ممَّا نهاكم الله عنه إلَّا وقد نهيتكم عنه، وإنَّ الرُّوح الأمين قد ألقى في روعي أَنَّهُ لن تموت نفس حتَّى تستوفي رزقها، فأجملوا في الطلب». وقال بعضهم عن أبي العباس: «قد نفث في روعي» وقد رَوَيْنَاهُ في كتاب

المدخل وغيره من حديث ابن مسعود مرسلًا ومتصلاً.

ثم ذهب الزُّهريّ في الوحي إلى أنّ منه ما كان سرًّا فلم يحدث به النبيّ أحدًا، ومنه ما لم يكن سرًّا فحدث به الناس، غير أنّه لم يكن مأمورًا بكتّبه قرآنًا، فلم يُكتب فيما كُتب من القرآن، قلت: ومنه ما كان مأمورًا بكتّبه قرآنًا، فكتب فيما كُتب من القرآن.

أخبرنا أبو عمرو ومحمد بن عبد الله الأديب، أنا أبو بكر الإسماعيليّ، أخبرني الحسن بن سفيان، ثنا قتيبة بن سعيد، ثنا أبو عوانة عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله عزّ وجلّ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾^١. [وذكر كما تقدّم عن البخاريّ في باب كيفية النزول] ... (١٩٢-١٩٨).

الفصل الحادي عشر

نص الطوسي (م: ٤٦٠) في «تفسير التبيان»

[كيفية الوحي وأقسامه في القرآن]

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا...﴾ الشورى ٥١

يقول الله تعالى: إنه ليس لبشر من الخلق أن يكلمه الله إلا أن يوحى إليه وحياً، ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾، معناه أو بكلام بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب، لأنه تعالى لا يجوز عليه ما لا يجوز إلا على الأجسام من ظهور الصورة للأبصار، ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ فإن جعلناه عطفًا على إرسال الرسول، كان أحد أقسام الكلام كما قلناه في قولهم: عتابك السيف، كأنه قال: إلا وحياً أو إرسالاً، وإن لم تجعله عطفًا لم يكن أحد أقسامه، ويكون كقولهم: لألزمك أو تعطيني حقّي، فلا يكون الإرسال في هذا الوجه كلامًا، فيكون كلام الله لعباده على ثلاثة أقسام:

أولها - أن يسمع منه كما يسمع من وراء حجاب، كما خاطب الله به موسى عليه السلام.

الثاني - يوحى يأتي به الملك إلى النبي من البشر كسائر الأنبياء.

الثالث - بتأدية الرسول إلى المكلفين من الناس.

وقيل في الحجاب ثلاثة أقوال:

أحدها - حجاب عن إدراك الكلام لا المتكلم وحده.

الثاني - حجاب لموضع الكلام.

الثالث - أنه بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب.

﴿فَيُوحَىٰ بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ معناه أن ذلك الرسول الذي هو الملك يوحى إلى النبي من البشر بأمر الله ما شاءه الله.

﴿إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ معناه أن كلامه المسوع منه لا يكون مخاطبة يظهر فيها المتكلم بالرؤية، لأنه العلي عن الإدراك بالأبصار، وهو الحكيم في جميع أفعاله وفي كيفية خطابه لخلقه.

وقال السدي: معنى الآية أنه لم يكن لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً بمعنى إلا إلهاماً بخاطر أو في منام أو نحوه من معنى الكلام إليه في خفاء، ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ يحجبه عن إدراك جميع الخلق إلا عن المتكلم الذي يسمعه كما سمع موسى كلام الله. ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ يعني به جبرائيل. (٩: ١٧٥)

[كان الشياطين يسترقون السمع قبل بعثة النبي ﷺ]

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ...﴾

الحجر/ ١٦- ١٨

أخبر الله تعالى أنه جعل في السماء بروجاً، والجعل قد يكون تصوير الشيء عن صفة لم يكن عليها، وقد يكون بالإيجاد له. والله تعالى قادر أن يجعل في السماء بروجاً من الوجهين، والبرج: ظهور منزل ممتنع بارتفاعه، فمن ذلك برج الحصن، وبرج من بروج السماء الاثني عشر، وهي منازل الشمس والقمر. وأصله الظهور، يقال: تبرجت المرأة، إذا أظهرت زينتها. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: المراد بالبروج النجوم.

وقوله ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ يحتمل أن تكون الكناية راجعة إلى السماء وإلى البروج. وحفظ الشيء جعله على ما ينفي عنه الضياع، فمن ذلك حفظ القرآن بدرسه ومراعاته، حتى لا ينسى، ومنه حفظ المال بإحرازه بحيث لا يضيع بتخطف الأيدي له، وحفظ السماء من كل شيطان بالمنع بما أعد له من الشهاب. والرجم بمعنى المرجوم، والرجم الرمي بالشيء بالاعتماد من غير آلة مهيأة للإصابة، فإن النفوس يرمى عنها ولا ترجم.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ معنى ﴿إِلَّا﴾ (لكن) فكأنه قال: لكن من استرق السمع من الشيطان يتبعه شهابٌ مبين. قال الفراء: أي لا يخطيء، وقال المفسرون: قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ مثل قوله: ﴿إِلَّا مَنِ خَطَفَ الْخُطْفَةَ﴾^١ ومعناه معناه، والاستراق: أخذ الشيء، خفياً، وليس طلبهم استراق السمع مع علمهم بالشُّهْب خروج عن العادة في صفة العقلاء، لأنهم قد يطمعون في السلامة من بعض الجهات، والشُّهَاب: عمود من نور يمدُّ لشدة ضيائه كالنَّار، وجمعه شُهْب. قال ابن عباس: بالشُّهَاب يخبل ويحرق، ولا يقتل. وقال الحسن: يقتل، قال ذو الرِّمَّة:

كَأَنَّهُ كَوَكَبٌ فِي إِثَرِ عَفْرِيةٍ مَسُومٌ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبٍ
وقال الفراء: قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ استثناء صحيح؛ لأنَّ الله تعالى لم يحفظ السماء ممَّن يصعد إليها ليسترق السمع، ولكن إذا سمعه وألقاه إلى الكَهَنَةِ أتبعه شهابٌ مبينٌ، فأما استراقهم السمع، فقال المفسرون: إنَّ فيهم من كان يصعد السماء فيسمع الوحي من الملائكة، فإذا نزل إلى الأرض أغوى به شياطينه أو ألقاه إلى الكُهَّان، فيغويون به الخلق، فلما بعث الله تعالى نبيَّه ﷺ منعهم من ذلك، وكان قبل البعثة لم يمنعهم من ذلك تغليظاً في التَّكْلِيف. قال الرَّجَّاج: والدليل على أنَّه لم يكن ذلك قبل النَّبِيِّ أنَّ أحداً من الشُّعراء لم يذكره قبل بعثة النَّبِيِّ ﷺ مع كثرة ذكرهم الشُّهْب بعد ذلك. (٦: ٣٢٤ - ٣٢٥)

﴿وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا...﴾ الجن ٨ / ١٠
ثم حكى أنَّ الجنَّ قالت: ﴿إِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾، أي مسسناها بأيدينا. وقال الجُبَّائي: معناه إِنَّا طلبنا الصُّعُودَ إلى السماء، فعبر عن ذلك باللمس مجازاً، وإنما جاز من الجنِّ تَطَلُّبُ الصُّعُودِ مع علمهم بأنَّهم يرمون بالشُّهْب لتجوزهم أن يصادفوا موضعاً يصعدون منه ليس فيه ملك يرميهم بالشُّهْب، أو اعتقدوا أنَّ ذلك غير صحيح، ولم يصدِّقوا من أخبرهم بأنَّهم رمو حين أرادوا الصُّعُود.

﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾: نصب ﴿حَرَسًا﴾ على التَّمْيِيز، و ﴿شَدِيدًا﴾

نعته، و ﴿شُهَبًا﴾: عطف على ﴿حَرَسًا﴾، فهو نصب أيضاً على التمييز، وتقديره مُلئت من الحرس. و الشُّهْبُ: جمع شهاب، وهو نور يمتد من السماء من النجم كالتار، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾^١. والحرَس: جمع حارس، وقيل: إن السماء لم تحرس قط إلا لنبوة أو عقوبة عاجلة عامة.

ثم حكى أنهم قالوا أيضاً: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ أي لم يكن فيما مضى منع من الصعود في المواضع التي يسمع منها صوت الملائكة وكلامهم، ونسمع ذلك، فالآن من يستمع منا ذلك يجد له شهاباً يرمى به و يُرصد، ﴿شِهَابًا﴾ نصب على أنه مفعول به، و ﴿رَصَدًا﴾ نعته.

ثم حكى أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي﴾ بما ظهر من هذه الآية العجبية ﴿أَشْرَأُ رَيْدٍ يَمْنُ فِي الْأَرْضِ﴾ من الخلق، أي إهلاكاً لهم بكفرهم وعقوبة على معاصيهم ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ وهداية إلى الحق بأن بعث نبياً، فإن ذلك خاف عناً. وقال قوم: إن الشُّهْب لم تكن قبل النبي ﷺ وإما رموا به عند بعثته ﷺ وقال آخرون: الشُّهْب معلوم أنها كانت فيما مضى من الزمان، ولكن كثرت في زمن النبي ﷺ وعمت لا أنها لم تكن أصلاً. قال البلخي: الشُّهْب كانت لا محالة، غير أنه لم تكن تمتنع بها الجن عن صعود السماء، فلما بعث النبي ﷺ منع الجن من الصعود. (١٥٠-١٤٩: ١٥٠)

و نصّه أيضاً في «الأمال»

[رؤية عليّ عليه السلام جبريل بصورة دحية]

و عنه^٢ قال: أخبرنا جماعة عن أبي المفضل، قال: حدّثنا عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني، قال: حدّثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد النهشلي شاذان قال: حدّثنا زكريّا بن يحيى الخزاز قال: حدّثنا مَنذَل بن عليّ الغنزي عن الأعمش، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ في بيته، فغدا إليه عليّ عليه السلام في الغداة، و

كان يحب أن لا يسبقه إليه أحد، فدخل فإذا النبي ﷺ في صحن الدار، وإذا رأسه في حجر دحية بن خليفة الكلبي، فقال: السلام عليك، كيف أصبح رسول الله ﷺ قال: بخير، يا أخا رسول الله. فقال علي ﷺ جزاك الله عنا أهل البيت خيراً. قال له دحية: إني أحبك، وإن لك عندي مديحة أهديتها إليك: أنت أمير المؤمنين، وقائد الغر المحجلين، وسيد ولد آدم ما خلا التبيين والمرسلين، لواء الحمد بيدك يوم القيامة، تُرَفَّ أنت وشيعتك مع محمد ﷺ وحزبه إلى الجنان، قد أفلح من والاك، وخاب وخسر من خلاك، محبب محمد ﷺ ومحبوك، ومبغضوه مبغضوك، لا تنالهم شفاعة محمد ﷺ أدن من صفوة الله. فأخذ رأس النبي ﷺ فوضعه في حجره، فانتبه النبي ﷺ فقال: ما هذه الهمهمة؟ فأخبره الحديث، فقال: لم يكن دحية، كان جبرئيل عليه السلام، سمّاك باسم سمّاك الله تعالى به، وهو الذي ألقى محبتك في قلوب المؤمنين، ورهبتك في صدور الكافرين. (ص: ٦٠٤)

الفصل الثاني عشر

نص الشيخ الطبرسي (م: ٥٤٨) في «مجمع البيان»

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. سبأ / ٢٣

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي كشف الفزع عن قلوبهم، واختلف في الضمير في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ فقيل: يعود إلى المشركين الذين تقدّم ذكرهم، فيكون المعنى حتّى إذا أخرج عن قلوبهم الفزع وقت الفزع، ليسمعوا كلام الملائكة. ﴿قَالُوا﴾ أي قالت الملائكة لهم: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ أي قال هؤلاء المشركون مجيبين لهم: ﴿الْحَقَّ﴾ أي قال: الحق، فيعترفون أنّ ما جاء به الرّسل كان حقّاً، عن ابن عبّاس وغيره. وقيل: يعود إلى الملائكة، ثمّ اختلف فيه على وجوه:

أحدها - أنّ الملائكة إذا صعدوا بأعمال العباد ولهم زجل و صوت عظيم، فتحسب الملائكة أنّها السّاعة فيخروّن سُجّداً ويفزعون، فإذا علموا أنّه ليس ذلك قَالُوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ فصعقوا لذلك، فجعل جبرئيل يمرّ بكلّ سماء ويكشف عنهم الفزع، فرفعوا رؤوسهم وقال بعضهم لبعض: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ يعني الوحي، عن مُقاتل والكلبي.

و ثانيها - أنّ الفترة لما كان بين عيسى عليه السلام ومحمّد ﷺ وبعث الله محمّداً أنزل الله سبحانه جبرئيل بالوحي، فلمّا نزلت ظنّت الملائكة أنّه نزل بشيء من أمر السّاعة.

و ثالثها - أنّ الله إذا أوحى إلى بعض ملائكة لحق الملائكة غشي عند سماع الوحي،

و يصعقون و يخرون سُجَّدًا لِلآيَةِ الْعَظِيمَةِ، ﴿فَإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ سألت الملائكة ذلك الملك الذي أوحى إليه: ماذا قال ربك؟ أو يسأل بعضهم بعضاً، فيعلمون أَنَّ الأمر في غيرهم، عن ابن مسعود، واختاره الجُبَّائِيّ. (٤: ٣٨٩)

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا...﴾

الشورى / ٥١-٥٢

ثم ذكر سبحانه أجلّ النعم وهي النبوة، فقال ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ﴾ أي ليس لأحد من البشر أن يكلمه الله ﴿إِلَّا﴾ أن يوحى إليه ﴿وَخَيًّا﴾ وهو داود أوحى في صدره فزبر الزبور ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ أي أو يكلمه من وراء حجاب، وهو موسى عليه السلام، ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ وهو جبرائيل أرسل إلى محمد صلى الله عليه وسلم، عن مجاهد....

[ثم ذكر كلام الجُبَّائِيّ والشَّرِيف المرتضى في تفسير الآية المذكورة، كما تقدّم عنه، فقال:].
وقال الرَّجَّاج: معناه أَنَّ كلام الله للبشر إمّا أن يكون بالهام يلهمهم، أو بكلام من وراء حجاب كما كلم موسى، أو برسالة ملك إليهم، فيوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن الله ما يشاء الله ﴿إِنَّهُ عَلِيُّ﴾ عن الإدراك بالأبصار ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله.
﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ مثل ما أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحينا إليك، ﴿رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ يعني الوحي بأمرنا، ومعناه: القرآن لأنّه يهتدى به، ففيه حياة من موت الكفر، عن قتادة والجُبَّائِيّ وغيرهما. وقيل: هو روح القدس، عن السُّدِّيّ، وقيل: هو ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قالوا: ولم يصعد إلى السماء وأنه لفينا. ﴿مَا كُنْتَ تَذَرِي﴾ يا محمد قبل الوحي ﴿مَا الْكِتَابَ وَ لَا الْإِيمَانَ﴾ أي ما القرآن ولا الشرائع ومعالم الإيمان... (٥: ٣٧)

[كيفية رؤيته صلى الله عليه وسلم جبرئيل بصورته الأصلية]

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى...﴾^١ يعني جبرئيل عليه السلام، أي القوي في نفسه وخلقته،

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، أي ذو قوّة وشدة في خلقه، ومن قوّته أنّه اقتلع قُرَى قوم لوط، ومن شدّته صيحته لقوم ثمود حتّى هلكوا. وقيل: ذو صحّة وخلق حسن عن ابن عباس وقتادة، و قيل: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ في ذات الله، ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، أي صحّة في الجسم، سليم من الآفات والعيوب، وقيل: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي ذو مرور في الهواء ذاهباً وجائياً ونازلاً وصاعداً. عن الجُبَّائِي. ﴿فَاسْتَوَى﴾ أي جبرئيل على صورته التي خلق عليها بعد انحداره إلى محمّد ﷺ ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ يعني أفق المشرق، والمراد من الأعلى، جانب المشرق وهو فوق جانب المغرب في صعيد الأرض لا في الهواء، قالوا: إنّ جبرئيل ﷺ كان يأتي النَّبِيَّ ﷺ في صورة الآدميين، فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورته التي خلق عليها، فأراه نفسه مرّتين: مرّة في الأرض، ومرّة في السّماء، أمّا في الأرض ففي الأفق الأعلى، وذلك أنّ محمّداً ﷺ كان بحراء فطلع له جبرئيل ﷺ من المشرق، فسدّ الأفق إلى المغرب، فخرّ النَّبِيُّ ﷺ مغشياً عليه، فنزل جبرئيل ﷺ في صورة الآدميين، فضمّه إلى نفسه، وهو قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ وتقديره ثمّ تدلّى، أي قَرَّبَ بعد بعده وعلّوه في الأفق الأعلى فدنا من محمّد ﷺ.

قال الحسن وقتادة: ثمّ دنا جبرئيل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض فنزل إلى محمّد ﷺ، وقال الرَّجَّاج: معنى دنا وتدلّى واحد، أي قرب فزاد في القرب، وقيل: ﴿فَاسْتَوَى﴾، أي ارتفع وعلا إلى السّماء بعد أن علّم محمّداً، وقيل: اعتدل واقفاً في الهواء بعد أن كان ينزل بسرعة ليراه النَّبِيُّ ﷺ، وقيل: معناه استوى جبرئيل ومحمّد ﷺ بالأفق الأعلى، يعني السّماء الدنيا ليلة المعراج، عن الفراء. ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أي كان ما بين جبرئيل وبين رسول الله ﷺ قاب قوسين... قال عبدالله بن مسعود: إنّ رسول الله ﷺ رأى جبرئيل وله ستمائة جناح، أورده البخاريّ ومسلم في الصّحيح. (٥: ١٧٣)

[منع صعود الشياطين إلى كلّ السّماء حين نزول القرآن]

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ. الحجر ١٧/ ١٨ قوله: ﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ أي وحفظنا السّماء ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾، أي مرجوم مرمي بالشُّهْب، عن أبي عليّ الجُبَّائِي وأبي مسلم. وقيل: رجيم ملعون مشئوم، عن ابن عباس.

و حفظ الشَّيْ جعله على ما ينفي عنه الضَّياع، فمن ذلك حفظ القرآن بدرسه حتَّى لا ينسى، وحفظ المال بإحرازه حتَّى لا يضيع، وحفظ السَّماء من الشَّيْطان بالمنع حتَّى لا يدخلها، ولا يبلغ إلى موضع يتمكَّن فيه من استراق السَّمع بما أعدَّ له من الشَّهاب. ﴿إِلَّا مَنْ اشْتَرَقَ السَّمْعَ﴾، والسَّرقة عند العرب أن يأتي الإنسان إلى حِرْز خُفِيَّة فيأخذ ما ليس له، والمراد بالسَّمع هنا المسموع، والمعنى: إلَّا من حاول أخذ المسموع من السَّماء في خُفِيَّة. ﴿فَأَتَتْهُ﴾، أي لحقه. ﴿شُهَابٌ مُبِينٌ﴾، أي شعلة نار، ظاهر لأهل الأرض بيِّن لمن رآه، ونحن في رأي العين نرى كأنَّهم يرمون بالنَّجوم، والشَّهاب عمود من نور يضيء ضياء النَّار لشدة ضيائه.

وروي عن ابن عبَّاس أنَّه قال: كان في الجاهليَّة كهنة، ومع كلِّ واحد شيطان، فكان يقعد من السَّماء مقاعد للسَّمع، فيستمع من الملائكة ما هو كائن في الأرض، فينزل ويخبر به الكاهن فيفشيهِ الكاهن إلى النَّاس، فلمَّا بعث الله عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات، و لمَّا بعث محمد عليه السلام منعوا من السَّموات كلّها، وحرسَت السَّماء بالنَّجوم، فالشَّهاب من معجزات نبينا محمد عليه السلام لأنَّه لم يُر قبل زمانه. وقيل: إنَّ الشَّهاب يحرق الشَّيَاطين ويقتلهم، عن الحسن. وقيل: إنَّه يُخْبِل ويحرق ولا يقتل، عن ابن عبَّاس. (٣: ٣٣١ - ٣٣٢)

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ الجنّ/ ٨- ١٠

ثمَّ حكى عن الجنِّ قولهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾، أي مسسناها... [وذكر كما تقدّم نحوه عن الطَّوسِيّ ثمَّ قال:].

﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ بِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي بحدوث الرَّجم بالشَّهَب، وحراسة السَّماء، جوَّزوا هجوم انقطاع التَّكليف، أو تغيير الأمر بتصديق نبيِّ من الأنبياء، وذلك قوله: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، أي صلاحًا. وقيل معناه: إنَّ هذا المنع لا يُدرى، العذاب سينزل بأهل الأرض، أم لنبيِّ يعث ويهدي إلى الرَّشد؟ فإنَّ مثل هذا لا يكون إلَّا لأحد هذين الأمرين، وسُمِّي العذاب شرًّا لأنَّه مضرَّة، وسُمِّي بعثة الرَّسول رَشَدًا لأنَّه منفعة.

الفصل الثالث عشر

نص الفخر الرازي (م: ٦٠٦) في «التفسير الكبير»

[كيفية نزول الوحي]

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا...﴾.

الشورى/ ٥١

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى - ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ وما صح لأحد من البشر ﴿أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ﴾ إلا على أحد ثلاثة أوجه: إما على الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب، أو المنام كما أوحى الله إلى أم موسى وإبراهيم عليهما السلام في ذبح ولده، وعن مجاهد أوحى الله تعالى الزبور إلى داود عليه السلام في صدره، وإما على أن يسمعه كلامه من غير واسطة مبلغ، وهذا أيضاً وحي بدليل أنه تعالى أسمع موسى كلامه من غير واسطة مع أنه سمّاه وحياً، قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ وإما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيبلغ ذلك الملك ذلك الوحي إلى الرسول البشري. فطريق الحصر أن يقال: وصول من الله إلى البشر، إما أن يكون من غير واسطة مبلغ، أو يكون بواسطة مبلغ، وإذا كان الأول وهو أن يصل إليه وحي الله لا بواسطة شخص آخر، فهذا إما أن يقال: إنه لم يسمع عين كلام الله أو يسمعه، أمّا الأول: وهو أنه وصل إليه الوحي لا بواسطة شخص آخر وما سمع عين كلام الله فهو المراد بقوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ وأمّا الثاني: وهو أنه وصل إليه الوحي لا بواسطة شخص آخر ولكنه سمع عين كلام الله فهو المراد من قوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ وأمّا الثالث: وهو أنه وصل إليه الوحي بواسطة شخص آخر فهو المراد بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾.

واعلم أن كل واحدٍ من هذه الأقسام الثلاثة وحي، إلا أنه تعالى خصَّص القسم الأول باسم الوحي، لأن ما يقع في القلب على سبيل الإلهام فهو يقع دفعةً، فكان تخصيص لفظ الوحي به أولى، فهذا هو الكلام في تمييز هذه الأقسام بعضها عن بعض... [إلى أن قال:]

المسألة السادسة - ثبت أن الوحي من الله تعالى إما أن لا يكون بواسطة شخص آخر، ويمتنع أن يكون كل وحي حاصلاً بواسطة شخص آخر، وإلزام إما التسلسل وإما الدور، وهما محالان، فلا بد من الاعتراف بحصول وحي يحصل بواسطة شخص آخر، ثم هاهنا أبحاث:

البحث الأول - أن الشخص الأول الذي سمع وحي الله لا بواسطة شخص آخر كيف يعرف أن الكلام الذي سمعه كلام الله؟ فإن قلنا: إنه سمع تلك الصفة القديمة المنزهة عن كونها حرفاً وصوتاً، لم يبعد أنه إذا سمعها علم بالضرورة كونها كلام الله تعالى، ولم يبعد أن يقال: إنه [لا] يحتاج بعد ذلك إلى دليل زائد، أما إن قلنا: إن المسموع هو الحرف والصوت امتنع أن يقطع بكونه كلاماً لله تعالى، إلا إذا ظهرت دلالة على أن ذلك المسموع هو كلام الله تعالى.

البحث الثاني - أن الرسول إذا سمعه من الملك كيف يعرف أن ذلك المبلغ ملك معصوم لا شيطان مضل؟ والحق أنه لا يمكنه القطع بذلك إلا بناءً على معجزة تدل على أن ذلك المبلغ ملك معصوم لا شيطان خبيث، وعلى هذا التقدير، فالوحي من الله تعالى لا يتم إلا بثلاث مراتب في ظهور المعجزات:

المرتبة الأولى - أن الملك إذا سمع ذلك الكلام من الله تعالى، فلا بد له من معجزة تدل على أن ذلك الكلام كلام الله تعالى.

والمرتبة الثانية - أن ذلك الملك إذا وصل إلى الرسول، لا بد له أيضاً من معجزة.

والمرتبة الثالثة - أن ذلك الرسول إذا أوصله إلى الأمة، فلا بد له أيضاً من معجزة، فثبت أن التكليف لا يتوجه على الخلق إلا بعد وقوع ثلاث مراتب في المعجزات.

البحث الثالث - أنه لا شك أن ملكاً من الملائكة قد سمع الوحي من الله تعالى ابتداءً، فذلك الملك هو جبريل، ويقال: لعل جبريل سمعه من ملك آخر، فالكل محتمل و

لو بآلف واسطة، و لم يوجد ما يدلّ على القطع بواحد من هذه الوجوه.

البحث الرابع - هل في البشر من سمع وحي الله تعالى من غير واسطة؟ المشهور أنّ موسى عليه السلام سمع كلام الله من غير واسطة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾^١ وقيل: إنّ محمداً عليه السلام سمعه أيضاً لقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾^٢.

البحث الخامس - أنّ الملائكة يقدرّون على أن يظهروا أنفسهم على أشكال مختلفة فبتقدير أن يراه الرّسول عليه السلام في كلّ مرّة وجب أن يحتاج إلى المعجزة، ليعرف أنّ هذا الذي رآه في هذه المرّة عين ما رآه في المرّة الأولى، وإن كان لا يرى شخصه، كانت الحاجة إلى المعجزة أقوى، لاحتمال أنّه حصل الاشتباه في الصّوت، إلّا أنّ الإشكال في أنّ الحاجة إلى إظهار المعجزة في كلّ مرّة لم يقل به أحد.

المسألة السابعة - دلّت المناظرات المذكورة في القرآن بين الله تعالى وبين إبليس، على أنّه تعالى كان يتكلّم مع إبليس من غير واسطة، فذلك هل يسمّى وحيّاً من الله تعالى إلى إبليس أم لا؟ الأظهر منعه، ولا بدّ في هذا الموضع من بحث غامض كامل.

المسألة الثامنة - قرأ نافع: ﴿أَوْ يُرْسِلْ رُسُلًا﴾ برفع اللّام، فيوحي بسكون الياء، و محلّه رفع على تقدير أو هو يرسل فيوحي، و الباقي بالتّصّب على تأويل المصدر، كأنّه قيل: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلّا وحيّاً أو إسماعاً لكلامه من وراء حجاب أو يرسل، لكن فيه إشكال لأنّ قوله: وحيّاً أو إسماعاً اسم، وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلْ﴾ فعل، و عطف الفعل على الاسم قبيح.

فأجيب عنه: بأنّ التّقدير و ما كان لبشر أن يكلمه إلّا أن يوحى إليه وحيّاً أو يُسمِعَ إسماعاً من وراء حجاب أو يرسل رسلاً.

المسألة التاسعة - الصّحيح عند أهل الحق أنّ عندما يبلغ الملك الوحي إلى الرّسول، لا يقدر الشّيطان على إلقاء الباطل في أثناء ذلك الوحي، و قال بعضهم: يجوز ذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلَقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾^٣.

قالوا: الشَّيْطَانُ أُلْقِيَ فِي أَثْنَاءِ سُورَةِ النَّجْمِ «تلك الغرائق المُلَى منها الشَّفَاعَةُ تَرْتَجِي» وَكَانَ صَدِيقَنَا الْمَلِكُ سَامُ بْنُ مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَانَ أَفْضَلَ مِنْ لَقِيَّتِهِ مِنْ أَرْبَابِ السُّلْطَانَةِ يَقُولُ هَذَا، وَالْكَلَامُ، بَعْدَ الدَّلَائِلِ الْقَوِيَّةِ الْقَاهِرَةِ بَاطِلٌ مِنْ وَجْهَيْنِ آخَرَيْنِ:

الأَوَّلُ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ رَأَنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتِمَثَّلُ بِصُورَتِي»، فَإِذَا لَمْ يَقْدِرِ الشَّيْطَانُ عَلَى أَنْ يَتِمَثَّلَ فِي الْمَنَامِ بِصُورَةِ الرَّسُولِ، فَكَيْفَ قَدَرَ عَلَى التَّشَبُّهِ بِجَبْرِيلَ حَالَ اشْتِغَالِ تَبْلِيغِ وَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى؟.

وَالثَّانِي - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا سَلَكَ عَمْرٌ فَجًّا إِلَّا وَسَلَكَ الشَّيْطَانُ فَجًّا آخَرَ»، فَإِذَا لَمْ يَقْدِرِ الشَّيْطَانُ أَنْ يَحْضُرَ مَعَ عَمْرٍ فِي فَجٍّ وَاحِدٍ، فَكَيْفَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَحْضُرَ مَعَ جَبْرِيلَ فِي مَوْقِفِ تَبْلِيغِ وَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى؟... [إِلَى أَنْ قَالَ:]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ عَلِيٌّ عَنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ ﴿حَكِيمٌ﴾: يُجْرِي أَعْمَالَهُ عَلَى مَوْجِبِ الْحِكْمَةِ، فَيَتَكَلَّمُ تَارَةً بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ عَلَى سَبِيلِ الْإِلْهَامِ، وَأُخْرَى بِإِسْمَاعِ الْكَلَامِ، وَثَالِثًا بِتَوْسِيطِ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ، وَلَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ أَقْسَامِ الْوَحْيِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ ﷺ، قَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ وَالْمُرَادُ بِهِ الْقُرْآنَ، وَسَمَاءَهُ رُوحًا، لِأَنَّهُ يَفِيدُ الْحَيَاةَ مِنْ مَوْتِ الْجَهْلِ أَوِ الْكُفْرِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كُنْتَ تَذَرِي مَا الْكِتَابَ وَلَا الْإِيمَانَ﴾ وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَعَ الْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ: الرَّسُلُ كَانُوا قَبْلَ الْوَحْيِ عَلَى الْكُفْرِ، وَذَكَرُوا فِي الْجَوَابِ وَجُوهًا:

الأَوَّلُ - «مَا كُنْتَ تَذَرِي مَا الْكِتَابَ» أَيِ الْقُرْآنِ ﴿وَلَا الْإِيمَانَ﴾ أَيِ الصَّلَاةِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ أَيِ صَلَاتِكُمْ.

الثَّانِي - أَنْ يَحْمَلَ هَذَا عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ، أَيِ «مَا كُنْتَ تَذَرِي مَا الْكِتَابَ» وَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، يَعْنِي مِنَ الَّذِي يُؤْمِنُ، وَ مِنَ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ.

الثَّالِثُ - «مَا كُنْتَ تَذَرِي مَا الْكِتَابَ وَلَا الْإِيمَانَ» حِينَ كُنْتَ طِفْلًا فِي الْمَهْدِ.

الرَّابِعُ - «الْإِيمَانَ» عِبَارَةٌ عَنِ الْإِقْرَارِ بِجَمِيعِ مَا كَلَّفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَأَنَّهُ قَبْلَ النَّبُوَّةِ مَا كَانَ عَارِفًا بِجَمِيعِ تَكَالِيفِ اللَّهِ تَعَالَى، بَلْ أَنَّهُ عَارِفًا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَ ذَلِكَ لَا يَنَافِي مَا ذَكَرْنَاهُ.

الخامس - صفات الله تعالى على قسمين؛ منها - ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقل، و منها - ما لا يمكن معرفته إلا بالدلائل السمعية، فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة. (٢٧: ١٨٦ - ١٩١)

الفصل الرابع عشر

نصّ ابن كثير (م: ٧٧٤) في «البداية و النّهاية»

في كيفيّة إتيان الوحي إلى رسول الله ﷺ

وقد تقدّم كيفيّة ما جاءه جبريل في أوّل مرّة و ثاني مرّة أيضًا، وقال مالك عن هشام، عن عروة، عن عائشة: إنّ الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ قال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟... [و ذكر كما تقدّم عن النّسائي الرّقم ٢، ثم قال:] و رواه الإمام أحمد عن عامر بن ضالح، عن هشام بن عروة، به نحوه. وكذا رواه عبّدة بن سليمان و أنس بن عتيّاض، عن هشام بن عروة. و قد رواه أيّوب السّخّيتاني عن هشام، عن أبيه، عن الحارث ابن هشام، أنّه قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: كيف يأتيك الوحي؟ فذكره. ولم يذكر عائشة. و في حديث الإفك قالت عائشة: فوالله ما رام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتّى أنزل عليه. فأخذه ما كان يأخذه من البرّحاء، حتّى أنّه كان يتحدّر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يوم شاتٍ من ثقل الوحي الّذي نزل عليه.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الرزّاق، أخبرني يونس بن سليم قال: أملى عليّ يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن عروة بن عبد الرّحمان بن عبد القاري، سمعت عمر بن الخطّاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدويّ النّحل، و ذكر تمام الحديث في نزول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^١ و كذا رواه الترمذيّ و النّسائيّ من حديث عبد الرزّاق، ثم قال النّسائيّ منكرًا: لا تعرف أحدًا رواه غير يونس بن سليم، ولا عرفه.

و في صحيح مسلم وغيره من حديث الحسن، عن حِطَّان بن عبد الله الرقاشي، عن عبادة بن الصامت، قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كَرَبَهُ ذلك و تَرَبَّدَ وجهه و في رواية و غمض عينيه - و كنَّا نعرف ذلك منه. و في الصحيحين حديث زيد بن ثابت حين نزلت ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^١ فلما شكى ابن أم مكتوم ضرارته نزلت: ﴿غَيْرِ أُولَى الضَّرَرِ﴾. قال: و كانت فخذ رسول الله ﷺ على فخذي و أنا أكتب، فلما نزل الوحي كادت فخذُه تَرُضُّ فخذي.

و في صحيح من حديث هَمَّام بن يحيى عن عطاء، عن يعلي بن أمية. قال: قال لي عمر: أيسرُّك أن تنظر إلى رسول الله ﷺ و هو يوحى إليه؟ فرفع طرف الثوب عن وجهه و هو يوحى إليه بالجعرانة، فإذا هو مُحَمَّر الوجه، و هو يغطُّ كما يغطُّ البكر.

و ثبت في الصحيحين من حديث عائشه لما نزل الحجاب، و أن سودة خرجت بعد ذلك إلى المناصع ليلاً، فقال عمر: قد عرفناك يا سودة. فرجعت إلى رسول الله ﷺ فسألته و هو جالس يتعشى و العرق في يده، فأوحى الله إليه و العرق في يده، ثم رفع رأسه فقال: «أنه قد أذن لكُنَّ أن تخرجن لحاجتكنَّ». فدلَّ هذا على أنه لم يكن الوحي يغيب عنه إحساسه بالكلية - بدليل أنه جالس و لم يسقط العرق أيضاً من يده ﷺ دائماً عليه.

و قال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا عبَّاد بن منصور، حدَّثنا عكرمة، عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي تَرَبَّدَ لذلك جسده و وجهه و أمسك عن أصحابه و لم يكلمه أحد منهم.

و في مسند أحمد وغيره من حديث ابن لهيعة، حدَّثني يزيد بن أبي حبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمر، قلت: يا رسول الله هل تحسَّ بالوحي؟ قال: «نعم أسمع صلاصلا، ثم أثبت عند ذلك، و ما من مرَّة يوحى إليَّ إلا ظننت أن نفسي تفيظ منه». و قال أبو يعلى الموصلي: حدَّثنا إبراهيم بن الحجاج، حدَّثنا عبد الواحد بن زياد، حدَّثنا عاصم بن كليب، حدَّثنا أبي عن خاله العليان بن عاصم، قال كنَّا عند رسول الله ﷺ و أنزل عليه، و كان إذا أنزل عليه دام بصره و عيناه مفتوحة، و فرغ سمعه و قلبه لما يأتيه

من الله عزَّ وجلَّ.

وروى أبو نُعَيْمٍ من حديث قُتَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ غُرَابٍ، عن الأَحْوَصِ بْنِ حَكِيمٍ، عن أَبِي عَوَانَةَ، عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي صدع، وغلف رأسه بالحناء هذا حديث غريب جداً.

وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ، حَدَّثَنَا أَبُو معاوية سنان، عن لَيْثٍ، عن شَهْرٍ بن حَوْشَبٍ، عن أسماء بنت يزيد، قالت: إني لآخذة بزام الغضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدقُّ عضد الناقة. وقد رواه أبو نُعَيْمٍ من حديث الثَّوْرِيِّ عن لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ به.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حَدَّثَنَا حَسَنٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهْيَعَةَ، حَدَّثَنِي جَبْرِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عن أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجَبَلِيِّ، عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قال: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها.

وروى ابن مَرْدُويه من حديث صباح بن سَهْلٍ، عن عاصم الأَحْوَلِ، حَدَّثَنِي أُمُّ عَمْرٍو عن عَمَّهَا: أَنَّهُ كَانَ فِي مَسِيرٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْمَائِدَةِ، فَاذْدَقَ عُنُقَ الرَّاحِلَةِ مِنْ ثِقَلِهَا وَهَذَا غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

ثم قد ثبت في الصَّحِيحِينَ نزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ مرجعه من الْحُدَيْبِيَّةِ، وهو على راحلته، فكان يكون تارةً و تارةً بحسب الحال، والله أعلم. وقد ذكرنا أنواع الوحي إليه ﷺ في أول شرح البخاري، وما ذكره الحلبي وغيره من الأئمة (٣: ٢١).

الفصل الخامس عشر

نص ابن حجر (م: ٨٥٢) في «فتح الباري»

قوله: «وقول الله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ...﴾» قيل: قدّم ذكر نوح فيها، لأنّه أوّل نبيّ أرسل، أو أوّل نبيّ عوقب قومه، فلا يردّ كون آدم أوّل الأنبياء مطلقاً... ومناسبة الآية للترجمة واضح من جهة أنّ صفة الوحي إلى نبيّنا ﷺ توافّق صفة الوحي إلى من تقدّمه من النبيّين، ومن جهة أنّ أوّل أحوال النبيّين في الوحي بالرؤيا، كما رواه أبو نعيم «في الدلائل» بإسناد حسن عن علقمة بن قيس صاحب بن مسعود قال: «إنّ أوّل ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتّى تهدأ قلوبهم، ثمّ ينزل الوحي بعد في اليقظة». (٦:١) قوله: «كيف يأتيك الوحي» يحتمل أن يكون المسؤول عنه صفة الوحي نفسه؛ ويحتمل أن يكون صفة حامله، أو ما هو أعمّ من ذلك، وعلى كلّ تقدير فإسناد الإتيان إلى الوحي مجاز، لأنّ الإتيان حقيقة من وصف حامله.

واعترض الإسماعيليّ فقال: هذا الحديث لا يصلح لهذه الترجمة، وإنّما المناسب لكيفيّة بدء الوحي، الحديث الذي بعده، وأمّا هذا فهو لكيفيّة إتيان الوحي لبدء الوحي. وقال الكرّمانيّ: لعلّ المراد منه السؤال عن كيفيّة ابتداء الوحي أو عن كيفيّة ظهور الوحي، فيوافق ترجمة الباب.

قلت: سياقه يشعر بخلاف ذلك، لإتيانه بصيغة المستقبل دون الماضي، لكن يمكن أن يقال: إنّ المناسبة تظهر من الجواب، لأنّ فيه إشارة إلى اختصار صفة الوحي أو صفة حامله في الأمرين فيشمل حالة الابتداء، وأيضاً فلا أثر للتّقديم والتّأخير هنا ولو لم تظهر المناسبة، فضلاً عن أنّا قدّمنا أنّه أراد البداءة بالتّحديث عن إمامي الحجاز، فبدأ بمكّة ثمّ

تَنَى بالمدينة، وأيضًا فلا يلزم أن تتعلّق جميع أحاديث الباب ببدء الوحي، بل يكفي أن يتعلّق بذلك وبما يتعلّق به وبما يتعلّق بالآية أيضًا، وذلك أن أحاديث الباب تتعلّق بلفظ الترجمة وبما اشتملت عليه؛ ولما كان في الآية أن الوحي إليه نظير الوحي إلى الأنبياء قبله، ناسب تقديم ما يتعلّق بها وهو صفة الوحي وصفة حامله، إشارة إلى أن الوحي إلى الأنبياء لا تباين فيه، فحسن إيراد هذا الحديث عقب حديث الأعمال الذي تقدّم التّقدير بأنّ تعلّقه بالآية الكريمة أقوى تعلّق، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قوله: «أحيانًا» جمع «حين» يطلق على كثير الوقت وقليله، والمراد به هنا مجرد الوقت، فكأنه قال: أوقاتًا يأتيني، وانتصب على الظرفيّة، وعامله «يأتيني» مؤخّر عنه، وللمصنّف من وجه آخر عن هشام في بدء الخلق قال: كلّ ذلك يأتي الملك، أي كلّ ذلك حالتان فذكرهما وروى ابن سعد من طريق أبي سلمة الماجشون أنّه بلغه أن النّبي ﷺ كان يقول: كان الوحي يأتيني على نحوين: يأتيني به جبريل فيلقيه عليّ كما يلقي الرّجل على الرّجل، فذاك ينفلت منّي، ويأتيني في بيتي مثل صوت الجرس حتّى يخالط قلبي، فذاك الذي لا ينفلت منّي^١. وهذا مرسل مع ثقة رجاله، فإن صحّ فهو محمول على ما كان قبل نزول قوله تعالى: ﴿لَا تُعْزِكُ بِهِ لِسَانُكَ﴾^٢ كما سيأتي، فإن الملك قد تمثّل رجلًا في صور كثيرة ولم ينفلت منه ما أتاه به كما في قصّة مجيئه في صورة دحية وفي صورة أعرابي وغير ذلك وكلّها في الصّحيح.

وأورد على ما اقتضاه الحديث وهو أن الوحي منحصر في الحالتين حالات أخرى، إمّا من صفة الوحي كمجيئه كدويّ النّحل، والثّث في الرّوع، والإلهام، والرّؤيا الصّالحة، والتّكليم ليلة الإسراء بلا واسطة، وإمّا من صفة حامل الوحي كمجيئه في صورته الّتي خلق عليها له ستمائة جناح، ورؤيته على كرسيّ بين السّماء والأرض وقد سدّ الأفق. والجواب: منع الحصر في الحالتين المقدّم ذكرهما، وحملهما على الغالب أو حمل ما يغيّرهما على أنّه وقع بعد السّؤال أولم يتعرّض لصفتي الملك المذكورتين لندورهما، وقد ثبت عن عائشة أنّه لم يره كذلك إلّا مرّتين، أولم يأتيه في تلك الحالة بوحي، أو أتاه به

فكان على مثل صَلَصلة الجرس، فإنه يَبِينُ بها صفة الوحي لا صفة حامله. وأما فنون الوحي فدويّ النحل لا يعارض صَلَصلة الجرس، لأنّ سماع الدويّ بالنسبة إلى الحاضرين كما في حديث عُمر: يسمع عنده كدويّ النحل و الصَّلَصلة بالنسبة إلى النبيّ ﷺ فشبهه عمر بدويّ النحل بالنسبة إلى السامعين، وشبهه هو ﷺ بصلصلة الجرس بالنسبة إلى مقامه. وأما الثفت في الزّوج فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين، فإذا أتاها الملك في مثل صَلَصلة الجرس نفث حينئذ في روعه، وأما الإلهام فلم يقع السّؤال عنه، لأنّ السّؤال وقع عن صفة الوحي الذي يأتي بحامل، وكذا التّكليم ليلة الإسراء.

وأما الرّؤيا الصّالحة، فقال ابن بطّال: لا ترد، لأنّ السّؤال وقع عمّا ينفرد به عن النّاس، لأنّ الرّؤيا قد يُشركه فيها غيره، والرّؤيا الصّادقة وإن كانت جزءاً من النّبوة فهي باعتبار صدقها لا غير، وإلّا لساغ لصاحبها أن يسمّى نبيّاً وليس كذلك، ويحتمل أن يكون السّؤال وقع عمّا في اليقظة، أو لكون حال النّيام لا يخفى على السّائل فاقتصر على ما يخفى عليه، أو كان ظهور ذلك له ﷺ في المنام أيضاً على الوجهين المذكورين لا غير، قاله الكرّمانيّ. وفيه نظر، وقد ذكر الحليميّ: أنّ الوحي كان يأتيه على سنّة وأربعين نوعاً فذكرها، وغالبها من صفات حامل الوحي ومجموعها يدخل فيما ذكر وحديث «أنّ روح القدس نفث في روعي» أخرجه ابن أبي الدّنيا في القناعة وصحّحه الحاكم من طريق ابن مسعود. قوله: «مثل صَلَصلة الجرس» في رواية مُسلم «في مثل صَلَصلة الجرس»، الصَّلَصلة - بمهملتين مفتوحين بينهما لام ساكنة - في الأصل صوت وقوع الحديد بعضه على بعض ثمّ أُطلق على كلّ صوت له طنين. وقيل: هو صوت متدارك لا يدرك في أوّل وهلة، و الجرس: الجُلْجُل الذي يعلّق في رؤوس الدّواب، واشتقاقه من الجرس - بإسكان الزّاء - وهو الحسّ، وقال الكرّمانيّ: الجرس: ناقوس صغير، أو سطل في داخله قطعة نحاس يعلّق منكوساً على البعير، فإذا تحرّك تحركت النّحاسة فأصابت السّطل، فحصلت الصَّلَصلة اه. وهو تطويل للتّعريف بما لا طائل تحته، وقوله: «قطعة نحاس» معترض لا يختصّ به، وكذا البعير، وكذا قوله: «منكوساً»، لأنّ تعليقه على تلك الصّورة هو وضعه المستقيم له.

فإن قيل: المحمود لا يشبه بالمذموم، إذ حقيقة التشبيه إلحاق ناقص بكامل، والمشبّه الوحي وهو محمود، والمشبّه به صوت الجرس وهو مذموم، لصحة التّهي عنه و التّفير من مرافقة ما هو معلّق فيه، والإعلام بأنّه لا تصحبهم الملائكة، كما أخرجه مسلم و أبو داود و غيرهما، فكيف يشبه ما فعله الملك بأمر ينقّر منه الملائكة؟

و الجواب: أنّه لا يلزم في التشبيه تساوي المشبّه بالمشبّه به في الصّفات كلّها، بل و لا في أخصّ وصف له، بل يكفي اشتراكهما في صفة ما، فالمقصود هنا بيان الجنس لذكر ما ألفت السّامعون سماعه تقريباً لإفهامهم، والحاصل أنّ الصّوت له جهتان: جهة قوّة و جهة طنين، فمن حيث القوّة وقع التشبيه به، و من حيث الطّرب وقع التّفير عنه، و علّل بكونه مزمار الشّيطان، و يحتمل أن يكون التّهي عنه وقع بعد السّؤال المذكور.

و فيه نظر، قيل: و الصّلصلة المذكورة صوت الملك بالوحي. قال الخطّابي: يريد أنّه صوت متدارك يسمعه و لا يتبيّه أوّل ما يسمعه حتّى يفهمه بعد، و قيل: بل هو صوت حفيف أجنحة الملك، والحكمة في تقدّمه أن يقرع سمّعه الوحي فلا يبقى مكان لغيره، و لما كان الجرس لا يحصل صلصلة إلّا متداركة، وقع التشبيه به دون غيره من الآلات....

قوله: (وهو أشدّه عليّ) يفهم منه أنّ الوحي كلّ شديد ولكن هذه الصّفة أشدّها و هو واضح، لأنّ الفهم من كلام مثل الصّلصلة أشكل من الفهم من كلام الرّجل بالتّخاطب المعهود. و الحكمة فيه أنّ العادة جرت بالمناسبة بين القائل و السّامع، و هي هنا إمّا باتّصاف السّامع بوصف القائل بغلبة الرّوحانيّة و هو النوع الأوّل، و إمّا باتّصاف القائل بوصف السّامع و هو البشريّة و هو النوع الثّاني، و الأوّل أشدّ بلاشكّ... (١: ١٥ - ١٦)

قوله: (حتّى جاء الحقّ) أي الأمر الحقّ، و في التّفسير (حتّى فجيّه الحقّ) بكسر الجيم، أي بغتة، و إن ثبت من مرسل عبّيد بن عمير: أنّه أوحى إليه بذلك في المنام أوّل ما قبل اليقظة، أمكن أن يكون مجيء الملك في اليقظة عقب ما تقدّم في المنام، و سمّي حقّاً لأنّه وحي من الله تعالى. و قد وقع في رواية أبي الأسود عن عروة، عن عائشة قالت: إنّ النّبيّ كان أوّل ما رآه في المنام، و كان أوّل ما رأى جبريل بأجساد، صرخ جبريل، يا محمّد، فنظر يميناً و شمالاً فلم ير شيئاً، فرفع بصره فإذا هو على أفق السّماء، فقال يا

محمد، جبريل جبريل، فهرب فدخل في الناس فلم ير شيئاً، ثم خرج عنهم فناداه فهرب، ثم استعلن جبريل من قَيْلٍ حِراء فذكر قصّة «إِقْرَأ بِاسْمِ رَبِّكَ»، ورأى حينئذ جبريل له جناحان من ياقوت يختطفان البصر. وهذا من رواية ابن لهيعة عن أبي الأسود، وابن لهيعة ضعيف. وقد ثبت في صحيح مسلم من وجه آخر عن عائشة مرفوعاً «لم أره» يعني جبريل على صورته التي خُلِقَ عليها إلاّ مرّتين، ويبيّن أحمد في حديث ابن مسعود: أن الأولى كانت عند سؤاله إياه أن يُريّه صورته التي خلق عليها، والثانية عند المعراج. ولِلترمذي من طريق مسروق عن عائشة ولم ير محمد جبريل في صورته إلاّ مرّتين، مرّةً عند سدرة المنتهى، ومرّةً في أجساد، وهذا يُقوّي رواية ابن لهيعة، وتكون هذه المرّة غير المرّتين المذكورتين، وإِنّما لم يضمّهما إليهما لاحتمال أن لا يكون رآه فيها على تمام صورته، والعلم عند الله تعالى ووقع في السيرة التي جمعها سليمان التيمي، فرواها محمد بن عبد الأعلى عن ولده مُعْتَمِر بن سليمان عن أبيه: أن جبريل أتى النَّبِيَّ ﷺ في حِراء وأقرأه: «إِقْرَأ بِاسْمِ رَبِّكَ» ثم انصرف فبقي متردّداً، فأتاه من أمامه في صورته فرأى أمراً عظيماً.

قوله: «فجاءه» هذه الفاء تسمّى التفسيرية وليست التعقيبية، لأنّ مجيء الملك ليس بعد مجيء الوحي حتّى تعقّب به، بل هو نفسه، ولا يلزم من هذا التقرير أن يكون من باب تفسير الشيء بنفسه. بل التفسير عين المفسّر به من جهة الإجمال، وغيره من جهة التفصيل.

قوله: «ما أنا بقارىء» ثلاثاً، «ما» نافية، إذ لو كانت استنهاميّة لم يصلح دخول الباء وإن حُكي عن الأخفش جوازه، فهو شاذّ، والباء زائدة لتأكيد النفي، أي ما أحسن القراءة، فلمّا قال ذلك ثلاثاً قيل له: «إِقْرَأ بِاسْمِ رَبِّكَ...» أي لا تقروّه بقوّتك ولا بمعرفتك، لكن بحول ربّك وإعانتته فهو يعلمك كما خلقك، وكما نزع عنك علق الدّم ومضر الشيطان في الصّغر، وعلم أمتك حتّى صارت تكتب بالقلم بعد أن كانت أميّة، ذكره السهيلي. وقال غيره: إنّ مثل هذا التركيب وهو قوله: «ما أنا بقارىء» يفيد الاختصاص، ورده الطيّبي بأنّه إنّما يفيد التقوية والتأكيد، والتقدير لست بقارىء البتّة.

فإن قيل: لم كرّر ذلك ثلاثاً؟ أجاب أبو شامة بأن يحمل قوله أولاً: «ما أنا بقارىء» على الامتناع، و ثانياً: على الإخبار بالتّفي المحض. و ثالثاً: على الاستفهام. و يؤيده أن في رواية أبي الأسود في مغازيه عن عروة أنه قال: «كيف أقرأ» و في رواية عبيد بن عمير عن ابن إسحاق: «ماذا أقرأ» و في مرسل الزُّهري في دلائل البَيّهقيّ «كيف أقرأ» و كلّ ذلك يؤيد أنّها استفهاميّة، والله أعلم. (١: ١٨-١٩)

قوله: (وَقَسَرَ الْوَحْيَ) ليست للتّرتيب، فلعلّ الرّوای لم يحفظ وَرَقَةً ذَكَرًا بعد ذلك في أمر من الأمور، فجعل هذه القصة انتهاء أمره بالنسبة إلى علمه لا إلى ما هو الواقع، و فتور الوحي عبارة عن تأخره مدّة من الزّمان، و كان ذلك ليذهب ما كان ﷺ وجده من الرّوع، و ليحصل له التّشوّق إلى العود، فقد روى المؤلّف في «التعبير» من طريق مَعمر ما يدلّ على ذلك.

فائدة: وقع في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشّعبيّ أن مدّة فترة الوحي كانت ثلاث سنين، و به جزم ابن إسحاق؛ و حكى البَيّهقيّ أن مدّة الرّؤيا كانت ستّة أشهر و على هذا فابتداء النّبوة بالرّؤيا وقع من شهر مولده و هو ربيع الأوّل بعد إكماله أربعين سنة، و ابتداء وحي البقطة وقع في رمضان، و ليس المراد بفترة الوحي - المقدّرة بثلاث سنين و هي ما بين نزول (اقرأ) و (يا أيّها المدثر) - عدم مجيء جبريل إليه، بل تأخر نزول القرآن فقط.

ثمّ راجعت المنقول عن الشّعبيّ من تاريخ الإمام أحمد و لفظه من طريق داود بن أبي هند عن الشّعبيّ: أنزلت عليه النّبوه و هو ابن أربعين سنة. فقرن بنبوته إسرائيل ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشّيء، و لم ينزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة، و أخرجه ابن أبي خيثمة من وجه آخر مختصراً عن داود بلفظ: بعث لأربعين و وُكّل به إسرائيل ثلاث سنين، ثمّ وُكّل به جبريل؛ فعلى هذا فيحسن بهذا المرسل إن ثبت الجمع بين القولين في قدر إقامته بمكّة بعد البعثة، فقد قيل: ثلاث عشرة و قيل: عشرة و لا يتعلّق ذلك بقدر مدّة الفترة و الله أعلم. و قد حكى ابن التّين هذه القصة، لكن وقع عنده ميكائيل بدل إسرائيل و أنكر الواقديّ هذه الرّواية المرسلة، و قال: لم يقرن به من الملائكة إلّا جبريل، انتهى، و لا يخفي ما فيه، فإنّ المثبت مقدّم على النّافي، إلّا أن صحب النّافي دليل

نفيه فيقدم والله أعلم. وأخذ السُّهَيْلِيُّ هذه الرواية، فجمع بها المختلف في مكثه عليه السلام بمكة، فإنه قال: جاء في بعض الروايات المسندة، أن مدة الفترة سنتين ونصفًا. وفي رواية أخرى أن مدة الرؤيا ستّة أشهر، فمن قال: مكث عشر سنين، حذف مدة الرؤيا والفترة، و من قال: ثلاث عشرة أضافهما، وهذا الذي اعتمده السُّهَيْلِيُّ من الاحتجاج بمرسَل الشَّعْبِيِّ لا يثبت، وقد عارضه ما جاء عن ابن عَبَّاسٍ أن مدة الفترة المذكورة كانت أيامًا.

قوله: (الملك الذي جاءني.. بحراء) على تأخّر نزول سورة المدثر عن إقرأ، ولما خلت رواية يحيى بن أبي كثير الآتية في التفسير عن أبي سلمة عن جابر عن هاتين الجملتين أشكل الأمر، فجزم من جزم بأن (يأَيُّهَا المدثر) أول ما نزل، ورواية الزُّهْرِيُّ هذه الصحيحة ترفع هذا الإشكال... (١: ٢٢ - ٢٣)

الفصل السادس عشر

نص السيوطي (م: ٩١١) في كتابه: «الإتقان في علوم القرآن»

[للوحي كيفيات]

وقد ذكر العلماء للوحي كيفيات:

إحداها - أن يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس كما في الصحيح. وفي مسند أحمد عن عبد الله بن عمر: سألت النبي ﷺ هل تحسّ بالوحي؟ فقال: «أسمع صلاصِل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إليّ إلّا ظننتُ أن نفسي تقبض». قال الخطابي: و المراد أنّه صوت متدارك يسمعه ولا يبيّن له أوّل ما يسمعه حتّى يفهمه بعد. وقيل: هو صوت خفق أجنحة الملك، والحكمة في تقدّمه أن يقرع سمعه الوحي^١، فلا يُبقي فيه مكاناً لغيره. وفي الصحيح أنّ هذه الحالة أشدّ حالات الوحي عليه. وقيل: إنّهُ إنّما كان ينزل هكذا إذا نزلت آية وعيد وتهديد.

الثانية - أن ينفث في رُوعه الكلام نفثاً، كما قال ﷺ: «إنّ رُوح القدس نفث في رُوعي»، أخرجه الحاكم. وهذا قد يرجع إلى الحالة الأولى أو التي بعدها، بأن يأتيه في إحدى الكيفيتين وينفث في رُوعه.

الثالثة - أن يأتيه في صورة الرّجل فيكلّمه، كما في الصحيح: «و أحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول» زاد أبو عوانة في صحيحه: «وهو أهونه عليّ».

الرابعة - أن يأتيه الملك في التّوم، وعدّ من هذا قوم سورة الكوثر، وقد تقدّم ما فيه.

الخامسة - أن يكلّمه الله إمّا في اليقظة كما في ليلة الإسراء، أو في التّوم، كما في

١ - ظ: أن يفرغ سمعه للوحي.

حديث مُعَاذ: «أتاني ربي فقال: فيم يختصم المَلَأُ الأعلى...» الحديث.

وليس في القرآن من هذا النوع شيء فيما أعلم؛ نعم يمكن أن يُعَدَّ منه آخر سورة البقرة لما تقدّم، وبعض سورة الضحى، وألم نَشرح؛ فقد أخرج ابن أبي حاتم من حديث عدي بن ثابت، قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي مسألة؛ وددت أني لم أكن سألته، قلت: أي رب، اتَّخذت إبراهيم خليلاً، وكَلِمَتَ موسى تكليماً، فقال: يا محمد، ألم أجدك يتيمًا فأويتُ، وضالًّا فهديت، وعائلاً فأغنيتُ، وشرحتُ لك صدرك، وحططتُ عنك وزرك، ورفعْتُ لك ذكرك، فلا أذكر، إلا أذكرت معي!».

فائدة: [بعد ذكر رواية أحمد عن الشعبي كما تقدّم عن ابن حجر، قال:]

قال ابن عسَّكَر: والحكمة في توكيل إسرَافيل أَنَّهُ الموكَّل بالصُّور الذي فيه هلاك الخلق وقيام الساعة، ونبوته ﷺ مؤذنة بقرّب الساعة وانقطاع الوحي، كما وكَّل بِذي القَرْنَيْنِ رِيَا فيل الذي يُطوي الأرض، وبخالد بن سنان مالك خازن النار.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن سابط، قال: «في أم الكتاب كل شيء هو كائن إلى يوم القيامة، فوكَّل ثلاثة بحفظه من الملائكة، فوكَّل جبريل بالكتب والوحي إلى الأنبياء و بالتَّصَرُّع عند الحروب و بالمهلكات إذا أراد الله أن يهلك قومًا، ووكَّل ميكائيل بالقطر و الثَّبات، ووكَّل ملك الموت بقبض الأنفس؛ فإذا كان يوم القيامة عارضوا بين حفظهم و بين ما كان في أم الكتاب فيجدونه سواءً».

وأخرج أيضًا عن عطاء بن السائب، قال: أوَّل ما يُحاسب جبريل لأنَّه كان أمينَ الله على رسله.

فائدة أخرى:

أخرج ابن سعد عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يغطُّ في رأسه، و يتربَّد وجهه، أي يتغيَّر لونه بالجريزة، و يجد بردًا في ثناياه، و يعرق حتَّى يتحدَّر منه مثل الجُمان. (١: ١٦٠ - ١٦٣)

ونصّه في تفسيره: «الدّر المنثور»

[كيفية نزول الوحي واستراق السمع]

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ سبأ/ ٢٣

١- وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما أوحى الجبار إلى محمد ﷺ دعا الرسول... [وذكر كما تقدّم عن الطبري الرقم ١٢، ثم قال:]

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان إذا نزل الوحي كان صوته كوقع الحديد على الصفوان، فيصعق أهل السماء ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ قالت الرسل ﷺ: «الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ».

٢- وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ينزل الأمر إلى السماء الدنيا، له وقع كوقعة السلسلة على الصخرة، فيفزع له جميع أهل السموات فيقولون: «مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ» ثم يرجعون إلى أنفسهم فيقولون: «الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ».

٣- وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في «الدلائل» من طريق معمر عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه فرمى بنجم فاستثار، قال: «ما كنتم تقولون إذا كان هذا في الجاهلية؟» قالوا: كنّا نقول: يولد عظيم أو يموت عظيم، قال: «فإنّنا لا نرعى به الموت أحد ولا حياته، ولكن ربّنا إذا قضى أمراً سبّح حملة العرش، ثمّ سبّح أهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش: «مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» فيخبرونهم ويخبر أهل كلّ سماء سماء حتّى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجنّ السمع فيرمون، فما جاؤا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يحرفونه ويزيدون فيه». قال معمر: قلت للزهري: أكان يرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم، قال: رأيت ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ

لَهُ شَهَابًا رَصَدًا^١ قال: غُلِظَتْ وَشُدِدَ أمرها حين بعث رسول الله ﷺ.

٤- وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ...» [وذكر كما تقدّم عن البخاري الرّقم ٧]

٥- وأخرج ابن جرير وابن خزيمة وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ في «العظمة» وابن مردويه والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن الثّواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ... [وذكر كما تقدّم عن الطبري الرّقم ١٠]

٦- وأخرج البيهقي وابن أبي شيبة وابن مردويه وأبو نعيم في «الدلائل» عن ابن عباس في قوله عزّ وجلّ: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾^٢. قال: كان لكل قبيل من الجنّ مقعد في السماء يستمعون منه الوحي، وكان إذا نزل الوحي سمع له صوت كإمرار السلسلة على الصفوان، فلا ينزل على أهل سماءٍ إلّا صعقوا ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، وإن كان ممّا يكون في الأرض من أمر الغيب، أو موت، أو شيء ممّا يكون في الأرض تكلموا به، فقالوا: يكون كذا وكذا، فسمعت الشياطين، فنزلوا به على أوليائهم يقولون: يكون العام كذا، ويكون كذا، فيسمعه الجنّ، فيخبرون الكهنة به، والكهنة تخبر به الناس، يقولون: يكون كذا وكذا، فيجدونه كذلك، فلمّا بعث الله محمداً ﷺ دحروا بالنجوم، فقالت العرب حين لم يخبرهم الجنّ بذلك: هلك من في السماء، فجعل صاحب الإبل يَنْحَرُ كُلَّ يَوْمٍ بَعِيرًا، وصاحب البقر يَنْحَرُ كُلَّ يَوْمٍ بَقَرَةً، وصاحب الغنم شاة، حتّى أسرعوا في أموالهم، فقالت ثقيف: - وكانت أعقل العرب - أيّها الناس! أمسكوا عليكم أموالكم، فإنّه لم يمت من في السماء، وإنّ هذا ليس بانتشار، ألستم ترون معالمكم من النجوم كما هي والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار؟ قال: فقال إيليس: لقد حدث اليوم في الأرض حدث، فأتوني من تربة كلّ أرض، فأتوه بها، فجعل يشمّها، فلمّا شمّ تربة مكة قال: من هنا جاء الحديث منتشراً، فتنقبوا فإذا رسول الله ﷺ قد بُعث.

٧- وأخرج أبو داود والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن رسول الله ﷺ: «إذا تكلم بالوحي سمع أهل السماء الدنيا صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل عليه السلام، فإذا جاءهم جبريل عليه السلام ﴿فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ فيقولون: يا جبريل! ماذا قال ربنا؟ فيقول: الحق، فيقولون: الحق الحق».

٨- وأخرج ابن مردويه، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «لما نزل جبريل بالوحي على رسول الله ﷺ فرج أهل السماوات لا نخطاطه، وسمعوا صوت الوحي كأشد ما يكون من صوت الحديد على الصفا، فكلما مر بأهل سماء ﴿فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ فيقولون: يا جبريل! بماذا أمرت؟ فيقول: نور العزة العظيم كلام الله بلسان عربي».

٩- وأخرج عبد بن حميد عن قتادة عليه السلام في الآية قال: يوحى الله إلى جبريل عليه السلام، فتفرق الملائكة عليه السلام من مخافة أن يكون شيء من أمر الساعة، فإذا خلى عن قلوبهم وعلموا أن ذلك ليس من أمر الساعة ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾.

١٠- وأخرج أبو نصر السنجري في «الإبانة» عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل عليه السلام، وزعم أن إسرافيل عليه السلام يحمل العرش وأن قدمه في الأرض السابعة، والألواح بين عينيه، فإذا أراد ذوالعرش أمرا سمعت الملائكة كجر السلسلة على الصفا فيغشى عليهم، فإذا قاموا ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾، قال من شاء الله: ﴿الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

١١- وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة والكوفي في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قالوا: لما كانت الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ فنزل الوحي مثل صوت الحديد فأفزع الملائكة عليه السلام، ذلك ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قالوا إذا جلي عن قلوبهم: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

١٢- وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم في الآية، قال: زعم ابن مسعود أن الملائكة المعقبات... [وذكر كما تقدم عن الطبري الرقم ١٦] [٢٣٧:٥-٢٣٥:٥]

الفصل السابع عشر

نص صدر المتألهين (م: ١٠٥٠) في «تفسير القرآن الكريم»

في كيفية إنزال الوحي على الأنبياء ﷺ

كما يحب علينا الإيمان بالكتب الإلهية المنزلة على الأنبياء ﷺ فكذلك يجب على المؤمن إيماناً حقيقياً بما أنزل إليهم من حيث كونه مُنزَلاً إليهم أن يعلم كيفية الإنزال والإيحاء وكيفية إرسال الأنبياء ﷺ وفي ذمة العالم بتأويل القرآن أن يحاول هذا العلم و يتعاطاه، فمن الدائر على ألسنة جماعة من المفسرين وغيرهم من المتكلمين، أن المراد من إنزال الوحي أن جبرئيل عليه السلام سمع في السماء كلام الله تعالى فنزل به على الرسول ﷺ، وهذا كما يقال: نزلت رسالة الأمير من القصر، والرسالة لا تنزل، ولكن المستمع سمع الرسالة في علو فينزل بها ويؤذيها في سفلى، وقول الأمير لا يفارق ذاته ولكن السامع يسمعه ويؤذي بلفظ نفسه.

[طريقة سماع جبرئيل كلام الله تعالى]

وربما استشكل بعضهم هذا أي سماع جبرئيل كلام الله، سيما القائل بأن كلامه ليس من جنس الأصوات والحروف، فأجابوا عنه: أما المعتزلة فبأنه يخلق الله أصواتاً وحروفاً على لسان جبرئيل، وهذا معنى الكلام عندهم.

وأما الأشاعرة فتارةً بأنه يحتمل أن يخلق الله له سماعاً لكلامه ثم أقدره على عبارة يعبرها عن ذلك الكلام، وتارةً بأنه يجوز أن يخلق الله في اللوح المحفوظ كتابة بهذا النظم المخصوص فقرأه جبرئيل عليه السلام فحفظه، وتارةً بتجويز أن يخلق أصواتاً مقطعةً

بهذا التّظّم المخصوص في جسم مخصص فتلقّفه جبرئيل، ويخلق له علماً ضرورياً بأنّه هو العبارة المؤدّية لمعنى ذلك الكلام القديم، هذا خلاصة ما ذكره في هذا المقام^١ وطائفة استدلّوا على كون الملائكة أجساماً متحيّزة بأنّ وصف القرآن بالتزول الذي لا يتّصف به إلاّ المتحيّز بالذّات دون الأعراض وسيّما غير القارّ منها كالأصوات، إنّما هو بتبعية محلّه سواء أخذ حروفاً ملفوظة أو معاني محفوظة، وهو الملك الذي يتلقّف الكلام من جانب الملك العلّام تلقّفاً سماعياً، أو يتلقّى القرآن تلقّفاً قلبياً، أو يتحفّظه من اللّوح المحفوظ ثمّ ينزل به على الرّسول، ولا يتمشّي ذلك إلاّ بالقول بتجسّم الملائكة. وهذا هو مسلك أرباب الجدّل والتّخيل دون أصحاب البصيرة والتّحصيل.

وأما على مسلك هؤلاء و ممشاهم من القول بما هو صريح الحقّ وما عليه كافّة الحكماء الإلهيّين والرّبّانيّون من الإسلاميين، وهو أنّ الملائكة - كما مرّ - تطلق على قبائل علويّات وسفليّات سماويّات وأرضيّات قدسيّات وجسمانيّات، وفي القبائل شعوب بطبقات كالقوى المنطبعة والطّبائع الجوهرية والنّفوس المفارقة وأرباب الأنواع والصّور المفارقة، والعقول القادسة بطبقات أنواعها. ومنها روح القدس النّازل بالوحي النّافث في أرواح أولى القوّة القدسيّة بإذن الله، وغير ذلك ممّا لا يعلم أعدادها ولا أنواعها إلاّ الله كما قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^٢.

وقال ﷺ: ^٣«أُطْتُ السَّمَاءَ وَحَقٌّ لَهَا أَنْ تَنْطَ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ قَدَمٍ إِلَّا وَفِيهِ مَلِكٌ سَاجِدٌ أَوْ رَاحٍ».

فالأمر غير مشتبّه على النّاهج منهجم والمشي ممشاهم، وقد مرّ من القول بأنّ كلام الله ليس مقصوداً على ما هو من قبيل الأصوات أو الحروف، ولا على ما هو من قبيل الأعراض مطلقاً ألفاظاً كانت أو معاني، بل كلامه و متكلّميّته يرجع إلى ضرب من قدرته و قاديّته، وله في كلّ عالم من العوالم العلويّة والسّفليّة صورةٌ مخصوصةٌ.

وطائفة أخرى اقتصرّوا على القول بالتّلاقي الرّوحانيّ و الظّهور العقلائيّ بين

٢ - المدنّر / ٣١.

١ - التّفسير الكبير: ٢٥٤/١.

٣ - الدّر المنثور ٥: ٢٩٣، المسند ٥: ١٧٣.

النبي ﷺ والملك الحامل للوحي، فسموا ظهوره العقلاني لنفوس الأنبياء ﷺ نزولاً، تشبيهاً للهبوط العقلي بالنزول الحسي وللاعتلاق الروحاني بالاتصال المكاني، فيكون، قولنا: نزل الملك استعارة تبعية، وقولنا: نزل الفرقان مجازاً بتبعية تلك الاستعارة التبعية. وهذا مما فيه إسراف في فحولة التنزيه، كما في القول الأول في أنوثة التشبيه. وإن في كلا القولين زيفاً عن طريق الصواب، وحيداً عما فيه هدى لأولى البصائر والأبواب، وشقاً لعصا الأمة لفرقها المتفرقة وأحاديثها النبوية المتواترة، وخرقاً للقوانين العقلية المنضبطة، فالأمة مطبقة على أن النبي ﷺ كان يرى جبرئيل وملائكة الله المقربين ﷺ ببصره الجسماني، ويسمع كلام الله الكريم على لسانهم القدسي بسمعه الجسداني الشخصي.

والبرهان العقلي قائم بالقسط، على أن مناط الرؤية والسمع الحسيين في الإنسان وجود الصورة البصرية كالألوان والأشكال وغيرهما، والصورة المسموعة كالأصوات والحروف والكلمات عند النفس بقوتها الباطنة المدركة للجزيئات الصورية، ومؤلها بين يدي الحس الباطن لها الذي هو مجمع الحواس الظاهرة، وإنما المبصر بالحقيقة والمسموع بالحقيقة من الشيء المائل بين يدي الحس الظاهر هو صورة الحاضر في ساحة النفس الناطقة وصقع ملكوتها.

وأما وجود ذي الصورة بهويته الخارجية ومادته الوضعية، فهو مدرك بالعرض وبالقصد الثاني، وليس المثل الخارجي للمبصر المادي بنسبته الوضعية المادية بالقياس إلى الآلة الجسمانية الدائرة وجليذاتها اللتان هما مسلكا التأدية، وليستا لوحي الانطباع من الشرائط الضرورية للإبصار الذي هو قيام الصورة المصورة في حضرة النفس، بل ذلك طريق واحد من طرق الحصول للصورة والمثل الانكشافي التوري لها عند النفس، مادام كونها في هذه النشأة الدائرة وعظيمة التعلق بها وتمكن حصولها بطريق آخر للنفس كما في النوم، حيث لا يكون وجود الصورة في مادتها المخصوصة شرطاً لانكشافها وحضورها للنفس، وعلى هذا القياس شاكلة السمع أيضاً.

ومبدأ حضور الصورة مطلقاً هو واهب الصور والإفاضة من تلقائه. وللنفس في ذاتها سمعاً وبصراً وشمّاً وذوقاً ولمساً وإن انسلخت عنها هذه الآلات العنصرية الدائرة

البائدة، وإنما الحاجة لها إلى هذه الدّائرات مادام كونها الناقص الدّنيويّ و عدم خروج قواها و حواسّها الباطنيّة من القوّة إلى الفعل.

فعند خروجها من ظلمات هذه الحواسّ و غبار هذا العالم الدّائر، و بروزها لله من زيارة هذه المقابر، تشاهد المحسوسات بقوّتها المتخيّلة.

و نحن قد أقمنا البرهان العرشيّ على جوهريّة القوّة الخياليّة و تجرّدها عن المادّة البدنيّة في الشّواهد الرّبوبيّة^١ عند البحث عن تحقيق المعاد الجسمانيّ، فمَن كانت نفسه و اغلة الهمة في الجنبّة السّافلة، طفيفة الانجذاب إلى الجنبّة العالية، قليلة التّوجّه إلى يمين الحقّ و عالم القدّس، لم يكن لجوهر قلبه سبيلٌ إلى مطالعة الصّور الغيبيّة إلّا من مسلك الحاسّة الظّاهرة و الاتّصال بالآلة البدنيّة و حضور المادّة الخارجيّة.

فأمّا إذا كانت نفسه قويّة العزيمة، مجموعة الهمة، قدسيّة الفطرة، نقيّة الجوهر بحسب جبلّتها المفطورة أو بحسب ملكتها المكسوبة، و بالجملة شديدة الاستحقار لعالم الحسّ، قاهرة القوّة على تسخير القوَى و ضبطها، ذات سلطنة على خلع البدن و رَفُض الحواسّ الظّاهرة و الانصراف عنها إلى صقع المكوت بإذن ربّها، فهو مستغنٍ - بقوّة نفسها المتخيّلة الّلامنغمسة في قوَى البدن - عن استعمال الحواسّ الظّاهرة.

فله أن يتلقّى الصّورة الجزئيّة من معادنها الأصليّة من غير استعانة بهذه الآلات، و يقتدر على تصوير المعاني بصورها المقداريّة في عالم الصّور الخالصة عن هذه الموادّ متى شاء و حيث شاء.

فهما و جدت نفسه فرصةً عن هذه الشّواغل العارضة في اليقظة تخلص بقوّتها المتخيّلة عن جانب الطّبيعة، راجعة إلى عالمها، متّصلة بأبيها المقدّس و هوروح القدّس و بَمَن شاء الله تعالى من الأرواح المقدّسة، و يستفيد من هناك العلم و الحكمة بالانتقائش على سبيل الرّشّح أو العكس كمرآة مجلّوة حودي بها شطر الشّمس.

ولكن حيث أنّ النّفس تكون بعد في دار غربتها بالطّبع، ولم تتسلخ و لم ترتفع أذ بالها بالكلّيّة عن علاقتها التّدبيريّة لقواها البدنيّة و جنودها الحسيّة، أو أنّها لم تتجرّد عن عالم

المتَّمِّل بالكلية و إن تجرّدت عن عالم المادّة بالكلية، فيكون منالها فيما تناله بحسب ذلك الشّأن و تلك الدّرجة، تحوّل الملك الحامل للوحي على صورة متمثّلة في شبح شخص بشريّ ناطق بكلمات إلهيّة منظومة مسموعة، كما قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾^١ يعني بذلك ارتسام الصّورة عنده لا في لوح «بنطاسياه» - كما زعمه الظّاهريّون من الحكماء ممّن لا تحقيق له في علم الثّبوتات - ولا من سبيل الظّاهر والأخذ عن مادّة خارجيّة، بل بالانحدار إليه من العالم الأعلى و النزول إليه من جانب اليمين و صقع الإفاضة.

فإنّ الشّأن في السّماع و الأبصار المشهورتين أنّه يرتفع صورة المسموع و المُبَصِّر من الموادّ الخارجيّة إلى لوح الانطباع، ثمّ منه إلى عالم الخيال و المتخيّلة. ثمّ يصعد الأمر إلى النّفس النّاطقة كما هو المعروف عند الجمهور و المثبت منهم في الكتب.

وعندنا: النّفس ترتفع من المحسوس إلى المتخيّل، و منه إلى المعقول، والصّور ثابتة في أحيارها و عوالمها.

و في إيصار الملك و سماع الوحي - و هما الإيصار و السّماع الصّريحان - ينعكس الشّأن، فينزل الفيض من عالم الأمر إلى النّفس، فهي تطالع شيئاً من الملكوت مجرّدة غير مستصحبة لقوّة حسّيّة أو خياليّة أو وهميّة. ثمّ يفيض من النّفس إلى القوّة الخياليّة فتتمثّل لها الصّورة بما انضمّ إليها من الكلام في الخيال من معدن الإفاضة و صُفّع الرّحمة، ثمّ تنحدر الصّورة المتمثّلة و العبارة المنظومه من الخيال و المتخيّلة إلى الحسّ الشّاهد، بل النّفس تنزل من العالم الأعلى إلى الأوسط ثمّ إلى الأدنى، فتضاهد في كلّ عالم ما يتعارف لها و يناسبها على عكس الحالة الأولى، لأنّ تلك الحركة عروجيّة و هذه نزوليّة، فتسمع الكلام و تبصر الصّورة في كلّ عالم من العوالم الثلاثة.

و هذا أفضل ضروب الوحي و الإيحاء، وله أنحاء مختلفة مراتب متفاضلة بحسب درجات النّفس.

و قد يكون في بعض الدّرجات لا يتخصّص المسموع و المُبَصِّر بجهة من جهات

العالم بخصوصها، بل الأمر يعمّ الجهات بأسرها في حالة واحدة، وقد يكون بخلاف ذلك.

[ثم ذكر رواية الحارث بن هشام، كما تقدّم عن التّسائيّ الرّقم ٢ فقال:]

وربّما يكون صقالة النّفس التّبويّة أتمّ، وتجّدها في بعض الأحايين أقوى، و سلطانها على قهر الصّوارف الجسدانيّة والشّواغل الهيلانيّة أعظم، يكون عند الانصراف عن عالم الحسّ والاتّصال بروح القدس استيناسها بجوهر ذاته المجرّدة أشدّ منه بالشّبح المتمثّل، فتشاهد يبصر ذاتها العاقلة الصّائرة عقلاً بالفعل معلّمها القدسيّ ومخرجها من حدّ القوّة التّفسانيّة الهيلانيّة إلى حدّ الكمال العلميّ والعقل الصّوريّ، وتستفيد منه وهو في صورته القدسيّة العلوم والأحوال، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۖ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۖ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾^١.

وربّما وصل النّبيّ ﷺ إلى مقام أعلى من أن يتوسّط بينه وبين المبدء الأوّل و المفيض على الكلّ واسطة، فسمع كلام الله بلا واسطة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۖ فَأَوْخَىٰ إِلَىٰ عِيبِهِ مَا وَخَىٰ﴾^٢.

وقد ذُكر أنّ النّبيّ ﷺ إنّما رأى جبرئيل عليه السّلام بصورته الحقيقيّة مرّتين،^٣ كان بحيث طبق الخافقين. وإلى مثل هذه الرّؤية له ﷺ أشار تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾^٤.

ثمّ دون هذا الضّرب بسائر درجاته ممّا يتفق لمن له من القوّة القدسيّة نصيب أن يرى ملائكة الله و يسمع كلام الله و لكن في التّوم لا في اليقظة. و سبيل القول أيضاً أنّ الأمر هاهنا ينتهي إلى القوّة المتخيّلة، و يقف عندها بمحاكاتها و تفصيلها و ترتيبها، لما قد طالعتّه النّفس من عالم الملكوت من دون أن تتمثّل الصّورة بألفاظها المعبرة بين يدي الحسّ، و ذلك لضعف القوّة الخياليّة ألقوّة العائق و كثافة المادّة، فإنّ القوّة الخياليّة عندنا تفعل فعّل الحواسّ الظّاهرة كلّها عندما كانت قويّة و العائق البدنيّ ضعيفاً، فلها أن تعزل الحواسّ عن أفاعيلها. و بهذا يتحقّق الفرق بين مطالعة الأنبياء ﷺ للصور الباطنة و بين

١- النّجم / ٥ - ٧.

٢- النّجم / ٨ - ١٠.

٣- دلائل النّبوة للبيّهقي: ١١٧.

٤- النّجم / ١٣ و ١٤.

مطالعة غيرهم إياها كالأولياء والحكماء.

فالرؤيا الصالحة لنفوس العرفاء والصالحين إنما هي واقعة في هذا الطريق غير واصله إلى درجة النبوة وبلوغ الغاية ولهذا ورد في الحديث أنّها جزء من ستة وأربعين جزءاً، أو من خمسة وأربعين، أو من سبعين جزءاً، على اختلاف الروايات. وقصارى مرتبة الرؤيا وأقصاها كمالاً ما وقع للمحدثين - بفتح الدال المشددة - وهم الذين يرفضون عالم الشهادة و يصعدون إلى عالم الغيب، فربما يسمعون الصوت في اليقظة من سبيل الباطن، ولكنهم لا يعاينون شخصاً متشبهاً كما مر ذكره في المفاتيح الغيبية.

وفي كتاب الحجة من كتب الكليني رحمه الله باب في الفرق بين الرسول والنبي والمحدث والأئمة عليهم السلام كلهم محدثون مفهمون. (١: ٢٩٥-٣٠٢)

ونصّه في «شرح أصول الكافي»

باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدث، وفيه أربعة أحاديث

الحديث الأول

«عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن ثعلبة ابن ميمون، عن زُرارة قال... [وذكر كما تقدّم عن الصفار الرقم ٤ ثم قال:]

الشرح:

اعلم أنّ الدنيا عالم الشهادة، والمُلك والآخرة عالم الغيب والملوك والإنسان مركّب من جزئين: أحدهما من هذا العالم وهو بدنه العنصريّ المستحيل الكائن الفاسد، وكذلك حال الدنيا وكلّ ما فيها فإنّها مستحيلة كائنة فاسدة كلّ حين. و ثانيهما من عالم

الآخرة و هو روحه الثَّابِت الباقي، وكذلك كلُّ ما فيها باقٍ دائم لا يزول أبداً و للآخرة درجات كثيرة متفاضلة لقوله تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْصِيلاً﴾^١

و أوّل درجات الآخرة حالة المنام ثمّ حالة الموت و تمامه بالبعث، فالتَّوَمُّ بعض حركة الرَّجُوع إلى الآخرة و النَّبْيُ بما هو نبيّ كالمبعوث يوم القيامة فيرى من الصُّور و الحقائق و الأحوال ما لا يراه النَّاسُ، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ» فيعبّر عمّا يراه و يسمعه في ذلك العالم فيحكّيه لأهل هذا العالم الَّذِينَ هم بالحقيقة كالتَّائِمِينَ، لقوله ﷺ: «النَّاسُ نِيَامٌ» بكسوة الألفاظ و ضرب الأمثال، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^٢.

وإن أردت توضيح ذلك و بيان معنى النَّبُوَّة و الرِّسَالَة و التَّحْدِيث فاعلم أولاً أنَّ سبب الرُّؤْيَا انعكاس الرُّوح الحيوانيِّ الَّذِي هو مستوى الرُّوح العِلَويِّ من الظَّاهِر إلى الباطن، و هذه الرُّوح عبارة عن جرم لطيف متكوّن من بخار الأَخْلَاط في تجويف القلب، و مُرْكَبه الدَّم الصَّافي و هو مُرْكَب للقوى النَّفْسَانِيَّة و الحيوانِيَّة، و بها تنتشر الحياة في كلِّ البدن و يوصل القوى المدركة و المحركة إلى آلتها و أعضاء الحسّ و الحركة، و لذلك إذا وقعت سُدَّة في مجاريها من الأعصاب المؤدِّيَّة للحسّ بطل الحسّ و حصل الصَّرَع و السَّكَنَة، و كذلك إذا سُدَّيد الإنسان سُدًّا محكمًا أحسّ بخدر في رأس اليد، فيبطل في الحال حسّه إلى أن يخلو فيعود بعد زمان. [إلى أن قال:]

وأمَّا سبب معرفة الغيب و رُؤْيَا ما لا وجود له في الخارج في اليقظة فهو ما أقول: من أنَّ سبب الحاجة إلى التَّوَم و وقوعه ممَّا يكون غالبًا من ضعف النَّفس و كون الحواسّ شاغلة لها حتّى إذا ركدت الحواسّ اتَّصلت بالجواهر العقليَّة و استعدّت بالقبول منها و يمكن أن يكون ذلك لبعض النَّفوس في اليقظة من و جهين:

أحدهما - أنَّ تقوى النَّفس قوَّة لا يشغلها بالحواسّ بحيث يستغرقها و يمنعها، بل تسع قوتها بضبط الجانبين و النَّظَر إلى الجهتين: جهة العلوّ و جهة السُّفل جميعًا، فلا يشغلها شأن عن شأن كما تقوى بعض النَّفوس، فيجمع في حالة واحدة بين أن يكتب و يتكلّم و

يسمع و يرى، فمثل هذه النفوس يجوز أن يفتر عنها في بعض الأحوال شغل الحواس، و يطّلع على عالم الغيب فيظهر لها منه بعض الأمور و هذا نوع من النبوة، ثم إن ضعفت المتخيّلة و قوي عين الحسّ الباطن بقي ما انكشف له من الغيب في حفظه و كان وحيًا صريحًا، و إن قويت المتخيّلة و اشتغلت بطبيعة المحاكاة فيكون هذا الوحي مفتقر إلى التأويل^١ كما يفترق الرؤيا إلى التعبير.

ثانيهما - أن يغلب على المزاج اليبوسة و الحرارة حتّى يصرفه لغلبة السوداء عن موارد الحواس، فيكون مع فتح العين كالمبهوت الغافل الغائب عن ما يرى و يسمع، و ذلك لضعف خروج الرّوح إلى الظاهر، فهذا أيضًا لا يستحيل أن ينكشف لنفسه شيء من الغيب ممّا يناسبه فيحدّث به و يجري على لسانه، فكأنّه أيضًا غافل عمّا يحدث به، و هذا يوجد في المجانين و المصروعين و بعض الكهنة من الهند و العرب فيحدّثون بما يكون موافقًا لما سيكون، و هذا نوع نقصان و الذي يراه من الغيب^٢ الجزئيّ الذي في بعض البرازخ السفلية، و السبب الأوّل نوع كمال و الذي يراه ربّما كان من صور الملكوت الأعلى.

و أمّا السبب في رؤية الإنسان في اليقظة أمورًا لا وجود لها حقيقة فهو بأن تعلم أولاً أن الإبصار و كذا كلّ إحساس و إدراك في الحقيقة ليس عبارة عن شهود نفس الصّورة التي في المادّة الخارجيّة، فإنّ تلك الصّورة ليست محسوسة و لا حاصلة للنفس الدّراكة، بل المحسوس بالذّات هي الصّور التي تراها النفس بعين الحسّ المشترك، و أمّا التي في الخارج فهي سبب لظهوره صورة يماثلها للحسّ المشترك، فالمحسوس بالحقيقة هو ذلك المتمثّل المتصورّ و الخارج يسمّى محسوسًا بمعنى الآخر. ثم لا فرق في وقوع الصّورة المتمثّلة بين يدي الحسّ المشترك بين أن يقع من جهة الخارج و يرتقى إليه باستعمال آلات الحواسّ لإدراك الخارجات و بين أن يقع من جهة الباطن و ينزل إليه

١ - الرّؤية التي يهوج إلى التأويل هو التشابه، فالقسم الأوّل محكم و الثاني متشابه، و على السّر التشابه تصرّف المتخيّلة و تبدّلها، فتدبرّ فيه «نوري».

٢ - والسّر فيه عدم كون المكاشف ذا فضيلة علميّة و حكمة بالغة و سيرة عادلة، لعدم كونه مقيّدًا بالدين القويم و سالكًا للضّراط المستقيم، فيصير من جنس الشّيطان الرّجيم و متعلّمًا منه و محلًّا لتصرّفه و عكسه على العكس كما لا يخفى «نوري».

باستعمال المتخيلة لا ستحضار ما في الخزانة من المدركات العقلية أو غيرها، بل كلما وقع عند الحس المشترك يكون مشاهدًا.

إذا تقرّر هذا فنقول: إنّ النفس قد يدرك إدراكًا من الغيب، فيبقى عين ما أدركته في الحفظ و قد يقبله قبولاً ضعيفاً يستولي عليه المتخيلة فيحاكيه بصورة محسوسة، فإذا قويت تلك الصورة في المتخيلة استتبته عين الحس المشترك وتمثّلت عنده فرأتها النفس بعين الحس مشاهدة وإن كانت الأجفان مغمضة وكان في ظلمة شديدة أيضاً. والذي يتخيله الإنسان في اليقظة إنّما لا يرى بعين الحس المشترك حتّى يصير مبصراً، لأنّ الحس المشترك مشغول بما يؤدّي إليه الحواس الظاهرة وهو أغلب، ولأنّ العقل يكسر من المتخيلة اختراعها ويكذبها ولا تقوى تصوّرها في اليقظة، فمهما ضعف العقل عن الرّدّ والتكذيب بسبب مرض من الأمراض أو خوف شديد لم يمنع أن ينطبع في الحس المشترك كما عليه الجمهور أو يحضره عنده كما نحن عليه، فيرى المريض صوراً لا وجود لها.

وكذا إذا غلب الخوف و اشتدّ الوهم و ضعف العقل المكذب تمثّل صورة المخوف للحس حتّى يشاهدها و يبصرها يخافه، ولهذا قد يرى الجبان الخائف صوراً هائلة لا وجود لها، والغول الذي يبصر في الصحاري و يسمع كلامه هذا سببه، و قد يشتدّ شهوة هذا العليل لضعف ما، فيشاهد ما يشتهي و يمدّ يده إليه و يرجع كأنه يأكل، و يرى أشخاصاً و أشياء لا وجود لها.

فإذا تمهّدت هذه المعلومات فنقول: أصول المعجزات و الكرامات ثلاثة أمور: لأنّ الإنسان الكامل ذو أجزاء ثلاثة: طبيعة، و نفس، و عقل، و يقال له: الروح أيضاً، وكلّ منها من عالم آخر و لكلّ منها كمال و نقص، و قلّ من الإنسان ما يكون كاملاً في الجميع. فكمال الروح - وهو العقل النظري - بالعلم بالحقائق و الأمور الإلهية.

و كمال النفس - وهي القوة الخيالية - باستثبات الصور الجزئية.

و كمال الطبيعة - وهو التصرف في المواد - بالإحاطة و القلب و التحريك.

و النبيّ هو الشخص الكامل في الجزء النظريّ من جهة الإلهام من الله فإذا حصلت له

الرّسالة أيضًا فقد كمل في القوّة التّفنسيّة أيضًا، وإذا كان صاحب شريعة وعزم فقد صار جامعًا للكمالات كلّها، فكأنّه ربّ إنسانيّ تجب طاعته بعد طاعة الله، ففي الإنسان الكامل الجامع للكمالات الإنسيّة ثلاث معجزات:

الأولى - خاصيّة في قوّة النّفس العمليّة، وهي أن يؤثّر في هوى العالم بإزالة صورة وإيجاد صورة، وبأن يؤثّر في استحالة الهواء إلى الغيّم ويحدث مطرًا مثل الطّوفان أو بقدر حاجة الاستسقاء، أو بأن يؤثّر في استحالة النّار بردًا أو سلامًا أو ما يجري مجرى هذين الأمرين وهذا أمر ممكن.

إذ قد ثبت في العلوم الإلهيّة أنّ الموادّ خاضعة للنّفس، والطّباع متأثّرة بها، وأنّ هذه الصّور المتعاقبة على الهوى من آثار النّفس الكلّيّة الفلكيّة وأنّ النّفس الإنسيّة من جوهر تلك النّفس^٢ وشديدة الشّبه بها، لأنّ نسبتها إليها نسبة السّراج إلى الشّمس، وذلك لا يمنع في كون السّراج مؤثّرًا في التّسخين والإضاءة كالشّمس.

وكذلك نفس الإنسان تؤثّر في هوى العالم، ولكنّ الغائب أن لا يتعدّى تأثيرها عن عالمه الخاصّ وهو بدنه فيقتصر تأثيرها عليه، ولذلك إذا حصلت في النّفس صورة مكروهة استحال مزاج البدن وحدثت رطوبة العرق، وإذا حصلت فيها صورة الغلبة بالغضب حمى مزاج البدن واحمرّ الوجه، وإذا وقعت فيها صورة مشهاة حصلت في أوعية المنى حرارة مسخنة منفخة حتّى يمتلئ به عروق آلة الوقاع، فهذه الحرارة والرّطوبة والبرودة حصلت في البدن عن مجرّد التّصوّر والتّوهّم.

وقد يتعدّى أثر بعض النّفس إلى بدن آخر، وذلك لقوّة فيها وإن كانت خبيثة حتّى يفسد الرّوح بالتّوهّم وتقتل الإنسان ويعبّر عن ذلك بإصابة العين، ولذلك قال:

العين حقّ^٣ وقال: العين تدخل الرّجل القبر والجمل القدر، وإذا كان هذا ممكنًا - سيّما في النّفس الخبيثة - فلم لا يكون لبعض النّفس العالية الشّريفة تأثير أقوى وأكثر

١ - الطّاعة طاعتان: تشريعيّة وتكوينيّة، والتّشريعيّة يحب وجوبًا بالنّسبة إلى صاحب الشّريعة، والتّكوينيّة يجب وجوبًا بالنّسبة إلى صاحب الإمامة التي هي فوق الخلّة كما مضى «نوري».

٢ - الولد سرّ أبيه «نوري».

٣ - ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ﴾ (القلم / ٥١) ولكن ليس لهم سلطان على الذين آمنوا، فافهم «نوري».

من هذا في التدور؟ و مثل ذلك يعبر عنه بالمعجزة و الكرامة.

الثانية - ما بحسب القوة الخيالية و هو: أن تقوى النفس الخيالية للإنسان قوة تتصل في اليقظه بعالم الغيب الصوري، فإن كان ذا فضيلة علمية يرى معلوماته في كسوة أفاظ مسموعة أو مكتوبة، و يرى مبدأها الملقى إياها له - أعني الملك - في صورة شخص إنساني، فربما كانت الصورة المحاكية للجوهر الشريف العقلي الإلهي في غاية الحسن و البهاء على أكمل هيئة و أجملها فيناجيه بالغيب، أو يرتسم صورة الأمر الغيبي مشاهدة، أو يسطر على سبيل كتابة، أو على طريق نداء هاتف غيبي يسمع ندائه و لا يعاين شخصه أو على سبيل غلبة ظن بالأمر الغيبي فيطلع.

فما بقي من الكلام محفوظاً فإن كان في التوم فهو رؤيا صادقة غير محتاج إلى التعبير كامراً، و إن كان في اليقظه فهو وحي صريح غير محتاج إلى التأويل و ما بطل هو، و بقيت محاكياته فهو وحي محتاج إلى تأويل أو حلم مفتقر إلى تعبير، و أما إذا قويت القوة الخيالية و لم يكن الشخص ذا فضيلة علمية أو سيرة عادلة فربما يرى ما يلقي الشيطان فتنة له و لغيره في اليقظه أو في التوم، وهذا حال أكثر الكهنة و المؤوسسين و ضرب من المتصوفة و أهل الخلوة من البطالين.

الثالثة - و هي أعلى الخواص النبوية و أشرفها، و هو كمال القوة النظرية و العقل النظري بأن يصفو الجوهر العقلي صفاء يكون شديد الاتصال بالعقل الفعال المسمى بالقلم الأعلى و المعلم الشديد القوى، و هو المفيض للعلوم بإذن الله على ألواح النفوس العقلية، فيستفيض منه العلوم و المعارف بلا واسطة معلم بشري في زمان يسير، و هذا ممكن أيضاً، فإن النفوس البشرية منقسمة إلى ما يحتاج إلى التعلم و إلى المستغني عنه.

والمحتاج إلى التعلم له مراتب متفاوتة: فمنهم قد لا يؤثر فيه التعليم و إن طال طلبه و كثر جدّه و تعب، و منهم من يتعلم على قرب، و كم من شخص يستنبط الشيء من نفسه من غير تعليم؛ بل العلوم كلها إذا تأملت فيها فهي من مستنبط النفوس، فإن كل معلم لو تعلم من غيره لذهب الأمر إلى ما لا نهاية و هو محال، بل يرتقي إلى من عرف من نفسه بحدس أو فكر بأن يحضر بهاله النتيجة فينتبه للحد الأوسط، كأنه ألقي في نفسه من حيث

لا يدري أو ينتبه للحد الأوسط فيختر النتيجة.

و يتفاضل النفوس في قوة الحدس وشدة الذكاء وسرعة الفهم إلى حدّ، و تبلغ إلى حدّ ينتقل ذهنه من معلوم إلى معلوم، وهكذا إلى آخر المعلومات في زمان قصير من غير تعلّم بشريّ، فيقال له: إنه نبيّ أو وليّ، وإنّ ذلك معجزة أو كرامة وهو أفضل أجزاء النبوة والرّسالة وهذا ممكن ليس بمحال، لأنّه إذا جازأن ينزل القصور إلى حدّ من البلادة يمنع عن الفهم من المتعلّم يجوز أن يترقّى الكمال إلى حدّ يغني عن التعلّم، كيف لا يمكن هذا ونحن رأيناكم من متعلّمين مدّة واحدة سبق أحدهما الآخر بحقائق العلوم التي خرجت عن حدّ أكثر الإفهام؟ مع أنّ اجتهاد الآخر أشدّ، وسعيه أكثر، ولكن لشدة الحدس وقوة الذكاء فيه والزّيادة على هذا كلّما وكيفاً من الممكنات.

فهذه الأحوال الثلاثة من المجزات والكرامات التي توجد لطبقات الأنبياء عليهم السلام، وقد يوجد بعضها لغير النّبيّ وقد لا يوجد بعضها للنّبيّ، إلّا أنّ النّبيّ بما هو نبيّ أو وليّ لا ينفكّ عن الخاصية الأخيرة، أعني العلم بالله وآياته وكلماته وباليوم الآخر بطريق الإلهام من الله بتوسط الملك، وهذا بالحقيقة تكليم من قبل الله له بالعلوم والآيات واستماع له منه إيّاها وإن لم ير المتكلّم معانية.

وهذا معنى ما روي عنه عليه السلام أنّه قال: إنّ في أمّتي مكلّمين محدّثين، ولكن هذا التّكليم والتّحديث على ضربين: ضرب لا يتعدّى من نشأة العلم والعقل، ولا ينزل إلى معدن التّخيّل والتّمثّل الحسيّ وهو الأكثر، وضرب يكون معه سماع حسيّ باطنيّ، أو في الخارج بأن يتعدّى صورة الكلام من الحسّ المشترك إلى الصّماخ ثمّ إلى الهواء الرّاكد فيه فيزعم أنّه سمع من الخارج.

و لنرجع إلى المتن، فقوله عليه السلام: «النّبيّ الذي يرى في المنام و يسمع الصّوت ولا يعاين الملك»، أراد بالرّؤية الرّؤية العقليّة العلميّة، وبالسماع أيضاً السمع العقليّ، وبالمنام التّشاة الباطنة، وبالصّوت الكلام العقليّ، وذلك لأجل التّفهيم والتعليم، فإنّ أكثر النّاس يعجزون عن إدراك الأمور العقليّة إلّا بصفة الأمور الحسيّة، ويحتمل أن يكون مراده ما هو الظّاهر من كلامه، فيكون النّبيّ يرى في منامه صورة ما ألهمه الله تعالى من العلوم والمعاني

في كسوة الألفاظ والأصوات والحروف و يسمعها، فحينئذ لا يكون هذه الخاصية من الخواص الشاملة للجميع، وقوله: «لا يعاين الملك» أي في اليقظة.

وقوله: «وَالرَّسُولُ الَّذِي يَسْمَعُ الصَّوْتَ وَيَرَى فِي الْمَنَامِ وَيُعَايِنُ الْمَلَكَ» أي في اليقظة، وإذا عاين الملك في اليقظة فكان سماع الصوت والكلام منه أيضاً في اليقظة، و وقوع ذلك ليس من جهة أسباب خارجية طبيعية بل هو بروز من مكامن الغيب إلى عالم الشهادة، فإن الذي يرى بعين الخيال إذا قوى واشتدّ تمثله أنفعل منه الحس الظاهر وتعدى إلى الخارج من غير أن يكون في مادة طبيعية، وكذا ما يسمع بسمع الباطن إذا قوى ينفعل منه الأذن ويتعدى صورته إلى الكلام الظاهر كما مر.

وها هنا مرتبة أخرى وهي أن يسمع الكلام في اليقظة ولا يعاين المتكلم، وهذه كلها منشؤها قوة التخيل والحس الباطن، وهي من خواص الرسل ﷺ بشرط أن يكون من قبل الله، ويكون وحياً بالعلوم الحقة وبما فيه مصالح العباد في المعاش والمعاد، وإلا فالكهنة والزهادين وبعض كفرة الهند قد تلقى إليهم بالمغيبات ويسمعون الكلام يوحى إليهم الشياطين زخرف القول غروراً.

وقوله ﷺ في باب الإمام: «يَسْمَعُ الصَّوْتَ وَلَا يَرَى وَلَا يُعَايِنُ الْمَلَكَ»، أراد بسماع الصوت قبول الإلهامات والتعليمات من الله بسمع عقلي من غير رؤية شيء في المنام ولا معاينة ملك في اليقظة، وليس كلام الله وحديثه بالحقيقة إلا إعلام الحقائق وإلهام الحق والصدق، لتنزّهه عن الألفاظ المسموعة والأصوات المحسوسة، ثم تلا الآية وكان في مصحفهم ﷺ هكذا بزيادة «ولا محدث».

الحديث الثاني

علي بن إبراهيم عن أبيه، عن إسماعيل بن مرار قال: كتب الحسن بن العباس المعروف... [وذكر كما تقدّم عن الكليني الرقم ١٤، ثم قال:]

الشرح

قوله: «الرّسول الذي ينزل عليه جبرئيل» وهو المسمّى بروح القدس، والمعلّم

شديد القوى، والمؤيد بإلقاء الوحي إلى الأنبياء وإلهام الحق للأولياء والرؤيا الصادقة للاتقياء، وهو الروح الأمين، والرسول الكريم، المعداد خصاله، العميم نواله في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾^١ وهو جبرئيل على لغة السريانيين، معناه عبدالله، لأنَّ «إيل» أو «إل» بلغتهم الإله، وهو جوهر روحاني عقلي كما دلَّ عليه بعض هذه النعوت ككونه عند ذي العرش مكين، فإنَّ ذي العرش هو الباري جلَّ ذكره، وهو منزّه عن المكان والجسميّة فكذا من عنده، وكونه مطاعاً في عالم الملكوت.

وأيضاً البرهان قائم على أنَّ معلّم العلوم - وهي صورة العقليّة - لا بدّ أن يكون عقلاً بالفعل، لكونه مُخرج النفوس من القوّة إلى الفعل في باب العقل والمعقول، ومفيد العقل أولى بأن يكون عقلاً بالفعل ومعقولاً وعاقلاً بالفعل، ومعنى نزوله على الرسول تمثّله بصورة البشر كما في قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾^٢. أي في أكمل صورة وأجملها، وكذا معنى نزول الوحي عليه كما في قوله ﷺ: «و ينزل عليه الوحي، بمثل العلوم الملقاة عليه بصورة الحروف والألفاظ المسموعة وهي كلام الله».

واعلم أنَّ كثيراً من أهل العلوم والمنتسبين إلى الحكمة من الحكماء الإسلاميين زعموا أنَّ هذه الصّور المريّة والمثّل المسموعة أمور مرتسمة في لوح الحسّ المشترك -الذي هو أيضاً عندهم قوّة قائمة في الجزء المقدّم للدماغ أو في الروح البخاريّ المصوب في ذلك الجزء - ارتساماً كارتسام الأعراض في موضوعاتها، أو يكون المرتسم من صورة الجوهر عندهم عرضاً خارجياً جوهرًا ذهنيًا.

وهذا كلّ لقصور المعرفة بعالم الملكوت وضعف الإيمان بالملائكة وصورة الوحي والكتاب، فإنَّ هذه الأمور موجودات عينيّة قائمة بذواتها لا في محلّ وهي أقوى في الموجديّة من هذه الأكوان الخارجيّة، إلّا أن نشأة وجوداتها نشأة أخرى وعالمها عالم آخر ولا يمكن إدراكها بهذه الحواسّ الدّائرة.

وقوّة الخيال ممّا أيضاً بحسّها المشترك، فهي قوّة قائمة بذاتها وبذات مبدئها العقليّ،

و ليست متعلّقة بالدماغ تعلّق الحلول ولا الصّور الخياليّة، بل الحسيّة مرتسمة في لوح الرّوح الدّمائي، بل ذلك كالمرآة مظهر من مظاهرها، ونحن قديمتًا جميع ذلك بالبراهين والشّواهد.

وقوله ﷺ: «و ربّما رأى في منامه نحو رؤيا إبراهيم ﷺ» أي لا ينافي الرّسالة الرّؤية في المنام كما وقع لإبراهيم ﷺ، وكان رسولاً وكلّ رسول نبيّ دون العكس.

وقوله: «والنّبيّ ربّما سمع الكلام» أي سماعاً عقليّاً^١ دون أن يرى الشّخص المتكلّم رؤية حسّيّة كما هو حال الإمام، و ربّما رأى الشّخص رؤية حسّيّة باطنيّة و لم يسمع أي الكلام منه، فيكون الرّؤية الحسيّة من جهة كونه رسولاً أيضاً، إذ النّبيّ أعمّ وأكثر أفراداً من الرّسول.

وقوله: «والإمام هو الذي يسمّع الكلام ولا يرى الشّخص» أي يسمع كلام الله بواسطة الرّوح القدسيّ سماعاً في اليقظة لكن لا بصورة الألفاظ، ولا يرى الواسطة متمثلاً شخصياً لا في اليقظة ولا في النّوم أيضاً كما دلّ عليه الحديث الآتي.

الحديث الثالث

محمّد بن يحيى عن أحمد بن محمّد، عن الحسن بن محبوب، عن الأخول قال: سألت أبا جعفر ﷺ عن الرّسول والنّبيّ والمحدّث... [و ذكر كما تقدّم مثله عن الصّفار الرّقم ١٠ ثمّ قال:]

الشّرح:

قد علمت أنّ الرّسول بما هو رسول هو الذي قويت قوّته التّفاسيّة الخياليّة فتتمثّل له الصّور العقليّة ومبدؤها المفيض عليه بصور حسّيّة، فيسمع كلاماً و يرى متكلّماً بسمعه و بصره الحسّيين الباطنيين، فالكلام كلام الله والمتكلّم هو ملك مقرب رسول واسطة بين الله و عبده، فالملك رسول من الله إلى الرّسول، والرّسول رسول منه إلى الخلق.

١ - يعني أنّ الرّؤية الحسيّة غير معتبرة في النّبوة بما هي نبوة و هكذا في الإمامة، وليس المراد أنّ الرّؤية الحسيّة منافية للنّبوة أو الإمامة، فافهم «نوري».

لأنّا قد ذكرنا فيما سبق أنّ القلب المعنويّ من الإنسان - وهو نفسه - له وجهان: وجه إلى عالم الغيب وهو مدخل الإلهام والوحي، ووجه إلى عالم الحسّ والشهادة، والذي يظهر منه في الوجه الذي يلي جانب الشهادة ومن أبوابها الحسيّة لا يكون إلّا صور متخيّلة، لأنّ عالم الشهادة كلّها متخيّلات وهميّات، لأنّ الخيال كما مرّ تارةً يحصل من النّظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالإحساس، فيجوز أن لا يكون الصّورة على وفق المعنى، حتّى يرى شخص جميل الصّورة خبيث الباطن قبيح السّرّ، لأنّ عالم الشهادة كثير التّلبّيس.

أمّا الصّورة التي تحصل في الخيال من النّظر إلى عالم الغيب ومن إشراق عالم الملكوت العلويّ على باطن سرّ القلب فلا يكون إلّا محاكيّاً للأُمور الإلهيّة وما ينبعث من جهة القدس ويكون الصّورة موافقه للمعنى، لأنّ الصّورة في عالم الملكوت تابعة للمعنى والصفة، فلا جرم يرى المعنى الحسن كالملك في صورة جميلة حسنة ويرى المعنى القبيح كالشيطان في صورة قبيحة كالحيّة والكلب والخنزير، ويكون تلك الصّور عنوان المعاني، ولذلك يدلّ القرد والخنزير في المنام على إنسان خبيث الباطن، ويدلّ الشاة على إنسان سليم الجانب وهكذا جميع أبواب التّعبير والتأويل، وهاهنا أسرار عجيبة تضيق المقام عن كشفها والإفهام عن وصفها: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾^١ فقولهم: «يأتيه جبرئيل قُبلاً» أي معاينة مشاهدة، فيراه ويكلّمه وهو عليه السلام يسمع كلامه بسمعه الحسيّ، فإنّ المعرفة العقلية إذا قويت أو اشتدّت تصوّرت بصورة مطابقة لها، وربّما تعدّت من معدن الخيال إلى مظهر خارجيّ كالهواء الصّافي فيكون الهواء كالمرآة. وقوله: «وأمّا النّبّيّ فهو الذي يرى في منامه» هذا ممّا يقع النّبّيّ ولكن ليس من الخواصّ الشّاملة التي لا يتحقّق النّبوة إلّا به، حتّى لو فرض أنّ أحداً كان عالماً بالعلوم الإلهيّة والأسرار الرّبانيّة بحيث لم يكن أحد مثله وكان أعلم الخلائق ولكن لم يتفق أن يرى في المنام فمثله لا يكون نبيّاً ويكون تابعاً، سيّما وقد يجيء في بعض أحاديث هذا الكتاب: أنّ النّاس فيما قدم من الزّمان لم يكن لهم رؤيا في مناماتهم.

وقوله: «وكان محمد ﷺ حين جمع له النبوة» إلى قوله: «قَبْلًا»، خبر، كذلك قوله: «يجيؤه بها جبرئيل عليه السلام» إلى آخره، يعني أنه ﷺ اتَّصفت ذاته بصفة النبوة، وجاءته الرسالة من عند الله باطنًا و سرًّا قبل أن يتَّصف بصفة الرسالة وينزل عليه جبرئيل معانيًا محسوسًا بالكلام المنزل المسموع من عند الله عزَّ وجلَّ، وإِنَّمَا جاءه جبرئيل منه تعالى بالرسالة حين جمع له من أسباب النبوة ما جمع للأنبياء الكاملين كإبراهيم عليه السلام من الرُّؤيا الصادقة والإعلامات المتتالية بحقائق العلوم والإحياءات بالمغيبات.

والحاصل أَنَّهُ ﷺ استكمل باطنه وسرّه قبل أن يتعدَّى صفة الباطن منه إلى الظاهر، واتَّصف القلب بصفة القلب محاكياً له، والأوَّل نهاية السَّفر إلى الله والثاني نهاية السَّفر من الحقِّ بالحقِّ إلى الخلق.

وقوله: «و من الأنبياء من جمع له النبوة ويرى في منامه ويأتيه الروح ويكلِّمه ويحدثه من غير أن يرى في اليقظة» هذا الجارُّ الأخير متعلِّق بمجموع «ويأتيه الروح ويكلِّمه ويحدثه من غير أن يرى»، والمراد بهذا التَّكليم والتَّحديث ما يكون في باطن السِّرِّ والعقل كلاًّما عقليًّا وحديثًا روحانيًّا، ولهذا عبَّر عن جبرئيل بالروح وهو روح القدس، لأنَّه في ذاته جوهر قدسيٍّ مالم ينزل عن سماء تجرّده وقربه، فإذا نزل عن مقام قربه تمثَّل وتصور بصورة تناسب المنزل عليه، وأيضًا لم يعبِّر عن إتيانه بالنزول بل قال: «ويأتيه الروح».

فعلم أنَّ التَّكليم والتَّحديث ليسا إلَّا مجرد إعلام الحقِّ وإلهام الصِّدق، وهذا بعينه حال المحدثين أيضًا كما في قوله ﷺ «إِنَّ فِي أُمَّتِي مَكْلَمِينَ مُحَدِّثِينَ»، والأوَّل - وهو قوله: «جمع له النبوة فيرى في منامه» - حال الأنبياء، وكذا قوله: «وأما المحدث فهو الَّذي يحدث فيسمع ولا يعاين ولا يرى في منامه»، أراد بالتَّحديث التَّعليم الباطني، وبالسمع السَّماع العقلي.

١ - حاصله: أنَّ رسولنا ﷺ كان رسولاً في الأزمنة السَّالفة سرًّا، وكان سائر الأنبياء كلِّ في زمانه رسولاً جهراً، ومحصّله: أنَّهم عليهم السلام كانوا حقيقةً مظاهر رسالته وهو الرُّسل المطلق وله الرِّسالة المطلقة؛ وهو من الغوامض المستترقة في الغموض والدقّة «نوري».

فاعلم أنّ هذه الأحوال السنيّة - ما خلا الرّسالة و رؤية جبرئيل عياناً و سماع الكلام منه صريحاً - ممّا يقع فيه الاشتراك بين الأنبياء و الرّسل و المحدثين من هذه الأُمّة، بل ما خلا الأرض عن التّبوّه الباطنيّة إلّا نبوّه التّشريع و إطلاق الاسم، و ما انقطعت الرّسالة و الوحي إلّا من وجه خاصّ و بقيت الإنذارات و المبشّرات.

قال بعض العرفاء ممّن لا يجازف في الكلام في الباب الخامس و الخمسين و المائة من كتابه: إنّ التّبوّه و الرّسالة قد انقطعت كما قاله رسول الله ﷺ، و ما انقطعت إلّا من وجه خاصّ انقطع منها مسمّي النّبّيّ و الرّسول، فهذا قال: «فلا رسول بعدي ولا نبيّ» ثمّ أبقي منها المبشّرات و أبقي منها حكم المجتهدين و أزال عنهم الاسم و بقي الحكم، و أمر من لا علم له بالحكم الإلهيّ أن يسأل أهل الذّكر، فيفتونه بما أدّى إليه اجتهادهم، وإن اختلفوا كما اختلف الشّرايع قال: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾^١.

و كذلك كلّ مجتهد جعل له شِرْعَةً من دليله و منهجاً، و هو ماعين دليله في إثبات الحكم و يحرم عليه العدول عنه، و قرّر الشّرع الإلهيّ ذلك كلّّه.

وقال: فالنّبوّه و الرّسالة من حيث عينها و حكمها و ما نسخت، وإنّما انقطع الوحي الخاصّ بالرّسول و النّبّيّ من نزول الملك على أذنه و قلبه و تحجير اسم النّبّيّ و الرّسول، فلا يقال في المجتهد: إنّّه نبيّ و لا رسول، كما حجّر الاجتهاد الأنبياء فيما تشرّعه، و هذا اللفظ خاصّ بالأنبياء و الرّسل.

ثمّ قال: و أمّا الأولياء فلمهم في هذه التّبوّه مشرب عظيم كما ذكرنا، و لا سيّما و النّبّيّ قد قال فيمن حفظ القرآن: «إِنَّ التّبوّه قد أدرجت بين جنبيه»، فإنّها له غيب و هي للنّبّيّ شهادة، فهذا هو الفرقان بين النّبّيّ و الوليّ في التّبوّه، فيقال فيه: نبيّ، و يقال في الوليّ: وارث، و الوراثة نعت إلهيّ فإنّه قال عن نفسه إنّّه: ﴿خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾^٢.

فالوليّ لا يأخذ التّبوّه من النّبّيّ إلّا بعد أن يرثها الحقّ منهم ثمّ يليقها إلى الوليّ إلى آخر هذا الكلام، و قد نقلنا الشّعّة فيما سبق من كلامنا في شرح الكتاب الأوّل.

الحديث الرابع

عليّ بن محمّد^١ ومحمّد بن يحيى، عن محمّد بن الحسين، عن عليّ بن حسان، عن ابن فضال، عن عليّ بن يعقوب الهاشمي... [وذكر كما تقدّم عن الكليني الرقم ١٦ ثم قال:] الشّرح:

أمّا شرح معنى «النّبيّ والرّسول والمحدّث» فقد مضى بما يسمع الوقت كشفه، وهذه علوم كسفيّة وذوقية ظفر بها علماء الآخرة، وحرّم ذلك على علماء الدّنيا الرّاعبين في جاهها ومالها، ولا يكاد نظر من لا ذوق له وإن كان معدوداً من أهل الذّكاء والفطنة أن يصل إليها، إذ العلم بها كالعلم بكيفية حلالة السّكر لا يحصل بالوصف ممّن ذاقه لمن لم يذقه. وممّا ينبئك عن شرف علوم أهل المعرفة وعلما الآخرة أنّ العلوم كلّها لا يتعذّر تحصيلها مع محبة الدّنيا والإخلاص بحقائق الإخلاص والتّقوى، بل ربّما كان محبة الدّنيا عوناً على تحصيلها واكتسابها، لا طّلاع الجمهور على نتائجها وثمراتها التي بها مصالح الخلق ونظام معيشتها الدّنيويّة، فيتحمّلون المشاقّ وسهر اللّيل والصّبر على الغربة والأسفار لطلب الحديث والأسناد العالية، لاستشعارهم حصول الجاه والرّفعة بحصول العلم. وأمّا علوم هؤلاء القوم فلا يحصل مع محبة الدّنيا ولا ينكشف إلّا بمجانبة الهوى والتّوحّش عن صحبة أبناء الزّمان وعاداتهم الرّديئة وأخلاقهم السيّئة وملازمة التّقوى، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْعِلْمَ مِيرَاثَ التَّقْوَى، وَغَيْرَ عُلُومِ هَؤُلَاءِ مَبْسُورٍ مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ بِلَا شَكٍّ، فَعَلِمَ مِنْ ذَلِكَ فَضْلَ عُلُومِ عُلَمَاءِ الْآخِرَةِ عَلَى عُلُومِ غَيْرِهِمْ. وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ: كَيْفَ يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي رَأَى فِي التَّوَمِ حَقًّا وَأَنَّهُ مِنَ الْمَلِكِ؟ فَهَذَا مِمَّا ذَكَرَهُ الصُّوفِيَّةُ فِي كُتُبِهِمْ وَبَحَثُوا عَنِ التَّمَيِّزِ بَيْنَ الْخَوَاطِرِ وَالْمَنَامَاتِ، وَالْفَرْقِ بَيْنَ مَا هُوَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ وَالْمَلِكِ وَبَيْنَ مَا هُوَ مِنْ قَبْلِ الشَّيْطَانِ وَالتَّنَفُّسِ. وَمَا أَجَابَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «يُوقِفُ لَذَلِكَ حَتَّى يَعْرِفَهُ» إِمَارَةً إِلَى أَنَّ مَنْ لَهُ أَهْلِيَّةٌ أَنْ يَرَى الْمَلِكَ فِي الْمَنَامِ كَانَ لَهُ مِنَ التَّوْفِيقِ الْإِلَهِيِّ وَالْهَدَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ أَنْ يَعْرِفَ بِهِ التَّمَيِّزَ بَيْنَ الْإِهَامِ الْمَلِكِ وَوَسوسة الشَّيْطَانِ لِأَنَّهُ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ عَلَيْهِ أَصْلُ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْمَقَامِ.

لكنّ العرفاء وأصحاب الرياضات و المكاشفات بعد ما يتّو أقسام المكاشفة و المشاهدة قد قرّروا للفرق بين الخواطر علامات و شواهد يعرفون بها صحّة مناماتهم و مكاشفاتهم.

قالوا أولاً في مراتب الكشف و أنواعها على الإجمال: إنّ الكشف منه معنويّ و منه صوريّ، و عيّنوا بالصوريّ ما يحصل في عالم المثال من طريق الحواسّ الخمس، و ذلك إمّا على طريق المشاهدة - كروية المكاشف صور الأرواح المتجسّدة و الأنوار الزوحيّة - و إمّا على طريق السّماع، كسماع النبيّ ﷺ الوحي النازل عليه كلاماً منظوماً أو مثل صلصلة الجرس و دويّ التحل كما جاء في الرواية، فإنّه ﷺ كان يسمع ذلك و يفهم المراد منه، أو على سبيل الاستنشاق و هو التّسّم بالنّفحات الإلهيّة و التّشّيق بالروائح الرّبوبيّة، حيث روي أنّه قال: «إنّ الله في أيّام دهركم نفحات، ألافتعّضوها»، و قال: «إنّي لأجد نفس الرّحمان من قبل اليمن».

أو على سبيل الملامسة، و هي بالاتّصال بين النّورين و أو بين الجسدين المثاليين^١، كما روي ابن عبّاس^٢ أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربّي في أحسن صورة فقال: فيم يختصم المלא الأعلى يا محمّد؟ قلت: أنت أعلم أي ربّي مرّتين، قال: فوضع الله كفّه^٣ بين كتفي فوجدت بردها بين تديي فعلمت ما في السّموات و الأرض، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^٤.

أو على طريق الذّوق، كمن يشاهد أنواعاً من الأطعمة فإذا ذاق منها و أكل اطّلع على معان غيبية، قال النبيّ ﷺ: «رأيت أنّي أشرب اللبن حتّى خرج الرّيّ^٥ من أظفاري، فأولت

١ - المثاليين «شرح الفصوص». ٢ - عبد الرّحمان بن عايش «الشرح».

٣ - لعلّ موضع الكفّ في هذا المقام هو الإشارة إلى أنّ اختصام الملاء الأعلى إنّما هو فيه إذا الملاء الأعلى منهم جماليّ و منهم جلائيّ، و أمّا الجماليّون فهو الموكّلون بالقانون بالأمر التشبيهيّ، و أمّا الجلائيّون فهو الموكّلون بالقانون بالأمّر التّزبيهيّ. فوضع الكفّ بين الكفين هو الإشارة إلى كون الكمال في باب المعرفة و تمامها هو القيام بالأمر بين الأمرين بأنّ يحصل التّزبيّه في عين التّشبيّه و التّشبيّه في عين التّزبيّه كما هو مقتضى المشرب الجامع، أعني مشرب جامع الجوامع كما قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم» «نوري».

٤ - الأنعام / ٧٥.

٥ - الرّي: الخصب، و أصله زويّ فقلّبوا الياء و أوّل الرّي: الماء الغزير، الرّي: اسم من ارتوى الشّجر.

ذلك بالعلم».

وأنواع الكشف الصوريّ إمّا أن يتعلّق بالحوادث الدنيويّة أم لا، فإن كانت متعلّقة بها تسمّى رهبانيّة، وأهل السلوك - لعدم وقوف همهم العالية في الأمور الدنيويّة - يلتفتون إلى هذه القسم من الكشف لصرفها في الأمور الأخرويّة وأحوالها، و يعدّونه من قبيل الاستدراج^١ والمكر بالعبد، بل كثير منهم لا يلتفتون إلى القسم الأخرويّ أيضًا، وهم الذين جعلوا غاية مقصدهم الفناء في الله والبقاء بالله وإن لم يكن متعلّقة بها فهي مطلوبة معتبرة.

وهذه المكاشفات قلّ ما تقع مجرّدة عن الاطّلاع بالمعاني الغيبية، بل أكثرها يتضمّن المكاشفات المعنويّة ويكون أعلى مرتبة وأكثر يقينًا لجمعها بين الصّورة والمعنى، ومنع هذه المكاشفات هو القلب الإنسانيّ^٢ بذاته و عقله المنور العمليّ المستعمل لحواسّه الروحانيّة، فإنّ للقلب عينًا و سمعًا وغير ذلك من الحواسّ؛ وفي الأحاديث المشهورة ما يؤيد ذلك كثيرة وتلك الحواسّ الروحانيّة أصل هذه^٣ الحواسّ الجسمانيّة، فإذا ارتفع الحجاب بينها وبين الخارجيّة يتّحد الأصل مع الفرع و يشاهد بهذه الحواسّ ما يشاهد بها، والروح يشاهد جميع ذلك بذاته، لأنّ الحقائق تتّحد في مرتبته، كما مرّ أنّ الحقائق كلّها في العقل الأوّل متّحدة.

وأما الكشف المعنويّ المجرّد من صور الحقائق الحاصل من تجلّيات اسم العليم والحكيم - وهو ظهور المعاني العقلية والحقائق الغيبية - فله أيضًا مراتب: ظهور المعاني في القوّة المفكّرة من غير استعمال المقدمات وتركيب القياسات بل بأن ينتقل الذّهن من المطالب إلى مبادئها و يسمّى بالحدس.

ثمّ في القوّة العاقلة المستعملة للمفكّرة و يسمّى بالثّور القدسيّ، والحدس من لوازم أنواره فهي أدنى مراتب الكشف المعنويّ، ثمّ في مرتبة القلب و يسمّى بالإلهام إن كان

١ - الاستدراج: هو إظهار الآيات و خوارق العادات على يد السالك مع سوء الأدب و مخالفة آداب الطّريقة، ولعله أدخلها في المعجزة ونحوها مجازًا «نوري».

٢ - والمراد من العقل هنا هو القلب الذي هو ملهم بالمعاني و يكشف له الحقائق والأرواح، كما سنشير إليه بعيد هذا «نوري».

٣ - اتّصل بهذه «الشرح».

٤ - أولها ظهور «الشرح».

المكشوف معنى من المعاني^١ وإن كان حقيقة من الحقائق أو روحاً من الأرواح يسمّى مشاهدة قلبية^٢ ثم في مرتبة الروح فيسمى بالشهود الرّوحيّ، فهو بذاته أخذ من الله العليم و يفيض على ماتحته من القلب وقوة الرّوحانيّة والجسمانيّة، ثم في مرتبة السرّ ثم في مرتبة الخفيّ بحسب^٣ مقاميهما^٤ ولا يمكن إليه الإشارة ولا يقدر على إعرابهما^٥ العبارة. فهذا خلاصة ما ذكره بعض الشّارحين لكتبهم مثل فصوص الحكم وغيره.

وقالوا أيضاً في الفرق بين الإلهام والوحي: إنّ الإلهام قد يحصل من الحقّ تعالى من غير واسطة الملك، والوحي يحصل بواسطته، ولذلك لا يسمّى الأحاديث القدسيّة بالوحي والقرآن وإن كانت كلاماً^٦ وأيضاً قد مرّ أنّ الوحي قد يحصل بشهود الملك و سماع كلامه فهو من كشف الصّوريّ المتضمّن للكشف المعنويّ، والإلهام من المعنويّ فقط، وأيضاً الوحي من خواصّ الرّسالة ومتعلّق بالظواهر^٧ والإلهام من خواصّ الولاية، وأيضاً هو مشروط بالتّبلغ كما قال: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلَّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ...﴾^٨، دون الإلهام.

وأما معرفة الخواطر وتفصيلها والتّمييز بين أقسامها فقد تعرّضوا لها و بسطوا القول فيها في كتبهم، ورووا عن رسول الله ﷺ أنّه قال: للشّيطان لَمّةٌ بآدم وللملك لَمّةٌ، وأَمَلَمّةُ الشّيطان فإيعاد بالسرّ وتكذيب بالحقّ، وأَمَلَمّةُ الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحقّ، فمن وجد ذلك فليعلم أنّه من الله وليحمد الله،^٩ ومن وجد الأخرى فليتعوّد بالله

١ - والفرق بين المعنى والحقيقة كالفرق بين العرض والجوهر، وبعبارة أخرى: كالفرق بين الماهيّة والوجود، والفرق بين القلب والروح كالفرق بين الفرقان والقرآن والكتاب والحكمة، ومحصله و مرجعه هو التّفصيل والإجمال، والروح مظهر الاسم، والاسم مظهر الذات كما يومىء إليه السرّ الخفيّ بوجه خفيّ «نوريّ»

٢ - إنّ كان الظاهر معنى من المعاني الغيبية لا حقيقة من الحقائق ولا روحاً من الأرواح وإن كان روحاً من الأرواح المجردة أو عيناً من الأعيان الثابتة فيسمّى مشاهدة قلبية «الشّرح».

٣ - قال الشّيخ العارف المحقّق كمال الدّين عبد الرّزاق القاساني في كتاب الاصطلاحات في المقامات الثلاثة: أي السرّ والخفيّ والأخفى: هي مقام قاب قوسين ومقام أو أدنى ومقام البقاء بعد الفناء، قال: المقام الأوّل هو التّرفّي إلى عين الجمع والحضرة الأحديّة، وهو مقام قاب قوسين ما بقيت الإنشينيّة، فإذا ارتفعت فهو مقام أو أدنى ونهاية الولاية، و الثّالث الشّير بالله عن الله للتّكميل وهو مقام البقاء بعد الفناء وهو الفرق بعد الجمع.

٤ - مقاميه «النسخة البدل في الشّرح».

٥ - إعرابها «الشّرح».

٦ - كلام الله تعالى «الشّرح».

٧ - من خواصّ النّبوة لتعلّقه بالظواهر «الشّرح».

٨ - المائدة / ٦٧.

٩ - فليحمد الله «الإحياء».

من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾^١. قالوا: ومن الخواطر ما هو رسل الله إلى العبد كما قال بعضهم: إِنَّ لِي قَلْبًا^٢ إِنْ عَصَيْتُهُ عَصَيْتُ اللَّهَ، وهذا حال عبد استقام قلبه.

وقد ورد في الخبر: «أَنَّ الشَّيْطَانَ جَاءَهُمْ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ خَسَّ^٣ وَإِذَا غَفَلَ التَّقَمَ فَحَذَنَهُ وَمَنَاهُ»، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^٤ فالَّذِي كَرَّلَهُ مِنْ إِحْدَى الْعَلَامَاتِ الَّتِي يَعْرِفُ بِهَا أَنَّ الْخَاطِرَ شَيْطَانِيٍّ أَمْ رُوحَانِيٍّ. وقالوا أيضًا: الفرق بين الواردات يتعلّق بميزان السالك المكاشف؛ وهذا قريب ممّا ذكره عليه السلام، ومع ذلك نوميء بشيء يسير ممّا ذكره في التّمييز وهو:

أَنَّ كُلَّ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِلْخَيْرِ بَحِيثٌ يَكُونُ مَأْمُونًا غَائِلَةً فِي الْعَاقِبَةِ وَلَا يَكُونُ سَرِيعَ الْإِنْتِقَالِ إِلَى غَيْرِهِ وَيَحْصُلُ بَعْدَ تَوَجُّهِ تَامٍّ إِلَى الْحَقِّ وَلَذَّةَ مُرْغَبَةٍ فِي الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ فَهُوَ مُلْكِيٌّ أَوْ رُوحَانِيٌّ، وَالَّذِي بِالْعَكْسِ شَيْطَانِيٌّ أَوْ نَفْسَانِيٌّ، وَمَا يُقَالُ مِنْ أَنَّ^٥ مَا يَظْهَرُ مِنَ الْيَمِينِ أَوْ الْقَدَامِ أَكْثَرُهُ مُلْكِيٌّ، وَمَا يَظْهَرُ مِنَ الْيَسَارِ وَالْخَلْفِ أَكْثَرُهُ شَيْطَانِيٌّ لَيْسَ مِنَ الضَّوَاطِ، إِذِ الشَّيْطَانُ يَأْتِي مِنَ الْجِهَاتِ كُلِّهَا كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: ﴿ثُمَّ لَا يَنبَغُهُمْ مِنَ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾^٦.

وأيضًا كلُّ ما يتعلّق بالأُمُور الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْحِظُوظِ النَّفْسَانِيَّةِ مِنَ الْكُشُوفِ وَالْمَشَاهِدَاتِ الْجَزْئِيَّةِ، مِثْلُ إِحْضَارِ الْأَشْيَاءِ الْغَائِبَةِ عَنِ الْمَكَاشِفِ فِي الْحَالِ، كإِحْضَارِ الْفَوَاكِهِ الصَّيْفِيَّةِ فِي الشِّتَاءِ مِثْلًا، وَالْإِخْبَارِ عَنْ قُدُومِ زَيْدٍ غَدًا وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يَعِدُّهُ الْعَامَّةُ كِرَامَةً فَهُوَ مِنَ الْجَنِّ، وَطَيِّبُ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، وَالتَّفُؤُذِ مِنَ الْجُدْرَانِ مِنْ غَيْرِ الْإِنْتِلَامِ وَالْإِنْشِقَاقِ أَيْضًا مِنْ خَوَاصِّهِمْ وَخَوَاصِّ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي فَوْقَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِهَا وَتَعَلَّقْ

١ - البقرة / ٢٦٨. ٢ - قال لي قلب «الإحياء».

٣ - تولى وخنس «الإحياء»، الخناس: الشَّيْطَانُ لِأَنَّهُ يَخْنَسُ إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ، أَيْ يَذْهَبُ وَيَسْتَرُّ، وَفِي التَّفْسِيرِ لَهُ رَأْسُ كِرَاسٍ الْحَيَّةِ... الْحَدِيثُ، فَيُقَالُ: خَنَسَ يَخْنَسُ، إِذَا تَأَخَّرَ. ٤ - الزُّخْرُفُ / ٣٦.

٥ - وما يقال: إِنَّ «الشرح».

٦ - الأعراف / ١٧ هذه العبارات مذكورة في الفصل السابع في مقدّمة شرح القيصريّ على الفصوص مع أدنى تغيير و توضيح وإسقاط بعض العبارات، ونبذة منها من إحياء العلوم للغزاليّ التي استطرد فيها.

بالآخرة، أو كان من قبيل الاطلاع على الضمائر وكشف القلوب و الخواطر، أو كشف القبور و ما يقع فيها ملكي، وكذا ما يتعلق بانكشاف العلوم الحقيقية، لأن الجن و الشياطين لا يقدرون على ذلك.

و الحق أن المكاشفات الصورية إن وقعت من غير الكاملين في العلم و اليقين فهي من باب الاستدراج و المكر، و من أسباب الشقاوة و البعد و الطرد عن باب الله إلى باب الشيطان و أمّا ما يكون للمتصرفين في الوجود^١ و أصحاب المقامات كالإحياء و الإماتة و إخراج المحبوسين في البرازخ من الحبس و قلب الحقائق العنصرية كقلب الماء هواء و بالعكس فذلك رحمانى من قبل الله، لأن أمثال هذه التصرفات من خواص المرتبة الإلهية القائم بها الكل من الرسل و الأقطاب كخاتم الأنبياء و الرسل و المهدي^{عليه السلام} في آخر الزمان.

و أمّا قوله ^{عليه السلام}: «لقد ختم الله بكتابتكم الكتب و ختم بنيكم الأنبياء» فوجه ذلك مع ما دلّ عليه من الشواهد السمعية و الآيات القرآنية: أن النفوس و الغرائز من زمن نزول آدم و ابتداء خلق العالم في الترقّي دائماً بحسب قابليّاتها و استعداداتها، و الارتقاء من حضيض النقص إلى ذروة الكمال، و الارتفاع من مهوى البعد و أرض السفالة إلى بقاع الرفعة و سماء القرب من المبدأ المتعال.

و ذلك ببعثة الأنبياء و نزول الملائكة بالكتب و الصُحف المنزلة عليهم من ملكوت السماء لتعليم الأمم و هدايتهم و تخليصهم عن القيود و التعلّقات و تكميل نفوسهم بأنوار العلوم و المعارف و الآيات، و كلّما زادوا في الاستعداد و صفت أذهانهم بالتلطيف و التأديب استعدّوا و استحقّوا لشريعة جديدة و أحكام أخرى ناسخة لما سبق من الأحكام، و هكذا إلى أن انتهت الشرائع و الأديان إلى شريعة لأكمل منها و دين لا أتمّ منه و هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^٢ و بلغت الكتب المنزلة إلى كتاب هو كلام

١ - السّرفه هو أن النّفس بما هي نفس، متعلّق بالبدن لا يؤثّر إيجاباً بل يؤثّر إعاداً، فإنّها تفعل و تؤثّر في البدن و بوصفه، فهي إمّا يكون مبدأ للحركة لا مبدأ للوجود، و الثّصرف بالايجاد شأن العقل الكلّي لا النّفس بما هي نفس، فانهم

الله النَّازِلَ بِالْحَقِّ عَلَى قَلْبِ عَبْدِهِ كَمَا قَالَ: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾^١ وَقَالَ: ﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾^٢ أَي نَزَلَ حَقَائِقُ الْقُرْآنِ وَأَنْوَارُ الْكِتَابِ عَلَى قَلْبِكَ بِالْحَقِيقَةِ مُتَجَلِّيةً بِسِرِّكَ وَرُوحِكَ، لِاصْوَرَةِ أَلْفَاظٍ مَكْتُوبَةٍ عَلَى الْأَوْحَاءِ أَحْجَارٍ مَقْرُوءَةٍ كُلِّ قَارِئٍ سُرِّيَانِيَّةً أَوْ عِبْرَانِيَّةً، وَكَمَا قَالَ: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾^٣ يَعْنِي نَزَلَ بِالْحَقِيقَةِ لَا بِالصُّورَةِ فَقَطْ.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ حَقِيقَةِ الْكِتَابِ الَّذِي هُوَ كَلَامُ الْحَقِّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾^٤ إِمَارَةً إِلَى أَنَّ تَعْلِيمَ الْقُرْآنِ بَأَن يَتَجَلَّى نُورُ الْكَلَامِ^٥ الَّذِي هُوَ حَقِيقَةُ الْقُرْآنِ عَلَى قَلْبٍ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

وَمِنْ عِلْمِهِ الرَّحْمَنِ الْقُرْآنُ^٦ بِهَذَا التَّعْلِيمِ يَكُونُ عَلَيْهِ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا عَظِيمًا، كَمَا قَالَ بَعْدَ امْتِنَانِهِ عَلَى عِبَادِهِ بَعَثَةَ الرَّسُولِ وَتَعْلِيمَهُ إِيَّاهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ...﴾ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ^٧

كَمَا قَالَ لِحَبِيبِهِ بَعْدَ تَعْلِيمِهِ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^٨. فَمِنْ ذَلِكَ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ فِي حَقِّهِ أَنَّ نَزَلَ عَلَى قَلْبِهِ حَقِيقَةُ الْقُرْآنِ قَبْلُ أَنْ نَزَلَ صُورَةُ الْكِتَابِ وَالْكَلَامِ عَلَى سَمْعِهِ، وَصُورَةُ الْمُتَكَلِّمِ وَهُوَ الْمَلِكُ عَلَى بَصَرِهِ وَقَالَ: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ^٩ يَعْنِي لَا تُطْغَنَنَّ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ إِنْزَالَ الْكِتَابِ الْأُخْرَى عَلَى الْأَنْبِيَاءِ كَانَ كَتَنْزِيلِ الْقُرْآنِ بِالْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ عَلَى قَلْبِكَ، فَيُكَاشِفُ عِنْدَ تَجَلِّيِ أَنْوَارِهِ وَحَقَائِقِ أَسْرَارِهِ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي مَقَامٍ أَوْ أَدْنَى، حَيْثُ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ مَلِكٌ مَقْرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مَرْسَلٌ.

١ - البقرة / ٩٧.

١ - آل عمران / ٣.

٢ - الشورى / ٥٢.

٣ - الإسراء / ١٠٥.

٥ - مرتبة الكلام مرتبة الصنع والصنع صفة الصانع، ومرتبة الكتاب مرتبة المصنوع والمصنوع لا يكون صفة للصانع، إِنَّ اللَّهَ لَا يُوصَفُ بِخَلْقِهِ فَاظْهَرُ «نُورِي».

٦ - فِيهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْكَامِلَ الْخَتَمِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَقَ وَيَخْلُقُ بِالْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ هُوَ الْبَيَانُ لِأَنَّهُ بَيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، وَفِي آيَةِ النَّشْرِ عَلَى تَرْتِيبِ أَلْفٍ فِيهِ سِرٌّ عَظِيمٌ فَتَطَلَّفْ لِلَّاءِ يَفُوتُ عَنْكَ سِرٌّ سَبِيحَةٌ كَرِيمَةٌ ﴿وَمَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُتٍ﴾ «نُورِي».

٨ - النساء / ١١٣.

٧ - الجمعة / ٢ و ٤.

٩ - آل عمران / ٣ و ٤.

وإنما أنزلت الكتب على الأنبياء ﷺ بالصورة على ظواهرهم مكتوبة في صحائف و ألواح يقرأها كل قارىء ويستوى.. في هداها الأنبياء والأئم لقوله: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾، عمتهم فيه، لأن معظم ما في التوراة الأحكام الظاهرة، وكنت مخصوصاً بالهداية وأهل بيت نبوتك عند تجلي أنوار القرآن على قلبك، فينعكس منه على قلوبهم للقربة والمناسبة المعنوية والصورية دون الصورية فقط كما قال: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾^١.

ثم قال مؤكداً لمعناه ومؤيداً لفحواه: ﴿وَ أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾^٢ سمّاه الفرقان كما سمّاه القرآن كل منهما من جهة أخرى، فالقرآن للمقام الجمعي والعلم الإجمالي، وهو المسمى عند الحكماء الإلهيين بالعقل البسيط، والفرقان لمقام الفرق والعلم التفصيلي المسمى عندهم بالعقل النفساني المنبعث من العقل البسيط انبعاث القدر من القضاء والقضاء من العناية، لأن العقل القرآني كل الأشياء كما مرّت الإشارة إليه.

وأيضاً سُمّي القرآن فرقاناً لحصول الفرق بين تنزيله على قلب الرسول الأُمّي وبين إنزال الكتب على ظاهر الأنبياء أو نفوسهم، وكذا الفرق متحقّق بين تعلّم القرآن وبين تعلّمهم الكتب، فإنهم كانوا يتدارسون الكتب والنبي ﷺ كان يتخلّق بالقرآن، فإن أفاد لهم الحكمة فقد أفادله أن أوتي جوامع الكلم، وبه فضّل على سائر الأنبياء وبخمس خصال أخرى لقوله: ﴿فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ﴾ وعدّ من جملتها بقوله: ﴿أُوتِيَتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ﴾^٣ فإن كانت الكتب يتصرّف فيهم، بأن يكون الكتاب مع أحدهم نوراً من الله يجيء به إلى قومه ليكون هدى لهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا مِنَ اللَّهِ وَهُدًى﴾^٤.

فإن تصرّف نورالقرآن على قلبه جعله نوراً من الله يجيء به إلى الأمة ومع القرآن

١ - الشورى / ٥٢.

٢ - آل عمران / ٤.

٣ - وهو تحليل الغنائم وطهارة الأرض واتخاذها مسجداً، والنصر المعروف وهو الرعب، وأوتي جوامع الكلم وأوتي مفاتيح خزان الأرض وختم النبوة - هذا حاصل ما قال الشيخ الأكبر الشيخ محي الدين في الباب الثاني عشر من الفتوحات: «إن هذه الستّ ممّا أوحى به السموات من قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾، وعين أياً من هذه هذه من أيّ سماء «نوري».

٤ - الأنعام / ٩١.

كما قال: قد جائكم من الله نور، وهو محمد ﷺ وكتاب مبين، وهو القرآن، فشتان بين نبين رسولين: نبي يجيء ويكون هو بذاته نوراً^١ ومعه كتاب، ونبي يجيء ومعه نور من الكتاب، و فرق أيضاً بين ما شرف به من إكرام الحق وبين ما شرفوا به، فقال تشريفاً لموسى ﷺ كلمه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾^٢ وقال تشريفاً لحبيبه: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾^٣ وقال تشريفاً لأُمته: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾^٤ فشتان بين نبي تشرف بكتابة الموعظة له في الألواح وبين نبي تشرف أُمته بكتابة الإيمان لهم في قلوبهم.

والإيمان عبارة عن العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فما أعظم وأشرف قدرهم فضلاً عن قدر نبيهم! وله الخلافة الكبرى ومظهرية الاسم الجامع الإلهي وهو اسم الله الجامع لجميع الأسماء الذي منه الفيض والاستمداد عليها، وكذا حال مربوبه ومظهره وهو حقيقة المحمدية التي تررب صور العالم ومعانيها، فبصورتها التي هي مظهر الاسم الظاهر يررب صور العالم وبياطنها يررب باطن العالم، لأنه صاحب الاسم الأعظم وله الربوبية المطلقة على الأسماء كلها، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾^٥.

وروي أنه قال ﷺ: «خُصِّصَتْ بَفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»، وهي مصدرة بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فجمع عوالم الأجسام والأرواح كلها، وهذه الربوبية من جهة حقيقته لا من جهة بشريته، فإنها من تلك الجهة فهي عبد مربوب محتاج، كما نبه عليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾^٦، ونبه بالجهة الأخرى^٧ بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتُ إِذْ

١ - فالنور الحقيقي القرآني صار في حقه ﷺ جوهرياً، والنور الكتابي صار في فهمه عرضاً و عرضياً، وهذا كالفرق بين الثرين الشمس والقمر، والأنوار التفصيلية يقوم بقلبه قيام صدور و بقلبيهم قيام عروض «نوري».

٢ - الأعراف / ١٤٥.

٣ - النجم - ١٠، مرتبة أوحى ما أوحى درجة الحكمة التي هي نور ينكشف به حقائق الأشياء كما هي، وأثر الموعظ كما قرّر في محلّه إنما هو عقد القلب على العمل بدين الحق ولا يوجب نوراً للإيمان ولا يلزم منه اليقين بخلاف الحكمة، قال الله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...﴾ «نوري».

٤ - التوبة / ٣٣.

٥ - المجادلة / ٢٢.

٦ - الكهف / ١١٠.

رَمِيتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى^٨، فأسند رميه إلى الله، وهذا المعنى لا يمكن إلاً بالقدرة التامة و الصفات الإلهية، فله كلّ الأسماء يتصرّف بها في العالم حسب استعدادهم.

ولما كانت هذه الحقيقة مشتملة على الجهتين الإلهية والعبودية لا يصحّ لها ذلك بالإصالة بل بالتبعية وهي الخلافة، فلها الإحياء والإمامة واللطف والقهر والرضا والسخط وجميع الصفات، ليتصرّف في العالم وفي نفسها وبشريّتها أيضاً لأنّها من العالم، وبكاؤه وضجره وضيق صدره لا ينافي ما ذكرناه فإنّه بعض مقتضيات ذاته و صفاته.

والحاصل أنّ رُبوبيّته و تصرّفه في العالم بالصفات الإلهية التي له من حيث مرتبته و قربه، و عجزه و مسكنته و جميع ما يلزمه من النقائص الإمكانية من حيث بشريّته الحاصلة من التقيّد والتّنزّل إلى العالم السفليّ، ليحيط بظاهرة خواصّ العالم الجسمانيّ و بباطنه خواصّ العالم الرّوحانيّ فيصير مجمع البحرين^٩ و مظهر العالمين، فنزوله أيضاً كماله كما أنّ عروجه إلى مقامه الأصليّ كماله، يعرف ذلك من تنوّر قلبه بالنور العرفانيّ فهذا ما قصدنا إيرادَه في هذا المرام والله وليّ الفضل والإينعام. (٤٣٤ - ٤٦٢).

٧ - الأولى في الاستشهاد للجهة الأخرى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، فإنّه صريح في الخلافة الكلّية في الرّبوبيّة المطلقة، فتلطّف فافهم إن شاء الله «نوري».

٨ - الأنفال / ١٧.

٩ - أقول: و من هنا ينكشف حقيقة حال ما في أسئلة رأس الجالوت لعلّي بن موسى الرضا عليه السلام و روعي لهما الفداء، حيث قال: ما الواحد المتكثّر و المتكثّر المتوحّد و الموحد الموجد و الجاري المنجمد و الناقص الرّائد؟ و قد صدر عن معدن العصمة و مصدر الحكمة عليه السلام ما صدر في مقام الجواب عن تلك الأسئلة المغامضة، و ساق الكلام عليه السلام في مقام إلى أن قال: «ونصّ به القرآن حيث قال: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ قَبَائِلُ آلِهِ رَبُّكُمْ كَذِبَانِ»، و تعلم قولنا: من كان في سنخ الإنسان... إلى آخره، و هو البرزخ، هو الحضرة الختمية عليه السلام، فافهم إن شاء الله «نوري».

الفصل الثامن عشر

نص العلامة المجلّسي (م: ١١١١) في «بحار الأنوار»

[في كيفية صدور الوحي ونزول جبرئيل عليه السلام]

﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ...﴾ الشّورى / ٥١

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ أي لا يصحّ له. ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي إلهامًا وقذفًا في القلوب، أو إلقاءً في المنام. ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ أي يكلمه من وراء حجاب كما كَلَّمَ موسى عليه السلام بخلق الصّوت في الطّور، وكما كَلَّمَ نبيّنا ﷺ في المعراج. وهذا إمّا على سبيل الاستعارة والتّشبيه، فإنّ من يسمع الكلام ولا يرى المتكلّم يشبه حاله بحال من يكلم من وراء حجاب. أو المراد بالحجاب الحجاب المعنويّ من كماله تعالى، ونقص الممكنات، ونوريّته تعالى، وظلمانيّة غيره... ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي ملكًا ﴿فَيُوحِي بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ فظهر أنّ وحيه تعالى منحصر في أقسام ثلاثة: إمّا بالإلهام والإلقاء في المنام، أو بخلق الصّوت بحيث يسمعه الموحى إليه، أو بإرسال ملك، وعلم الملك أيضًا يكون على هذه الوجوه^٢ والمَلَكُ الأوّل^٣ لا يكون علمه إلّا بوجهين منها، وقد يكون بأن يطالع في اللّوح... ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ عن أن يدرك بالأبصار، ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع الأفعال. ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا﴾، قيل: المراد القرآن، وقيل: جبرئيل، وسيأتي في الأخبار أنّ المراد به روح القدس. فعلى الأخيرين المراد بـ ﴿أَوْحَيْنَا﴾ أرسلنا ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي بأمرنا، أو أنّه من عالم

١ - وقيل: ١١١٠ هـ.

٢ - أي بالإلهام، أو بخلق الصّوت، أو بتوسيط ملك، وإمّا الإلقاء في المنام.

٣ - أي الملك الذي يأخذ عن الله بلا واسطة لا يكون عليه إلّا بالإلهام أو بخلق الصّوت.

الأمر، وقد مرّ تحقيقه وسيأتي. ﴿مَا كُنْتُ تَذَرِي﴾ أي قبل الوحي ﴿مَا الْكِتَابَ وَلَا الْإِيمَانَ﴾ قيل: الكتاب: القرآن، والإيمان: الصلاة، وقيل: المراد أهل الإيمان على حذف المضاف، وقيل: المراد به الشرائع ومعالِم الإيمان، وهو ﷺ لم يكن في حال من الأحوال على غير الإيمان. واستدلّ بهذه الآية على أنّه ﷺ لم يكن قبل النبوة متعبداً بشرع، و سيأتي تحقيقه. ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي القرآن أو الروح أو الإيمان. [ثم ذكر قول الطبرسي في تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى...﴾^١ كما تقدّم عنه، ثم ذكر أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ﴾ كما تقدّم عن القميّ، فقال: [٢٤٦: ١٨ - ٢٤٨]

١- أقول: سيأتي في تفسير النعمانيّ عن أمير المؤمنين ﷺ قال: «وَأَمَّا تفسِير وحي النبوة و الرسالة فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾^٢ إلى آخر الآية. وأما وحي الإلهام فهو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾^٣ و مثله ﴿وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقَاهِ فِي الْيَمِّ﴾^٤. وأما وحي الإشارة فقوله عزّ وجلّ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^٥ أي أشار إليهم، كقوله تعالى: ﴿الَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَمْزًا﴾^٦ و أما وحي التقدير فقوله تعالى: ﴿وَ أَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾^٧ و أما وحي الأمر فقوله سبحانه: ﴿وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي﴾^٨ و أما وحي الكذب فقوله عزّ وجلّ: ﴿شَیَاطِینَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ بِغَیْظٍ﴾^٩ إلى آخر الآية. و أما وحي^{١٠} الخبر فقوله سبحانه: ﴿وَ جَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾^{١١}.

٢- الیقطینی عن القدّاح، عن جعفر، عن أبيه ﷺ قال: «احتبس الوحي على

١ - النجم / ٥. ٢ - النساء / ١٦٣.

٣ - النحل / ٦٨. ٤ - القصص / ٧.

٥ - مريم / ١١. ٦ - آل عمران / ٤١.

٧ - فصلت / ١٢. ٨ - المائدة / ١١١.

٩ - الأنعام / ١١٢. ١٠ - أي الإخبار بواسطة الأنبياء ﷺ.

١١ - الانبياء / ٧٣، المحكم والمتشابه: ٢١ و ٢٢.

النَّبِيِّ ﷺ قُيِّل: احتبس عنك الوحي يا رسول الله؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: وكيف لا يحتبس عني الوحي وأنتم لا تقلّمون أظفاركم ولا تتقّون روائحكم»^١.

بيان: قوله: «روائحكم»، أي الكريهة، وفي الكافي^٢ وبعض نسخ المنقول منه «رواجبكم» وهو أظهر، وهي مفاصل أصول الأصابع، أو بواطن مفاصلها، أو هي قصب الأصابع أو مفاصلها، أو ظهور السّلاميات^٣، أو ما بين البراجم من السّلاميات، أو المفاصل التي تلي الأنامل، ذكرها الفيروزبادي. [ثم ذكر رواية عُبَيْد بن زُرارة عن أبيه، وأسئلة الزّنديق المدّعي لتناقض القرآن، كما تقدّم عن الصّدوق الرّقم ١ فقال:]

بيان: لعلّ سؤاله ﷺ عن رؤية الرّبّ تعالى بعد ما علم بالعقل أنّه يمتنع عليه الرؤية؛ ليعلم بالوحي أيضاً كما علم بالعقل، وليخبر النّاس بما أوحى إليه من ذلك.

[ثم ذكر قول عليّ بن إبراهيم في تفسير «لوح محفوظ» وروايته نقلاً عن أبي الجارود، عن أبي جعفر ﷺ. و ذكر أيضاً قول ابن شهر آشوب في كيفة نزول الوحي، كما تقدّم عنهما، فقال:]
بيان: قال في النّهاية في صفة الوحي: كأنّه صلّصلة على صفوان، الصّلصلة: صوت الحديد إذا حرّك، وقال: فيفصم عني، أي يقطع، وأفصم المطر، إذا أقطع وانكشف، وقال فيه: «كان إذا نزل عليه الوحي تفصّد عرقاً» أي سال عرقه، تشبيهاً في كثرته بالفصاد، و «عرقاً» منصوب على التّمييز، وقال فيه: «إذا أصابه الوحي كرب له» أي أصابه الكرب، «واربداً وجهه»، أي تغيّر إلى الغبرة. وقال: البرّح: الشّدّة، ومنه الحديث «فأخذه البرّحاء» أي شدة الكرب من ثقل الوحي.

٣- عن أبي بصير، عن أبي عبد الله ﷺ في قول الله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾^٤، مخفّفة، قال: «ظنّت الرّسل أنّ الشّياطين تمثّل لهم على صورة الملائكة».

٤- وعن أبي شعيب، عن أبي عبد الله ﷺ قال: «وكّلهم الله إلى أنفسهم أقلّ من طرفة عين».

٢- فروغ الكافي، ٢: ٢١٧.

١- قرب الإسناد: ١٣.

٣- السّلاميات: جمع السّلامي، كلّ مجوّف من صفار العظام الأصابع، والبراجم: جمع البرجمة، مفاصل الأصابع أو العظام

٤- يوسف / ١١٠

الصّغار في اليد والرّجل.

بيان: لعلّ المراد أنّ الله وكلّهم إلى أنفسهم ليزيد يقينهم بأنّهم معصومون بعصمة الله، فخطر ببالهم أنّ ما وعدوا من عذاب الأمم لعلّه يكون من الشّياطين، فصرف الله عنهم ذلك وعصمهم وثبّتهم على اليقين بأنّ ما أُوحي إليهم ليس للشّيطان فيه سبيل....

قال الطّبرسيّ: قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر: ﴿كُذِّبُوا﴾ بالتخفيف، وهي قراءة عليّ و زين العابدين ومحمّد بن عليّ وجعفر بن محمّد وزيد بن عليّ عليه السلام وابن عبّاس وابن مسعود وابن جبّير وغيرهم. وقرأ الباقر والتّشديد. قال أبو عليّ: الضّمير في ﴿ظَنُّوا﴾ على قول من شدّد للرّسل، أي تيقنوا أو حسبوا أنّ القوم كذبوهم. وأمّا من خفّف فالضّمير للمرسل إليهم، أي ظنّ المرسل إليهم أنّ الرّسل كذبوهم فيما أخبروهم به من أنّهم إن لم يؤمنوا أنزل بهم العذاب، وأمّا من زعم أنّ الضّمير راجع إلى الرّسل، أي ظنّ الرّسل أنّ الذي وعد الله سبحانه أممهم على لسانهم قد كذبوا به فقد أتى عظيمًا، لا يجوز أن ينسب مثله إلى الأنبياء ولا إلى صالحى عباد الله، وكذلك من زعم أنّ ابن عبّاس ذهب إلى أنّ الرّسل قد ضعفوا وظنّوا أنّهم قد أخلفوا؛ لأنّ الله لا يخلف الميعاد.^١

٥- عن زرارة، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كيف لم يخف رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يأتيه من قبل الله أيكون ممّا ينزع به الشّيطان؟ قال: فقال: «إنّ الله إذا اتّخذ عبدًا رسولاً أنزل عليه السّكينة والوقار، فكان يأتيه من قبل الله عزّ وجلّ مثل الذي يراه بعينه».^٢

[ثمّ ذكر الروایتين عن الكلينيّ، إحداهما: عن معاوية بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام، وثانيتها: عن ابن بكير، عن عمر بن يزيد، عن أبي عبد الله عليه السلام، كما تقدّم عنه، الرّقم ٦ و٧ ثمّ ذكر أيضًا رواية الطّالقانيّ عن أحمد بن إسحاق المادرائيّ... عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليه السلام، كما تقدّم عن الصدوق، الرّقم ٦، فقال:]

أقول: قال في المنتقى: كان النّبيّ صلى الله عليه وآله إذا غشيه الوحي ثقل على جسمه ما غشيه أمر الله. ٦- وفي الحديث المقبول أنّه صلى الله عليه وآله أُوحي إليه وهو على ناقته، فبركت و وضعت جرائنها^٣ بالأرض، فما تستطيع أن تتحرّك، وإنّ عثمان كان يكتب للنّبيّ صلى الله عليه وآله «لَا يَسْتَوِي

٢ - تفسير العيّاشي (مخطوط).

١ - مجمع البيان: ٥: ٢٦٩، ٢٧٠.

٣ - الجران من البعير: مقدّم عنقه. - يقال: ألقى البعير جرائنه، أي برك.

الْقَاعِدُونَ» الآية، وَفَخِذَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى فَخِذِ عُثْمَانَ، فَجَاءَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ بِي مِنَ الْعُدْرِ مَا تَرَى، فَغَشِيَهُ الْوَحْيُ، فَتَقَلَّتْ فَخِذَهُ، فَخِذَ عُثْمَانَ حَتَّى قَالَ: خَشِيتُ أَنْ تَرْضَاهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ: ﴿غَيْرُ أُولَى الصَّرَرِ﴾^١.

٧- وَرَوَى عَنْ أَبِي أُرْوَى الدَّوْسِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ الْوَحْيَ يَنْزِلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَ أَنَّهُ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ فَتَرَعُو^٢، وَ تَنْقَلُ يَدَيْهَا حَتَّى أَظَنَّ أَنَّ ذِرَاعَهَا يَنْفَصِمُ، فَرَبَّمَا بَرَكْتَ، وَ رَبَّمَا قَامَتْ مُؤْتَدَةً^٣ يَدَيْهَا حَتَّى تَسْرِي عَنْهُ مِنْ ثِقَلِ الْوَحْيِ، وَإِنَّهُ لَيَنْحَدِرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ^٤. (١٨: ٢٥٤-٢٦٣)

٨- عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ﷺ «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَتَاهُ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ وَ بَيْنَهُمَا جَبْرِئِيلُ ﷺ يَقُولُ: هُوَ ذَا جَبْرِئِيلَ، وَ قَالَ لِي جَبْرِئِيلُ، وَ إِذَا أَتَاهُ الْوَحْيُ وَ لَيْسَ بَيْنَهُمَا جَبْرِئِيلُ تَصِيْبُهُ تِلْكَ السَّبَبَةُ وَ يَغْشَاهُ مِنْهُ مَا يَغْشَاهُ لِثِقَلِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^٥ (١٨: ٢٧١).

[بِأَيِّ صُورَةٍ كَانَ يَأْتِي جَبْرِئِيلُ النَّبِيَّ ﷺ ؟]

[كَانَ جَبْرِئِيلُ يَنْزِلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِصُورَتَيْنِ: مَرَّةً لَا يَرَاهُ، إِذَا كَانَ يَنْزِلُ عَلَى قَلْبِهِ، وَ مَرَّةً يَرَاهُ، إِذَا فِي صُورَتِهِ الْأُصْلِيَّةِ، وَ قَدْ حَصَلَ هَذَا مَرَّتَيْنِ... وَ إِمَّا فِي صُورَةٍ «دِخِيَّةٍ بَن خَلِيفَةِ الْكَلْبِيِّ» وَ كَثِيرًا مَا كَانَ يَنْزِلُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ، وَ قَدْ رَأَاهُ بَعْضُ الصَّحَابَةِ وَ لَا سَيِّمًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، وَ دَلِيلُ ذَلِكَ مَا نَقَلَهُ الْعَلَامَةُ الْمَجْلِسِيُّ فِي الزَّوَايَةِ الثَّالِثَةِ:]

٩- لَمَّا اسْتَخْلَفَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ آوَى إِلَيْهِ عَمَّهُ الْحَكَمُ بْنُ الْعَاصِ وَ وَلَدَهُ مَرْوَانَ وَ الْحَارِثُ بْنُ الْحَكَمِ، وَ وَجَّهَ عَمَّالَهُ فِي الْأَمْصَارِ، وَ كَانَ فَيَمُنُ وَجَّهَ عَمْرَ بْنَ سُفْيَانَ بْنِ الْمُغِيرَةِ

١- النِّسَاءُ / ٩٥.

٢- رَغَا الْعَبِيدَ صَوْتٌ وَ ضَجٌّ، قَوْلُهُ: تَنْقَلُ يَدَيْهَا، فِي الْمَصْدَرِ: تَقْتَلُ يَدَيْهَا أَيْ تَلَوِيْهُمَا.

٣- مِنْ وَتَدْرِجُهُ فِي الْأَرْضِ أَيْ ثَبَّتَهَا، قَوْلُهُ: حَتَّى تَسْرِي فِي الْمَصْدَرِ: حَتَّى يَسْرِى مِنْ سَرَى عَنْهُ، أَيْ زَالَ عَنْهُ، مَا كَانَ يَجِدُهُ مِنَ الْغَضَبِ أَوْ الْهَمِّ. وَ الْجُمَانُ بِالضَّمِّ: اللَّوْلُو.

٤- الْمُنْتَقَى فِي مَوْلُودِ الْمُصْطَفَى: الْبَابُ الثَّانِي فِيمَا كَانَ فِي السَّنَةِ الْأُولَى مِنْ نَبُوْتِهِ ﷺ.

٥- الْحِمَاسُ - فِي الْعِلَالِ - ٣٣٨.

بن أبي العاص ابن أُمَيَّة إلى مُشكان، و الحارث بن الحكم إلى المدائن، فأقام فيها مدّة يتعسّف أهلها و يسيء معاملتهم، فوَقَدَ منهم إلى عثمان وفدٌ شكوا إليه، و أعلموه بسوء ما يعاملهم به، و أغلظوا عليه في القول، فولّى حُدَيْفَةُ بن اليمان عليهم و ذلك في آخر أيّامه، فلم ينصرف حُدَيْفَةُ بن اليمان من المدائن إلى أن قُتِلَ عثمان، و استخلف عليّ بن أبي طالب عليه السلام فأقام حُدَيْفَةُ عليها و كتب إليه: «بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من عبدالله عليّ أمير المؤمنين عليه السلام إلى حُدَيْفَةَ بن اليمان...».

[فلَمَّا أخذ حُدَيْفَةُ البيعة لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام من أهل المدائن، قام فتى و سأله عن إمرته عليه السلام، و الذين كانوا قبله]

فقال حُدَيْفَةُ: أيُّها الرّجل أَمَا إذا سألت و فَحَصْتَ هكذا فاسمع و افهم ما أخبرك به، أَمَا من تقدّم من الخلفاء قبل عليّ بن أبي طالب عليه السلام ممّن تسمّى أمير المؤمنين فإنّهم تسمّوا بذلك فسمّاهم النَّاسُ بذلك، و أَمَا عليّ بن أبي طالب عليه السلام فإنّ جبرئيل عليه السلام سمّاه بهذا الاسم عن الله تعالى، و شهد له رسول الله ﷺ عن سلام جبرئيل عليه السلام له بإمرة المؤمنين، و كان أصحاب رسول الله ﷺ يدعونه في حياة رسول الله ﷺ بإمرة المؤمنين. قال الفتى: خَبَرْنَا كيف كان ذلك يرحمك الله؟

قال حُدَيْفَةُ: إنّ النَّاسَ كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ قبل الحجاب إذا شاؤوا، فنهاهم رسول الله ﷺ أن يدخل أحد إليه و عنده دِحْيَةُ بن خليفة الكلبيّ، و كان رسول الله ﷺ يرأس قيصراً ملك الرّوم و بني حنيفة و ملوك بني غَسَّان على يده، و كان جبرئيل عليه السلام يهبط على صورته، و لذلك نهى رسول الله ﷺ أن يدخل المسلمون عليه إذا كان عنده دِحْيَةُ.

قال حُدَيْفَةُ و إنّني أقبلت يوماً لبعض أموري إلى رسول الله ﷺ مهجراً رجاء أن ألقاه خالياً، فلَمَّا صرت بالباب، فإذا أنا بالشَّمْلَةُ قد سُدِلَتْ على الباب، فرفعتها و هممت بالدّخول، و كذلك كنّا نضنع، فإذا أنا بدِحْيَةَ قاعد عند رسول الله و التّبيّ نائم و رأسه في حجر دِحْيَةَ، فلَمَّا رأيته انصرف، فلقيتني عليّ بن أبي طالب عليه السلام في بعض الطّريق فقال: «يا بن اليمان من أين أقبلت؟ قلت: من عند رسول الله ﷺ، قال: «و ماذا صنعت عنده؟»

قلت: أردت الدّخول عليه في كذا وكذا، فذكرت الأمر الذي جئت له فلم يتهيأ لي ذلك، قال: «ولم؟» قلت: كان عنده دحية الكلبي، وسألت عليّاً عليه السلام معونتي على رسول الله ﷺ في ذلك، قال: «فارجع معي» فرجعت معه.

فلما صرنا إلى باب الدّار جلست بالباب ورفع عليّ الشّملة ودخله وسلّم، فسمعت دحية يقول: و عليك السّلام يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، ثمّ قال: اجلس فخذ رأس أخيك وابن عمك من حجري فأنت أولى النّاس به، فجلس عليّ عليه السلام وأخذ رأس رسول الله ﷺ فجعله في حجره وخرج دحية من البيت، فقال عليّ: «ادخل يا حذيفة» فدخلت وجلست، فما كان بأسرع أن انتبه رسول الله ﷺ فضحك في وجه عليّ عليه السلام ثمّ قال: «يا أبا الحسن من حجر من أخذت رأسي؟» فقال: «من حجر دحية الكلبي» فقال: «ذلك جبرئيل عليه السلام، فما قلت له حين دخلت؟ وما قال لك؟» قال: «دخلت فسلمت فقال لي: و عليك السّلام يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته»، فقال رسول الله ﷺ: «يا عليّ سلّم عليك ملائكة الله وسكّان سماواته بإمرة المؤمنين من قبل أن يسلم عليك أهل الأرض، يا عليّ إنّ جبرئيل عليه السلام فعل ذلك من أمر الله تعالى، وقد أوحى إليّ عن ربّي عزّ وجلّ من قبل دخولك أن أفرض ذلك على النّاس، وأنا فاعل ذلك إنشاء الله تعالى».

فلما كان من الغد بعثني رسول الله ﷺ إلى ناحية فدك في حاجة فلبثت أيّاماً، فقدمت فوجدت النّاس يتحدّثون أنّ رسول الله ﷺ أمر النّاس أن يسلموا على عليّ عليه السلام بإمرة المؤمنين، وأنّ جبرئيل عليه السلام يسلم على عليّ عليه السلام بإمرة المؤمنين، و حدّثتهم الحديث، فسمعتني عمر بن الخطّاب وأنا أحدث النّاس في المسجد، فقال لي: أنت رأيت جبرئيل وسمعتة؟ اتّق القول، فقد قلت قولاً عظيماً أو قد خولط بك، فقلت: نعم، أنا سمعت ذلك ورأيت، فأرغم الله أنف من رغم، فقال يا أبا عبد الله لقد رأيت وسمعت عجباً... (٢٨: ٨٦ - ٩١).

١٠- من كتاب إسماعيل بن أحمد البُستي من علماء المخالفين، قال: من أسمائه ما سمّاه جبرئيل بها على ما رواه الخلق عن عليّ عليه السلام قال: دخلت على رسول الله ﷺ فوجدته و رأسه في حجر دحية الكلبي، وقائد الغرّ المحجلين، وقاتل النّاكثين و

المارقين و القاسطين - وقال: إمام المتقين في بعض الروايات - ثم قال له: تعال فخذ رأس نبيك في جحرِكَ فأنت أحقّ بذلك، فلما دنوت من رسول الله ووضعت رأسه في جحري لم أدرِ حية، وفتح رسول الله عينه وقال: يا عليّ من كنت تكلم؟ قلت: دحية الكلبي، و قصص عليه القصة، فقال لي: لم يكن دحية وإنما كان ذلك جبرئيل، أتاك ليعرفك أن الله تعالى سمّاك بهذه الأسماء»^١ (٣٧: ٣٢٢).

١١- محمد بن أحمد بن الحسن بن شاذان، عن سهل بن عبد الله، عن عليّ بن عبد الله، عن إسحاق بن إبراهيم الديري، عن عبد الرزاق بن هشام، عن معمر، عن عبد الله بن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: كنّا جلوساً مع النبي ﷺ إذ دخل عليّ بن أبي طالب ﷺ فقال: السّلام عليك يا رسول الله وقال: عليك السّلام يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال عليّ ﷺ: وأنت حيّ يا رسول الله قال: نعم وأنا حيّ يا عليّ، مرت بنا أمس يومنا وأنا وجبرئيل في حديث ولم تسلم، فقال جبرئيل ﷺ: ما بال أمير المؤمنين مرّ بنا ولم يسلم؟ أما والله لو سلّم لسررنا ورددنا عليه، فقال عليّ ﷺ: يا رسول الله رأيتك ودحية استخليتما في حديث فكرهت أن أقطع عليكما، فقال له النبي ﷺ: إنّه لم يكن دحية وإنما كان جبرئيل ﷺ، فقلت: يا جبرئيل كيف سمّيت أمير المؤمنين؟ فقال: كان الله أوحى إليّ في غزوة بدر أن أهبط على محمد فأمره أن يأمر أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب أن يجول بين الصّفيّين، فسّمّاه بأمر المؤمنين في السّماء، فأنت يا عليّ أمير المؤمنين في السّماء فأنت يا عليّ أمير المؤمنين في الأرض...»^٢ (٣٧: ٣٠٧).

١٢- من الكتاب المسمّى «حجّة التفصيل» تأليف ابن الأثير، عن محمد بن الحسين الواسطي، عن إبراهيم بن سعيد، عن الحسن بن زياد الأنماطي، عن محمد بن عبيد الأنصاري، عن أبي هارون العبديّ، عن ربيعة السّعديّ قال: كان حذيفة واليّا لعثمان على المدائن، فلما صار عليّ أمير المؤمنين كتب لحذيفة عهداً يخبره بما كان من أمره وبيعة النّاس إياه، فاستوى حذيفة جالساً وكان عليّاً فقال: قد والله ولاكم أمير المؤمنين حقاً - قالها: ثلاثاً - فقام إليه شابٌّ من الفرس متقلّداً سيفاً فقال: أيّها الأمير أتأذن في الكلام؟

قال: نعم، قال: اليوم صار أمير المؤمنين، أولم يزل أمير المؤمنين؟ فقال حذيفة: بل لم يزل والله أمير المؤمنين، قال: وكيف لنا بما تقول؟ قال: بيني وبينكم كتاب الله عز وجل، وإن شئت حدثتك ذلك لعهد علي بن أبي طالب، فقال الشائب: حدثنا يا أبا عبد الرحمن، فقال: إن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: إذا رأيتم دحية الكلبي عندي فلا يدخلن علي أحد وإني أتيت رسول الله ﷺ يوماً في حاجة فرأيت شملة مرخاة^١ على الباب، فرفعت الشملة فإذا أنا بدحية الكلبي، فغمضت عيني فرجعت، قال: فلقيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال لي: يا أبا عبد الرحمن من أين أقبلت؟ قلت: أتيت رسول الله ﷺ في حاجة، فلما أتيت منزله رأيت شملة مرخاة على الباب، فرفعت الشملة فإذا أنا بدحية الكلبي فرجعت، قال لي علي رضي الله عنه: ارجع يا حذيفة، فإني أرجعوا أن يكون هذا اليوم حجة على هذا الخلق، قال: فرجعت مع علي رضي الله عنه فوقفت على الباب ودخل علي رضي الله عنه فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ورد دحية فقال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا أمير المؤمنين من أنا؟ قال: أظنك دحية الكلبي قال: أجل خذ رأس ابن عمك فانت أحق به مني، فما كان بأسرع من أن رفع النبي ﷺ رأسه فقال: يا علي من حجر من أخذت رأسي؟ - و غاب دحية - فقال: أظنه من حجر دحية الكلبي، قال: أجل، فأني شئ قتل وأني شيء قيل لك؟ قال: قلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد علي: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا أمير المؤمنين، فقال النبي ﷺ: طوبى لك يا علي سلمت عليك الملائكة بإمرة المؤمنين من عند رب العالمين قال فخرج علي رضي الله عنه فقال: يا حذيفة أسمعت قلت: نعم، قال: فكيف سمعت؟ قال: قلت: كالذي سمعت، قال الفارسي: فأين كانت أسيافكم ذلك اليوم؟ - يعني يوم بيعة أبي بكر - قال: ويحك تلك قلوب ضرب عليها بالغفلة، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون.^٢ (٣٧: ٣٢٥ - ٣٢٦)

[بعد نقل روايات في الفرق بين الرسول والنبي والمحدث كما تقدم عن الصنفار

والكَلْبَنِي، قال:]

بيان: استنباط الفرق بين النبي والإمام من تلك الأخبار لا يخلو من إشكال وكذا

١ - الشملة: كساء واسع يشتمل به، أرخى الست: أشدله. ٢ - كشف اليقين: ١٣٧ - (ابن المطهر الحلي).

الجمع بينها مشكل جدًّا، والذي يظهر من أكثرها هو أنّ الإمام لا يرى الحكم الشرعيّ في المنام والتّبيّ قديره فيه، وأمّا الفرق بين الإمام والتّبيّ وبين الرّسول أنّ الرّسول يرى الملك عند إلقاء الحكم، والتّبيّ غير الرّسول والإمام لا يريانه في تلك الحال وإن رآياه في سائر الأحوال، ويمكن أن يخصّ الملك الذي لا يريانه بجبرئيل عليه السلام ويعمّ الأحوال، لكنّ فيه أيضًا منافاة لبعض الأخبار.

ومع قطع النظر عن الأخبار لعلّ الفرق بين الأئمة عليهم السلام وغير أولي العزم من الأنبياء أنّ الأئمة عليهم السلام نواب للرّسول ﷺ لا يبلّغون إلّا بالتّيابة، وأمّا الأنبياء وإن كانوا تابعين لشريعة غيرهم لكنّهم مبعوثون بالأصالة وإن كانت تلك التّيابة أشرف من تلك الأصالة. وبالجملة لا بدّ لنا من الإذعان بعدم كونهم عليهم السلام أنبياء وبأنّهم أشرف وأفضل من غير نبينا ﷺ من الأنبياء والأوصياء، ولا نعرف جهة لعدم اتّصافهم بالنبوة إلّا رعاية جلالة خاتم الأنبياء. ولا يصل عقولنا إلى فرق بين النبوة والإمامة، وما دلّت عليه الأخبار فقد عرفته، والله تعالى يعلم حقائق أحوالهم صلوات الله عليهم أجمعين.

عليّ، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن الحسين بن أبي العلا قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إنّما الوقوف علينا في الحلال والحرام فأما النبوة فلا.

بيان: أي إنّما يجب عليكم أن تقوموا عندنا وتعكفوا على أبوابنا والكون معنا لاستعلام الحلال لا أن تقولوا بنبوّتنا، وإنّما لكم أن تقفوا علينا في إثبات علم الحلال والحرام، وأنّا نواب الرّسول ﷺ في بيان ذلك لكم، ولا تتجاوزوا بنا إلى إثبات النبوة. (٨١: ٢٦-٨٣).

أحمد بن محمّد، عن الحسن بن محبوب، عن الأحول قال: سمعت زُرارة يسأل أبا جعفر عليه السلام... [وذكر كما تقدّم عن الصّفّار الرّقم ١٠، ثم قال:]

بيان: اعلم أنّ العلماء اختلفوا في الفرق بين الرّسول والتّبيّ، فمنهم من قال: لا فرق بينهما، وأمّا من قال بالفرق، فمنهم من قال: إنّ الرّسول من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والتّبيّ غير الرّسول من لم ينزل عليه كتاب وإنّما يدعوا إلى كتاب من قبله؛ ومنهم من قال: إنّ من كان صاحب المعجز وصاحب الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرّسول، ومن لم يكن مستجمعًا لهذه الخصال فهو التّبيّ غير الرّسول، ومنهم من قال: إنّ من جاءه الملك ظاهرًا وأمره بدعوة الخلق فهو الرّسول، ومن لم يكن كذلك بل رأى

في التّوم فهو النَّبِيُّ؛ كذا ذكره الرَّازِيّ وغيره، وقد ظهر لك من الأخبار فساد ماسوى القول الأخير لما قد ورد من عدد المرسلين والكتب، وكون من نسخ شرعه ليس إلا خمسة، فالمعول على هذا الخبر المؤيد بأخبار كثيرة مذكورة في الكافي. (١١: ٥٤)

الفصل التاسع عشر

نصّ البروسويّ (م: ١١٣٧) في تفسيره: «روح البيان»

[معنى الوحي وكيفيته وأقسامه]

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِّئٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا...﴾

الشورى / ٥١

أصل الوحي الإشارة السريعة، وإنما سمّي الوحي وحياً لسرعته، فإنّ الوحي عين الفهم عين الإلهام عين المفهوم منه كما يذوقه أهل الإلهام من الأولياء، وقد عرّف بعضهم الوحي بأنّه ما تقع به الإشارة القائمة مقام العبارة في غير عبارة. وقال الرّاعب: يقال للكلمة الإلهيّة التي تُلقَى إلى أنبيائه وأوليائه وحي.

يقول الفقير: يعلم منه أنّ الوحي والإلهام واحد في الحقيقة، وإنّما قيل: الوحي في الأنبياء والإلهام في الأولياء تأدّباً، كما قيل: دعوة الأنبياء وإرشاد الأولياء، فاستعملوا الدّعوة في الأنبياء والإرشاد في الأولياء مع أنّهما أمر واحد، فالوحي إمّا بإلقاء في الرّوع كما ذكره عليه السلام: «إنّ روح القدس نفث في روعي»، وإمّا بالإلهام نحو قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾^١، وإمّا بتسخير نحو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾^٢ أو بنوم كقوله عليه السلام: «انقطع الوحي وبقيت المبشرات رؤيا المؤمن». فهذه الأنواع دلّ عليها قول: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ فمعناه إلّا بأنّه يوحي إليه ويلهمه ويقذف في قلبه كما أوحى إلى أم موسى و إلى إبراهيم في ذبح ولده وإلى داود الزّبور في صدره، قاله مجاهد.

﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ بأن يسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه، فهو تمثيل له بحال الملك المحتجب الذي يكلم بعض خواصه من وراء الحجاب يسمع صوته ولا يرى شخصه، وإلا فالله تعالى منزّه عن الاستتار بالحجاب الذي هو من خواص الأجسام، فالحجاب يرجع إلى المستمع لا إلى الله تعالى المتكلم، وذلك كما كَلَّمَ الله تعالى موسى في طُوًى والطُّور، ولذا سَمَّى كليم الله لأنّه سمع صوتاً دالاً على كلام الله من غير أن يكون ذلك الصَّوت مكتسباً لأحد من الخلق، بل تَوَلَّى الله تخليقه إكراماً له، وغيره يسمعون صوتاً مكتسباً للعباد فيفهمون به كلام الله، هذا مذهب إمامنا أبي منصور ذكره في كتاب التأويلات، وذهب أبو الحسن الأشعري إلى أن موسى سمع كلام الله من غير واسطة صوت أو قراءة، وإلى هذا ذهب ابن فُورُك من الأشعرية قال في «كشف الأسرار» كلّمه وبينهما حجاب من نار.

قال الكاشفي: «كَلَّمَ الله تعالى موسى وكان وراء الثَّور، وكَلَّمَ الله تعالى النَّبِيَّ ﷺ من وراء حجابين، يعني أن الرّسول ﷺ سمع كلام الله من وراء حجاب من ياقوته حَمراء، و من وراء حجاب من دُرّة بيضاء، وكان المسير بين الحجابين مسافة سبعين عاماً»^١. يقول الفقير: هذا من غوامض العلوم، فإنّ نبيّنا ﷺ أعلَى كعباً من موسى ﷺ، فما معنى أن الله تعالى كَلَّمَ موسى من وراء حجاب وكَلَّمَ نبيّنا من وراء حجابين وإن حصل فرق بين حجاب و حجاب؟ ولعلّ المراد بالحجابين حجاب الياقوتة الحَمراء الذي يلي جانب الخلق و حجاب الدُرّة البيضاء الذي يلي عالم الأمر، وكلاهما عبارة عن الرّوح المحمّديّ والحقيقة الأحمدية، وإشارة كون مسافة ما بين الحجابين مسيرة سبعين ألف حجاب بين الرّبّ والعبد، فمعنى أن النَّبِيَّ ﷺ سمع كلام الله من وراء هذين الحجابين أن الله تعالى كلّمه وبينهما الحقيقة الجامعة البرزخية وليس ذلك بحجاب في الحقيقة، كما أن المرأة ليست بحجاب للنّاظر وكذا القناع بالنسبة إلى العروس، فافهم جيّداً.

﴿أَوْ يُرْسَلْ رَسُولاً﴾، أي ملكاً من الملائكة إمّا جبريل أو غيره، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما لم ير جبرائيل إلا أربعة من الأنبياء: موسى وعيسى وزكريّا ومحمّد ﷺ، قال

في عين المعاني: عسى أنّه أراد برؤيته كما هو وإلاّ فهو سفير الوحي.
 ﴿فَيُوحِي﴾ ذلك الرّسول إلى المرسل إليه هو الرّسول البشريّ ﴿يَاذُنِي﴾ أي بأمره تعالى
 وتيسيره ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أن يوحيه إليه، وهذا هو الذي جرى بينه تعالى وبين الأنبياء ﷺ في
 عامّة الأوقات من الكلام فيكون إشارة إلى التكلّم بواسطة الملك. روي أنّ النّبي ﷺ قال:
 «من الأنبياء من يسمع الصّوت فيكون بذلك نبياً، ومنهم من ينفث في أذنه وقلبه فيكون
 بذلك نبياً، وأنّ جبرائيل يأتيني فيكلّمني كما يكلّم أحدكم صاحبه» وعن عائشة أنّ
 الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ... [وذكر كما تقدّم عن النّسائي].

﴿أَنَّهُ عَلَيَّ﴾ متعال عن صفات المخلوقين، لا يأتي جريان المفاوضه بينه تعالى و
 بينهم إلّا بأحد الوجوه المذكورة. ﴿حَكِيمٌ﴾ يجري أفعاله على سنن الحكمة، فيكلّم تارةً
 بواسطة وأخرى بدونها، إمّا إلهاً أو خطاباً وفي التّأويلات التّجميّة: يشير إلى أنّ البشر
 مهما كان محجوباً بصفات البشريّة، موصوفاً بأوصاف الخلقيّة الطّلمائيّة الإنسانيّة،
 لا يكون مستعدّاً أن يكلّمه الله إلّا بالوحي، أو بالإلهام في التّوهم واليقظة، أو من وراء
 حجاب بالكلام الصّريح، أو يرسل رسولاً من الملائكة فيوحي بإذنه ما يشاء إنّهُ ﴿عَلَيَّ﴾
 بعلوّ القدم لا يجانسه محدّث ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يساعد البشر بإفناء أنا نيّته بهويّته، فإذا
 أفنيت البشريّة وارتفعت الحجب وتبدّلت كينونته بكينونة الحقّ حتّى به يسمع وبه يبصر
 وبه ينطق، فيكلّمه الله تعالى شفاهاً وبه يسمع العبد كلامه كفاحاً كما كان حال النّبي ﷺ
 في سرّ. ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ...﴾ يعني سمع المصطفى ﷺ ليلة المعراج كلام الحقّ
 بدون واسطة.

وكان آمن الرّسول ممّا شافهه به الحقّ تعالى من غير حجاب، كذا قوله: ﴿هُوَ الَّذِي
 يُصَلِّيٰ عَلَيْكُمْ مِّلْكُهُ﴾^١ إلخ، وكذا بعض سورة (الصّحى) وبعض سورة (آلم نشرح)، ولزم
 من سماع كلامه مشافهة رؤيته بلا حجاب، وكذا حال المؤمنين يوم القيامة فإنّهم يرون
 ربّهم كما يرون القمر ليلة البدر و يسمعون كلامه بلا حجاب.

فالوحي إذاً قسمان: مشافهة وغير مشافهة، وعليه يحمل ما روي أنّ اليهود قالت

لِلنَّبِيِّ ﷺ أَلَا تَكَلِّمُ اللَّهَ وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا كَمَا كَلَّمَهُ مُوسَى وَنَظَرَ إِلَيْهِ؟ فَإِنَّا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تَفْعَلَ ذَلِكَ، فَقَالَ ﷺ: «لَمْ يَنْظُرْ مُوسَى إِلَى اللَّهِ فَزَلَتْ فَأُشَارَ إِلَى أَنَّ الْكَلَامَ حَصَلَ لِمُوسَى وَلَكِنْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ دُونَ النَّظَرِ، وَكَذَا لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا دَامَ عَلَى حَالِ الْبَشَرِيَّةِ، وَكَذَا مَارُوي عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْغَرِيَّةَ، ثُمَّ قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعُوا رَبَّكُمْ يَقُولُ وَتَلْتَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ عِلْمٌ إِلَّا الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَنْزِلَ فِيهِ مِنْ رَبِّهِ عِثَانًا﴾، فَعَبَّرَ بِعِنَاوَانِ الْبَشَرِيَّةِ وَلَيْسَ مِنْ حَدِّ الْبَشَرِ أَنْ يَرَى رَبَّهُ عِثَانًا وَهُوَ فِي حَدِّ الدُّنْيَا بَاقٍ عَلَى بَشَرِيَّتِهِ أَوْ يَكَلِّمُهُ اللَّهُ كِفَاحًا.

قال حضرة الشيخ الأكبر رحمه الله في «تلقيح الأذهان»: تكليم الله البشر في ثلاث مراتب كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ عِلْمٌ إِلَّا الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَنْزِلَ فِيهِ مِنْ رَبِّهِ عِثَانًا﴾، فالكلّ وحي ولكن بعضه بلا واسطة عند خروجه عن حدّ البشريّة، إلّا أنّك إن كنت أنت السّامع لم تحصل على هذه المشاهدة الذاتيّة حتّى تكون أنت المسموع، فمشاهدة الذات لا تتمّ مع المناجاة وبعضه بواسطة عند الرّجوع إلى البشريّة ولا تزال هكذا حتّى تفنى عن نفس السّماع وتبقى مشاهدًا للحقّ لتسمع نفسه بنفسه، فإنّه من تحقّق بالانفراق حتّى سمع ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾^١ سمع قوله: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ انتهى.

قال الشيخ روزبهان البقليّ في «عرائس البيان» كانت لي واقعة في ابتداء الأمر و ذلك أنّي شاهدت الحقّ بالحقّ، وكاشف لي مشاهدة جماله، وخاطبني من حيث الأرواح لا من حيث الأشباح، فغلب عليّ سكر ذلك، وأفشيت حالي بلسان السكر، فتعرّض لي واحد من أهل العلم وسألني: كيف تقول ذلك وأنّ الله سبحانه وتعالى أخبرنا بأنّه لم يخاطب أحدًا من الأنبياء والرّسل إلّا من وراء حجاب كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ عِلْمٌ إِلَّا الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَنْزِلَ فِيهِ مِنْ رَبِّهِ عِثَانًا﴾، فقلت: صدق الله، هذا إذا كانوا في حجاب البشريّة، فإذا خرجوا بشرط الأرواح إلى عالم الغيب و رأوا الملكوت، ألبسهم الله أنوار قربه وكحلّ عيونهم بنور ذاته، وألبس أسماعهم قوّة من قوى الرّبوبيّة وكشف لهم سرّ الغيرة وحجاب المملكة، وخاطبهم كِفَاحًا وَعِثَانًا،

ولنبيّن ﷺ أخصّ خاصيّة، إذ هو مصطفى في الأزل بالمعارج والمشاهدة، فإذا صار جسمه روحه و كان واحداً من كلّ الوجوه صعد إلى الملكوت، ورأى الحق بنور الجبروت، وسمع خطابه بلا واسطة ورأى الحق بلالحجاب، إذ الحجاب وصف المخلوقين والحق منزّه عن أن يحجبه شيء.

وحكي أن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال له شخص: أرني ربّي! فقال: «أولم تسمع أن الله يقول لموسى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ مع أنّه نبيّ عظيم»؟ قال: إنّ من هذه الملة الأحمدية من يقول: رأى قلبي ربّي، ومنهم من يقول: لا أعبد ربّاً لم أره، فلمّا لم يمك من مسألته أمر جعفر بأن يُلقى ذلك الشخص في الدّجلة ففعلوا، فقال: يا بن رسول الله الغياث! قال الصادق: «يا ماء اغمسه» حتّى فعل ذلك مراراً، يعني استغاث بالصادق، فلمّا انقطع رجاؤه عن الخلق قال: إلهي الغياث...

فقد علمت من هذا التّفكير أن الآية تدلّ على جواز الرؤية لا على امتناعها، وإنّما تدلّ على الامتناع حال البشريّة وبقائها.

﴿وَكَذَلِكَ﴾، أي مثل ذلك الإيحاء البديع أوكما أوحينا إلى سائر رسلنا ﴿أَوْخَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ هو القرآن الذي هو للقلوب بمنزلة الرّوح للأبدان حيث يحييها حياة طيّبة، أي يحصل لها به ما هو مثل الحياة، وهو العلم النّافع المزيل للجهل الذي هو كالموت. و قال الرّاغب: سمّي القرآن روحاً لكونه سبباً للحياة الأخرويّة الموصوفة في قوله: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾^١. ومعنى ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ بالفارسيّة: ﴿بِفَرْمَانِ مَا أَوْ﴾ ﴿رُوحًا﴾ ناشئاً و مبتدأ من أمرنا، وقد سبق في «حم المؤمن» وقيل: هو جبرائيل، ومعنى إيحاؤه إليه ﷺ إرساله إليه بالوحي.

فإن قلت: كيف علم الرّسول ﷺ في أول الأمر أن الذي تجلّى له جبرائيل وأنّ الذي سمعه كلام الله تعالى؟.

قلت: خلق الله تعالى له علماً ضرورياً علم به ذلك، والعلم الصّوريّ يوجب الإيمان الحقيقيّ ويتولّد من ذلك اليقين والخشية فإنّ الخشية على قدر المعرفة...

﴿مَا كُنْتُ تَذَرِي﴾ قبل الوحي في أربعين سنة، والمراد وحي النبوة. ﴿مَا الْكِتَابُ﴾، أي أي شيء هو؟ يعني أي أنك ما كنت تدري أن القرآن منزل، والتفي معلق للفعل عن العمل، وما بعده سادّ مسدّ المفعولين ومحلّ (ما كنت) إلخ.

﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾، أي الإيمان بتفاصيل ما في تضاعيف الكتاب من الأمور التي لا تهتدي إليها العقول لا الإيمان بما يستقلّ به العقل والنظر، فإنّ درايته ﷺ له ممّا لا ريب فيه قطعاً، فإنّ أهل الوصول اجتمعوا على أنّ الرّسل ﷺ كانوا مؤمنين قبل الوحي معصومين من الكبائر ومن الصّغائر الموجبة لنفرة النّاس عنه قبل البعثة وبعدها فضلاً عن الكفر، وهو مراد من قال لا يعرف القرآن قبل الوحي ولا شرائع الإيمان ومعالمه وهي إيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي صلاتكم، سمّاها إيماناً لأنّها من شُعَب الإيمان، ويدلّ عليه أنّه ﷺ قيل له: هل عبدت وثناً قط؟ قال: لا، قيل: هل شربت خمرًا قط؟ قال: لا، وما زلت أعرف أنّ الذين هم عليه كفرو ما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان، أي الإيمان الشرعيّ المتعلّق بتفاصيل الأحكام؛ ولذلك أنزل في الكتاب ﴿مَا كُنْتُ تَذَرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾.

قال ابن قُتَيْبَةَ: لم تزل العرب على بقايا من دين إسماعيل من الحجّ والختان والتّكاح وإيقاع الطّلاق والغسل من الجنابة وتحريم ذوات المحارم بالقرباة والمصاهرة، وكان رسول الله ﷺ على ما كانوا عليه في مثل هذه الشّرائع، وكان يوحّد ويغض اللّات والعزّى ويحجّ ويعتمر، ويتّبع شريعة إبراهيم ﷺ ويتعبد بها حتّى جاءه الوحي وجاءته الرّسالة. فقول البيضاوي: وهو دليل على أنّه لم يكن متعبداً قبل النبوة بشرع ممنوع فإنّ عدم الدّراية لا يلزمه عدم التّعبد، بل يلزمه سقوط الإثم إن لم يكن تقصير، فالحقّ أنّ المراد هو الإيمان بما لا طريق إليه إلّا السّمع. وقال بعضهم: هذا تخصيص بالوقت، يعني

كان هذا قبل البلوغ حين كان طفلاً وفي المهد ما كان يعرف الإيمان، وهو ضعيف، لأنّه ﷺ أفضل من يحيى و عيسى ﷺ وقد أُوتى كلّ الحكم والعلم صبياً. وقال بعضهم: هو من باب حذف المضاف، أي ولا أهل الإيمان، يعني من الذي يؤمن ومن الذي لا يؤمن قبل أن ظهر إيمان من آمن وكفر من كفر، كما قال ابن الفضل: أهله، لأنّه ظنّ أنّ أباطالب يؤمن، كما قال ﷺ: «أردنا إسلام أبي طالب وأراد الله إسلام العباس، فكان ما أراد الله دون ما أردناه»، وهو ضعيف أيضاً، لأنّه ﷺ لا يدري بعد الوحي أيضاً جميع من يؤمن ومن يصير إلى آخر العمر... (٨: ٣٤٤ - ٣٤٨)

الفصل العشرون

نصّ الآلوسي (م: ١٢٧٠) في تفسيره: «روح المعاني»

[أقسام الوحي ورؤية الله]

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا...﴾

الشورى ٥١

ظاهره حصر التكليم في ثلاثة أقسام

الأول - الوحي، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ وفسره بعضهم بالإلقاء في القلب سواء كان في اليقظة أم في المنام، والإلقاء أهم من الإلهام، فإن إحياء أم موسى إلهام، وإحياء إبراهيم عليه السلام إلقاء في المنام وليس إلهامًا، وإحياء الزبور إلقاء في اليقظة - كما روي عن مجاهد - وليس بإلهام؛ والفرق أن الإلهام لا يستدعي صورة كلام نفساني فقد وقّد، وأما اللفظي فلا، وأما نحو إحياء الزبور فيستدعيه، وقد جاء إطلاق الوحي على الإلقاء في القلب في قول عبيد بن الأبرص:

وأوحى إليّ الله أن قد تأمروا بابن أبي أو في فقمتم على رجلي
فإنه أراد قذف في قلبي.

والثاني - إسماع الكلام من غير أن يبصر السامع من يكلمه كما كان لموسى، وكذا الملائكة الذين كلمهم الله تعالى في قضية خلق آدم عليه السلام ونحوهم، وهو المراد بقوله سبحانه ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾، فإنه تمثيل له سبحانه بحال الملك المتحجب الذي يكلم بعض خواصه من وراء حجاب يسمع صوته ولا يرى شخصه.

والثالث - إرسال الملك كالعالم من حال نبينا ﷺ وهو حال كثير من الأنبياء عليهم السلام،

وزعم أنّه من خصوصيّات أولي العزم من المرسلين غير صحيح، وهو المراد بقوله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي ملكًا ﴿فَيُوحِيَ﴾ ذلك الرّسول إلى المرسل إليه - الذي هو الرّسول البشريّ - ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بأمره تعالى وتيسيره سبحانه ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أن يوحيه.

وهذا يدلّ على أنّ المراد من الأوّل الوحي من الله تعالى بلا واسطة، لأنّ إرسال الرّسول جعل فيه إحياء ذلك الرّسول، وبنيّ المعتزليّ على هذا الحصر أنّ الرّؤية غير جائز، لأنّها لو صحّت لصحّ التّكليم مشافهة فلم يصحّ الحصر. وقال بعض: المراد حصر التّكليم في الوحي بالمعنى المشهور والتّكليم من وراء حجاب، وتكليم الرّسل البشريّين مع أمهم، واستبعد بأنّ العرف لم يطرد في تسمية ذلك إحياء، وقال القاضي: إنّ قوله تعالى: ﴿إِلَّا وَحِيًّا﴾ معناه إلّا كلامًا خفيًّا يدرك بسرعة، وليس في ذاته مركّبًا من حروفٍ مقطعةٍ، وهو ما يعمّ المشافهة كما روي في حديث المعراج، وما وعد به في حديث الرّؤية، والمهتف به كما اتّفق لموسى عليه السلام في الطّور، لكن عطف قوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ عليه يخصّه بالأوّل، فالآية دليل على جواز الرّؤية لا على امتناعها، وإلى الأوّل ذهب الزّمخشريّ وانتصر له صاحب «الكشف» عفا الله تعالى عنه، فقال: «وأمّا نحن فنقول والله تعالى أعلم: إنّ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ عَلَى التّعظيم يقتضي الحصر بوجه لا يخصّ التّكليم بالأنبياء عليهم السلام، ويدخل فيه خطاب مريم وما كان لأُمّ موسى وما يقع للمحدّثين من هذع الأُمّة وغيرهم، فحمل الوحي على ما ذهب إليه الزّمخشريّ أولى.

ثمّ إنّ يلزم القاضي أن يكون ما وقع من وراء حجاب وحيا لا أنّه يخصّصه، لأنّه نظير قولك: «ما كان أن تنعم إلّا على المساكين وزيد»، نعم يحتمل أن يكون زيد داخلا فيهم على نحو: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ﴾^١ وهذا يضرّ القاضي، لاقتضائه أن يكون هذا القسم - أعني ما وقع من وراء حجاب - أعلا المراتب فلا يكون الثاني هو المشافهة، وتقدير ﴿إِلَّا وَحِيًّا﴾ من غير حجاب أو من وراء حجاب خلاف الظّاهر، وفيه فكّ للنّظم لقوله سبحانه: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾، وهو عطف على قوله تعالى: ﴿إِلَّا وَحِيًّا﴾ مع كونه خلاف الظّاهر.

وعلى هذا يفسد ما بني عليه من حديث التّنزّل من القسم الأعلى إلى مادونه، ومع

ذلك لا يدلّ على عدم وقوع الرؤية فضلاً عن جوازه، بل دلّ على أنّها لو وقعت لم يكن معها المكاملة وذلك هو الصحيح، لأنّ الرؤية تستدعي الفناء والبقاء به عزّ وجلّ، وهو يقتضي رفع حجاب المخاطب المستدعي كوناً وجوديّاً، ثمّ الكامل لتوفيته حقّ المقامات الكبرى يكون المحتظي منه بالشّهود في مقام البقاء المذكور، ومع ذلك لا يمنعه عن حفظه من سماع الخطاب لأنّه حظّ القلب المحجوب عن مقام الشّهود، والمقصود أنّ الذي يصحّ ذوقاً وتقلّلاً وعقلاً كون الخطاب من وراء حجاب البتّة وهو صحيح، لكن لا ينفع منكر الرؤية ولا مثبتها، وأمّا سؤال التّرقّي في الأقسام، فالجواب عنه أنّ التّرقّي حاصل بين الأوّل والثّاني الذي له سميّ الكليم كليماً، وأمّا الثّالث فلمّا كان مجازيّاً آخر عن القسمين ولم ينظر إلى أنّه أشرف من القسم الأوّل، فإنّ ذلك الأمر غير راجع إلى التّكليم بل لأنّه مخصوص بالأنبياء ﷺ انتهى.

وتعقّب ما اعترض به على القاضي بأنّه لا يرد، لأنّ الوحي بذلك المعنى بالتّخصيص المذكور والتّقييد المأخوذ من التّقابل صار مغايراً لما بعده، وليس من شيء من التّبليين حتّى يذهب إلى التّرقّي أو التّدليّ، لأنّه لا يعطف بأو، بل بالواو كما لا يخفى، ولزوم أن لا يكون الواقع من وراء حجاب وحيّاً غير مسلّم، لأنّه إن أراد أن لا يكون وحيّاً مطلقاً فغير صحيح، لأنّ قوله تعالى بعده: ﴿فَيُوحِي بِأُذُنِهِ﴾ قرينة على أنّ المراد بالوحي السّابق وحي مخصوص كالذي بعده، وإن أراد أنّه لا يكون من الوحي المخصوص السّابق فلا يضرّه لأنّه عين ما عناه، نعم الحصر على ما ذهب إليه القاضي غير ظاهر إلّا بعد ملاحظة أنّه مخصوص بما كان بالكلام فتدبّر.

والظّاهر أنّ عائشة رضي الله تعالى عنها حملت الآية على نحو ما حملها المعتزلة، أخرج البخاريّ ومسلم و التّرمذيّ عنها أنّها قالت: من زعم أنّ محمّداً رأى ربّه فقد كذب ثمّ قرأت: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^١ «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ» وأنت تعلم أنّ أكثر العلماء على أنّ النّبيّ ﷺ رأى ربّه سبحانه ليلة الإسراء لكثرة الروايات المصرّحة بالرؤية، نعم ليس فيها تصرّيح بأنّها

بالعين لكنّ الظاهر من الرؤية كونها بها، والمرويّ عن الأشعريّ وجمع من المتكلّمين أنّه جلّ شأنه كلّمه عليه الصّلاة والسّلام تلك اللّيلة بغير واسطة، ويُعزى ذلك إلى جعفر بن محمّد الباقر وابن عبّاس وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم وهو الظاهر، للأحاديث الصّحاح في مرادة الصّلاة واستقرار الخمسين على الخمس وغير ذلك، وعائشة رضي الله تعالى عنها لم تنف الرؤية إلّا اعتماداً على الاستنباط من الآيات، ولو كان معها خبر لذكرته، واحتجاجها بما ذكر من الآيات غير تامّ، أمّا عدم تماميّة احتجاجها بآية: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾^١ فمشهور، وأمّا عدم تماميّة الاحتجاج بالآية الثّانية فلمّا سمعت عن صاحب «الكشف»^٢.

وقال الخفّاجيّ بعد تقرير الاحتجاج: بأنّه تعالى حصر تكليمه سبحانه للبشر في الثّلاثة: فإذا لم يره جلّ وعلا من يكلمه سبحانه في وقت الكلام لم يره عزّ وجلّ في غيره بالطّريق الأولى، وإذا لم يره تعالى هو أصلاً لم يره سبحانه غيره إذ لا قائل بالفصل. وقد أجب عنه في الأصول بأنّه يحتمل أن يكون المراد حصر التّكليم في الدّنيا في هذه الثّلاثة، أو نقول: يجوز أن تقع الرؤية حال التّكليم حيّاً، إذ الوحي كلام بسرعة وهو لا ينافي الرؤية انتهى.

ولا يخفى عليك أنّ الجواب الأوّل لا ينفع فيما نحن بصدده، إلّا بالتزام أنّ ما وقع لنبيّنا عليه الصّلاة والسّلام تلك اللّيلة لا يعدّ تكليماً في الدّنيا على ما ذكره الشّربلاليّ في إكرام أولى الأبواب لأنّه كان في الملوكوت الأعلى، وأنّه يستفاد من كلام صاحب «الكشف» منع ظاهر للشرطيّة في وجه الاستدلال الذي قرّره، وبعضهم أجاب بأنّ العام مخصّص بغير ما دليل.

وفي البحر قيل: «قالت قريش: ألا تكلم الله تعالى وتنتظر إليه إن كنت نبياً صادقاً كما كلف جلّ وعلا موسى ونظر إليه تعالى، فقال لهم الرّسول ﷺ: «لم ينظر موسى ﷺ إلى الله عزّ وجلّ فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِابْصَرِ﴾ الآية وهذا ظاهر في أنّ الآية لم تتضمّن التّكليم الشّفاهي مع الرؤية، وكذا ما فيه أيضاً كان من الكفّار خوض في تكليم الله تعالى

موسى عليه السلام، فذهبت قريش و اليهود في ذلك إلى التجسيم فنزلت، فإنّ عدم تضمّنها ذلك أدفع لتوهم التجسيم.

و بالجملة الذي يترجّح عندي ما قاله صاحب «الكشف» قدّس سرّه: إنّ الآية لا تنفع منكر الرؤية ولا مثبتها، و ما ذكر من سبب التّزول ليس بمتيقّن الثبوت، و يفهم من كلام بعضهم أنّ الوحي كما يكون بالإلقاء في الرّوع يكون بالخطّ، فقد قال التّخعي: كان في الأنبياء عليهم السلام من يخطّه في الأرض، ومعناه اللّغويّ يشمل ذلك، فقد قال الإمام أبو عبد الله التّيميّ الأصبهاني: الوحي أصله التّفهيم، و كلّ ما فهم به شيء من الإلهام و الإشارة و الكتب فهو وحي، و قال الرّاغب: أصل الوحي الإشارة السّريعة... [و ذكر كما سيجيء تفصيله عن المصطفويّ...].

«إِنَّهُ عَلَيَّ حَكِيمٌ» يجري سبحانه أفعاله على سنن الحكمة، فيكلّم تارةً بواسطة و أخرى بدونها، إمّا إلهاماً و إمّا خطاباً أو إمّا عياناً و إمّا خطاباً من وراء حجاب على ما يقتضيه الاختلاف السّابق في تفسير الآية.

«وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا» و هو ما أوحى إليه عليه السلام أو القرآن الذي هو للقلوب بمنزلة الرّوح للأبدان حيث يحييها حياة أبدية، و قيل: أي و مثل الإحياء المشهور لغيرك أوحينا إليك، و قيل: أي و مثل ذلك الإحياء المفصّل أوحينا إليك، إذا كان عليه الصّلاة و السّلام اجتمعت له الطّرق الثّلاث، سواء فسّر الوحي بالإلقاء أم فسّر بالكلام الشّفاهي، و قد ذكر أنّه عليه الصّلاة و السّلام قد ألقي إليه في المنام كما ألقي إلى إبراهيم عليه السلام، و ألقي عليه في اليقظة على نحو إلقاء الرّبور إلى داود عليه السلام.

ففي «الكبريت الأحمر» للشّعرايّ نقلاً عن الباب الثّاني من الفتوحات المكيّة أنّه عليه السلام أعطى القرآن مجملاً قبل جبرئيل عليه السلام من غير تفصيل الآيات و السّور، و عن ابن عبّاس تفسير الرّوح بالنبوة. و قال الرّبيع: هو جبرئيل عليه السلام، و عليه «أَوْحَيْنَا» مضمّن معنى أرسلنا، و المعنى أرسلناه بالوحي إليك، لأنّه لا يقال: أوحى الملك بل أرسله.

و نقل الطّبرسيّ عن أبي جعفر و أبي عبد الله رضي الله تعالى عنهما أنّ المراد بهذا الرّوح ملك أعظم من جبرئيل و ميكائيل كان مع رسول الله صلى الله عليه و آله و لم يصعد إلى السّماء، و

هذا القول في غاية الغرابة ولعله لا يصحّ عن هذين الإمامين، و تنوين ﴿رَوْحًا﴾ للتّعظيم، أي روحًا عظيمًا.

﴿مَا كُنْتُ تَذَرِي مَا لِكِتَابٍ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ الظاهر أنّ «مَا» الأولى نافية، والثانية استفهامية في محل الرفع على الابتداء، و ﴿الْكِتَابُ﴾ خبر، و الجملة في موضع نصب بـ ﴿تَذَرِي﴾، و جملة ﴿مَا كُنْتُ﴾ إلخ حالية من ضمير ﴿أَوْحَيْنَا﴾، أوهي مستأنفة، والمضي بالنسبة إلى زمان الوحي.

واستشكلت الآية بأنّ ظاهرها يستدعي عدم الانّصاف بالإيمان قبل الوحي و لا يصحّ ذلك، لأنّ الأنبياء ﷺ جميعًا قبل البعثة مؤمنون لعصمتهم عن الكفر بإجماع من يعتدّ به، وأجيب بعدة أجوبة؛

الأول - أنّ الإيمان هنا ليس المراد به التّصديق المجرد بل مجموع التّصديق والإقرار والأعمال، فإنّه كما يطلق على ذلك يطلق على هذا شرعًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ والأعمال لا سبيل إلى درايتها من غير سمع فهو مركّب والمركّب ينتفي بانتفاء بعض أجزائه، فلا يلزم من انتفاء الإيمان المركّب بانتفاء الأعمال انتفاء الإيمان بالمعنى الآخر أعني التّصديق، وهو الذي أجمع العلماء على انّصاف الأنبياء ﷺ به قبل البعثة، ولذا عبّر بـ ﴿تَذَرِي﴾ دون أن يقال: لم تكن مؤمنًا، وهو جواب حسن و لا يلزمه نفي الإيمان عمّن لا يعمل الطّاعات ليكون القول به اعتزالًا كما لا يخفى.

الثاني - الإيمان إنّما يعني به التّصديق بالله تعالى و برسوله عليه الصّلاة و السّلام دون التّصديق بالله عزّ وجلّ و دون ما يدخل فيه الأعمال، و النّبي ﷺ مخاطب بالإيمان برسالة نفسه كما أنّ أمته ﷺ مخاطبون بذلك، ولا شك أنّه قبل الوحي لم يكن عليه الصّلاة و السّلام يعلم أنّه رسول الله و ما علم ذلك إلّا بالوحي، إذا كان الإيمان هو التّصديق بالله تعالى و رسوله ﷺ و لم يكن هذا المجموع ثابتًا قبل الوحي - بل كان الثّابت هو التّصديق بالله تعالى خاصّة المّجمّع على انّصاف الأنبياء ﷺ به قبل البعثة - استقام نفي الإيمان قبل الوحي، و إلى هذا ذهب ابن المنير.

الثالث - أنّ المراد شرائع الإيمان و معالمه ممّا لا طريق إليه للسّمع، و إليه ذهب

محيى السنّة البغويّ وقال: إنّ النّبى ﷺ كان قبل الوحي على دين إبراهيم عليه السلام ولم تتبين له عليه الصلّة والسلام شرائع دينه، ولا يخفى أنّه إذا لم يعتبر كون الكلام على حذف مضاف يلزمه إطلاق الإيمان على الأعمال وحدها وهو خلاف المعروف.

الرّابع - أنّ الكلام على تقدير مضاف، فقيل: التقدير دعوة الإيمان، أي ما كنت تدري كيف تدعو الخلق إلى الإيمان، وإليه يشير كلام أبي العالية.

وقال الحسين بن الفضل: أي أهل الإيمان، أي لا تدري من الذي يؤمن، وأنت تدري أنّه لا يرّضي هذا إلّا من لا يدري.

الخامس - المراد نفي دراية المجموع، أي ما كنت تدري قبل الوحي مجموع الكتاب والإيمان، فلا ينافي كونه ﷺ كان يدري الإيمان وحده، وبآباه إعادة «لا».

السادس - أنّ المراد «مَا كُنْتَ تَدْرِي» ذلك إذ كنت في المهد، وإليه ذهب علي بن عيسى وهو خلاف الظاهر، والظاهر، أنّ المراد استمرار النّفي إلى زمن الوحي، وظاهر كلام «الكشف» يميل إلى اعتبار نحو ذلك القيد، قال: لعلّ الأشبه أنّ الإيمان على ظاهره والآية واردة في معرض الامتنان، والإيحاء يشمل الإلقاء في الرّوع وإرسال الرّسول، فالإيمان عرفه بالأوّل والكتاب بالثاني. على أنّ الآية تدلّ على أنّه ﷺ عرفهما بعد أن لم يكن عارفاً وهو كذلك، أمّا أنّه عليه الصلّة والسلام عرفهما بعد الوحي فلا، فجاز أن يعرفهما به و جاز أن يعرف واحداً منهما معيّناً به وقد دلّ الدليل على أنّ المعرف به هو الكتاب والإيمان بعد العقل وقبل الوحي والتّمسك به على أنّه ﷺ لم يكن متعبداً بشرع من قبله ضعيف، لأنّ عدم الدّراية لا يلزمه عدم التّعبّد بل يلزمه سقوط الإثم إن لم يكن تقصيراً انتهى.

وأنت تعلم أنّ المتبادر أنّه عليه الصلّة والسلام عرفها بعد الوحي، وأمّا قوله ﷺ في تضعيف التّمسك بذلك: على أنّه ﷺ لم يكن متعبداً بشرع من قبله لأنّ عدم الدّراية لا يلزمه عدم التّعبّد، فقد قيل عليه: إنّّه ساقط لأنّه عليه الصلّة والسلام إذا لم يدر شرعاً فكيف يتعبّده، وقد يجاب بأنّ مراد المدقّق أنّ الدّراية المنفيّة الدّراية بمعنى العلم الجازم الثّابت المطابق للواقع، وعندها لا يلزمه عدم التّعبّد، إذ يكفي في التّعبّد بشرع من قبله عليه الصلّة والسلام الظّنّ الرّاجح بثبوته، فلعلّه كان حاصلاً له ﷺ.

و مثل هذا الظنّ يكفي المتعبدين اليوم بشرع نبينا عليه الصلاة والسلام فإن أكثر الفروع ظنيّة، و من يتتبع الأخبار يعلم أنّ العرب لم يزلوا على بقايا من دين إبراهيم عليه السلام من الحجّ و الختان و إيقاع الطلاق و الغسل من الجنابة و تحريم ذوات المحارم بالقرابة و الصهر و غير ذلك، و أنّ النبي صلى الله عليه و آله كان أحرص الناس على اتباع دين إبراهيم عليه السلام.

و في الصحيح أنّه صلى الله عليه و آله كان - أي قبل البعثة - يتحنّث بغار حِراء، و فُسر التحنّث بالتحنّف أي اتباع الحنيفيّة و هي دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام و الفاء تبدل ثاء في كثير من كلامهم، و في رواية ابن هشام في السيرة يتحنّف بالفاء بدل الثاء، نعم فُسر أيضاً بالتعبد كما في صحيح البخاريّ و باتقاء الحنث، أي الإثم كالانحرّج و التأنّم، و كلّ ذلك ممّا ذكره الحافظ القسطلانيّ في شرح الصحيح.

ثم إنّ الظاهر أنّ من قال: إنّّه صلى الله عليه و آله كان متعبداً بشرع من قبله، ليس مراده أنّه عليه الصلاة والسلام كان متعبداً بجميع شرع من قبله، بل بما ترجّح عنده صلى الله عليه و آله ثبوته. والذي ينبغي أن يرجّح كون ذلك من شرع إبراهيم عليه السلام لأنّه من ذرّيّته عليهما الصلاة والسلام و قد كلّفت العربُ بدينه و قال بعضهم: إنّ عبادته صلى الله عليه و آله التفكّر و الاعتبار، و لعله أيضاً ممّا ترجّح عنده عليه الصلاة والسلام كونه من شريعته صلى الله عليه و آله، و ربّما يقال بما علمه صلى الله عليه و آله لا على ذلك الوجه من شرع من قبله أنّه صلى الله عليه و آله لم يزل موحى إليه و أنّه عليه الصلاة والسلام متعبّد بما يوحى إليه، إلّا أنّ الوحي السابق على البعثة كان إلقاء و نقفاً في الرّوع، و ما عمل من شرائع أبيه صلى الله عليه و آله قد أوتي الحكم صبيّاً ابن سنتين أو ثلاث فهو عليه الصلاة والسلام أولى بأن يوحى إليه ذلك النوع من الإيحاء صبيّاً أيضاً.

و من علم مقامه صلى الله عليه و آله و صدّق بأنّه الحبيب الذي كان نبياً و آدم بين الماء و الطين لم يستعبد ذلك فتأمّل... [إلى أن قال:]

قال الشيخ عبد الوهاب الشعرائيّ في تفسيره الآية المذكورة: اعلم أنّ المانع من سماع كلام الحقّ إنّما هو البشريّة، فإذا ارتفع العبد عنها كلّمه الله تعالى من حيث كلّم سبحانه الأرواح المجردة عن الموادّ، و البشر ما سمّي بشراً إلّا لمباشرته الأمور التي تُعوّقه عن اللّوحيّ بدرجة الرّوح، فلمّا لم يلحق كلّمه الله تعالى في الأشياء و تجلّى سبحانه له فيها، بخلاف من لحق كالأنبياء صلى الله عليه و آله فلا يتجلّى الحقّ سبحانه لغيرهم إلّا في حجاب الصّور،

و لولا هدايته تعالى للعبد ما عرف أنه سبحانه ربّه، واعلم أنّ الحقيقة تأبى أن يكلم الله تعالى غير نفسه أو نفسه أو يسمع غير نفسه، فلا بدّ إذا خاطر عبداً على قصد إسماعه أن يكون جميع قواه، لأنّه محال أن يطيق الحادث سماع كلام القديم ولم يكن الحقّ سبحانه قواه عند التجوى، و لذلك خرّ موسى ﷺ صعقاً إذا لم يكن له استعداد يقبل به التّجليّ اللائق بمقامه و ثبت نبينا ﷺ و لما لم يكن للجبل درجة المحبة التي يكون بها الحقّ سمع عبده و بصره و جميع قواه لم يقدر على سماع الخطاب، فذلك... [إلى أن قال:]

و أمّا قوله تعالى ﴿أَوَمِنْ ذَرَايِ حِجَابٍ﴾ فهو خطاب إلهيّ يليق به السّمع لا على القلب، فيدركه من ألقى إليه فيفهم منه ما قصده من يسمعه ذلك و قد يحصل له ذلك في صورة التّجليّ فتخاطبه تلك الصّورة و هي عين الحجاب، فيفهم من ذلك الخطاب علم ما يدلّ عليه و يعلم أنّ ذلك حجاب، و أنّ المتكلّم من وراء ذلك الحجاب و كلّ من أدرك صورة التّجليّ الإلهيّ يعلم أنّ ذلك هو الله تعالى، فما يزيد صاحب هذا الحال على غيره إلاّ بمعرفته أنّ المخاطب له من وراء الحجاب.

و أمّا قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ فهو ما ينزل به الملك أو ما يجيء به الرّسول البشريّ إلينا إذا نقلاً كلام الله تعالى خاصّة كالتّالين، فإنّ نقلاً علماً وجداً في أنفسهما و أفصحاً عنه فذلك ليس بكلام إلهيّ، و من الأولياء من يعطي التّرجمة عن الله سبحانه في حال الإلقاء و الوحي الخاصّ بكلّ إنسان، فيكون المترجم موجداً لصور الحروف اللفظيّة أو المرقومة، و يكون روح تلك الصّور كلام الله عزّ وجلّ لا غير، و قد يقول الوليّ: حدّثني قلبي عن ربّي، يعني به من الوجه الخاصّ، فاعلم ذلك و تأمل ما قرّرت لك فإنّه نفيس والله تعالى يتولّى هداك. و له ﷺ كلام كثير في هذا المقام تركناه خوف الإطالة، و لعلّ فيما ذكرناه كفاية لذوي الأفهام. ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ وهو ما به الحياة الطّبيّة الأبديّة. ﴿مَا كُنْتُ تَذَرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ قبل الإيحاء.

قيل: أشير بهذا الإيحاء إلى الإيحاء في هذه النّشأة، و كان له ﷺ في كلّ حال من أحواله فيها نوع من الوحي والدّراية المنقيّة إذ كان عليه الصّلاة و السّلام في كينونته قبل إخراجها منها بتجليّ كينونته عزّ وجلّ و إلّا فهو ﷺ نبيّ و لا آدم و لا ماء و لا طين و لا يعقل نبيّ بدون إيحاء. (٢٥: ٥٤ - ٦٣)

الفصل الحادى والعشرون

نصّ الشعرائيّ (م: ١٣٩٣) في مقدّمة «تفسير منهج الصادقين»

كيفية الوحي

نقل السيوطيّ في «الإيتقان» حول الوحي ثلاثة أقوال؛
الأوّل - أنزل القرآن على النّبّيّ باللفظ.

الثاني - أنزله جبريل بالمعنى على قلب النّبّيّ، ثم عبّر عنه بألفاظ عربيّة، واحتجّ لهذا بقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ عَلَى قَلْبِكَ﴾^١.

الثالث - أنزل عليه مرّتين؛ مرّة بالمعنى ومرّة باللفظ.

أقول: إنّ القول الثّاني لا يناسب عقائد المسلمين، ومن قال به مجانب للصّواب؛ لأنّ المسلمين يعتقدون منذ عصر النّبّيّ وإلى الآن بأنّ ألفاظ القرآن هي عين كلام الله، وأنّ ما أُلقي في قلب النّبّيّ، ومن ثمّ عبّره بألفاظ مختلفة، هو السّنة؛ لأنّ جميع أقواله ﷺ من الله وإن صرّح النّبّيّ بلفظ «قال الله» فهو حديث قُدسيّ.

أمّا قوله: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ عَلَى قَلْبِكَ﴾، فهو سماع الألفاظ والكلام؛ لأنّ الوحي لم ينقل بالموجات الهوائيّة وذبذباته، وإن كان كذلك لسمع الحاضرون صوت جبرئيل عند ما كان يوحى إلى النّبّيّ. إنّ الإنسان يحصل على صورة الألفاظ من الحسّ المشترك، وتعتبر الأذن آتته، ويأتي أحياناً من الباطل بحسّ مشترك.

وقد عبّر تعالى عن الحسّ الباطنيّ بالقلب أو الفؤاد في قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^٢. وكان الأنبياء لا يسمعون الوحي بالأذن البشريّة، بل كانوا يسمعونه بأذن النّبوة، وعبّر عنها بالقلب.

وقد أورد السيوطي في «الإتقان» أيضاً أقساماً للوحي تناسب من يأخذ بظاهر القول، ونحن نأخذ بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾^١ أي أن الوحي يقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول: التَّصَرُّفُ الغيبي في القلب فقط، وهو الوحي. الثاني: التَّصَرُّفُ الغيبي في القلب والأذن معاً، والسَّامِعَةُ تدرك عالم الغيب، فيدرك المعنى و يسمع الصَّوت أيضاً، وهذا ما عناه بقوله: ﴿مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾. الثالث: التَّصَرُّفُ الغيبي في العينين، فتدخل الباصرة عالم الغيب، فيرى الملك ويسدّ لامله أيضاً. (١: ٤٠)

دور جبريل في الوحي

يعتقد أولياء الله العظام بأن النَّبِيَّ إنسان كامل و يتبوأ أعلى منزلة في الكائنات، لا يعلوها إلا الله، و ليس هناك إنسان من بين المخلوقات يحوي جميع الكمالات؛ قال الشاعر:

فَرِيعُ الْبَرَايَا مِنْ إِنْسٍ وَ مِنْ مَلَكٍ رُبَّانٌ^٢ سِرٌّ سُوِّدَا الْقَلْبِ وَ الْفَلَكِ

ويعتقد المسلمون قاطبةً بأن النَّبِيَّ أفضل من جميع الملائكة، إلا فريق من المعتزلة. منهم الزَّمَخْشَرِي؛ إذ هم يرون أن الملائكة المقرَّبين أفضل من النَّبِيِّ، و هذا طعن للدِّين. فقد جاء في حديث المعراج أن النَّبِيَّ وصل إلى مكان لا يجراً جبريل على اجتيازه، فقال: «لَوْ دَنَوْتُ أُنْمُلُهُ لَأَحْتَرَفْتُ» و قال الشاعر حاكياً قول جبريل:

هَابَ الْأَمِينُ بُدْنُوهُ مِنَ الْعَلِيِّ نَارَ سَعِيرٍ نُورِهِ الْجَلِيِّ

و لكن لا يدل هذا على أفضلية جبريل ألبتة؛ إذ أن ذالالمقام العالي يتزوّد بالأخبار ممّن هو دونه، كما أتى الهدّهد سليمان بالأخبار، و العيون أمير المؤمنين عليه السلام بأنباء العدو، و ذلك قوله: «كتب إلي عيني باليمن».

ولا يكمل عقل الإنسان إلا بالسمع والبصر، و كان جبرئيل عين النَّبِيِّ في عالم

الملكوت، إلا أنّ النبىّ كان يتزوّد الأخبار من الله بدون واسطة.
وقاس المعتزلة قياسًا ناقصًا؛ إذ شبّهوا تعليم جبريل و التّعليم الدّنيويّ، كما يأخذ المتعلّم الجاهل العلم من أستاذ حاذق.
ولكن لم لم يشبّهوا بالفقيه الكامل الذي ينقل رواية من محدّث جاهل ثقة؟ وقد قال النبىّ ﷺ «رُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه»، ونسب الله العلم إلى نفسه فقال: «عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ»^١، ونسبه إلى جبريل فقال: «نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ»^٢.
إنّ النبىّ - وهو ممكن الوجود - ناقص أمام الله الواجب الوجود، إلاّ أن يتعلّم منه؛ لأنّ كلّ ما عنده الممكن مأخوذ من الواجب، وإنّ احتياجه الذاتى مقدّم على استغنائه المكتسب. وإنّ تقدّم «لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» تقدّم لا يحدّ بزمانٍ كتقدّم «هَمَّ بِهَا» على «بُرْهَانَ رَبِّهِ» بل هو تقدّم ذاتي، وليس لهذا البحث نهاية.
قال الإمام العسكريّ عليه السلام: «سَبَّحْنَا، فَسَبَّحَتِ الْمَلَائِكَةُ بِتَسْبِيحِنَا، وَكَانَ رُوحُ الْقُدُسِ فِي الْجَنَانِ الصَّاقُورَةِ قَدْ ذَاقَ مِنْ حَدَائِقِهَا الْبَاكُورَةِ»^٣. (٤٣:١)

الفصل الثاني والعشرون

نص العلامة الطباطبائي (م: ١٤٠٢) في «تفسير الميزان»

[معنى الوحي وأقسامه]

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِّئٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا...﴾

الشورى ٥١

تتضمن الآيات آخر ما يفيد سبحانه في تعريف الوحي في هذه السورة وهو تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: [١] وحياً [٢] أومن وراء حجاب [٣] أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، ثم يذكر أنه يوحي إليه ﷺ ما يوحي على هذه الوتيرة، وأن ما أُوحي إليه منه تعالى لم يكن النبي ﷺ يعلم ذلك من نفسه بل هو نور يهدي به الله من يشاء من عباده ويهدي به النبي ﷺ بإذنه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِّئٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا...﴾ قد تقدم البحث عن معنى كلامه تعالى في الجزء الثاني من الكتاب، وإطلاق الكلام على كلامه تعالى والتكليم على فعله الخاص سواء كان إطلاقاً حقيقياً أو مجازياً واقع في كلامه تعالى، قال: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بِكَلَامِي﴾^١ وقال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^٢، ومن مصاديق كلامه ما يتلقاه الأنبياء ﷺ منه تعالى بالوحي.

وعلى هذا لا موجب لعدالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ منقطعاً بل الوحي والقسمان المذكوران بعده من تكليمه تعالى للبشر سواء كان إطلاق التكليم عليها إطلاقاً حقيقياً أو

مجازيًا، فكل واحد من الوحي وما كان من وراء حجاب وما كان بإرسال رسول نوع من تكليمه للبشر.

فقلوه: ﴿وَحْيًا﴾ - والوحي الإشارة السريعة على ما ذكره الرّاعب - مفعول مطلق نوعي وكذا المعطوفان عليه في معنى المصدر النوعي، والمعنى: ما كان لبشر أن يكلمه الله نوعًا من أنواع التكليم إلا هذه الأنواع الثلاثة أن يوحى وحيًا، أو يكون من وراء حجاب، أو أن يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء.

ثم إن ظاهر الترديد في الآية بـ (أو) هو التقسيم على مغايرة بين الأقسام وقد قيد القسمان الأخيران بقيد كالحجاب، والرسول الذي يوحى إلى النبي ولم يقيد القسم الأول بشيء فظاهر المقابلة يفيد أن المراد به التكليم الخفي من دون أن يتوسط واسطة بينه تعالى وبين النبي أصلاً، وأما القسمان الآخران ففيهما قيد زائد وهو الحجاب أو الرسول الموحى وكل منهما واسطة، غير أن الفارق أن الواسطة الذي هو الرسول يوحى إلى النبي بنفسه والحجاب واسطة ليس بموح وإتاما الوحي من ورائه.

فتحصّل أن القسم الثالث: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ وحي بتوسط الرسول الذي هو ملك الوحي، فيوحي ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله سبحانه قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾^١، وقال: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^٢، والموحي مع ذلك هو الله سبحانه كما قال: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾^٣.

وأما قول بعضهم: إن المراد بالرسول في قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ هو النبي يبلغ الناس الوحي، فلا يلزمه قوله: ﴿يُوحِيَ﴾ إذ لا يطلق الوحي على تبليغ النبي. وإن القسم الثاني ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ وحي مع واسطة هو الحجاب، غير أن الواسطة لا يوحى كما في القسم الثالث، وإتاما يبتدىء الوحي ممّا وراءه لمكان (من) وليس وراء بمعنى خلف وإتاما هو الخارج عن الشيء المحيط به، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾^٤، وهذا كتكليم موسى ﷺ في الطور، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنهَا نُوْدِيَ مِنْ

شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ^١، ومن هذا الباب ما أوحى إلى الأنبياء في مناماتهم.

وإن القسم الأول تكليم إلهي للتبّي من غير واسطة بينه وبين ربّه من رسول أو أيّ حجاب مفروض.

ولما كان للوحي في جميع هذه الأقسام نسبة إليه تعالى على اختلافها صحّ إسناد مطلق الوحي إليه بأيّ قسم من الأقسام تحقّق وبهذه العناية أُسند جميع الوحي إليه في كلامه كما قال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ^٢﴾، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ^٣﴾.

هذا ما يعطيه التدبّر في الآية الكريمة، وللمفسّرين فيها أبحاث طويلة الذّيل ومشاجرات أضربنا عن الاشتغال بها من أرادها فليراجع المفصّلات.

وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَيَّ حَكِيمٌ﴾ تعليل لمضمون الآية، فهو تعالى لعلّوه عن الخلق والنّظام الحاكم فيهم يجلّ أن يكلمهم كما يكلم بعضهم بعضاً، ولعلّوه وحكمته يكلمهم بما اختار من الوحي، وذلك أنّ هداية كلّ نوع إلى سعاده من شأنه تعالى كما قال: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى^٤﴾، وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ^٥﴾، وسعادة الإنسان الذي يسلك سبيل سعاده بالشّعور والعلم في إعلام سعاده والدّلالة إلى سنّة الحياة التي تنتهي إليها، ولا يكفي في ذلك العقل الذي من شأنه الإخطاء والإصابة، فاختر سببانه لذلك طريق الوحي الذي لا يخطئ البتّة...

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ إلخ، ظاهر السياق كون ﴿كَذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر في الآية السّابقة من الوحي بأقسامه الثلاثة، ويؤيّد الروايات الكثيرة الدّالة على أنّه ﷺ كما كان يوحى إليه بتوسّط جبريل - وهو القسم الثّالث - كان يوحى إليه في المنام، وهو من القسم الثّاني، ويوحى إليه

١- النساء / ١٦٣.

١- القصص / ٣٠.

٢- طه / ٥٠.

٣- النحل / ٤٣.

٥- النحل / ٩.

من دون توسّط واسطة وهو القسم الأول.

وقيل: الإشارة إلى مطلق الوحي النازل على الأنبياء، وهذا متعيّن على تقدير كون المراد بالروح هو جبريل أو الروح الأمريّ كما سيأتي.

و المراد بإيحاء الروح - على ما قيل - إيحاء القرآن، وأيد بقوله: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ إلخ، ومن هنا قيل: إنّ المراد بالروح القرآن، لكن يبقى عليه؛

أولاً - أنّه لا ريب أنّ الكلام مسوق لبيان أنّ ما عندك من المعارف والشرائع التي تتلبّس بها وتدعوا الناس ليس ممّا أدركته بنفسك وأبديته بعلمك بل أمر من عندنا منزل إليك بوحينا، وعلى هذا فلو كان المراد بالروح الموحى القرآن كان من الواجب الاختصار على الكتاب في قوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾، لأنّ المراد بالكتاب القرآن فيكون الإيمان زائداً مستغنى عنه.

و ثانياً - أنّ القرآن وإن أمكن أن يسمّى روحاً - باعتبار إحيائه القلوب بهداه كما قال تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^١ وقال: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَنْفَسُ بِهِ فِي النَّاسِ﴾^٢ - لكن لا وجه لتقيده حينئذ بقوله: ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ والظاهر من كلامه تعالى أنّ الروح من أمره خلق من العالم العلويّ يصاحب الملائكة في نزولهم، قال تعالى ﴿تَنْزِيلُ الْمَلِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾^٣، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلِكَةُ صَفًّا﴾^٤ و قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^٥ وقال: ﴿وَإِذْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾^٦، وقد سمّي جبريل الروح الأمين و روح القدس، حيث قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^٧ وقال: ﴿قُلِ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾^٨.

و يمكن أن يجاب عن الأول بأنّ مقتضى المقام وإن كان هو الاختصار على ذكر الكتاب فقط، لكن لما كان إيمانه ﷺ بتفاصيل ما في الكتاب من المعارف والشرائع من لوازم نزول الكتاب غير المنفكّة عنه وآثاره الحسنة صحّ أن يذكر مع الكتاب، فالمعنى:

١ - الأنعام / ١٢٢.

٢ - النبا / ٣٨.

٣ - البقرة / ٨٧.

٤ - النحل / ١٠٢.

١ - الأنفال / ٢٤.

٢ - القدر / ٤.

٣ - الاسراء / ٨٥.

٤ - الشعراء / ١٩٣.

وكذلك أوحينا إليك كتابًا ما كنت تدري ما الكتاب ولا ما تجده في نفسك من أثره الحسن الجميل وهو إيمانك به.

وعن الثاني أنّ المعهود من كلامه في معنى الرّوح وإن كان ذلك لكن حمل الرّوح في الآية على ذلك المعنى وإرادة الرّوح الأمرّي أو جبريل منه يوجب أخذ ﴿أَوْحَيْنَا﴾ بمعنى أرسلنا، إذ لا يقال: أوحينا الرّوح الأمرّي أو الملك، فلا مفرّ من كون الإيحاء بمعنى الإرسال وهو كما ترى، فأخذ الرّوح بمعنى القرآن أهون من أخذ الإيحاء بمعنى الإرسال، والجوابان لا يخلوان عن شيء.

وقيل: المراد بالرّوح جبريل، فإنّ الله سمّاه في كتابه روحًا قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾^١. وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾^٢.

وقيل: المراد بالرّوح، الرّوح الأمرّي الذي ينزل مع ملائكة الوحي على الأنبياء كما قال تعالى: ﴿يَنْزِلُ الْمَلَكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْزِلُوا﴾^٣، فالمراد بإيحاؤه إليه إنزاله عليه.

ويمكن أن يوجّه التّعبير عن الإنزال بالإيحاء بأنّ أمره تعالى على ما يعرفه في قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾^٤، هو كلمته، والرّوح من أمره كما قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^٥، فهو كلمته، وهو يصدّق ذلك قوله في عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقِيَهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾^٦، وإنزال الكلمة تكليم، فلا ضير في التّعبير عن إنزال الرّوح بإيحاؤه، والأنبياء مؤيدون بالرّوح في أعمالهم كما أنّهم يوحى إليهم الشّرائع به، قال تعالى: ﴿وَإِذْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾^٧ وقد تقدّمت الإشارة إليه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾^٨.

ويمكن رفع إشكال كون الإيحاء بمعنى الإنزال والإرسال بالقول بكون قوله: ﴿رُوحًا﴾ منصوبًا بنزع الخافض، ورجوع ضمير: ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ إلى القرآن المعلوم من السّياق

٢- النحل ١٠٢.

٤- يس ٨٢.

٦- النساء ١٧١.

٨- الأنبياء ٧٣.

١- الشعراء ١٩٣.

٣- النحل ١٠٢.

٥- الإسراء ٨٥.

٧- البقرة ٨٧.

أو الكتاب، والمعنى: وكذلك أوحينا إليك القرآن بروح منّا ما كنت تدري ما الكتاب وما الإيمان ولكن جعلنا القرآن أو الكتاب نورًا إلخ، هذا وما أذكر أحدًا من المفسرين قال به. وقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ قد تقدّم أنّ الآية مسوقة لبيان أنّ ما عنده ﷺ الذي يدعو إليه إنّما هو من عند الله سبحانه لا من قبل نفسه وإنّما أوتي ما أوتي من ذلك بالوحي بعد النبوة، فالمراد بعدم درايته بالكتاب عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقاديّة والشّرائع العمليّة، فإنّ ذلك هو الذي أوتي العلم به بعد النبوة والوحي، وبعدم درايته بالإيمان عدم تلبّسه بالالتزام التّفصيلي بالعقائد الحقّة والأعمال الصّالحة، وقد سمّي العمل إيمانًا في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾^١، فالمعنى: ما كان عندك قبل وحي الرّوح الكتاب بما فيه من المعارف والشّرائع، ولا كنت متلبّسًا بما أنت متلبّس به بعد الوحي من الالتزام الاعتقاديّ والعمليّ بمضامينه، وهذا لا ينافي كونه ﷺ مؤمنًا بالله، موحدًا قبل البعثة، صالحًا في عمله، فإنّ الذي تنفيه الآية هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب والالتزام بها اعتقادًا وعملاً ونفي العلم والالتزام التّفصيليين لايلازم نفي العلم والالتزام الإجماليّين بالإيمان بالله والخضوع للحقّ.

وبذلك يندفع ما استدللّ بعضهم بالآية على أنّه ﷺ كان غير متلبّس بالإيمان قبل بعثته، ويندفع أيضًا ما عن بعضهم أنّه ﷺ لم يزل كاملاً في نفسه علماً وعملاً وهو ينافي ظاهر الآية أنّه ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان.

وجه الاندفاع أنّ من الصّوريّ وجود فرق في حاله ﷺ قبل النبوة وبعدها، والآية تشير إلى هذا الفرق، وأنّ ما حصل له بعد النبوة لا صنع له فيه وإنّما هو من الله من طريق الوحي... [إلى أن قال:]

وقوله: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ تنبيه على لازم ملكه لما في السّموات وما في الأرض، فإنّ لازمه رجوع أمورهم إليه، ولازمه كون السّبيل الذي يسلكونه - وهو من جملة أمورهم - راجعًا إليه فالصّراط المستقيم هو صراطه، فالمضارع أعني قوله: ﴿تَصِيرُ﴾ للاستمرار.

وفيه إشعار بكلام الوحي والتكليم الإلهي، إذ لما كان مصير الأشياء إليه تعالى كان لكل نوع إليه تعالى سبيل يسلكه، وكان عليه تعالى أن يهديه إليه و يسوقه إلى غايته كما قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَضُؤُ السَّبِيلِ﴾^١، وهو تكليم كل نوع بما يناسب ذاته، وهو في الإنسان التكليم المسمّى بالوحي والإرسال.

وقيل: المضارع للاستقبال والمراد مصيرها جميعاً إليه يوم القيامة، وقد سيقّت الجملة لوعده المهتدين إلى الصراط المستقيم ووعيد الضالين عنه، وأول الوجهين أظهر.

بحث روائي

في «الدرّ المنثور»: أخرج البخاريّ ومسلم والبيهقيّ عن عائشة أنّ الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك... [وذكر كما تقدّم عن النسائيّ الرّقم ١، ثم ذكر روايات ثلاثاً عن الصّدوق بإسناده عن زُرارة، وعن ابن أبي عمير وعمر وبن جَميع، وأيضاً عن ابن أبي عمير وهشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام... كما تقدّم عنه، الرّقم ٢ و ٥ و ٧. ثم ذكر أيضاً رواية الصّفار عن ابن بُكَيْر، عن زُرارة كما تقدّم عنه، الرّقم ١١، فقال: [أقول: وفي معناه روايات أخر.

وفي «التّوحيد» بإسناده عن محمّد بن مسلم ومحمّد بن مروان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما علم رسول الله ﷺ أنّ جبرئيل من قبل الله إلاّ بالتّوفيق».

وفي تفسير «العياشي» عن زُرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام كيف لم يخف رسول الله ﷺ فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك ممّا ينزغ به الشّيطان؟ قال: فقال: «إنّ الله إذا أخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السّكينة والوقار، فكان يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه»... [ثم ذكر رواية الكلينيّ بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام، كما تقدّم عنه الرّقم ٣ فقال: [أقول: وفي معناها عدّة روايات وفي بعضها أنّه من الملكوت، قال في «روح المعاني» ونقل الطّبرسيّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله أنّ المراد من هذا الرّوح ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل، كان مع رسول الله ﷺ ولم يصعد إلى السّماء، وهذا القول في

غاية الغرابة ولعله لا يصحّ عن هذين الإمامين، انتهى. والذي في «مجمع البيان»: عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالوا: «ولم يصعد إلى السماء وإنّه لفينا»، انتهى. واستغرابه فيما لا دليل له على نفيه غريب، على أنّه يسلمّ تسديد هذا الروح لبعض الأئمة غير النبيّ، كما هو ظاهر لمن راجع قسم الإشارات من تفسيره.

وفي «التّهج»: «و لقد قرن الله به عليه السلام من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره».

وفي «الدّر المنثور» أخرج أبو نُعيم في «الدلائل» وابن عسّاكر عن عليّ قال: قيل للنبيّ عليه السلام: هل عبتد وثناً قط؟ قال: «لا» قالوا: فهل شربت خمرًا قط؟ قال: «لا، وما زلت أعرف أنّ الذي هم عليه كفر، وما كنت أدري ما الكتاب وما الإيمان، وبذلك نزل القرآن ﴿مَا كُنْتَ تَذَرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾. (١٨: ٧٢ - ٨١)

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ...﴾ الشعرا / ١٩٣

المراد بالروح الأمين هو جبريل ملك الوحي، بدليل قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^١، وقد سمّاه في موضع آخر بروح القدس: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾^٢، وقد تقدّم في تفسير سورتي النحل والإسراء ما يتعلق بمعنى الروح من الكلام.

وقد وصف الروح بالأمين للدلالة على أنّه مأمون في رسالته منه تعالى إلى نبيّه عليه السلام لا يغيّر شيئاً من كلامه تعالى بتبديل أو تحريف بعدد أو سهو أو نسيان، كما أنّ توصيفه في آية أخرى بالقدس يشير إلى ذلك.

وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ﴾ الباء للتّعدية، أي نزّله الروح الأمين، وأمّا قول من قال: إنّ الباء للمصاحبة، والمعنى نزل معه الروح فلا يلتفت إليه، لأنّ العناية في المقام بنزول القرآن لا بنزول الروح مع القرآن.

والضمير في ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ القرآن بما أنّه كلام مؤلّف من ألفاظ لها معانيها الحقّة، فإنّ

ألفاظ القرآن نازلة من عنده تعالى، كما أنَّ معانيها نازلة من عنده على ما هو ظاهر قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾^١، وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾^٢.

فلا يعبأ بقول من قال: إنَّ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ إنّما هو معاني القرآن الكريم، ثمَّ النَّبِيُّ ﷺ كان يعبر عنها بما يطابقها ويحكيها من الألفاظ بلسان عربي.

وأسخف منه قول من قال: إنَّ القرآن بلفظه ومعناه من منشآت النَّبِيِّ ﷺ ألقته مرتبة من نفسه الشريفة تسمّى الرُّوحُ الْأَمِينُ إلى مرتبة منها تسمّى القلب.

والمراد بالقلب المنسوب إليه الإدراك والشُّعُور في كلامه تعالى هو النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ الَّتِي لَهَا الْإِدْرَاكُ، وإليها تنتهي أنواع الشُّعُور والإرادة، دون اللَّحْمِ الصُّنُوبرِيِّ المعلق عن يسار الصِّدْر الَّذِي هو أحد الأعضاء الرَّئِيسَةِ، كما يستفاد من مواضع في كلامه تعالى كقوله: ﴿وَبَلَّغْتَ الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ﴾^٣، أي الأرواح، وقوله: ﴿فَإِنَّهُ أَيْمٌ قَلْبُهُ﴾^٤ أي نفسه؛ إذ لا معنى لنسبة الإيم إلى العضو الخاص.

ولعلَّ الوجه في قوله ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ دون أن يقول: عليك، هو الإشارة إلى كَيْفِيَّةِ تَلْقِيهِ ﷺ القرآن النَّازل عليه، وأنَّ الَّذِي كان يتلقاه من الرُّوح هو نفسه الشريفة، من غير مشاركة الحواسِّ الظَّاهِرَةِ الَّتِي هي الأدوات المستعملة في إدراك الأمور الجزئية. فكان ﷺ يرى ويسمع حينما كان يوحى إليه، من غير أن يستعمل حاستي البصر والسمع، كما روي أنَّه كان يأخذه شبه إغماء يسمّى بُرْحَاءَ الوحي.

فكان ﷺ يرى الشَّخْصَ ويسمع الصَّوت مثل ما نرى الشَّخْصَ ونسمع الصَّوت، غير أنَّه ما كان يستخدم حاستي بصره وسمعه المادِّيَّين في ذلك كما نستخدمهما. ولو كان رؤيته وسمعه بالبصر والسمع المادِّيَّين لكان ما يجده مشتركاً بينه وبين غيره، فكان سائر النَّاس يرون ما يراه ويسمعون ما يسمعه، والثَّقَلُ الْقَطْعِيُّ يكذب ذلك، فكثيراً ما كان يأخذه بُرْحَاءَ الوحي وهو بين النَّاس، فيوحى إليه ومن حوله لا يشعرون بشيء، ولا يشاهدون شخصاً يكلمه ولا كلاماً يلقي إليه.

١ - القيامة / ١٨.

٢ - آل عمران / ١٠٨، الجاثية / ٦.

٣ - الأحزاب / ١٠.

٤ - البقرة / ٢٨٣.

والقول بأنّ من الجائز أن يصرف الله تعالى حواسّ غيره ﷺ من الناس عن بعض ما كانت تناله حواسّه وهي الأمور الغيبية المستورة عنّا، هدم لبنیان التصديق العلميّ؛ إذ لو جاز مثل هذا الخطأ العظيم على الحواسّ وهي مفتاح العلوم الضرورية والتصديقات البديهية وغيرها لم يبق وثوق على شيء من العلوم والتصديقات.

على أنّ هذا الكلام مبنيّ على أصالة الحسّ، وأن لا وجود إلّا لمحسوس، وهو من أفحش الخطأ، وقد تقدّم في تفسير سورة مريم كلام في معنى تمثّل الملك، نافع في المقام. وربّما قيل في وجه تخصيص القلب بالإنزال: أنّه لكونه هو المدرك المكلف دون الجسد وإن كان يتلقّى الوحي بتوسط الأدوات البدنية من السمع والبصر وقد عرفت ما فيه. وربّما قيل: لمّا كان للنبيّ ﷺ جهران: جهة ملكية يستفيض بها، وجهة بشرية يفيض بها، جعل الإنزال على روحه لأنّها المتّصفة بالصفات الملكية التي يستفيض بها من الرّوح الأيمن، وللإشارة إلى ذلك قيل: ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ ولم يقل: عليك مع كونه أخصر، انتهى. وهذا أيضاً مبنيّ على مشاركة الحواسّ والقوى البدنية في تلقّي الوحي، فيرد عليه ما قدّمناه. وذكر جمع من المفسّرين: أنّ المراد بالقلب هو العضو الخاصّ البدنيّ، وأنّ الإدراك كيفما كان من خواصّه.

فمنهم من قال: إنّ جعل القلب متعلّق الإنزال مبنيّ على التوسّع؛ لأنّ الله تعالى يُسمع القرآن جبريل بخلق الصّوت، فيحفظه وينزل به على الرّسول ﷺ و يقرئه عليه فيعيه و يحفظه بقلبه، فكأنّه نزل به على قلبه.

ومنهم من قال: إنّ تخصيص القلب بالإنزال لأنّ المعاني الرّوحانية تنزل أولاً على الرّوح، ثمّ تنتقل منها إلى القلب؛ لما بينهما من التعلّق، ثمّ تنتقل منه إلى الدّماغ فينتش بها لوح المتخيلة.

ومنهم من قال: إنّ تخصيصه به للإشارة إلى كمال تعقّله ﷺ؛ حيث لم يعتبر الوسائط من سمع وبصر وغيرهما.

ومنهم من قال: إنّ ذلك للإشارة إلى صلاح قلبه ﷺ و تقدّسه، حيث كان منزلاً لكلامه تعالى به صلاح سائر أجزائه وأعضائه، فإنّ القلب رئيس سائر الأعضاء و ملكها و

إذا صلح الملك، صلحت رعيته.

و منهم من قال: إنَّ ذلك لأنَّ الله تعالى جعل لقلب رسوله ﷺ سمعاً و بصراً مخصوصين يسمع و يبصرهما تمييزاً لشأنه من غيره، كما يشعر به قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^١.

و هذه الوجوه مضافاً على اشتمال أكثرها على المجازفة مبنية على قياس هذه الأمور الغيبية على ما عندنا من الحوادث المادية و إجراء حكمهما فيها، و قد بلغ من تعسف بعضهم أن قال: إنَّ معنى إنزال الملك القرآن أن الله ألهمه كلامه و هو في السماء و علّمه قراءته، ثمَّ الملك أذاه في الأرض و هو يهبط في المكان، و في ذلك طريقتان: إحداهما: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية فأخذه من الملك، و ثانيتهما: أنَّ الملك انخلع إلى صورة البشرية حتَّى يأخذه النَّبِيُّ والأولى أصعب الحالين. وليت شعري ما الذي تصوّره من انخلاع الإنسان من صورة إلى صورة الملكية و سيورته ملكاً، ثمَّ عودة إنساناً، و من انخلاع الملك إلى صورة الإنسانيّة، و قد فرض لكلّ منهما هويّة مغايرة للآخر لرابطة بين أحدهما و الآخر ذاتاً و أثرًا، و في كلامه مواضع أخرى للنظر غير خفيّة على من تأمل فيه. (١٥: ٣١٦ - ٣٢٠)

الفصل الثالث والعشرون

نص المصطفويّ (معاصرٌ) في «التحقيق في كلمات القرآن»

[معنى الوحي وأقسامه في القرآن]

[معنى الوحي]

(وحي): أصل يدلّ على إلقاء علم في إخفاء أو غيره إلى غيرك، فالوحي: الإشارة، والوحي الكتاب والرّسالة، وكلّ ما ألقينته إلى غيرك حتّى علمه فهو وحي كيف كان، وأوحى الله تعالى ووحيّ وكلّ ما في باب الوحي فراجع إلى هذا الأصل الذي ذكرناه. والوحيّ: السّريع، والوحيّ: الصّوت.^١

الوحي: الإشارة والرّسالة والكتابة، وهو مصدر وحيّ إليه يحي، من باب وعدّ وأوحى إليه مثله، وجمعه وُحيّ على فُعول. وبعض العرب يقول: وحيّ إليه وحيّ له وأوحيت إليه وله، ثمّ غلب استعمال الوحي: فيما يُلقي إلى الأنبياء من عند الله تعالى ولغة القرآن الفاشية: أوحى والوحي: السّرعة يُمَدّ ويُفَصّر، وموت وحيّ: سريّع وزناً ومعنى، وزكاة وحيّة أي سريعة ويقال: وحيّ الذّبيحة أحياها، من باب وعدّ: ذبحتها ذبحاً وحيّاً. ووحىّ الدّواء الموت توحيةً: عجله، وأوحاه مثله، واستوحيت فلاناً: استصرخته.^٢ وحيّ يحي وحيّاً: كتب، وأوحى إليه: بعثه وألهمه، وأوحى إلى قومه: أشار، والوحي: السّرعة.^٣

أصل الوحي الإشاره السّريعة، ولتضمّن السّرعة قيل: أمرٌ وحيّ، وذلك يكون

١ - معجم مقاييس اللّغة ٦: ٩٣.

٢ - المصباح المنير: ٦٥١ - ٦٥٢.

٣ - العين ٣: ٣٢.

بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة. وقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُخَوِّنُونَ إِلَىٰ أُولِيَائِهِمْ﴾^١ فذلك بالوسواس المشار إليه بقوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾^٢.

والوحي أضرب: إمّا برسول مشاهد تُرى ذاته ويُسمع كلامه، كتبليغ جبرئيل ﷺ للنبّي في صورة معيّنة، وإمّا بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى ﷺ وإمّا بالقاء في الرّوع كما ذكره ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي»، وإمّا بالإلهام نحو: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾^٣، وإمّا بتسخير نحو: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾^٤ أو بتمام. فالوحي عام في جميع أنواعه، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ﴾^٥.

[أقسام الوحي في القرآن]

إنّ الأصل الواحد في المادّة هو الإلقاء أمر في باطن غيره، سواء كان الإلقاء بالتكوين أو بإيراد في القلب، وسواء كان الأمر علماً أو إيماناً أو نوراً أو وسوسة أو غيرها، وسواء كان إنساناً أو ملكاً أو غيرهما، وسواء كان بواسطة أو بغير واسطة، ويفيد العلم واليقين. وسبق في الإلهام (لهم) أنّه عبارة عن إلقاء من جانب الله في باطن ومن دون واسطة، وأكثر استعماله في المعنويّات، وهو مطلق وأعمّ.

١- فالوحي في التكوين، كما في ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾^٦، ﴿فَقَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾^٧. هذا في رابطة أمورها داخلية وخارجية.

٢- وبالتسببة إلى الحيوان، كما في: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾^٨.

٢- الناس / ٤.

٤- النحل / ٦٨.

٦- المفردات: ٥١٥.

٨- فصلت / ١٢.

١- الأنعام / ١٢١.

٣- القصص / ٧.

٥- الأنبياء / ٢٥.

٧- الزلزال / ٥.

٩- النحل / ٦٨.

و هذا النَّحو من الوحي أيضاً تكويني.

٣- وفي الملائكة، كما في: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَبْنَىٰ مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ أَمْنُوا سَأُلْقِيَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾^١. فالوحي إلى الملائكة إلقاء علم و معرفة في ذواتهم الصّافية الطّاهرة.

و التعبير في الملائكة بالإيحاء و في الكفّار بالإلقاء، فإنّ في الوحي خصوصيّة زائدة، وهو إلقاء إلى باطن و قلب شخص، و أيضاً فيه إيراد أمر روحانيّ في القلب. و أمّا الإلقاء فهو مطلق مقابلة مع ارتباط، و هذا المعنى يناسب التعبير به في مورد الكفّار.

٤- و في وحي الشّياطين، كما في: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾^٢. يراد الوسوس الباطلة الّتي من شياطين الإنس و الجنّ إلى أوليائهم الّذين اتّبعوهم و أحبّوهم. و قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾^٣.

الرّخوف: الباطل و ما يكون خارجاً عن الحقّ الأصيل، و يراد إلقاء القول الباطل الّذي يبرز من قلوبهم كلاماً أو اعتقاداً في قلوب أوليائهم.

٥- و في إدعاء الوحي افتراءً و كذباً، كما في: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾^٤.

أي فينسب قوله الكذب الباطل إلى الوحي من الله العزيز، افتراءً على الله المتعال في وحيه إليه، سواء كان هذه التّسبة بعنوان التّبوءة و ادعاء الولاية أو بعنوان مطلق مقام الارتباطات الغيبية.

٦- ولا يخفى أنّ ادعاء الوحي من أعظم مصاديق الظلم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ﴾، فإنّه يدّعي مقاماً إلهياً و ارتباطاً روحانيّاً، ثمّ ينسب إلى الله العزيز المتعال أكاذيب من عنده، و يضلّ بها عباده.

قال تعالى في مورد رسوله خاتم النّبيّين ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ *

لَا خَذَنًا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ^١

بل نهى رسول الله ﷺ عن قراءة القرآن قبل إتمام الوحي و تكميل المأمورية بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^٢.

بل ونهى نهياً شديداً عن التمايل إلى المخالفين في كَيْفِيَّةِ الرِّسَالَةِ و تحريف خصوصية من الوحي الذي يوحى إليه، فقال تعالى: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ حَبْلًا * وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئْنَاكَ لَكَذِبْتَ تَوْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَا دُفْقَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾^٣.

فهذا حال سيّد المرسلين في مورد تمايل ضعيف في إجراء الوحي وحفظه و ضبطه التام، فكيف من يدعيه كذباً و يفترى تعمداً فيه نعوذ بالله من الغرور و اتباع الهوى و الشيطان.

٦- الوحي فيه إلزام و تكليف يجب اتّباعه، قال تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعِ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ إِبْنِي أَخَافُ إِنَّ عَصِيَّتَ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾^٤، ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُصِمَ اللَّهُ﴾^٥، ﴿فَاسْتَسِمْكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^٦، ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^٧.

ولا يخفى أنّ الوحي يوجب شهوداً بالقلب، وهو أقوى من مشاهدة البصر و من استماع الصّوت. و شهود القلب يدركه الإنسان بالبصيرة اليقينية، و يؤثر في باطن الإنسان أثراً عميقاً قاطعاً لا يدخله شك.

و قلنا في (شهد): إنّ الشّهود عبارة عن العلم بالحضور عند المعلوم، راجعه.

٧- و في العمل بالوظيفة و العبودية، كما في: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً... وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾^٨، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾^٩، ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْنَةً﴾^{١٠}.

١ - الحاقة: ٤٤ - ٤٦.

٢ - طه: ١١٤.

٣ - الإسراء: ٧٣ - ٧٥.

٤ - يونس: ١٥.

٥ - يونس: ١٠٩.

٦ - الرّحرف: ٤٣.

٧ - الأحزاب: ٢.

٨ - الأنبياء: ٧٣.

٩ - النحل: ١٢٣.

١٠ - الأنعام: ١٤٥.

فهذه الوظائف التّكليفية والاعتقاديّة إنّما تتعيّن و تتشخّص بالوحي على الأنبياء،
وقلنا: إنّ الوحي أقوى وسيلة لحصول العلم واليقين.

٨- وفي المعرفة والحكمة، كما في: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ
مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾^١، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾^٢
و لا يخفى أنّ المعارف الإلهية لا سبيل إلى معرفتها حقّ المعرفة إلّا الوحي من الله
عزّ وجلّ و تعليمه بالشهود اليقينيّ القلبيّ، و أمّا العلوم الرّسميّة فلا تزيد إلّا تردّدًا و طغنا
لصاحبها، و لا تُعني من الحقّ شيئًا.

٩- و في الحقائق الإلهية المتعالية، كما في: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ
عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾^٣.

قلنا: إنّ الوحي هو شهود القلب، و يدلّ عليه التّفسير بروية الفؤاد، و سبق أنّ الفؤاد
هو البالغ حال الطّيب و الخلوّص و التّقاء، وهو الَّذي يستعدّ لرؤية الحقائق اللاهوتية
بالوحي الإلهي.

١٠- والوحي للأنبياء والمرسلين، كما في: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ
وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَآلِ يُونُسَ
وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ
نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾^٤، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ *
عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذِمَّةٌ فَاسْتَوَىٰ﴾^٥، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأَ لِقَوْمِكُنَا
بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾^٦.

فإنّ أقوى وسيلة و أتقنها في تبيين وظائف الرّسالة و تعليم الحقائق و تفهيم
المعارف الإلهية و الإرشاد إلى الأحكام والآداب الدّينية هو الوحي من جانب الله المتعال
من غير واسطة أمر آخر.

٢- الشّورى / ٥٢.

٤- النساء / ١٦٣ و ١٦٤.

٦- يونس / ٨٧.

١- الإسراء / ٣٩.

٣- النّجم / ٩- ١١.

٥- النّجم / ٣- ٦.

وقد يكون البيان بإيجاد كلام، أو بمخاطبة ملك، أو برؤيا منام، إذا انتهى كل منها إلى تأثير ونفوذ قاطع في القلب كالوحي، حتى يكون ذلك البيان حجةً تامةً من الله تعالى. والحجة من الله المتعال إنما يتحقق إذا أوجب شهوداً في القلب. وأما مطلق السماع والمخاطبة والرؤيا والإلقاء فلا يكون حجةً فيما بين الله وبين رُسله ما لم ينفذ في القلب ولم يوجب شهوداً.

١١- الوحي للأنبياء في الأمور المتفرقة، كما في: ﴿وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾^١ ﴿إِنْ أَضْرَبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾^٢ ﴿أَنْ أَسْرِ بِعَبْدِي﴾^٣، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اضْمَعْ الْقُلُوبَ بَاغِيْنَا وَ وَحَيْنَا﴾^٤، ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾^٥.
ومن هذا القبيل الوحي في ما يرتبط بالمعجزات وما تقدم من الأمور وما يأتي وما يتعلّق بأمر الناس وحالاتهم.

١٢- الوحي لنبيّنا صلوات الله عليه في القرآن، كما في: ﴿وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ﴾^٦، ﴿وَ أَوْحَىٰ إِلَىٰ هَذَا الْقُرْآنِ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ﴾^٧، ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾^٨، ﴿أَتْلُو مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾^٩، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾^{١٠}.

فالقرآن الكريم ممّا أُوحِيَ إلى نبيّنا صلوات الله عليه، وهو النازل من الله العزيز المتعال بالفاظ ومفاهيمه، وسبق أنّه معجز لفظاً ومعنى.

ولمّا كان القرآن الكريم وما هو من آثار الرسالة ولوازمه ممّا يجب أن يكون قطعياً ومتيقناً للرّسول حتّى يعتمد عليها ويبلغها في الناس، وإن قلنا: إنّ من اتقن ما يوجب اليقين هو الوحي الملازم بالشّهود عند القلب النّاذف في الفؤاد، وهو النّازل من الله تعالى بلا واسطة. وأما إذ اتحقّق التّزول بواسطة صوت أو ملك أو رؤيا في منام أو في مكاشفة

٢- الأعراف / ١٦٠.

٤- المؤمنون / ٢٧.

٦- الشورى / ٧.

٨- فاطر / ٣١.

١٠- يوسف / ٣.

١- الأعراف / ١١٧.

٣- طه / ٧٧.

٥- يوسف / ١٠٢.

٧- الأنعام / ١٩.

٩- العنكبوت / ٤٥.

فلا بدّ من أن تنتهي إلى حصول شهود في القلب، حتّى يتحقّق الإطمئنان التّام واليقين الكامل.
١٣- الوحي في التّوحيد، كما في: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لِلَّهِ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^١، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^٢، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَبِقُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾^٣.

والتّوحيد أوّل ما يجب للبشر عرفائه وتعلّقه به، وهو أهمّ الوظائف العقلية وأعلى المعارف الإنسانيّة، وبه يرتبط الإنسان بمبدء العوالم وبارئ الموجودات، وبه يحصل السّعادة الأبديّة والكمال الذاتيّ.

ولا يخفى أنّ التّوحيد في العقيدة يلازمه العبوديّة وخلوص العمل له، والاستقامة التّامّة في طاعته، حتّى يطابق الظّاهر الباطن.

١٤- الوحي للأفراد المختلفة غير الأولياء، كما في: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى الْخَوَارِجِينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَرَسُولِى قَالُوا آمَنَّا﴾^٤، ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۖ إِنَّ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾^٥، ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾^٦.

الوحي إن كان في مورد إيلاخ الأحكام والحقائق الإلهيّة فلا بدّ أن يتحقّق بوسيلة رسول أمين طاهر، لا ينطق عن الهوى ولا يتمايل إلى جانب خلاف الحقّ، ليكون حجة تامّة من الله تعالى.

وأما في موارد شخصيّة أو عرفيّة اجتماعيّة فلا إشكال في تحقّقه بوسائط مختلفة، إذا أريد منه هدايتهم إلى ما فيه صلاحهم، وهذا لطف منه تعالى في مورد عبادته المتوجّهين إليه المتوقّعين منه.

﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُلْكِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾^٧.

١- الأنبياء / ٢٥.

٢- الكهف / ١١٠.

٣- فضلت / ٦.

٤- المائدة / ١١١.

٥- طه / ٣٨ و ٣٩.

٦- القصص / ٧.

٧- الشورى / ٥١.

الكلام: هو ما يُبرِز عن الباطن و يُبين النِّيةَ القلبيةَ بأيِّ نحو كان، فيشمل الكلام بالحروف والصَّوت، والكلام بإيجاد تكويني، والكلام المعنوي، أو الظَّاهر بواسطة ملك أو إنسان وغيرهما.

فيستحيل أن يكلم الله بشراً إلاَّ بالصَّور الثلاث المذكورة في الآية الكريمة، فإنَّ الكلام الماديَّ الظَّاهريَّ يحتاج إلى تحقُّق الجهاز الباطنيِّ القلبيِّ، والجهاز الظَّاهريِّ للتَّكلم، ووجود أسباب خارجيَّة من المكان والهواء. وهذه الأمور توجب محدوديةً و فقرًا و حاجة في المتكلِّم، ولا ينسب إلى الله المتعال.

وأما الوحي فقلنا: إنَّه عبارة عن إلقاء أمر منظور في قلب شخص يوجب يقينًا و شهودًا له، وهذا الإلقاء أمر روحانيٍّ و يُلقَى في الباطن و القلب الرُّوحانيَّ لا القلب الجسمانيَّ، وهو ممكن أن يُنسب إلى الله المتعال.

فالوحي تكليم الله عبدهً بلا واسطة و بلا حجاب، و هو من المصاديق الكاملة التَّامة للكلام من الله المتعال.

وأما الكلام من وراء الحجاب فهو إذا لم يكن الخطاب بلا واسطة شيء بل يوجد و يُبرِز في الخارج بواسطة ملك أو ألفاظ و كلمات أو وسيلة أخرى، فالكلام حينئذ يظهر في الخارج بأحد منها.

و في هذه الصَّورة يجب أن تكون الواسطة مظهرًا و مُجلىً و مرآةً للكلام الإلهيِّ من دون أن تكون لها موضوعيَّة و خصوصيَّة، فهي لا تُري إلاَّ الكلام، و هذا كالقرآن المجيد الظَّاهر بوسيلة النَّبيِّ أو ملك.

فالقرآن الكريم باعتبار أنَّه أُوحي إلى النَّبيِّ ﷺ وحيً، و باعتبار ظهوره في الخارج و نسبته إلى النَّاس كلام لله تعالى.

و أما إرسال الرُّسول أعم من أن يكون الرُّسول إنسانًا أو ملكًا، و هو مأمور بإبلاغ الكلام و إبرازه إلى النَّاس، فهذا الرُّسول إذا كان أمينًا في بيانه و مأمورًا به فهو يروي كلام الله المتعال، سواء كان إلقاؤه إليه وحيًا أو روايةً.

ففي هذه الصَّورة يلاحظ الرُّسول على نحو الاستقلال و الموضوعيَّة، و في الصَّورة

الثانية كونه فانيًا و مرآةً و غير ملحوظ بذاته.
 و لا يخفى أن هذه الصور الثلاث في الآية الكريمة إنما هي لبيان أقسام كلمات الله المتعال، والوحي إنما يتصور في واحد منها.
 وقد اضطربت كلمات المفسرين في تفسير الآية، وكذلك في تفسير معنى الوحي و حقيقته، و في ما بيّناه كفاية للمتدبر. (١٣: ٦٣ - ٧٤)

الفصل الرابع والعشرون

نص الشيخ معرفة (معاصر) في «التمهيد في علوم القرآن»

الوحي في اللغة

الوحي إعلام سريع خفي، سواء كان بإيماءٍ أو همسة أو كتابة في سرٍّ، وكلّ ما ألقته إلى غيرك في سرعة خاطفة حتّى فهمه فهو وحي، قال الشاعر:

نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً فَتَحَبَّرْتُ دَفَائِقَ فِكْرِي فِي بَدِيعِ صِفَاتِهَا

فَأَوْحَى إِلَيْهَا الطَّرْفُ أَنِّي أَحَبُّهَا فَأَثَّرَ ذَاكَ الْوَحْيُ فِي وَجَنَاتِهَا

وقال تعالى عن زكريّا عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^١ أي أشار إليهم على سبيل الرّمز والإيماء... [ثم ذكر قول الراغب وابن فارس، كما تقدّم عن المصطفوي فقال:]

ولعلّ هذا التعميم في مفهوم الوحي - عند ابن فارس - كان في أصل وضعه، غير أنّ الاستعمال جاء فيما كان خفيًّا. قال أبو إسحاق: أصل الوحي في اللغة كلّها إعلام في خفاء، ولذلك سُمّي الإلهام وحيًّا.

وقال ابن بري: وَحِيَ إليه و أَوْحَى: كلّمه بكلام يخفيه من غيره، وَوَحِيَ و أَوْحَى: أَوْماً، قال الشاعر: فأوحت إلينا و الأنامل رسلها؛^٢ أي أشارت بأناملها و لعلّ الخفاء في مفهوم الوحي جاء من قبل اعتبار السّريّة فيه، فالإيماء السّريّة تخفى - طبعًا - على غير المومأ إليه، يقال: موت وَحِيّ، أي سريع، ومنه: «الوفا الوفا» أي البدار البدار، يقال ذلك

عند الاستعجال، ومنه الحديث: «وإن كانت خيراً فتَوَحَّه» أي أسرع إليه، قال ابن الأثير: والهاء للسكت^١.

قال الزَّمَخْشَرِيُّ: أوحى إليه وأوماً بمعنى، وَحَيْتُ إِلَيْهِ وَأَوْحَيْتُ، إِذَا كَلَّمْتَهُ بِمَا تَخْفِيهِ عَنْ غَيْرِهِ، وَتَوَحَّى، أَي أَسْرَعَ، قَالَ الْأَعَشَى:

مِثْلَ رِيحِ الْمِسْكِ ذَاكَ رِيحُهَا صَهَّهَا السَّاقِي إِذَا قِيلَ تَوَحَّ^٢

الوحي في القرآن

واستعمله القرآن في معاني ثلاثة ما عدا الوحي الرسالي الآتي:

١- نفس المعنى اللغوي

الإيماء الخفية، وقد مرَّ في آية مريم.

٢- تركيز غريزي فطري

وهو تكوين طبيعي مجعول في جبلَّة الأشياء، استعارة من إعلام قولِي لإعلام ذاتي، بجامع الخفاء في كَيْفِيَّةِ الإلقاء والتَّلْقِي، فبما أنَّ الوحي إعلام سرِّي ناسب استعارته لكلِّ شعور باطني فطري، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾^٣ فهي تنتهج وفق فطرتها، وتستوحي من باطن غريزتها، مذلَّة لما أودع فيها من غريزة العمل المنتظم، ومن ثمَّ فهي لا تحيد عن تلك السَّيل.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾^٤ أي قَدَّرَ وقد استوحي العَجَّاج هذا المعنى من القرآن في قوله:

أَوْحَىٰ لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيَّاتِ الثَّبَّتْ^٥

٢- أساس البلاغة ٢: ٤٩٦.

٤- فضلت ١٢/.

١- النهاية ٥: ١٦٣.

٣- النحل ٦٨/.

٥- لسان العرب.

٣- إلهام نفسي

و هو شعور في الباطن يحس به الإنسان إحساسًا يخفي عليه مصدره أحيانًا، و أحيانًا يلهم أنه من الله، وقد يكون من غيره تعالى.

و هذا المعنى هو المعروف عند الروحيين بظاهرة التَّلْبَاتِي «التَّخاطر من بعيد» و هو خطور باطني آتِي لا يعرف مصدره، قالوا: إِنَّهَا فِكْرَةٌ تَنْتَقِلُ مِنْ ذَهْنِ إِنْسَانٍ إِلَى آخَرٍ وَ الْمَسَافَةِ بَيْنَهُمَا شَاسِعَةٌ. أو إلقاء رُوحِيٍّ مِنْ قَبْلِ أَرْوَاحٍ عَالِيَةٍ أَوْ سَافِلَةٍ^١.

و قيل إِنَّهَا فِكْرَةٌ رَحْمَانِيَّةٌ تُوجِّهُهَا الْمَلَائِكَةُ، تَنْفِثُهَا فِي رُوحِ إِنْسَانٍ يَرِيدُ اللَّهُ هِدَايَتَهُ، أَوْ وَسُوسَةَ شَيْطَانِيَّةٍ تَلْقِيهَا أَبَالَسَةُ الْجَنِّ لَغْوَ غَوَايَتِهِ.

و من الإلهام الرَّحْمَانِيَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاذًا خُفَّتْ عَلَيْهِ فَالْقَبِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لَا تَخَافِي وَ لَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^٢، قال الأزهري: الوحي هنا إلقاء الله في قلبها، قال: و ما بعد هذا يدلّ - والله أعلم - على أَنَّهُ وَحِيٌّ مِنْ اللَّهِ عَلَى جِهَةِ الْإِعْلَامِ، لِلضَّمَانِ لَهَا ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ﴾ و قيل: إِنَّ مَعْنَى الْوَحْيِ هُنَا الْإِلْهَامُ، قَالَ: وَ جَائِزٌ أَنْ يَلْقَى اللَّهُ فِي قَلْبِهَا، أَنَّهُ مُرْدُودٌ إِلَيْهَا وَ أَنَّهُ يَكُونُ مَرْسَلًا، وَ لَكِنَّ الْإِعْلَامَ أَبِينِ فِي مَعْنَى الْوَحْيِ هُنَا^٣.

و الشَّيْخُ الْمُفِيدُ أَخَذَ الْوَحْيَ هُنَا بِمَعْنَى الْإِعْلَامِ الْخَفِيِّ فِي كِتَابِهِ: «أَوَائِلُ الْمَقَالَاتِ» لَكُنْهُ فِي كِتَابِهِ: «تَصْحِيحُ الْإِعْتِقَادِ» جَعَلَهُ بِمَعْنَى رُؤْيَا أَوْ كَلَامٍ سَمِعْتَهُ أُمُّ مُوسَىٰ فِي الْمَنَامِ. وَ قَالَ - بِصَدَدٍ يُضَاحِ مَعْنَى الْوَحْيِ - أَصْلُ الْوَحْيِ هُوَ الْكَلَامُ الْخَفِيُّ، ثُمَّ قَدْ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَصْدٌ بِهِ إِفْهَامُ الْمَخَاطَبِ عَلَى السَّرَرِ عَنْ غَيْرِهِ^٤.

و أَمَّا التَّعْبِيرُ بِالْوَحْيِ عَنْ وَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ وَ تَسْوِيلِهِ خَوَاطِرَ الشَّرِّ وَ الْفَسَادِ، فَجَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾^٥ وَ قَالَ: ﴿وَ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِجْعَادِ لَكُمْ﴾^٦ وَ يَفْسَرُهُ

١ - راجع: رؤوف عبيد، فصل: الإنسان روح لا جسد، ١: ٥٤٢.

٢ - القصص ٧/.

٣ - لسان العرب: ابن منظور.

٤ - راجع أوائل المقالات: ٣٩ و تصحيح الاعتقاد: ٥٦. ٥ - الأنعام ١١٢/.

٦ - الأنعام ١٢١/.

قوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾^١. كما جاء التعبير عمّا يليق به الله إلى الملائكة من أمره ليفعلوه من فورهم بالوحي أيضًا في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ إِنِّي مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾^٢. وأما التعبير بالوحي عمّا يليق به الله إلى نبيّ من أنبيائه بواسطة ملك أو بغير واسطة لأجل تبليغ رسالة الله، فهو معنى رابع استعمله القرآن.

٤- الوحي الرسالي

الوحي الرسالي، معنى رابع استعمله القرآن في أكثر من سبعين موضعًا، معبرًا عن القرآن أيضًا بأنّه وحي أُلقي على النبيّ ﷺ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾^٣، وكذلك أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا^٤، ﴿وَإِنَّمَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾^٥.

وظاهرة الوحي بشأن رسالة الله هي أولى سمات الأنبياء، امتازوا بها على سائر الرُعاء والمصلحين أصحاب العبقريات الملهمين. ولم يكن النبيّ محمد ﷺ بدعًا من الرسل في هذا الاختصاص النبويّ، ولا أوّل من خاطب الناس باسم الوحي السماويّ، ومن ثمّ فلا عجب في هذا الاصطفاء مادام ركّب البشريّة منذ بداية سيرها لم تنزل يرافقتها رجال إصلاحيون يهتفون بهذا النداء الرّوحيّ، ويدعون إلى الله باسم الوحي وتبليغ رسالة الله: ﴿أَكَاَنَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾^٦.

ودفعًا لهذا الاستنكار الغريب قال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ عِيسَى وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هُودَ وَ سُلَيْمَانَ وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا - إِلَىٰ أَنْ قَالَ - قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^٧.

٢ - الأنفال / ١٢.

٤ - الشورى / ٧.

٦ - يونس / ٢.

١ - الناس / ٦-٤.

٣ - يوسف / ٣.

٥ - العنكبوت / ٤٥.

٧ - النساء / ١٦٣ - ١٦٧.

والوحي الرّسالي لا يعد و مفهومه اللّغوي بكثير بعد أن كان إعلامًا خفيًا، و هو اتّصال غيبي بين الله و رسوله، يتحقّق على أنحاء ثلاثة، كما جاءت في الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِّئٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا...﴾^١.

فالصورة الأولى إلقاء في القلب ونفث في الرّوع، والثانية: تكليم من وراء حجاب، بخلق الصّوت في الهواء بما يقرع مسامع النّبي ﷺ ولا يرى شخص المتكلّم، والثالثة: إرسال ملك الوحي فيبلغه إلى النّبي، إمّا عيانًا يراه أو لا يراه ولكن يستمع إلى رسالته.

إذن فالفارق بين الوحي الرّسالي و سائر الإحياءات المعروفة هو جانب مصدره الغيبي اتّصالاً بما وراء المادّة فهو إحياء من عالم فوق، الأمر الذي دعا بأولئك الذين لا يروّقهم الاعتراف بما سوى هذا الإحساس المادي أن يجعلوا من الوحي الرّسالي سبيله إلى الإنكار، أو تأويله إلى وجدان باطني ينتشي من عبقرية واجده.

أنحاء الوحي الرّسالي

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِّئٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي إلهامًا وقذفًا في روعه، و هو إلقاء في الباطن، يحسّ به الموحى إليه كأنّما كتب في ضميره صفحة لامعة، أو رؤيًا في منام، ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾، أي يكلمه تكليمًا يسمع صوته و لا يرى شخصه، كما كلّم موسى ﷺ بخلق الصّوت في الهواء يخرق مسامعه، و يأتيه من كلّ مكان، و كما كلّم نبيّنا ﷺ ليلة المعراج.

والتّكليم من وراء حجاب كناية أو تشبيه بمن يتكلّم محتجبًا، أو المراد بالحجاب الحجاب المعنويّ بعد الفاصلة بين كمال الواجب و نقص الممكن.

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ ملكًا من الملائكة، ﴿فَيُوحِي بِآذَانِهِ مَا يَشَاءُ﴾، إمّا إلقاء على السّمع أو تقرّأ في القلب.

﴿وَكَذَلِكَ﴾، أي على هذه الأنحاء الثلاثة: إلهامًا و تكليمًا و إرسال ملك،^٢ ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا﴾ هي الشّريعة أو القرآن ﴿مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ

جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^١ هذه أنحاء الوحي بوجه عام وبصورة إجمالية، أما بالنسبة إلى نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ فكان يأتيه الوحي تارةً في المنام، وهذا - أكثر - كان في بدء نبوته، وأخرى وحيًا مباشرًا من جانب الله بلا توسط ملك، وثالثة مع توسط جبرئيل عليه السلام. غير أن الوحي القرآني كان يخص الأخيرين إما مباشرة أو على يد ملك، وإليك بعض التفصيل:

١- الرؤيا الصادقة

كان أول ما بدى به من الوحي الرؤيا الصادقة، كان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح - وهو كناية عن تشعشع نوراني كان ينكشف لروحه المقدسة تمهيدًا لإفاضة روح القدس عليه - صلوات الله عليه وآله، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه^٢ الليالي أولات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويزود لذلك، ثم يرجع خديجة فتزوده لمثلها^٣ حتى فجأه الحق وهو في غار حراء جاءه الملك فقال: (اقرأ...) ^٤

قال علي بن إبراهيم القمي رحمه الله لما أتى له سبع وثلاثون سنة... [وذكر كما تقدّم عنه في بدء الوحي، ثم ذكر رواية الإمام الباقر عليه السلام كما تقدّم عن الصّغار الرقم ٢، فقال:] قوله «قبل الوحي» أي قبل الوحي الرساليّ المأمور بتبليغه، لأنّ هذا البيان تفسير لمفهوم «النبي» قبل أن يكون رسولاً، وهو إنسان أُوحي إليه من غير أن يكون مأموراً بتبليغه، فهو يتصل بالملأ الأعلى اتصالاً روحياً، وينكشف له الملكوت كما حصل لنبيِّنا ﷺ قبيل بعثته المباركة.

قال صدر الدين الشيرازي: «يعني أنّه ﷺ اتّصفت ذاته المقدّسة بصفة النّبوة، و جاءته الرسالة من عند الله باطناً وسراً، قبل أن يتّصف بصفة الرسالة أو ينزل عليه جبرائيل

١- التّورى ٥١/ ٥٢.

٢- التّحْنُثُ: التّحنُّف، وهو الميل إلى الحنيفيّة، كناية عن التّعبد الذي هو مطهّرة للعبد، قال ابن هشام: تقول العرب: التّحنّث والتّحنّف، فيبدلون الفاء من التّاء، كما في جدث و جدف، أي القبر، قال: وحدّثني أبو عبيدة أنّ العرب تقول: فمّ في موضع ثمّ.

٣- التزود: استصحاب الزّاد.

٤- البخاري ٣: ١، مسلم ٩٧: ١٨، تاريخ الطبري ٢: ٢٩٨.

معانيًا محسوسًا بالكلام المنزل المسموع، وإِنَّمَا جاءه جبرئيل معانيًا حين جمع له من أسباب النبوة ما جمع للأنبياء الكاملين، كإبراهيم من الرؤيا الصادقة والإعلامات المتتالية بحقائق العلوم والإحياءات بالمغيبات. والحاصل أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ استكمل باطنه و سره قبل أن يتعدى صفة الباطن منه إلى الظاهر، فأتصف القلب بصفة القلب محاكياً له، و الأول نهاية السَّفر من الخلق إلى الحق، والثاني نهاية السَّفر من الحق بالحق إلى الخلق»^١.
نعم ربَّما كانت الرؤيا الصادقة سبيل الوحي إليه ﷺ فيلقى إليه العلم أحياناً في المنام، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «رؤيا الأنبياء وحي»^٢، ولكن لم يكن شيء من ذلك قرآناً، إذ لم يعد نزول قرآن عليه في المنام. نعم وإن كانت بعض رؤاه أسباباً لنزول القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ...﴾^٣ فقد رأى النَّبِيُّ ﷺ ذلك عام الحديبية^٤ و صدقت عام الفتح^٥.

وكما في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمُلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾^٦، فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه و البَيْهَقِيُّ وابن عساکر، عن سعيد بن المسيب، قال: رأى رسول الله ﷺ بني أمية على المنابر، فساءه ذلك، فأوحى الله إليه: إِنَّمَا هِيَ دُنْيَا أُعْطَوْهَا، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا...﴾، يعني بلاء للناس^٧.
هذا... وقد ذكر بعضهم أَنَّ سورة الكوثر نزلت على رسول الله ﷺ في المنام، لرواية أنس بن مالك، قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءً، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله ﷺ فقال: أنزلت عليّ آناً سورة، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ...^٨ إلخ.

قال الزَّافِعِيُّ: إِنَّهُمْ فهِمُوا ذَلِكَ أَنَّ السُّورَةَ نَزَلَتْ فِي تِلْكَ الْإِغْفَاءِ، لَكِنِ الْأَشْبَهُ أَنَّهُ خَطَرَ لَهُ فِي النَّوْمِ سُورَةُ الْكَوْثَرِ الْمَنْزُلةُ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ، فَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ وَفَسَّرَهَا لَهُمْ. قال: وقد يحمل ذلك على الحالة الَّتِي كَانَتْ تَعْتَرِيهِ عِنْدَ نَزُولِ الْوَحْيِ، وَيُقَالُ لَهَا: بُرْءَاءُ الْوَحْيِ، وَ

١ - شرح أصول الكافي الحديث ٤٥٤: ٣.

٢ - أمالي الشيخ الطوسي: ٢١٥ والبحار ١١: ٦٤.

٣ - الفتح ٢٧.

٤ - وهي سنة ست من الهجرة.

٥ - وهي سنة ثمان.

٦ - الإسراء / ٦٠.

٧ - الدر المنثور ٤: ١٩١، تفسير الطبري: ١٥: ٧٧.

٨ - الدر المنثور ٦: ٤٠١.

هي سبنة شبه النعاس كانت تعترضه من ثقل الوحي.

قال جلال الدين: الذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه، والتأويل الأخير أصح من الأول، لأن قوله: «أنفاً» يدفع كونها نزلت قبل ذلك، بل نزلت في تلك الحالة، ولم يكن الإغفاء إغفاء نوم بل الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي^١ وأنف بمعنى قبيل هذا الوقت. أقول: لاشك أن سورة الكوثر مكّية، وهذا هو المشهور بين المفسرين شهرة تكاد تبلغ التواتر، قالوا: نزلت بمكة عندما عابه المشركون بأنه أبتّر لا عقب له، أو أنه مبتور من قومه منبوذ.

وهكذا التامات ابنه إبراهيم مسّت قريش بعضهم إلى بعض متباشرين، فقالوا: إن هذا الصّابىء قد بتر الليلة. قال ابن عباس: دخل رسول الله ﷺ من باب الصفا وخرج من باب المروة، فاستقبله العاص بن وائل السهمي، فرجع العاص إلى قريش، فقالت له قريش: من استقبلك يا أبا عمرو أنفاً؟ قال ذلك الأبتّر - يريد به النبي ﷺ - فأنزل الله جلّ جلاله سورة الكوثر تسلياً لنفس نبيه الزكية^٢.

هذا وأنس عند وفاة النبي ﷺ لم يبلغ العشرين، إذ كان عند مقدمه ﷺ المدينة طفلاً لم يتجاوز التسع وقيل: ثماني سنوات^٣، فكيف نثق بحديث منه يخالف إطباق الأمة على خلافه، وأنها نزلت بمكة في قصة جازت حدّ التواتر؟! الأمر الذي يرجّح الوجه الأول من اختيار الإمام الرافعي، أو نجعل من رواية أنس حبلها على غاربها!.

نعم أخرج مسلم والبيهقي هذه الرواية من وجه آخر، ليس فيه «أنزلت عليّ»، قال أغفى النبي ﷺ إغفاوة ثم رفع رأسه فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ...﴾ ثم فسرها بنهر في الجنة. قال البيهقي: وهذا اللفظ أولى، حيث لا يتنافى وما عليه أهل التفاسير والمغازي من نزول سورة الكوثر بمكة...^٤

١ - الإتيان ١: ٢٣.

٢ - أسباب النزول ٢: ١٤٢، الدر المنثور ٦: ٤٠١.

٣ - أسد الغابة ١: ١٢٧.

٤ - الدر المنثور ٦: ٤٠١.

٢- نزول جبرائيل

كان الملك الذي ينزل النبي ﷺ بالوحي هو جبرائيل عليه السلام، فكان يلقيه على مسامعه الشريفة، فتارة يراه إما في صورته الأصلية - وهذا حصل مرتين - أو في صورة دحية بن خليفة، وأخرى لا يراه، وإنما ينزل بالوحي على قلبه ﷺ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾^١.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾: جبرائيل، مثال قدرته تعالى، ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي ذو عقلية جبارة، ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾: استقام على صورته^٢، وليته، وهذا هو المرة الأولى في بدء الوحي، ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ سد ما بين الشرق والغرب، ﴿ثُمَّ دَنَّى فَتَلَّى﴾.

فجعل يقترب من النبي ﷺ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ ﴿فَإَوْحَىٰ﴾ الله بواسطته جبرائيل ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿مَا أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾: فؤاد محمد ﷺ ﴿مَا رَأَىٰ﴾ فكان قلبه ﷺ يصدق بصره فيما يرى أنه حق، ﴿افْتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ ولقد رآه نزلةً أخرى: ﴿مَرَّةً ثَانِيَةً فِي مَرْتَبَةٍ أَنْزَلَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿إِذْ نَغَزَّ سِدْرَةً مَّا يَغْشَىٰ﴾ ﴿مَازَاغَ الْبَصَرِ وَمَا طَغَىٰ﴾^٣، فكان الذي يراه حقيقة واقعة، ليس وهم ولا خيالاً.

وقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: جبرئيل ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ ﴿مَا صَاحِبُكُمْ﴾: محمد ﷺ ﴿يَمْشُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾: رأى جبرئيل في صورته الأصلية ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾^٤، إشارة إلى المرة الأولى أيضاً.

قال ابن مسعود: إن رسول الله ﷺ لم ير جبرئيل في صورته إلا مرتين؛ إحداهما: أنه سأله أن يراه في صورته فأراه صورته فسد الأفق، وأما الثانية فحيث صعد به ليلة المعراج، فذلك قوله: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾^٥. والصحيح أن المَرَّتَيْنِ كانت إحداهما في بدء الوحي بحراء، ظهر له جبرئيل في

٢- التَّجْم / ٣- ١٧.

٤- الذَّر المنثور / ٦: ١٢٣.

١- الشعراء / ١٩٣.

٣- التَّكْوِير / ١٩ - ٢٣.

صورته التي خلقه الله عليها، مألأً أفق السماء من المشرق والمغرب، فتهيأه النبي ﷺ تهيئاً بالغاً، فنزل عليه جبرئيل في صورة الآدميين فضمه إلى صدره، فكان لا ينزل عليه بعد ذلك إلا في صورة بشر جميل.

والثانية: كانت باستدعائه ﷺ الذي جاءت به الروايات، كان لا يزال يأتيه جبرئيل في صورة الآدميين، فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه مرةً أخرى على صورته التي خلقه الله، فأراه صورته فسد الأفق. فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ كانت المرة الأولى، وقوله: ﴿نَزَّلَهُ أُخْرَى﴾ كانت المرة الثانية. قال رسول الله ﷺ: «وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول».^٢

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إن جبرائيل كان إذا أتى النبي ﷺ لم يدخل حتى يستأذنه، وإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد».^٣

هذا وكان جبرئيل عندما يتمثل لرسول الله ﷺ يبدو في صورة دحية بن خليفة الكلبي، وتعبير أصح يبدو في صورة شبيهة بدحية، كما جاء في تعبير ابن شهاب: كان رسول الله ﷺ يشبه دحية الكلبي بجبرائيل حينما يتصور بصورة بشر.^٤ وذلك لأن دحية كان أجمل إنسان في المدينة، كان إذا قدم البلد خرجت الفتيات ينظرن إليه.^٥

والسبب في ذلك أن جبرائيل كان حينما يتمثل بشراً يتمثل صورة إنسان خلقه الله على الفطرة الأولى، والإنسان في أصل خلقته جميل، فكان يتمثل جبرئيل في أجمل صورة إنسانية. وبما أن دحية كان أجمل إنسان في مدينة، كان الناس يزعمون جبرئيل -وهو يتمثل بشراً- أنه دحية الكلبي، ومن ثم كان العكس هو الصحيح. قال رسول الله ﷺ: «كان جبرائيل يأتيني على صورة دحية الكلبي»، وكان دحية رجلاً جميلاً. والظاهر أن الجملة الأخيرة هي من كلام أنس راوي الحديث،^٦ أي على صورة تشبهها صورة دحية. وكان الصجابة يزعمونه دحية حقيقة، ومن ثم نهاهم رسول الله ﷺ

١ - مجمع البيان ١٧٣:٩ و ٤٤٦:١٠، الصافي ٦١٨:٢. ٢ - البخاري ٣:١.

٣ - كمال الدين: الصدوق ٨٥. ٤ - الاستيعاب بهامش الإصابة ٤٧٤:١.

٥ - الإصابة ٤٧٣:١. ٦ - الإصابة ٤٧٣:١، أسد الغابة ١٣٠:٢.

أن يدخلو عليه إذا وجدوا دحية عنده، قال: «إذا رأيت دحية الكلبي عندي فلا يدخلن علي أحد»^١.

وكان جبرئيل قد يتمثل للصحابه أيضاً بصورة دحية، كما في غزوة بني قريظة سنة خمس من الهجرة، شاهده الصحابة على بغلة بيضاء.^٢

و شاهده أيضاً علي عليه السلام دفعات بمحضر النبي صلى الله عليه وآله وسلم و تكلم معه و النبي صلى الله عليه وآله وسلم رافد.^٣
و أما نزول الملك عليه بالوحي من غير أن يراه فكثير أيضاً، إمّا إلقاءً على مسامعه و هو يُصغي إليه، أو إلهاماً في قلبه فيعيه بقوة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^٤

كان صلى الله عليه وآله وسلم في أوائل نزول الملك عليه بالوحي يخشى أن يفوته اللفظ، و من ثم كان يحرك لسانه و شففيه ليستذكره و لا ينساه، فكان يتابع جبرائيل في كل حرف يلقيه عليه فنهاه تعالى عن ذلك و وعده بالحفظ و الرعاية من جانبه تعالى، قال: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُغَيِّرَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْتَ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾^٥ و ربما كان صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ على أصحابه فور قراءة جبرئيل عليه، و قبل أن يستكمل الوحي أو تنتهي الآيات النازلة، حرصاً على ضبطه و ثبته، فنهاه تعالى أيضاً و قال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^٦. فطمأنه تعالى بالحفظ و الرعاية الكاملة. فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبرئيل استمع له فإذا انطلق قرأه كما أقرأه^٧، قال تعالى: ﴿سَنُقَرِّكَ فَلَا تَنْسَى﴾^٨.

و إشارة إلى هذا التحو من الوحي الذي هو نكت في القلب قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفْثٌ فِي رُوعِي»^٩ و هو سواد القلب، كناية عن السرّ الباطن، و المقصود روحه الكريمة.

١ - بحار الأنوار ٣٧: ٣٢٦.

٢ - بحار ٢: ٢١ و ٢: ٣٣٢، المجمع ٨: ٣٥١.

٣ - القيامة ١٦ - ١٩.

٤ - طبقات ابن سعد ١: ١٣٢.

٥ - الإتيان ١: ٤٤.

٦ - سيرة ابن هشام ٣: ٢٤٥.

٧ - الشعرا ١٩٢ - ١٩٥.

٨ - طه ١١٤.

٩ - الأعلى ٦.

٣- الوحي المباشر

ولعل أكثرية الوحي، كان مباشر لا يتوسطه ملك، على ما جاء في وصف الصحابة حالته ﷺ ساعة نزول الوحي عليه، كان ذا وطء شديد على نفسه الكريمة، يجهد من قواه وتعثره غشوة منهكة، فكان ينكس رأسه و يتردد وجهه و يتصبب عرقاً، و تسطو على الحضور هيبه رهيبه، ينكسون رؤوسهم صموداً من روعة المنظر الرهيب، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^١. قال الإمام الصادق عليه السلام: «كان ذلك إذا جاءه الوحي وليس بينه وبين الله ملك، فكانت تصيبه تلك السبته^٢ و يغشاه ما يغشاه لثقل الوحي عليه، أما إذا أتاه جبرائيل بالوحي فكان يقول: هو ذا جبرئيل، أو قال لي جبرائيل...»^٣.

قال الشيخ أبو جعفر الصدوق: «إن النبي ﷺ كان يكون بين أصحابه فيغمر عليه و هو يتصاب عرقاً...»^٤ [وذكر كما تقدم عنه الرقم ٤، ثم قال:]

وفيما يلي أوصاف جرت على السنة الصحابة، يذكرون مشهوداتهم عن الحالة التي كانت تعترى رسول الله ﷺ ساعة نزول الوحي عليه:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «نزلت على النبي ﷺ سورة المائدة و هو على بغلته الشهباء، فثقل عليه الوحي حتى وقفت و تدلى بطنها، حتى رأيت سررتها تكاد تمس الأرض، و أغمي على رسول الله ﷺ حتى وضع يده على ذؤابة شيبه بن وهب الجمحي...»^٥

و قال عبادة بن الصامت: «وكان إذا نزل الوحي على النبي ﷺ كُرب له و تردد وجهه»^٦ و في رواية: «نكس رأسه و نكس أصحابه رؤوسهم، فلما سرى عنه رفع رأسه»^٧

و قال عكرمة: «كان إذا أوحى إلى رسول الله ﷺ و قد لذلك ساعة كهينة السكران»^٨.

و قال ابن أروى الدوسي: رأيت الوحي ينزل على النبي ﷺ و أنه على راحلته

١- المزمّل ٥/ ٢- هي إغماء تشبه النعسه.

٣- محاسن البرقي: ٣٣٨. أمالي الشيخ: ٣١. بحار الأنوار ١٨: ١٧١ و ٢٦٨.

٤- كما الدين: ٨٥. البحار ١٨: ٢٦٠. ٥- تفسير العياشي ٢٨٨. و الذؤابة: شعر مقدم الرأس.

٦- طبقات ابن سعد ١: ١٣١. «كرب» أي انقبضت نفسه و تغيرت حالته، «تردد» أي تغير لون وجهه إلى القبره.

٧- دائرة معارف القرن العشرين ١٠: ٧١٢.

٨- الطبقات ١: ١٣١. «و قد» - بالبناء المجهول - أي غشى عليه، و الموقود: منقلب النعاس فصار كهينة السكران.

فترغو، و تقتل يديها حتّى أظنّ أنّ ذراعها ينقسم، فربّما بركت و ربّما قامت مؤنّدة يديها حتّى يسري عنه من ثقل الوحي، وأنّه ليتحدّر منه مثل الجمان»^١.
وقالت عائشة: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه: و أنّ جبينه ليتفصد عرقاً»^٢، وقالت أيضاً: «إنّه كان ليوحى على رسول الله ﷺ و هو على راحلته فيضرب بجرانها»^٣.

و قال ابن عباس: «كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي يعالج من ذلك شدة و ألماً شديداً و ثقلأً، و يتصدّع رأسه»^٤.

و قال ابن شهر آشوب: و روي أنّه كان إذا نزل عليه الوحي نكس رأسه و نكس أصحابه رؤوسهم، و منه يقال: برّحاء الوحي»^٥.

و روى ابن قَيِّم: «أنّه ﷺ جاءه الوحي مرّةً و فخذّه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتّى كادت ترثّها»^٦.

[ثم ذكر حديث المقبول، عن صاحب المتقي كما تقدّم عن البخاري، فقال:] و أخيراً فقد وصف هو ﷺ نزول الوحي عليه بما يدهش:

[ثمّ ذكر رواية أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمر و رواية الحارث بن هشام و سؤاله عن رسول الله، كما تقدّم عن السيوطي و النسائي، فقال] و تذيلاً على هذه الروايه - و هي متواترة إلى حدّ ما - يجب أن ننبّه القارئ على نقاط هامّة:

أولاً - صلّصلة الجرس في هذه الرواية كناية عن صوت متعاقب كصوت الناقوس

١ - الطبقات ١: ١٣١. «ترغو» أي تضجّ و تكابد من شدة الثقل، «تقتل يديها» أي تباعد بينهما، «ينقسم» أي ينكسر. «قامت مؤنّدة» أي وقفت جامدة لا حراك لها، و ثبتت قوائمها كالمسمار المثبت في الأرض، «التحدّر»: الانصباب السريع، «الجمان» اللؤلؤ، و الواحدة جمّانة، شبه بذلك قطرات عرق جبينه الطيّب.

٢ - صحيح البخاري ٣: ١. «التفصد»: قطع العرق الذي ينصب منه الدّم بتدفق، استعارة لكثرة انصباب عرقه الطيّب حين نزول الوحي.

٣ - مجمع البيان ١٠: ٣٧٨. و البحار ١٨: ٢٦٣. «الجران» من البعير: مقدّم عنقه، يقال: ألقى البعير جرانه، أي برك.

٤ - بحار الأنوار ٢٦١: ١٨ عن المناقب ١: ٤١.

٥ - بحار الأنوار ١٨: ٢٦١. عن المناقب ١: ٣١. و البرّحاء: شدة الكرب والألم.

٦ - زاد المعاد لابن قَيِّم ١: ١٨.

المصلصل المجلجل، كان ﷺ يسمع صوتاً متداركاً كجَلْجَلَةِ النَّاقُوسِ، هو صوت الوحي المباشر، فكان ﷺ ينصت له بكل وجوده حتّى يتلقّاه كملّاً وكان ذا وقع شديد على نفسه الكريمة. وهذا التعبير «صَلْصَلَةُ الْجَرَسِ» يشي بشدّة الوقع، حيث تتابع الصّوت المتدارك يؤثّر في حاسة السّمع تأثيراً نافذاً في الأعماق، فكأنّما يأخذ بلُبِّ القلب أخذاً متواصلًا قويًّا، ومن ثمّ قال ﷺ «ظننت أنّ نفسي تقبض».

والظاهر أنّ هذه الصّلصلة كانت تمهيداً لنزول الوحي عليه ﷺ كي يستعدّ لذلك الاتّصال الرّوحيّ الشّديد، ومن ثمّ قال: ثمّ أسكت عند ذلك «أي أنصت حيث الإشعار بنزول الوحي».

نعم كان للوحي ذاته دويّ شديد بالغ الشّدّة، لم يكن يتحمّله أهل السّماوات العلّا. [ثمّ ذكر رواية أبي الجارود عن الباقر عليه السلام، كما تقدّم عن القميّ الرّقم ١ فقال:]

وفي حديث ابن مسعود: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السّماوات صلصلة كصلصلة السّلسلة على الصّفوان - الحجر الأملس - فيفزعون».

[ثمّ ذكر رواية ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس، ورواية الثّوأس عن رسول الله كما تقدّم عن السيوطي الرّقم ٢، والطبري الرّقم ١٠ فقال:]

وبعد... فلا نكاد نستغرب من غشية تعتري رسول الله ﷺ ساعة نزول الوحي عليه إذا كان أهل السّماوات لا تتحمّل وقع صوته المدهش.

ثانيًا - هذا التّمط من الوحي الشّديد الوقع على نفسه الكريمة كان يخصّ الوحي المباشر، كما تقدّم حديثه، كما أنّ الرّواية ذاتها تشي بهذا التّفصيل، حيث جعلت من النّوع الأوّل مثل صلصلة الجرس، فكان صوت الوحي التّازل عليه مباشرة ومن ثمّ قال ﷺ: «وكان أشدّه عليّ» وجعلت من النّوع الثّاني ما يكلمه الملك مشافهة فيعي ما يوحى إليه في حينه، لأنّه ﷺ كان حينئذ في حالته العادية.

وزعم جلال الدّين أنّ التّوعين اللّذين أشارت إليهما الرّواية: أحدهما ما كان الملك التّازل بالوحي مختلفيًّا، والآخر ما كان متمثلاً^٢ وهذا مخالف لما يفهم من الرّواية ذاتها،

كما نبّه بذلك شيخنا الصدوق^١، ومرّ في حديث الإمام الصادق عليه السلام^٢.

ثالثاً - أن الجذبة الروحية القويّة في الصّوره الأولى ربّما كانت توهم انفلات شيء من الوحي حينما يفقد عليه السلام^٣ وعيه الظاهر، لكنّه عليه السلام تدارك هذا الوهم بأنّه كان بعد ما يتفشّع غشوته يجد كلّ ما أُوحي إليه حاضرة ذهنه الشّريف، كأنّما كتب في كتاب، ولم ينفلت منه شيء، وهذا معنى قوله عليه السلام: «يفصم عني وقد وعيت».

والسّبب في ذلك أن الوحي في صورة المباشرة كان يخالط لُبّه، ويتسرّب إلى أعماق وجوده عليه السلام بما أنفذه الله في قلبه الكريم ﴿سَنُفَرِّقُكَ فَلَا تَنْسَى﴾^٤.

وبهذا يتّضح معنى الحديث الذي رواه ابن أبي سلّمّة عن عمّه، أنّه بلغه أن رسول الله عليه السلام كان يقول: «كان الوحي يأتيني على نحوين: يأتيني بجرّيل فيلقيه عليّ كما يلقي الرّجل على الرّجل^٥، فذلك الذي يتفلّت منّي، يأتيني في شيء^٦ مثل صوت الجرس، حتّى يخالط قلبي، فذاك الذي لا يتفلّت منّي»^٧.

قوله عليه السلام: «فذلك الذي يتفلّت منّي»، أي الذي كان يكاد يتفلّت منه، لأنّه كان سماعاً مباشراً من ملك الوحي، وسُرعان ما ينسى الإنسان ما يسمعه من غيره إذا لم يعه وعياً.

فهذا النمط من الوحي كان بمعرض التّسيان وخوف التّفلّت - كما هو شأن السّماع المجرّد إذا لم يتقيّد بالكتابة في وقته - لأنّه كان يتفلّت منه بالفعل. أمّا في صورة الوحي المباشر فحيث كان يخالط لُبّه وينفذ في أعماق قلبه الكريم، فلم يكن يخشى عليه التّفلّت أصلاً.

هذا وقد وقع بعض الباحثين في خلط من هذا الحديث ورفضه آخرون، لكن المعنى على ما ذكرنا صحيح، توافقه سائر الأحاديث... [إلى أن قال:]

١ - كمال الدين: ٨٥ والبحار ١٨: ٢٦٠.

٢ - محاسن البرقي: ٣٣٨ والبحار ١٨: ٢٧١.

٣ - الأعلى ٦/.

٤ - أي كما يلقي الرّجل بكلامه على صاحبه، وهذا هو الصّورة الثّانية ممّا تقدّم.

٥ - أي الوحي ذاته يأتيني بالتوسيط ملك، وهي الصّورة الأولى ممّا تقدّم.

٦ - طبقات ابن سعد ١: ١٣١.

موقف النبي ﷺ من الوحي

هنا موضوعان لهما أهمية كبيرة بشأن رسالة الأنبياء وصدق دعوتهم إلى الله، لا بدّ من معالجتهما بصورة علميّة مقبولة، وقد تكلم فيهما عامّة أهل السنّة بطريقة غير مألوفة، وربما لا يستسيغها العقل الفطريّ في شيء، أمّا علماؤنا الإماميّة فتكلّموا فيهما بطريقة عقلية على أساس الاستدلال البرهانيّ مدعّمًا بالنقل المأثور عن أئمة أهل البيت عليه السلام.

الأوّل - كيف عرف النبي ﷺ أنّه مبعوث؟ ولمّ لم يشك في أنّ الذي أتاه شيطان، واطمأن أنّه جبرائيل؟

الثاني - هل يجوز على النبي ﷺ أن يخطأ فيما يوحى إليه، فيلتبس عليه تخيّلات باطلة في نفسه لتبدو له بصورة وحى، أو يلقي عليه إبليس ما يظنّه وحياً من الله؟ والأكثر في الموضوع الأوّل جعلوا من النبي ﷺ مُرتاعاً في أوّل أمره، خائفاً على نفسه من مسّ جنون، عائداً إلى أحضان زوجه الوفيّة، لتستنجد هي بدورها بابن عمّها ورقة بن نوفل، فيطمئنّه هذا بأنّه نبيّ، ويؤكد له ذلك حتّى يطمأنّ ويستريح باله.

أمّا الموضوع الثاني فقد أجازوا لإبليس أن يتلاعب بوحي السماء فيلقي على النبيّ ما يظنّه وحياً - كما في حديث الغرائيق - لولا أن يتداركه جبرائيل فيذهب بكيد الشيطان. وقد ذهب أئمة أهل البيت عليه السلام في كلا الموضوعين مذهباً نزيهاً، وجعلوا من النبي ﷺ أكرم على الله من أن يتركه إلى إنسان غيره، ولا ينير له الدلائل الواضحة على نبوته الكريمة في تلك الساعة الحرجة، كما لا يدع للشيطان أن يستحوذ على مشاعر نبيه الكريم: ﴿وَاضْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾^١.

هذا ويجدر بنا - ونحن نحاول تنزيه جانب رسول الله ﷺ ممّا ألصقوه بكرامته - أن نتكلّم في كلا المجالين بصورة مستوفاة، كلاً على حدة:

النِّبْوة مقرونة بدلائل نيرة

يجب على الله - وجوباً منعتاً من مقام لطفه و رأفته بعباده - أن يقرن تنبيئه إنساناً بدلائل نيرة لا تدع لمسارب الشكّ مجالاً في نفسه، كما أرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، ليكون من الموقنين. ^١ «نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا» ^٢ الله، «يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ - إِلَى أَنْ قَالَ - يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ» ^٣.

هذا هو مقتضى قاعدة اللطف، وقد بحث عنها علماء الكلام ^٤، و تنلخص في تمهيد سبيل الطاعة. فواجب عليه تعالى أن يمهّد لعباده جميع ما يقرّبهم إلى الطاعة و يبعدهم عن المعصية. و هذا الوجوب منبعث من مقام حكمته تعالى إذا كان يريد من عباده الانقياد، وإلا كان نقضاً لغرضه من التكليف. و من ثمّ وجب عليه تعالى أن يعث الأنبياء و ينزل الشرائع و يجعل في الأمم ما ينير لهم دروب الحياة، إمّا إلى سعادة فباختيارهم، أو إلى شقاء فباختيارهم أيضاً ^٥.

و طبقاً لهذه القاعدة لا يدع - تعالى - مجالاً لتدليس أهل الزيغ و الباطل، إلا و يفضحهم من فورهم «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ» ^٦. فالحق دائماً بعلو و لا يعلى عليه، و الحقّ و الباطل دائماً على وضح الجلاء، لا يكدر وجه الحقّ غبار الباطل أبداً، «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ» ^٧، «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» ^٨. و هذا إمّا هو نصر و اعتلاء مبدئيّ، فالحق دائماً ظاهر منصور، و إنّ رسالة الأنبياء دائماً تكون هي الغالبة الظافرة «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ»، نعم ^٩ «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا» ^{١٠}.

١ - مقتبس من الآية: ٧٥ الأنعام.

٢ - طه / ١١.

٣ - النمل / ٩ - ١٠.

٤ - علم منشعب عن الفلسفة الحكيمية، يبحث عن أحوال المبدء و المعاد في ضوء العقل و إرشاد الشريعة.

٥ - الحاقة: ٤٤ - ٤٦.

٦ - شرح تجريد الاعتقاد: ١٨١.

٧ - المؤمن: ٥١.

٨ - الأنبياء: ١٨.

٩ - النساء: ٧٦.

١٠ - الصافات / ١٧١ - ١٧٣.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «أبى الله أن يعرف باطلاً حقاً، أبى الله أن يجعل الحقّ في قلب المؤمن باطلاً لاشكّ فيه، وأبى الله أن يجعل الباطل في قلب الكافر المخالف حقاً لاشكّ فيه، ولولم يجعل هذا هكذا ما عرف حقّ من باطل».

وقال «ليس من باطل يقوم بإزاء الحقّ إلّا غلب الحقّ الباطل، وذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾^١،^٢

هذا وقد سأل زرارة بن أعين الإمام أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن نفس الموضوع، قال: قلت لأبي عبد الله: كيف لم يخف رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ممّا ينزع به الشيطان؟ فقال عليه السلام: إنّ الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار - أي الطمأنينة والإتزان الفكري - فكان الذي يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه^٣ أي يجعله في وضوح الحق لا غبار عليه أبداً، فيرى الواقع ناصعاً جلياً لا يشك ولا يضطرب في رأيه ولا في عقله. وقد أوضح الإمام عليه السلام ذلك في حديث آخر، سئل عليه السلام: كيف علمت الرسل أنّها رسل؟ قال: «كشف عنهم الغطاء»^٤.

قال العلامة الطبرسي: إنّ الله لا يوحى إلى رسوله إلّا بالبراهين النيرة والآيات البيّنة، الدالة على أنّ ما يوحى إليه إنّما هو من الله تعالى فلا يحتاج إلى شيء سواها، ولا يفزع ولا يفزع ولا يفرق»^٥.

وقال القاضي عياض: «لا يصحّ - أي في حكمته تعالى، وهو إشارة إلى قاعدة اللطف - أن يتصور له الشيطان في صورة الملك، ويلبس عليه الأمر، لافي أول الرسالة ولا بعدها، والاعتماد - أي اطمئنان النبي - في ذلك دليل المعجزة، بل لا يشكّ النبي صلى الله عليه وآله أنّ ما يأتيه من الله هو الملك ورسوله الحقيقي، إمّا بعلم ضروري يخلقه الله له، أو ببرهان جلي يظهره الله لديه، لتتمّ كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلمات الله»^٦.

إذن فلا بد أن يكون النبي صلى الله عليه وآله حين انبعاثه نبياً على علم يقين، بل عين يقين من

١ - الأنبياء: ١٨. ٢ - محاسن البرقي، رقم ٣٩٤ و ٣٩٥: ٢٢٢.

٣ - بحار الأنوار ١١: ٥٦.

٤ - رسالة الشفاء: ١١٢.

٥ - العياشي ٢: ٢٠١ والبحار ١٨: ٢٦٢.

٦ - مجمع البيان ١٠: ٣٨٤.

أمره، لا يشك ولا يضطرب، مستقيماً مطمئناً باله، مرعياً بعناية الله تعالى ولطفه الخاص، منصوراً مؤيداً، ولا سيما في بدء البعثة، فيأتيه التأموس الأكبر وهو الحق الصراح معانياً مشهوداً، وهي موقعية حاسمة لا ينبغي للنبي أن يتزلزل فيها أو يتروّع في موقفه ذلك الحرج العصيب: ﴿إِنِّي لَأَخَافُ لَدَيْ الْمُرْسَلِينَ﴾^١.

وأيضاً فإن النبي ﷺ لم يختره الله لنبوته إلا بعد أن أكمل عقله وأدبه فأحسن تأديبه، وعرفه من أسرار ملكوت السماوات والأرض ما يستأهله للقيام بمهمة السفارة وتبليغ رسالة الله إلى العالمين، كما فعل بإبراهيم الخليل عليه السلام.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «ولقد قرن الله به ﷺ من لدن أن كان فطيمًا أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره...»^٢.

قال الإمام العسكري عليه السلام: «إن الله وجد قلب محمد ﷺ أفضل القلوب وأوعاها فاختاره لنبوته...»^٣.

قال العلامة المجلسي: «منذ أن أكمل الله عقله لم يزل مؤيداً بروح القدس يكلمه يسمع صوته ويرى الرؤيا الصادقة، حتى بعثه الله نبياً رسولاً...»^٤.

والدلائل على أنه ﷺ منذ بدايته كان مورد لطفه تعالى وعنايته الخاصة كثيرة، وقد عرف قومه فيه التبوغ والجدارة الذاتية، ولمسوا فيه الصدق والأمانة والذكاء والفطنة، فوجدوه مزيجاً من الاستقامة وحصافة العقل، حتى حُبب إلى الناس جميعاً ولقّبوه بالصادق الأمين، أميناً في رأيه، وأميناً في سلوكه.

وكان قبيل بعثته تظهر له علام النبوة، فقد ظهرت آياتها قبل ثلاث سنوات من بعثته وهو في سن السابع والثلاثين - كما في رواية علي بن إبراهيم القمي^٥ - فكان يرى الرؤيا الصادقة، وكان يختلي بنفسه في غار جراء، متفكراً في أسرار الملكوت، متعمقاً في ذات الله متطلعاً سر الخليفة، حتى فجأه الحق وقد بلغ سن الأربعين، فقد كان ممهداً نفسه

١ - التلم / ١٠.

٢ - نهج البلاغة ١: ٣٩٢ القاصعة.

٣ - بحار الأنوار ١٨: ٢٠٦.

٤ - المصدر السابق ١٨: ٢٧٧.

٥ - راجع المصدر السابق ١٨: ٣١.

لذلك، عارفاً بسمات أمر قد أشرفت طلائعه منذحين.

وهكذا إنسان لا يفزع ولا يفرق ولا يظنّ بنفسه الجنة أو عارضة سوء، ليلتجأ إلى امرأة لا عهد لها بأسرار التّبوّات، أو رجل^١ كان حظّه من العلم أن قرأ كتباً محرّفة وآثاراً بائدة، لم يثبت آنذاك أنّه لمس حقائق ومعارف من الملّك والمَلَكوت كانت موجودة فيها لحدّ ذاك، غير ممسوخة عن فطرتها الأولى.

على أنّ النّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ كان أشرف الأنبياء وأفضل المرسلين وخاتم سفراء ربّ العالمين، فكان أكرم عليه تعالى من أن يتركه ونفسه يتلوّى في أحضان القلق والاضطراب، خائفاً على نفسه من جنون أو الاستحواذ على عقله الكريم، على ما جاءت في روايات آتية لا قيمة لها عندنا.

إذن فقد كان موقف النّبِيَّ ﷺ تجاه نزول الحقّ عليه - في بدء البعثة - موقف إنسان واعٍ بجليّ الأمر، عارفٍ بحقيقة الحقّ الثّازل عليه، في اطمئنان بالغ وسكون نفس وانشراح صدر، لم يتردّد ولم يشكّ ولم يضطرب، كما لم يفزع ولم يفرق. وسنذكر قصّة بدء البعثة على ما جاءت في روايات أهل البيت  و هي تشرح جوانب من موقف النّبِيَّ ﷺ - آنذاك ملؤها عظمة وإكبار وأبهة جلال.

قِصَّة وَرَقَّة بن نَوْفَل

تلك كانت قصّة البعثة وفق ما جاءت في أحاديث أهل البيت، وهم أدري بما في البيت، وإليك الآن حديثاً آخر عن بعثة النّبِيَّ مُحَمَّدٍ ﷺ على ما جاءت في روايات غيرهم: روى البخاريّ ومسلم وابن هشام والطبريّ وأضربهم: «بينما كان النّبِيَّ ﷺ مختلياً بنفسه في غار جِراء إذ سمع هاتفاً يدعوه، فأخذه الرّوع ورفع رأسه وإذا صورة رهيبة هي التي تتناديه... [وذكر كما تقدّم نحوه عن البخاريّ وابن كثير وغيره في باب بدء الوحي، ثم قال:]

ثمّ قامت بتجربة ناجحة، قالت: يا بن عمّ، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي

يأتيك؟ قال: نعم، قالت: [وذكر كما تقدّم عن الطبري الرّم ٣٥].

ثمّ توكيداً لما استنتجته من تجربتها انطلقت إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل و كان منتصراً قارئاً للكتب، فقصّت عليه خبر ابن عمّها محمد ﷺ فقال ورقة:

فُدّوس، لئن كنت صدقتني يا خديجة فقد جاءه الثاموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، فقولني له فليثبت، وإنه لنبي هذه الأمة، ولوددت أن أدرك أيامه فأؤمّن به وأنصره. فعادت خديجة إلى رسول الله ﷺ وأخبرته بما قال، فعند ذلك اطمأنّ باله، وذهب روعته، وأيقن أنّه نبيّ.^١

قلت: لاشكّ أنّ قصّة ارتياح النبي ﷺ بتلك الصّورة الفضيعة أسطورة خرافة، حاكتها عقول ساذجة، جاهلة بمقام أنبياء الله الكرام، و من ثمّ فهي إزاء بشأنهم الرّفيع، وخطّ من منزلتهم الشّامخة، إن لم تكن ضعضة بأقوى دعامة رسالة الله!

أولاً - النبي ﷺ أكرم على الله من أن يروّعه في ساعة حرجة هي نقطة حاسمة في حياة رسوله الكريم، هي نقطة تحوّل عظيم، من إنسان كامل كان مسؤول نفسه إلى إنسان رسول هو مسؤول أمة بأجمعها، كان قبل أن يصل إلى موقفه هذا العصيب يسير قدماً إلى قمة الاكتمال الإنسانيّ الأعلى، في سفرة خطرة كان مبدؤها الخلق ومنتهاها الحقّ تعالى، فكان يسير من الخلق إلى الحقّ، والآن و قد وصل القمة، فعاد من الحقّ حاملاً للحقّ إلى الخلق.^٢

فساعة البعثة هي الفترة الحاسمة، و هي الحلقة الواصلة بين السّفرتين الذّاهبة والرّاجعة، وهي موقف حرج، حاشا لله أن يترك حبيبه يكابد الأمرين حينما بلغ قمة اللّقاء، والآن يريد أن يختاره رسولاً إلى النّاس، فيتركه يتلوّى في هوا جس خطرة، ويروّعه بتلك الصّورة الفضيعة التي تكاد تذهب بنفسه الكريمة أو تستحوذ على عقله روعة المنظر الزّهيب!! ليس محمّد ﷺ أكرم على الله من إبراهيم الخليل وموسى الكليم وغيرهما من أنبياء

١ - راجع: سيرة ابن هشام: ٢٥٢ - ٢٥٥. صحيح البخاري: ١ - ٣ - ٤. صحيح مسلم ١: ٩٧ - ٩٩ تاريخ الطبري ٢: ٢٩٨ - ٣٠٣.

تفسيره ٣٠: ١٦١. حياة محمّد: ٩٥ - ٩٦.

٢ - على ما جاء في تعبير الفيلسوف الإلهيّ الحكيم صدر الدّين الشّيرازي، تقدّم كلامه.

عظام، لم يتركهم في ساعة العسرة ليلتجأوا إلى إنسان غيره، حاشاه من ربّ رؤوف رحيم!!
 ثانيًا - أنا لربأ بعلماء - هم أهل تحقيق و تمحيص - أن يفضّلوا عقلية امرأة لاشأن
 لها وأسرار النبّوات على عقلية إنسان كامل كان قد بلغ القمّة التي استأهلته لحمل رسالة
 الله. ثمّ تقوم هي بتجربة حاسمة يجهلها رسول ربّ العالمين، ليطمئنّ إلى قولتها أو قوله
 رجل كان شأنه أن كان قارئًا للكتب، وليس لذلك العهد كتب فيها حقائق ومعارف غير
 محرّفة قطعياً. ولم نعرف ما الذي وجده رسول الله ﷺ في قولتهما فكان منشأ اطمئنانه، لم
 يجده في الحقّ النازل عليه من عند الله العزيز الحكيم.

ألم تكن الرؤى الصادقة التي سبقت البعثة، ولم يكن تسليم الملك النّازل عليه
 حينها: السّلام عليك يا رسول الله، وتسليم الشّجر والحجر كلّما مرّ بهما في طريقه راجعاً
 إلى بيت خديجة، ولم يكن عرفانه الذاتيّ الذي كان يتعمّقه مدّة اختلاّنه بحراء كلّ ذلك لم
 يستوجب استيقانه بالأمر، ليستيقن من طمأنة امرأة أو رجل متنصّر!! إن هذا إلاّ إزراء
 فضيع بمقام رسالة الله، إن لم يكن مساً شنيعاً بكرامة رسول الله ﷺ المنيع.

ثالثاً - اختلاف سرد القصّة بما لا يلتئم مع بعضها البعض لدليل على كذبها رأساً، ففي
 رواية: انطلقت خديجة لوحدها إلى وُرّقة، فأخبرته بما جرى. وفي أخرى: انطلقت بي
 إلى وُرّقة وقالت: اسمع من ابن أخيك، فسألني فأخبرته، فقال: هذا الثاموس الذي أنزل
 على موسى. وفي ثالثة: لقيه وُرّقة بن نوفل وهو يطوف بالبيت فقال: يا بن أخي، أخبرني
 بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال له ورقة: والذي نفسي بيدي إنّك لنبيّ
 هذه الأمّة، ولئن أدركت ذلك لأنصرنّ الله نصرًا يعلمه. وفي رابعة: عن ابن عبّاس عن وُرّقة
 بن نوفل، قال: قلت: يا محمّد أخبرني عن هذا الذي يأتيك، يعني جبرئيل عليه السلام فقال:
 يأتيني من السّماء جناحاه لؤلؤ وباطن قدميه أخضر^١. وهذا ليس في روايات خديجة مع
 وُرّقة، على ما جاءت في الصّحاح المتقدّمة. وفي خامسة: أنّ أبا بكر دخل على خديجة،
 فقالت: انطلق بمحمّد إلى وُرّقة، فانطلقا فقصّا عليه...^٢.

١ - أسد الغابة: ابن الأثير ٨٨:٥ والزّواية ضعيفة بروح بن مسافر، ولم يدرك ابن عبّاس وُرّقة.

٢ - الإقنان ٢٤:١.

ثم لو صحت القصة فلما ذالم يؤمن به وَرَقَّة حينذاك وقد علم أنه نبي مبعوث؟! فقد صحَّ أنه مات كافراً لم يؤمن به. وقضية رؤيا النبي ﷺ كان وَرَقَّة في ثياب بيض أيضاً مكذوبة وسندها مقطوع، وإلا لسجل اسمه فيمن آمن به قال ابن عساكر: لأعرف أحداً قال: إنه أسلم^١، هذا وقد عاش وَرَقَّة إلى زمن بعد البعثة، فقد روي أنه مرَّ ببلال وهو يعذب^٢. قال ابن حجر: وهذا يدلُّ على أنه عاش حتَّى ظهرت دعوته ﷺ ودعا بلالاً فأسلم. إذن فلم يبق على كفره ولم يُسلم كما أسلم الآخرون؟ ولم لم ينصره كما نصره آخرون؟ وقد خالف عهده كما جاء في الأسطورة.

الوحي لا يحتمل التباساً

هذا هو الموضوع الثاني - فيما أشرنا سابقاً - النبي ﷺ لا يخطأ فيما يوحى إليه، ولا يلتبس عليه الأمر قط. النبي كان عند ما يوحى إليه يكشف عن عينه الغطاء، فيرى الواقعية فيما يتصل بجانب روحه الملكوتي، منقطعاً عن صوارف المادة إنه ﷺ حينذاك يلمس تجليات وإشراقات نورية تغشاها من عالم الملكوت، لينصرف بكلّيته إلى لقاء روح الله وتلقّي كلماته، فيرى حقيقة الحقّ النازل عليه بشعور واع وبصيرة نافذة، كمن يرى الشمس في وضوح النهار، لا يحتمل خطأ في إيصاره ولا التباساً فيما يعيه. وهكذا الوحي، إذ لم يكن فكرة نابعة من داخل الضمير، ليحتمل الخطأ في ترتيب مقدّمات استنتاجها، أو إيصاراً من بعيد ليحتمل التباساً في الانطباق،^٣ بل هي مشاهدة

١ - الإصابة ٣: ٦٣٣.

٢ - نفس المصدر.

٣ - الخطأ إنما يحتمل في مجالين: إمّا في مجال التفكير، أو في مجال الإبصار الخارجيّ مثلاً وذلك لأنّ للاستنتاج شرائط وأحكاماً، إذا ما أهملها المتفكر فسوف يقع في خطأ التفكير، وكذلك إبصار العين الخارجيّة إذا كان من بعيد، فربما يقع الخطأ فيه من ناحية تطبيق ما عند النفس من مرتكزات ومعلومات على خصوصيات يراها موجودة في العين الخارجيّة، فالخطأ إنما هو في هذا التطبيق النفسيّ لافي العين المشاهدة، لأنّ الإبصار عبارة عن انطباع صورة الخارج - وهي واقعيّة لا تتغيّر - في الشبكيّة المصبية خلف بؤرة العين، وهذه ظاهرة طبيعيّة تتحقّق ذاتيّاً إذا ما تحقّقت شرائطها. نعم كانت النفس هي التي تحكم على ما شاهدته العين بأنّه كذا وكذا، والخطأ إنما هو في هذا الحكم لافي ذاك الإبصار الطبيعيّ. إذن فيما أنّ الوحي خارج عن الإبرين، لا تفكير ولا إبصار من بعيد - مثلاً - وإنما هو لمس حقيقة حاضرة فلا موقع للخطأ فيه أصلاً.

حقيقة حاضرة بعين نافذة، فاحتمال الخطأ فيه مستحيل.

تلك طريقة علمية فلسفية^١ تهدينا إلى الاعتراف بعدم احتمال الوحي الخطأ أبداً، و من ثم فإنّ شريعة الله النّازلة على أيدي رسله الأمّناء مصونة عن احتمال الخطأ رأساً. وهناك طريقة أخرى عقلية تحتّم لزوم عصمة الأنبياء فيما يبلغون من شرائع الله، ويفصلها علماء الكلام، وتتلخّص في أنّ النّبيّ المبلّغ عن الله يجب - في ضوء قاعدة اللّطف - أن ينعم بصحة كاملة في أجهزة إحساسه، وسلامة تامّة في قوى مشاعره وفي قدرته العقلية، فيكون مستقيماً في آرائه ونظريّاته، معتدلاً في خلقه وسيرته، مستويّاً في خلقته وصوّره. وبكلمة جامعة يجب أن يختار الله لرسالته إنساناً كاملاً في خلقه وخلقه، كي لا يتنفّر النّاس من معاشرته، ويطمئنّوا إلى ما يبلغه عن الله، وإلّا كان نقصاً لغرض التشريع.

فالنّبيّ ﷺ معصوم من الخطأ والنّسيان، ولا سيّما فيما يخصّ تبليغ أحكام الشّريعة، وهذا إجماع من المسلمين ومن غيرهم من عقلاء أذعنوا برسالة الأنبياء، ولولاه لكان الالتزام بشرائع الدّين سفهاً ياباه العقل.^٢

هذا مضافاً إلى ما عهد الله لنبيّه بالرّعاية والحفظ: ﴿سَقِرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾،^٣ كان ﷺ في بدء نزول القرآن يخشى أن يفوته شيء، فكان يساق جبرئيل فيما يلقي عليه كلمة بكلمة فهي عن ذلك: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَجْعَلَ بِهِ﴾ * ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثمّ إنّ علينا بيانه^٤، و﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾^٥ قال ابن عبّاس: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبرئيل استمع له، فإذا انطلق قرأ كما أقرأه^٦، وأخيراً فإنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^٧، يقطع أيّ احتمال الدّسّ والتّزوير في نصوص القرآن الكريم.

١ - راجع ما كتبه الأستاذ العلامة الطّباطبائيّ بهذا الصّدّد في رسالة الوحي «وحي بأشعر مرموز»: ١٠٤.

٢ - راجع مباحث العصمة من شرح تجريد الاعتقاد: المسألة الثالثة من المقصد الرابع: ١٩٥.

٣ - الأعلى / ٦. ٤ - القيامة / ١٦ - ١٩.

٥ - طه / ١١٤. ٦ - طبقات ابن سعد ١: ١٣٢.

٧ - الحجر / ٩.

وأما احتمال تلبس إبليس ليتدخل فيما يوحى إلى النبي ﷺ و يجعل من تسويلاته الشيطانية في صورة وحي و يلبسه على النبي ﷺ ليزعمه وحيًا من الله، فهو أمر مستحيل، لأن الشيطان لا يستطيع الاستحواذ على عقلية رسل الله و عباده المكرمين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾^١، و متنافٍ مع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾^٢، و قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾^٣. و قد قال الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾^٤. و متنافٍ مع قاعدة اللطف الآتفة، و متناقض مع حكمته تعالى في بعث الأنبياء ﷺ في شرح سبق تفصيله.

نعم ذهب أصحاب الحديث من العامة إلى إمكان استحواذ الشيطان على عقلية الرسول كما جاءت روايتهم لقصة الغرائق، الأمر الذي نراه مستحيلًا إطلاقًا، و من ثم فهي أسطورة وضعها من يريد الامتحان بمقام الرسالة، ليعبر بها على عقول البسطاء، فكانت غنيمة بأيدي أعداء الإسلام. وإليك نص الأسطورة و نقدها تباعًا.

أسطورة الغرائق

روى ابن جرير الطبري بأسناد زعمها صحيحة، عن محمد بن كعب، و محمد بن قيس، و سعيد بن جببر، و ابن عباس، و غيرهم: أن النبي ﷺ كان في حشد من مشركي قريش بفناء الكعبة، أو في نادٍ من أنديةهم، و كانت تساوره نفسه لو يأتيه شيء من القرآن يقارب بينه و بين قومه الألداء، إذ كان يتألم من مباحثتهم، و كان يرجو الائتلاف معهم مهما كلف الأمر، و إذ نزلت عليه سورة النجم، فجعل يتلوها حتى إذا بلغ: ﴿افْرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْغَزَىٰ * وَ مَنُوءَ النَّالَةَ الْأُخْرَىٰ﴾^٥ ألقى عليه الشيطان: «تلك الغرائق العللى. و إن شفاعتهن لترتجى»^٦، فحسبها وحيًا فقرأها على ملائم قريش، ثم مضى و قرأ بقية السورة، حتى إذا

٢ - الحاقة / ٤٤، ٤٥.

٤ - إبراهيم / ٢٢.

١ - الإسراء / ٦٥.

٣ - النجم / ٣-٥.

٥ - النجم: ١٩، ٢٠.

٦ - الغرائق: جمع القُرُوق، و هو الشَّابُّ النَّاعم الأبيض، و في الأصل اسم لطير الماء (مالك الحزين)، و هو تشبيه آلهة

أكملها سجد وسجد المسلمون، وسجد المشركون أيضاً، تقديراً بما وافقهم محمد ﷺ في تعظيم آلهتهم ورجاء شفاعتهم. وطار هذا التبا حتى بلغ مهاجري الحبشة، فجعلوا يرجعون إلى بلدهم مكة فرحين بهذا التوافق المفاجيء كما فرح النبي ﷺ أيضاً بتحقيق أمنيته القديمة على ائتلاف قومه.

ويقال: إن شيطناً أبيض هو الذي تمثل للنبي في صورة جبرئيل وألقى عليه تينك الكلمتين. ويقال: كان النبي ﷺ يصلي عند المقام، إذا نعس نعسة فجرت على لسانه هاتان الكلمتان من غير شعور بهما.

ويقال: النبي ﷺ هو الذي تكلم بهما من تلقاء نفسه حرصاً على ائتلاف قلوب المشركين، ثم ندم من فعله هذا الذي كان افتراء على الله!

ويقال إن الشيطان أجبره على النطق بهذا الكلام... إلخ ثم لما أمسى الليل أتاه جبرائيل، فقال له: أعرض عليّ السورة، فجعل النبي ﷺ يقرأها عليه حتى إذا بلغ الكلمتين قال جبرائيل: مه، من أين جئت بهاتين الكلمتين؟ فتندم رسول الله ﷺ وقال: لقد افتريت على الله، وقلت على الله ما لم يقل فحزن حزناً شديداً، وخاف من الله خوفاً كبيراً.

ويقال: إن النبي ﷺ قال لجبرائيل: إنه أتاني آت على صورتك فألقاها على لساني، فقال جبرائيل: معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا. فاشتد ذلك على رسول الله، فنزلت: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا﴾ * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ ضِعْفًا قَلِيلًا * إِذَا لَا دَفْعًا لِكَيْفَ ضَعُفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا^١.

فاشتد حزن رسول الله ﷺ على هذه البادرة المباغطة، ولم يزل مغموماً مهموماً حتى نزلت عليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^٢، وكانت تسليية لقلبه

→ المشركين بطيور بيض متحلقة في أجواء السماء، كناية عن قربهم من الله.

٢ - الحج / ٥٢.

١ - الإسراء ٧٣ - ٧٥.

الحزين، فعند ذلك سرى عنه الهمّ وطابت نفسه^١

نقد الحديث سنداً

تلك أسطورة الغرائق مفتراة على النبي الكريم ﷺ، وقد أولع المستشرقون والطّاعنون في الدّين الإسلاميّ الحنيف بهذه الأسطورة المصطنعة، وأذا عوها وأثاروا حولها عجاجة من القول البذيء^٢، في حين أنّها أكذوبة مفتعلة صنعتها قرائح القصاصين، ونسبوها إلى بعض التّابعين، ومن الصّحابة إلى ابن عبّاس، ودلائل الكذب والافتراء بادية على محياها القدر.

أولاً - لم يتّصل تسلسل سند الحديث إلى صحابيّ إطلاقاً، وإنّما أسند إلى جماعة من التّابعين ومن لم يدرك حياة رسول الله ﷺ، وعليه فالحديث مرسل غير موصول السند إلى من شاهد القضيّة فرضاً وأمّا النسبة إلى ابن عبّاس فلا تغلّ عن غيرها بعد أن كانت ولادة ابن عبّاس في السّنة الثالثة قبل الهجرة، فلم يشهد القصة بتاتاً، وإنّما نقلت إليه فالرّواية من جميع وجوها غير موصولة الأسناد إلى شهود القصة لو صحّت الواقعة. وقواعد فنّ التّمحيص في إسناد الرّوايات تأبى جواز الاحتجاج بمثل هذا الحديث المرسل. هذا وقد شدّ ابن حَجَر في قوله: فيها ثلاث مراسيل، رجالها ثقة على شرط الصّحة. ثمّ أخذ يتهجّم على من زعمها مختلفة قائلًا إذا كثرت الطّرق وتباينت مخرجها، دلّ ذلك على أنّ لها أصلاً. قال: وتلك المراسيل يحتجّ بها ولو عند من لا يحتجّ بالمراسيل، لاعتضاد بعضها ببعض^٣ أقول: وهل الكذبة إذا راجت صدقت؟!.

ثانياً - شهادة جلّ أئمة الحديث بكذب هذا الخبر، وأنّ الطّرق إليه ضعاف واهية، فهو فيما يشتمل عليه من السّند أيضاً ساقط في نظر الفنّ.

قال ابن حَجَر نفسه: وجميع الطّرق إلى هذه القصة - سوى طريق ابن جُبَيْر - إمّا ضعيف - يكون الرّاي غير موثوق به أو مرمياً بالوضع والكذب - أو منقطع، (أي كانت

١ - تفسير الطبري ١٧: ١٣١ - ١٣٤، الذر المنثور ٢: ١٩٤ - ٣٦٦ - ٣٦٨ فتح الباري بشرح البخاري ٨: ٣٣٣.

٢ - أنظر تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان: ٣٢ - ٣ - فتح الباري بشرح البخاري ٨: ٣٣٣.

حلقة الوصل بين الراوي الأول والراوي الأخير مفقودة^١ و سنذكر أن بلاء طريق ابن جُبَيْر هو الإرسال والضعف أيضًا.

وقال أحمد بن الحسين البهقي: - أكبر أئمة الشافعية، مشهورًا بدقة النقد و التمهيص - «هذا الحديث من جهة الثقل غير ثابت ورواته مطعون فيهم»^٢.

وقال أبو بكر ابن العربي: «كل ما يرويه الطبري في ذلك باطل لأصل له»^٣.
وصنف محمد بن إسحاق بن خزيمة رسالة فند فيها هذا الحديث المفتعل، ونسبه إلى الزنادقة^٤.

وقال القاضي عياض: هذا الحديث لم يخرج أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أوع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلفقون من الصحف كل صحيح و سقيم. قال: و صدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال: لقد بلي المسلمون ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع أسناده، واختلاف كلماته»^٥.

وأما طريق ابن جُبَيْر فذكر أبو بكر البرزاني: أن هذا الحديث لم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد وغيره، يرسله عن سعيد بن جُبَيْر، وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. ثم يذكر شكّه في صحة الإسناد إلى ابن عباس أيضًا فيما أسند إلى ابن جُبَيْر^٦.
وأما طريق الكلبي إلى ابن عباس عن طريق أبي صالح فموهون بالاتفاق، قال جلال الدين السيوطي: هي أوهى الطرق^٧.

ثالثًا - اتفاق كلمة المحققين من علماء الإسلام قديمًا وحديثًا على أنه حديث مفترى، و حكموا عليه بالكذب الفاضح غير آبهين بجانب السند، متصل أم منقطع، صحيح أم سقيم، لأنه قبل كل شيء متناقض مع صريح القرآن الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^٨، و هادم لأقوى أسس الشريعة و أقوم دعائمه الرّصينة.

٢ - تفسير الرازي ٢٣: ٥٠.

٤ - تفسير الرازي ٢٣: ٥٠.

٦ - نفس المصدر: ١١٨.

٨ - فصلت / ٤٢.

١ - نفس المصدر.

٣ - فتح الباري ٨: ٣٣٣.

٥ - الشفاء القاضي عياض: ١١٧.

٧ - الإتيان ٢: ١٨٩.

قال الشريف المرتضى: فأما الأحاديث المروية في هذا الباب فلا يلتفت إليها، من حيث أنها تضمنت ما قد نزهت العقول الرسل ﷺ عنه، هذا لولم يكن في أنفسها مطعونة ضعيفة عند أصحاب الحديث. وكيف يجيز ذلك على النبي ﷺ من يسمع قول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾، وقوله: ﴿سَنُفَرِّقُكَ فَلَا تَنسَى﴾؟ ثم أخذ في توضيح الاستدلال^١.

وقال الإمام الفخر: هذه رواية عامة المفسرين الظاهريين، وأما أهل التحقيق فيرونها باطلة موضوعة، واحتجوا عليها بوجوه من العقل والنقل^٢ وقال السيد الطباطبائي: الأدلة القطعية على عصمة النبي ﷺ تكذب متن الحديث، وإن فرضت صحة أسناده، فمن الواجب تنزيه جانب قدسية النبي ﷺ عن أمثال هذه الرذائل التي تمس كرامة الأنبياء^٣.

و تكلم القاضي عياض في تفنيد هذا الحديث بوجوه عديدة اقتبسنا منها فصلاً في هذا العرض. وأخيراً أخذ الدكتور حسين هيكل في تفنيد القصة بأسلوب حديث، لخصناه في نهاية المقال.

نقد الحديث مدلولاً

هذا الحديث فضلاً عن سنده الموهون فإن مضمونه باطل على كل تقدير:

أولاً - مناقضته الصريحة مع كثير من نصوص القرآن الكريم في شتى الجهات.

ثانياً - منافاته الظاهرة مع مقام عصمة الأنبياء الثابتة بدليل العقل والنقل المتواتر والإجماع.

ثالثاً - عدم إمكان التثامه مع سائر آيات السورة نفسها لحناً وأسلوباً، بحيث لا

يمكن التباس هذا الجانب على من يعرف أساليب الكلام الفصيح، وبالأحرى أن لا يلبس الأمر على أفصح من نطق بالضاد، وعلى أولئك الحضور وهم صناديد قريش و أفلاذ العرب. و توضيحاً لهذه الجوانب الثلاثة الخطيرة نستعرض ما يلي:

١ - تنزيه الأنبياء: ١٠٧ - ١٠٩.

٢ - التفسير الكبير ٢٣: ٥٠.

٣ - تفسير الميزان ١٤: ٤٣٥.

١- مناقضته مع القرآن

إنّا لنربأ بمسلم نابه - فضلاً عن ناقد خبير كابن حَجَر - أن يتسلّم صدق هذا الحديث المقتعل، نظراً لما زعمه من صحّة إسناده المراسيل، ثمّ لا يتدبّر في متنه الفاسد الظاهر التّنافي مع كثير من نصوص الكتاب العزيز، وإليك طرفاً من ذلك:

أ- تبدأ السّورة بقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَ شَبِيدُ الْقُوَىٰ﴾^١.

وهي شهادة صريحة من الله بأنّ محمداً ﷺ لا يضلّ ولا يغوى ولا ينطق إلّا عن وحي من الله، يعلمه الرّوح الأمين.

فلو صحّ ما ذكروه في رأس الآية العشرين لكان تكذيباً فاضحاً لهذه الشّهادة، و تغليظاً لجانب الشّيطان على جانب الرّحمان، وهو القائل تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾^٢، والقائل: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^٣.

فكيف - ياترى - يتغلّب إبليس على ضمان يضمنه الله تعالى، فيبطله صريحاً قبل أن يفرغ من كلامه عزّ شأنه؟! وهل يتغلّب ضعيف في كيده على قويّ في إرادته؟! وهل هذا إلّا تهافت باهت وكلام فارغ، لا يستطيع عاقل تصديقه!

ب - وأيضاً فإنّه تعالى يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * لَقُطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾^٤، كناية أن أحداً لا يستطيع التّقوّل على الله تليسياً للحقيقة إلّا ويهلكه الله من فوره، الأمر الذي تقتضيه حكمته تعالى، جرياً مع قاعدة اللطف، وقد سبقت الإشارة إليها.

أفهل ترى - بعد هذا التأكيد - يستطيع إبليس، وهو صاحب الكيد الضّعيف أن يتقول على الله، و يلبس الأمر على رسول الله ﷺ بما يحسبه وحياً آتياً به جبرائيل الأمين؟! إذن فأين الضمان الذي ضمنه الله تعالى الغالب على أمره، وتعهّده على نفسه في الآية المذكورة؟!.

ج - و قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^١، فقد ضمن تعالى سلامة القرآن من تلاعب أيدي المبطلين، وحفظه عن دسائس المعاندين، أهلل يعقل - بعد ذلك - أن يترك إبليس وشأنه في سبيل التلاعب بالذكر الحكيم فور نزوله على رسوله الكريم؟! وهل هذا إلا تهافت في الرأي، وإبطال لضمان الله؟! ومعه لا تبقى ثقة بما وعد الله المؤمنين من النصر والغلبة، وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا!!

د - و قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^٢، وقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَ كَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾^٣. فكيف نجوز - بعد هذا الضمان الصريح المؤكد - أن يتسلط إبليس على أخلص عباد الله المكرمين، فيلبس عليه ناموس الكبرياء، وفي أمس شؤون رسالته المضمونة؟!.

على أن القرآن يصرح أن لا سلطة لإبليس على أحد إطلاقًا، سوى وسوسته الخداعة ودعوته إلى شرور، أما التدخل عمليًا في شؤون الخلق أو الخالق، فهذا لا سبيل لإبليس إليه إطلاقًا، وقد حكى الله سبحانه عن لسان إبليس: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾^٤.

٢- منافاته لمقام العصمة

قال القاضي عياض: «وقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثله هذه الرذيلة، أما تمنّيه أن ينزل عليه مثل هذا، من مدح آلهة غير الله وهو كفر، أو أن يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن، حتى يجعل فيه مالميس منه، ويعتقد النبي ﷺ أن من القرآن ما ليس منه، حتى ينهيه جبرائيل عليه السلام، وذلك كله ممتنع في حقه. أو يقول النبي ﷺ ذلك من قبل نفسه عمدًا، وذلك كفر، أو سهوًا، وهو معصوم من هذا كله. وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه، لا عمدًا ولا سهوًا.

٢- النحل / ٩٩.

١- الحجر / ٩.

٤- إبراهيم / ٢٢.

٣- الإسراء / ٦٥.

أو أن يتشبه عليه ما يلقيه الملك ممّا يلقي الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو يتقول على الله مالم ينزل عليه، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ...﴾^١، وقال تعالى: ﴿إِذَا لَاقَيْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ...﴾^٢. وأيضاً فلو لا العصمة الملحوظة في أداء رسالة الله، لزال الثقة بالدين، ولأخذت الشكوك مواضعها من أحكام وتكاليف وشرائع يبلغها النبي ﷺ عن الله تعالى! وامتداداً لجانب عصمته ﷺ وأن لا سبيل لإبليس إلى شأن من شؤون المعصمة بعصمة الله تعالى، قال: «من رأي فقد رأي فإن الشيطان لا يتمثل بي»^٣ وقد فهم العلماء من هذا الحديث قاعدة كلية: لا يستطيع إبليس التمثّل بأيّ وليّ من أولياء الله العباد المخلصين، وبالأحرى عدم استطاعته التمثّل بجبرائيل، ملك الوحي المقرب الأمين! إذن فأنتي لإبليس التلاعب بوحي السماء، أو أن ينتحل صورة رسول من رسل الله الأكرمين؟! كلا، ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾^٤.

٣- تهافته مع أيّ السورة

قال القاضي عياض أيضاً: «ووجه ثانٍ، وهو استحالة هذه القصة نظراً و عرفاً، وذلك أن هذا الكلام لو كان - كما روي - لكان بعيد الالتئام، متناقض الأسقام، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم، ولما كان النبي ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك. وهذا لا يخفى على أدنى متأمل، فكيف بمن رجح حلمه، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه»^٥.

أفهل يتصور بشأن النبي محمد ﷺ وهو العارف بمواقع الكلام، الناقد لأفصح أقوال العرب الفصحاء، أن يلتبس عليه شأن كلام ساقط، لا يتناسب وسائر جمل وآيات كانت تنزل عليه حينذاك؟! أم كيف ينسجم ماذكروه مع قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا

١ - الحاقّة / ٤٤.

٢ - الشفاء: ٢ - ١١٨ - ١١٩.

٣ - الإسراء / ٧٥.

٤ - صحيح مسلم ٧: ٥٧.

٥ - الصفات / ٨.

٥ - الشفاء: ٢ - ١١٩.

أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿١﴾؟ أم كيف يقتنع المشركون - وهم أهل نقد و فصاحة - بتلك المجاملة المفضوحة: يقتزن مدح مشكوك، بذلك القدح الصَّارم، ليأخذوه تقارباً مبدئياً بين إشراكهم والدعوة التي قام بها محمد ﷺ والتي قامت على محق الشُّرك وإخلاص الدِّين الحنيف، و لا سيما مع تعقيبها بقوله أيضاً: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ فهل يلتزم هذا الكلام التَّوحيديَّ الخالص مع تلك الأكذوبة: «وإنَّ شفاعتَهُنَّ لَترتَجى»؟!.

و أخيراً فلو صَحَّت الحكاية لشاعت و ذاعت، ولأخذها المشركون مستمسكاً في وجه المسلمين طول الدَّعوة، ولم يصدَّقوا النَّبيَّ ﷺ في دعواه النَّسخ مهما كَلَّف الأمر. هذا في حين أنَّ التَّاريخ لم يضبط من تلك الأقصوصة المفتعلة سوى حكايتها عن أناس تأخَّروا عن ظرفها بزمان بعيد، ولم يسجِّل التَّاريخ من يقول: حضرتهما الأمر الذي يجعلنا قاطعين بكذبتها. ولعلَّها من الإسرائيليات المفضوحة التي نَسجتها أيدي التُّكَّة بالإسلام، في عهد سطوِّ المظالم على أرجاء البلاد الإسلاميَّة، في ظلِّ حكومة بني أُمَيَّة أعداء الدِّين و القرآن، وهذا هو الأرجح في نظرنا. وفي فصول هذا الكتاب الآتية يتَّضح موقف هذه الفئة الباغية على الإسلام أكثر.

قال الأستاذ هيكل: حديث الغرائق حديث ظاهر التَّهافت، ينقضه قليل من التَّمحيص، وهو بعد حديث ينقض ما لكلِّ نبيٍّ من العصمة في تبليغ رسالات ربِّه. فمن عجب أن يأخذ به بعض كتاب السِّيرة وبعض المفسِّرين المسلمين، ولذلك لم يتردَّد ابن إسحاق حين سئل عنه في أن قال: إنَّه من وضع الزُّنادقة. لكن بعض الذين أخذوا به حاولوا تبرير أخذهم هذا، فاستندوا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾^٢، وإلى قوله: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى الْفَى الشَّيْطَانُ﴾ و يضيف (سير وليم مُوير) إنَّ مرجع المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة بعد ثلاثة أشهر من إقامتهم هناك لدليل قاطع على صحَّة هذه القصَّة.

وهذه الحجج التي يسوقها القائل بصحَّة حديث الغرائق حجج واهية لا تقوم أمام

التّحريض، أمّا رجوع المسلمين فكان سببه اضطراب سياسيّ، عمّ أرجاء الحبشة على أثر ثورة جديدة قامت فيها.

أمّا الاحتجاج بالآيات فاحتجاج مقلوب، لأنّ الآية الأولى لاتشي بوقوع الأمر: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ﴾^١.

فالآية تقول: إن الله بيّنه فلم يفعل، وأمّا آية التّمنيّ فلاصلة لها بحديث الغرائيق، وقد تقدّم شأنها.

و دليل آخر أقوى وأقطع: سياق السّورة و عدم احتماله لمسألة الغرائيق، فإنّها ذمّ صريح، و لهجة تقريع لا ينسجم و إدراج هكذا جملة، الأمر الذي لا يكاد يخفى على العرب آنذاك.

وأيضاً فإنّ وصف آلهة قريش بالغرائيق لم يأتي في نظمهم ولا في خطبهم ولا شيء من معنى الغرنوق يلائم معنى الإلهة التي وصفها العرب، كما قاله الشّيخ محمّد عبده.

و بقيت حجة قاطعة نسوقها للدلالة على استحالة قصّة الغرائيق هذه من حياة محمّد نفسه، فهو منذ طفولته و صباه و شبابه لم يجربّ عليه الكذب قطّ، حتّى سُمّي الأمين. و كان صدقه أمراً مسلماً به من النّاس جميعاً، فكيف يصدّق إنسان أنّه يقول على ربّه ما لم يقل، و يخشى النّاس و الله أحقّ أن يخشاه! هذا أمر مستحيل، يدرك استحالته الّذين درسوا هذه النفوس القويّة الممتازة الّتي تعرف الصّلافة في الحقّ و لا تداجي فيه لأيّ اعتبار»^٢ (١: ٢ - ٧٠).

الفصل الخامس والعشرون

نصّ الدكتور أبي شهبه (معاصرٌ) في «المدخل لدراسة القرآن»

[كيفية نزول الوحي]

كيف كان جبريل يتلقّى الوحي؟

هذا البحث من أنباء الغيب، فلا يطمئنّ الإنسان إلى رأي فيه إلا أن ورد عن معصوم، ولم نطلع في هذا على نقل من المعصوم عليه السلام، وإنما نقول عن بعض العلماء:

١- منها ما قاله الطيّب: لعلّ نزول القرآن على الملك أن يتلقّفه تلقّفاً روحانياً، أو يحفظه من اللوح المحفوظ، فينزل به على النبي صلى الله عليه وآله فيلقيه إليه، وكلمة «لعلّ» لا تفيد القطع، وإنما تفيد التّجوز والاحتمال، وقد ردّد الإمام الطيّب الأمر بين هذين الاحتمالين، ولم يقطع برأي.

٢- ما ذكره البيهقي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^١ قال: يريد -والله أعلم- إنا أسمعنا الملك وأفهمناه إيّاه، وأنزلناه بما سمع، وهذا الرّأي أمثل الآراء وأولاها بالقبول، ويشهد له ما رواه الطّبراني من حديث الثّواب بن سّمان مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وآله قال: «إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله، فإذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا، وخرّوا سحداً، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل، فيكلّمه الله بوحيه بما أراد، فينتهي به إلى الدار الآخرة، فكلّمنا مرّ بسماء ربّه أهلها: ماذا قال ربّنا؟ قال: الحقّ، فينتهي به حيث أمر» والحديث وإن لم يكن نصّاً في القرآن إلا أن الوحي يشمل وحي القرآن وغيره، بل يدخل فيه الوحي بالقرآن دخولاً أولياً.

وهذا الرّأي هو أحد الاحتمالين اللّذين جوّزهما الطّيبي، وهو مراده بقوله: أن يتلقّفه تلقّفاً روحانياً.

والاحتمال الثاني، وهو حفظه من اللّوح المحفوظ وإن كان غير مستبعد، إلّا أن ما دلّ عليه النصّ أولى، وينبغي أن يصار إليه، وهو الأليق بالقرآن الكريم. وفي تلقّي جبريل عليه السلام القرآن من ربّه دون وساطة إعظام للقرآن وتفخيم لشأنه، وتلبية إلى غاية العناية به، والحرص والمحافظة عليه، ومبالغة في صيانته عن التّحريف والتّبديل.

ألأتري أنّ أحد الملوك أو الرّؤساء أو الأمراء إذا أرسل رسالة مهمّة في أمر مهمّ لرجل ذي شأن، فإنّه يتخيّر لها الرّسول، ويأبى إلّا أن يختمها بختمه، وأن يناولها إليه بيده، فما بالك بالقرآن الّذي هو كلام الله ورسالة الرّسالات؟ وأحقّ الكتب بالتّحوط والصّيانة والحفاظ عليه.

كيف كان يتلقّى النّبيّ القرآن

كان النّبيّ ﷺ يتلقّى القرآن عن جبريل عليه السلام على حالتين:

١- أن ينسخ النّبيّ ﷺ من حالته البشريّة العاديّة إلى حالة أخرى، بها يحصل له استعداد لتلقّي الوحي من جبريل عليه السلام، وهو على حالته الملكيّة. وفي هذه الحالة قد يسمع عند مجيئ الوحي صوتٌ شديد كصلصلة الجرس وأحياناً يسمع الحاضرون صوتاً عند مجيء الوحي كدويّ النّحل، وتأخذ النّبيّ ﷺ حالة شديدة روحانيّة، يغيب فيها عمّا حوله، ويثقل جسمه، حتّى لتكاد النّاقة الّتي يركبها تَبْرُك، وإذا جاءت فَخِذُهُ على فَخِذِ انسان تكاد تُرْضُها، ويتصبّب عرقه، وربّما يسمع له غطيط كغطيط الثّائم، فإذا ما سرى عنه وجد نفسه واعياً لكلّ ما سمع من الوحي فيبلغه كما سمعه. وهذه الحالة أشدّ حالات الوحي على النّبيّ ﷺ، ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^١، وعلى هذه الحالة تلقّى القرآن.

٢- أن يتحوّل جبريل عليه السلام من الملكيّة إلى الصّورة البشريّة، فيأتي في صورة رجل،

فيأخذ عنه الرسول ويسمع منه. وكثيراً ما كان جبريل عليه السلام يأتي في هذه الحالة في صورة دحية الكلبي، أو صورة أعرابي لا يعرف^١، وهذه الحالة أهون الحالين على الرسول. يدل على هاتين الحالين ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟... [وذكر كما تقدم عن النسائي الزقم ٢ فقال:]

وإنما اكتفى النبي في الجواب بهاتين الكيفيتين دون غيرهما من الكيفيات والأنواع؛ لأن الظاهر أن السؤال كان على الوحي الذي يأتي عن طريق جبريل. والقرآن الكريم لم ينزل منه شيء إلا عن طريق جبريل عليه السلام، ولم يأت شيء منه عن تكليم أو إلهام أو منام، بل كله أوحى به في اليقظة وحيّاً جليّاً، ولا يخالف هذا ما ورد في صحيح مسلم عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ يظهرنا إذ أغفى إغفاءة^٢. ثم رفع رأسه مبسماً، فقلنا، ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: «إنه نزل عليّ أنفاً سورة»، فقرأ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ». إذ ليس المقصود بـ«الإغفاءة» في الحديث النوم، وإنما المقصود الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي، وهي الغيبوبة عما حوله. وقد ذكر العلماء أنه كان يؤخذ عن الدنيا، وبهذا يفسر أيضاً ما ورد في بعض روايات هذا الحديث أنه أغفى عليه. [ثم ذكر قول السيوطي في كيفيات الوحي كما تقدم عنه، ثم قال:]...

تلقى النبي القرآن عن جبريل وهو على ملكيته والذي تقطع به - والله أعلم - أن القرآن الكريم كله نزل في الحالة الأولى، وهي الحالة التي يكون فيها جبريل على ملكيته، وتحول النبي ﷺ من البشرية إلى الملائكية، وهذا هو الذي يليق بالقرآن الكريم، ونفي أي احتمال أو تلبيس في تلقيه. ولم أفق قط على رواية تفيد نزول شيء من القرآن عن طريق جبريل وهو في صورة رجل، وكل ما جاء

١ - وذلك كما في حديث جبريل المشهور الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما، ففي رواية لمسلم: بينما نحن عند رسول الله إذ طلع علينا رجل... ولا يعرف منا أحد، وفي الصحيحين: أن النبي قال لأصحابه: «ردوا عليّ الرجل»، فذهبوا فلم يجدوه، فقال: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم». ٢ - يقال: أغفى إغفاءة، أي نام نومة خفيفة.

من ذلك في الأحاديث الصحاح كحديث جبريل المشهور، وسؤاله النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأشراتها، فإنما هو في وحي السنّة لافي وحي القرآن. نعم هناك قرائن لا تصل إلى حدّ الدلالة تدلّ على نزول القرآن بالطريق الأول، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّا سُلِّقِيَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^١، أي ثقيلاً تلقّيه، وثقيلاً عليه، وذلك إنّما يكون في الحالة التي تسود فيها الملائكة عند تلقّي الوحي، وقيل: ثقيلاً العمل به، والقيام بفرائضه وحدوده، وقيل: ثقيلاً من الوجهين معاً.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُغَيِّرَ بِهِ﴾^٢، قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان ممّا يحرك شفّتيه... وهذه الشدة لن تكون إلّا في الحالة الأولى.

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال: سألت النبي ﷺ فقلت: هل تحسّ بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصلا، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرّة يوحى إليّ إلّا ظننت أن نفسي تقبض» رواه أحمد.

وروى ابن جرير أنّ النبي ﷺ كان إذا أُوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرائنها^٣، فماتستطيع أن تحرك حتّى يسري عنه. وعن زيد بن ثابت: أنزل على رسول الله ﷺ وَفَخِذْهُ عَلَى فَيْخِذِي، فكادت ترضّ ففخذي^٤.

وأيضاً فلو أنزل شيء من القرآن في الحالة وهي مجيء جبريل عليه السلام في صورة رجل لكان هذا مثاراً للشك والتلبّيس على ضعفاء الإيمان، ولكان فيه مستند للمشركين في قولهم: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾^٥.

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذا في قوله حكاية لمقالة المشركين وراداً عليهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾^٦، فكان من الرّحمة بالعباد، وعدم التلبّيس

١ - المزمّل / ٥.

٢ - القيامة / ١٦.

٣ - الجران: باطن العنق.

٤ - تكسر عظامها.

٥ - تفسير ابن كثير ٢٧ - ٢٨.

٦ - النحل / ١٠٣.

٧ - الأنعام / ٨ - ٩.

عليهم أن لا ينزل القرآن إلّا في هذا الجو الملائكيّ الروحانيّ.

ما الذي نزل به جبريل على النبيّ؟

الذي تقطع به أنّ القرآن الكريم كلام الله سبحانه، وهو الذي يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَن آخِذٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجَرَهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغَهُ مَأْمَنَهُ﴾^٩. وأنّ القرآن لفظه ومعناه من عند الله سبحانه قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^{١٠}، ﴿حَمْدُ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^{١١}، وقال: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾^{١٢}.

وأنّ الذي نزل به هو أمين الوحي جبريل عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾، وأنّ الذي نزل به جبريل هو هذا اللفظ العربيّ من غير أن يكون له فيه شيء ما، ومن غير أن يزيد فيه حرفاً أو ينقص منه حرفاً. وكذلك ليس للنبيّ ﷺ في القرآن شيء إلّا التبليغ، وهذا هو الحقّ الذي يجب على كلّ مسلم أن يعتقد ويؤمن به، ولا تلتفت إلى ما زعمه بعض ما يهرف بما لا يعرف، أو من يفتر ويختلق، من أنّ جبريل أوحى إليه المعنى، وأنّه عبّر بهذه الألفاظ الدالّة على المعاني بلغة العرب، ثمّ نزل على النبيّ كذلك. أو أنّ جبريل أوحى إلى النبيّ ﷺ المعنى، وأنّ النبيّ عبّر عن هذه المعاني بلفظ من عنده^{١٣}، متمسكاً بظاهر قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^{١٤}، فإنّه زعم وحرص لم تقم عليه إثارة من علم، وما تمسك به هذا الزاعم من الآية لا يشهد له، فإنّ القلب كما ينزل عليه المعنى ينزل عليه اللفظ، وإنّما أثر الحقّ تبارك وتعالى، هذا التعبير للدلالة على أنّ القرآن كما وعته الأذنان، وعاه القلب اليقظان.

وهذا القول خلاف ما تواتر عليه القرآن والسنة، وانعقد عليه إجماع الأئمة من أنّ

٨ - لقضي الأمر بإهلاكهم، فقد جرت سنة الله مع الكافرين أنّهم إذا سألوا أسئلة تعنّية، ثمّ أمجّبوا أن يهلكهم.

٩ - التوبة / ٥.

١٠ - الزمر / ١.

١١ - الإسراء / ١٠٥.

١٢ - غافر / ١ - ٣.

١٣ - الاعتقان / ١: ٤٣ وقد ذكر السيوطيّ ذلك ناقلاً، وفاته أن يعقب عليه بالبطلان.

١٤ - الشعراء / ١٩٣ - ١٩٥.

القرآن - لفظه ومعناه - كلام الله، ومن عند الله، ولو جاز هذا الزعم لما كان القرآن معجزاً، ولما كان متعبداً بتلاوته.

وهذا الزعم لا يقول به إلا جاهل استوت عليه الغفلة، أو زنديق يدسّ في الدين والعلم ما ليس منه، ولا تغترّ بوجوده في بعض الكتب الإسلامية، فأغلب الظنّ أنّه مدسوس على الإسلام والمسلمين. وإنّا لنبرأ إلى الله أن يقول هذا عالم مسلم مثبتّ.

وقد بلغ النبي ﷺ القرآن كما نزل إلى الأمّة من غير زيادة ولا نقصان، ولا تحريف ولا تبديل، ولا كتمان لشيء منه، ولو كان النبي ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتّم الآيات التي فيها عتاب له، وتنبية بلطف إلى ترك الأولى في باب الاجتهاد، وبحسبك أن تقرأ معي قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^١، وقول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنِّي بِكَرٍهٍ أَوْ يُدَلِّلُ قُلُومًا يَكُونُ إِلَىٰ أَنْ يُدَلَّلَ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتْبَعُ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾^٢، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٍ﴾^٣

نزول جبريل بالسنة^٤

وما ذكرنا من محافظة جبريل ﷺ على تبليغ اللفظ كما سمعه من غير تغيير، حتّى ولو كان اللفظان بمعنى واحد، إنّما هو فيما يتعلّق بتبليغ القرآن. أمّا وحي السنة فلا يلتزم فيه جبريل ﷺ اللفظ الذي سمعه لأنّ التبليغ السنة مبناه المعنى لا اللفظ، إذ ليس لفظها معجزاً، ولا متعبداً بتلاوتها كالقرآن.

[ثمّ ذكر كلام الجوينيّ وتعليق السيوطيّ عليه، وذكر أيضاً رواية أبي حاتم نقلاً عن الزُّهريّ كما تقدّم عن السيوطيّ، ثمّ قال:]

وحي السنة: أمّا وحي السنة، فمنه ما يكون عن طريق أمين الوحي جبريل، وفي

١ - يونس / ١٥.

٢ - المائدة / ٦٧.

٣ - الحاقة / ٤٤ - ٤٧، ومعنى (باليمين) أي لا نتقمنا منه بالقوة، و (الوتين): عِرْق مَتَصِل بالقلب، إذا قطع مات الإنسان.

٤ - السنة النبويّة بعضها بالوحي وبعضها بالاجتهاد على ما هو التحقيق، وكلامنا هنا فيما كان منها يوحى.

إطار الحالة الأولى، وهي الحالة الملائكية، وذلك كما في قصّة يَعْلَى بن أُمَيَّة؛ روى البخاري في صحيحه بسنده عن يعلى، قال لعمر: أرني رسول الله ﷺ حين يوحى إليه؛ قال: فبينما النبي في الجعرانة جاءه رجل، فقال: يا رسول الله، كيف ترى في رجل أحرم بعمره وهو متضمخ بطيب؟ فسكت النبي ساعة، فجاءه الوحي، فأشار عمر إلى يعلى، و على رسول الله ﷺ ثوب قد أظلّ به، فأدخل رأسه، فإذا رسول الله ﷺ محمرّ الوجه وهو يغطّ، ثم سرى عنه، فقال: «أين السائل عن العمرة؟» فأتي برجل، فقال: «اغسل الطيب الذي بك ثلاث مرّات، وانزع عنك الجبّة، واصنع في عمرتك كما تصنع في حجّتك».

وبعضه في إطار الحالة الثانية كما في حديث جبريل، وبعضه بالمكالمة كما حدث ليلة الإسراء والمعراج، وبعضه بالإلهام والمنام، وبعضه بالقذف في القلب. وسواء أكانت السنّة بوحي جليّ أو خفيّ، فلفظها من عند النبي ﷺ. (٥٩ - ٦٩)

الفصل السادس والعشرون

نص القَطَّان (معاصر) في: «مباحث في علوم القرآن»

معنى الوحي

يقال: وَحِيَ إِلَيْهِ وَأُوحِيَ، إذا كَلَّمَتْهُ بما تخفيه عن غيره، والوحي: الإشارة السريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز والتَّعريض، وقد يكون بصوت مجرَّد، و بإشارة ببعض الجوارح.

والوحي مصدر، ومادَّة الكلمة تدلُّ على معنيين أصليَّين، هما: الخفاء والسَّعة، ولذا قيل في معناه: الإعلام الخفيُّ السَّريع الخاصَّ بمن يوجَّه إليه بحيث يخفى على غيره، وهذا - معنى المصدر، ويطلق ويراد به الموحى، أي بمعنى اسم المفعول، والوحي بمعناه اللَّفْظي يتناول: ١- الإلهام الفطريُّ للإنسان، كالوحي إلى أمِّ موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾.

٢- والإلهام الغريزيُّ للحيوان، كالوحي إلى النحل...

٣- والإشارة السَّريعة على سبيل الرَّمز والإيحاء، كإيحاء زكريَّا فيما حكاه القرآن عنه...

٤- وسوسة الشَّيْطان وتزيينه الشَّرَّ في نفس الإنسان...

٥- وما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه...

[ثمَّ استشهد لكلِّ قسمٍ بآياتٍ، كما تقدَّم عن المصطفويِّ، فقال:]

وحي الله إلى أنبيائه قد عرّفوه شرعاً بأنَّه كلام الله تعالى المنزل على نبيٍّ من أنبيائه،

وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول، أي الموحى.

وعرّفه الأستاذ محمَّد عبده في رسالة التَّوحيد بأنَّه: «عرفان يجده الشَّخص من نفسه مع اليقين بأنَّه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأوَّل بصوت يتمثَّل لسمعه أو بغير صوت. ويفرِّق بينه وبين الإلهام بأنَّ الإلهام وجدان تستيقنه النَّفس فتتناسق إلى ما يطلب

على غير شعور منها من أين أتى؟ وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور». وهو تعريف للوحي بالمعنى المصدري، و بدايته وإن كانت توهم شبهة بحديث النفس أو الكشف إلا أن الفرق بينه وبين الإلهام الذي جاء في عجز التعريف ينفي هذا.

كيفية وحي الله إلى ملائكته

١- جاء في القرآن الكريم ما ينص على كلام الله لملائكته: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا...﴾^١.

و على إيحائه إليهم: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلٰٓئِكَةِ أَبْيَ مَعَكُمْ فَتَبَتُّوا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾^٢ وعلى قيامهم بتدبير شئون الكون حسب أمره: ﴿فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْثَلُ﴾^٣، ﴿فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْثَلُ﴾^٤. وهذه النصوص متآزرة تدلّ على أن الله يكلم الملائكة دون واسطة بكلام يفهمونه. و يؤيد هذا ما جاء في الحديث عن الثّوّاس بن سَمْعَانَ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ... [و ذكر كما تقدّم عن الطّبريّ الرّقم ١٠، ثم قال:]

فهذا الحديث يبيّن أن كَيْفِيَّةَ الوحي تكلم من الله، و سماع من الملائكة، وهول شديد لأثره، و إذا كان ظاهره - في مرور جبريل و انتهائه بالوحي - يدلّ على أن ذلك خاصّ بالقرآن فإن صدره يبيّن كَيْفِيَّةَ عامّة، و أصله في الصّحيح «إذا قضى الله الأمر في الأمر في السّماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان».

٢- و ثبت أن القرآن الكريم كتب في اللّوح المحفوظ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّخْفُوظٍ﴾^٥ كما ثبت إنزاله جملة إلى بيت العزّة من السّماء الدّنيا في ليلة القدر من شهر رمضان ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^٦، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ﴾^٧ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^٨.

و في السّنّة ما يوضح هذا التّزول، و يدلّ على أنّه غير التّزول الذي كان على قلب

٢- الأنفال / ١٢.

٤- التّازعات / ٥.

٦- القدر / ١.

٨- البقرة / ١٨٥.

١- البقرة / ٣٠.

٣- الذّاريات / ٤.

٥- البروج / ٢١ و ٢٢.

٧- الدخان / ٣.

رسول الله ﷺ فعن ابن عباس موقوفاً: «أنزل القرآن جملةً واحدةً إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك بعشرين سنة ثم قرأ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ نَفْسِيرًا﴾^١، ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾^٢ وفي رواية «فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ»^٤.

ولذلك ذهب العلماء في كيفية وحي الله إلى جبريل بالقرآن إلى المذاهب الآتية:

الف - أن جبريل تلقفه سماعاً من الله بلفظه المخصوص.

ب - أن جبريل حفظه من اللوح المحفوظ.

ج - أن جبريل ألقى إليه المعنى، والألفاظ لجبريل أو لمحمد ﷺ.

والرأي الأول: هو الصواب، وهو ماعليه أهل السنة والجماعة، ويؤيده حديث الثؤاس بن سمعان السابق. ونسبة القرآن إلى الله في أكثر من آية: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾^٥، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾^٦، ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمْ أَنبَاءُ بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّهُ بَقْرَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فُلٌ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾^٧. فالقرآن الكريم كلام الله بألفاظه لا كلام جبريل أو محمد. والرأي الثاني: فلا اعتبار له، إذ أن ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ كثبوت سائر المعاني التي لا يخرج القرآن عن أن يكون من جملتها.

والرأي الثالث: أنسب بالسنة لأنها وحي من الله أوحى إلى جبريل ثم إلى محمد ﷺ بالمعنى، ففبر عنه رسول الله بعبارة: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾^٨ ولذا جازت روايه السنة بالمعنى لعارف بما لا يحيل المعاني دون القرآن...

٢ - الإسراء / ١٠٦.

٤ - أخرجه الحاكم وابن أبي شيبة.

٦ - التوبة / ٦.

٨ - النجم / ٤٩٣.

١ - الفرقان / ٣٣.

٣ - أخرجه الحاكم والبيهقي والنسائي.

٥ - النحل / ٦.

٧ - يونس / ١٥.

[كيفية وحي الله إلى رسله]

يوحي الله إلى رسله بواسطة وبغير واسطة، فالأول: بواسطة جبريل ملك الوحي و
سبأتي بيانه. والثاني: وهو الذي لا واسطة فيه.

أ- منه الرؤيا الصالحة في المنام، فعن عائشه رضي الله عنها قالت: «أول ما بديء
به ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»^١. وكان
ذلك تهيمه لرسول الله حتى ينزل عليه الوحي يقطه، وليس في القرآن شيء من هذا النوع لأنه نزل
جميعه يقطه، خلافاً لمن ادعى نزول سورة «الكوثر» مناماً للحديث الوارد فيها، ففي صحيح مسلم
عن أنس «بينما رسول الله ﷺ ذات يوم... [وذكر كما تقدم عن أبي شهبه، فقال:]

و مما يدل على أن الرؤية الصالحة للأنبياء في المنام وحي يجب اتباعه ما جاء في
قصة إبراهيم من رؤيا ذبحه لولده إسماعيل^٢ ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ
يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ - إلى أن قال: - وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ^٣ * ولو لم تكن هذه
الرؤيا وحيًا يجب اتباعه لما أقدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ولده لولا أن من الله عليه بالفداء.
والرؤيا الصالحة ليست خاصة بالرسول، فهي باقية للمؤمنين وإن لم تكن وحيًا كما
قال عليه الصلاة والسلام «انقطع الوحي وبقيت المبشرات، رؤيا المؤمن».

و الرؤيا الصالحة في المنام للأنبياء هي القسم الأول من أقسام التكليم الإلهي
المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ
رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ عَٰلِمٍ﴾^٤.

ب - ومنه الكلام الإلهي من وراء حجاب بدون واسطة يقطه: وهو ثابت لموسى عليه السلام
﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرَ إِلَيْكَ﴾^٥، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾^٦.
كما ثبت التكلم على الأصح لرسولنا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج. وهذا النوع هو

١ - متفق عليه.

٢ - هذا هو الصواب، خلافاً لمن ذهب إلى أنه إسحاق، فإن البشارة كانت أولاً بإسماعيل قبل إسحاق، وإسماعيل هو الذي
نشأ في الجزيرة العربية حيث كانت قصة الذبح، وهو الحري بأن يوصف بالحلم.

٣ - الصافات / ١٠١ - ١١٢.

٤ - الشورى / ٥١.

٥ - النساء / ١٦٤.

٦ - الأعراف / ١٤٣.

القسم الثاني المذكور في الآية: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ وليس في القرآن شيء منه كذلك.

كَيْفِيَّةُ وَحْيِ الْمَلِكِ إِلَى الرَّسُولِ

وحى الله إلى أنبيائه إمّا أن يكون بغير واسطة، وهو ما ذكرناه آنفاً - وكان منه الرؤيا الصّالحة في المنام، والكلام الإلهي من وراء حجاب يقظة - وإمّا أن يكون بواسطة ملك الوحي، وهو الذي يُعيننا في هذا الموضوع لأن القرآن الكريم نزل به. ولا تخلو كَيْفِيَّةُ وَحْيِ الْمَلِكِ إِلَى الرَّسُولِ من إحدى حالتين:

الحالة الأولى - وهي أشدّ على الرَّسُولِ - أن يأتيه مثل صَلَصلة الجرس، والصّوت القويّ يثير عوامل الانتباه فتهبّ النفس بكلّ قواها لقبول أثره، فإذا نزل الوحي بهذه الصّورة على الرسول ﷺ نزل عليه وهو مستجمع القوى الإدراكية لتلقّيه وحفظه وفهمه، وقد يكون هذا الصّوت خفيف أجنحة الملائكة المشار إليه في الحديث «إذا قضى الله ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاً لقوله كالسلسلة على صفوان»^١، وقد يكون صوت الملك نفسه في أوّل سماع الرَّسُولِ له.

والحالة الثانية - أن يتمثّل له الملك رجلاً ويأتيه في صورة بشر، وهذه الحالة أخفّ من سابقتها، حيث يكون التّناسب بين المتكلّم والسماع، ويأنس رسول النّبوة عند سماعه من رسول الوحي، ويطمئنّ إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان.

والهيئة التي يظهر فيها جبريل بصورة رجل لا يتحدّث فيها أن يتجرّد من روحانيّته، ولا يعني أن ذاته انقلبت رجلاً، بل المراد أنّه يظهر بتلك الصّورة البشريّة أنساً للرّسول البشريّ، ولا شكّ أنّ الحالة الأولى - حالة الصّلصلة - لا يوجد فيها هذا الإناس، وهي تحتاج إلى سموّ روحيّ من رسول الله يتناسب مع روحانيّة الملك فكانت أشدّ الحالتين عليه، لأنّها كما قال ابن خلدون: «انسلاخ من البشريّة الجسمانيّة واتّصال بالملكيّة الروحانيّة، والحالة الأخرى عكسها لأنّها انتقال الملك من الروحانيّة المحضة إلى البشريّة الجسمانيّة». وكلتا الحالتين مذكور فيما روي عن عائشة... [ثمّ ذكر روايتين عنها

كما تقدّم عن النسائي، الرقم ١ و ٢، فقال: [

والحالتان هما القسم الثالث من أقسام التكليم الإلهي المشار إليه في الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا...﴾^١.

أما النفث في الرّوع - أي القلب - فقد ذكر في قول الرسول ﷺ: «إنّ روح القدس نفث في روعي أنّه لن تموت نفس حتّى تستكمل رزقها: وأجلها، فاتّقوا الله وأجملوا في الطلب»^٢. والحديث لا يدلّ على أنّه حالة مستقلة، فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين المذكورتين في حديث عائشة، فيأتيه الملك في مثل الصّلصلة وينفث في روعه، أو يتمثّل له رجلاً وينفث في روعه، وربّما كانت حالة النفث فيما سوى القرآن الكريم.

(٢٩-٣٧)

[ثمّ ذكر شبه الجاحدين على الوحي الذي لا يحتاج ذكره هنا وإن شئت فراجع].

الفصل السابع والعشرون

نصّ الشَّيخ السُّبْحَانِيّ (مُعَاَصِر) فِي مَجْلَّةِ «رِسَالَةِ الْقُرْآنِ»

[معنى الوحي وأقسامه]

الوحي لغةً واصطلاحًا

الوحي في اللغة هو الإلقاء في خفاء، نصّ على ذلك ابن فارس في المقاييس، ثم إنَّ أئمة اللغة وإن ذكروا للوحي معاني مختلفة، لكنّ الجميع يرجع إلى أصل واحد وهو تعليم الغير بخفاء. قال ابن منظور: الوحي: الإشارة، والكتابة، والرّسالة، والإلهام والكلام الخفيّ وكلّ ما ألقيته إلى غيرك، يقال: وحيت إليه الكلام.

المستفاد من كلماتهم أنَّ الوحي هو الإعلام بخفاء بطريق من الطّرق، والعنصر المقوّم لمعنى الوحي هو الخفاء، وأمّا غيره - كالسرعة على ما في مفردات الرّاغب - فليس بمقوّم لمعنى الوحي، كما أنَّ الإشارة والكتابة والإلهام إلى القلب كلّها من طرق الوحي وسائله.

وقد أسْتُعْمِلَ الوحي في القرآن الكريم في موارد مختلفة كلّها مصاديق وموارد لهذا المعنى الجامع، وإن شئت قُلْتُ: من قبيل تطبيق المعنى الكلّي على مصاديقه المختلفة المتنوّعة، وإليك البيان:

١- تقدير الخلقة بالسَّنن والقوانين: قال سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَنَْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا...﴾^١ فقلوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ يحتمل وجهين:

الأول - أودع في كلّ سماء السّنن والأنظمة الكونيّة و قدّر عليها دوامها إلى أجل معيّن. و بما أنّ السماوات تلقّت هذه السّنن والنّظم بالإشارة في خلقها استعير في التعبير لفظ الوحي.

الثاني - أنّ السّّعور والإدراك ساريان في جميع مراتب الوجود من أعلاه كواجبه إلى أدناها كالهَيُولَى في عالم التّكوين، ولكنّ كلّ حسب درجته و مرتبته، فالسّماوات تلقّت ما أوحى إليها سبحانه بخفاء فقامت بامتثال ما أوحى إليها من الوظائف.

و من هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَالَهَا * يَوْمَئِذٍ تَحَدَّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾.^١

٢- الإدراك والغريزة: قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلُكًا...﴾.^٢

فالأعمال المدهشة الخلافة للعقول التي تقوم بها النحل في صنع بيوتها والقيام بشؤون وظائفها، ثمّ التّجول بين البساتين، و مصّ رحيق الأزهار، ثمّ إيداعه في صفائح الشّهد، شيء تتعلّمه بإيحاء من الله سبحانه وذلك بإيداع الغرائز الكفيلة بذلك، و بما أنّ تأثّر النحل بها بخفاء و بلا التفات من السّّعور والإدراك أطلق عليه لفظ الوحي. ويحتمل أيضاً أنّ هناك معنى آخر ذكرناه في الوحي إلى السّماء.

٣- الإلهام والإلقاء في القلب: وقد استعمل الوحي في الإلقاء إلى القلب في موارد في الذّكر الحكيم، منها قول سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ...﴾.^٣ ومنها: قوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي...﴾.^٤ ومنها: قوله تعالى في شأن يوسف عليه السلام عندما جعلوه في غيابة الجبّ قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.^٥ إلى غير ذلك من الموارد.

٤- الإشارة: قال سبحانه: ﴿فَفَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بِحُكْمٍ وَ

١- الزّلال / ٥١.

٢- النحل / ٦٨ و ٦٩.

٣- القصص / ٧.

٤- المائدة / ١١١.

٥- يوسف / ١٥.

عَشِيًّا^١ و بما أَنَّهُ استَخدم الإشارة في تفهيم مراده فأشبه فعله إلقاء الكلام بخفاء فصار ذلك مصححاً لا استعمال لفظ الوحي.

٥- الإلقاءات الشيطانية: قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا...﴾^٢ ويعلم وجه استعمال الوحي هنا ممّا ذكرنا فيما سبق.

٦- كلام الله المنزل على نبيّ من أنبيائه: قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^٣. وقد عرّف هذا النوع من الوحي بأنّه تعليمه تعالى من اصطفاه من عباده كلّما أراد إطلاعه على ألوان الهداية وأشكال العلم ولكن بطريقة خفيّة غير معتادة للبشر.

وحصيلة البحث أنّ للوحي معنى واحداً، وله مصاديق متنوّعة، وليست هي بمعانٍ متكرّرة، وأنّ حقيقة الوحي تعليم غيبيّ لمن اصطفاه سبحانه من عباده، لا يشابه الطّرق المألوفة بين العباد، وإن أردت المزيد من الاطلاع فإليك البيان التّالي:

قنوات المعرفة الثّلاث

إنّ أمام الإنسان طرقاً ثلاثة للوصول إلى مقاصده:

- ١- الطّريق الحسّي والتّجريبيّ: والمقصود منه الإدراكات والمعلومات الواردة إلى الدّهن عن طريق الحواسّ الظّاهرية، أو بفضل التّجربة التي أُسّست الحضارة المعاصرة عليها.
- ٢- الطّريق التّعقّليّ التّنظريّ: إنّ المفكرين يتوصّلون إلى كشف الأمور الخارجة عن إطار الحسّ والتّجربة عن طريق الاستدلال، وإعمال التّظنّ وإنهاء المجهولات إلى البديهيات، وقد توصل البشر بهذا الطّريق إلى المسائل الفلسفيّة الكلّيّة وما يضاهاها.
- ٣- طريق الإلهام: وهذا هو الطّريق الثّالث وهو فوق نطاق الحسّ والتّعقل: إنّّه نوع جديد من المعرفة، ونمط متميّز من إدراك الحقائق ليس محالاً من وجهة نظر العلم، وإن كان يصعب

على أصحاب الاتجاه الماديّ قبوله، لكونه طريقاً خارجاً عن إطار الحس والتعقل.
إن طريق التعرّف على حقائق الكون - في منهج الماديّين - وأصحاب التّزعة الماديّة -
ينحصر في قناتين لا غير، وهما اللّذان سبق ذكرهما في حين أنّ هناك حسب نظر
الإلهيّين قناة ثالثة أيضاً.

إنّ هذا الطّريق الثّالث أقوى أُسساً وأوسع آفاقاً عند من يدعون الرّسالة والنّبوة من
جانب الله سبحانه، وأنّ نفوس أولئك الأشخاص لتبدو أكثر صفاءً وطراوةً وزهواً.
كلّما حصل ارتباط بين الله سبحانه وفرد من أفراد النّوع الإنسانيّ على نحو تلقّي
الحقائق من دون توسيط الحواسّ وإعمال الفكر يسمّى بالإلهام تارةً والإشراق أخرى، و
كلّما نتجت من هذا الارتباط سلسلة تعاليم عامّة يطلق عليه اسم الوحي و يسمّى المتلقّي
نبيّاً، ومن هنا اعتبر العلماء «الوحي» الطّريقة المطمئنّة الوحيدة إلى المعرفة العامّة.

أنواع الوحي وأقسامه

إنّ النّبيّ تارةً يتلقّى الوحي على نحو الإلهام في القلب، وأخرى يسمع عبارات
وكلمات من وراء حجاب، كسماع موسى ﷺ كلام الله سبحانه في الطّور، وثالثة تنكشف
الحقائق له في عالم الرّؤيا انكشاف التّهار، كرؤيا إبراهيم الخليل ﷺ ذبح ولده إسماعيل،
وقد ينزل عليه ملك من جانب الله تعالى معه كلامه سبحانه، وهو الذي يسمّى بالروح الأمين.
و إلى الطّرق الثّلاثة - سوى الرّؤيا - أشير بقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ
إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ...﴾^١.

و إلى نزول الملك بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾. وأمّا الرّؤيا الصّادقة فيكفي في ذلك قوله
سبحانه حاكياً عن الخليل ﷺ: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا
أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾^٢.

فلو لم تكن رؤيا الخليل إدراكاً قطعياً وأنّضح بها وجه الحقيقة فكلف الصّبح لما أخبر
ولده بها، ولما أجاهبه الولد بالامتنال طائفاً. نعم أشير إلى الملك الحامل لكلام الله سبحانه
بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾^٣.

(العدد: ٤: ١٣٥-١٣٨ عام ١٤١١).

الفصل الثامن والعشرون

نص مير محمدّي (معاصر) في: «بحوث في تاريخ القرآن وعلومه»

كيف كان لقاء جبرائيل للنبي ﷺ

- ١- كان يستأذن على النبي ﷺ.
 - ٢- كان يقعد بين يديه كما يقعد العبد.
 - ٣- كان يأتي إليه في صورة آدميين إلاّ مرّتين.
 - ٤- كان يأتي إليه على صورة دحية الكلبي.
 - ٥- في مسجد النبي ﷺ مقام اسمه مقام جبرئيل ﷺ يستحبّ الدعاء فيه.
- وقبل أن تتكلّم حول هذه النقاط لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه أمور توقفيّة، فلا بدّ من الرجوع فيها إلى الروايات الواردة في بيانها، فنقول:

أدب جبرئيل

روى المحدث الحرّ العامليّ بسند صحيح عن معاوية بن عمار أنّه قال: قال أبو عبد الله ﷺ: «أنت مقام جبرئيل ﷺ وهو تحت الميزاب؛ فإنّه كان مقامه إذا استأذن على رسول الله، فقل: إلخ...»^١

و روي أيضاً عن عمر بن يزيد قال: حاضت صاحبتني وأنا بالمدينة... إلى أن قال: فذكرت ذلك لأبي عبد الله ﷺ، فقال: «مرّها فلتغتسل، ولتأت مقام جبرئيل ﷺ، فإنّ جبرائيل كان يجيء فيستأذن على رسول الله ﷺ؛ فإن كان على حالٍ لا ينبغي له أن يأذن له، قام في مكانه، حتّى يخرج إليه، وإن أذن له دخل عليه إلخ...»^٢

١ - الوسائل ١٠ باب ٨ من أبواب المزار.

٢ - الوسائل ج ٩ باب ٩٣ من أبواب الطواف.

[ثم ذكر قول الصدوق ورواية علي بن أحمد بن عبدالله البرقي بإسناده عن الصادق عليه السلام، والرواية الأخرى التي سئل الإمام عليه السلام فيها عن غشية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كما تقدم عنه، الرقم: ٤، ٥، ثم ذكر رواية ابن عباس نقلاً عن أمالي الشيخ الطوسي، كما تقدم عنه، فقال:]
وهذا الحديث يدلّ دلالة واضحة على أنّ جبرئيل كان يعظّم النبيّ ويكرمه غاية الإكرام، حتّى أنّه ليضع رأسه في حجره لينام...

الوحي على نوعين

هذا وقد نطقت الأخبار الكثيرة بأنّه إذا كان الوحي للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة جبرئيل فلا يثقل الوحي على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ولا تصيبه السبّة...

روى الشيخ أبو جعفر البرقي في «العلل» عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم... [وذكر كما تقدم عن المجلي، الرقم ٨، ثم ذكر رواية الصدوق بإسناده عن زرارة، ورواية الثنائي عن هشام بن عروة، عن عائشة، كما تقدم عنهما، فنقل رواية عن ابن سعد من طريق أبي سلمة الماجشون كما تقدم عن ابن حجر، ثم قال:]

و يستفاد من هذه الأحاديث أنّ الغشية إنّما كانت تصيبه لو لم يكن جبرئيل بينه وبين الله عزّ وجلّ، أمّا إذا كان جبرئيل، فلا يصيبه شيء من ذلك، وهذه النقطة - وهي حصول السبّة والغشية له صلى الله عليه وآله وسلم لو لم يكن جبرئيل - لا بدّ من بحثها و تمحيصها، ولسنا الآن في صدد ذلك، وإنّما ذلك له محلّ آخر...

فما روي في طبقات ابن سعد - مطلقاً - من أنّه صلى الله عليه وآله وسلم «إذا أوحى إليه وقَدْ لَذِكْ كَهَيْئَةِ السَّكْرَانِ»، ولا يخفى ما في هذا التعبير من الإساءة إلى قدس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، - أو «فما من مرة يوحى إليّ إلّا ظننت أنّ نفسي تقبض»، «ولا يتنبّه أول ما يسمعه، حتّى يفهمه بعد»، كما عن مسند أحمد، هذا الذي روي على إطلاقه غير مقبول، ولا بدّ من حمله على صورة ما لو لم يكن جبرئيل هو الواسطة بين الله وبينه صلى الله عليه وآله وسلم.

وما عن أبي عوانة في صحيحه بعد قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «و أحياناً يتملّ لي الملك رجلاً،

فيكلمني فأعي ما يقول، و هو أهونه علي...»^١ ليشهد ويدلّ على أنّ تكليم جبرئيل كان أهون الوحي وأسهله على النبي ﷺ.

لماذا السبّطة؟

ولعلّ حصول السبّطة وعروض الغشية له ﷺ إذا كان الوحي بلا واسطة - إن صحّت - لعلّها من جهة رؤيته ﷺ عظمة الله وجلاله، وقد قدّمنا رواية الشيخ الصدوق عن أبي عبدالله و أنّي فيها أنّ تلك الغشية إنّما هي إذا تجلّى الله تعالى للنبي ﷺ، أي ظهر أمره وجلاله وعظمته لا أنّه ظهر بنفسه، فإنّ رؤيته محال على ما حقّق في محله، وليس هذا إلاّ على حدّ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^٢، أي تجلّي بنوره - كما عن ابن عباس - على ما في مجمع البيان، وقال في تفسير الجلالين: أي ظهر من نوره قدر نصف أنملة الخنصر، كما في حديث صحّحه الحاكم.

على أيّ صورة كان يأتي جبرئيل؟

بقي الكلام في أنّه هل كان جبرئيل يأتي النبي على صورته الأصلية أم أنّه كان تارة يأتيه على صورة الآدمي، وأخرى على صورته الأصلية؟ وأيضاً إذا كان يأتيه على صورة الآدمي، فهل كان يأتيه على هيئة شخص معيّن، أم أنّه أتاه على صور أشخاص متعدّدين؟ وإذا فرضنا أنّه كان يأتيه على هيئة رجل خاصّ فمن هو ذلك الرجل الذي كان يأتيه جبرئيل على هيئته؟ فلا بدّ لنا من الإشارة باختصار إلى حقيقة الأمر في هذه التّاحية، فنقول: إنّ الاستفادة من الروايات والأقوال أنّه ﷺ جاء على صورة دحية بن خليفة الكلبيّ إلاّ مرّتين، جاء فيهما على صورته الأصلية على ما في «تفسير الصّافي» للفيض (ره)، قال فيه: ورؤي ما رآه - أي جبرئيل - أحد من الأنبياء في صورته غير محمّد، مرّة في السّماء، و مرّة في الأرض...^٣

وقد تعرّض الشيخ الطبرسي في «مجمع البيان» لهما عند تعرّضه لتفسير الآية المباركة: «اَتَمَّازُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى»^١
 قال (ره): أي رأى جبرئيل في صورته التي خلق عليها، قال عند تفسيره: «عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى».

وقال السيوطي عند تفسيره لهذه الآيات: «وقد رآه النبي ﷺ على صورته التي خلق عليها، فرآه النبي ﷺ وكان بجراء، وقد سدّ الأفق إلى المغرب، فخرّ مغشياً عليه و كان قد سأله أن يريه نفسه على صورته التي خلق عليها، فواعده بجراء، فنزل جبرئيل على صورة آدميين إلخ...»^٢.

وأما أنّه على هيئة أيّ رجل كان يأتيه جبرئيل؟

فإنني ما رأيت مورداً يدلّ دلالة واضحة على أنّه كان دائماً ينزل على صورة شخص بعينه، إلّا أنّه قد ورد في الروايات والتواريخ ذكر موارد خاصّة، نزل فيها جبرئيل على صورة دحية بن خليفة الكلبي، منها: ما سبق عن أمالي الشيخ عن ابن عباس... [وذكر كما تقدّم عنه، ثمّ نقل رواية البخاريّ بسنده عن أبي عثمان، كما تقدّم عنه الرقم ١، فقال:]

و منها: ما ورد في «البحار» في غزوة بني قريظة، وفيه: فخرج فاستقبله حارثة بن نعمان، فقال له: ما الخبر يا حارثه؟ فقال: بأبي وأمي يا رسول الله ﷺ هذا دحية الكلبيّ ينادي في الناس: ألا لا يصلّين العصر أحد إلّا في بني قريظة، فقال: «ذلك جبرئيل» إلخ... إلى آخر ما هنالك من القضايا المشابهة لما ذكرنا...

وهي كما ترى لا تدلّ على أنّه كان ينزل دائماً على صورة دحية الكلبيّ، لكنّه قد روي عن حذيفة بن اليمان حديث لا يبعد أن يستفاد منه العموم، وهو أنّه قال: إنّ الناس كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ قبل الحجاب إذا شاءوا، فنهاهم رسول الله ﷺ أن يدخل إليه وعنده دحية بن خليفة الكوفي^٣

وفي ذيله على ما نقله في «البحار» في مورد آخر، قال حذيفة: وإنّي أتيت

رسول الله يومًا، فرأيت شملةً مرخاة... [وذكر كما تقدّم عن المجلسي الرقم ١٢، ثم قال:]
فالمستفاد منه أنه ﷺ قد منع الناس من الدخول عليه إذا كان دحية عنده، من جهة
أنه لعله جبرئيل، فلا يليق ولا ينبغي الدخول عليه وهو عنده فإذا فرض أن جبرئيل كان
يتمثل أيضًا بصورة شخص غير دحية، فلا بد من التهي أيضًا عن الدخول على النبي إذا
كان ذلك الشخص - الذي يحتمل أنه جبرئيل - عنده.

وإذا أضفنا إلى ذلك كله ما ورد في ترجمة دحية، فإننا يحصل لنا الاطمئنان بأنه كان
دائمًا يأتي على صورة دحية إلا مرتين.

قال في الإصابة: وكان أي دحية يضرب به المثل في حسن الصورة وكان جبرئيل
ينزل على صورته، جاء ذلك في حديث أم سلمة ومن حديث عائشة، وعن الطبراني من
حديث عفير بن معدان، عن قتادة، عن النبي ﷺ قال: «كان جبرئيل يأتيني على صورة
دحية الكلبى...»^١

وفي الاستيعاب قال: وذكر موسى بن عتبة عن ابن شهاب، قال: كان رسول الله ﷺ
يشبه دحية الكلبى بجبرئيل عليه السلام ومثل ذلك جاء في الطبقات ٤: ١٨٤ في عدة روايات، و
فيه قال: أخبرنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهرى، عن أبيه، عن ابن شهاب قال: قال
رسول الله ﷺ: «أشبه من رأيت بجبرائيل دحية الكلبى»^٢.

وفي الطبقات أيضًا قال: أخبرنا عفان بن مسلم، قال: حدثنا حماد بن سلمة عن
إسحاق بن سويد، عن يحيى بن يعمر، عن ابن أبي عمير، عن النبي ﷺ قال: «كان جبرئيل
يأتي في صورة دحية الكلبى»^٣.

وقال في «قاموس الرجال»: دحية بن خليفة الكلبى عدّه أبو عمرو وغيره في - ل -
شهد أحدًا وما بعدها، وفي أخبار الفريقين: أن جبرئيل كان يأتي النبي ﷺ في صورته،
وذلك دليل ثقتة.

٢ - طبقات ابن سعد ١: ١٨٤.

١ - الإصابة ١: ٤٧٣.

٣ - طبقات ابن سعد ١: ١٨٤.

الجمع بين الأقوال

هذا و يمكن الجمع بين هذه الأقوال و بين الأقوال الدالة على أنّ جبرئيل عليه السلام كان يأتي على صورة دحية كثيرًا، كما في البداية و النهاية، أو أنّه كان يأتي على صورته أحيانًا، كما في أسد الغابة و رجال المامقاني، بأن يقال: إنّ جبرائيل عليه السلام كان إذا تمثّل رجلاً فإنّه يتمثّل بصورة دحية دائماً، وهذا لا ينافي أن يكون هذا التمثّل قليلاً بالنسبة إلى الموارد التي لا يتمثّل فيها على صورة الآدميين، وهي كثيرة، قال في المناقب: وسمعت مذاكرة أنّه نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ ستّين ألف مرّة، و سواء كان ذلك مبالغة أو لم يكن فإنّ النتيجة تكون أنّه إذا تمثّل بصورة الآدمي تمثّل بصورة دحية، و أنّ ذلك كان أحيانًا، وأما مجيئه على غير صورة الآدمي وكونه على صورة الملك، فقد كان أكثر. (٣٠: - ٣٩)

الفصل التاسع والعشرون

نص الدكتور خليفة (معاصر) في «مع نزول القرآن»

طريقا التنزيل و صور الوحي

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِّئٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا...﴾

الشورى / ٥١

فكلام الله للرّسول إمّا أن يكون وحياً يلقيه في نفوسهم، أو امر، أو نواهي، أو تعليمات فتتدفّق كلماته التي تحمل كلّ ذلك في القلوب، وإمّا أن يكون كلامه للرّسل من وراء حجاب، بحيث يسمع الرّسول ما يلقي إليه ككلامه لموسى، أو للرّسول ليلة الإسراء والمعراج، وإمّا أن يكون عن طريق رسول يحمل إليه من ربّه كلامه كجبريل. وهذا الرّسول له صورته الملكيّة وخصائصه التي لا تقوى على مواجهتها بشريّة، مهما سمت قدرتها وطاقت احتمالها، ومن ثمّ كان لا بدّ لهذا اللقاء من أحد طريقين؛

الأوّل - أن ينخلع النّبي ﷺ من بشريّته إلى صورة ملائكيّة يأخذ عن طريقها ما يوحيه إليه جبريل.

الثّاني - أن ينخلع الملك من صورته الملائكيّة إلى صورة بشريّة تيسّر للرّسول الأخذ عنها.

أمّا الطّريق الأوّل وهو تغيّر صورة النّبي من البشريّة إلى الملائكيّة فهذا لم يقع ولم يحدثنا به الرّسول ﷺ ولا أحد من صحابته الذين شاهدوا مرّات الصّور التي كان يوحى بها إلى الرّسول.

والطّريق الثّاني وهو انخلاع جبريل من صورته الملائكيّة إلى الصّورة البشريّة كان

يحدث أحياناً، وإليكم الصّور التي كان يأتي فيها الوحي؛

١- أن يأتي الملك إلى النّبي ﷺ مثل صلصلة الجرس، وقد سأل عبدالله بن عمر رسول الله ﷺ هل تحسّ بالوحي فقال: «أسمع صلاصل، ثمّ أسكت، فما من مرّة يوحى إليّ إلاّ ظننت أنّ نفسي تُقبض» وذلك الصّليل يهتئ قلب النّبي لتلقي الوحي، فيفرغ سمعه من كلّ شيء إلاّ صوت الوحي، وهذه الحالة أشدّ حالات الوحي على الرّسول، ويوضّح حالة الرّسول أمام هذه الصّورة ما روته عائشة، حيث قالت: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يغطّ ويتربّد وجهه - أي يتغيّر لونه - ويجد برداً في ثناياه، ويعرق حتّى يتحدّر منه مثل الجمان وحالة الرّسول في هذا الموقف تشبه أن تكون غيبوبة، ولكنّه حين ينفصل عنه الوحي يعي ويدرك كلّ ما قيل له.

٢- أن ينفث في قلبه الكلام نفثاً، وقد قال ﷺ «إنّ روح القدس - جبريل - ينفث في روعي» قلبي.

٣- وكان يتمثّل جبريل أحياناً في صورة رجل فيكلّمه، وقد قال ﷺ في هذا: «وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلّمني، فأعي ما يقول، وذلك أهونه عليّ».

٤- وأحياناً يأتيه في دويّ كدويّ النّحل، قال عمر بن خطّاب: إذا نزل الوحي على الرّسول سُمع عند وجهه دويّ كدويّ النّحل.

٥- أن يكلّمه الله: إمّا في البقطة، كما في ليلة الإسراء والمعراج ﴿مِنْ وَرَائِي جِبَابٌ﴾. أو في المنام، وهذه الصّورة حدّث بها أنس، فقال: «بيننا رسول الله ﷺ بين أظهرنا ذات يوم إذ أغفى إغفاءً، ورفع رأسه متبسّماً فقال: «أنزلت عليّ سورة، وقرأ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ إلخ السّورة وعلى هذه الصّورة نزلت سورة (الضحى) و (اللم نشرح). (٢٥- ٢٧)

الفصل الثلاثون

نصّ الدكتور الصّغير (معاصرٌ) في «دراسات قرآنية»

[كيفة الوحي و أقسامه]

لا شك أن النبي ﷺ آمن منذ اللحظة الأولى - بقناعة شخصية متوازنة - بأن ما يوحى إليه ليس من جنس الأحلام وأضعائها، ولا من سنخ الرياضيات ومسالكها، ولا من باب الأحاسيس القائمة على أساس من الذكاء والفتنة، ولا من قبيل التخيلات المستتبطة من الحدس والفراسة، وإنما كان بإيمان نفسي محض بأنه نبي يوحى إليه من قبل الله تعالى، وما الروايات والإسرائيليات القائلة بشكّه في الظاهرة إلا ضرب من الأخيلة التي لا يدعمها دليل.

«والحق أن وحي النبوة والرّسالة يلزم اليقين من النبيّ والرّسول بكونه من الله تعالى على ما ورد عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)»^١.

ويوحى الله عزّ وجلّ لملك الوحي ما يوحيه الملك إلى النبيّ عن الله، ويتسلّم النبيّ الوحي، فالوحي واحد هنا مع تقاسم المسؤولية، وهو عامّ بالنسبة إلى كلّ الأنبياء، وخاصّ بالنسبة إلى وحي القرآن أيضاً، فالملك يؤدّي عن الله لمحمّد، ومحمّد يتلقّى ذلك الوحي من الملك، ويؤدّي ما يوحى به إليه إلى الناس، وكان ذلك طريق الوحي القرآنيّ فحسب، وقد صرّح به القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾^٢.

والروح الأمين هو جبرئيل بإجماع الأمة والروايات؛ قال الطبرسيّ (ت: ٥٤٨ هـ)

«يعني جبرائيل عليه السلام، وهو أمين الله لا يغيره، ولا يبذله، لأن الله تعالى يُسَمِّعُهُ جبرائيل عليه السلام فيحفظه، وينزل به على الرسول ويقراه عليه، فيعيه ويحفظه بقلبه، فكأنه نزل به على قلبه»^١. وهذا صريح بكيفية تلقّي النبي ﷺ للقرآن من جبرئيل على قلبه تنبيهاً وحفظاً ورعايةً، والقلب أشرف الأعضاء للتدبّر والتفكير إن أُريد به هذا الجهاز العضلي، وإلا فهو الإدراكات النفسية الخاصة لدى النبي المستعدة للتلقّي والصيانة والاستيعاب دون ريب. وكان ما نزل به جبرئيل بإيحاء من الله تعالى هو النصّ الصريح من الوحي القرآني دون زيادة أو نقصان، بألفاظه المدوّنة في المصحف من ألفه إلى يائه. ولما كان الأمر كذلك فقد تحدّث هذا النصّ المحفوظ بين الدفتين عن ظاهرة الوحي بوحى القرآن وسواء وطرقها وكيفيتها وأقسامها. ومن الضروري حقاً استعراض مختلف أنشطة الموضوع من القرآن نفسه، مع الاستعانة باللغة حيناً، وبالتبادر العربي العام حيناً آخر، لأن القرآن عربي، والتبادر علامة الحقيقة.

صرّحت الآية التالية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ﴾^٢ بطرق الوحي الإلهي، وحددت كيفية هذا الوحي ومراتب إيصاله على النحو التالي:

١- الوحي وأصل الوحي هو الإشارة السريعة على سبيل الرمز والتعريض، وما جرى مجرى الإيمان والتنبيه على الشيء من غير أن يفصح به.^٣
وقد يكون أصل الوحي في اللغة كلّها الإعلام في خفاء.^٤
ومؤدّي التعريفات واحد فيما يبدو، إذ الإشارة السريعة إعلام عن طريق الرمز، والرمز إيماء يستفيد منه المتلقّي أمراً إعلامياً قد يخفى على الآخرين.
ومن ثم قيل «للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه: وحي»^٥، باعتبار إسرارها إليهم من قبل ملك الوحي، واختصاصها بهم، دون سائر الناس.

٢- الشورى / ٥١.

١- مجمع البيان ٤ / ٢٠٤.

٣- قارن في ذلك بين الرّاغب، المفردات ٥١٥، مجمع البيان: ٣٧.

٥- المفردات: ٥١٥.

٤- لسان العرب ٢٠: ٢٥٨.

قال ابن الأنباري: سمّي الوحي وحياً لأنّ الملك أسرّه على الخلق، وخصّ به النبي ﷺ.^١

و من هنا يبدو أنّ التعريف الشرعي متحدّر عن الأصل اللّغويّ في خصوصيّة الإسرار والإعلام السّريع، وما يصاحب ذلك من الإشارة والرمز اللّذين يخفيان على الآخرين. وقد عبّر الأستاذ محمّد عبده عن ذلك بما يقارب هذا المؤدّي فقال: «بأنّه عرفان يجده الشّخص في نفسه مع اليقين بأنّه من قبل الله بواسطة، أو بغير واسطة، و الأوّل بصوت يتمثّل لسمعه، أو بغير صوت».^٢

ولعلّ المراد بما يتلقاه النبي ﷺ من العرفان اليقينيّ بغير صوت هو الإلقاء في الرّوع، ذلك بأنّ ينفث الله في روع النبي ﷺ ما يشاء من أمر، أو ينفث روح القدس ما أوحى إليه بتبليغه إيّاه، فيكون ذلك من الوحي بوجه من الوجوه.

وقد يؤيّد هذا الملحظ ما نسب إلى النبيّ أنّه قال: «إنّ روح القدس نفث في روعي».^٣

٢- سماع كلام الله تعالى مباشرة من وراء حجاب دون معاينة أو رؤية، لامتناع ذلك عقلاً وشرعاً، كما كلّّم الله موسى بن عمران ﷺ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^٤ وكان ذلك من وراء حجاب، «وهو أن يحجب ذلك الكلام عن جميع خلقه إلّا من يريد أن يكلمه به نحو كلامه لموسى ﷺ لأنّه حجب ذلك عن جميع الخلق إلّا عن موسى ﷺ وحده، لأنّ الحجاب لا يجوز إلّا على الأجسام المحدودة».^٥

٣- أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، كما في تبليغ جبرئيل لرسول الله - في صورة معيّنة، أو صور متعدّدة - وحي القرآن الكريم عن الله، من غير أن يكلم الله نبيّه على التّحوّل الذي كلّّم به موسى ﷺ.

هذه الأصناف و المراتب في الإحياء حدّتها الآية الكريمة السّابقة فيما يتعلّق

٢ - الوحي المحمّديّ: ٢٨.

٤ - النّساء / ١٦٤.

١ - لسان العرب ٢٠: ٢٥٨.

٣ - الإتيان ١: ١٢٩ + المفردات: ٥١٥.

٥ - مجمع البيان ٥: ٣٧.

بوحى الأنبياء كما يبدو، إلا أننا من متابعة هذه الظاهرة في القرآن الكريم لا حظنا بعض الدلالات الإيجابية لهذا التعبير قد تختلف عما تقدم، ويمكن الإشارة إلى أهمها بما يلي:

أ- الإلهام، وهو أن يلقي الله تعالى في النفس أمراً يبعث على الفصل أو الترك، وهو نوع من الوحي، يخص به الله من يشاء من عباده، غير قابل للتفكير به أو التخطيط له مسبقاً، ليفرق بينه وبين الحالات اللاشعورية من جهة، والسلوك الكسبي من جهة أخرى، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾^١، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾^٢

ب- التسخير، وهو أن يسخر الله تعالى بعض مخلوقاته إلى عمل ما بهديه وإشائه ته و تسخير، بشكل من الأشكال التي لا تستوعبها بعض مداركنا أحياناً، ويستيقنها الذين آمنوا دون أدنى شبهة، كما يدل على هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَأَوْخَىٰ رَيْكَ إِلَىٰ التَّخْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾^٣.

ج- الرؤيا الصادقة، وهي وحي إلهي بالنسبة إلى الأنبياء خاصة يتلقون فيها الأوامر، ويتسلمون التعليمات من السماء، كما دل على ذلك قوله تعالى - فيما اقتص الله من خبر إبراهيم مع ولده -: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا آدَمُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهِ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^٤.

فأشارت الآيات إلى الرؤيا الصادقة في المنام، وإلى الاستفادة إبراهيم ولده عليه السلام الأمر الإلهي فيها، للدلالة على أنها وحي يستلزم العمل به، بدليل تعقيب ذلك من قبل الله في خطاب إبراهيم بتصديق الرؤيا و جزاء المحسنين.

وقد تكون الرؤيا في جزء من هذا الملحظ تمهيداً للوحي المباشر، وقد يعبر عنها بالصادقة أو الصالحة، كما حصل هذا المعنى إلى رسول الله ﷺ أول بدء الوحي كما في رواية أم المؤمنين عائشة: «أول ما بدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة

(الصّالحة) في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصّبح»^١.

وقد تكون الرؤيا نوعاً من الوعد الحقّ الذي يقطعه الله لنبيّه ﷺ كما هو الحال في شأن فتح مكة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾^٢.

وقد دلّ على جميع ما تقدّم مضافاً إلى الدلالات القرآنية ما يروى عنه ﷺ: «انقطع الوحي وبقيت المبشرات: رؤيا المؤمن، فالإلهام، والتسخير والمنام»^٣.

وفيه - إذا صحّ - تفريق بين الوحي المباشر - وهو جبرئيل - وبين ما أشار إليه من المبشرات التي يبدو أنّها غير الوحي الذي يريده الرسول الأعظم ﷺ في الحديث. وقد يكون الوحي بملحظ آخر عامّاً بين جميع الأنبياء والرسل، وقد يكون خاصّاً بالنبي ﷺ، فما كان عامّاً يكون مشتركاً بينه وبين الأنبياء والمرسلين لأنّه أحدهم بل سيدهم، وما كان خاصّاً ينفرد به وحده.

فالأول - كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^٤ - ويبدو أنّ هذا الوحي يشتمل على جميع أقسام الوحي وكيفيّاته، ولا يختصّ بالإيحاء بمعناه الدقيق، لأنّ الإيمان بالوحدانية فطرة إنسانية تُحتّمها طبيعة العقل السويّ، والأنبياء بعامة يتمتّعون بهذه الفطرة نفسياً وعقليّاً.

قال الزّاعب الأصبهاني (م: ٥٠٢ هـ): فهذا الوحي هو عامّ في جميع أنواعه، وذلك أنّ معرفة وحدانية الله تعالى ومعرفة وجوب عبادته ليست مقصورة على الوحي المختصّ بأولي العزم من الرسل، بل يعرف ذلك بالعقل والإلهام كما يعرف بالسمع، فإذن المقصود من الآية تنبيه أنّه من المحال أن يكون رسول لا يعرف وحدانية الله وجوب عبادته»^٥.

والثاني - ما هو مختصّ بالنبي ﷺ وحده، كالأمر له في قوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾^٦ وكإخباره عن نفسه محكيّاً بقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتَبِغْ إِلَّا مَا يُوْحَى

١ - الجامع الصحيح ٧: ١.

٢ - الفتح / ٢٧.

٣ - الزّاعب، المفردات: ٥١٦.

٤ - الأنبياء / ٢٥.

٥ - المفردات: ٥١٦.

٦ - الأنعام / ١٠٦.

إِلَىٰ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ»^١، وكالطلب إليه ﷺ بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ
إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ...﴾^٢.

وفي هذا الضوء فإن ما يوحى به إلى النبي ﷺ لا يخلو إما أن يكون تعليمات يؤمر
بإشاعة مفاهيمها بين الناس بحال من الأحوال، وإما يكون كلامًا يؤمر بتدوينه، ويثبتته الله
في قلبه، ويتلوه بلسانه، فيكون كتابًا فيما بعد، وإلى هذا أشار الزهري بقوله: «ما يوحى
الله به إلى نبي من الأنبياء فيثبت في قلبه، فيتكلم به ويكتبه، وهو كلام الله ومنه ما لا
يتكلم به ولا يكتبه لأحد، ولا يأمر بكتابتها، ولكنه يحدث الناس به حديثًا، ويبين لهم أن
الله أمره أن يبينه للناس و يبلغهم إياه»^٣.

والقرآن الكريم من النوع الذي ثبت في قلب النبي ﷺ و تكلم به وأمر بكتابتها و
تدوينه بعد إنزاله وحيا من قبله.

وقد أورد الزركشي عن السمرقندي ثلاثة أقوال في المنزل من القرآن:

- ١- أنه اللفظ والمعنى، وأن جبرئيل عليه السلام حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به.
- ٢- أن جبرئيل إنما نزل بالمعاني الخاصة، وأن النبي ﷺ علم تلك المعاني، وعبر
عنها بلغة العرب.

٣- أن جبرئيل إنما ألقى إليه المعنى، وأنه عبر بهذه الألفاظ بلغة العرب.^٤
والأول هو الصحيح دون ريب، لأن جبرئيل وصف بالروح الأمين لأمانته المتناهية،
فلا يُضيف ولا يُغيّر، ولا يُبدّل ولا يُنسئ، ولا يُخول ولا يتجوّز، كيف لا وهو روح
القدس بقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ...﴾^٥.

والقرآن نازل من عند الله بألفاظها نفسها، وما مهمة جبرئيل إلا تبليغ الوحي كما
تسلّمه، وهو آيات الكتاب الكريم بنصوصها خالصة بدلالة قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾^٦.

٢- الكهف / ١١٠.

١- الأحقاف / ٩.

٤- البرهان ١: ٢٢٩، الإتيان ١: ١٢٦.

٣- الإتيان ١: ١٢٨.

٦- آل عمران / ١٠٨.

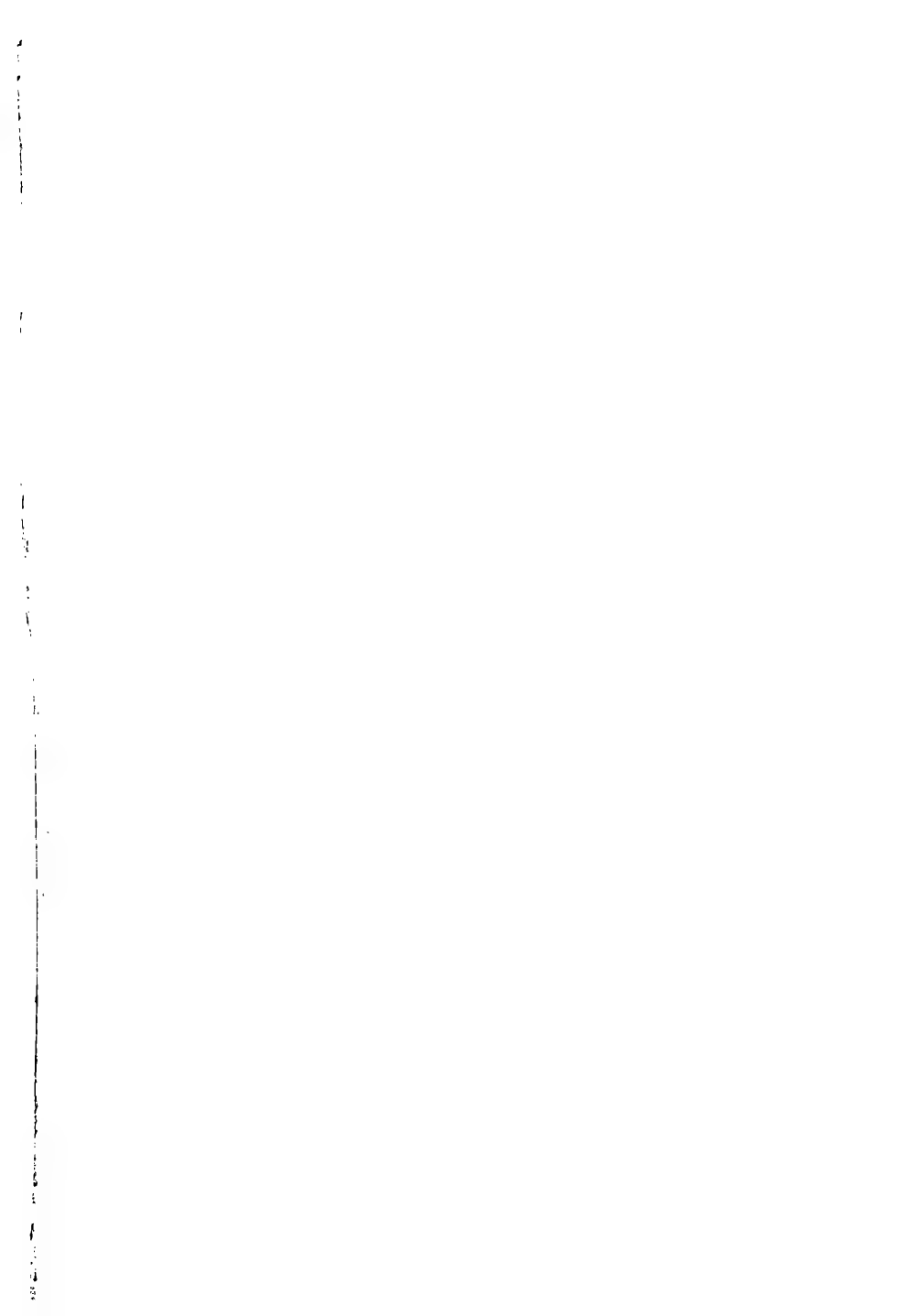
٥- النحل / ١٠٢.

وقد اختار السيوطي ذلك تعبدًا بلفظ القرآن إعجازًا، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه، وأن تحت كل حرف منه معاني لا يحاط بها كثرة، فلا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه^١.

وخصوصية القرآن التّعبّد بتلاوته، لأنّ ألفاظه نازلة من الله تعالى فلا تدانيها خصوصية أخرى، لأنّ هناك ما هو نازل من السّماء كالأحاديث القدسيّة ولكنّها ليست بقرآن، فلا خصوصيّة للتّعبّد بتلاوتها، وإن أخذنا بمضامينها حرفيًّا، ولكنّها، لم تنزل بألفاظها المخصوصة لها كما هو شأن القرآن.

والحديث النبويّ نتعبّد به أمرًا ونهيًا، وكان النّبيّ ﷺ يرسل الحديث ويقول، ويتّبع ذلك أهله وأصحابه، ثمّ يتلو القرآن ويقرؤه، فما اتّفق يومًا أن تشاكل النّصّان، أو تشابه القولان، ولو كان معنى القرآن ينقل إلى النّبيّ وحيًا - أو وحيه ينقل إليه معنى، والنّبيّ يصوغه بلفظه، ويعبّر عنه بكلامه - لاشتبه القرآن بالحديث والحديث بالقرآن من وجهة نظر بلاغيّة على الأقلّ، بينما العكس هو الصّحيح، فالخصائص الأسلوبية في القرآن تدلّ عليه، وخصائص الحديث تدلّ عليه، فكلّ له أسلوبه المتميّز، ومنهجه الخاصّ حتّى عرف ذلك القاضي والدّاني ممّن آمن بالنّبيّ والقرآن وممّن جحدهما، فالقرآن كلام الله، ومحمّد ﷺ ينقله كما سمعه، بلفظه الدّالّ على معناه، وبمعناه الذي نطق به لفظه، لا شيء من محمّد إلّا التّقلّ الأمين، والحديث كلام محمّد ﷺ يتفوّه به فيشرّع ويحكم، لأنّه المصدر الثّاني بعد القرآن للشّريعة الإسلاميّة، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْكُمُ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^٢.

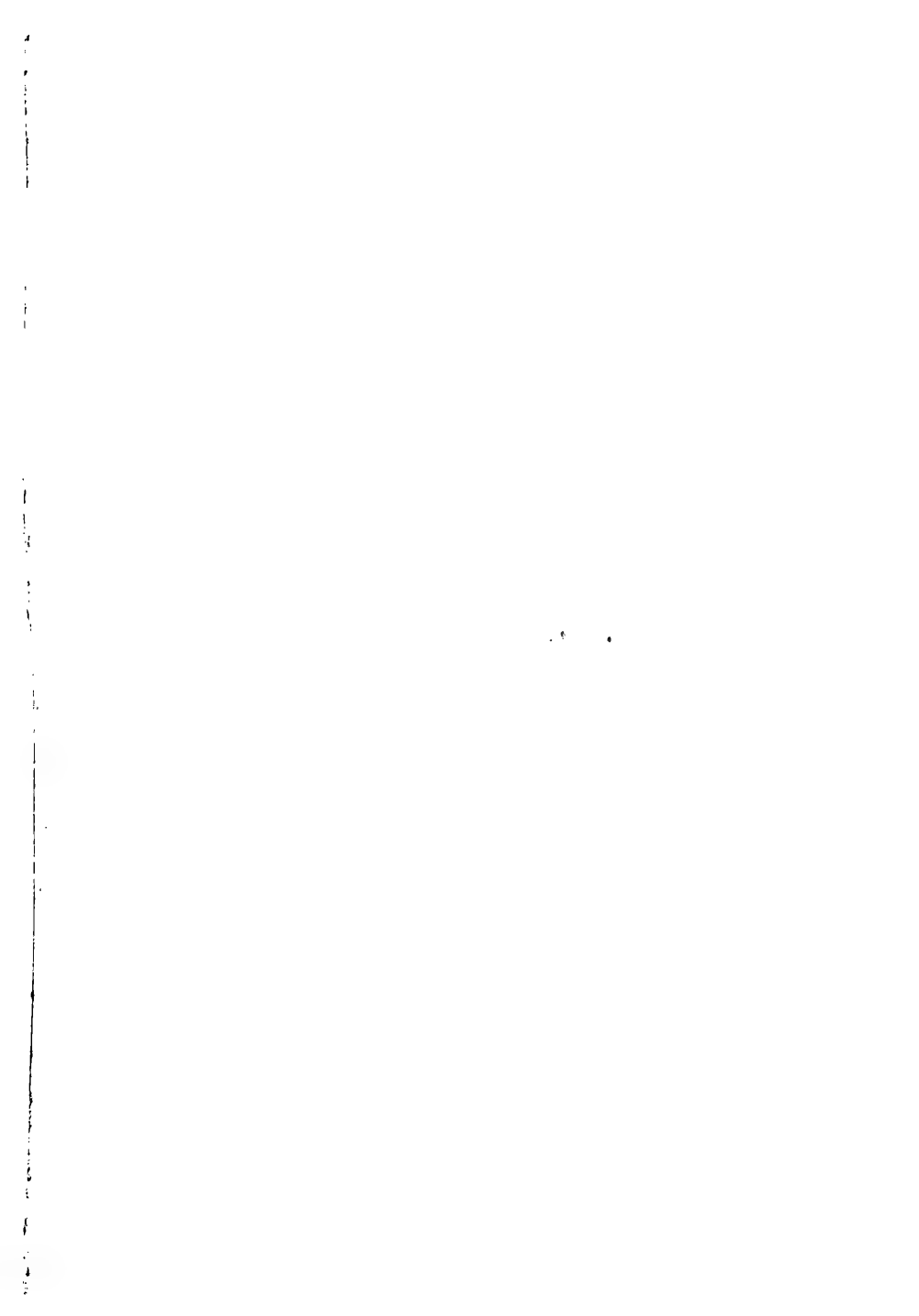
وتمتّ دليل قرآنيّ آخر في توجيه الخطاب إلى النّبيّ ﷺ بعبارة (قُلْ) في القرآن الكريم، وتكرارها فيه أكثر من ثلاثمائة مرّة، تصريح وأيّ تصريح بأنّ النّبيّ ﷺ «لا دخل له في الوحي، فلا يصوغه بلفظه، ولا يلقيه بكلامه، إنّما يلقى إليه الخطاب إلقاءً، فهو مخاطب لا متكلّم، حاكٍ لما يسمعه، لا معبّر عن شيء يجرّول في نفسه»^٣. لهذا كان إذا نزلت عليه آية أو سورة - بل و جزء من آية - يدعو كتبه لتدوينها على الفور نصًّا. (٢٣ - ٣١)



الباب الثالث من القسم الأول

بدء الوحي، أول وآخر ما نزل

وفيه فصول



الفصل الأول^١

نص البخاري (م: ٢٥٦) في «صحيحه»^٢

كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ

١- حدثنا يحيى بن بُكير، قال: حدثنا الليث عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عُرْوَةَ بن الزُّبَيْر عن عائشة أم المؤمنين، أنها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبِّب إليه الخلاء، و كان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه، وهو التَّعَبُّد اللَّيالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، و يتزوَّد لذلك ثم يرجع إلى خديجة، فيتزوَّد لمثلها حتى جاءه الحقّ وهو في غارٍ فجاءه الملك، فقال: «إقرأ» قال: ما أنا بقارئ قال فأخذني فغطني، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: «إقرأ» فقلت ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: «إقرأ» فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: «إقرأ باسم ربِّك الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إقرأ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ»^٣ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خُوَيْلِد رضي الله عنها فقال: «رَمَلُونِي رَمَلُونِي» فزَمَلُوهُ حتى ذهب عنه الرُّوح، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي» فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنَّكَ لتصل الرَّحِمَ، وتحمِل الكَلَّ، وتكسِب المعدوم، و تقرى الضَّيف، و تُعين على نوائب الحقّ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به

١ - راجع الفصل (٤٤، ٤٣، ٤١، ٤٠، ٣٦) من هذا الباب، حيث نقلنا هناك نظرة تحليلية، حول بعض الروايات في هذا النص.

عن الأساتذة: الشيخ معرفة و الشيخ السبحاني و مرتضى العاملي و الملكي و الأراكي و غيرهم.

٢ - نحوه ابن هشام (م: ١٥٣) في «السيرة النبوية» ١: ٢٥٢، و البيهقي (م: ٤٠٥) في «السنن الكبرى» ٥: ٩.

٣ - الملق ٥١/٥.

وَرَقَّةُ بْنُ تَوْفَلٍ بْنُ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْمُزَيِّ بْنِ عَبْدِ خَدِيجَةَ، وَكَانَ إِمْرًا تَنْصَرُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ فَقَالَ لَهُ وَرَقَّةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَّةُ: هَذَا التَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذَا يَخْرُجُكَ قَوْمُكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوْ مُخْرَجِيْ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمَكَ أَنْصُرُكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَّةُ أَنْ تَوْفَى وَفَتَرَ الْوَحْيَ.

٢- قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوَحْيِ، فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا الْمَلِكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ - إِلَى قَوْلِهِ - وَالْجُزْأَيْنِ فَاهْبُجْ﴾^١ فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ تَابِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ وَأَبُو صَالِحٍ، وَتَابِعَهُ هَلَالُ بْنُ رَدَادٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ وَقَالَ يُونُسُ وَمَعْمَرُ: بَوَادِرُهُ. (٢:١)

[أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ]

٣- حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْمُبَارَكِ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ قُلْتُ: يَقُولُونَ: ﴿إِذَا رَأَوْا تِلْكَ الْآيَةَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أُولَئِكَ الْبَرَاءَ الْوَحِيدَ﴾ فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، وَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ الَّذِي قُلْتُ، فَقَالَ جَابِرٌ: لَا أَحَدُثُكَ إِلَّا مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ، فَلَمَّا قَضَيْتُ حَوَارِي هَبَطْتُ فَنُودِيتُ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرِ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ عَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرِ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ أَمَامِي فَلَمْ أَرِ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ خَلْفِي فَلَمْ أَرِ شَيْئًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَرَأَيْتُ شَيْئًا، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَرُونِي، وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، قَالَ: قَدْ تَرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، قَالَ: فَتَزَلْتُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾^٢.

٤- حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ وَغَيْرُهُ، قَالَا: حَدَّثَنَا حَرْبُ بْنُ شَدَّادٍ، عَنْ يَحْيَى ابْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: جَاوَرْتُ بِجَرَاءٍ. مِثْلَ حَدِيثِ عُثْمَانَ بْنِ عَمَرَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْمُبَارَكِ.

٥- حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا حَرْبٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، قَالَ سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ، أَيُّ الْقُرْآنِ أَنْزَلَ أَوَّلُ؟ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فَقُلْتُ: أُثْبِتُ أَنَّهُ ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَيُّ الْقُرْآنِ أَنْزَلَ أَوَّلُ؟ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فَقُلْتُ: أُثْبِتُ أَنَّهُ ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فَقَالَ: لَا أَخْبِرُكَ إِلَّا بِمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَاوَرْتُ فِي جَرَاءٍ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي هَبَطْتُ، فَاسْتَبَطَنْتُ الْوَادِيَّ فَتُودِيتُ، فَظَنَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى عَرْشٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ دَثْرُونِي وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ * فَمُ فَاذْذُ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ^١.

٦- حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرُ بْنُ الزُّهْرِيِّ، فَأَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرُ بْنُ الزُّهْرِيِّ، فَأَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوَحْيِ، فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلِكُ الَّذِي جَاءَنِي بِجَرَاءٍ، جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجِئْتُ مِنْهُ رُعْبًا، فَارْجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَدَثْرُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ - إِلَى - وَالْوَجْزُ فَاهْبُجْ^٢ قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلَاةُ^٣ وَهِيَ الْاَوْثَانُ.

٧- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَوْسُفَ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: سَمِعْتُ أَبَا سَلَمَةَ، قَالَ: أَخْبَرَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوَحْيِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصْرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلِكُ الَّذِي جَاءَنِي

٢- المدثر / ٥١.

١- المدثر / ٤١.

٣- مثله عن الترمذي في سننه (الجامع الصحيح) ٤٢٨:٥، إلا أنه قد جاء في ذيله: وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

بحراء قاعدٌ على كُرسي بين السماء والأرض، فَجِيئَتْ مِنْهُ حَتَّى هَوِيَتْ إِلَى الْأَرْضِ،
 فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ - إِلَى قَوْلِهِ - فَاهْبِزْ﴾
 قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: ﴿وَالْأُجْزَ الْأَوْتَانِ، ثُمَّ حَمَى الْوَحْيَ وَتَتَابَعَ (٦: ٢٠٠).

الفصل الثاني

ما جاء في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام (م: ٢٦٠)

[حديث بدء نزول الوحي]

قال علي بن محمد عليه السلام: ... إن رسول الله ﷺ لما ترك التجارة إلى الشام، وتصدق بكل ما رزقه الله تعالى من تلك التجارات، كان يغدو كل يوم إلى حراء، يصعده وينظر من قلله إلى آثار رحمة الله، وأنواع عجائب رحمته وبدائع حكمته، وينظر إلى أكناف السماء وأقطار الأرض والبحار والمفاوز والفيافي، فيعتبر بتلك الآثار، ويتذكر بتلك الآيات، ويعبد الله حقَّ عبادته.

فلما استكمل أربعين سنة، ونظر الله عز وجل إلى قلبه فوجده أفضل القلوب وأجلها وأطوعها وأخشعها وأضعفها، أذن لأبواب السماء ففتحت، ومحمد ينظر إليها، وأذن للملائكة فنزلوا ومحمد ينظر إليهم، وأمر بالرحمة فأنزلت عليه من لدن ساق العرش إلى رأس محمد وغمرته ونظر إلى جبرئيل الروح الأمين المطوق بالنور، طاووس الملائكة هبط إليه، وأخذ بضبعه^١ وهزه، قال: يا محمد اقرأ، قال: «وما أقرأ» قال يا محمد: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - إِلَى - مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^٢.

ثم أوحى إليه ما أوحى إليه ربه عز وجل، ثم صعد إلى العلو ونزل محمد عليه السلام من الجبل، وقد غشيه من تعظيم جلال الله، وورد عليه من كبير شأنه ما ركبته الحمى والنافض، يقول: وقد اشتد عليه ما يخافه من تكذيب قريش في خبره ونسبتهم إياه إلى الجنون، وأنه يعتريه شياطين، وكان من أول أمره أعقل خليفة الله وأكرم برياه، أبغض

١ - الضبع: وسط العضد، وفي المصدر: بضيعه، وهزه: حرّكه.

الأشياء إليه الشيطان وأفعال المجانين وأقوالهم فأراد الله عزَّوجلَّ أن يشرح صدره، ويشجَّع قلبه، فأنطق الله الجبال والصَّخور والمدَر، وكلَّمَا وصل إلى شيء منها ناداه: السَّلام عليك يا محمَّد، السَّلام عليك يا وليَّ الله، السَّلام عليك يا رسول الله، أبشر فإنَّ الله عزَّوجلَّ قد فضلك. جمَّلك وزينك، وأكرمك فوق الخلاق أجمعين من الأوَّلين والآخرين، لا يحزنك قول قريش إنَّك مجنون، وعن الدَّين مفتون، فإنَّ الفاضل من فضله ربَّ العالمين، والكريم من كرمه خالق الخلق أجمعين، فلا يضيقنَّ صدرك من تكذيب قُريش وعُتاة العرب لك، فسوف يبلغك ربُّك أقصى منتهى الكرامات، ويرفعك إلى أرفع الدَّرجات، وسوف ينعم ويفرَّح أوليائك بوصيكَ عليَّ بن أبي طالب، وسوف يبيث علومك في العباد والبلاد بمفتاحك وباب مدينة حكمتك عليَّ بن أبي طالب، وسوف يُقرَّ عينك بينتك فاطمة، وسوف يخرج منها ومن عليَّ، الحسن والحسن سيدي شباب أهل الجنَّة، وسوف ينشر في البلاد دينك، وسوف يعظَّم أجور المحبِّين لك ولأخيك، وسوف يضع في يدك لواء الحمد فتضعه في يد أخيك عليَّ، فيكون تحتَه كلُّ نبيٍّ وصديق وشهيد، يكون قائدهم أجمعين إلى جنَّات النعيم.

فقلت في سرِّي: ياربَّ مَنْ عليَّ بن أبي طالب الَّذي وعدتني به؟ - وذلك بعد ما وُلِد عليَّ عليه السلام وهو طفل - أهو وَلَدَ عَمِّي؟» وقال بعد ذلك لَمَّا تحرَّك عليَّ قليلاً وهو معه «أهو هذا؟» ففي كلِّ مرَّة من ذلك أنزل عليه ميزان الجلال، فجعل محمَّد في كَفَّة منه، ومثَّل له عليَّ عليه السلام وسائر الخلق من أُمَّته إلى يوم القيامة في كَفَّة، فوزن بهم فرجح، ثمَّ أخرج محمَّد من الكَفَّة وترك عليَّ في كَفَّة محمَّد التي كان فيها، فوزن بسائر أُمَّته فرجَّح بهم، فعرفه رسول الله بعينه وصفته، ونودي في سرِّه: يا محمَّد، هذا عليَّ بن أبي طالب صفيِّي الَّذي أُؤيِّد به هذا الدِّين، يرجح على جميع أُمَّتك بعدك، فذلك حين شرح الله صدري بأداء الرِّسالة، وخَفَّف عَنِّي مكافحة الأُمَّة، وسَهَّل عليَّ مبارزة العُتاة الجابرة من قُريش.

الفصل الثالث

نص اليعقوبي (م ٢٨٤) في تاريخه

[آخر ما نزل من القرآن]¹

وكان آخر ما نزل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ۖ إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ آخِرَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾²، وهي الرواية الصحيحة الثابتة الصريحة، وكان نزولها يوم التَّفَرُّعِ على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، بغدير خم. وقيل: آخر ما نزل: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾³، وقال ابن عباس: كان جبريل إذا نزل على النبي بالوحي يقول له: ضَعْ هذه الآية في سورة كذا في موضع كذا، فلما نزل عليه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ قال: ضَعَهَا في سورة البقرة.

قال ابن مسعود: نزل القرآن بأمر ونهي وتحذير وتبشير. وقال جعفر بن محمد عليه السلام: «نزل القرآن بحلالٍ وحرام، وفرائض وأحكام، وقصص وأخبار، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وعبر وأمثال، وظاهر وباطن، وخاص وعام». وأقام رسول الله يتلوهم ويتهياً للقتال حتى أنزل الله عز وجل: ﴿أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾⁴، والآية التي بعدها. وقال: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾⁵ إلى آخر الآية. فكان الرجل من المؤمنين يُعَدُّ بعشرة من المشركين حتى أنزل الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُنْ مِنْكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُنْ مِنْكُم

١ - وفي نفس المصدر جاء «كيف نزول الوحي».

٢ - التوبة / ١٢٧ - ١٢٨.

٣ - المائدة / ٣.

٤ - البقرة / ٢٨١.

٥ - النساء / ٨٤.

٥ - الحج / ٣٩.

أَلْفٌ يَغْلِبُوا الْفَنِينَ^١ وأنزل الله عليه سيفاً من السماء له غمده، فقال له جبريل: رَبِّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقَاتِلَ بِهَذَا السَّيْفِ قَوْمَكَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ حُرِّمَتْ دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَّا لِحَقِّهَا وَحَسَابِهِمْ عَلَى اللَّهِ. (٤٣:٢)

الفصل الرابع

نص مسلم (م: ٢٦١) في «صحيحه»

بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ

١- حدثني أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن سرح، أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني يونس عن ابن شهاب، قال: حدثني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أنها قالت: كان أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ عليه من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان... [و ذكر كما تقدم عن البخاري الرقم ١، ثم قال:]

٢- و حدثني محمد بن رافع، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، قال: قال الزهري و أخبرني عروة عن عائشة أنها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي، و ساق الحديث بمثل حديث يونس، غير أنه قال: فوالله لا يُحزّنك الله أبداً. وقال: قالت خديجة: أي ابن عمّ اسمع من ابن أخيك.

٣- و حدثني عبد الملك بن شعيب بن الليث، قال: حدثني أبي عن جدي، قال حدثني عقيل بن خالد، قال ابن شهاب: سمعت عروة بن الزبير يقول: قالت عائشة زوج النبي ﷺ: فرجع إلى خديجة يرجف فؤاده. واقتصص بمثل حديث يونس و معمر، ولم يذكر أول حديثهما من قوله: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة و تابع يونس على قوله: فوالله لا يُحزّنك الله أبداً. و ذكر قول خديجة: أي ابن عمّ! استمع من ابن أخيك.

٤- و حدثني أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب قال: حدثني يونس، قال: قال ابن شهاب: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري... [و ذكر كما تقدم نحوه عن البخاري الرقم ٣].

٥- و حدثني عبد الملك بن شعيب بن الليث، قال: حدثني أبي عن جدي، قال:

حَدَّثَنِي عُقَيْلُ بْنُ خَالِدٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَقُولُ: أَخْبَرَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «ثُمَّ فُتِرَ الْوَحْيُ عَنِّي قِتْرَةً^١ فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي»، ثُمَّ ذَكَرَ مِثْلَ حَدِيثِ يُونُسَ غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ «فَجَبِثْتُ^٢ مِنْهُ فَرَقًّا حَتَّى هَوَيْتُ^٣ إِلَى الْأَرْضِ» قَالَ: وَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ: وَالرَّجُزُ: الْأَوْتَانُ. قَالَ: «ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ بَعْدُ وَتَنَابَعَ»^٤.

٦- وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقُ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ بِهَذَا الْإِسْنَادِ نَحْوَ حَدِيثِ يُونُسَ وَقَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ - إِلَى قَوْلِهِ - فَالْجُزْءُ فَاهْجُزْ﴾ قَبْلَ أَنْ تُعْرَضَ الصَّلَاةُ، وَهِيَ الْأَوْتَانُ...

٧- وَحَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ يَحْيَى يَقُولُ: سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ: أَيُّ الْقُرْآنِ أَنْزَلَ قَبْلَ؟ قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، فَقُلْتُ: أَوْ (إِفْرَأْ) فَقَالَ سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ: أَيُّ الْقُرْآنِ أَنْزَلَ قَبْلَ؟ قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾^٥، فَقُلْتُ: أَوْ (إِفْرَأْ) قَالَ جَابِرٌ: أُحَدِّثُكُمْ مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «جَاوَرْتُ بِحِرَاءَ شَهْرًا، فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي^٦ نَزَلْتُ فَاسْتَبَطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي^٧، فَنُودِيتُ، فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَلَمْ أَرِ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ، فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرِ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا

١ - (فترة الوحي) يعني احتباسه وعدم تنابعه و تواليه في النزول.

٢ - (فَجَبِثْتُ) أَي فَرَعْتُ وَرُعِيتُ، وَكَذَا جَبِثْتُ: قَالَ الْخَلِيلُ وَالْكِسَائِيُّ: جَبِثْتُ وَجَثَّ فَهُوَ مَجْثُوثٌ وَمَجْثُوثٌ، أَي مَذْعُورٌ فَرْعٌ.

٣ - (هَوَيْتُ): هَوَى إِلَى الْأَرْضِ وَأَهْوَى إِلَيْهَا، لَتْنَانٌ، أَي سَقَطَ.

٤ - (ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَنَابَعَ): هُمَا بِمَعْنَى، فَأَكَّدَ أَحَدُهُمَا بِالْآخِرِ، وَمَعْنَى حَمِيَ كَثُرَ نَزُولُهُ وَازْدَادَ، مِنْ قَوْلِهِمْ: حَمَيْتِ النَّارَ وَالشَّمْسُ، أَي قَوِيَتْ حَرَارَتُهَا.

٥ - قَوْلُهُ: إِنَّ أَوَّلَ مَا أَنْزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ضَعِيفٌ، بَلْ بَاطِلٌ، وَالصَّوَابُ أَنَّ أَوَّلَ مَا أَنْزَلَ عَلَى الْإِبْرَاهِيمَ (إِفْرَأْ) بِأَسْمٍ رَزَقَ الَّذِي خَلَقَ، كَمَا صَرَحَ بِهِ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ. وَأَمَّا ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فَكَانَ نَزُولُهَا بَعْدَ فِتْرَةِ الْوَحْيِ، كَمَا صَرَحَ بِهِ فِي رِوَايَةِ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ جَابِرٍ. وَالدَّلَالَةُ صَرِيحَةٌ فِيهِ مَوَاضِعَ، مِنْهَا قَوْلُهُ: وَهُوَ يَحْدُثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوَحْيِ، إِلَى أَنْ قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وَمِنْهَا قَوْلُهُ ﷺ: فَإِذَا الْمَلِكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءَ، ثُمَّ قَالَ: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. مِنْهَا قَوْلُهُ: «ثُمَّ تَنَابَعَ الْوَحْيُ»، يَعْنِي بَعْدَ فِتْرَتِهِ. فَالصَّوَابُ أَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ: (إِفْرَأْ)، وَ أَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ بَعْدَ فِتْرَةِ الْوَحْيِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. وَأَمَّا قَوْلُ مِنَ الْمَفْسَّرِينَ: أَوَّلَ مَا نَزَلَ الْفَاتِحَةُ، فَيُطْلَانَهُ أَظْهَرَ مِنْ أَنْ يَذْكَرَ.

٦ - «فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي» أَي مَجَاوِرَتِي وَاعْتِكَافِي. ٧ - «فَاسْتَبَطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي» أَي صِرْتُ فِي بَاطِنِهِ.

هو على العرش^١ في الهواء (يعني جبريل عليه السلام)، فأخذتني رَجْفَةً شَدِيدَةً^٢، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثُّوْنِي، فَدَثُّوْنِي، فَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ * وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾^٣.

٨- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ عَمَرَ، أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ الْمُبَارَكِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ بِهَذَا الْإِسْنَادِ، وَقَالَ «فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى الْعَرْشِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

(١٣٩:١)

١ - «فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ»، المراد بالعرش الكرسي؛ قال أهل اللغة: العرش هو السَّرِير، وقيل: سرير الملك؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

٢ - «فَأَخَذَتْنِي رَجْفَةً شَدِيدَةً»، قال القاضي: ورواه السَّمَرَقَنْدِيُّ وَجَفَةً، وهما صحيحان متقاربان، ومعناهما الاضطراب؛ قال الله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾، ﴿وَيَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾.

٣ - المدثر / ١-٤.

الفصل الخامس

نص الترمذي (م: ٢٩٧) في سننه: «الجامع الصحيح»

ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ

١- حدثنا الفضل بن سهل أبو العباس الأعرج البغدادي، حدثنا عبد الرحمن بن غزوان أبو نوح، أخبرنا يونس بن أبي إسحاق عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه قال: خرج أبو طالب إلى الشام و خرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرّون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت. قال: فهم يحلون رحالهم، فجعل يتخلّلهم الراهب حتّى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ، قال: هذا سيّد العالمين، هذا رسول ربّ العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ من قريش: ما علمك، فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرّ ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبّي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل النّفاحة، ثم رجع فصنّع لهم طعاماً، فلما أتاهاهم به وكان هو في رعيّة الإبل قال: أرسلوا إليه، فأقبلّ و عليه غمامة تضيّله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس مالّ فيء الشجرة عليه فقال: أنظروا إلى فيء الشجرة مالّ عليه، قال: فبينما هو قائم عليهم وهو يناديهم أن لا يذهبوا به إلى الروم، فإنّ الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونّه، فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا جننا أنّ هذا النبيّ خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بُعث إليه أناس وإنّا قد أخبرنا خبره بعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلّفكم أحدٌ هو خيرٌ منكم؟ قالوا: إنّما اخترنا خيرةً لك لطريقك هذا، قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحدٌ من الناس ردّه؟ قالوا: لا، قال: فبايعوه وأقاموا معه قال: أنشدكم الله أيكم وليّه؟ قالوا:

أبو طالب، فلم يزل ينا شده حتّى ردّه أبو طالب و بعث معه أبوبكر بلالاً و زوّده الزّاهب من الكعك و الزّيّت. قال أبو عيسى: هذا حديث حسنٌ غريب، لا نعرفه إلّا من هذا الوجه. (٥٩٠:٥-٥٩١)

٢- حدّثنا الأنصاريّ إسحاق بن موسى، حدّثنا يونس بن بكير أخبرنا محمّد بن إسحاق، حدّثني الزّهرّي عن عروة عن عائشة أنّها قالت: أوّل ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النّبوة حين أراد الله كرامته و رحمة العباد به أن لا يرى شيئاً إلّا جاءت مثل فلّق الصّبح، فمكث على ذلك ما شاء الله أن يمكّث، و حبّب إليه الخلوة فلم يكن شيء أحبّ إليه من أن يخلو. قال أبو عيسى: هذا حديث حسنٌ غريب.

ما جاء كيف كان ينزل الوحي على النّبي ﷺ

٣- حدّثنا إسحاق بن موسى الأنصاريّ، حدّثنا معن، حدّثنا مالك عن هشام بن عروة، عن أبيه عن عائشة أنّ الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي... [وذكرهما تقدّم عن البخاريّ الرّقم ١، ثم أضاف:] قال عيسى: هذا حديث حسن صحيح. (٥٩٦:٥-٥٩٧)

الفصل السادس

نص الطبري (م: ٣١٠) في تفسيره: «جامع البيان»^١

[بدء الوحي أول و آخر ما نزل]

[أول ما أنزل جبرئيل على النبي ﷺ]

«الاستعاذة ثم البسملة»

قد روي عن ابن عباس: أن أول ما نزل جبرئيل على النبي ﷺ: علمه الاستعاذة.
١- حدثنا أبو كريب قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمارة، قال: حدثنا أبو روق عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال: أول ما نزل جبرئيل على محمد ﷺ قال: يا محمد! قل استعِذْ بِالسَّمِيعِ الْعَلِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ثم قال: قل بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. ثم قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾ قال عبد الله: وهي أول سورة أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ بلسان جبرئيل، فأمره أن يتعوذ بالله دون خلقه. (٥٠:١)

أول آية نزلت من القرآن

﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ المدثر ١-٣.

و ذكر أن هذه الآية أول شيء نزل من القرآن على رسول الله ﷺ وأنه قيل له:
﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ﴾.

١ - لا يخفى أن بعض روايات هذا النص، ولا سيما الروايات رقم ٤٨، ٤٢، ٣٧، ٣٦، ١١، ٩، لاتصح عندنا لأنها تنافي عصمة النبي ﷺ وقد نقدها العلماء في كتبهم، لاحظ نصوص الشيخ معرفة و الشيخ السبحاني و السيد مرتضى العاظمي و غيرهم في هذا المجلد. (م)

٢- كما حدثنا يونس، قال أخبرنا ابن وهب. قال: أخبرنا يونس، عن ابن شهاب، قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري... [و ذكر كما تقدم عن البخاري الرقم ٣].

٣- حدثنا ابن المثنى. قال ثنا الوليد بن مسلم، قال: ثنا الأوزاعي، قال: ثني يحيى بن أبي كثير، قال: سألت أبا سلمة: أي القرآن أنزل أول؟ فقال: ﴿يَاءِ يٰهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فقلت: يقولون: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، فقال: لا أخبرك إلا ما حدثنا النبي ﷺ. قال: «جاءت في حراء؛ فلما قضيت جوارى هبطت، فاستبطنت الوادي فنوديت، فنظرت عن يميني و عن شمالي و خلفي و قدامي، فلم أر شيئاً، فنظرت فوق رأسي، فإذا هو جالس على عرش بين السماء و الأرض، فخشيت منه». هكذا قال عثمان بن عمرو، إنما هو «فجئْتُ منه، و لقيت خديجة، فقلت دثروني، فدثروني، و صُبُّوا عليّ ماءً، فأنزل الله عليّ: ﴿يَاءِ يٰهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ * قُمْ فَأَنْذِرْ» ٢.

٤- حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا وكيع، عن علي بن مبارك عن يحيى بن أبي كثير، قال سألت أبا سلمة عن أول ما نزل من القرآن... [و ذكر كما تقدم عن البخاري، الرقم ٣].

٥- حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن الزهري، قال: فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة، فحزن حزناً، فجعل يعدو إلى شواحق رؤوس الجبال ليتردى منها. فكلما أوى بذروة جبل تبدى له جبرئيل ﷺ فيقول: إِنَّكَ نَبِيُّ اللَّهِ، فيسكن جأشه، و تسكن نفسه، فكان النبي ﷺ يحدث عن ذلك، قال: بينما أنا أمشي يوماً إذ رأيت الملك الذي كان يأتيني بحراء على كرسي بين السماء والأرض، فجئْتُ منه رُعباً، فرجعت إلى خديجة، فقلت: زملوني، فزملناه، أي فدثرناه، فأنزل الله: ﴿يَاءِ يٰهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَ رَبِّكَ فَكَبِّرْ... ٣.

قال الزهري: فكان أول شيء أنزل عليه ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - إِلَى - مَا لَمْ يَلْمَ﴾ ٤.

(١٤٤:١٤٣:٢٩)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ المائدة / ٣

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: يعني جلّ ثناؤه بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ دِينَكُمْ﴾ اليوم أكملت لكم أيها المؤمنون فرائضي عليكم وحدودي، وأمرني إياكم ونهيي، وحلالي وحرامي، وتزيلي من ذلك ما أنزلت منه في كتابي وتبائي، ما بيئت لكم دينكم منه بوحبي على لسان رسولي، والأدلة التي نصبته على جميع ما بكم الحاجة إليه، من أمر دينكم، فأتملت لكم جميع ذلك، فلا زيادة فيه بعد هذا اليوم. قالوا: وكان ذلك في يوم عرفة، عام حجّ النبي ﷺ حجّة الوداع.

وقالوا: لم ينزل على النبي ﷺ بعده هذه الآية شيء من الفرائض، ولا تحليل شيء ولا تحريمه، وإن النبي ﷺ لم يعيش بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة... وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: إن الله عزّ وجلّ أخبر نبيه ﷺ والمؤمنين به، أنه أكمل لهم يوم أنزل هذه الآية على نبيه دينهم بإفرادهم بالبلد الحرام، وإجلاله عنه المشركين، حتّى حجّه المسلمون دونهم، لا يخالطونهم المشركون.

٦- فأما الفرائض والأحكام، فإنه قد اختلف فيها هل كانت أكملت ذلك اليوم أم لا؟ فروي عن ابن عباس والسديّ؛ ما ذكرنا عنهما قبل، وروي عن البراء بن عازب: إن آخر آية نزلت من القرآن: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ...﴾^١ ولا يدفع ذو علم أن الوحي لم ينقطع عن رسول الله ﷺ إلى قبض، بل كان الوحي قبل وفاته أكثر ما كان تتابعاً. فإذا كان ذلك كذلك، وكان قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ...﴾ آخرها نزولاً، وكان ذلك من الأحكام والفرائض، كان معلوماً أن معنى قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ على خلاف الوجه الذي تأوله، أعني كمال العبادات والأحكام والفرائض. (٦: ٧٩ و ٨٠)

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا...﴾ الكهف / ١١٠

٧- حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمر والسكوني، قال: ثنا هشام بن عمار، قال ثنا ابن عيَّاش، قال: ثنا عمرو بن قيس الكندي، أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية. ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ...﴾ وقال: إنها آخر آية أنزلت من القرآن. (٤: ١٦)

أول سورة نزلت من القرآن

﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

قوله: ﴿إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ يقول: اقرأ يا محمد وربك الأكرم ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ خَلَقَهُ الْكِتَابُ وَالْخَطَّ.

٨- كما حدثنا بشر، قال ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد عن قتادة: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ قرأ حتى بلغ: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ قال: القلم: نعمة من الله عظيمة، لولا ذلك لم يقم ولم يصلح عيش. وقيل: إن هذه أول سورة نزلت في القرآن على رسول الله ﷺ.

٩- حدثني أحمد بن عثمان البصري، قال: ثنا وهب بن جرير، قال: ثنا أبي، قال: سمعت النعمان بن راشد عن الزهري، عن عروة، عن عائشة أنها قالت: كان أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، كانت تجيء مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء فكان بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ثم يرجع إلى أهله فيترود لمثلها، حتى فجأه الحق، فأتاه، فقال: يا محمد أنت رسول الله، قال رسول الله «فَجَوْتُ لِرُبُّكَيَّ وَأَنَا قَائِمٌ، ثُمَّ رَجَعْتُ تَرْجُفُ بَوَادِرِي، ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، حَتَّى ذَهَبَ عَنِّي الرُّوعُ، ثُمَّ أَتَانِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنَا جَبْرِيلُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَطْرَحَ نَفْسِي مِنْ حَالِقٍ مِنْ جَبَلٍ، فتمثل إلي حين هممت بذلك، فقال: يَا مُحَمَّدُ. أَنَا جَبْرِيلُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: إِقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَقْرَأُ؟ قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ. ثُمَّ قَالَ: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾ فقرأت، فأتيت خديجة، فقلت: لقد أشققت على نفسي، فأخبرتني خبري فقالت: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة،

وَتَحْمِيلُ الْكَلِّ، وَتَقْرِي الضَّيْفِ، وَتُعِين عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، ثُمَّ انْطَلَقْتُ بِي إِلَى وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدٍ، قَالَتْ: اسْمِعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، فَسَأَلَنِي، فَأَخْبَرْتَهُ خَبْرِي، فَقَالَ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِيَتَنِي فِيهَا جَدْعٌ، لِيَتَنِي أَكُونَ حَيًّا حِينَ يَخْرُجُكَ قَوْمُكَ، قُلْتُ: أَوْ مُخْرَجِيَّ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّهُ لَمْ يَجِيءَ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا عُودِي. وَلَنْ أَدْرَكَنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ كَانَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ عَلَيَّ مِنَ الْقُرْآنِ بَعْدَ (اقْرَأْ): ﴿هَذَا الْقَلَمُ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ لَكُمْ * وَإِن لَّكَ لَآخِرًا غَيْرَ مَضُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾^١، ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثُرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾^٢، ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾^٣.

١٠- حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي يُونُسُ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: ثَنِي عُرْوَةُ أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ، وَذَكَرَ نَحْوَهُ. غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: «ثُمَّ كَانَ أَوَّلُ مَا أَنْزَلَ عَلَيَّ مِنَ الْقُرْآنِ»... الْكَلَامُ إِلَى آخِرِهِ.

١١- حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي الشَّوَارِبِ، قَالَ: ثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ، قَالَ: ثَنَا سُلَيْمَانُ الشَّيْبَانِيُّ. قَالَ: ثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ، قَالَ: أَتَى جَبْرِيلُ مُحَمَّدًا، فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ: (اقْرَأْ)، فَقَالَ: «وَمَا أَقْرَأُ؟» قَالَ: فَضَمَّهُ. ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ: (اقْرَأْ)، قَالَ: «وَمَا أَقْرَأُ؟» قَالَ: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، قَالَ: فَجَاءَ إِلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: «يَا خَدِيجَةُ مَا أَرَاهُ إِلَّا قَدْ عُرِضَ لِي» قَالَتْ: كَلَّا، وَاللَّهِ مَا كَانَ رَبِّكَ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِكَ، وَمَا أَتَيْتُ فَاحِشَةً قَطُّ. قَالَ: فَأَتَتْ خَدِيجَةَ وَرَقَةَ، فَأَخْبَرَتْهُ الْخَبْرَ، قَالَ: لَنْ كُنْتُ صَادِقَةً إِنَّ زَوْجَكَ لَنَبِيٍّ، وَلَيَلْقَيْنِ مِنْ أُمَّتِهِ شِدَّةً، وَلَنْ أَدْرَكَتَهُ لِأَوْمَنْ بِهِ. قَالَ: ثُمَّ أَبْطَأَ عَلَيْهِ جَبْرِيلُ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ مَا أَرَى رَبِّكَ إِلَّا قَدْ قَلَاكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

١٢- حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعِيدٍ الْجَوْهَرِيُّ، قَالَ: ثَنَا سُفْيَانُ بْنُ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ: قَالَ سُفْيَانُ: حَفِظَهُ لَنَا ابْنُ إِسْحَاقَ: إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ أَنْزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

١٣- حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ بَشَرَ بْنِ الْحَكَمِ التَّيْسَابُورِيُّ، قَالَ ثَنَا سُفْيَانُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ

إسحاق، عن الزُّهري عن عُرْوَةَ، عن عائشة: أَنَّ أَوَّلَ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

١٤- حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُثَنَّى، قَالَ ثنا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، قَالَ: أَوَّلَ سُورَةٍ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

١٥- قَالَ: ثنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، قَالَ ثنا شُعْبَةُ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ يَقُولُ: فَذَكَرَ نَحْوَهُ.

١٦- حَدَّثَنَا خَلَادُ بْنُ أَسْلَمٍ: قَالَ أَخْبَرَنَا النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ، قَالَ: ثنا قُرَّةٌ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو رَجَاءٍ الْعُطَارْدِيُّ، قَالَ: كُنَّا فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ، وَمُقَرَّنَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ. كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ بَيْنَ بُرْدَيْنِ أَيْضِينَ، قَالَ أَبُو رَجَاءٍ: عَنْهُ أَخَذْتُ هَذِهِ السُّورَةَ: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وَكَانَتْ أَوَّلَ سُورَةٍ نَزَلَتْ عَلَى مُحَمَّدٍ.

١٧- حَدَّثَنَا ابْنُ حَمِيدٍ، قَالَ: ثنا سَلَمَةُ، قَالَ: ثنا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: أَوَّلَ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

١٨- حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: ثنا يَحْيَى وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، قَالَا: ثنا سُفْيَانُ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وَزَادَ ابْنُ مَهْدِيٍّ ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾.

١٩- حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، قَالَ: ثنا وَكِيعٌ عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ يَقُولُ: أَوَّلَ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

٢٠- قَالَ: ثنا وَكِيعٌ عَنْ قُرَّةَ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْعُطَارْدِيِّ، قَالَ: إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى أَبِي مُوسَى وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي مَسْجِدِ الْبَصْرَةِ وَعَلَيْهِ بُرْدَانُ أَيْبُضَانَ، فَأَنَا أَخَذْتُ مِنْهُ: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ وَهِيَ أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

٢١- قَالَ ثنا وَكِيعٌ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: إِنَّ أَوَّلَ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ ثُمَّ ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾.

٢٢- حَدَّثَنَا ابْنُ حَمِيدٍ، قَالَ: ثنا مِهْرَانُ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ مِثْلَهُ.

آخر آية نزلت من القرآن

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا...﴾ البقرة / ٢٧٨-٢٨٠.

قد قيل: إن هذه الآيات في أحكام الربا، هن آخر آيات نزلت من القرآن.

٢٣- حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا ابن أبي عدي عن سعيد، وحدثني يعقوب، قال:

ثنا ابن علكية عن سعيد، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، أن عمر الخطاب قال: كان آخر ما نزل من القرآن آية الربا، وإن نبي الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها، فدعوا الربا والزينة.

٢٤- حدثنا حميد بن مسعدة، قال: ثنا بشر بن المفضل، قال داود عن عامر: أن

عمر رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنه والله ما أدري، لعلنا نأمركم بأمر لا يصلح لكم، وما أدري لعلنا ننهاكم عن أمر يصلح لكم، وإنه كان من آخر آيات القرآن تنزيلاً لآيات الربا، فتوفي رسول الله ﷺ قبل أن يبينه لنا، فدعوا ما يرييكم إلى ما لا يرييكم.

٢٥- حدثني أبو زيد عمر بن شبة، قال: ثنا قبيصة، قال: ثنا سفيان الثوري عن عاصم،

عن الأحول، عن الشعبي، عن ابن عباس، قال: آخر ما أنزل على رسول الله ﷺ آية الربا، وإننا لنأمر بالشئ لا ندري لعل به بأساً، وننهي عن الشئ لعله ليس به بأس. (٣: ١١٤)

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ البقرة / ٢٨١.

وقيل: هذه الآية أيضاً آخر آية نزلت من القرآن،

٢٦- حدثنا ابن حميد، قال: ثنا أبو ثملة، قال: ثنا الحسين بن واقد عن يزيد النحوي، عن

عكرمة عن ابن عباس، قال: آخر ما نزل على النبي ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.

٢٧- حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عبي، قال: ثني أبي عن أبيه، عن

ابن عباس: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾... الآية، فهي آخر آية من الكتاب أنزلت.

٢٨- حدثني محمد بن عمارة، قال: ثنا إسماعيل بن سهل بن عامر، قال: ثنا مالك بن

مغول عن عطية، قال: آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٢٩- حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا أبي عن إسماعيل بن أبي خالد، عن السدي، قال:

آخر آية نزلت ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.

٣٠- حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، قَالَ: ثنا أَبُو ثُمَيْلَةَ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ سَلَمَانَ، عَنْ الصَّحَّاحِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَحَجَّاجٍ، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: آخر آية نزلت من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. قال ابن جُرَيْجٍ: يقولون: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ مكث بعدها تسع ليالٍ، وبدا يوم السبت، ومات يوم الإثنين. (١١٤:٣-١١٥)

آخر سورة نزلت من القرآن

«سورة البراءة»

٣١- حَدَّثَنِي بِذَلِكَ يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ عَنْ أَبِي بَشْرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُ يَدْلُّ عَلَى موافقته قول سعيد هذا، وذلك ما حدثنا به مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، وَسَهْلُ بْنُ يَوْسُفَ، قَالُوا: حَدَّثَنَا عَوْفٌ، قَالَ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ الْفَارِسِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى بَرَاءَةٍ، وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ووضعتوها في السبع الطول؟ ما حملكم على ذلك؟ قال عُثْمَانُ: كان رسول الله ﷺ ممَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمان، وهو تنزل عليه السُّور ذوات العدد. فكان إذا نزل عليه الشَّيء دعا ببعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآيات في السُّورة التي يذكر فيها كذا وكذا. وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت بَرَاءَةٌ من القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها. فظننت أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها. فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ووضعتهما في السبع الطول. (٤٥:١)

و نصّه أيضًا في تاريخه ١

[ابتداء الوحي وأول ما نزل]

قال أبو جعفر: قد ذكرنا قبل بعض الأخبار الواردة، عن أول وقت إتيان مجي جبريل، نبينا محمدًا ﷺ بالوحي من الله، وكم كان سنّ النبي ﷺ يومئذ؟ ونذكر الآن صفة ابتداء جبريل إياه بالمصير إليه وظهوره له بتنزيل ربّه.

٣٢- فحدّثني أحمد بن عثمان المعروف بأبي الجوّاء، قال: حدّثنا وهب بن جرير، قال: حدّثنا أبي قال: سمعت الثّعمان بن راشد، يحدث عن الزّهرّي... [وذكر كما تقدّم عنه أنفًا، عن تفسيره، الرّقم ٩].

٣٣- حدّثني يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب قال: أخبرني يونس، عن ابن شهاب قال: حدّثني عروة، أنّ عائشة أخبرته، ثمّ ذكر نحوه غير أنّه لم يقل ثمّ كان من أول ما أنزل عليّ من القرآن إلى آخره.

٣٤- حدّثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشّوارب، قال حدّثنا عبد الواحد بن زياد قال: حدّثنا سليمان الشّيبانيّ قال: حدّثنا عبد الله بن شدّاد... [وذكر كما تقدّم عنه أنفًا عن تفسيره، الرّقم ١١].

٣٥- حدّثنا ابن حميد قال: حدّثنا سلّمة عن محمد بن إسحاق قال: حدّثني وهب بن كيسان مولى آل الزّبير قال سمعت عبد الله بن الزّبير وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة اللّيثي: حدّثنا يا عبيد كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النّبوة حين جاء جبريل ﷺ فقال عبيد: وأنا حاضر يحدث عبد الله بن الزّبير ومن عنده من النّاس كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كلّ سنة شهرًا وكان ذلك ممّا تحنّث به قريش في الجاهليّة والتّحنّث التّبرّر.

٣٦- وقال أبو طالب: ورأى ليّزقي في حراءٍ ونازل. فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشّهر من كلّ سنة يطعم من جاء من المساكين، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره

ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعة، أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله عز وجل فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها وذلك في شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره معه أهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله فقال رسول الله ﷺ: فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج، فيه كتاب فقال: (اقرأ) فقلت: ما أقرأ، فغتنني حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: (اقرأ) فقلت: ماذا أقرأ وما أقول ذلك: إلا اقتداء منه أن يعود إلى بمثل ما صنع بي قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - إِلَى قَوْلِهِ: - عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ قال فقرأته قال: ثم انتهى، ثم انصرف عني، وهبت من نومي، وكأنما كتب في قلبي كتاباً. قال: ولم يكن من خلق الله أحداً أبغض إلي من شاعر أو مجنون كنت لأطيق أن أنظر إليهما، قال: قلت: إن الأبعد (يعني نفسه لشاعر أو مجنون) لا تحدث بها عني قریش أبداً لأعمدن إلى حالق من الجبل فلا طرحن نفسي منه فلا تقتلها فلاستريحن قال: فخرجت أريد ذلك حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد! أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قديمه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل قال: فوقفت أنظر إليه، وشغلني ذلك عما أردت، فما أتقدم وما تأخر وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي ولا أرجع ورائي. حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني، ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة، فجلست إلى فخذهامضيماً فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلي. قال: قلت لها: إن الأبعد لشاعر أو مجنون فقالت: أعيدك بالله من ذلك يا أبا القاسم، ما كان الله ليصنع ذلك بك مع ما أعلم منك من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وحسن خلقك، وصلة رحمك، وما ذاك يا بن عم؟ لعلك رأيت شيئاً؟ قال: فقلت لها: نعم، ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت: أبشر يا بن عم وأثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه

الأُمَّة، ثُمَّ قَامَتْ، فَجُمِعَتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا، ثُمَّ انْطَلَقَتْ إِلَى وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّهَا، وَكَانَ وَرَقَةُ قَدْ تَنَصَّرَ وَقَرَأَ الْكِتَابَ وَسَمِعَ مِنْ أَهْلِ التَّوَارَةِ وَالْإِنْجِيلِ، فَأَخْبَرْتَهُ بِمَا أَخْبَرَهَا بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ رَأَى وَسَمِعَ، فَقَالَ وَرَقَةُ: قُدُّوسٌ وَقُدُّوسٌ وَالَّذِي نَفْسُ وَرَقَةَ بِيَدِهِ لَنْ كُنْتُ صَدَقْتَنِي يَا خَدِيجَةُ لَقَدْ جَاءَهُ النَّامُوسُ الْأَكْبَرُ يَعْنِي بِالنَّامُوسِ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى وَإِنَّهُ لَنَبِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَقُولِي لَهُ فَلْيَثْبِتْ فَارْجِعْ خَدِيجَةُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتَهُ بِقَوْلِ وَرَقَةَ فَسَهَّلَ ذَلِكَ عَلَيْهِ بَعْضُ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْهَمِّ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَوَارَهُ وَانْصَرَفَ، صَنَعَ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ، بَدَأَ بِالْكَعْبَةِ فَطَافَ بِهَا فَلَقِيَهُ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي أَخْبِرْنِي بِمَا رَأَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: وَرَقَةُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكَ لَنَبِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَقَدْ جَاءَكَ النَّامُوسُ الْأَكْبَرُ الَّذِي جَاءَ إِلَى مُوسَى وَلِتُكَذِّبَنَّهُ وَلِتُؤْذِنَنَّهُ وَلِتُخْرِجَنَّهُ وَلِتُقَاتِلَنَّهُ، وَلَنْ أَنَا أَدْرِكُ ذَلِكَ، لِأَنْصَرِنَ اللَّهُ نَصْرًا يَعْلَمُهُ ثُمَّ أَدْنَى رَأْسِهِ فَقَبِلَ يَافُوخَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَنْزِلِهِ وَقَدْ زَادَهُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ وَرَقَةَ ثِبَاتًا وَخَفَّفَ عَنْهُ بَعْضُ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْهَمِّ.

٣٧- فَحَدَّثَنَا ابْنُ حَمِيدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا سَلَمَةُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي حَكِيمٍ مَوْلَى آلِ الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ خَدِيجَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا يَثْبِتُهُ فِيمَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ نُبُوَّتِهِ يَا ابْنَ عَمٍّ! أَسْتَطِيعُ أَنْ تُخْبِرَنِي بِصَاحِبِكَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ إِذَا جَاءَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَتْ: فَإِذَا جَاءَكَ فَأَخْبِرْنِي بِهِ، فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا كَانَ يَأْتِيهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَخَدِيجَةُ: يَا خَدِيجَةُ! هَذَا جَبْرِيلُ قَدْ جَاءَنِي فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَقَمِ يَا ابْنَ عَمٍّ فَاجْلِسْ عَلَى فَخْذِي الْيُسْرَى، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَلَسَ عَلَيْهَا قَالَتْ: هَلْ تَرَاهُ؟ قَالَ نَعَمْ. قَالَتْ: فَتَحَوَّلْ، فَأَقْعِدْ عَلَى فَخْذِي الْيُمْنَى، فَتَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَلَسَ عَلَيْهَا فَقَالَتْ: هَلْ تَرَاهُ قَالَ: نَعَمْ قَالَتْ: فَتَحَوَّلْ، فَاجْلِسْ فِي حِجْرِي فَتَحَوَّلَ فَجَلَسَ فِي حِجْرِهَا قَالَتْ: هَلْ تَرَاهُ قَالَ: نَعَمْ، فَتَحَسَّرتْ فَأَلْقَتْ خِمَارَهَا، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي حِجْرِهَا، ثُمَّ قَالَتْ: هَلْ تَرَاهُ قَالَ: لَا فَقَالَتْ: يَا ابْنَ عَمٍّ أَثْبِتْ وَأُبَشِّرْ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَلِكٌ وَمَا هُوَ بِشَيْطَانٍ.

٣٨- فَحَدَّثَنَا ابْنُ حَمِيدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَلَمَةُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثْتُ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ الْحُسَيْنِ فَقَالَ: قَدْ سَمِعْتُ أُمِّي فَاطِمَةَ بِنْتَ الْحُسَيْنِ تَحَدَّثُ

بهذا الحديث عن خديجة إلا أنني قد سمعتها، تقول: أدخلت رسول الله ﷺ بينها وبين درعها فذهب عند ذلك جبريل فقالت لرسول الله ﷺ إن هذا الملك و ما هو بشيطان.

٣٩- حدثنا ابن المثنى قال: حدثنا عثمان بن عمر بن فارس، قال: حدثنا علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير... [و ذكر كما تقدم عنه أنفاً عن تفسيره الرقم ٣].

٤٠- حدثنا أبو كريب، قال حدثنا وكيع عن علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير... [و ذكر كما تقدم عن البخاري، الرقم ٣].

٤١- وحدثت عن هشام بن محمد، قال: أتى جبريل رسول الله ﷺ، أول ما أتاه ليلة السبت و ليلة الأحد، ثم ظهر له برسالة الله عز وجل يوم الاثنين، فعلمه الوضوء و علمه الصلاة و علمه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ و كان لرسول الله ﷺ يوم الاثنين يوم أوحى إليه أربعون سنة.

٤٢- حدثني أحمد بن محمد بن حبيب الطوسي، قال: حدثنا أبو داود الطيالسي، قال: أخبرنا جعفر بن عبد الله بن عثمان القرشي، قال: أخبرني عمر بن عروة بن الزبير، قال: سمعت عروة بن الزبير يحدث عن أبي ذر الغفاري، قال: قلت: يا رسول الله كيف علمت أنك نبي أول ما علمت حتى علمت ذلك واستيقنت؟ قال يا أباذر: أتاني ملكان و أنا ببعض بطحاء مكة، فوقع أحدهما في الأرض والآخر بين السماء والأرض فقال أحدهما لصاحبه أهو هو؟ قال: هو هو قال: فزنه برجل، فوزنت برجل، فرجحته، ثم قال: زنه بعشرة فوزنتي بألف فرجحتهم، ثم قال زنه بمائة فوزنتي فرجحتهم، ثم قال: زنه بألف فوزنتي بألف فرجحتهم، فجعلوا ينتثرون علي من كفة الميزان قال فقال أحدهما للآخر: لو وزنته بأثمنه رجحها، ثم قال أحدهما لصاحبه: شق بطنه فشق بطني، ثم قال أحدهما: أخرج قلبه أو قال شق قلبه، فشق قلبي، فأخرج منه مغز الشيطان، و علق الدم فطرحها، ثم قال أحدهما للآخر: اغسل بطنه غسل الإناء و اغسل قلبه غسل الإناء أو اغسل قلبه غسل الملاءة ثم دعا بالسكينة كأنها وجه هرة بيضاء فأدخلت قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خبط بطنه فخاط بطني، وجعلا الخاتم بين كتفي فما هو إلا أن ولّيا عني فكأنما أعان الأمر معانية.

٤٣- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ ثَوْرٍ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ... [وذكر كما تقدّم آنفاً عن تفسيره، الرّقم ٥].

٤٤- حَدَّثَنِي يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي يُونُسُ... أَنَّ جَابِرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ... [وذكر كما تقدّم عن البخاريّ، الرّقم ٧].

قال أبو جعفر: فلَمَّا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ نَبِيَّهٖ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَقُومَ بِإِنذَارِ قَوْمِهِ عِقَابَ اللَّهِ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مُقِيمِينَ مِنْ كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ وَعِبَادَتِهِمُ الْآلِهَةِ وَالْأَصْنَامَ، دُونَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَرَزَقَهُمْ وَأَنْ يَحْدِثَ نِعْمَةً رَبِّهِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^١ وَذَلِكَ فِيمَا زَعَمَ ابْنُ إِسْحَاقَ النَّبَوَّةَ.

٤٥- حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا سَلَمَةُ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أَيُّ مَا جَاءَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ نِعْمَتِهِ وَكَرَامَتِهِ مِنَ النَّبَوَّةِ فَحَدِّثْ أَذْكُرَهَا وَادْعَ إِلَيْهَا، قَالَ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ عَلَى الْعِبَادِ بِهِ مِنَ النَّبَوَّةِ سِرًّا إِلَى مَنْ يَطْمِئِنُّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَدَّقَهُ وَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ فِيمَا ذَكَرَ، زَوْجَتُهُ خَدِيجَةُ رَحِمَهَا اللَّهُ.

٤٦- حَدَّثَنِي الْحَارِثُ قَا: حَدَّثَنَا ابْنُ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ الْوَاقِدِيُّ أَصْحَابُنَا مُجْمَعُونَ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ اسْتَجَابَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ رَحِمَهَا اللَّهُ.

قال أبو جعفر: ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ فَرَضَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِ - بَعْدَ الْإِقْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ وَالْبِرَاءَةِ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ وَخَلْعِ الْأَنْدَادِ - الصَّلَاةُ فِيمَا ذَكَرَ.

٤٧- حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَلَمَةُ قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الصَّلَاةَ حِينَ افْتَرَضَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جَبْرِيلُ وَهُوَ بِأَعْلَى مَكَّةَ فَهَمَزَلَهُ بِعَقْبِهِ فِي نَاحِيَةِ الْوَادِي فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ عَيْنٌ فَتَوَضَّأَ جَبْرِيلُ ﷺ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْظُرُ إِلَيْهِ لِيرِيهِ كَيْفَ الطَّهُّورُ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ تَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا رَأَى جَبْرِيلُ ﷺ تَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ جَبْرِيلُ ﷺ فَصَلَّى النَّبِيَّ ﷺ بِصَلَاتِهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ جَبْرِيلُ ﷺ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَدِيجَةُ فَتَوَضَّأَ لَهَا يَرِيهَا كَيْفَ الطَّهُّورُ لِلصَّلَاةِ كَمَا أَرَاهُ جَبْرِيلُ ﷺ فَتَوَضَّأَتْ كَمَا تَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ صَلَّى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا صَلَّى بِهِ جَبْرِيلُ ﷺ فَصَلَّتْ بِصَلَاتِهِ.

٤٨- حدّثنا ابن حميد قال: حدّثنا هارون بن المغيرة و حكام بن سلم عن عبّسة عن أبي هاشم الواسطي عن ميمون بن سيّاه عن أنس بن مالك قال: لما كان حين نبيّ الله ﷺ وكان ينام حول الكعبة وكانت قُريش تنام حولها، فأتاه ملكان جبريل وميكائيل فقالا: بأبّهم أمرنا فقالا: أمرنا بسيدّهم، ثمّ ذهبّا، ثمّ جاء من القبلة وهم ثلاثة ألفوه وهو نائم، فقبلوه لظهره، وشقّوا بطنه، ثمّ جاؤا بماء من ماء زمزم فغسلوا ما كان في بطنه من شكّ أو شركٍ أو جاهليّة أو ضلالة ثمّ جاؤا بطست من ذهب ملىء إيمانًا وحكمةً، ثمّ عرج به إلى السّماء الدّنيا فاستفتح جبريل فقالوا: من هذا؟ فقال: جبريل، فقالوا من معك فقال: محمّد، قالوا: وقد بُعث؟ قال: نعم قالوا: مرحبًا فدعوا له في دعائهم، فلمّا دخل فإذا هو برجل جسيم وسيم فقال: من هذا يا جبريل؟ فقال: هذا أبوك آدم ثمّ أتوا به إلى السّماء الثّانية فاستفتح جبريل فقيل له: مثل ذلك وقالوا: في السّموات كلّها كما قال. وقيل له: في السّماء الدّنيا. فلمّا دخل إذا برجلين فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: يحيى وعيسى ابنا الخالة ثمّ أتى به السّماء الثّالثة فلمّا دخل إذا هو برجل فقال، من هذه يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف فضّل بالحسن على النّاس، كما فضّل القمر ليلة البدر على الكواكب. ثمّ أتى به السّماء الرّابعة فإذا هو برجل فقال: من هذا يا جبريل؟ فقال: هذا إدريس، ثمّ قرأ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾^١ ثمّ أتى به السّماء الخامسة فإذا هو برجل فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا هارون ثمّ أتى به السّماء السّادسة فإذا هو برجل فقال: من هذا يا جبريل؟ فقال: فقال: هذا موسى ثمّ أتى به السّماء السّابعة فإذا هو برجل فقال: من هذا يا جبريل قال: هذا أبوك إبراهيم، ثمّ انطلق إلى الجنّة فإذا هو بنهر أشدّ بياضًا من اللّبن، وأحلى من العسل بجنبتيه قباب الدّرّ، فقال: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربّك وهذه مسكنك قال وأخذ جبريل بيده من تربته فإذا هو مسك أدقّر ثمّ خرج إلى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى وهي سِدْرَةُ نَبَقٍ أعظمها أمثال الجرار وأصغرها أمثال البيّض فدنا ربّك عزّ وجلّ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^٢ فجعل يتغشّى السّدرة من دُور ربّها تبارك وتعالى أمثال الدّرّ والياقوت والزّبرجد واللؤلؤ ألوان ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ وفهّمه وعلمّه وفرض عليه

خمسین صلاة، فمرّ على موسى فقال: ما فَرَضَ على أُمَّتِكَ فقال خمسین صلاة قال: ارجع إلى ربِّكَ فَسَلِّ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ أضعفُ الأُمَمِ، قوّة و أقلّها عمراً و ذكر ما لقي من بني إسرائيل، فرجع فوضع عنه عشرًا، ثمّ مرّ على موسى فقال: ارجع إلى ربِّكَ فَسَلِّ التَّخْفِيفَ كذلک، حتّى جعلها خمسًا، قال ارجع إلى ربِّكَ فَسَلِّ التَّخْفِيفَ فقال: لست برافع غیر عاصیک، و قدف في قلبه أن لا يرجع فقال الله عزّوجلّ: لا یبدّل کلامی ولا یردّ قضائي و فرضي، و خفّف عن أُمَّتِي الصَّلَاةَ لِعُشْرِ. قال: أنس و ما وجدت ريحًا قطّ، ولا ريح عروس قطّ أطيب ريحًا من جلد رسول الله ﷺ ألزقت جِلدي بجلده و سَمَمْتُهُ. قال أبو جعفر: ثمّ اختلف السلف فيمن اتّبع رسول الله ﷺ و آمن به و صدّقه على ما جاء به من عند الله من الحقّ بعد زوجته خديجة بنت خُوَيْلِد و صلّى معه فقال بعضهم: كان أوّل ذکر آمن برسول الله ﷺ و صلّى معه و صدّقه بما جاءه من عند الله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

الفصل السابع

نص القمّي (م: ٣٢٨) في «كتاب الأنبياء»

[بدء الوحي]

١- إن النبي ﷺ لما أتى له سبع و ثلاثون سنة كان يرى في نومه كأنّ آتياً أتاه فيقول: يا رسول الله، فينكر ذلك فلما طال عليه الأمر كان يوماً بين الجبال يرمى غنماً لأبي طالب، فنظر إلى شخص يقول: يا رسول الله، فقال له: من أنت؟ قال: أنا جبرئيل، أرسلني الله إليك ليتخذك رسولاً، فأخبر النبي ﷺ خديجة بذلك، فقالت: يا محمد أرجو أن يكون كذلك، فنزل عليه جبرئيل وأنزل عليه ماءً من السماء وعلّمه الوضوء و الركوع و السجود، فلما تمّ له أربعون سنة علّمه حدود الصلاة، و لم ينزل عليه أوقاتها، فكان يصلي ركعتين في كل وقت. [ونقل أيضاً نحو تلك الرواية بزيادة وهي:]

٢- إن النبي ﷺ لما أتى له سبع و ثلاثون سنة، كان يرى في نومه كأنّ آتياً أتاه فيقول: يا رسول الله، وكان بين الجبال يرمى غنماً، فنظر إلى شخص يقول له: يا رسول الله! فقال له: من أنت؟ قال أنا جبرئيل، أرسلني الله إليك ليتخذك رسولاً وكان رسول الله ﷺ يكتّم ذلك فأنزل جبرئيل بماء من السماء، فقال: يا محمد! فتوضأ، فعلمه جبرئيل الوضوء على الوجه واليدين من المرفق ومسح الرأس والرجلين إلى الكعبين، وعلّمه الركوع والسجود فدخل عليّ ﷺ إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي - هذا لما تمّ له ﷺ أربعون سنة - فلما نظر إليه يصلي قال: يا أبا القاسم ما هذا؟ قال: هذه الصلاة التي أمرني الله بها، فدعاه إلى الإسلام فأسلم، وصلى معه، وأسلمت خديجة، فكان لا يصلي إلا رسول الله ﷺ، و عليّ ﷺ وخديجة ﷺ خلفه، فلما أتى لذلك أيام دخل أبو طالب إلى منزل رسول الله ﷺ ومعه جعفر، فنظر إلى رسول الله ﷺ وعليّ بجنبه يصليان، فقال لجعفر: يا جعفر صلّ

جناح ابن عمك، فوقف جعفر بن أبي طالب من الجانب الآخر، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بعض أسواق العرب فرأى زيداً فاشتره لخديجة ووجده غلاماً كَيِّساً، فلما تزوجها وهبته له، فلما نُبئ رسول الله ﷺ أسلم زيد أيضاً، فكان يصلي خلف رسول الله ﷺ علي وجعفر وزيد وخديجة.

٣- أبو مَيْسِرَةَ وَبُرَيْدَةُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا انْطَلَقَ بَارِزاً سَمِعَ صَوْتاً: يَا مُحَمَّدُ، فَيَأْتِي خَدِيجَةَ وَيَقُولُ: يَا خَدِيجَةُ قَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ خَالِطَ عَقْلِي شَيْءٌ، إِنِّي إِذَا خَلَوْتُ أَسْمَعُ صَوْتًا وَأَرَى نُورًا.

٤- مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَعَائِشَةُ: أَوَّلُ مَا بَدَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّادِقَةُ، وَكَانَ يَرَى الرَّؤْيَا فَتَأْتِيهِ مِثْلُ فَلَقِ الصَّبْحِ، ثُمَّ حَبَّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءَ فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءَ، فَسَمِعَ نَدَاءً يَا مُحَمَّدُ، فَغَشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الثَّانِي سَمِعَ مِثْلَهُ نَدَاءً، فَجَرَعَ إِلَى خَدِيجَةَ وَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَوَاللَّهِ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى عَقْلِي، فَقَالَتْ: كَلَّا وَاللَّهِ لَا يَخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَتَصِلَ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ^١، وَتَكْسِبُ الْمُعْدَمَ^٢، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينَ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَاِنْطَلَقَتْ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا وَاللَّهِ النَّامُوسُ^٣ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى وَعِيسَى ﷺ، وَإِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ فِي مَكَّةَ رَسُولًا اسْمُهُ مُحَمَّدٌ وَقَدْ قَرَّبَ وَقْتَهُ، وَلَسْتُ أَرَى فِي النَّاسِ رَجُلًا أَفْضَلَ مِنْهُ، فَخَرَجَ ﷺ إِلَى حِرَاءَ فَرَأَى كَرْسِيًّا مِنْ يَاقُوتَةِ حَمْرَاءَ، مِرْقَاةً مِنْ زَبَرْجَدٍ، مِرْقَاةً مِنْ لَوْلُؤٍ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ غَشِيَ عَلَيْهِ، فَقَالَ وَرَقَةُ: يَا خَدِيجَةُ إِذَا أَتَتْهُ الْحَالَةُ فَكَاشِفِي عَنْ رَأْسِكَ، فَإِنْ خَرَجَ فَهُوَ مَلِكٌ، وَإِنْ بَقِيَ فَهُوَ شَيْطَانٌ، فَتَزَعْتَ خِمَارَهَا فَخَرَجَ الْجَانِي، فَلَمَّا اخْتَمَرَتْ عَادَ؛ فَسَأَلَهُ وَرَقَةُ عَنْ صِفَةِ الْجَانِي، فَلَمَّا حَكَاهُ قَامَ وَقَبِلَ رَأْسَهُ وَقَالَ: ذَلِكَ النَّامُوسُ الْأَكْبَرُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُوسَى وَعِيسَى ﷺ، ثُمَّ قَالَ: أَبْشُرْ فَإِنَّكَ أَنْتَ النَّبِيُّ الَّذِي بُشِّرَ بِهِ مُوسَى وَعِيسَى ﷺ، وَإِنَّكَ نَبِيٌّ مَرْسَلٌ، سَتُؤْمَرُ بِالْجِهَادِ، وَتُوجَّهَ نَحْوَهَا، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

فَإِنَّ يَكُ حَقًّا يَا خَدِيجَةُ فَاعْلَمِي حَدِيثَكَ إِبَانًا فَأَحْمَدُ مُرْسَلُ

١ - الكل: من لا ولد له ولا والد و من يكون عبثاً.

٢ - المعدم: الفقير الذي لا مال له.

٣ - الناموس: الوحي، جبرئيل عليه السلام.

و جبريل يأتيه و ميكال معهما
يفوز به من فاز عزًّا لدينه
فريقان منهم: فرقة في جنانه
من الله وحي يشرح الصدر مُنَزَّلُ
و يشقى به الغاوي الشقيّ المُضَلَّلُ
و أخرى بأغلال الجحيم تُغَلَّلُ
و من قصيدة له^١

يا للرجال لصرف الدهر و القدر
حتّى خديجة تدعوني لأخبرها
فخبرتني بأمر قد سمعت به
بأنّ أحمد يأتيه فيخبره
و ما لشيء قضاء الله من غير
و ما لنا بخفي العلم من خبر
فيما مضى من قديم الناس و العصر
جبريل أنّك مبعوث إلى البشر

و من قصيدة له

فخبرنا عن كلّ خير بعلمه
و إنّ ابن عبد الله أحمد مرسل
و ظنّي به أن سوف يبعث صادقاً
و موسى و إبراهيم حتّى يرى له
و للحق أبواب لهنّ مفاتيح
إلى كلّ من ضمت عليه الأباطيح
كما أرسل العبدان نوح و صالح
بهاء و منشور من الذكر واضح

٥- وروي أنّه نزل جبرئيل على جياذ^٢ أصفر و النبي ﷺ بين عليّ عليه السلام و جعفر، فجلس جبرئيل عند رأسه، و ميكائيل عند رجله، و لم ينهأ إعظاماً له، فقال ميكائيل: إلى أيّهم بعثت؟ قال: إلى الأوسط، فلمّا انتبه أدّى إليه جبرئيل الرسالة عن الله تعالى، فلمّا نهض النبي ﷺ ليلحق بقومه فما مرّ بشجرة و لا مدرّة إلّا سلّمّت عليه و هنّأته، ثمّ كان جبرئيل يأتيه و لا يدنو منه إلّا بعد أن يستأذن عليه. فأثاه يوماً و هو بأعلى مكة فغمر بعقبه بناحية الوادي فانفجر عين فتوصّأ جبرئيل، و تطهر الرسول، ثمّ صلى الظهر و هي أوّل صلاة فرضها الله عزّ و جلّ؛ و صلى أمير المؤمنين عليه السلام مع النبي ﷺ، و رجع رسول الله ﷺ من يومه إلى خديجة فأخبرها، فتوصّأت و صلّت صلاة العصر من ذلك اليوم.

٦- وروي أنّ جبرئيل أخرج قطعة ديباج فيها خطّ فقال: اقرأ، قلت: كيف أقرأ و لست

١ - و القصيدة طويلة أخرجه الحاكم في المستدرک ٢: ٦٩٦، و فيه: يخفى الغيب.

٢ - كذا في النسخ، و الصحيح هو (أجباد)، و لعلّه مصحف (جواد)، و الأصفر صفة له.

بقارى؟ إلى ثلاث مرّات، فقال في المرّة الرابعة: ﴿أَفَرَأَيْتَ بِاسْمِ رَبِّكَ - إِلَى قَوْلِهِ - مَا لَمْ يَغْلَمْ﴾، ثم أنزل الله تعالى جبرئيل وميكائيل عليهما السلام ومع كلّ واحد منهما سبعون ألف ملك، وأتى بالكرسيّ ووضع تاجاً على رأس محمّد عليه السلام وأعطى لواء الحمد بيده، فقال: اصعد عليه واحمد الله، فلمّا نزل عن الكرسيّ توجه إلى خديجة، فكان كلّ شيء يسجد له ويقول بلسان فصيح: السّلام عليك يا نبيّ الله، فلمّا دخل الدّار صارت الدّار منورة، فقالت خديجة: وما هذا النّور؟ قال هذا نور النّبوة، قولي: لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله، فقالت: طال ما قد عرفت ذلك، ثم أسلمت، فقال: يا خديجة إنّي لأجد برداً، فدرّثت عليه فنام فنودي: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾ الآية، فقام وجعل إصبعة في أذنه وقال: الله أكبر، الله أكبر، فكان كلّ موجود يسمعه يوافقه.

٧- وروي أنّه لما نزل قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^١ صعد رسول الله ذات يوم الصّفا فقال: يا صباحاه^٢ فاجتمعت إليه قريش فقالوا: مالك؟ قال: رأيتمكم إن أخبركم أنّ العدوّ مصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدّقونني؟ قالوا: بلى، قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبّاً لك ألهذا دعوتنا؟! فنزلت سورة تبتّ.

فتّادة: إنّّه خطب ثم قال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَلَوْ كُنْتَ كَاذِبًا لَمَا كَذَبْتُمْ، وَاللّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ حَقًّا خَاصَّةً، وَإِلَى النَّاسِ عَامَّةً وَاللّهِ لَنَمُوتَنَّ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَنَبْعَثَنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ، وَلَنَحْاسِبَنَّ كَمَا تَعْمَلُونَ، وَلَنُجْزِيَنَّ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا، وَبِالسُّوءِ سُوءًا، وَإِنَّهَا الْجَنَّةُ أَبَدًا، وَالنَّارُ أَبَدًا، وَإِنِّكُمْ أَوَّلُ مَنْ أَنْذَرْتُمْ، ثُمَّ فُتِرَ الْوَحْيُ فَجَزَعَ لَذَلِكَ النَّبِيُّ عليه السلام جَزَعًا شَدِيدًا، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: لَقَدْ قَلَكَ^٣ رَبِّكَ، فَنَزَلَ

١ - الشّراء ٢١٤.

٢ - قال الجزريّ في النهاية ٢٧١:٢: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد على الصّفا وقال: يا صباحاه، هذه كلمة يقولها المستغيث، وأصلها إذا صاحوا للغارة، لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصّباح، ويسمّون يوم الغارة يوم الصّباح، فكان القائل: يا صباحاه يقول: قد غشنا العدوّ، وقيل: إنّ المتقاتلين كانوا إذا جاء الليل يرجعون عن القتال، فإذا عاد النّهار عاودوه، فكأنّه يريد بقوله: يا صباحاه، قد جاء وقت الصّباح فتأهبوا للقتال.

٣ - لم نظفر في غير ذلك الطّريق على أن يسند ذلك إلى خديجة عليها السلام، والمذكور في مجمع البيان وغيره في نزول الآية إسناد ذلك القول إلى المشركين، وفي بعض الروايات إلى أمّ جميل، امرأة أبي لهب، والمعلوم من حال خديجة أنّها

سورة الضُّحَى، فقال لجبرئيل: ما يمنعك أن تزورنا في كلّ يوم؟ فنزل: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ - إلى قوله - نَسِيًّا^١.

(عنه مناقب آل أبي طالب ١: ٧١-٧٤. بحار الأنوار ١٨: ١٨٤ و ١٩٣-١٩٨)

ونصّه أيضًا في «تفسيره»

٨- نزلت النبوة على رسول الله ﷺ يوم الإثنين، وأسلم عليّ عليه السلام يوم الثلاثاء، ثمّ أسلمت خديجة بنت خويلد زوجة النبي ﷺ، ثمّ دخل أبو طالب إلى النبي ﷺ وهو يصلي وعليّ جنبه وكان مع أبي طالب جعفر، فقال له أبو طالب: صلّ جناح ابن عمك، فوقف جعفر على يسار رسول الله ﷺ، فبدر رسول الله ﷺ من بينهما فكان يصلي رسول الله ﷺ وعليّ وجعفر وزيد بن حارثة وخديجة، إلى أن أنزل الله عليه: ﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ...﴾^٢.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا...﴾ الشورى / ٥١-٥٢.

٩- قال [الإمام العسكري عليه السلام] وحي مشافهة وحي إلهام، وهو الذي يقع في القلب ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ كما كلم الله نبيّه ﷺ، وكما كلم الله موسى عليه السلام من النار ﴿أَوْ يُوسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ قال: وحي مشافهة يعني إلى الناس، ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ قال: روح القدس، هي التي قال الصادق عليه السلام في قوله: ﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^٣ قال: هو ملك أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله، وهو مع الأئمة. (٢٧٥: ٢)

١٠- أبي، عن أحمد بن النضر، عن عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال جبرئيل لرسول الله ﷺ في وصف إسرئيل: هذا حاجب الرّب وأقرب خلق الله منه، واللّوح بين عينيه من ياقوتة حمراء، فإذا تكلم الرّب تبارك وتعالى بالوحي ضرب اللّوح جبينه فنظر فيه، ثمّ ألقى إلينا فنسعى به في السماوات والأرض إنّه لأدنى خلق الرّحمان

→ كانت من المصدّقين له عليه السلام من أول يوم، وكانت تراعي نهاية الأدب في تكليمها معه وعشرتها إياه عليه السلام، فأنسبة

غير خالية عن البعد والغربة فتأمل.

١- مريم / ٦٤.

٢- الإسراء / ٨٥.

٣- الحجر / ٩٤.

منه و بينه و بينه سبعون حجاباً من نور، يقطع دونها الأبصار ما لا يعدّ و لا يوصف، و إنّي لأقرب الخلق منه، و بيني و بينه مسيرة ألف عام.

١١- قال عليّ بن إبراهيم في قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ قال: اللّوح المحفوظ له طرفان: طرف على يمين العرش و طرف على جبهة إسرافيل، فإذا تكلم الرّبّ جلّ ذكره بالوحي ضرب اللّوح جبين إسرافيل، فنظر في اللّوح فيوحي بما في اللّوح إلى جبرئيل عليه السلام. (٤١٤:٢-٤١٥)

١٢- في رواية أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^٢ و ذلك أنّ أهل السّماوات لم يسمعوا وحيّاً فيما بين أن بعث عيسى بن مريم عليه السلام إلى أن بعث محمّد ﷺ، فلمّا بعث الله جبرئيل إلى محمّد ﷺ سمع أهل السّماوات صوت وحي القرآن كوّع الحديد على الصّفا، فصعق أهل السّماوات، فلمّا فرغ من الوحي انحدر جبرئيل، كلّما مرّ بأهل السّماء ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: كشف عن قلوبهم، فقال بعضهم. لبعض: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. (٢٠٢:٢)

الفصل الثامن

نص المسعودي (م: ٣٤٦) في «مروج الذهب»

ذكر مبعثه ﷺ

ثم بعث الله رسوله، وأكرمه بما اختصّه به من نبوّته بعد بنيان الكعبة بخمس سنين على ما قدّمنا آنفاً، وهو ابن أربعين سنة كاملة، فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، وأخفى أمره ثلاث سنين، ونكح خديجة بنت خُوَيْلِدَ وله خمس وعشرون سنة. وأنزل عليه بمكة من القرآن اثنتان وثمانون سورة، ونزل تمام بعضهما بالمدينة، وأوّل ما نزل عليه من القرآن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وأتاه جبريل ﷺ في ليلة السبت، ثم في ليلة الأحد، وخاطبه بالرسالة في يوم الإثنين، وذلك بجراء وهو أوّل موضع نزل فيه القرآن، وخاطبه بأوّل السّورة إلى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ونزل تمامها بعد ذلك. وخوطف بفرض الصّلاة ركعتين، ثم أمر بإتمامها بعد ذلك، وأقرّت ركعتين في السّفر، وزيد في صلاة الحضر.

وكان مبعثه ﷺ على رأس عشرين من مُلك كَسْرَى أبرويز، وذلك على رأس مائتي سنة من يوم التحالف بالرّبذة، وذلك لستّة آلاف ومائة وثلاث عشرة سنة من هبوط آدم ﷺ... (٢٧٥:٢)

الفصل التاسع

نص الحاكم النيسابوري (م: ٤٠٥) في «المستدرک علی الصحیحین»

أول سورة نزلت من القرآن

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

١- حدَّثنا عبد الله بن محمد بن عبد الله الصَّفار الزَّاهد، ثنا أحمد بن مهدي بن رستم الأصبهاني، أبو عامر العقدي، ثنا قرّة بن خالد عن أبي رجاء العطاردي، عن أبي موسى الأشعري قال: تعلّمنا القرآن في هذا المسجد يعني مسجد البصرة وكنا نجلس حلقًا حلقًا، وكأنا أنظر إليه بين ثوبين أبيضين وعنه أخذت هذه السورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ قال: وكانت أول سورة أنزلت على محمد ﷺ. هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

٢- حدَّثنا بإسناد صحيح على شرط مسلم، أخبرنا أبو بكر أحمد بن إسحاق الفقيه، أنبأ بشار بن موسى، ثنا الحميدي، ثنا سفيان، عن محمد بن إسحاق، عن الزُّهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: أول سورة نزلت: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

٣- حدَّثنا علي بن عيسى، ثنا إبراهيم بن أبي طالب، ثنا ابن أبي عمر، ثنا سفيان، عن الزُّهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قال سفيان: حفظه لنا ابن إسحاق، قالت: إن أول شيء نزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. (٢٠٢:٢-٢٢١)

٤- حدَّثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا أحمد بن سنان الرَّملي، ثنا سفيان بن عُيينة، عن الزُّهري، عن عروة، عن عائشة قالت: أول سورة نزلت من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ

رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿ فَإِذَا ابْنُ عُيَيْنَةَ لم يسمعه من الزُّهْرِيِّ.

حدَّثنا أبو بكر بن إسحاق و علي بن حمَّشاد، قالَا: ثنا بُشَيْر بن موسى، ثنا الحُمَيْدِيُّ ثنا سُفْيَان عن مُحَمَّد بن إسحاق، عن الزُّهْرِيِّ، عن عُرْوَةَ، عن عائشة قالت: أوَّل سورة نزلت من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه.

٥- حدَّثنا أبو علي الحافظ، أنبأ علي بن سالم الحافظ، ثنا مُحَمَّد بن حَمَّاد، ثنا عبد الرزاق، أنبأ مَعْمَر عن عمر و بن دينار، عن جابر رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ بِحِراءَ إِذْ أتاه الملك؟ بنمط من ديباح فيه مكتوب: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - إِلَى - مَا لَمْ يَغْلَمْ﴾. (٥٢٩:٢)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ التوبة / ١٢٨

٦- حدَّثنا أبو العباس مُحَمَّد بن يعقوب، ثنا بَكَّار بن قُتَيْبَةَ القاضي، ثنا أبو عامر عبد الملك بن عمر و العقدي، ثنا شُعْبَةُ عن يونس بن عُبيد، و علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس رضي الله عنه عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: آخر ما نزل من القرآن: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حديث شعبة عن يونس بن عُبيد، صحيح على شرط الشَّيْخِين و لم يخرجاه. (٣٣٨:٢)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة المائدة)

٧- حدَّثنا أبو العباس مُحَمَّد بن يعقوب، ثنا بحر بن نصر الحَوْلَانِي قال: قرئ عبد الله بن وَهْب أخبرك معاوية بن صالح، عن أبي الزَّاهِرِيَّة، عن جُبَيْر بن نُفَيْر، قال: حججت فدخلت على عائشة فقالت لي: يا جُبَيْر تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، قالت: أما أنَّها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، و ما وجدتم من حرام فحرّموه. هذا حديث صحيح على شرط الشَّيْخِين، و لم يخرجاه.

٨- حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ ثَنَا بَحْرُ بْنُ نَصْرٍ قَالَ قَرِئْتُ عَلَى بَنِ وَهْبٍ، أَخْبَرَكَ حُيَيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
 الْمَعَاذِيِّ، قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجُبَلِيَّ حَدَّثَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: أَنَّ آخِرَ سُورَةٍ
 نَزَلَتْ: سُورَةُ الْمَائِدَةِ. هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يَخْرُجْاهُ. (٣١١:٢)

الفصل العاشر

نص الطوسي (م: ٤٦٠) في تفسير: «التبيان»

أول ما نزل من القرآن

﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثُرُّ * قُمْ فَأَنْذِرْ...﴾

١- قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: أول ما نزل من القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثُرُّ﴾ و حكي ذلك أبو سلمة عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: «جاوزت بحراء فنوديت، فنظرت عن يميني، فلم أر شيئاً، فنظرت عن شمالي، فلم أر شيئاً، فنظرت أمامي فلم أر شيئاً...» [و ذكر كما تقدم عن البخاري، الرقم ٣، ثم قال:] وقال الزهري: أول ما نزل قوله تعالى: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ...﴾. (١٧١: ١٠)

أول آية نزلت من القرآن:

﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾

٢- روي عن عائشة و مجاهد و ابن يسار: «إن أول آية نزلت قوله: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾ و هو قول أكثر المفسرين. وقال قوم: أول ما نزل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثُرُّ...﴾.

آخر آية نزل من القرآن:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾ البقرة / ٢٨١.

٣- قال ابن عباس وعطية والسدي: هذه الآية، آخر ما نزلت من القرآن، وقال جبريل: ضَعَهَا في رأس الثَّمانين والمِائتين من البقرة. (٢: ٣٦٩)

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ النساء / ١٧٦

٤- دروى البراء بن عازب، قال: آخر سورة نزلت كاملة: براءة، وآخر آية نزلت خاتمة سورة النساء: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ...﴾ وقال جابر عبد الله: نزلت في المدينة. وقال ابن سير بن: نزلت في مسير كان فيه رسول الله ﷺ وأصحابه.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حُسْبِيَ اللَّهُ...﴾ التوبة / ١٢٩

قال أبي بن كعب وسعيد بن جبير والحسن وقتادة: هذه آخر آية نزلت من القرآن، ولم ينزل بعدها شيء (٥: ٣٣٠)

آخر سورة نزلت من القرآن:

«سورة المائدة»

قال عبد الله بن عمر: آخر سورة نزلت سورة المائدة، وهي مائة وعشرون آية كوفي، واثنان وعشرون في المدينتين، وثلاثة وعشرون بصري. (٣: ٤١٣)

«سورة البراءة»

قال مجاهد وقتادة وعُثمان: هي آخر ما نزلت على النبي ﷺ بالمدينة (٥: ١٩٥)

الفصل الحادي وعشر

نصّ الواحديّ (م: ٤٨٦) في أسباب النزول

أول ما نزل من القرآن

«البِسْمَلَةُ وَ سُورَةُ الْعَلَقِ»

١- أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم المقرئ قال: أخبرنا أبو الحسن عليّ بن محمد الجرجانيّ قال: حدّثنا نصر بن محمد الحافظ قال: أخبرنا محمد بن مخلّد أنّ محمد بن إسحاق حدّثهم قال: حدّثنا يعقوب الدّورقي قال: حدّثنا أحمد بن نصر بن زياد قال: حدّثنا عليّ بن الحسين بن واقد قال: حدّثني أبي قال: حدّثني يزيد النّحويّ، عن عكرمة والحسن بمكّة، و أول سورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

القول في آية التّسميّة و بيان نزولها:

٢- أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم المقرئ قال: أخبرنا أبو الحسن عليّ بن محمد الجرجانيّ قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الرّحمان الجوهريّ قال: حدّثنا محمد بن يحيى بن منّدة قال: حدّثنا أبو كُرَيْب قال: حدّثنا عثمان بن سعيد قال: حدّثنا بُشَيْر بن عَمَّار، عن أبي رِزْق، عن الضّحّاك، عن ابن عبّاس أنّه قال: أوّل ما نزل به جبريل على النّبيّ ﷺ قال: يا محمد، استعذ، ثمّ قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

٣- أخبرنا أبو عبد الله بن إسحاق قال: حدّثنا إسماعيل بن أحمد الخلال قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن زيد ان البجليّ قال: حدّثنا أبو كُرَيْب قال: حدّثنا سُفيان بن عُيَيْنَةَ عن عمرو بن دينار، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبّاس قال: «كان رسول الله ﷺ لا يعرف ختم

السورة حتى ينزل عليه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

أخبرنا عبدالقاهر بن طاهر البغدادي قال: أخبرنا محمد بن جعفر بن مطر قال: أخبرنا إبراهيم بن علي الرلمي قال: حدثنا يحيى بن يحيى قال: أخبرنا، عمرو بن الحجاج العدي عن عبدالله بن أبي حسين، ذكر عن عبدالله بن مسعود قال كنا لا نعلم فصل ما بين السورتين حتى نزل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

٤- أخبرنا سعيد بن محمد بن أحمد بن جعفر قال: أخبرنا جدي قال: أخبرنا أبو عمرو، أحمد بن محمد الجرشي قال: حدثنا محمد بن يحيى قال: حدثنا محمد بن عيسى بن أبي فديك عن عبدالله بن نافع عن أبيه، ابن عمر قال نزلت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في كل سورة.

(صدر آيات سورة العلق)

٥- أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم المقرئ قال: أخبرنا عبدالله بن حامد الأصفهاني قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن الحسن الحافظ قال: حدثني محمد بن يحيى قال: حدثنا عبدالرزاق، عن معمر عن ابن شهاب الزهري قال: أخبرني عروة، عن عائشة أنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة... [وذكر كما تقدم عن البخاري الرقم ١، ثم قال:]».

٦- أخبرنا الشريف إسماعيل بن الحسن بن محمد بن الحسين الطبري قال: أخبرنا جدي أبو حامد أحمد بن الحسن الحافظ قال: حدثنا عبدالرحمان بن بشر، قال: حدثنا سفيان بن عيينة عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، قالت: إن أول ما نزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. رواه الحاكم أبو عبدالله في صحيحه عن أبي بكر الصفي، عن بشر بن موسى، عن الحميدي، عن سفيان.

٧- أخبرنا الحسن بن محمد الفارسي، قال: أخبرنا محمد بن عبدالله بن الفضل التاجر، قال: أخبرنا محمد بن محمد الحسن الحافظ، قال: حدثنا محمد بن يحيى، قال: حدثنا أبو صالح قال: حدثني الليث، قال: حدثني عقيل عن ابن شهاب، قال: أخبرني محمد بن عباد، ابن جعفر المخزومي أنه سمع بعض علمائهم يقول: كان أول ما أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي

عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ^١. قالوا: هذا صدرها أنزل على رسول الله ﷺ يوم حراء، ثم أنزل آخرها بعد ذلك بما شاء الله.

٨- فأما الحديث الذي روي: أن أول ما نزل سورة المدثر فهو أخبرناه الأستاذ أبو إسحاق الثعالبي، قال حدثنا عبد الله بن حامد قال: حدثنا محمد بن يعقوب قال: حدثنا أحمد بن عيسى بن زيد البينسي، قال: حدثنا عمرو بن أبي سلمة عن الأوزاعي قال: حدثني يحيى بن أبي كثير... [وذكر كما تقدّم عن مسلم والطبري الرقم ٧ و ٣، ثم قال:] وهذا ليس بمخالف لما ذكرناه أولاً، وذلك أن جابرًا سمع من النبي ﷺ القصة الأخيرة ولم يسمع أولها، فتوهم أن سورة المدثر أول ما نزل، وليس كذلك، ولكنها أول ما نزل عليه بعد سورة (اقراء). والذي يدلّ على هذا ما أخبرنا أبو عبد الرحمن بن حامد، قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن محمد بن زكريّا، قال: أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الدغولي، قال: حدثنا محمد بن يحيى قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: حدثنا معمر عن الزهري، قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر... [وذكر كما تقدّم عن البخاري الرقم ٣، ثم قال:] وبأن بهذا الحديث أن الوحي كان قد فتر بعد نزول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، ثم نزول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، والذي يوضح ما قلنا إخبار النبي ﷺ أن الملك الذي جاء بحراء جالس فدلّ على أن هذه القصة إنما كانت بعد نزول (اقراء).

الفاصلة من أوائل ما نزل من القرآن

اختلفوا فيها، فعند الأكثرين هي مكية من أوائل ما نزل من القرآن.

٩- حدثنا أبو عثمان سعيد بن أحمد بن محمد الزاهد، قال: أخبرنا جدي، قال: أخبرنا أبو عمرو الجبّري، قال: حدثنا إبراهيم بن الحارث وعلي بن سهل بن المغيرة، قال: حدثنا يحيى بن بكير، قال: حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة أن رسول الله ﷺ كان إذا برز سمع مناديًا يناديه: يا محمد! فإذا سمع الصوت انطلق هاربًا، فقال له ورقة بن نوفل: إذا سمعت النداء فأثبت حتى تسمع ما يقول لك، قال: فلمّا برز سمع النداء: يا محمد!

فقال «لبيك» قال: قُلْ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: قُلْ: ﴿أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ...﴾ حَتَّى فَرَّغَ مِنْ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ، وَهَذَا قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

١٠- أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَفْسَّرُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ جَعْفَرِ الْمَفْسَّرِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَرْوَزِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّعْدِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو يَحْيَى الْقَصْرِيُّ، قَالَ حَدَّثَنَا مَرْوَانُ بْنُ مُعَاوِيَةَ، عَنْ الْوَلَاءِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنِ الْفَضْلِ بْنِ عَمْرٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام قَالَ: «نَزَلَتْ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ بِمَكَّةَ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ».

وَبِهَذَا الْإِسْنَادِ عَنِ السَّعْدِيِّ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ صَالِحٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي عَنِ الْكَلْبِيِّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَامَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِمَكَّةَ، فَقَالَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: رَضَّ اللَّهُ فَاهُ.

وَنَحْوُ هَذَا قَالَهُ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَعِنْدَ مُجَاهِدٍ أَنَّ الْفَاتِحَةَ مَدِينَةٌ.

قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ لِكُلِّ عَالِمٍ هَفْوَةٌ، وَهَذِهِ بَادِرَةٌ مِنْ مُجَاهِدٍ؛ لِأَنَّهُ تَفَرَّدَ بِهَذَا الْقَوْلِ، وَالْعُلَمَاءُ عَلَى خِلَافِهِ.

وَمِمَّا يَقْطَعُ بِهِ عَلَى أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمِ﴾^١ يَعْنِي الْفَاتِحَةَ.

١١- أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّحْوِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الْجَبَرِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْمُثَنَّى، قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَذِينَ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي الْقَلَاءُ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَقَرَأَ عَلَيْهِ أَبِي بْنُ كَعْبٍ أُمُّ الْقُرْآنِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلَهَا، إِنَّهَا لَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ». وَسُورَةُ الْحَجْرِ مَكِّيَّةٌ بِإِخْلَافٍ، وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَمْتَنَنَّ عَلَى رَسُولِهِ بِإِيْتَانِهِ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَهُوَ بِمَكَّةَ، ثُمَّ يَنْزِلُهَا بِالْمَدِينَةِ وَلَا يَسْعُنَا الْقَوْلُ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَامَ بِمَكَّةَ بَضْعَ

عشرة سنة يصليّ بلا فاتحة الكتاب، هذا ممّا لا تقبله العقول.

أول ما نزل و آخر ما نزل بمكة أو بالمدينة

١٢- أخبرنا أبو إسحاق بن محمد المقرئ، قال: أخبرنا أبو الحسن عليّ بن محمد المقرئ، قال: حدّثنا أبو الشيخ، قال: وحدّثنا أحمد بن سليمان بن أيّوب، قال: حدّثنا محمد ابن عليّ بن الحسن بن سفيان، قال: حدّثنا عليّ بن الحسين بن واقد، قال: حدّثني أبي، قال: سمعت عليّ بن الحسين يقول: «أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ بمكة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ و آخر سورة نزلت على رسول الله ﷺ بمكة المؤمنون، و يقال: العنكبوت. و أول سورة نزلت بالمدينة: ﴿وَيْلٌ لِلْمُصْطَفِينَ﴾ و آخر سورة نزلت في المدينة: (براءة) و أول سورة علّمها رسول الله ﷺ بمكة: (النجم). و أشدّ آية على أهل النار: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾^١ و أرجى آية في القرآن لأهل التوحيد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾^٢ الآية. و آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^٣ و عاش النبي ﷺ بعدها تسع ليالٍ».

آخر آية نزلت من القرآن

«آية الكلاله» النساء / ١٧٦

١٣- أخبرنا أبو إبراهيم إسماعيل بن إبراهيم الواعظ، قال: حدّثنا محمد، قال: أخبرنا أبو عمرو بن مطر، قال: أخبرنا أبو خليفة الفضل بن الحباب الجُمحيّ، قال: حدّثنا أبو الوليد، قال: حدّثنا شعبة، قال: حدّثنا أبو إسحاق، قال: سمعت البراء بن عازب يقول: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾^٤ و آخر سورة أنزلت: (براءة) رواه البخاريّ في التفسير عن سليمان بن حرب، عن شعبة، و رواه في موضع آخر عن أبي الوليد، و رواه مسلم عن بُندار، عن عُنْدَر، عن شعبة.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ البقرة / ٢٨١.

١٤- أخبرنا أبو بكر التميمي، قال: أخبرنا أبو محمد الجياني، قال: حدثنا أبو يحيى الرازي، قال: حدثنا سهل بن عثمان، قال: حدثنا ابن المبارك عن جبير، عن الضحّاك، عن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.

١٥- أخبرنا محمد بن عبد الرحمن النحوي، قال: أخبرنا محمد بن أحمد بن سنان المقرئ، قال: أخبرنا أحمد بن علي الموصلي، قال: حدثنا أحمد بن الأحمش، قال حدثنا محمد بن فضيلة، قال حدثنا الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، قال: ذكروا أن هذه الآية و آخر آية من سورة النساء نزلت آخر القرآن.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ التوبة / ١٢٨.

١٦- أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم الصوفي، قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن يعقوب، قال: حدثنا الحسن بن عبد الله العبدي، قال: حدثنا مسلم بن إبراهيم، قال: حدثنا شعبة عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب أنه قال: آخر آية أنزلت على عهد رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، وقرأها إلى آخر السورة. رواه الحاكم أبو عبد الله في صحيحه عن الأصم، عن بكّار بن قتيبة، عن أبي عامر العقدي عن شعبة.

١٧- أخبرني أبو عمرو محمد بن العزيز في كتابه: أن محمد بن الحسين الحدادي أخبرهم عن محمد بن يزيد، قال: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم، قال: حدثنا وكيع عن شعبة، عن علي بن يزيد، عن يونس بن مالهك، عن أبي بن كعب، قال: أحدث القرآن بالله عهداً ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ الآية، وأول أنزل فيه يوم الاثنين. (ص: ١٢٥-١٢٦)

الفصل الثاني عشر

نص الميبدّي (م: ٥٣٠) في تفسيره: «كشف الأسرار»^١

أول آية وأول سورة نزلت من القرآن

﴿الْبِسْمَلَةِ، يَاءُ يَهَا الْمَدَّثُ﴾

حينما نادى جبرئيل النبيّ في غار حراء: يا محمد (اقرأ)، قال ﷺ: «ما أقرأ، و ما أنا بقارئ، و أنا أمّي»، فقال جبريل: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾، أي اقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، هذا القول يطابق رواية ابن عباس، إنّه قال: أول ما أوحى الله إلى النبيّ ﷺ، آية البسملة. وفي رواية أخرى: أول سورة أوحى الله إليه: ﴿يَاءُ يَهَا الْمَدَّثُ﴾. وفي رواية أخرى أيضاً: أول سورة أوحى الله إليه: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾.

الجمع بين هذه الروايات: إنّ أول ما أوحى إلى النبيّ ﷺ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ولذلك خاطب جبرئيل النبيّ ﷺ ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ﴾ وأول سورة أوحى الله إليه ﴿يَاءُ يَهَا الْمَدَّثُ﴾. فالبسملة أول آية نزلت من القرآن، و ﴿يَاءُ يَهَا الْمَدَّثُ﴾ أول سورة منه، و نزلت بعدها آية فآية وقصة فقصة وسورة فسورة، واستمرّ النزول في مدة ثلاث وعشرين سنة، حتّى نزلت آخر آية: ﴿فَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ﴾، و قيل: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ إلى آخر السورة. (١٠: ٥٥٤)

(سورة العلق)

قال المفسرون: سورة العلق هي أول سورة نزلت من السماء، وعن عائشة قالت: إن أول ما نزل من القرآن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ (١٠: ٥٤٩)

(سورة الفاتحة)

قالوا وجه التسمية بفاتحة الكتاب؟ أنها أول سورة نزلت من السماء، وبه قال أبو مبيصة: أول ما قرأ جبريل النبي ﷺ بمكة فاتحة الكتاب إلى خاتمتها. (٤: ١)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ البقرة / ٢٨١.

قال المفسرون: حينما نزلت هذه الآية، قال جبريل للنبي ﷺ: صَعَوْهَا عَلَى رَأْسِ ثَمَانِينَ وَمِثْتَيْنِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَعَاشَ بَعْدَهَا سَبْعَةُ أَيَّامٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَاحِدًا وَعِشْرِينَ يَوْمًا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَاحِدًا وَثَمَانِينَ يَوْمًا، وَقِيلَ: ثَلَاثَ سَاعَاتٍ.

قال ابن عباس: آخر آية نزلت من السماء هي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ...﴾^١، و﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾^٢ و﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾^٣، و﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾^٤ واختلف المفسرون في أي من هذه الآيات كانت الأخيرة؛ قال أبي بن كعب: آخر آية هي: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾، وقال السدي والضحاك وجماعة: آخر آية هي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ...﴾ (١: ٧٦٦).

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة المائدة)

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ نزلت هذه الآية في حجة الوداع، قال رسول الله ﷺ: في

٢ - النساء / ١٧٦.

١ - البقرة / ٢٨١.

٤ - المائدة / ٣.

٣ - التوبة / ١٢٨.

خطبة حجة الوداع: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ سُورَةَ الْمَائِدَةِ مِنْ آخِرِ الْقُرْآنِ نَزَلَتْ...» (٣:٣)

«سورة البراءة»

سئل أبي بن كعب لماذا لا يكتبون «البسملة» في أول سورة البراءة قال: لأنها نزلت في آخر القرآن، وكان رسول الله ﷺ يأمرني أول كل سورة بـ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، ولم يأمرني في سورة براءة، ولذلك ضمت إلى سورة الأنفال لشبهها بها، يعني أمر العهود المذكور في الأنفال، وهذه نزلت بنقض العهود، وكانت ملتبسة بالأنفال بالشبه، فضمت إليها وكتبت في السبع الطوال. (٩٠:٤)

الفصل الثالث عشر

نصّ أبي الفتوح الرّازيّ (م: ٥٣٥) في تفسيره: «روض الجنان»^١

[بدء الوحي وأوّل و آخر ما نزل]

أوّل آية نزلت من القرآن

﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

١- عن عائشة و عطاء بن يسار و مُجاهد: «إنّ أوّل آية نزلت من القرآن كانت هذه الآية» - إلى - «مالمَ يَعلَمَ».

٢- روى الزُّهريّ عن عروة، عن عائشة، أنّها قالت: أوّل ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصّادقة كانت تجيء مثل فلق الصّبح، ثمّ حبّب إليه الخلاء، فكان بغار حراء يتحنّث، فأناه جبرئيل فقال له: يا محمّد! (إقرأ) قال: و ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطّني، ثمّ رجع و قال: (إقرأ) فقلت: و ما أنا بقارىء، فأخذني ثانية، ثمّ رجع فغطّني للمرّة الثالثة، ثمّ قرأ: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ - إلى قوله - مالمَ يَعلَمَ. قال النّبيّ ﷺ: لقد بلغني الجهد، وأصابتنى الحمّى، و داهمني الرّوع، و ارتجفت و دخلت على خديجة و قلت لها زملوني و دثروني، فألقت عليّ ثوباً، فنمت فأتني جبرئيل مرّة أخرى و قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فقمّت و ذهبت إلى خديجة، فأخبرتها بهذا الخبر و قلت لها: أشفقت على نفسي، فقالت: حاشاك من هذا، و دفع الله عنك البلاء، فإنّك تعين النّاس و تصل الرّحم، و تحمل الكلّ، و تُقري الضّيف، و تُعين على نوائب الدّهر، ثمّ قالت: قم حتّى نذهب إلى ابن عمّي و رقة بن نوفل

ونخبره بالخبر، فنرى ماذا يقول؟ ثم قمنا وذهبنا إليه، وكان قد قرأ كتب الأوائل وحينما سمع الخبر، قال: هنيئًا لك يا محمد، أنت التاموس الأعظم، وقد قرأنا في كتب الأوائل من التوراة والإنجيل، إنك خاتم الرسل، يختم الله بك النبوة، ياليتني كنت في يومك حتى أنصرك، وكأني أرى قومك يخرجونك ويرهقونك، قلت: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، وما أرسل الله نبيًا إلا عودي.

ثم قال رسول الله ﷺ: «حينما كنت وحيدًا في حراء، جاءني جبريل فأخذني وغطني، فذهبت إلى ورقة وأخبرته مرة أخرى. قال لي يا محمد، إذا سمعت هذا النداء لا تخف، وابق مكانك وانظر ماذا يقول لك، اسمع وتعلم».

قال رسول الله ﷺ: «ذهبت إلى حراء، فجاء جبريل مرة أخرى، قال يا محمد، إنك نبي حق، اقرأ قلت: وما أنا بقارئ، قال: اقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إلى آخر السورة، فتعلمت وذهبت إلى ورقة وأخبرته. قال لي: أبشر فإنك أنت النبي الذي بشره موسى وعيسى ﷺ ولئن أدركني يومك لأجاهدن معك، ثم التفت إلى خديجة وقال لها: فإن يك حقًا يا خديجة...» [وذكر كما تقدم عن القمي تفصيلًا الرقم ٤].

(٥٥٥: ٥)

أول سورة نزلت من القرآن

(سورة الفاتحة)

٣- جاء في حديث البعثة أن هذه السورة أول ما نزلت من القرآن، روى أبو مبيرة عمر وبن شرجبيل: كانت لرسول الله عادة، يذهب وحيدًا إلى حراء، وكان يجلس ليتفكر في آلاء الله ونعمائه، وكان جالسًا يومًا على عادته، فظلل على الرسول ﷺ فنظر ليرى ماهو؟ فرأى شيئًا فتح أجنحة حتى غطى وجه كل السماء ونادى: السلام عليك يا محمد، اقرأ، قال ﷺ: إني سمعت هذا الصوت قبل ذلك مرات عديدة، وما رأيت شيئًا، وخفت أن يكون قد ختل عقلي، قلت لخديجة: هكذا قد أصبحت حالي، قالت: لم يكن إلا خيرًا، وذهبت يومًا إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وهو رجل حكيم من أهل الكتاب، وكان قد قرأ

كتب الأوائل، فأخبرته بالخبر، فقال: يا خديجة قولي لمحمد ﷺ: لا تحزن من هذه الحالة، وإن سمعت هذا الصوت ومرة أخرى فقم على موضع، وانظر ماذا ترى، فقالت: خديجة لرسول الله ما قاله. وحينما رأى جبرئيل يومًا بصورته، قال فزعت أشد الفزع، ولكن تملك نفسي فقال جبرئيل: اقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلْخَسَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ...﴾ إلى آخر السورة وسمع الرسول وتعلم، ثم قام ورجع إلى البيت وعارضته الحمى، وكان يقول: زملوني ودثروني»، فدثرته خديجة بثوب، وضعت يدها على ظهره وكان يرتعد، ونام كنوم فروخ طائر، وانتبه من نومه وأعاد هذه القصة مرة أخرى، وقال: «جاءني ذلك الشخص بتلك الصورة وقال لي: اقرأ قلت: ما اقرأ؟ قال: اقرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ...».

قامت خديجة وذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، فأخبرته الخبر وحينما سمع سرّ، وقال يا خديجة: إن كان كما قلت فهذه علامة تدلّ على أن بعلك خاتم النبیین، فإنّا قرأنا نعتَه ووصفه في التّوراة والإنجيل، ثم أنشأ هذه الأبيات: [وذكر كما تقدّم عن القمّي الرقم ٤، ثم قال:]

فجاء ورقة عند رسول الله، وقال بشارك، فإن عيسى بشر بك الناس، وإنك على مثل ما كان عليه، وإنك نبيّ مرسل، فإنك تؤمر بالجهاد، ولئن أدركني يومك لأجاهدن معك، فلما توفيّ ورقة، قال رسول الله ﷺ: «رأيتَه في الجنّة وعليه ثياب الحرير»^١ (١٤:١)

٤- روي أن أول سورة نزلت من القرآن، سورة الفاتحة، ثم ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ثم ﴿إِذَا

بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [ثم ذكر رواية جابر بن عبد الله الأنصاري، كما تقدّم عن الطّوسي] (٤٧٣:٥)

١- لم نعر على هذين الحديثين المذكورين في أي مصدر بهذا اللفظ، ويبدو أن أبا الفتح قد لُقّق عدّة أحاديث من صحيحه مُسلم والبخاري وغيرهما من محدثي الجمهور، وجعلها حديثين اثنين، ونحن ترجمناهما من الفارسية إلى العربية لفظاً بلفظ. وراجع الفصل (٤٣ و ٤٦). من هذا الباب، فقد نقلنا هناك نظرة تحليلية حولها بين الزوايتين عن الأستاذين السّبحاني والمرتضى العاملي.

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾ البقرة / ٢٨١.

هـ- عن عبدالله بن عباس أنّه قال: هذه الآية آخر ما نزلت من القرآن. و في رواية أخرى عن ابن عباس: آخر آية نزلت من القرآن آية الرّبا. قال المفسّرون: حينما أنزل الله تعالى هذه الآية على النّبيّ ﷺ قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^١ «ليت شعري متى يكون ذلك». و حينما أنزل الله تعالى و سورة النّصر، كَبُرَ ثَمَّ قال: «سبحان الله و بحمده أستغفر الله و أتوب إليه» قالوا: يا رسول الله، لماذا فعلت ذلك؟ قال: «نعتيت إلى نفسي» فحينئذٍ بكى! قالوا: يا رسول الله، هل تخاف من الموت، و قد غفر الله تعالى لك على ما فعلت و ما تفعل؟ قال ﷺ: «أين هذا من هول المطلق، و ضيق اللّحد و ظلّمته، و أهوال القيامة».

و عاش النّبيّ ﷺ سنة بعد هذه الآية و تلك السّورة، و بعد ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾^٢ إلى آخرها. فعاش بعدها ستّة أشهر، فلمّا ذهب إلى مكّة لحجّة الوداع نزلت عليه في الطّريق: ﴿يَسْأَلُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾^٣ و لمّا انصرف من مكّة إلى غدير خم نزلت: ﴿بَاءَ يُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾^٤، ثمّ نزل في ذلك المكان ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾^٥ و حينما انقضى اثنان و ثمانون يومًا، نزلت آية الرّبا. و بعد ذلك نزلت هذه الآية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ...﴾، و هي آخر ما نزلت من القرآن، فعاش بعهدّها واحدًا و عشرين يومًا، و قال ابن جرّيج: تسعة أيّام، و قال مقاتل: جاءه أمره تعالى بالرحيل في الثّالث من ربيع الأوّل، يوم الاثنين وقت الزّوال سنة إحدى عشرة من الهجرة. (٤٨٩:١)

١- الزّمر / ٣٠.

٢- التّوبة / ١٢٨.

٣- النّساء / ١٧٦.

٤- المائدة / ٦٧.

٥- المائدة / ٣.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ التوبة / ١٢٨.

٦- قال يحيى بن جَعْدَة: كان عمر بن الخطاب لا يثبت آية في المصحف حتى يشهد عليها رجلان، فجاءه رجل من الأنصار بالآيتين من آخر سورة البراءة، فقال عمر: والله لا أسألك عليها بيعة، كذلك كان النبي ﷺ. فأثبتهما وقال: إنهما آخر ما نزلتا من القرآن، وكانت كل هذه السورة آخر ما نزلت من القرآن. قال قتادة: آخر القرآن عهداً بالسمااء الآيتان في خاتمة البراءة. (٦٥٦:٢)

آخر سورة نزلت من القرآن

«سورة المائدة»

٧- جاء في الخبر أنّ رسول الله ﷺ، قرأ في خطبة حجة الوداع: سورة المائدة، ثم قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ سُرَّةَ الْمَائِدَةِ مِنْ آخِرِ الْقُرْآنِ نَزُولاً، فَأَحْلُوا حُلَالَهَا وَحَرِّمُوا حَرَامَهَا».

(٨٦:٢)

الفصل الرابع عشر

نص الزمخشري (م: ٥٣٨) في «الكشاف» والشريف الجرجاني (م: ٨١٦)

في «حاشيته على الكشاف»

أول سورة نزلت من القرآن

(سورة اقرأ)

قيل: [سورة المدثر] هي أول سورة نزلت... وعن الزهري: أول ما نزل سورة: ﴿إِقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ - إلى قوله - مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. (٤: ١٨٠)

فإن قلت: فقد قال ﴿إِقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ فَقَدَّمَ الفعل؟ قلت: هناك تقديم الفعل أوقع؛ لأنها أول سورة نزلت، فكان الأمر بالقراءة أهم. (١: ٣٠)

قال السيد الشريف الجرجاني:

قوله: (مكيّة) ذكر المصنف في سورة العلق أن أكثر المفسرين على أن الفاتحة أول سورة نزلت، ثم القلم، فتكون مكيّة، وأما أنها نزلت مرة أخرى بالمدينة حين حوّلت القبله، كما نزلت بمكة حين افترضت الصلاة فهو قول البعض.

وقد يتوهم أنها مدنيّة فقط، ويرده اتفاق الأكثر على أنها متقدمة في النزول على سورة القلم، وإن كان صدر القلم أول منزل. (١: ٢٣)

قوله: (لأنها أول سورة نزلت) أي إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ كما دلّت عليه الأحاديث الصحيحة، وقرره الأئمة في مسألة تأخير البيان، ولا ينافي ذلك قول الأكثرين: إن أول سورة نزلت هي الفاتحة؛ لأن الخلاف في السورة بتمامها. (١: ٣٠)

(سورة الفاتحة)

عن ابن عباس و مُجاهد: [العلق] هي أول سورة نزلت، وأكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل، ثم سورة القلم. (٤: ٢٧٠)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾ البقرة / ٢٨١.

عن ابن عباس: أنها آخر آية نزل بها جبرئيل عليه السلام وقال: ضعها في رأس... [و ذكر كما تقدم عن الميبيدي]. (١: ٤٠٢)

الفصل الخامس عشر

نص الطبرسي (م: ٥٤٨) في «مجمع البيان»

أول سورة نزلت من القرآن

(سورة المدثر)

- ١- قال الأوزاعي: سمعت يحيى بن أبي كثير يقول: سألت أبا سلمة... [وذكر كما تقدّم نحوه عن الطبري الرقم ٣ ثم قال:]
- ٢- وفي رواية: فحييت منه قرآناً حتى هويت إلى الأرض؛ فجئت إلى أهلي فقلت: زمّلوني، فنزل ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ أي ليس بك ما تخافه من الشيطان، إنما أنت نبي فأنذر الناس وادعهم إلى التوحيد.
- وفي هذا ما فيه، لأن الله تعالى لا يوحى إلى رسوله إلا بالبراهين الثبيرة والآيات البينة الدالة على أن ما يوحى إليه، إنما هو من الله تعالى فلا يحتاج إلى شيء سواها ولا يفزع ولا يفرق... [ثم ذكر الأقوال في معنى المدثر]. (٣٨٤:٥)

(سورة العلق)

- وأكثر المفسرون على أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن، وأول يوم نزل جبرائيل على رسول الله ﷺ وهو قائم على جراء علمه خمس آيات من أول هذه السورة.
- وقيل: أول ما نزل من القرآن قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وقد مرّ ذكره.
- ٣- وقيل: أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ: (فَاتِحَةُ الْكِتَابِ)، رواه الحاكم أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن أبي ميسرة عمر و بن شرحبيل: إن رسول الله ﷺ

قال لخديجة: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً» فقالت: ما يفعل الله بك إلا خيراً، فوالله إنك لتؤدّي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. قالت خديجة: فانطلقنا إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وهو ابن عمّ خديجة، فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى، فقال له ورقة: إذا أتاك فائت له حتى تسمع ما يقول، ثم انتني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد، قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى بلغ ﴿وَالصَّالِينَ﴾، قل: لا إله إلا الله، فأتى ورقة، فذكر له ذلك، فقال له: أبشر ثم أبشر، فأنأشهد أنك الذي بشره ابن مريم، وإنك على مثل ناموس موسى وإنك نبي مرسل، وإنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركني ذلك لأجاهدنّ معك، فلما توفي ورقة بن نوفل، قال رسول الله: «لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير؛ لأنه آمن بي وصدقني»، يعني ورقة. وروي أن ورقة قال في ذلك: فإن يك حقاً يا خديجة... [تقدم هذا الحديث باختلاف عن القمّي، الرقم ٤]. (٥١٣: ٥١٤)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ البقرة / ٢٨١.

٤- هذا آخر آية نزلت من القرآن، وقال جبرائيل: وضعها في رأس الثمانين والمئتين من البقرة، عن ابن عباس والسدي قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^١ قال رسول الله ﷺ «ليتنى أعلم متى يكون ذلك»، فأنزل الله تعالى سورة النصر ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحِ...﴾ فكان رسول الله ﷺ يسكت بين التكبير والقراءة بعد نزول هذه السورة، فيقول: «سبحان الله وبحمده، استغفر الله وأتوب إليه» فقليل له: إنك لم تكن تقول قبل هذا، فقال: «أما أن نفسي نُعيت إلي» ثم بكى بكاءً شديداً فقليل: يا رسول الله أتوبكي من الموت وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال فأين هول المطلع، وأين ضيق القبر وظلمة اللحد، وأين القيامة والأهوال» فعاش رسول الله ﷺ بعد نزول

هذه السورة عامًّا تامًّا، ثم نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ...﴾^١ إلى آخر السورة، وهذه السورة آخر سورة كاملة نزلت من القرآن، فعاش رسول الله ﷺ بعهدا ستة أشهر. ثم لما خرج رسول الله إلى حجة الوداع نزلت عليه في الطريق: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾^٢ إلى آخرها، فسُمِّيت آية الصِّيف، ثم نزل عليه وهو واقف بعرفة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^٣ الآية، فعاش بعدها أحدًا وثمانين يومًا ثم نزلت عليه آيات الرِّبَا، ثم نزلت بعدها: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^٤ وهي آخر آية نزلت من السماء، فعاش رسول الله ﷺ بعدها أحدًا وعشرون يومًا. وقال ابن جرير: تسع ليال، وقال سعيد بن جبير ومقاتل: سبع ليال. ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول حين بزغت الشمس وروى أصحابنا: لليلتين بقيتا من صفر، سنة إحدى عشرة من الهجرة، ولسنة واحدة من ملك «اردشير بن شيرويه أبروز بن هرمز بن أنوشروان» بنفسه هو ﷺ حيًّا وميتًا. (٣٩٤:١)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة المائدة)

٥- عن علي عليه السلام قال: كان القرآن ينسخ بعضه بعضًا، وإنما يؤخذ من أمر رسول الله ﷺ بأخذه، وكان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة، نسخت ما قبلها ولم ينسخها شيء. (١٥٠:٢)

(سورة البراءة)

وهي مدنية كلها، وقال بعضهم: غير آيتين ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾ نزلت سنة تسع من الهجرة، وفتحت مكة سنة ثمان، وحجَّ رسول الله ﷺ حجة الوداع سنة عشر، وقال قتادة ومجاهد: وهي آخر ما نزلت على النبي ﷺ بالمدينة. (١:٣)

٢- النساء / ١٢٧.

٤- البقرة / ٢٨١.

١- التوبة / ١٢٨-١٢٩.

٣- المائدة / ٣.

الفصل السادس عشر

نصّ ابن شهر اشوب (م: ٥٨٨) في «مناقب آل أبي طالب»

في مبعث النَّبِيِّ ﷺ

أرسله الله تعالى بعد أربعين سنة من عمره حين تكامل بها واشتدّت قواه، ليكون متهيّئاً ومتأهبّاً لما أنذربه. ولبعثته درجات:

أولها - الرّؤيا الصادقة

والثّانية - ما رواه الشّعبيّ وداود بن عامر: أنّ الله تعالى قرن جبرئيل بنبوّة نبيّه ثلاث سنين، يسمع حسّه ولا يرى شخصه، ويعلمه الشّيء ولا ينزل عليه القرآن، فكان في هذا المدّة مبشّراً غير مبعوث إلى الأُمّة.

والثالثة - حديث خديجة ورّقة بن نوفل.

الرابعة - أمره بتحديث النّعم فأذن له في ذكره دون إنذاره، قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^١ أي بما جاءك من النّبوة.

والخامسة - حين نزل عليه القرآن بالأمر والتّهي، فصار به مبعوثاً ولم يؤمر بالجهر، ونزل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فأسلم عليّ وخديجة، ثمّ زيد، ثمّ جعفر.

والسادسة - أمر بأنّ يعمّ بالإنذار بعد خصوصه ويجهر بذلك، ونزل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾^٢ قال ابن إسحاق: وذلك بعد ثلاث سنين من مبعثه ونزل: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^٣ فتأدى: «يا صباحاه».

والسابعة - العبادات لم يشرع منها مدّة مقامه بمكّة إلّا الطّهارة والصّلاة، وكانت

فرضاً عليه وسنة لأُمتِه، ثم فرضت الصلوات الخمس بعد إسرائه وذلك في السنة التاسعة من نبوته، فلما تحول إلى المدينة فرض صيام شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة في شعبان، وحولت القلبة وفرض زكاة الفطر وفرضت^١ فيها صلاة العيد، وكان فرض الجمعة في أول الهجرة بدلاً من صلاة الظهر، ثم فرضت زكاة الأموال، ثم الحج والعمرة والتحلل والتحرير والحظر والإباحة والاستحباب والكراهة، ثم فرض الجهاد ثم ولاية أمير المؤمنين عليه السلام ونزل ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^٢ (١:١٦٩)

فيما لاقى من الكفار في رسالته

الفائق: أنه لما اعترض أبو لهب على رسول الله ﷺ عند إظهار الدعوة قال أبو طالب: يا أعور ما أنت وهذا؟ قال الأخفش: الأعور الذي خيب وقيل، ياردي ومنه الكلمة الغوراء وقال: ابن الأعرابي: الذي ليس له أخ من أبيه وأمه؟.

ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة أتى قريشاً، فقال: إن الناس يجتمعون غداً بالموسم، وقد فشا أمر هذا الرجل في الناس، وهم يسألونكم عنه فما تقولون؟ فقال أبو جهل: أقول إنه مجنون، وقال أبو لهب: أقول إنه شاعر، وقال عتبة بن أبي معيط: أقول إنه كاهن، فقال الوليد: بل أقول هو ساحر يفرق الرجل والمرأة وبين الرجل وأخيه وأبيه، فأنزل الله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ...﴾ الآية^٣ وقوله: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٍ﴾ الآية^٤.

وكان النبي ﷺ: يقرأ القرآن فقال أبو سفيان والوليد وعتبة وشيبة للتضر بن الحارث: ما يقول محمد؟ فقال: أساطير الأولين، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية فنزل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الآية^٥.

الكلبي: قال التضر بن الحارث وعبد الله بن أمية: يا محمد لن نؤمن بك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومع أربعة أملاك يشهدون عليه أنه من عند الله وأنتك رسوله؟ فنزل: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ كُلِّ كِتَابٍ فِي قِبْطٍ﴾ الآية^٦ وقال قريش مكة أو يهود المدينة: إن هذه

١ - وفي بعض النسخ: وشرع مكان فرضت.

٢ - المائدة: ٣/

٣ - ن والقلم: ١/

٤ - الحاقة: ٤١/

٥ - الأنعام: ٢٥/

٦ - الأنعام: ٧/

الأرض ليست بأرض الأنبياء وإنما أرض الأنبياء الشام فانت الشام، فنزل: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيْسْتَغْفِرُوا نَكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآية.^١

وقال أهل مكة: تركت ملّة قومك، وقد علمنا أنّه لا يحملك على ذلك إلا الفقر، فإنّا نجمع لك من أموالنا حتّى تكون من أغنانا فنزل: ﴿قُلْ أَعْرِضْ عَنْهُ اتَّخِذْ وَلِيًّا﴾^٢ وكان المشركون إذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم على محمّد؟ قالوا: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^٣ فنزل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ الآية.^٤

ابن عباس: قالت قریش: إنّ القرآن ليس من عند الله، وإنما يعلمه بلعام وكان قيناً بمكة روميّاً نصرانيّاً، وقال الضحّاك: أرادوا به سلمان، وقال مجاهد: عبد النبيّ الحضرميّ يقال له يعيش فنزل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾^٥ وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ﴾^٦ واختلقه من تلقاء نفسه وأعانه عليه قوم آخرون يعنون عدّاساً مولى حوِيطب، ويسار غلام العلاء بن الحضرميّ، وحَمِيرًا مولى عامر، وكانوا أهل الكتاب، فكذبهم الله تعالى فقال: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا﴾ الآية.^٧ (١: ٧٨ - ٧٩)

٢ - الأنعام / ١٤.

٤ - النحل / ٢٤.

٦ - الفرقان / ٤.

١ - الإسراء / ٧٦.

٣ - الفرقان / ٥.

٥ - النحل / ١٠٣.

٧ - الفرقان / ٤.

الفصل السابع عشر

نصّ ابن الجوزيّ (م: ٥٩٧) في تفسيره: «زاد المسير»

أول ما نزل من القرآن

«خمس آيات من سورة العلق»

وهي مكيّة بإجماعهم. وهي أول ما نزل من القرآن، وقيل: إنّها نزلت عليه في أول الوحي خمس آيات منها، ثمّ نزل باقيها في أبي جهل. (١٧٥:٩)
واختلفوا في أول ما نزل من القرآن، فأثبت المنقول أنّ أول ما نزل: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي...﴾ رواه عروّة عن عائشة، وبه قال قتادة وأبو صالح.

١- ورؤي عن جابر بن عبد الله أنّ أول ما نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾.

والصحيح: أنّه لما نزل عليه: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ رجع فتدثّر، فنزل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾ يدلّ عليه ما أخرج في الصحيحين من حديث جابر، قال: سمعت النّبيّ ﷺ وهو يحدث... [وذكر كما تقدّم عن الطبريّ، ثمّ قال:].

٢- ورؤي عن الحسن وعكرمة أنّ أول ما نزل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٥:١)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ البقرة ٢٨١.

٣- قال ابن عباس وأبو سعيد الخدريّ وسعيد بن جبّير وعطية ومقاتل وآخرون:

هذه آخر آية نزلت من القرآن^١.

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة التوبة)

٤- هي مدنيّة بإجماعهم، سوى الآيتين اللتين في آخرها: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ فإنّهما نزلتا بمكة؛ روى البخاريّ في صحيحه «من حديث البراء، قال: آخر سورة نزلت: «بَرَاءَةٌ»^٢.

وقد تُقِلُّ عن بعض العرب: أنّه سمع قارئاً يقرأ هذه السورة، فقال الأعرابيّ: إني لأحسب هذه من آخر ما نزل من القرآن، قيل له: ومن أين علمت؟ فقال: إني لأسمع عهوداً تُنْبِذُ وصايا تُنفَذ. ^٣(٣٨٨:٣)

(سورة النصر)

و هي مدنيّة بإجماعهم، وفي أفراد مُسلم من حديث ابن عباس: أنّها آخر سورة نزلت جميعاً.

٥- قال ابن عباس: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...﴾ دأب من الله ووداع من الدنيا قال قتادة: وعاش بعد نزول هذه السورة سنتين. (٩: ٢٥٥ و ٢٥٧)

١ - رواه الطبري والنسائي في «السنن الكبرى»، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال: رواه الطبراني بإسنادين، رجال أحدهما ثقة وظاهر هذه الرواية يعارض ما ثبت عن ابن عباس من أن آخر آية نزلت هي آية الرّبا. فقد روى البخاري في «صحيحه» عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الرّبا. وطريق الجمع بين الروایتين كما قال الحافظ ابن حجر: إن هذه الآية (يريد آية الرّبا) ختام الآيات المنزلة في الرّبا؛ إذ هي معطوفة عليهن.

٢ - صحيح البخاري ٢٢٧:٨. ٣ - كذا في الأصل، والظاهر: لا تُنفَذ.

الفصل الثامن عشر

نصّ الفخر الرّازيّ (م: ٦٠٦) في «تفسير الكبير»

أول ما نزل من القرآن

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾

زعم المفسّرون أنّ هذه السّورة أول ما نزل من القرآن، وقال آخرون: الفاتحة أول ما نزل، ثمّ سورة القلم.

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغُفَ...﴾^١ وفيه مسائل: المسألة الأولى أكثر المفسّرين على أنّ المراد من الإنسان هاهنا إنسان واحد، وهو أبو جهل [إلى أن قال:].

القائلون بهذا القول منهم من زعم أنّه ليست هذه السّورة من أوائل ما نزل. ومنهم من قال: يحتمل أن يكون خمس آيات من أول السّورة نزلت أولاً، ثمّ نزلت البقيّة بعد ذلك في شأن أبي جهل، ثمّ أمر النبيّ ﷺ بضمّ ذلك إلى أول السّورة؛ لأنّ تأليف الآيات إنّما كان بأمر الله تعالى، ألا ترى أنّ قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^٢، آخر ما نزل عند المفسّرين؟ ثمّ هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل. (٣٢: ١٣ و ١٧)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ البقرة / ٢٨١.

قال ابن عباس: هذه الآية آخر آية نزلت على الرسول ﷺ، ذلك لأنّه ﷺ لمّا حجّ، نزلت:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ...﴾^١ وهي آية الكلاله، ثم نزل وهو واقف بعرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾^٢ ثم نزل ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ...﴾ فقال جبرئيل ﷺ يا محمد!... [وذكر كما تقدّم عن الميبدّي] (١١٧:١١٢)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ الآيتين

قال الحسن: هاتان الآيتان آخر ما أنزل الله من القرآن، وما أنزل بعدهما قرآن. وقال أبي بن كعب: أحدث القرآن عهداً بالله عزّ وجلّ هاتان الآيتان، وهو قول سعيد بن جبّير. ومنهم من يقول آخر ما أنزل من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ (٢٣٨:١٦)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة البراءة)

روي عن ابن عباس قال لثuman: ما حملكم على أن عمدتم إلى سورة براءة وهي من المثين... [وذكر كما تقدّم عن الطبري الرقم ٢٩]. (٢١٥:١٥)

(سورة النصر)

إذا حملنا الفتح على فتح مكة، فللناس في وقت نزول هذه السورة قولان: أحدهما - أن فتح مكة كان سنة ثمان، ونزلت هذه السورة سنة عشر. وروي أنه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً، ولذلك سمّيت سورة التوديع. ثانيهما - أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة، وهو وعد لرسول الله ﷺ أن ينصره على أهل مكة، وأن يفتحها عليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَقَادٍ﴾^٣

وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^١ يقتضي الاستقبال: إذ لا يقال فيما وقع: إذا جاء، وإذا وقع، وإذا صحّ هذا القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات، من حيث إنه خبرٌ وجد مخبره بعد حين مطابقاً له، والإخبار عن الغيب معجز. (١٥٥: ٣٢)

ذكرنا أن الأصحّ هو أن السّورة نزلت قبل فتح مكّة. وأمّا الذين قالوا: إنّها نزلت بعد فتح مكّة، فذكر الماورديّ أنّه عليه السلام لم يلبث بعد نزول هذه السّورة إلاّ ستّين يوماً مستديماً للتّسبيح والاستغفار وقال مقاتل: عاش بعدها حولاً ونزل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فعاش بعده ثمانين يوماً، ثمّ نزل آية الكلاله، فعاش بعدها خمسين يوماً. ثمّ نزل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً، ثمّ نزل: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، فعاش بعدها أحد عشر يوماً، وفي رواية أخرى عاش بعدها سبعة أيام، والله أعلم كيف كان ذلك. (١٦٤: ٣٢)

الفصل التاسع عشر

نص الخازن (م: ٧٢٥) في تفسيره: «لَبَابُ التَّأْوِيلِ»

أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...)

عن يحيى بن كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن، قال: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) قلت: يقولون (اقْرَأْ)... [وذكر كما تقدّم عن الطبري والطوسي، ثم قال:] فَإِنْ قُلْتَ: دلّ هذا الحديث على أنّ سورة المدثر أول ما نزل من القرآن، و يعارضه حديث عائشة رضي الله عنها المخرج في الصحيحين أيضًا في بدء الوحي، [كما تقدّم عنه] وفيه «فغطني الثالثة حتّى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ - حتّى بلغ - مَا لَمْ يَعْلَمْ» فرجع الرسول ﷺ برجف فؤاده، الحديث.

قلت: الصواب الذي عليه جمهور العلماء، أنّ أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ كما صرح به في حديث عائشة. وقول من قال: إنّ سورة المدثر أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ضعيف لا يعتدّ به، وإنّما كان نزولها بعد فترة الوحي، كما صرح به في رواية الزهري عن أبي سلمة عن جابر، ويدلّ عليه أيضًا قوله في الحديث وهو يحدث عن فترة الوحي - إلى أن قال - وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾، ويدلّ عليه أيضًا قوله: «إِذَا الْمَلِكُ الَّذِي جَاءَ نِي بِحِرَاءٍ ثُمَّ قَالَ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾: وأيضًا قوله: ثم حمى الوحي بعد و تتابع.

فالصواب: أنّ أول ما نزل من القرآن على رسول الله ﷺ سورة (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ). وأنّ أول ما نزل بعد فتره الوحي سورة (المدثر)، وحصل بهذا الذي بيّناه الجمع بين الحديثين، والله أعلم. (١٤٣:٧-١٤٤)

(سورة العلق)

قال أكثر المفسّرون: هذا السّورة أوّل سورة نزلت من القرآن، وأوّل ما نزل خمس آيات من أوّلها إلى ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

عن عائشة قالت: أوّل ما بدى به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا... [وذكر كما تقدّم عن الطبري الرّقم ٩ وأبي الفتوح الرّقم ٢، ثم قال:].

في هذا الحديث دليل صحيح صريح على أنّ سورة (إقرأ) أوّل ما نزل من القرآن، وفيه ردّ على من قال: إنّ المدّثر أوّل ما نزل من القرآن، وقد تقدّم الكلام على ذلك.

والجمع بين القولين في أوّل سورة المدّثر، وهذا الحديث من مراسيل الصّحابة؛ لأنّ عائشة لم تدرك هذه القصّة، فيحتمل أنّها سمعتها من النّبي ﷺ أو من غيره من الصّحابة، ومرسل الصّحابيّ حجة عند جميع العلّماء، إلّا ما انفرد به الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني... (٧: ٢٢٢)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ البقرة / ٢٨١.

قال ابن عبّاس: هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ، فقال جبرئيل: ضعها... [وذكر كما تقدّم نحوه عن الطبري الرّقم ٤]. (١: ٢٥٥-٢٥٦)

آخر سورة نزلت من القرآن:

(سورة البراءة)

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: إنّ آخر سورة نزلت تامّة سورة التّوبة، وإنّ آخر آية نزلت آية الكلالّة.

وفي رواية مُسلم قال ﷺ: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ﴾ وروى عن ابن عبّاس: أنّ آخر آية نزلت آية الرّبا، وآخر سورة نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ...﴾ وروى عنه أنّ

آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾.

وروي أن النبي ﷺ عاش بعد نزول سورة التّصّر سنةً، ونزلت بعدها سورة براءة وهي آخر سورة نزلت كاملة، فعاش بعدها ستّة أشهر، هكذا ذكره البغوي.

وفيه نظر؛ لأنّه قد ثبت في الصحيحين من حديث أبي بكر، رضي الله عنه، فإن النبي ﷺ بعثه في الحجّة التي عليها قبل حجّة الوداع في رهط يؤذّن الناس يوم النّحر ألا؛ لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ثمّ أردف النبي ﷺ بعليّ بن أبي طالب فأمره أن يؤذّن ببراءة.

قال أبو هريرة: فأذّن معنا في أهل منى براءة، ألا لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، وكانت حجّة أبي بكر هذه سنة تسع قبل حجّة الوداع بسنة.

قال البغوي: ثمّ نزلت في طريق حجّة الوداع: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ...﴾، فسُميت آية الصّيف، ثمّ نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، عاش النبي ﷺ بعدها أحدًا وعشرين يومًا.

(٥٢٥:١)

الفصل العشرون

نَصُّ الْقُرْطُبِيِّ (م: ٦٧١) فِي تَفْسِيرِهِ «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ»

أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ

(سورة الفاتحة)

اختلفوا أهى مكّية أم مدنيّة؟ فقال ابن عبّاس وقَتادة وأبو العالية الرّياحيّ - واسمه رُفيع - وغيرهم: هي مكّية، وقال أبو هُرَيْرَةَ ومجاهد وعطاء بن يسار والزُّهريّ وغيرهم: هي مدنيّة. ويقال: نزل نصفها بمكّة ونصفها بالمدينة، حكاه أبو الليث نصر بن محمّد بن إبراهيم السمرقنديّ في تفسيره.

والأوّل أصح؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾^١ وَالْجُحْرُ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ، وَلَا خِلَافَ أَنْ يُفْرَضَ الصَّلَاةُ كَانَ بِمَكَّةَ، وَ مَا حَفِظَ أَنَّهُ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَطُّ صَلَاةً بِغَيْرِ ﴿أَلْعَزْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يدلّ على هذا قوله ﷺ: «لَا صَلَاةَ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ» وَ هَذَا خَبَرٌ عَنِ الْحَكَمِ لَا عَنِ الْإِبْتِدَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقد ذكر القاضي ابن الطيّب اختلاف النّاس في أوّل ما نزل من القرآن؛ فقليل: المدثّر، وقيل: اقرأ وقيل: الفاتحة. وذكر البيهقيّ في «دلائل النّبوة» عن أبي ميسرة عمر بن شَرَحْبِيل... [وذكر كما تقدّم عن الطبرسيّ، ثم قال:]

قال البيهقيّ: ﷺ هذا منقطع، يعني هذا الحديث، فإن كان محفوظاً، فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد ما نزل عليه: ﴿إِقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ و﴿يَاءُ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾ (١١٥:١)

(سورة العلق)

هذه السورة أول ما نزل من القرآن في قول معظم المفسرين، نزل بها جبريل على النبي ﷺ وهو قائم على جراء، فعلمه خمس آيات من هذه السورة وقيل: إن أول ما نزل ﴿يَاءُ يُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ قاله جابر بن عبد الله.

وقيل: فاتحة الكتاب أول ما نزل، قاله أبو ميسرة الهمداني.
وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.
والصحيح الأول؛ قالت عائشة: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة، فجاء الملك، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾ خَرَجَ الْبُخَارِيُّ.
و في الصحيحين عنها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا... [وذكر كما تقدّم عن الطبري الرقم ٩، ثم قال:]

- ١- قال أبو رجاء الطاردي: وكان أبو موسى الأشعري يطوف علينا في هذا المسجد، مسجد البصرة، فيقعنا جلقاً، فيقرئنا القرآن، فكأنني أنظر إليه بين ثوبين له أبيضين، وعنه أخذت هذه السورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وكانت أول سورة أنزلها الله على محمد ﷺ و روت عائشة رضي الله عنها أنها أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ، ثم بعدها: ن والقلم، ثم بعدها: ياء يُّهَا الْمُدَّثِّرُ ثم بعدها: والضُّحَى، ذكره الماوردي.
- ٢- وعن الزُّهري: أول ما نزل سورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، فحزن رسول الله ﷺ وجعل يعلو شواهد الجبال، فأتاه جبريل فقال له: إِنَّكَ نَبِيُّ اللَّهِ، فرجع إلى خديجة وقال: «دثروني وضُّوا عليّ ماءً بارداً»، فنزل: ﴿يَاءُ يُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾ (١١٧: ٢٠-١١٨)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ النساء / ١٧٦.

قال البراء بن عازب: هذه آخر آية نزلت من القرآن، كذا في كتاب مسلم.

- ٣- وقيل: نزلت والنبي ﷺ متجهز لحجة الوداع، ونزلت بسبب جابر، قال جابر بن عبد الله: مرضت، فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين، فأغمي عليّ، فتوضأ

رسول الله ﷺ ثم صَبَّ عليَّ من وَضُوئه فأفقتُ، فقُلْتُ: يا رسول الله، كيف أقضي في مالي؟ فلم يردَّ عليَّ من شيئاً حتَّى نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ رواه مسلم. وقال: آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ...﴾ [و سيأتي لاحقاً]. (٢٨:٦)

﴿أَلَيْسَ لَكُم دِينُكُمْ...﴾ المائدة/٣.

والذين عبارة عن الشرائع التي شُرِع وفُتِح لنا، فإنها نزلت نجومًا. و آخر ما نزل منها هذه الآية، ولم ينزل بعدها حُكم، قاله ابن عباس والسُّدي. وقال الجمهور: المراد معظم الفرائض والتَّحليل والتَّحريم، قالوا: قد نزل بعد ذلك قرآن كثير، ونزلت آية الرِّبَا، ونزلت آية الكَلالة، إلى غير ذلك، وإنَّما كمل معظم الدِّين وأمر الحجِّ إذ لم يطف معهم في هذه السَّنة مشرك، ولا طاف بالبيت عريان، ووقف النَّاس كلَّهم بعرفه. (٦١:٦)

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾ البقرة/٢٨١.

قيل: إنَّ هذه الآية نزلت قبل موت النَّبي ﷺ بتسع ليالٍ، ثم لم ينزل بعدها شيء، قاله ابن جرير. وقال ابن جبير ومقاتل: بسبع ليالٍ، وروي بثلاث ليالٍ، وروي أنَّها نزلت قبل موته بثلاث ساعات، وأنَّه ﷺ قال: «اجعلوها بين آية الرِّبَا وآية الدِّين». وحكى مكِّي: أنَّ النَّبي ﷺ قال: «جاءني جبريل، فقال: اجعلها على رأس مستتين وثمانين آية».

قلت: وحكى عن أبي بن كعب وابن عباس وقَتادة: أنَّ آخر ما نزل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ إلى آخر الآية.

والقول الأوَّل أعرف وأكثر وأصحَّ وأشهر، ورواه أبو صالح عن ابن عباس، قال: آخر ما نزل... [و ذكر كما تقدَّم عن المِنبِّدي، ثم قال:] وهو قول ابن عمر: أنَّها آخر ما نزل، وأنَّه ﷺ عاش بعدها، أحدًا وعشرين يومًا. (٣٧٥:٣)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ التوبة / ١٢٨

٤- وحكى الثَّقَاش عن أَبِي بن كعب أَنَّهُ قال: أَقْرَبُ الْقُرْآنَ عَهْدًا بِاللَّهِ تَعَالَى هَاتَانِ الْآيَتَانِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ.
وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس: أَنَّ آخِرَ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾، ذَكَرَهُ الْمَؤَرِّدِيُّ.

وقد ذكر عن ابن عباس خلافة، على ما ذكرناه في البقرة وهو أصح. وقال مقاتل: تَقَدَّمَ نَزُولُهَا بِمَكَّةَ، وَهَذَا فِيهِ بَعْدُ؛ لِأَنَّ السُّورَةَ مَدَنِيَّةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وقال يحيى بن جَعْدَةَ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ... [وذكر كما تقدّم عن أبي الفتح الرّقم ٦، ثم قال:]

قال علماؤنا: الرَّجُلُ هُوَ خُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ، وَإِنَّمَا أُثْبِتَهُمَا عُمَرُ بِشَهَادَتِهِ وَحْدَهُ لِقِيَامِ الدَّلِيلِ عَلَى صَحَّتِهَا فِي صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَهِيَ قَرِينَةٌ تَغْنِي عَنْ طَلَبِ شَاهِدٍ آخَرَ، بِخِلَافِ آيَةِ الْأَحْزَابِ ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾^١ فَإِنَّ تِلْكَ ثَبَتَتْ بِشَهَادَةِ زَيْدٍ وَخُزَيْمَةَ، لِسَمَاعِهِمَا إِبَاهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ.

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة المائدة)

سورة المائدة تدعى في ملكوت الله المُنْقِذَةُ، تُنْقِذُ صَاحِبَهَا مِنْ أَيْدِي مَلَائِكَةِ الْعَذَابِ وَمِنْ هَذِهِ السُّورَةِ مَا نَزَلَ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ. وَمِنْهَا مَا أُنْزِلَ عَامَ الْفَتْحِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَجْعَلَنَّكُمْ شَنَاةً قَوْمٌ﴾ الْآيَةَ. وَكُلُّ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَهُوَ مَدَنِيٌّ، سِوَاءَ نَزَلٍ بِالْمَدِينَةِ أَوْ فِي سَفَرٍ مِنَ الْأَسْفَارِ. وَإِنَّمَا يَرَسُمُ بِالْمَكِيِّ مَا نَزَلَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ. وَقَالَ أَبُو مَيْسِرَةَ: الْمَائِدَةُ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ، لَيْسَ فِيهَا مَنْسُوخٌ، وَفِيهَا ثَمَانِي عَشْرَةَ فَرِيشَةً لَيْسَتْ فِي غَيْرِهَا... [ثم ذكر آيات الفريضة وإن شئت فراجع].

وروي عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ سُورَةَ الْمَائِدَةِ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ وَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ سُورَةَ الْمَائِدَةِ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ فَأَحِلُّوا حِلَالَهَا وَحَرِّمُوا حَرَامَهَا» وَنَحْوَهُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَوْقُوفًا؛ قَالَ جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ... [وَذَكَرَ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ الْحَاكِمِ، الرَّقْمُ ٨]. (٣٠: ٦)

(سورة البراءة)

وَكَانَتْ الْأَنْفَالُ مِنْ أَوَائِلِ مَا أُنْزِلَ، وَبَرَاءَةُ مِنْ آخِرِ الْقُرْآنِ، وَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهَةً... [وَذَكَرَ كَمَا تَقَدَّمَ عَنِ الطَّبْرِيِّ الرَّقْمُ ٢٩]. (٨: ٦٢)

الفصل الحادي والعشرون

نص ابن كثير (م: ٧٧٤) في تفسيره

أول سورة نزلت من القرآن

(سورة الفاتحة)

وهي مكية، قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية. وقيل: مدنية، قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزُّهري.

ويقال: نزلت مرتين، مرة بمكة ومرة بالمدينة، والأول أشبه لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ﴾^١ والله تعالى أعلم.

وحكى أبو الليث السمرقندي: أن نصفها نزل بمكة، ونصفها الآخر نزل بالمدينة، وهو غريب جداً، نقله القرطبي عنه...

وقد قيل: إن الفاتحة أول شيء أنزل من القرآن، كما ورد في حديث رواه البيهقي في «دلائل النبوة»، ونقله الباقلاني أحد أقوال ثلاثة.

وقيل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثُرُ﴾ كما في حديث جابر في «الصحيح». وقيل: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وهذا هو الصحيح كما سيأتي تقريره في موضعه. (١٧: ١ و ١٩)

(سورة المدثر)

١- ثبت في صحيح البخاري من حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة، عن جابر أنه كان يقول: أول شيء نزل من القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثُرُ﴾ وخالفه الجمهور، فذهبوا إلى أن أول

القرآن نزولاً قوله: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ كما سيأتي ذلك هنالك إن شاء الله تعالى.
قال البخاري: حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْمُبَارَكِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي
كثير، قال: سألت أبا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَالَ:
﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾.

٢- وقد رواه مُسْلِمٌ مِنْ طَرِيقِ عَقِيلٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَ: أَخْبَرَنِي
جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّهُ سَمِعَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ فِطْرِ الْوَحْيِ... [وذكر كما تقدّم عن
الواحدي، ثم قال:] فَأَنْزَلَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ - إِلَى - فَاهْجُزْ﴾ قَالَ أَبُو سَلَمَةَ ﴿وَالْوَجْزُ﴾: الْأَوْتَانِ،
ثُمَّ حَمَى الْوَحْيَ وَتَتَابَعَ.

هذا لفظ البخاري، وهذا السياق هو المحفوظ، وهو يقتضي أنّه قد نزل الوحي قبل
هذا؛ لقوله: فإذا الملك الذي كان بجرا، وهو جبريل حين أتاه بقوله: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي
خَلَقَ﴾ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ
يَعْلَمُ *^١ ثمّ إنّ حصل بعد هذا فترة، ثمّ نزل الملك بعد هذا.

٣- ووجه الجمع أنّ أول شيء نزل فترة الوحي هذه السورة، كما قال الإمام أحمد؛
حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، حَدَّثَنَا عَقِيلٌ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَقُولُ: أَخْبَرَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «ثُمَّ فُتِرَ الْوَحْيُ
عَنِّي فِتْرَةً، فَبَيَّنَّا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصْرِي قَبْلَ السَّمَاءِ فَإِذَا الْمَلِكُ
الَّذِي جَاءَنِي قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجِئْتُ مِنْهُ فَرَقًا حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى
الْأَرْضِ، فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ لَهُمْ: زَمَلُونِي زَمَلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ - إِلَى -
فَاهْجُزْ﴾.^٢ ثمّ حَمَى الْوَحْيَ وَتَتَابَعَ. أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ بِهِ. (١٥٢:٧)

(سورة العلق)

٤- قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ
عَائِشَةَ، قُلْتُ: أَوَّلَ مَا بَدَأَ... [وذكر كما تقدّم عن الطبري و أبي الفتح، ثم قال:]

ثم لم ينشب وَرَقَّةُ أَنْ تَوْفِّي، و فتر الوحي فترة حتَّى حزن رسول الله ﷺ - فيما بلغنا - حُزْنًا غدا منه مرارًا كي يتردَّى من رؤوس شواهد الجبال، فكلَّمَا أوفى بِذَرْوَةِ جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل، فقال: يا محمَّد، إِنَّكَ رسول الله حقًّا، فيسكن بذلك جأشه، و تقرّ نفسه فيرجع، فإذا طالَّت عليه فتره الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بِذَرْوَةِ الجبل تبدَّى له جبريل فقال له مثل ذلك.

وهذا الحديث مخرج في الصَّحِيحِين من حديث الزُّهْرِيِّ، وقد تكلمنا على هذا الحديث من جهة سنده و متنه و معانيه في أوَّل شرحنا للبُخَارِيِّ مستقصى، فمن أرادَه فهو هناك محرَّر، و لله الحمد و المنة، فأوَّل شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، و هنَّ أوَّل رحمة رحم الله بها العباد، و أوَّل نعمة أنعم الله بها عليهم، و فيها التَّنبِيه على ابتداء خلق الإنسان من علقه، و أنَّ من كرمه تعالى أن ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فشرَّفه و كرمه بالعلم، و هو القدر الَّذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، و العلم تارةً يكون في الأذهان، و تارةً يكون في اللسان، و تارةً يكون في الكتابة بالبنان ذهني و لفظي و رسمي، و الرِّسمي يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال: ﴿اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ و في الأثر: «قَيَّدُوا العلم بالكتابة»، و فيه أيضًا: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ الله عِلْمَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ». (٣٢٥:٧)

آخر آية نزلت من القرآن:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ البقرة / ٢٨١.

و البقرة جميعها مدنيَّة بلاخلاف، و هي من أوائل ما نزل بها، لكنَّ قوله تعالى فيه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ...﴾ يقال: إنها آخر ما نزل من القرآن، و يحتمل أن تكون منها، وكذلك آيات الرِّبَا من آخر ما نزل. (٦٣:١)

٥- وقد روي أنَّ هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم، فقال ابن لهيعة: حدَّثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبَّير، قال: آخر ما نزل من القرآن كلّه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾ وعاش النَّبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليالٍ، ثمَّ مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع

الأول، رواه ابن أبي حاتم وقد رواه من حديث المسعودي عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ...﴾.

٦- وقد رواه التّسائي من حديث يزيد النّحوي عن عكرمة، عن عبد الله بن عباس، قال: آخر شيء نزل من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾ وكذا رواه الضّحّاك والعوفي عن ابن عباس.

٧- وروى الثّوري عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس... [وذكر كما تقدّم عن الواحدي والطبري الرّم ١٧ و ٢٨]. (١: ٥٩١)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ التوبة / ١٢٨.

٨- قال الإمام أحمد: حدّثنا محمد بن أبي بكر، حدّثنا بشر بن عمر، حدّثنا شعبة عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية.

٩- قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدّثنا روح، حدّثنا عبد المؤمن، حدّثنا عمر بن شقيق، حدّثنا أبو جعفر الرّازي عن الرّبيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي كعب، أنّهم جمعوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر، فكان رجال يكتبون، ويملّي عليهم أبي بن كعب، فلمّا انتهوا إلى هذه الآية من سورة البراءة: ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ...﴾^١ فظنّوا أنّ هذه آخر ما نزل من القرآن، فقال لهم أبي بن كعب: إنّ رسول الله ﷺ أقرّاني بعدها آيتين ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾^٢ إلى آخر السّورة. قال: هذا آخر ما نزل من القرآن، فختم بما فتح به بالله الذي لا إله إلا هو، وهو قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^٣ وهذا غريب أيضاً. (٣: ٤٨٠)

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ...) الكهف / ١١٠.

٢- التوبة / ١٢٨.

١- التوبة / ١٢٧.

٣- الأنبياء / ٢٥.

١٠- وقال ابن جرير: حدثنا أبو عامر إسماعيل بن... [وذكر كما تقدّم عن الطبري...]

الرقم ٧، ثم قال: [

و هذا أثر مشكل، فإنّ هذه الآية آخر سورة الكهف، والكهف كلّها مكّيّة، ولعلّ معاوية أراد أنّه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تتغيّر حكمها، بل هي مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة، فروى بالمعنى على ما فهمه، والله أعلم. (٤٣٥:٤-٤٣٦)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة المائدة)

١١- وقد روى الترمذي عن قُتَيْبَةَ، عن عبد الله بن وهب، عن حُيَيٍّ، عن أبي عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو، قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح، ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب حسن؛ وقد روي عن ابن عباس أنّه قال: آخر سورة أنزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

١٢- وقد روى الحاكم في مستدركه من طريق عبد الله محمد بن يعقوب، حدثنا يحيى بن نصر، قال قرأ عليّ عبد الله بن وهب، أخبرني معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية، عن جُبَيْر بن نُفَيْر... [وذكر كما تقدّم عنه الرقم ٨]. (٤٦٩:٢)

(سورة البراءة)

١٣- هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، كما قال البخاري: حدثنا أبو الوليد... [وذكر كما تقدّم عن الواحدي، الرقم ١٥]

(سورة النصر)

١٤- أخبرنا محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أخبرنا جعفر عن أبي العَمَيْس، وأخبرنا أحمد بن سليمان، حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو العَمَيْس عن عبد المجيد بن سُهَيْل، عن عُبَيْد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: قال لي ابن عباس: يا بن عتبة، أتعلم آخر سورة من

القرآن نزلت؟ قلت: نعم، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: صدقت.

١٥- وروى الحافظان أبو بكر البزار والبيهقي من حديث موسى بن عبيدة البريدي عن صدقة بن يسار، عن ابن عمر، قال: أنزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ على رسول الله ﷺ وأواسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، فأمر بإحلاته القواء فرحلت، ثم قام فخطب الناس، فذكر خطبته المشهورة.

١٦- وقال الحافظ البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصّّار، حدثنا الأسقاطي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام عن هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال: «إِنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي» فبكت ثم صَحِكتُ، وقالت: «أخبرني أنه نُعِيَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ، فبكت، ثم قال: اصبري، فَإِنَّكَ أَوَّلُ أَهْلِي لِحَاقًا بِي، فَصَحِكتُ». (٣٩:٧)

و نصّه أيضًا في «البداية والنهاية»^١

كيف بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ وذكر أول شيء أنزل عليه من القرآن^٢
كان ذلك وله ﷺ من العمر أربعون سنة. وحكى ابن جرير عن ابن عباس وسعيد بن المسيّب أنه كان عمره إذا ذاك ثلاثًا وأربعين سنة.

١٧- قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير... عن عائشة أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ... [إلى أن قال:] قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلمة أن جابر... [و ذكر كما تقدّم عنه].

١٨- وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث الليث به، و من طريق يونس و معمر عن الزهري، كما علّقه البخاريّ عنهما، وقد رمزنا في الحواشي على زيادات مسلم

١ - بعض هذا النص يشبه ماورد في «السيرة النبوية» لا بن هشام ١: ٢٥١ (مطبعة مصطفى البابي وأولاده بمصر عام: ١٣٥٥ هـ. ق).

٢ - راجع الفصل (٤٥، ٤٦، ٤٨، ٤٩) من هذا الباب و باب كيفية نزول الوحي حيث تجد هناك نظرة تحليلية حول بعض الروايات التي جاءت في هذا النص، نقلًا عن الأساتذة: السبحاني ومرتضى العاملي والملكي والأراكي وغيرهم. (م)

ورواياته، والله الحمد، وانتهى سياقه إلى وَرَقَةٍ: أنصرك نصرًا مؤزَّرًا.

فقول أم المؤمنين عائشة: أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصّادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصّبح، يقوّي ما ذكره محمّد بن إسحاق بن يسار عن عُبَيْد بن عمر اللّيثي، أن النّبي ﷺ قال: «فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: (اقرأ)، فقلت: ما أقرأ؟ فغتنّي، حتّى ظننت أنّه الموت، ثمّ أرسلني» وذكر نحو حديث عائشة سواء، فكان هذا كالتّوطئة لما يأتي بعده من اليقظة، وقد جاء مصرّحًا بهذا في مغازي موسى بن عُقبة عن الزّهرّي، أنّه رأى ذلك في المنام، ثمّ جاءه الملك في اليقظة.

١٩- وقد قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتابه «دلائل النّبوة»: حدّثنا محمّد بن أحمد بن الحسن، حدّثنا محمّد بن عثمان بن أبي شيبة، حدّثنا جناب بن الحارث، حدّثنا عبد الله بن الأجلح عن إبراهيم، عن علقمة بن قيس، قال: إنّ أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتّى تهدأ قلوبهم، ثمّ ينزل الوحي بعد وهذا من قبل علقمة بن قيس نفسه، وهو كلام حسن، يؤيّد ما قبله ما يؤيّد ما بعده.

[وجدير بالذّكر؛ أن بعض شرحه لهذا النّص تحت عنوان (عمره ﷺ) وقت بعثته وتاريخها] قد ذكر سابقًا في باب كيفيّة نزول القرآن. ونأتي الآن على بقيّته.]

وأما قول جبريل (اقرأ) فقال: «ما أنا بقارى» فالصّحيح أن قوله «ما أنا بقارى» نفّي، أي لست ممّن يحسن القراءة. وممّن رجّحه النّوّي وقبّله الشّيخ أبو شامة. ومن قال: إنّها استفهاميّة، فقله بعيد؛ لأنّ الباء لاتزاد في الإثبات. ويؤيّد الأوّل رواية أبي نعيم من حديث المعتمر بن سلیمان عن أبيه، فقال رسول الله ﷺ - وهو خائف يردد - «ما قرأت كتابًا قطّ، ولا أحسنه، وما أكتب وما أقرأ» فأخذه جبريل فغتنّه غتنًا شديدًا، ثمّ تركه، فقال له: «اقرأ»، فقال محمّد ﷺ: «ما أرى شيئًا أقرأه، وما أكتب» يروى «فغطني» كما في الصّحيحين و«غتنّي»، ويروى «قد غتنّي» أي خنقني «حتّى بلغ منّي الجهد» يروى بضمّ الجيم وفتحها، والنّصب والرّفْع، وفعل به ذلك ثلاثًا.

قال أبو سلیمان الخطّابي: وإنّما فعل ذلك له ليلو صبره، ويحسن تأديبه، فيرتاض لاحتمال ما كلّفه به من أعباء النّبوة، ولذلك كان يعترّيه مثل حال المحموم، وتأخذه

الرّحضاء، أي البهر والعرق. وقال غيره: إنّما فعل ذلك الأمور؛ منها أن يستيقظ لعظمة ما يلقي إليه بعد هذا الصّنيع المشقّ على النّفس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^١ ولهذا كان عليه الصّلاة والسّلام إذا جاءه الوحي يحمرّ وجهه، ويغطّ كما يغطّ البكر من الإبل، ويتفصّد جبينه عرقاً في اليوم الشّديد البرد.

وقوله: فرجع بها رسول الله ﷺ إلى خديجة يرجف فؤاده، وفي رواية: بوادره، جمع بادرة: قال أبو عبيدة: وهي لحمة بين المنكب والعتق، وقال غيره: هو عروق تضطرب عند الفزع وفي بعض الروايات: ترجف بآدله، واحدها بأدلة، وقيل: بادل، وهو ما بين العتق والثّرؤفة، وقيل: أصل الثّدي، وقيل لحم الثّديين، وقيل غير ذلك.

فقال: «زملوني زملوني» فلمّا ذهب عنه الرّوع قال لخديجة: «مالي؟ أي شيء عرض لي؟»، وأخبرها ما كان من الأمر. ثمّ قال: «لقد خشيت على نفسي» وذلك لأنّه شاهد أمراً لم يعهده قبل ذلك، ولا كان في خلدّه. ولهذا قالت خديجة: «أبشر، كلّا والله، لا يخزيك الله أبداً». قيل: من الخزي، وقيل: من الحزن، وهذا لعلمها بما أجرى الله به جميل العوائد في خلقه أنّ من كان متّصفاً بصفات الخير لا يخزي في الدّنيا ولا في الآخرة ثمّ ذكرت له منصفاته الجليلة ما كان من سجاياه الحسنة، فقالت: إنّك لتصل الرّحم، وتصدّق الحديث - وقد كان مشهوراً بذلك صلوات الله وسلامه عليه عند الموافق والمفارق - وتحمل الكلّ أي عن غيرك تعطي صاحب العيلة ما يريحه من ثقل مؤنة عياله - «و تكسب المعدوم»، أي تسبق إلى فعل الخير، فتبادر إلى إعطاء الفقير، فتكسب حسنته قبل غيرك ويسمّى الفقير معدوماً لأنّ حياته ناقصة، فوجوده وعدمه سواء...

وقال الخطّابي: الصّواب وتكسب المعدم، أي تبذل إليه، أو يكون تلبس العدم بعطيّة مالاً يعيش به واختار شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزيّ أنّ المراد بالمعدوم هاهنا المال المعطى، أي يعطي المال لمن هو عادمه ومن قال: إنّ المراد إنّك تكسب بالتّجارك المال المعدوم، أو التّفيس القليل النّظير، فقد أبعد النّجعة، وأغرق في التّزع، وتكلّف ما ليس له به علم، فإنّ مثل هذا لا يمدح به غالباً، وقد ضعّف هذا القول عيّاض والنّوّي وغيرهما، و

الله أعلم.

«تقري الضيف» أي تكرمه في تقديم قراه، وإحسان مأواه، «و تعين على نوائب الحق»، و يروى «الخير»، أي إذا وقعت نائبة لأحد في خير أعنت فيها، وقمت مع صاحبها حتى يجد سداداً من عيش، أو قواماً من عيش، وقوله: ثم أخذته فانطلقت به إلى ابن عمها وَرَقَّة بن نُوَقل، وكان شيخاً كبيراً قد عمي وقد قدمنا طرفاً من خبره مع ذكر زيد بن عمرو بن نُفَيْل رحمه الله، وأنه كان ممن تنصّر في الجاهليّة، ففارقهم وارتحل إلى الشام، هو وزيد بن عمرو و عثمان بن الحويرث وعُبَيْد الله بن جَحْش، فتنصّروا كلهم؛ لأنهم وجدوه أقرب الأديان إذ ذاك إلى الحق، إلا زيد بن عمرو بن نُفَيْل، فإنه رأى فيه دخلاً فيه وتخبّطاً وتبديلاً وتحريفاً وتأويلاً، فأبت فطرته الدخول فيه أيضاً، وبشروه الأبحار والرهبان بوجود نبيّ قد أزف زمانه، واقترب أوانه، فرجع يتطلّب ذلك، واستمرّ على فطرته و توحيده. لكن اخترمته النّيّة قبل البعثة المحمّديّة وأدركها وَرَقَّة بن نُوَقل، وكان يتوسّمها في رسول الله ﷺ كما قدّمنا بما كانت خديجة تنعته له و تصفه له، وما هو منظو عليه من الصفات الظاهرة الجميلة وما ظهر عليه من الدلائل والآيات، ولهذا لما وقع ما وقع أخذت بيد رسول الله ﷺ وجاءت به إليه، فوقفت به عليه وقالت: ابن عمّ، اسمع من ابن أخيك، فلما قصّ عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى، قال وَرَقَّة: سُبُوح سُبُوح، هذا النّاموس الذي أنزل على موسى، ولم يذكر عيسى وإن كان متأخراً بعد موسى، لأنّه كانت شريعته متّمة ومكّلة لشريعة موسى ﷺ، ونسخت بعضها على الصحيح من قول العلماء. كما قال: «وَلِأَحَلِّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ»^١ وقول وَرَقَّة هذا كما قالت الجنّ: «يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ»^٢. ثم قال وَرَقَّة: «ياليّتي فيها جذعاً، أي ياليّتي أكون اليوم شاباً متمكناً من الإيمان والعلم النّافع والعمل الصّالح، ياليّتي أكون حيّاً حين يخرجك قومك»، يعني حتى أخرج معك وأنصرك. فعندها قال رسول الله ﷺ: «أومخرجي هم»؟ قال السّهيلي: وإنما قال ذلك لأنّ فراق الوطن شديد على النّفوس، فقال: نعم، إنّه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلّا عودي،

وإن يُدركني يومك، أنصرك نصرًا مؤزَّرًا، أي أنصرك نصرًا عزيزًا أبدًا...

٢٠- وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن عن ابن لهيعة، حدَّثني أبو الأسود عن عروة، عن عائشة، أنَّ خديجة سألت رسول الله ﷺ عن وَرَقَةَ بن نَوْفَل، فقال: «قَدْ رَأَيْتُهُ، فَرَأَيْتُ عَلَيْهِ ثِيَابَ بَيَاضٍ، فَأَحْسَبُهُ لَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ثِيَابَ بَيَاضٍ» وهذا إسناد حسن، لكن رواه الزُّهْرِيُّ وَهْشَامٌ عَنْ عُرْوَةَ مَرْسَلًا، فَاللهُ أَعْلَمُ.

٢١- وروى الحافظ أبو يَعْلَى عن شُرَيْحٍ بن يُونُسَ، عن إِسْمَاعِيلَ، عن مُجَالِدٍ، عن الشَّعْبِيِّ، عن جَابِرِ بن عَبْدِ اللهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَأَلَ عَنْ وَرَقَةَ بن نَوْفَلٍ، فَقَالَ «قَدْ رَأَيْتُهُ، فَرَأَيْتُ عَلَيْهِ ثِيَابَ بَيَاضٍ، أَبْصَرْتُهُ فِي بَطْنَانِ الْجَنَّةِ وَعَلَيْهِ السُّنْدُسُ». وَسَأَلَ عَنْ زَيْدِ بنِ عَمْرِو وَبْنِ نُفَيْلٍ، فَقَالَ: «يَبِيعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَاحِدَةً» وَسَأَلَ عَنْ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: «أَخْرَجْتُهُ مِنْ غَمْرَةٍ مِنْ جَهَنَّمَ إِلَى ضَحَضَاحٍ مِنْهَا» وَسَأَلَ عَنْ خَدِيجَةَ، لِأَنَّهَا مَا تَتَّ قَبْلَ الْفَرَائِضِ وَأَحْكَامِ الْقُرْآنِ فَقَالَ: «أَبْصَرْتُهَا عَلَى نَهْرِ فِي الْجَنَّةِ فِي بَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ لَصَحَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبٍ» إِسْنَادٌ حَسَنٌ، وَبَعْضُهُ شَوَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

٢٢- وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ الْبَزَّارُ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بن إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ عَنْ هِشَامِ بن عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَسْبُوا وَرَقَةَ، فَإِنِّي رَأَيْتُ لَهُ جَنَّةً أَوْ جَنَّتَيْنِ» وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ عَسَاكِرٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْأَشْجَعِ عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ، وَرَوَاهُ مُرْسَلًا، وَهُوَ أَشْبَهُ.

٢٣- وَرَوَى الْحَافِظَانِ الْبَيْهَقِيُّ وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي كِتَابَيْهِمَا «دَلَائِلُ النَّبَوَّةِ» مِنْ حَدِيثِ يُونُسَ بن بُكَيْرٍ عَنْ يُونُسَ بن عَمْرٍو، عَنْ عَمْرِو بن شَرْحُبِيلٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَخَدِيجَةَ: «إِنِّي إِذَا خَلَوْتُ وَحْدِي سَمِعْتُ نَدَاءً، وَقَدْ خَشِيتُ وَاللهُ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا أَمْرٌ» قَالَتْ: مَعَاذَ اللهِ، مَا كَانَ لِي فِعْلٌ ذَلِكَ بِكَ، فَوَاللهُ إِنَّكَ لَتَوَدِّي الْأَمَانَةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ. فَلَمَّا دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ وَلَيْسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ ذَكَرْتُ لَهُ خَدِيجَةَ، فَقَالَتْ: يَا عَتِيقُ، إِذْ هَبْ مَعَ مُحَمَّدٍ إِلَى وَرَقَةَ. فَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى وَرَقَةَ، قَالَ: «وَمَنْ أَخْبَرَكَ؟» قَالَ: خَدِيجَةُ فَانْطَلَقَا إِلَيْهِ، فَقَصَّأَ عَلَيْهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي إِذَا خَلَوْتُ وَحْدِي سَمِعْتُ نَدَاءً خَلْفِي: يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ، فَانْطَلِقْ هَارِبًا فِي الْأَرْضِ». فَقَالَ لَهُ لَا

تفعل، إذا أتاك فائت، حتّى تسمع ما يقول لك، ثم اتنتي فأخبرني. فلما خلا ناداه يا محمد قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ - حتّى بلغ - وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قل لا إله إلا الله. فأتى وَرَقَّةً فذكر له ذلك، فقال له وَرَقَّة: أبشر ثم أبشر، فأنأ أشهد أنك الذي بَشْرُك ابن مريم، وأنتك على مثل ناموس موسى، وأنتك نبي مرسل، وأنتك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركني ذلك لأجاهدنّ معك. فلما توفّي قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيت القسّ في الجنة عليه ثياب الحرير؛ لأنّه آمن بي وصدّقني» يعني وَرَقَّة.

هذا لفظ البيهقيّ وهو مرسل وفيه غرابة وهو كون الفاتحة أول منازل، وقد قدّمنا من شعره ما يدلّ على إضماره الإيمان، وعقده عليه وتأكّده عنده، وذلك حين أخبرته خديجة ما كان من أمره مع غلامها ميّسرة، وكيف كانت الغمامة تظللّه في هجير القبط، فقال وَرَقَّة في ذلك أشعاراً قدّمناها قبل هذا، منها قوله:

لأمرٍ طالما بعث الشّيعا	لجبتُ و كنتُ في الذّكرى لجوجاً
فقد طال انتظاري يا خديجا	و وصفٍ من خديجة بعد وصفٍ
حديثك أن أرى منه خروجاً	ببطن المكّتين على رجائي
من الرّهبان أكره أن يعوجاً	بما خبرتنا من قولٍ قسّ
ويخصم من يكون له حجيجاً	بأنّ محمداً سيّسود قوماً
يقيم به البريّة أن تعوجاً	و يظهر في البلاد ضياء نور
و يلقى من يسأله قلوباً	فيلقى من يحاربه خساراً
شهدتُ و كنت أولهم ولوجاً	فياليتي إذا ما كان ذاكم
ولو عجت بمكّتها عجيجاً	ولو كان الذي كرهت قريش
إلى ذي العرش إذ سفلوا عروجاً	أرجّي با الذي كرهوا جميعاً
يضحّ الكافرون لها ضجيجاً	فإن يبقوا وأبق يكنّ أمورا

و قال أيضًا في قصيدته الأخرى:

و أخبار صدقِ خَبَرْتُ عن مُحَمَّدٍ	يخبرُّها عنه إذا غابَ ناصحُ
بأنَّ ابنَ عبدِاللهِ أحمدُ مُرسلُ	إلى كلِّ من ضُمَّتْ عليه الأباطحُ
وطنيَّ به أنْ سوفَ يَبْعَثُ صادقًا	كما أُرسلَ العبدانَ هودَ و صالحُ
و موسى و إِبْراهيمُ حتَّى يُرى له	بهاءُ و منشورٌ من الحقِّ و اُضحُ
و يتبعُه حيًّا لُؤيُّ بنُ غالبٍ	شبابُهُم و الأشيبونَ الجَاحِجُ
فإنْ أبْقَ حتَّى يدركَ النَّاسَ دهرُه	فإنِّي به مستبشِرُ الودِّ فارحُ
و إلَّا فإنِّي يا خديجةَ فاعلمي	عن أرضِكَ في الأرضِ العريضةِ سائحُ

و قال يونس بن بكير عن ابن إسحاق، قال وَرَقَّة:

فإن يك حقًّا يا خديجةَ فاعلمي... [و ذكر كما تقدَّم نحوه عن القمِّي ثم أضاف:]

إذا ما دَعَوْا بالويلِ فيها تتابعَتْ	مقامِعُ في هاماتهم ثم تُشَعَلُ
فُسُبحانَ من يُهوي الرِّياحَ بأمره	و من هو في الأيام ما شاء يُفَعَّلُ
و من عرشه فوق السَّمواتِ كلِّها	و أقضاؤه في خَلْقِه لا تُبَدَّلُ

و قال وَرَقَّة أيضًا:

باللِّرجال و صَرَفَ الذَّهر و القدر... [و ذكر كما تقدَّم مثله عن القمِّي ثم أضاف:]

فقلتُ علَّ الَّذي ترجينَ يُنْجِزُه	لكِ إلَّا لهُ فرجِي الخير و انتظري
و أرسليه إلينا كي نُسائلَه	عن أمرِه ما يرى في النُّوم و السَّهَرِ
فقال حينَ أتانا منطِقًا عَجَبًا	يقفُ منه أعالي الجِلْدِ و الشَّعرِ
إنِّي رأيتُ أمينَ الله و اجَهَنِي	في صورةٍ أكملتُ من أعظم الصُّورِ
ثمَّ استمرَّ فكاد الخوفُ يُذْعِرُنِي	مما يسلمُ من حولي من الشَّجَرِ
فقلتُ ظَنِّي و ما أدري أيصدقني	أن سوفَ يُبعثُ يتلو مُنزَل السُّورِ
و سوفَ يبليكَ إن أعلنتَ دَعوتَهُم	من الجهادِ بلا منَّ ولا كَدَرِ

هكذا أورد ذلك الحافظ البيهقي من الدلائل و عندي في صحتها عن وَرَقَّة نظر، والله أعلم.

٢٤- وقال ابن إسحاق حَدَّثَنِي عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية التَّقْفِيّ - وكان داعية - عن بعض أهل العلم أَنَّ رسول الله ﷺ حين أراد الله كرامته وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجة أبعد حتّى يحسر الثوب عنه، ويفضي إلى شعاب مكة ويطون أوديتها، فلا يمرّ بحجر ولا شجر إلّا قال: السّلام عليك يا رسول الله، قال: فيلتفت حوله عن يمينه وعن شماله وخلفه فلا يرى إلّا الشجر والحجارة، فمكث كذلك يرى ويسمع ماشاء الله أن يمكث، ثمّ جاءه جبريل ﷺ بما جاء من كرامة الله وهو بجراء في رمضان. قال ابن إسحاق: وحَدَّثَنِي وَهْب بن كيسان مولى آل الزُّبَيْر... [وذكر كما تقدّم عن الطبري الرّم ٣٤، ثمّ قال:].

جاء بعده من اليقظة، كما تقدّم من قول عائشة فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصّبح. ويحتمل أنّ هذا المنام كان بعد ما رآه في اليقظة صبيحة ليلتذ، ويحتمل أنّه كان بعده بمدة، والله أعلم.

٢٥- وقال موسى بن عُقبة عن الزُّهريّ عن سعيد بن المسيّب، قال: وكان فيما بلغنا أوّل ما رأى يعني رسول الله ﷺ أَنَّ الله تعالى أراه رؤيا في المنام، فشقّ ذلك عليه، فذكرها لا مرّاته خديجة، فعصمها الله عن التّكذيب، وشرح صدرها للتّصديق، فقالت: أبشر، فإنّ الله لم يصنع بك إلّا خيرا، ثمّ أنّه خرج من عندها، ثمّ رجع إليها فأخبرها أنّه رأى بطنه شقّ، ثمّ غسل وطهر، ثمّ أُعيد كما كان. قالت: هذا والله خير فأبشر. ثمّ استعلن له جبريل وهو بأعلى مكة، فأجلسه على مجلس كريم معجب. كان النّبي ﷺ يقول: «أجلسني على بساط كهينة الدّرّونك، فيه الياقوت واللؤلؤ» فبشره برسالة الله عزّ وجلّ حتّى اطمأنّ رسول الله ﷺ، فقال له جبرئيل: (اقرأ)، فقال: «كيف أقرأ»، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - إِلَى - مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. قال: يزعم ناس: أنّ (يأءُيها المُدثّر) أوّل سورة نزلت عليه، والله أعلم. قال فقيل رسول الله ﷺ رسالة ربّه، واتبّع ما جاء به جبريل من عند الله، فلمّا انصرف منقلبًا إلى بيته جعل لا يمرّ على شجر ولا حَجَر إلّا سلّم عليه، فرجع إلى أهله مسرورًا موقنًا أنّه قد رأى أمرًا عظيمًا. فلمّا دخل على خديجة، قال: «أرايتك التي كنت حدّثتك أنّي رأيته في المنام، فإنّه جبريل استعلن إليّ، أرسله إليّ ربّي عزّ وجلّ» وأخبرها بالذي

جاءه من الله وما سمع منه، فقالت: أبشر، فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً، واقبل الذي جاءك من أمر الله، فإنه حقّ وأبشر فإنك رسول الله حقاً. ثم انطلقت من مكانها فأنت غلاماً للعبث بن ربيعة بن عبد شمس نصرانياً من أهل نينوى يقال له: عدّاس، فقالت له: يا عدّاس، أذكرك بالله إلا ما أخبرتني، هل عندك علم من جبريل؟ فقال: قدّوس قدّوس، ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل الأوثان؟ فقالت: أخبرني بعلمك فيه، قال: فإنه أمين الله بينه وبين التّبيين، وهو صاحب موسى وعيسى عليه السلام. فرجعت خديجة من عنده، فجاءت ورّقة بن نوفل فذكرت له ما كان من أمر النّبي صلى الله عليه وآله وما ألقاه إليه جبريل، فقال لها ورّقة: يا بنيّة أخي ما أدري لعلّ صاحبك النّبيّ الذي ينتظر أهل الكتاب الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التّوراة الإنجيل، وأقسم بالله لأن كان إيتاه، ثم أظهر دعواه وأنا حيّ لأبليّن الله في طاعة رسوله وحسن مؤازرته للصّبر والتّصر. فمات ورّقة رحمه الله. قال الزّهرّي: فكانت خديجة أوّل من آمن بالله وصدّق رسوله صلى الله عليه وآله.

قال الحافظ البيهقي بعد إيراد ما ذكرناه والذي ذكر فيه من شقّ بطنه يحتمل أن يكون حكاية منه لما صنع به في صباه، يعني شقّ بطنه عند حليلة. ويحتمل أن يكون شقّ مرةً أخرى ثمّ ثالثة حين عرج به إلى السّماء، والله أعلم.

٢٦- وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة ورّقة بإسناده إلى سليمان بن طرخان التّيميّ؛ قال: بلغنا أنّ الله تعالى بعث محمّداً رسولاً على رأس خمسين سنة من بناء الكعبة، وكان أوّل شيء اختصّه به من النّبوة والكرامة رؤيا كان يراها، فقصّ ذلك على زوجته خديجة بنت خويلد، فقالت له: أبشر، فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً، فبينما هو ذات يوم في حراء، وكان يفرّ إلى من قومه إذ نزل عليه جبريل فدنا منه، فخافه رسول الله صلى الله عليه وآله مخافة شديدة، فوضع جبريل يده على صدره ومن خلفه بين كتفيه، فقال: اللهمّ أحطط وزرّه، واشرح صدره، وطهر قلبه أبشراً! فإنك نبيّ هذه الأمّة، (اقرأ)، فقال له نبيّ الله: وهو خائف يردد - «ما قرأت كتاباً قطّ، ولا أحسنه، وما أكتب وما أقرأ»، فأخذه جبريل فغتنه غتّاً شديداً ثمّ تركه، ثمّ قال له (اقرأ)، فأعاد عليه مثله، فأجلسه على بساط كهينة الدّرّنوك، فرأى فيه من صفاته وحسنه كهينة اللؤلؤ والياقوت، وقال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

الآيات، ثم قال له: لا تخف يا محمد، إنك رسول الله، ثم انصرف وأقبل على رسول الله ﷺ همّة، فقال: كيف أصنع وكيف أقول لقومي ثم قام رسول الله ﷺ وهو خائف، فاتاه جبريل من أمامه وهو في صعرته فرأى رسول الله ﷺ أمراً عظيماً ملاً صدره - فقال له جبريل: لا تخف يا محمد، جبريل رسول الله إلى أنبيائه ورسله، فأيقن بكرامة الله، فإنك رسول الله فرجع رسول الله ﷺ لا يمر على شجرٍ ولا حَجَرٍ إلّا هو ساجد، يقول: السّلام عليك يا رسول الله. فاطمأنت نفسه وعرف كرامة الله إياه فلمّا انتهى إلى زوجته خديجة أبصرت ما يوجّهه من تغير لونه فأفزعها ذلك، فقامت إليه، فلمّا دنت منه جعلت تمسح عن وجهه و تقول: لعلك لبعض ما كنت ترى وتسمع قبل اليوم، فقال: يا خديجة رأيت الذي كنت أرى في المنام، والصّوت الذي كنت أسمع في اليقظة وأُحال منه، فإنّه جبريل قد استعلن لي و كلمني وأقراني كلاماً، فزعت منه، ثم عاد إليّ فأخبرني أنّي نبيّ هذه الأُمّة، فأقبلت راجعاً، فأقبلت على شجرٍ وحجارة فقلن السّلام عليك يا رسول الله. فقالت خديجة: أبشر، فوالله لقد كنت أعلم أنّ الله لن يفعل بك إلّا خيراً، وأشهد أنّك نبيّ هذه الأُمّة الذي تنتظره اليهود، قد أخبرني به ناصح غلامي و بحيرى الرّاهب وأمرني أن أتزوّجك منذ أكثر من عشرين سنة: فلم تنزل برسول الله ﷺ حتّى طعم و شرب و ضحك، ثم خرجت إلى الرّاهب، وكان قريباً من مكّة، فلمّا دنت منه وعرفها قال: مالك يا سيّدة نساء قريش؟ فقالت: أقبلت إليك لتخبرني عن جبريل، فقال: سبحان الله ربّنا القُدّوس، ما بال جبريل يذكر في هذه البلاد التي يعبد أهلها الأوثان؟ جبريل أمين الله ورسوله إلى أنبيائه ورسله، وهو صاحب موسى وعيسى، فعرفت كرامة الله لمحمد. ثم أتت عبداً لعنّته بن ربيعة يقال له: عدّاس، فسألته فأخبرها بمثل ما أخبرها به الرّاهب و أزيد؛ قال: جبريل كان مع موسى حين أغرق الله فرعون و قومه، وكان معه حين كلمه الله على الطّور، وهو صاحب عيسى بن مريم الذي أيّده الله به. ثمّ قامت من عنده فأتت وَرَقَةَ بن نَوْفَل، فسألته عن جبريل، فقال لها مثل ذلك. ثمّ سألتها ما الخبر؟ فأحلفته أن يكتّم ما تقول له، فحلف لها، فقالت له: إنّ ابن عبد الله ذكر لي و هو صادق، أحلف بالله ما كذّبت، أنّه نزل عليه جبريل بجراء، وأنّه نبيّ هذه الأُمّة، و أقرأه آيات أرسل بها. قال: فدع و رَقَةَ لذلك، و قال: لئن كان جبريل قد استقرّت قدماه على

الأرض، لقد نزل على خير أهل الأرض، وما نزل إلا على نبي، وهو صاحب الأنبياء و الرسل يرسله الله إليهم، وقد صدقتك عنه، فأرسلني إلي ابن عبد الله أسأله وأسمع من قوله وأحدثه، فإنني أخاف أن يكون غير جبريل، فإن بعض الشياطين يتشبه به؛ ليضل به بعض بني آدم و يفسدهم، حتى يصير الرجل بعد العقل الرضي مدلهًا مجنونًا. فقامت من عنده و هي واثقة بالله أن لا يفعل بصاحبها إلا خيرًا، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما قال و رقة، فأنزل الله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ الآيات. فقال لها: كلاً والله، إنه لجبريل، فقالت له: أحب أن تأتيه فتخبره، لعل الله أن يهديه فجاءه رسول الله ﷺ فقال له و رقة هذا الذي جاءك جاءك في نور أو ظلمة؟ فأخبره رسول الله ﷺ عن صفة جبريل و ما رآه من عظمته و ما أوحاه إليه. فقال و رقة: أشهد أن هذا جبريل، وأن هذا كلام الله، فقد أمرك بشيء تبغّه قومك، وأنه لأمر نبوة، فإن أدرك زمانك أتبعك، ثم قال: أبشر ابن عبد المطلب بما بشرك الله به قال: وذاع قول و رقة و تصديقه لرسول الله ﷺ فشق ذلك على الملأ من قومه قال: و فتر الوحي، فقالوا: لو كان من عند الله للتابع، و لكن الله قلاه فأنزل الله: وَالصُّحُفِ، وَالْمَ نَشْرَحْ بِكُمَا لَهَا.

٢٧- وقال البيهقي: حدثنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس عن ابن إسحاق، حدثني إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير، أنه حدثه عن خديجة بنت خويلد أنها قالت... [و ذكر كما تقدم عن الطبري الرقم ٣٥، ثم قال:]. إن هذا لملك يا عم، فأثبت و أبشر. ثم آمنت به، و شهدت أن ما جاء به هو الحق.

٢٨- قال ابن إسحاق: فحدثت عبد الله بن حسن هذا الحديث، فقال: قد سمعت أُمِّي فاطمة بنت الحسين تحدث بهذا الحديث عن خديجة، إلا أنني سمعتها تقول: أدخلت رسول الله ﷺ بينها و بين درعها، فذهب عند ذلك جبريل عليه السلام.

قال: البيهقي: و هذا شيء كان من خديجة تصنعه تستثبت به الأمر احتياطاً لدينها و تصديقاً. فأما النبي ﷺ فقد كان وثق. بما قال له: جبريل، و أراه من الآيات التي ذكرناها مرة بعد أخرى، و ما كان من تسليم الشجر و الحجر عليه ﷺ تسليمًا.

٢٩- و قد قال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن بكير،

حدَّثنا إبراهيم بن طهمان، حدَّثني سَمَّاك بن حَرْب عن جابر بن سَمُرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن».

٣٠- وقال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا سليمان بن مُعَاذ عن سَمَّاك بن حَرْب، عن جابر بن سَمُرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ بِمَكَّةَ لِحَجْرًا كَانَ يَسْلَمُ عَلَيَّ لَيَالِيَ بُعِثْتُ، إني لأعرفه إذا مررت عليه».

٣١- وروى البيهقي من حديث إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير عن عباد بن عبد الله، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: «كنا مع رسول الله بمكة فخرج في بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا جبل إلا قال: السلام عليك يا رسول الله» وفي رواية: «لقد رأيتني أدخل معه الوادي، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليكم يا رسول الله، وأنا أسمع».

٣٢- قال البخاري في روايته المتقدمة: ثم فتر الوحي حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواحق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه تبدى له جبريل، فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع. فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل، فقال له مثل ذلك.

٣٣- وفي الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر، عن الزهري قال: سمعت أبا سلمة... [وذكر كما تقدم عن البخاري، الرقم ٦، ثم قال:].

فهذا كان أول ما نزل من القرآن بعد فترة الوحي لا مطلقاً، ذاك قوله: ﴿إِذْ رَأَيْنَا أَصْحَابَ الْمُنَى﴾ وقد ثبت عن جابر أن أول ما نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. واللائق حمل كلامه ما أمكن على ما قلناه، فإن في سياق كلامه ما يدل على تقدم مجيئ الملك الذي عرفه ثانياً بما عرفه به أولاً إليه. ثم قوله: يحدث عن فتره الوحي، دليل على تقدم الوحي على هذا الإيحاء، والله أعلم.

٣٤- وقد ثبت في الصحيحين من حديث علي بن المبارك وعند مسلم والأوزاعي كلاهما عن يحيى بن أبي كثير، قال سألت أبا سلمة... [وذكر كما تقدم عن البخاري، الرقم ٣، ثم قال:].

وقال في رواية: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجثيت منه».

وهذا صريح في تقدّم إتيانه إليه، وإنزاله الوحي من الله عليه ما ذكرناه، والله أعلم. ومنهم زعم: أن أول ما نزل بعد فتره الوحي، سورة: ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ...﴾^١ قاله محمد بن إسحاق.

وقال بعض القراء: ولهذا كبر رسول الله ﷺ في أولها فرحاً، وهو قول بعيد يردّه ما تقدّم من رواية صاحبي الصحيح، من أن أول القرآن نزولاً بعد فترة الوحي: ﴿يَاءُهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾. ولكن نزلت سورة: (والضحى) بعد فتره أخرى كانت ليالي يسيرة، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث الأسود بن قيس عن جندب بن عبد الله البجلي؛ قال: اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلة أو ليلتين أو ثلاثاً، فقالت امرأة ما أرى شيطانك إلا تركك، فأنزل الله، ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ وبهذا الأمر حصل الإرسال إلى الناس، وبالأول حصلت النبوة وقد قال بعضهم: كانت مدة الفترة قريباً من سنتين أو سنتين ونصفاً.

والظاهر والله أعلم أنها المدة التي اقترن معه ميكائيل، كما قال الشعبي وغيره، ولا ينفي هذا تقدّم إحياء جبريل إليه أولاً ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ثم اقترن به جبريل بعد نزول ﴿يَاءُهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبُّكَ فَكَبَّرُ * وَتَبَايَكَ فَطَحُ * وَالْوَجْزُ فَاهْجُرُ﴾^٢ و ثم حمي الوحي بعد هذا و تنابع - أي تدارك شيئاً بعد شيء - و قام حينئذ رسول الله ﷺ في الرسالة أتم القيام، و شمر عن ساق العزم، و دعا إلى الله القريب و البعيد، و الأحرار و العبيد، فأمن به حينئذ كل ليبب نجيب سعيد، واستمر على مخالفته و عصيانه كل جبار عنيد. (٣: ٢-٧)

الفصل الثاني والعشرون

نص الزركشي (م: ٧٩٧) في كتابه: «البرهان في علوم القرآن»

معرفة أول ما نزل من القرآن و آخر ما نزل

أول ما نزل

فأما أوله، ففي صحيح البخاري في حديث بدء الوحي ما يقتضي أن ما نزل عليه ﷺ
إفْرَأِ بِاسْمِ رَبِّكَ^١ ثم المدثر^٢.

وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث عائشة رضي الله عنها صريحاً، وقال: صحيح الإسناد.
ولفظ مسلم: أول ما نزل من القرآن: ﴿إفْرَأِ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ - إلى قوله - عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. ووقع في صحيح البخاري إلى قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، وهو مختصر، وفي الأول زيادة، وهي من الثقة مقبولة.

وقد جاء ما يعارض هذا، ففي صحيحي مسلم عن جابر: أول ما نزل من القرآن
سورة المدثر^٣.

و جمع بعضهم بينهما بأن جابراً سمع النبي ﷺ يذكر قصة بدء الوحي، فسمع آخرها
ولم يسمع أولها، فتوهم أنها أول ما نزلت، وليس كذلك، نعم هي أول ما نزل بعد سورة (إفْرَأْ)
وفترة الوحي؛ لما ثبت في الصحيحين^٤ أيضاً عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يحدث
عن فترة الوحي، قال في حديثه: بينما... [و ذكر كما تقدّم عن البخاري الرقم ٣ ثم قال:].
فقد أخبر في هذا الحديث عن الملك الذي جاءه بجراء قبل هذه المرة، وأخبر في

١ - اللق ١/ ٥٠. ٢ - صحيح البخاري ١: ٦٠٧ بسنده عن عائشة.

٣ - صحيح مسلم ١: ١٤٤ بسنده عن يحيى.

٤ - صحيح البخاري ١: ٢٢٨، و صحيح مسلم ١: ١٤٣، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله الأنصاري.

حديث عائشة أَنَّ نَزُولَ: ﴿إِقْرَأْ﴾ كَانَ فِي غَارِ حِرَاءَ، وَهُوَ أَوَّلُ وَحْيٍ، ثُمَّ فُتِرَ بَعْدَ ذَلِكَ. وَأَخْبَرَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ أَنَّ الْوَحْيَ تَتَابَعَ بَعْدَ نَزُولِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فَعَلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ ﴿إِقْرَأْ﴾ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مُطْلَقًا، وَأَنَّ سُورَةَ الْمُدَّثِّرِ بَعْدَهُ. وَكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ جِبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ: لَا تَضَادُّ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ، بَلْ أَوَّلُ مَا نَزَلَ: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ بِغَارِ حِرَاءَ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى خَدِيجَةَ عليها السلام وَصَبَّتْ عَلَيْهِ الْمَاءَ الْبَارِدَ، أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي بَيْتِ خَدِيجَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فَظَهَرَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ: ﴿إِقْرَأْ﴾ رَجَعَ فَتَدَثَّرَ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.

وَقِيلَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ، وَرَوَى ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي مَيْسِرَةَ: قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَمِعَ الصَّوْتَ انْطَلَقَ هَارِبًا، وَذَكَرَ نَزُولَ الْمَلِكِ عَلَيْهِ وَقَوْلَهُ قُلْ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إِلَى آخِرِهَا.

وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ فِي «الْإِنْتِصَارِ»: وَهَذَا الْخَبَرُ مَنْقُطٌ، وَأُثْبِتُ الْأَقَاوِيلَ ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، وَيَلِيهِ فِي الْقُوَّةِ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وَطَرِيقُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَقَاوِيلِ أَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنَ الْآيَاتِ: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ أَمْرُ التَّبْلِغِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ السُّورِ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ. وَهَذَا كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ «أَوَّلُ مَا يَحَاسِبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةَ»^١، وَ«أَوَّلُ مَا يَقْضَى فِيهِ الدَّمَاءُ»^٢ وَجَمَعَ بَيْنَهُمَا بِأَنَّ أَوَّلَ مَا يَحْكُمُ فِيهِ مِنَ الْمَظَالِمِ الَّتِي بَيْنَ الْعِبَادِ الدَّمَاءَ، وَأَوَّلُ مَا يَحَاسِبُ بِهِ الْعَبْدُ مِنَ الْفَرَائِضِ الْبَدَنِيَّةِ الصَّلَاةَ.

وَقِيلَ: أَوَّلُ مَا نَزَلَ لِلرَّسَالَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وَلِلنَّبَوَّةِ: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ قَالُوا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ دَالٌّ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّ النَّبُوَّةَ عِبَارَةٌ عَنِ الْوَحْيِ إِلَى الشَّخْصِ عَلَى لِسَانِ الْمَلِكِ بِتَكْلِيفٍ خَاصٍّ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ * قُمْ فَأَنْذِرْ^٣ دَلِيلٌ عَلَى رِسَالَتِهِ ﷺ لِأَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنِ الْوَحْيِ إِلَى الشَّخْصِ عَلَى لِسَانِ الْمَلِكِ بِتَكْلِيفٍ عَامٍّ. وَذَكَرَ الْقَاضِي فِي «الْإِنْتِصَارِ» رَوَايَةً، ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ سُورَةِ ﴿إِقْرَأْ﴾ ثَلَاثُ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ

١ - فاتحة الكتاب ١/.

٢ - نقله السيوطي في الجامع الصغير ١: ١٩٣، عن الطبراني، ولفظه «أَوَّلُ مَا يَحَاسِبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلَاةَ، فَإِنْ صَلَحَتْ صَلَحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ فَسَدَتْ، فَسَدَتْ سَائِرُ عَمَلِهِ».

٣ - رواه البخاري في كتاب الذِّبَاتِ ٤: ١٨٦، ولفظه «أَوَّلُ مَا يَقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدَّمَاءِ».

٤ - المدثر ١/٢.

نوح، وثلاث آيات من أول المدثر.
وعن مجاهد قال: أول سورة أنزلت (إقرأ)، ثم نوح.
وذكر الحاكم في «الإكليل» أن أول آية أنزلت في الإذن بالقتال قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ»^١.
وروي في المستدرک عن ابن عباس: أول آية أنزلت فيه: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ...»^٢.

آخر ما نزل

وأما آخره فاختلّفوا فيه؛ فعن ابن عباس رضي الله عنه [سورة] «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ»، وعن عائشة سورة المائدة، وقيل: «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ»^٣.
وقال السدي: آخر ما نزل: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»^٤. في «صحيح البخاري» في تفسير سورة براءة عن البراء بن عازب رضي الله عنهما: آخر آية نزلت: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ»^٥، و آخر سورة نزلت براءة.
وفي رواية غيره: آخر سورة أنزلت كاملة سورة براءة، و آخر آية نزلت خاتمة النساء، وذكر ابن الأنباري عن أبي إسحاق عن البراء؛ قال آخر آية نزلت من القرآن: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ»^٦، ثم قال: وأخطأ أبو إسحاق، ثم ساق سنده من طرق إلى ابن عباس: آخر آية أنزلت: «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ»^٧، وكان بين نزولها و وفاة النبي صلّى الله عليه وآله أحدٌ وثمانون يومًا، وقيل: تسع ليال، انتهى. [ثم ذكر رواية ابن عباس نقلًا عن الحاكم... كما تقدّم عنه الواقفي^٨، فقال:].

رواه أحمد في المسند عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية عن أبي بن كعب... [و ذكر كما تقدّم عن ابن كثير الرّقم ٩، ثم قال:].

و قال بعضهم: روى البخاري آخر ما نزل آية الرّبا. وروى مسلم آخر سورة نزلت

٢ - الحج / ٣٩.

٤ - التوبة / ١٢٩.

٦ - النساء / ١٧٦.

١ - التوبة / ١١١.

٣ - البقرة / ٢٨١.

٥ - النساء / ١٧٦.

٧ - البقرة / ٢٨١.

جميعًا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾^١.

قال القاضي أبو بكر في «الانتصا» وهذه الأقوال ليس في شيء، منها ما رُفع إلى النبي ﷺ ويجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد وتغليب الظن، وليس العلم بذلك من فرائض الدين، حتى يلزم ما طعن به الطاعنون من عدم الضبط.

و يحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من رسول الله ﷺ في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك، وإن لم يسمعه هو لمفارقته له ونزول الوحي عليه بقرآن بعده.

و يحتمل أيضاً أن تنزل الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها وتلاوتها عليهم بعد رسم ما نزل آخرًا وتلاوته، فيظن سامع ذلك أنه آخر ما نزل في الترتيب. (١: ٢٠٦ - ٢١٠)

الفصل الثالث والعشرون

نصّ ابن حجر (م: ٨٥٢) في «فتح الباري»

[بدء الوحي أوّل و آخر منازل من القرآن]

قوله: (بدء الوحي) قال عيّاض: روي بالهمز مع سكون الدّال من الابتداء، و بغير همز مع ضمّ الدّال و تشديد الواو من الظهور. قلت: ولم أره مضبوطاً في شيء من الروايات التي اتّصلت لنا إلا أنّه وقع في بعضها «كيف كان ابتداء الوحي» فهذا يرجح الأوّل و هو الذي سمعناه من أفواه المشايخ، و قد استعمل المصنّف هذه العبارة كثيراً، كبداء الحيض و بدء الأذان و بدء الخلق... (٥:١)

أوّل ما نزل من القرآن

قوله: «فقلت: أنبئت أنّه اقرأ باسم ربّك» في رواية أبي داود الطيالسيّ عن حرب، قلت: إنّه ما نزل: «اقرأ باسم ربّك» و لم يبيّن يحيى بن أبي كثير من أنباء بذلك، و لعلّه يريد عروة بن الزبير كما لم يبيّن أبو سلّمة من أنباء بذلك و لعلّه يريد عائشة، فإنّ الحديث مشهور عن عروة، عن عائشة كما تقدّم في بدء الوحي من طريق الزّهرّي عنه مطوّلاً و تقدّم هناك أنّ رواية الزّهرّي عن أبي سلّمة عن جابر، تدلّ على أنّ المراد بالأوّل في قوله: أوّل ما نزل سورة المدّثر أوّلية مخصوصة بما بعد فترة الوحي، أو مخصوصة بالأمر بالإنذار، لأنّ المراد أنّها أوّلية مطلقة، فكأنّ من قال: أوّل ما نزل: (اقرأ) أراد أوّلية مطلقة، و من قال: إنّها المدّثر، أراد بقيد التصريح بالإرسال. قال الكرماني: استخرج جابر أوّل ما نزل: «يأءّيها المدّثر» باجتهاد، و ليس هو من روايته. و الصحيح ما وقع في حديث عائشة، و يحتمل أن يكون قوله في هذه الرواية: «فرايت شيئاً، أي جبريل بحراء فقال لي

(أقرأ) فخفت، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني، فنزلت: ﴿يَاءُيُهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.

قلت: يحتمل أن تكون الأولى في نزول ﴿يَاءُيُهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ بقيد السبب، أي هي أول ما نزل من القرآن بسبب متقدم، وهو ما وقع من التدثر الناشئ عن الرعب، (أقرأ) فنزلت ابتداء بغير سبب متقدم، ولا يخفى بعد هذا الاحتمال وفي أول سورة نزلت قول آخر عن عطاء الخراساني، قال: المزمّل نزلت قبل المدثر، وعطاء ضعيف وروايته معضلة، لأنه لم يثبت لقاءه لصحابي معين، وظاهر الأحاديث الصحيحة تأخر المزمّل لأن فيها ذكر قيام الليل وغير ذلك مما تراخى عن ابتداء نزول الوحي، بخلاف المدثر فإن فيها: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ وعن مجاهد: أول سورة (ن والقلم) وأول سورة نزلت بعد الهجرة: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾. والمشكل من رواية يحيى بن أبي كثير قوله: «جاورت بحراء شهرًا، فلما قضيت جواري نزلت، فاستبطنت الوادي فنوديت» إلى أن قال فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء - يعني جبريل - فأتيت خديجة فقلت: دثروني» ويزيل الإشكال أحد أمرين: إما أن يكون سقط على يحيى بن أبي كثير وشيخه من القصة مجيء جبريل بحراء (أقرأ باسم ربك) وسائر ما ذكرته عائشة، وإما أن يكون جاور ﷺ بحراء شهرًا آخر فقد تقدم أن في مُرسَل عُبيد بن عمير عند البيهقي أنه كان يجاور في كل سنة شهرًا وهو رمضان وكان ذلك في مدة فترة الوحي فعاد إليه جبريل بعد إنقضاء جواره. (٨: ٥٥)

قوله: ﴿سورة اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ قال صاحب الكشف ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أنها أول سورة نزلت، وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت: فاتحة الكتاب، كذا قال: والذي ذهب أكثر الأئمة إليه هو الأول، وأما الذي نسبته إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأولى.

(قوله: وقال قتبية: حدثنا حماد عن يحيى بن عتيق، عن الحسن، قال: أكتب في المصحف في أول الإمام بسم الله الرحمن الرحيم) واجعل بين السورتين خطأ، في رواية أبي ذر عن غير الكشميين، حدثنا قُتَيْبَةُ وقد أخرجه ابن الصُّرَيْس في «فضائل القرآن»، حدثنا أبو الربيع الزُّهْرَانِي، حدثنا حماد بهذا، وحماد هو ابن زيد وشيخه بصري ثقة من طبقة أيوب مات قبله، ولم أره في البخاري إلا هذا الموضع وقوله: في أول الإمام

أي أم الكتاب. و قوله: خطأ، قال الدَّأُودِيّ: إن أراد خطأً فقط بغير بَسْمَلَةٍ فليس بصواب، لاتِّفَاقِ الصَّحَابَةِ عَلَى كِتَابَةِ الْبَسْمَلَةِ بَيْنَ كُلِّ سَوْرَتَيْنِ إِلَّا «بَرَاءَةً»، وإن أراد بالإمام أمام كلِّ سورة، فيجعل الخطَّ مع البَسْمَلَةِ فحسَنُ فكان ينبغي أن يستثنى (بَرَاءَةً) وقال الكَرْمَانِيّ: مَعْنَاهُ اجْعَلِ الْبَسْمَلَةَ فِي أَوَّلِهِ فَقَطْ، واجعل بين كلِّ سورتين علامة للفاصلة، وهو مذهب حَمَزَةِ مِنَ الْقُرْءَاءِ السَّبْعَةِ.

قلت: المنقول ذلك عن حَمَزَةِ فِي الْقِرَاءَةِ لَا فِي الْكِتَابَةِ، قال: وكان البخاريُّ أشار إلى أَنَّ هَذِهِ السُّورَةُ لَمَّا كَانَ أَوَّلُهَا مَبْتَدَأُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، أراد أن يبيِّن أَنَّهُ لَا تَجِبُ الْبَسْمَلَةُ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، بل من قرأ البَسْمَلَةَ فِي أَوَّلِ الْقُرْآنِ كَفَاهُ فِي امْتِثَالِ هَذَا الْأَمْرِ. نعم، استنبط السُّهَيْلِيُّ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ ثُبُوتَ الْبَسْمَلَةِ فِي أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ هُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَأَوَّلَى مَوَاضِعِ امْتِثَالِهِ أَوَّلُ الْقُرْآنِ [إلى أن قال:]

قوله: (أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ) زاد في رواية عَقِيلٌ كَمَا تَقَدَّمَ فِي بَدْءِ الْوَحْيِ «مِنَ الْوَحْيِ» أَي فِي أَوَّلِ الْمَبْتَدَأَاتِ مِنْ إِيجَادِ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا، وَأَمَّا مُطْلَقٌ مَا يَدُلُّ عَلَى نُبُوَّتِهِ فَتَقَدَّمَ لَهُ أَشْيَاءٌ مِثْلُ تَسْلِيمِ الْحَجَرِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَ«مَا» فِي الْحَدِيثِ نَكْرَةٌ مَوْصُوفَةٌ، أَي أَوَّلُ شَيْءٍ وَقَعَ صَرِيحًا فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ ابْنِ عَائِدٍ، وَقَعَ فِي مَرَاثِلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ عِنْدَ الدُّوَلَابِيِّ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَرَاهُ ﷺ: هُوَ جَبْرِيلُ، وَ لَفْظُهُ أَنَّهُ قَالَ لَخَدِيجَةَ: بَعْدَ أَنْ أَقْرَأَهُ جَبْرِيلُ: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أَرَأَيْتَكَ الَّذِي كُنْتَ أُحَدِّثُكَ أَنِّي رَأَيْتُهُ فِي الْمَنَامِ، فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ اسْتَعْلَنَ... [إلى أن قال:]

قوله: (قال: والتَّحَنُّنُ، التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي) هذا ظاهر في الإدراج؛ إذ لو كان من بَقِيَّةِ كَلَامِ عَائِشَةَ لَجَاءَ فِيهِ «قَالَتْ» وَهُوَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ عُرْوَةَ أَوْ مِنْ دُونِهِ، وَلَمْ يَأْتِ التَّصْرِيحُ بِصِفَةِ تَعَبُّدِهِ، لَكِنْ فِي رِوَايَةِ عُيَيْنُودِ بْنِ عُمَيْرٍ عِنْدَ ابْنِ إِسْحَاقَ «فَيُطْعَمُ مِنْ يَرْدِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَسَاكِينِ» وَجَاءَ عَنْ بَعْضِ الْمَشَايِخِ «أَنَّهُ كَانَ يَتَعَبَّدُ بِالتَّفَكُّرِ» وَ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ عَائِشَةُ أَطْلَقَتْ عَلَى الْخُلُوةِ بِمَجْرَدِهَا تَعَبُّدًا، فَإِنَّ الْإِنْعِزَالَ عَنِ النَّاسِ وَلَا سِيَّمًا مَنْ كَانَ

على باطل من جملة العبادة كما وقع للخليل عليه السلام حيث قال: «إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي»^١. وهذا يلتفت إلى مسألة أصولية، وهو أَنَّهُ عليه السلام هل كان قبل أن يوحى إليه متعبداً بشريعة نبي قبله قال الجمهور: لا، لأنَّه لو كان تابعا لا ستبعد أن يكون متبوعاً، ولأنَّه لو كان، لثقل من كان يُنسب إليه. وقيل نعم واختاره ابن الحاجب.

واختلفوا في تعيينه على ثمانية أقوال: أحدها: آدم، حكاه ابن بُرهان، الثاني: نوح، حكاه الآمدي، الثالث: إبراهيم، ذهب إليه جماعة، واستدلوا بقوله تعالى: «أَنِ انْبَغِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا»^٢ الرابع: موسى، الخامس: عيسى، السادس: بكل شيء بلغه عن شرع نبي من الأنبياء وحبته «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيِهِمِ اقْتَدِهْ»^٣ السابع: الوقف، واختاره الآمدي ولا يخفى قوة الثالث، ولا سيما مع ما نقل من ملازمته للحج والطواف ونحو ذلك ممَّا بقي عندهم من شريعة إبراهيم والله أعلم. وهذا كله قبل النبوة... [إلى أن قال:]

تنبيه: إذا علم أَنَّهُ كان يجاور في غار حراء في شهر رمضان، وأنَّ ابتداء الوحي جاءه وهو في الغار المذكور، اقتضى ذلك أَنَّهُ بُتِيَ في شهر رمضان، ويُعَكَّر على قول ابن إسحاق أَنَّهُ بعث رأس الأربعين مع قوله أَنَّهُ في شهر رمضان ولدويمكن أن يكون المجيء في الغار كان أولاً في شهر رمضان، وحينئذ بُتِيَ وأُنزل عليه: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ»، ثم كان المجيء الثاني في ربيع الأول بالإنذار، وأُنزل عليه: «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ»^٤ فيحتمل قول ابن إسحاق على رأس الأربعين، أي عند المجيء بالرسالة، والله أعلم.

(قوله: اقْرَأْ) يحتمل أن يكون هذا الأمر لمجرد التنبية والتيقظ؛ لما سيلقى إليه، ويحتمل أن يكون على بابه من الطلب، فيُستدل به على تكليف ما لا يطاق في الحال، وإن قدر عليه بعد ذلك. ويحتمل أن تكون صيغة الأمر محذوفة، أي قُلْ اقْرَأْ، أو إن كان الجواب «ما أنا بقارىء» فعلى ما فهم من ظاهر اللفظ، وكان السر في حذفها لئلا يتوهم أنَّ لفظ «قُلْ» من القرآن، ويؤخذ منه جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، وأنَّ الأمر على الفور، لكن يمكن أن يجاب بأنَّ الفور فهم من القرينة.

١- الصافات ٩٩.

٢- النحل ١٢٣.

٣- المدثر ١- ٢.

٤- الأنعام ٩٥.

قوله: (ما أنا بقارىء) وقع عند ابن إسحاق في مرسل عبيد بن عمير: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «أتاني جبريل بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: (إقرأ)، فقلت: (ما أنا بقارىء). قال السُّهَيْلِيُّ: قال بعض المفسرين: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إشارة إلى الكتاب الَّذِي جَاءَ بِهِ جَبْرِيلُ حَيْثُ قَالَ لَهُ: (إقرأ).

قوله: (إقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ - إلى - مَا لَمْ يَعْلَمْ) هذا القدر من هذه السورة هو الَّذِي نزل أولاً؛ بخلاف بقية السورة، فإنما نزل بعد ذلك بزمان، وقد قدمت في تفسير المدثر بيان الاختلاف في أول ما نزل. والحكمة في هذه الأولية أَنَّ هذه الآيات الخمس اشتملت على مقاصد القرآن، ففيها براعة الاستهلال، وهي جديرة أن تسمى عنوان القرآن؛ لأنَّ عنوان الكتاب بجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله، وهذا بخلاف الفن البديعي المسمى العنوان، فإنهم عرّفوه بأن يأخذ المتكلم في فن فيؤكد به ذكر مثال سابق وبيان كونها اشتملت على مقاصد القرآن أنها تنحصر في علوم التوحيد والأحكام والأخبار، وقد اشتملت على الأمر بالقراءة والبدء فيها بيسم الله، وفي هذه الإشارة إلى أصول الدين، وفيها ما يتعلّق بالإخبار من قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

قوله: (بِاسْمِ رَبِّكَ) استدلل به السُّهَيْلِيُّ على أَنَّ التَّسْمِيَةَ يُؤْمَرُ بِقِرَائَتِهَا أَوَّلَ كُلِّ سُورَةٍ لَكِنْ لَا يُلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ آيَةً مِنْ كُلِّ سُورَةٍ كَذَا قَالَ وَقَرَّرَهُ الطَّبَّيُّ، فقال قوله: ﴿إقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، قدّم الفعل الَّذِي هو متعلّق بالباء؛ لكون الأمر بالقراءة أهمّ وقوله: (إقرأ) أمر بإيجاد القراءة مطلقاً. وقوله: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ حال، أي إقرأ مفتتحاً بِاسْمِ رَبِّكَ. وأصحّ تقاديره قل باسم الله، ثم إقرأ قال: فيؤخذ منه أَنَّ التَّسْمِيَةَ مأمور بها في ابتداء كلّ قراءة. انتهى.

لكن لا يلزم من ذلك أن يكون مأموراً بها، فلا تدلّ على أنها آية من كلّ سورة، وهو كما قال؛ لأنها لو كان للزم أن تكون آية قبل كلّ آية، وليس كذلك. وأمّا ما ذكره القاضي عياض عن أبي الحسن بن القصّار من المالكية أنّه قال في هذه القصّة ردّ على الشافعيّ في قوله: إِنَّ التَّسْمِيَةَ آيَةٌ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ، قال: لأنّ هذا أول سورة أنزلت، وليس في أولها التَّسْمِيَةُ، فقد تعقّب بأن فيها الأمر بها وإن تأخّر نزولها.

وقال النَّوَوِيُّ: ترتيب آية السُّور في التَّزْوِيل لم يكن شرطاً، وقد كانت الآية تنزل فتوضع في مكان قبل التي نزلت قبلها، ثم تنزل الأخرى فتوضع قبلها، إلى أن استقر الأمر في آخر عهده عليه السلام على هذه التَّرتيب، ولو صحَّ ما أخرجه الطَّبْرِيُّ من حديث ابن عباس، أنَّ جبريل أمر النَّبِيَّ عليه السلام بالاستعاذة والبِسْمَلَة قبل قوله (إِقْرَأْ) لكان أولى في الاحتجاج، لكن في إسناده ضعف وانقطاع، وكذا حديث أبي مَيْسِرَة، أنَّ أوَّل ما أمر به جبريل قال له: قُلْ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هو مرسل، وإن كان رجاله ثقات، والمحفوظ أنَّ أوَّل ما نزل: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾، وأنَّ نزول الفاتحة كان بعد. [إلى أن قال:] قوله: (زملوني زملوني) كذا للأكثر مرَّتين، وكذا تقدَّم في بدء الوحي، ووقع لأبي ذرٍّ هنا مرَّة واحدة. والتَّزْمِيل التَّلْفِيف وقال: ذلك لشدة ما لحقه من هول الأمر، وجرت العادة بسكون الرَّعدة بالتَّلْفِيف. ووقع في مرسل عُبَيْد بن عُمَيْر أنَّه عليه السلام خرج فسمع صوتاً من السَّماء يقول: يا مُحَمَّد، أنت رسول الله وأنا جبريل. «فوقفت أنظر إليه، فما أتقدَّم وما تأخر، وجعلت أصرف وجهي في ناحية آفاق السَّماء، فلا أنظر في ناحية منها إلَّا رأيتَه كذلك» وسيأتي في التَّعبير أنَّ مثل ذلك وقع له عند فِترَة الوحي، وهو المعتمد فإنَّ إعلامه بالإرسال وقع بقوله: (قُمْ فَأَنْذِرْ) [إلى أن قال:]

قوله: (قال لخديجة: أي خديجة مالي لقد خشيت على نفسي فأخبرها الخبر) تقدَّم في بدء الوحي بلفظه: «فقال لخديجة وأخبرها الخبر، لقد خشيت» وقوله: وأخبرها الخبر، جملة معترضة بين القول والمقول وقد تقدَّم في بدء الوحي ما قالوه في متعلِّق الخشية المذكورة، وقال عِيَّاض: هذا وقع له أوَّل ما رأى التَّباشير في التَّوَم ثُمَّ اليقظة، وسمع الصَّوت قبل لقاء الملك، فأما بعد مجيء الملك فلا يجوز عليه الشُّكُّ، ولا يخشى من تسلُّط الشَّيْطان وتعقُّبه النَّوَوِيُّ بأنَّه خلاف صريح الشَّفاء، فإنَّه قال: بعد أن غطَّه الملك وأقرأه: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، قال: إلَّا أن يكون أراد أنَّ قوله: «خشيت على نفسي» وقع منه إخبار عمَّا حصل له أوَّلاً، لا أنَّه حالة إخبارها بذلك جازت، فَيَسَّجِه والله أعلم.

قوله: (قالت خديجة: كلاً أبشر... فوالله لا يخزيك الله أبداً)... ووقع في رواية معمر في التَّعبير «يحزنك» بمهمله و نون، ثلاثيًّا ورباعيًّا. قال اليزيدي: «أحزنه» لغة تميم،

و«حزنه» لغة قُرَيْش، وقد نبّه على هذا الضبط والخزي؛ الوقوع في بليّة و شهرة بذلّة... [ثم ذكر رواية ابن إسحاق عن إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزُّبَيْر، كما تقدّم عن الطَّبْرِيِّ الرُّقم ٣٥، فقال:] وفي رواية مرسلّة عند البَيْهَقِيِّ في الدلائل أنّها ذهبت إلى عَدَّاس، وكان نصرانيّاً، فذكرت له خبر جبريل، فقال: هو أمين الله بينه وبين النَّبِيِّين. ثم ذهبت إلى وَرَقَةَ.

قوله: (ماذا ترى؟) في رواية ابن مُدَّة في الصّحابة من طريق سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس عن وَرَقَةَ بن نَوْفَل، قال: قلت: يا محمّدا! أخبرني عن هذا الذي يأتيك؟ قال: يأتيني من السّماء جناحاه لُوْلُو وباطن قدميه أخضر... [إلى أن قال:]

قوله: (أنزل على موسى) كذا هنا على البناء للمجهول وقد تقدّم في بدء الوحي «أنزل الله»، وقع في مرسل أبي مَيْسِرَة «أبشر فأنا أشهد أنّك الذي بشر به ابن مَرْيَم وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبيّ مرسل، وأنك ستؤمر بالجهاد» وهذا أصرح ما جاء في إسلام وَرَقَةَ، أخرجه ابن إسحاق، وأخرج التِّرْمِذِيُّ عن عائشة أنّ خديجة قالت للنَّبِيِّ ﷺ لما سئل عن وَرَقَةَ: كان وَرَقَةَ صدّك، ولكنّه مات قبل أن تظهر، فقال: «رأيتّه في المنام وعليه ثياب بيض، ولو كان من أهل النّار لكان لباسه غير ذلك» وعند البرّاز والحاكم عن عائشة مرفوعاً: «لا تسبّوا وَرَقَةَ، فإنّي رأيت له جنةً أوجنتين وقد استوعبت ما ورد فيه في ترجمته من كتابي في الصّحابة و تقدّم بعض خبره في بدء الوحي، و تقدّم أيضاً ذكر الحكمة في قول وَرَقَةَ: ناموس موسى، ولم يقل: عيسى مع أنّه كان تنصّر وإنّ ذلك ورد في رواية الزُّبَيْر بن بَكَار بلفظ عيسى ولم يقف بعض من لقيناه على ذلك، فبالغ في الإنكار على التّوّي ومن تبعه، بأنّه ورد في غير الصّحيحين: بلفظ «ناموس عيسى» وذكر القطب الحلبيّ في وجه المناسبة لذكر موسى دون عيسى: أنّ النَّبِيَّ ﷺ لعَلّه لما ذكر لَوْرَقَةَ ممّا نزل عليه من (اقرأ) و (يأءِئها المَدَّتْر) و (يأءِئها المَزْمَل) فهم «وَرَقَةَ» من ذلك أنّه كلّف بأنواع من التّكاليف، فناسب ذكر موسى لذلك؛ لأنّ الذي أنزل على عيسى إنّما كان مواظ، كذا قال: وهو متعقّب، فإنّ نزول: ﴿يأءِئها المَدَّتْر﴾ و ﴿يأءِئها المَزْمَل﴾ إنّما نزل بعد فترة الوحي، كما تقدّم بيانه في تفسير المَدَّتْر، والاجتماع بَوْرَقَةَ كان في أوّل البعثة. زعم

أن الإنجيل كله مواعظ، متعقب أيضاً، فإنه منزل أيضاً على الأحكام الشرعية وأن معظمها موافقاً لما في التوراة، لكنه نسخ منها أشياء، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا جِلَّ لَكُمْ بِغَضِّ الْبُذَى حُرْمَ عَلَيْكُمْ﴾...

قوله: (لِيتَنِي أَكُونَ حَيًّا... وإن يدركني يومك..) أي وقت الإخراج، أو وقت إظهار الدعوة، أو وقت الجهاد وتمسك ابن القيم الحنبلي بقوله في الرواية التي في بدء الوحي: ثم لم ينشب ورقة أن توفي، يرد ما وقع في السيرة النبوية لابن إسحاق: أن ورقة كان يمر ببلال، والمشركون يعدّبونه وهو يقول: أحد أحد، فيقول: أحد والله يا بلال، لئن قتلوك لا تأخذن قبرك حنأنا. هذا والله أعلم - وهم: لأن ورقة قال: وإن أدركني يومك حياً لأنصرك نصرًا مؤزراً، فلو كان حياً عند ابتداء الدعوة لكان أول من استجاب، وقام بنصر النبي ﷺ كقيام عمر وحمزة.

قلت: وهذا اعتراض ساقط، فإن ورقة إنما أراد بقوله: فإن يدركني يومك حياً أنصرك اليوم الذي يخرجوك فيه؛ لأنه قال: ذلك عنه، عند قوله: «أو مخرجي هم» و تعذيب بلال كان بعد انتشار الدعوة، وبين ذلك وبين إخراج المسلمين من مكة للحبشة ثم للمدينة مدة متطاولة. [إلى أن قال:]

قوله: (قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فتره الوحي قال في حديثه: بينا أنا أمشي) هذا يشعر بأنه كان في أصل الرواية أشياء غير هذا المذكور، وهذا أيضاً من مرسل الصحابي؛ لأن جابراً لم يدركه زمان القصة فيحتمل أن يكون سمعها من النبي ﷺ أو من صحابي آخر حضرها، والله أعلم.

(قوله: قال رسول الله ﷺ: وهو يحدث عن فتره الوحي)، وقع في رواية عقیل في بدء الوحي غير مصرّح بذكر النبي ﷺ و وقع في رواية يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة في تفسير المدثر، عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت» وزاد مسلم في روايته جاورت بحراء شهراً... [إلى أن قال:]

قوله: (فتزلت يا أيها المدثر) يعرف من اتحاد الحديثين في نزول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾

عقب قوله: «دَثُرُونِي وَزَمِّلُونِي» أَنَّ المراد بزَمِّلُونِي: دَثُرُونِي، ولا يؤخذ من ذلك نزول ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ﴾ حينئذ؛ لأنَّ نزولها تأخَّر عن نزول ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ بالاتِّفاق؛ لأنَّ أوَّل ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ الأمر بالإندار، وذلك أوَّل ما بعث، وأوَّل المزمِّل الأمر بقيام الليل وترتيل القرآن، فيقتضي تقدُّم نزول كثير من القرآن قبل ذلك وقد تقدَّم في تفسير المدَّثِّر أَنَّهُ نزل من أوَّلها إلى قوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهُجْزُ﴾ ... [إلى أن قال:]

قوله: (باب قوله: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) ذكر فيه طَرَفًا من الحديث الَّذي قبله برواية الكشميهني «الصادقة»، قال فجاءه الملك، فقال: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ وهذا في غايه الإجحاف، ولا أظنَّ يحيى بن بُكَيْر حدث البخاريَّ به هكذا ولا كان له هذا التصرُّف، وإنَّما هذا صنيع البخاري، وهو دالٌّ على أَنَّهُ كان يجيز الاختصار من الحديث إلى هذه الغاية. (٨: ٥٨٠-٥٨٧)

قوله: (إنَّما نزل أوَّل ما نزل منه سورة المفصل فيها ذكر الجنَّة والنَّار). هذا ظاهره مغاير لما تقدَّم، إنَّ أوَّل شيء نزل: ﴿إِقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ﴾ وليس فيها ذكر الجنَّة والنَّار، فلعلَّ «من» مقدَّرة، أي من أوَّل ما نزل، أو المراد سورة المدَّثِّر، فإنَّها أوَّل ما نزل بعد فتره الوحي، وفي آخرها ذكر الجنَّة والنَّار، فلعلَّ آخرها نزل قبل نزول بقيَّة سورة (إِقْرَأْ) فَإِنَّ الَّذِي نزل أوَّلًا من (إِقْرَأْ) كما تقدَّم خمس آيات فقط...

قوله: (نزل الحلال والحرام) أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التَّنزيل، وأنَّ أوَّل ما نزل من القرآن الدِّعاء إلى التَّوحيد، والتَّبشير للمؤمن والمطيع بالجنَّة وللکافر والعاصي بالنَّار، فلمَّا اطمأنَّت النَّفوس على ذلك أنزلت الأحكام. ولهذا قالت: ولو نزل أوَّل شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا لا تدعهما، وذلك لما طبعت عليه النَّفوس من التَّفرَّة عن ترك المألوف. (٣٢: ٩)

آخر ما نزل من القرآن

قوله: (ثمَّ حرِّم التجارة في الخمر) تقدَّم توجيهه في البيوع، وإنَّ تحريم التجارة في الرِّبَا وقع بعد تحريم الخمر بمدة، فيحصل به جواب من استشكل الحديث بأنَّ آيات الرِّبَا من آخر ما نزل القرآن، وتحريم الخمر تقدَّم قبل ذلك بمدة...

قوله: (عن ابن عباس) كذا قال عاصم، وخالفه داود بن أبي هند عن الشعبي، فقال عن عمر، أخرجه الطبري بلفظ «كان من آخر ما نزل من القرآن آيات الرِّبَا» وهو منقطع، فإنَّ الشعبي لم يلق عمر.

قوله: (آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الرِّبَا)، كذا ترجم المصنف بقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^١ وأخرج هذا الحديث بهذا اللفظ، ولعله أراد أن يجمع بين قولي ابن عباس، فإنه جاء عنه ذلك من هذا الوجه وجاء عنه من وجه آخر: آخر آية نزلت على النبي ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، أخرجه الطبري من طرق عنه.

وكذا أخرجه من طرق جماعة من التابعين، وزاد عن ابن جريج، قال: يقولون: إنه مكث بعدها تسع ليال، ونحوه لا بن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، وروي عن غيره أقل من ذلك وأكثر، فقيل: إحدى وعشرين. وقيل: سبعا، وطريق الجمع بين هذين القولين: أن هذه الآية هي ختام الآيات المنزلة في الرِّبَا، إذ هي معطوفة عليهن، وأما ما سيأتي في آخر سورة النساء من، حديث البراء آخر سورة نزلت: (براءة) و آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾^٢ فيجمع بينه وبين قول ابن عباس: بأن الآيتين نزلتا جميعا، فيصدق أن كلاهما آخر بالنسبة لماعدهما. يحتمل أن تكون الآخرة في آية النساء مفيدة بما يتعلق بالمواريث مثلاً بخلاف آية البقرة، ويحتمل عكسه والأول أرجح، لما في آية البقرة من الإشارة إلى معنى الوفاة المستلزمة لخاتمة النزول.

وحكى ابن عبدالسلام أن النبي ﷺ عاش بعد نزول الآية المذكورة أحداً وعشرين يوماً وقيل: سبعا وأما ما ورد في ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ أنها آخر سورة نزلت... والله أعلم. تنبيهه: المراد بالآخرة في الرِّبَا تأخر نزول الآيات المتعلقة به من سورة البقرة، و أما حكم تحريم الرِّبَا فنزوله سابق لذلك بمدة طويلة على ما يدل عليه قوله تعالى في أثنا قصة أحد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾^٣.

قوله: (يضاهون: يشبهون) [إلى أن قال]: ثم ذكر حديث البراء في آخر آية نزلت و

آخر سورة نزلت، فأما الآية فتقدم حديث ابن عباس في سورة البقرة، وأن آخر آية أنزلت آية الزبا، و يجمع بأنهما لم ينقلاه، وإنما ذكراه عن استقراء بحسب ما اطلع عليه وأولى من ذلك أن كلاهما أراد آخرية مخصوصة. وأما السورة فالمراد بعضها أو معظمها وإلا ففيها آيات كثيرة نزلت قبل سنة الوفاة النبوية وأوضح من ذلك أن أول (براءة) نزل عقب فتح مكة في سنة تسع، عام حج أبي بكر، وقد نزل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^١ وهي في المائدة في حجة الوداع سنة عشر، فالظاهر أن المراد معظمها. ولا شك أن غالبها نزل في غزوة تبوك، وهي آخر غزوات النبي ﷺ وسيأتي في تفسير: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ أنها آخر سورة نزلت، وأذكر الجمع هناك إن شاء الله تعالى وقد قيل في آخرية نزول (براءة): إن المراد بعضها، فقيل: قوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ الآية^٢ وقيل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾^٣ وأصح الأقوال في آخرية الآية قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^٤ كما تقدم في البقرة، ونقل ابن عبدالسلام آخر آية نزلت آية الكلاله، فعاش بعدها خمسين يوماً، ثم نزلت آية البقرة، والله أعلم. (٢٥٤: ٨)

قوله: (سورة إذا جاء نصر الله)، وقد أخرج النسائي من حديث ابن عباس: أنها آخر سورة نزلت من القرآن، وقد تقدم في تفسير سورة (براءة) أنها آخر سورة نزلت. والجمع بينهما أن آخرية سورة النصر نزولها كاملة، بخلاف براءة كما تقدم توجيهه. ويقال: إن ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ نزلت يوم النحر، وهو بمنى في حجة الوداع، وقيل عاش بعدها إحدى وثمانين يوماً وليس منافياً للذي قبله بناءً على بعض الأقوال في وقت الوفاة النبوية. وعند ابن أبي حاتم من حديث ابن عباس: عاش بعدها تسع ليال، وعن مقاتل: سبعا، وعن بعضهم: ثلاثاً، قيل: ثلاث ساعات وهو باطل. (٥٩٦: ٨)

الفصل الرابع والعشرون

نص السيوطي (م: ٩١١) في تفسيره: «الدّر المنثور»

أَوَّلُ مَا نَزَلَ اللَّهُ

(البَسْمَلَةُ)

١- أخرج ابن جُرَيْج وابن، أَبِي حَاتِمٍ عن ابن عَبَّاسٍ، قَالَ: أَوَّلُ مَا نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: «بِسْمِ اللَّهِ» يَا مُحَمَّدُ! يَقُولُ: اقْرَأْ بِذِكْرِ اللَّهِ ذُو الْأُلُوهِيَّةِ وَالْمَعْبُودِيَّةِ عَلَى خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ. (٨:١)

أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ

(سورة المدثر)

٢- أخرج ابن الضَّرِيرِ وابن مَرْدُوَيْهِ وَالتَّحَّاسُ وَابْنُ أَبِي عِيْنٍ، قَالَ: نَزَلَتْ سُورَةُ الْمَدْثَرِ بِمَكَّةَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ عَنْ ابْنِ زُبَيْرٍ مِثْلَهُ.

٣- وَأَخْرَجَ الطَّبَايْسِيُّ وَابْنُ الرَّزَّاقِ وَأَحْمَدُ وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَابْنُ أَبِي عِيْنٍ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ الضَّرِيرِ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ وَابْنُ الْأَثْبَارِيِّ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ... [وَذَكَرَ كَمَا تَقَدَّمَ عَنِ الطَّبَايْسِيِّ الرَّقْمَ ٤].

(سورة العلق)

٤- أخرج ابن مَرْدُويَه من طرق عن ابن عباس، قال: أوَّل ما نزل من القرآن بِمَكَّةَ ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

٥- وأخرج ابن أبي شَيْبَةَ وابن الضَّرَّيس وابن الأنباري في «المصاحف» والطَّبْراني والحاكم، وصحَّحه ابن مَرْدُويَه وأبو نُعَيْم في «الحليَّة» عن أبي موسى الأشعري، قال: كانت ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي﴾. أوَّل سورة أنزلت على مُحَمَّد ﷺ.

٦- وأخرج التَّبَهَقِيُّ في «الدلائل» عن ابن شِهَاب، حدَّثني مُحَمَّد بن عَبَّاد بن جعفر المخزومي أَنَّهُ سمع بعض علمائهم يقول: كان أوَّل ما أنزل الله على نبيِّه: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ - إلى - مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ. فقالوا: هذا صدرها الَّذي أنزل يوم حِراء، ثُمَّ أنزل الله آخرها بعد ذلك ما شاء الله.

٧- وأخرج ابن جرير والحاكم وصحَّحه، وابن مَرْدُويَه والتَّبَهَقِيُّ في «الدلائل» وصحَّحه، عن عائشة قالت: أوَّل ما نزل من القرآن: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي﴾.

٨- وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبُخاري ومُسلم وابن جرير وابن الأنباري في «المصاحف» وابن مَرْدُويَه والتَّبَهَقِيُّ من طريق ابن شِهَاب عن عُرْوَة بن الزُّبَيْر، عن عائشة أَنَّهَا قالت: أوَّل ما بدىء ... [وذكر كما تقدَّم نحوه عن الطَّبْراني الرَّقْم ٧].

٩- وأخرج ابن المُنْذِر عن ابن عباس، قال: أوَّل سورة نزلت على مُحَمَّد ﷺ: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي﴾.

١٠- وأخرج ابن أبي شَيْبَةَ وعبد بن حميد وابن جرير وابن المُنْذِر عن مجاهد، قال: أوَّل ما نزل من القرآن: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي...﴾، ثُمَّ (نَ وَالْقَلَمَ).

١١- وأخرج ابن المنذر وابن مَرْدُوَيْهِ عن ابن عباس قال: أول شيء أنزل من القرآن خمس آيات ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ - إِلَى - مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

١٢- وأخرج ابن أبي شَيْبَةَ عن عُبَيْد بن عُمَيْر، قال: أول ما نزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ثُمَّ (ن وَالْقَلَمِ).

١٣- وأخرج ابن الأَنْبَارِيِّ في «المصاحف» عن عائشة، قالت: كان أول ما نزل بعد ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾: ن والقلم ويا أيها المدثر والضحى.

١٤- وأخرج عبد الرَّزَّاق وعَبْد بن حَمِيد عن الزُّهْرِيِّ وعمر بن دينار: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان بحراء، إِذَا أَتَاهُ مَلِكٌ بِنَمَطٍ مِنْ دِيبَاجٍ فِيهِ مَكْتُوبٌ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ - إِلَى - مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وأخرج الحاكم من طريق عمرو عن جابر [مثله].

١٥- وأخرج ابن أبي شَيْبَةَ وابن جَرِير وأبو نُعَيْمٍ في «الدلائل» عن عبد الله بن سَدَاد، قال: أتى جبرئيل مُحَمَّدًا ﷺ، فقال: يا مُحَمَّدُ (اقْرَأْ)، قال: «وما أقرأ» فضمه، ثُمَّ قال... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبْرِيِّ الرَّقْمُ ٩].

١٦- وأخرج ابن مَرْدُوَيْهِ عن عائشة: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اعتكف هو وخديجة شهرًا، فوافق ذلك رمضان، فخرج رسول الله ﷺ وسمع السَّلامَ عليكم، قالت: فظننت أَنَّهُ فَجَاءَهُ الْجَنُّ، فقال أبشروا، فَإِنَّ السَّلامَ خَيْرٌ. ثُمَّ رَأَى يَوْمًا آخَرَ جَبْرِيلَ عَلَى الشَّمْسِ، لَهُ جَنَاحٌ بِالْمَشْرِقِ وَجَنَاحٌ بِالْمَغْرِبِ، قال: فَبُهِتَ مِنْهُ، فَانْطَلَقَ يَرِيدُ أَهْلَهُ، إِذَا هُوَ بِجَبْرِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَابِ، قال: فَكَلَّمَنِي حَتَّى آنَسْتُ مِنْهُ، ثُمَّ وَعَدَنِي مَوْعِدًا، فَجِئْتُ لِمَوْعِدِهِ، وَاحْتَبَسَ عَلَيَّ جَبْرِيلَ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ إِذَا هُوَ بِمِيكَائِيلَ، فَهَبَطَ جَبْرِيلَ إِلَى الْأَرْضِ وَمِيكَائِيلَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَأَخَذَنِي جَبْرِيلَ فَصَلَّقَنِي لِحَالَاةِ الْقَفَا وَشَقَّ عَن بَطْنِي، فَأَخْرَجَ مِنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طُسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ، ثُمَّ أَعَادَ فِيهِ، ثُمَّ كَفَأَنِي الْإِنَاءَ كَمَا يَكْفَأُ الْإِنَاءُ، ثُمَّ

ختم في ظهري حتى وجدت مس الخاتم، ثم قال لي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، ولم أقرأ كتاباً قط، فأخذ بحلقي أجهشت بالبكاء، ثم قال لي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ - إلى - مالم يعلم، قال: فما نسيت شيئاً بعده، ثم وزني جبريل برجل فوازنته، ثم وزني بآخر فوازنته، ثم وزني بمائة فقال ميكائيل: تَبِعْتَهُ أُمَّتَهُ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ، قال: ثم جئتُ إلى منزلي فلم يلقني حَجَرٌ وَلَا شَجَرٌ إِلَّا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، حتى دخلت على خديجة، فقالت: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. (٦: ٣٦٨)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ البقرة / ٢٨١.

١٧- أخرج أبو عبيد و عبد بن حميد و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن الأنباري في «المصاحف»، و الطبراني و ابن مردويه و البيهقي في «الدلائل» من طرق، عن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت على النبي ﷺ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾. ١٨- وأخرج ابن أبي شيبة عن السدي و عطية العوفي مثله. وأخرج الأنباري عن أبي صالح و سعيد بن جبير مثله.

١٩- وأخرج الفريابي و عبد بن حميد و ابن المنذر و البيهقي في «الدلائل» من طريق الكلبي و أبي صالح عن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، نزلت بمنى، وكان بين نزولها و بين موت النبي ﷺ أحد و ثمانون يوماً. ٢٥- وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، قال: آخر ما أنزل من القرآن كله ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، عاش النبي ﷺ بعد نزول الآية تسع ليال، ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول. (١: ٣٦٩)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ التوبة / ١٢٧

٢١- وأخرج ابن أبي شيبة و إسحاق بن راهويه و ابن منيع في مسنده و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقي في «الدلائل» من طريق يوسف بن مهران،

عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: آخر آية أنزلت على النبي ﷺ وفي لفظ: أن آخر ما نزل من القرآن: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾.

٢٢- وأخرج ابن الضريس في «فضائل القرآن»، وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه عن الحسن أن أبي بن كعب... [وذكر كما تقدم نحوه عن القرطبي، ثم قال:]

٢٣- وأخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند، وابن الضريس في «فضائله»، وابن أبي داود في «المصاحف»، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل»، والخطيب في «تلخيص المتشابهة»، والضياء في «المختارة» من طريق أبي العالية عن أبي بن كعب، أنه جمعوا القرآن في مصحف... [وذكر كما تقدم عن ابن كثير الرقم ٨]. (٢٩٥:٣-٢٩٦)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة المائدة)

٢٤- أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة، قال: المائدة مدنية وأخرج أحمد وأبو عبيد في «فضائله» والنحاس في «ناسخه» والنسائي وابن المنذر والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في «سننه» عن جبير بن نفير، قال:... [وذكر كما تقدم عن الحاكم الرقم ٨، ثم قال:]

٢٥- وأخرج أحمد والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في «سننه»، عن عبد الله بن عمر، قال: آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح.

٢٦- وأخرج أبو عبيد عن محمد بن كعب القرظي، قال: نزلت سورة المائدة على رسول الله ﷺ في حجة الوداع فيما بين مكة والمدينة وهو على ناقته، فانصدعت كتبها، فنزل عنها رسول الله ﷺ.

٢٧- وأخرج أبو عبيد عن ضمرة بن حبيب وعطية بن قيس قالا: قال رسول الله: «المائدة من آخر القرآن تنزيلاً، فأحلوا حلالها، وحرّموا حرامها».

٢٨- وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبي ميسرة، قال: آخر سورة أنزلت

سورة المائدة، وأن فيها لسبع عشرة فريضة. (٢: ٢٥٢)

و نصّه في كتابه: «الإتقان في علوم القرآن»

معرفة أول ما نزل

اختلف في أول ما نزل من القرآن على أقوال:

القول الأول - وهو الصحيح: ﴿إِقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾، روي الشيخان وغيرهما عن عائشة، قالت: أول ما بُدئ به رسول الله... [و ذكر كما تقدّم عن الطبري، الرّقم ٩ ثم قال:]

٢٩- وأخرج الطبراني في «الكبير» بسند على شرط الصحيح عن أبي رجاء العطاردي، قال: كان أبو موسى يُقرئنا، فيُجلِسنا حلَقًا، عليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السّورة ﴿إِقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ قال هذه أول سورة أنزلت على محمد ﷺ.

٣٠- وقال سعيد بن منصور في سننه: حدّثنا سُفيان عن عمرو بن دينار: عن عُبَيْد بن عُمر، قال: جاء جبريل إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال له: إقرأ، قال: و ما أقرأ؟ فوالله ما أنا بقارىء، فقال: ﴿إِقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾، فكان يقول: هو أول ما أنزل.

٣١- وقال أبو عُبَيْد في فضائله: حدّثنا عبدالرحمان عن سُفيان، عن ابن أبي نجيع، عن مجاهد، قال: إن أول ما أنزل من القرآن: ﴿إِقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ و «ن وَالْقَلَمِ».

٣٢- وأخرج ابن أَشْتَنَ في كتاب «المصاحف» عن عُبَيْد بن عُمر، قال: جاء جبريل إلى النَّبيِّ ﷺ بِمَطِّ، فقال: إقرأ. قال: «ما أنا بقارىء»، قال: ﴿إِقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، فيرون أنّها أول سورة أنزلت من السّماء.

٣٣- وأخرج عن الزُّهري أنّ النَّبيَّ ﷺ... [مثله عن الدّر المنثور].

القول الثاني- «يَاءُهَا الْمُدَّثِّرُ»، روى الشيخان عن سَلَمَةَ ابن عبدالرحمان: سألت جابر بن عبد الله... [و ذكر كما تقدّم نحوه عن الطبري الرّقم ٣، ثم قال:]

و أجاب الأول عن هذا الحديث بأجوبة:

أحدها - أن السؤال كان عن نزول سورة كاملة، فبين أن سورة المدثر نزلت بكاملها قبل نزول تمام سورة إقرأ، فإنها أول ما نزل منها صدرها. ويؤيد هذا ما في الصحيحين أيضاً عن أبي سلمة، عن جابر: سمعت رسول الله ﷺ... [وذكر كما تقدّم عن البخاري الرقم ٣، ثم قال:]

فقوله: «الملك الذي جاءني بجراء» يدلّ على أن هذه القصّة متأخّرة عن قصّة جراء التي نزل فيها: ﴿إقرأ باسم ربّك...﴾.

ثانيها - أن مراد جابر بالأوّل، أوّلية مخصوصة بما بعد فتره الوحي لا أوّلية مطلقة. ثالثها - أن المراد أوّلية مخصوصة بالأمر بالإنذار. وعبر بعضهم عن هذا بقوله: أول ما نزل للنبوة: ﴿إقرأ باسم ربّك...﴾، وأول ما نزل للرّسالة: ﴿يأءّيها المدثر...﴾.

رابعها - أن المراد أول ما نزل بسبب متقدّم، وهو ما وقع من التدثر الناشئ عن الرعب. وأمّا (إقرأ) فنزلت ابتداء بغير سبب متقدّم، ذكره ابن حجر.

خامسها - أن جابراً استخرج ذلك باجتهاده، وليس هو من روايته، فيقدّم عليه ما روته عائشة، قاله الكرمانيّ. وأحسن هذه الأجوبة الأول والأخير.

القول الثالث: سورة الفاتحة... [ثم ذكر قول ابن عباس ومجاهد وأكثر المفسرين نقلاً عن الكشاف، وقول ابن حجر كما تقدّم عنه، فقال:]

وحجّته ما أخرجه البيهقي في «الدلائل» والواحديّ من طريق يونس بن بكير عن يونس بن عمرو، عن أبيه، عن أبي ميسرة عمرو بن شرجبيل... [وذكر كما تقدّم عن القرطبي، قال:] هذا مرسل، رجاله ثقات.

وقال البيهقي: إن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعدما نزلت عليه إقرأ والمدثر.

القول الرابع: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ حكاه ابن التقيّب في مقدّمة تفسيره قولاً زائداً... [ثم ذكر رواية الواحديّ عن عكرمة والحسن الرقم ١، ورواية ابن جرير من طريق الضحاك الرقم ١، كما تقدّم عنهما، فقال:] وعندني أن هذا لا يعدّ قولاً برأسه، فإنّه من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها، فهي أول آية نزلت على الإطلاق.

٣٤- وورد في أول ما نزل حديث آخر؛ روى الشَّيْخَان عن عائشة، قالت: إِنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ سُورَةُ مِنَ الْمَفْصَلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَ النَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَ الْحَرَامُ.

و قد استشكل هذا بأنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ: (إِقْرَأْ)، وَ لَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَ النَّارِ. وَأُجِيبَ بِأَنَّ «مِنْ» مَقْدَرَةٌ، أَيْ مِنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ، وَ الْمُرَادُ سُورَةُ الْمَدَّثَرِ، فَإِنَّهَا أَوَّلُ مَا نَزَلَ قَبْلَ: بَعْدَ فِتْرَةِ الْوَحْيِ، وَ فِي آخِرِهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَ النَّارِ فَلَعَلَّ آخِرَهَا نَزَلَ قَبْلَ نَزُولِ بَقِيَّةِ (إِقْرَأْ).

فرع في أوائل مخصوصة

٣٥- أَوَّلُ مَا نَزَلَ فِي الْقِتَالِ: رَوَى الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا﴾^١

٣٦- وَ أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، قَالَ: أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ بِالْمَدِينَةِ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾^٢ وَ فِي «الْإِكْلِيلِ» لِلْحَاكِمِ: إِنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ فِي الْقِتَالِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ﴾^٣.

أَوَّلُ مَا نَزَلَ فِي شَأْنِ الْقَتْلِ: آيَةُ الْإِسْرَاءِ ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا...﴾^٤ الْآيَةُ، أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الضَّحَّاكِ.

٣٧- أَوَّلُ مَا نَزَلَ فِي الْخَمْرِ: رَوَى الطَّيَالِسِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ نَزَلَ فِي الْخَمْرِ ثَلَاثُ آيَاتٍ، فَأَوَّلُ شَيْءٍ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ...﴾^٥ الْآيَةُ، فَقِيلَ: حُرِّمَتْ الْخَمْرُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنَا نَتَنَفَّعَ بِهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ، فَسَكَتَ عَنْهُمْ، ثُمَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْتُمْ سُكَارَى﴾^٦، فَقِيلَ: حُرِّمَتْ الْخَمْرُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَانْتِزَاعِهَا قُرْبَ الصَّلَاةِ، فَسَكَتَ عَنْهُمْ، ثُمَّ نَزَلَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ﴾^٧، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: حُرِّمَتْ الْخَمْرُ.

١- البقرة/ ١٩٠.

١- الحج/ ٣٩.

٢- الإسراء/ ٣٣.

٣- التوبة/ ١١١.

٣- النساء/ ٤٣.

٥- البقرة/ ٢١٩.

٧- المائدة/ ٩٠.

أول آية نزلت في الأطعمة بمكة آية الأنعام ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾^١، ثم آية التحل ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا...﴾^٢، إلى آخرها. وبالمدينة آية البقرة ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ...﴾^٣ ثم آية المائة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ...﴾^٤، قاله ابن الحصار. ٣٨- وروى البخاري عن ابن مسعود، قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة، النجم... [ثم ذكر أول ما نزل من بعض السور التي لا حاجة لذكرها هنا].

معرفة آخر ما نزل

٣٩- فيه اختلاف، فروى الشيخان عن البراء بن عازب، قال: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾^٥، و آخر سورة نزلت براءة. ٤٠- وأخرج البخاري عن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت آية الرِّبَا. ٤١- وروى البيهقي عن عمر مثله، والمراد قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾^٦ وعند أحمد وابن ماجه عن عمر من آخر ما نزل آية الرِّبَا. ٤٢- وعند ابن مَرْدُودِيَّة عن أبي سعيد الخدري، قال: خُطِبْنَا عَمْر، فقال: إِنَّ مِنْ آخِرِ الْقُرْآنِ نَزُولَ آيَةِ الرِّبَا. ٤٣- وأخرج التَّسَائِي من طريق عِكْرِمَةَ عن ابن عَبَّاس، قال: آخر شيء نزل من الْقُرْآن ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾^٧. ٤٤- وأخرج ابن مَرْدُودِيَّة نحوه من طريق سعيد بن جُبَيْر عن ابن عَبَّاس بلفظ آخر آية نزلت. ٤٥- وأخرجه ابن جَرِير من طريق الْعَوْفِي والضَّحَّاك عن ابن عَبَّاس. [ثم ذكر رواية الْفَزَائِي في تفسيره عن ابن عَبَّاس و رواية سَعِيد بن جُبَيْر كما تقدَّم آنفًا عن الدَّرِّ المنثور، فقال:]

٤٦- وأخرج من طريق عَطِيَّة عن أبي سعيد، قال: كان آخر آية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا

٢- التحل / ١١٤.

٤- المائة / ٣.

٦- البقرة / ٢٧٨.

١- الأنعام / ١٤٥.

٣- البقرة / ١٧٣.

٥- النساء / ١٧٦.

٧- البقرة / ٢٨١.

تُزَجُّونَ...».

٤٧- وأخرج أبو عُبَيْدٍ في «الفضائل» عن ابن شِهَاب، قال: آخر القرآن عهداً بالعرش آية الرِّبَا وآية الدَّيْنِ.

٤٨- وأخرج ابن جُرَيْجٍ من طريق ابن شِهَاب عن سعيد بن المُسَيَّب، أَنَّهُ بلغه أَنَّ أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدَّيْنِ، مرسل صحيح الإسناد.

قلت: ولامنافاة عندي بين هذه الروايات في آية الرِّبَا وآية الدَّيْنِ؛ لأنَّ الظَّاهر أَنَّها نزلت دفعةً واحدةً كترتيبها في المُصنَّف. ولأنَّها في قصَّة واحدة، فأخبر كلَّ عن بعض ما نزل بأنَّه آخر، وذلك صحيح. وقول البراء: آخر ما نزل ﴿يَسْتَفْتُونَكَ...﴾ أي في شأن الفرائض.

وقال ابن حَبَرٍ في شرح البخاري: طريق الجمع بين القولين في آية الرِّبَا... [وذكر كما تقدَّم عنه ثم قال:]

٤٩- وفي «المستدرک» عن أبي بن كعب، قال: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ إلى آخر السُّورة.

و روى عبدالله بن أحمد في زوائد المسند و ابن مردويه عن أبي، أَنَّهُم جمعوا القرآن... [وذكر كما تقدَّم عن ابن كثير الرِّقم ٩، ثم قال:]

٥٠- وأخرج أبو الشَّيْخ في تفسيره من طريق علي بن زيد عن يوسف المكي، عن ابن عبَّاس، قال: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾.

٥١- وأخرج مسلم عن ابن عبَّاس: وقال: آخر سورة نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

٥٢- وأخرج الترمذي والحاكم عن عائشة، قالت: آخر سورة نزلت المائدة، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه...

٥٣- وأخرجاً أيضاً عن عبدالله بن عمرو، قال: آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح. قلت: يعني ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، وفي حديث عثمان المشهور (براءة) من آخر القرآن نزولاً.

قال البيهقي: يجمع بين هذه الاختلافات - إن صحَّت - بأنَّ كلَّ واحدٍ أجاب ممَّا عنده.

وقال القاضي أبو بكر في الانتصار: هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ﷺ... [وذكر كما تقدم عن الزركشي، ثم قال:]

ومن غريب ما ورد في ذلك ما أخرجه ابن جرير عن معاوية بن أبي سفيان... [وذكر كما تقدم عن الطبري وابن كثير، ثم قال:]

قلت: ومثله ما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عباس، قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾^١ هي آخر ما نزل، وما نسخها شيء. وعند أحمد والنسائي عنه: لقد نزلت في آخر ما نزل، مانسخها شيء.

٥٤- وأخرج ابن مردويه من طريق مجاهد عن أم سلمة، قالت: آخر آية نزلت هذه الآية: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعَ عَمَلَ عَامِلٍ...﴾^٢ إلى آخرها.

قلت: وذلك أنها قالت: يا رسول الله، أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء؟ فنزلت: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^٣ ونزلت: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾^٤ ونزلت هذه الآية، فهي آخر الثلاثة نزولاً، أو آخر ما نزل بعدما كان ينزل في الرجال خاصة.

٥٥- وأخرج ابن جرير عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، فارقها والله عنه راض». قال أنس. تصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما نزل: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ...﴾^٥ قلت: يعني في آخر سورة نزلت.

وفي «البرهان» لإمام الحرمين: إن قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا...﴾^٦ من آخر ما نزل.

وتعقبه ابن الحصار بأن السورة مكية باتفاق، ولم يرد نقل بتأخر هذه الآية عن نزول السورة، بل هي في محاجة المشركين ومخاصمتهم وهم بمكة.

٢- آل عمران / ١٩٥.

٤- الأحزاب / ٣٥.

٦- الأنعام / ١٤٥.

١- النساء / ٩٣.

٣- النساء / ٣٢.

٥- التوبة / ٥.

تنبیه

من المشكل على ما تقدّم قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^١ فإنها نزلت بعرفة عام حجة الوداع، و ظاهرها إكمال جميع الفرائض والأحكام قبلها، وقد صرح بذلك جماعة منهم السُّدِّيُّ، فقال: لم ينزل بعدها حلال ولا حرام، مع أنه وارد في آية الرِّبَا والذِّينِ والكلالة أنها نزلت بعد ذلك. وقد استشكل ذلك ابن جرير، وقال: الأولى أن يتأول على أنه أكمل لهم دينهم بإفرادهم بالبلد الحرام، وإجلاء المشركين عنه، حتى حجّه المسلمون لا يخالطهم المشركون، ثم أيّده بما أخرجه من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس، قال: كان المشركون والمسلمون يحجّون جميعًا، فلما نزلت: (براءة) نُفي المشركون عن البيت، وحجّ المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين، فكان ذلك من تمام النعمة ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾. (١٠٦٩١:١)

الفصل الخامس والعشرون

نصّ ملاّ صالح المازندرانيّ (م: ١٠٨١) في «شرح جامع أصول الكافي»

أَوَّلُ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

قوله: إِنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ..» مثله في رواية العامة، وفيه دلالة على أَنَّ البَسْمَلَةَ جزء من هذه السّورة، وتأويل الشّاطبيّ بأنّه دليل أنّه لا بدّ منها أنّه جزء من السّورة، بعيد جدًّا.

وفي بعض رواياتهم: إِنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ..﴾، واستدلّ بعضهم بذلك على أَنَّ البَسْمَلَةَ ليست ؛ لأنّ (اقْرَأْ) أوّل سورة نزلت، ثمّ قال: فيه دلالة على بطلان مذهب الشّافعيّ، وهو أَنَّ البَسْمَلَةَ آية من كلّ سورة.

أقول: فيه نظرٌ من وجهين؛

الأوّل - أَنَّ المذكور في الرواية أَنَّ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ..﴾ أوّل ما نزل، وليس فيها أنّه أوّل سورة نزلت، فيجوز أن يكون البَسْمَلَةُ نزلت بعد ذلك. وقد صحّ عندهم أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان إذا نزلت آية يقول «اجعلوها في موضع كذا» ولعلّه قال في البَسْمَلَةَ «اجعلوها في كلّ سورة» فهي جزء منه. ومما يدلّ على ذلك أنّهم قالوا: أوّل ما نزل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ..﴾ إلى - ما لم يتعلّم - ثمّ نزل: ﴿يَاءِ يَٰهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ و ﴿يَاءِ يَٰهَا الْمُذْتَوِّرُ﴾ فكما أنّ بقيّة السّورة نزلت بعد ذلك، ثمّ ضمّ مع ما نزل أوّلًا، ثمّ صار جزءً للسّورة، فكذلك نزول البَسْمَلَةَ بعد، وضمّها إلى ما نزل أوّلًا لا ينافي أن يكون جزءً من السّورة.

الثاني - يجوز أن يكون ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ..﴾ علمًا للسّورة التي أولها البَسْمَلَةُ، فلا دلالة في الرواية على أَنَّ البَسْمَلَةَ ليست جزءً من السّورة قطعًا.

آخر ما نزل على رسول الله ﷺ

قوله: و آخره، أي آخر ما نزل ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾.

اختلف العامة في آخر سورة نزلت كاملة؛ فقليل: (براءة) وقيل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ وكانوا يسمونها بسورة التوديع. واختلفوا في وقت نزولها على أقوال، أشبهها أنها نزلت في حجة الوداع، ثم نزل بعدها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^١ فعاش بعدها ثمانين يومًا، بعدها آية الكلاله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ...﴾^٢ فعاش بعدها خمسين يومًا، ثم نزل بعدها: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾^٣ فعاش بعدها خمسة و ثلاثين يومًا، وقيل: سبعة أيام. (١١:٦٢)

٢- النساء/ ١٧٦.

١- المائدة/ ٣.

٣- التوبة/ ١٢٨.

الفصل السادس والعشرون

نصّ البُخْرانيّ (م: ١١٠٧) في: «تفسير البُرهان»

أَوَّلُ مَا نَزَلَ وَ آخِرُ مَا نَزَلَ

١- مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ عَنْ عِدَّةٍ مِنْ أَصْحَابِنَا، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ وَ سَهْلَ بْنِ زِيَادٍ، عَنْ مَنْصُورِ بْنِ الْعَبَّاسِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْمُسَرِّيّ، عَنْ عَمِّهِ عَلِيِّ بْنِ الْمُسَرِّيّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾^١ إِلَى آخِرِهِ، وَ آخِرُ سُورَةٍ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...﴾.

٢- مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ بَابُويهِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ جَدِّي إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَاشِمٍ، عَنْ عَلِيٍّ بْنِ مَعْبُدٍ، عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ خَالِدٍ، قَالَ: قَالَ الرَّضَاءُ عليه السلام: سَمِعْتُ أَبِي يَحْدُثُ عَنْ أَبِيهِ عليه السلام: إِنَّ أَوَّلَ سُورَةٍ نَزَلَتْ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ وَ آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...﴾.

٣- سَعْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عِيْسَى وَ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ أَبِي الْخَطَّابِ وَ غَيْرِهِمَا، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي نَصْرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ ظَرِيفِ الْخَفَّافِ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام مَا تَقُولُ فِيمَنْ أَخَذَ عَنْكُمْ عِلْمًا فَنَسِيَهُ؟ قَالَ: لَا حِجَّةَ عَلَيْهِ، إِنَّمَا الْحِجَّةُ عَلَى مَنْ سَمِعَ مَنَا حَدِيثًا فَأَنْكَرَهُ، أَوْ بَلَغَهُ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ وَ كَفَرَ، فَأَمَّا النَّسْيَانُ فَهُوَ مَوْضُوعٌ عَنْهُ، إِنَّ أَوَّلَ سُورَةٍ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^٢ فَنَسِيَهَا، لَمْ يَلْزِمَهُ حِجَّةٌ فِي نَسْيَانِهِ وَ لَكِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى أَمْضَى لَهُ ذَلِكَ؛ إِذْ قَالَ: ﴿سَتَقْرُوكَ فَلَا تَنْتَسِي﴾^٣. (٢٩: ١)

٢- الأعلى / ٦٠.

١- اللق / ١.

٣- الأعلى / ٦١.

(سورة العلق)

مكيّة، وهي أول ما نزل من القرآن

٤- عليّ بن إبراهيم الأوسيّ، قال ابن عباس: إنّ أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح، ولما تزوّج بخديجة، وكمل له من العمر أربعون سنة، قال: فخرج ذات يوم إلى جبل حراء، فهتف به جبرئيل، ولم يبد له، فغشي عليه، وحمله مشركو قريش إليها وقالوا: يا خديجة تزوّجت بمجنون، فوثبت خديجة من السرير وضمته إلى صدرها، وضعت رأسه في حجرها وقبّلت عينيه. وقالت: تزوّجت نبيّاً مرسلًا، فلما أفاق، قالت: بأبي وأمي يا رسول الله، ما الذي أصابك؟ قال: «ما أصابني غير الخير، ولكنّي سمعت صوتًا أفرغني، وأظنّه جبريل فاستبشرت». ثمّ قالت: إذا كان غداً غداً، فارجع إلى الموضع الذي رأيته فيه بالأمس. قال: «نعم» فخرج ﷺ وإذا هو بجبرائيل في أحسن صورة وأطيب رائحة. فقال: يا محمّد، وربّك يقرئك السلام، ويخصّك بالتحيّة والإكرام، ويقول لك: إنّك رسولي إلى الثّقّالين، فادعهم إلى عبادتي، وأن يقولوا: لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، عليّ ولي الله. فضرب بجناحيه الأرض، فانبعت عين ماء، فشرب ﷺ منها وتوضّأ، وعلمّه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾ إلى آخرها، وخرج جبرائيل إلى السماء، وخرج رسول الله ﷺ من حراء. فما مرّ بحجر ولا مدر ولا شجر إلا ناداه السلام عليك يا رسول الله، فأتى خديجة وهي بانتظاره وأخبرها بذلك، وفرحت به بسلامته وبقائه. (٤: ٤٧٨ - ٤٧٩)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ البقرة / ٢٨١

٥- ابن شهر آشوب، قال في «أسباب النزول» عن الواحدي: أنّه روى عكرمة عن ابن عباس، قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة حُنين، وأنزل سورة الفتح، قال: «يا عليّ بن أبي طالب ويا فاطمة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...﴾ إلى آخر السورة».

٦- وقال السديّ وابن عباس: ثمّ نزل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ فعاش بها

ستّة أشهر... [وذكر كما تقدّم عن الطبرسي] (١: ٢٦١)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة المائدة)

٧- العياشي عن زُرارة بن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قال علي بن أبي طالب عليه السلام «نزلت المائدة قبل أن يقبض النبي صلى الله عليه وآله بشهرين أو ثلاثة» وفي رواية أخرى عن أبي جعفر عليه السلام مثله.

٨- عن عيسى بن عبدالله، عن أبيه، عن جدّه، عن علي عليه السلام، قال: «كان القرآن ينسخ بعضه بعضاً، وإنّما كان يؤخذ من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بآخره، فكان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة، فنسخت ما قبلها ولم ينسخها شيء، لقد نزلت عليه وهو على بغلته الشّهباء ونقل عليه الوحي، حتّى وقفت وتدلّى بطنها حتّى رأيت سُرّتها تكاد تمسّ الأرض، وأغمي على رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى وضع يده على ذؤابة شَيْبَةَ بن وهب الحَجَميّ (و في نسخة الجهمي) ثمّ رفع ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فقرأ علينا سورة المائدة، فعمل رسول الله صلى الله عليه وآله و عملنا». (١: ٤٣٠)

(سورة النّصر)

نزلت بمنى في حجة الوداع، فتعدّ مدنيّة، وهي آخر ما نزل من السّور، نزلت بعد التّوبة... وقد تقدّم في مقدّمة الكتاب أنّها آخر سورة نزلت. (٤: ٥١٦ - ٥١٨)

الفصل السابع والعشرون

نص العلامة المجلسي (م: ١١١١) في «بحار الأنوار...»

[بدء الوحي]

١- عليّ عليه السلام: «ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة، ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ، فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلا أنك لست بنبي، ولكنك وزير، وإنك لعلّ خير»^١.
٢- بيان: قال ابن أبي الحديد: وأما رنة الشيطان فروى أحمد بن حنبل في مسنده عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال كنت مع رسول الله ﷺ صبيحة الليلة التي أُسري به فيها وهو بالحجر يصلي، فلما قضى صلاته وقضيت صلاتي سمعت رنة شديدة، فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنة؟ قال: ألا تعلم؟ هذه رنة الشيطان، علم أنه أُسري بي الليلة إلى السماء فأيس من أن يعبد في هذه الأرض.

٣- وقد روي عن النبي ﷺ ما يشابه هذا لما بايعه الأنصار السبعون ليلة العقبة، سمع من العقبة صوت عال في جوف الليل: يا أهل مكة هذا مذمم والصباة معه قد أجمعوا على حربكم، فقال رسول الله ﷺ للأنصار: ألا تسمعون ما يقول هذا أزيب الكعبة يعني شيطانها - وقد روي أرب العقبة - ثم التفت إليه فقال: أسمع يا عدو الله؟ أما والله لأفرغنّ لك، انتهى^٢.
أقول: وهاتان الرّتان غير ماورد في الخبر، وهي إحدى الرّتين اللّتين مضتا في الخبرين. (١٨: ٢٢٣-٢٢٤)

٤- أقول: قال الكازروني في المنتقى فيما رواه بإسناده: أول ما بدى به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت به مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتعبّد فيه، حتّى فجأه الحقّ وهو غار حراء فجاءه الملك وساق الحديث إلى أن قال: كان ورّقة بن نوفل ابن عمّ خديجة: امرأةً تنصّر في الجاهليّة، وكان يكتب العبرانيّ بالعربيّة من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: أي ابن عمّ اسمع من ابن أخيك، فقال ورّقة: يا ابن أخي ماترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ، فقال ورّقة: هذا النّاموس الأكبر الذي أنزل الله تعالى على موسى ﷺ يا ليتني فيها جذعاً أكون حيّاً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم قال: نعم، لم يأت رجل قطّ بما جئت به إلّا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزّراً، ثم لم ينشب ورّقة أن توفي، وفتر الوحي فترة، ثم أتاه الوحي النّاموس جبرئيل ﷺ وصاحب سرّ الملك. قوله: جذعاً، أي شاباً قويّاً كالجذع من الدّوابّ حتّى أبلغ في نصرك قوله: مؤزّراً، أي بالغاً في القوّة، لم ينشب بفتح الشّين، أي لم يمكث ولم يحدث شيئاً ولم يشتغل به.

٥- وفي رواية أخرى: أنّ خديجة أتت ورقة وقالت: أخبرني عن جبرئيل ما هو؟ قال: قُدّوس قُدّوس مذكّر جبريل في بلدة لا يعبدون فيها الله، قالت: إنّ محمّد بن عبد الله أخبرني أنّه أتاه، قال: فإن كان جبرئيل هبط إلى هذه الأرض لقد أنزل الله إليها خيراً عظيماً، هو النّاموس الأكبر الذي أتى موسى وعيسى ﷺ بالرسالة والوحي، قالت: فأخبرني هل تجد فيما قرأت من التّوراة والإنجيل أنّ الله يبعث نبياً في هذا الزّمان يكون يتيماً فيؤويه الله، وفقيراً فيغنيه الله تكفّله امرأة من قريش أكثرهم حسباً، وذكرت كلاماً آخر فقال لها: نعته مثل نعتك يا خديجة؟! قالت: فهل تجد غيرها؟ قال: نعم؛ إنّّه يمشي على الماء كما مشى عيسى بن مريم وتكلّمه الموتى كما تكلمت عيسى بن مريم ﷺ، وتسلم عليه الحجارة وتشهد له الأشجار، وأخبرها بنحو قول بحيرا، ثم انصرفت منه وأتت عدّاساً الرّاهب وكان شيخاً قد وقع حاجباه على عينيه من الكبر فقالت: يا عدّاس أخبرني عن جبرئيل ﷺ ما هو؟ فقال: قُدّوس قُدّوس وخرّ ساجداً، وقال: ما ذكر جبريل في بلدة لا يذكر الله ولا يعبد، قالت: أخبرني عنه قال: لا والله لا أخبرك حتّى تخبرني من

أين عرفت اسم جبرئيل؟ قالت: لي عليك عهد الله و ميثاقه بالكتمان؟ قال: نعم، قالت: أخبرني به محمد بن عبد الله أنه أتاه، قال عدّاس: ذلك التاموس الأكبر الذي كان يأتي موسى و عيسى عليهما السلام بالوحي و الرسالة، والله لئن كان نزل جبرئيل على هذه الأرض لقد نزل إليها خير عظيم، و لكن يا خديجة إن الشيطان ربّما عرض للعبد فأراه أموراً، فخذني كتابي هذا فانطلقني به إلى صاحبك فإن كان مجنوناً فإنه سيذهب عنه، و إن كان من أمر الله فلن يضرّه^١ ثم انطلقت بالكتاب معها، فلما دخلت منزلها إذا هي برسول الله صلى الله عليه وآله مع جبرئيل عليه السلام قاعد يقرؤه هذه الآيات: ﴿وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِمُخْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْزًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيْكُمُ الْمَفْتُونُ﴾^٢ أي الضالّ، أو المجنون^٣، فلما سمعت خديجة قراءته اهتزت فرحاً، ثم رآه صلى الله عليه وآله عدّاس^٤ فقال اكشف لي عن ظهرك، فكشف فإذا خاتم النبوة يلوح بين كتفيه، فلما نظر عدّاس إليه خرّ ساجداً يقول: قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ، أنت والله النّبيّ الذي بشّر بك موسى وعيسى عليهما السلام أما والله يا خديجة ليظهرنّ له أمر عظيم، و نبأ كبير، فوالله يا محمد إن عشت حتى تؤمر ثم بالدعاء لأضرب بين يديك بالسيف هل أمرت بشيء بعد؟ قال: لا، قال: ستؤمر ثم تؤمر ثم تكذب ثم يخرجك قومك^٥ والله ينتصرك و ملائكته.

قال ابن إسحاق: كان أول من اتّبع رسول الله صلى الله عليه وآله خديجة، و كان أول ذكر آمن به علي عليه السلام و هو يومئذ ابن عشر سنين، ثم زيد بن حارثة، قيل: ثم أسلم بلال، و قيل: ثم أبو بكر، ثم الزبير و عثمان و طلحة و سعد بن أبي وقاص و عبد الرحمن بن عوف^٦. وقال في المنتقى: و ممّا كان في مبعثه صلى الله عليه وآله رمي الشياطين بالشّهب بعد عشرين يوماً

١ - في المصدر: وسألته عما سألت عنه و رَفَقَ بنَ نَوْفَلٍ فأخبرها بنحو ما قال و رَفَقَ بنَ نَوْفَلٍ ثم انطلقت.

٢ - القلم ١/٦٧.

٣ - في المصدر: يعني بالمفتون الضالّ، و الصّحيح في تفسير المفتون أنّه المجنون.

٤ - في المصدر: اهتزت فرحاً، ثم قال للنّبيّ صلى الله عليه وآله فذاك أبي و أمي أمض معي إلى عدّاس، فقام معها إلى عدّاس، فلما أن سلّم عليه، قال: قال: أدن مني، فدنا منه، قال: اكشف^١ هـ.

٥ - في المصدر بعد ذلك: فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: يا عدّاس و أنّهم ليخرجوني؟ قال: نعم ما جاء والله أحد بعثل ما جئت به إلّا أخرجه قومه، و كان قومه أشدّ النّاس عليه، والله ينتصرك و ملائكته، ثم انصرف عنه النّبيّ.

٦ - المنتقى في مولود المصطفى: الباب الثاني فيما كان في السّنة الأولى من نبوّته.

من البعث، روي عن ابن عباس قال: لما بعث الله محمدًا ﷺ دحر^١ الجنّ ورموا بالكواكب، وكانوا قبل يستمعون، لكلّ قبيل من الجنّ مقعد يستمعون فيه، فأول من فزع لذلك أهل الطائف، فجعلوا يذبّون لآلهتهم من كان له إيل أو غنم كلّ يوم حتّى كادت أموالهم يذهب، ثمّ تناهوا، وقال بعضهم لبعض: ألا ترون معالم السماء كما هي لم يذهب منها شيء، وقال إيليس: هذا أمر حدث في الأرض، ائتوني من كلّ أرض بتربة، فكان يؤتي بالتربة فيشمّها ويلقيها حتّى أتي بتربة تهامة فشمّها وقال: هنا الحدث.

و ممّا كان في مبعثه ﷺ ما روي أنّه لما بعث الله نبيّه أصبح كسرى ذات غداة وقد انفصم طاق ملكه من وسطها، فلمّا رأى ذلك أحزنه، وقال: «شاه بشكست» يقول: الملك انكسر، ثمّ دعا كهانه و سحرته و منجميه وقال: انظروا في ذلك الأمر، فنظروا ثمّ قالوا: ليخرجنّ من الحجاز سلطان يبلغ المشرق تخصب عنه الأرض كأفضل ما أخصبت من ملك كان قبله...^٢ (٢٢٨:١٨-٢٣٠)

ومنه، قال الدّولابيّ يرفعه عن رجاله: إنّ كان من بدء أمر رسول الله ﷺ أنّه رأى في المنام رؤيًا فشقّ عليه... [و ذكر كما تقدّم عن ابن كثير نقلًا عن موسى بن عُقبة، عن الزّهرّي، عن سعيد بن مسيب الرّقم ٢٥]. (١٠:١٦)

الفصل الثامن والعشرون

نصّ البروسويّ (م: ١١٣٧) في تفسيره: «روح البيان»

أول آية نزلت من القرآن

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾

(اقرأ) أي ما يوحى إليك يا محمد، فإنّ الأمر بالقراءة يقتضي المقروء قطعاً، وحيث لم يعيّن وجب أن يكون ذلك ما يتصل بالأمر حتماً سواء كانت السورة أول ما نزل أم لا؟ فليس فيه تكليف ما لا يطاق، سواء دلّ على الفور أم لا؟. والاقرب أنّ هذا إلى قوله: ﴿مَالَمْ يَغْلَمْ﴾ أول ما نزل عليه ﷺ ما دلّت عليه الأحاديث الصحيحة، والخلاف إنّما هو في تمام السورة. (١٠: ٤٧٠)

﴿آية البسملة﴾

وفي كتاب «شمس المعارف»: أول آية نزلت على وجه الأرض: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يعني على آدم الصفيّ عليه السلام، فقال آدم: الآن علمت أنّ ذريّتي لا تعذب بالنار مادامت عليها، ثمّ أنزلت على إبراهيم عليه السلام في المنجنيق، فأنجاه الله عليه السلام من النار، ثمّ على موسى عليه السلام، فقهر بها فرعون وجنوده، ثمّ على سليمان عليه السلام فقالت الملائكة: الآن والله قد تمّ ملك، فهي آية الرحمة والأمان لرسله وأممهم، ولما نزلت على رسول الله ﷺ في سورة النمل: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كانت فتحاً عظيماً، فأمر رسول الله فكتبت على رؤوس السور، وظهر الدفاتر، وأوائل الرسائل. (١٠: ٤٧٢)

آخر سورة نزلت من القرآن:

(سورة النصر)

عن ابن مسعود: إنّ هذه السّورة تسمّى سورة التّوديع؛ لما فيها من الدّلالة على توديع الدّنيا. قال عليّ عليه السلام: «لما نزلت هذه السّورة مرض رسول الله صلى الله عليه وآله، فخرج إلى النّاس فخطبهم وودّعهم، ثمّ دخل المنزل فتوقّى بعد أيّام». قال الحسن: أعلم أنّه قد اقترب أجله، فأمر بالتّسبيح والتّوبة، ليختم له بالعمل الصّالح وفيه تنبيه لكلّ عاقل. (٥٣١:١٠)

الفصل التاسع والعشرون

نصّ الآلوسي (م: ١٢٧٠) في تفسيره: «روح المعاني»

أول سورة نزلت من القرآن

(سورة المدثر)

[هذه السورة] مكّية، قال ابن عطية بإجماع، وفي «التحرير» قال مقاتل: إلا آية، و هي: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً...﴾^١.

وروى أمية الأزدي عن جابر بن زيد، وهو من علماء التابعين بالقرآن، أن المدثر نزلت عقب المزمّل. وأخرجه ابن الضريس عن ابن عباس، وجعلوا ذلك من أسباب وضعها بعدها.

والظاهر ضعف هذا القول، فقد أخرج أحمد و البخاري ومسلم والترمذي وجماعة عن يحيى بن أبي كثير، قال: سألت... [وذكر كما تقدّم عن الطبري].

فإنّ القصة واحدة، ولو كانت ﴿يَاءُيُهَا الْمُزْمَلُ﴾ هي النازلة قبل فيها لذكرت. نعم، ظاهر هذا الخبر يقتضي أنّ ﴿يَاءُيُهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ نزل قبل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾^٢. والمروي في الصحيحين وغيرهما عن عائشة أنّ ذلك أوّل ما نزل من القرآن، وهو الذي ذهب إليه أكثر الأئمة، حتّى قال بعضهم: هو الصحيح ولصحة الخبرين احتاجوا للجواب، فنقل في «الإتقان» خمسة أجوبة؛ الأوّل: أنّ السؤال في حديث جابر... [وذكر كما تقدّم عن السيوطي، ثم قال: [وفيه نظر، فتأمل ولا تغفل. (١١٥:٢٩)].

(سورة العلق)

تسمّى سورة (إقرأ) لاختلاف في مكّيّتها، وإنّما الخلاف في أنّها أوّل نازل أولاً؟ فذهب كثيرٌ إلى أنّها أوّل نازل؛ فقد أخرج الطَّبْرَانِيّ في «الكبير» بسنده على شرط الصحيح عن أبي رجاء العَطَارِدِيّ، قال: كان أبو موسى الأشعريّ... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبْرِيّ (الرقم ١٤، ثمّ قال:]

وقد أخرج الحاكم في «المستدرک» والبيهقيّ في «الدلائل» وصحّاه عن عائشة نحوه. و أخرج غير واحدٍ عن مجاهد، قال: أوّل ما نزل من القرآن: (إقرأ بِاسْمِ) ثمّ ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾.

وروى الشَّيْخَان عن أبي سَلَمَةَ بن عبد الرَّحْمَنِ، قال: سألت جابر بن عبد الله: أيّ القرآن أنزل أولاً؟ قال: ﴿يَاءُ يُهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ قلت: يقولون: ﴿إقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، قال: أحدّثكم بما حدّثنا به، رسول الله ﷺ فساق الحديث مستدلاًّ به على ما ادّعاه. وأجاب عنه الأولون بعدّة أجوبة مرّ ذكرها.

وقيل: الفاتحة، واحتجّ له بحديثٍ مرسل رجاله ثقات، أخرجه البيهقيّ في «الدلائل» والواحدِيّ من طريق يونس بن بُكَيْرٍ عن يونس بن عمر، عن أبيه، عن أبي مَيْسِرَةَ عمر و بن شَرْحُبِيل.

وأجيب عنه: بأنّ ما فيه يحتمل أن يكون خبراً عمّا نزل بعد (إقرأ) و ﴿يَاءُ يُهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ مع أنّ غيره أقوى منه رواية.

وجزم جابر بن زيد، بأنّ أوّل ما نزل: إقرأ، ثمّ ن، ثمّ ياءُ يُهَا الْمُزْمَلُ، ثمّ ياءُ يُهَا الْمُدَّثِّرُ، ثمّ الفاتحة.

وقيل: أوّل ما نزل صدرها إلى ﴿مَا لَمْ يَغْلَمْ﴾ في غار حراء، ثمّ نزل آخرها بعد ذلك بما شاء الله تعالى، وهو ظاهر ما أخرجه الإمام أحمد والشَّيْخَان و عبد بن حميد و عبد الرزّاق وغيرهم من طريق ابن شِهَاب عن عُرْوَةَ بن الزُّبَيْرِ عن عائشة... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبْرِيّ الرقم ٩، ثمّ قال:]

وفي آخر ما رَوَوْا قال ابن شِهَاب: وأخبرني أبو سَلَمَةَ عن جابر بن عبد الله، قال وهو

يحدث عن فترة الوحي... [وذكر كما تقدّم عن ابن كثير الرّم ٣، ثم قال:].

ويعلم منه ضعف الاستدلال على كون سورة المدثر أول نازل من القرآن على الإطلاق، بما روي أولاً عن جابر المذكور كما لا يخفى على الواقف عليه، وقد ذكرناه صدر الكلام في سورة المدثر؛ لقوله فيه: وهو يحدث عن فترة الوحي، وقوله: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء» وقوله: «فحمي الوحي وتتابع» أي بعد فترته.

وبالجملة، الصحيح كما قال البعض وهو الذي أختاره: إن صدر هذه السورة الكريمة هو أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، كيف وقد ورد حديث بدء الوحي المروي عن عائشة من أصح الأحاديث، وفيه: فجاءه الملك، فقال (اقرأ) فقال: «قلت: ما أنا بقارئ» فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد... إلخ.

والظاهر أن «ما» فيه، نافية، بل قال التّوّي: هو الصّواب، وذلك إنّما يتصور أولاً، وإلا لكان الامتناع من أشدّ المعاصي. ويطابقه ما ذكره الأئمة في باب تأخير البيان.

وفي «الكشف»: الوجه حمل قول جابر على السورة الكاملة.

وفي شرح صحيح مسلم: الصّواب أن أول ما نزل (اقرأ)، أي مطلقاً، وأول ما نزل بعد فترة الوحي «يأيتها المدثر».

وأما قول من قال من المفسرين: أول ما نزل الفاتحة، فبطلانه أظهر من أن يذكر، انتهى. وتمام الكلام في هذا المقام يطلب من محله، والله تعالى أعلم. (١٧٧:٣٠-١٧٨)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾ البقرة / ٢٨١.

أخرج غير واحد، من غير طريق عن ابن عباس أن آية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾ آخر ما نزل من القرآن، واختلف في مدّة بقائه بعدها... إلخ.

روي أنّه قال: «اجعلوها بين آية الرّبا وآية الدّين» وفي رواية أخرى أنّه ﷺ قال: «جاءني جبرائيل، فقال: اجعلوها على رأس مأتين وثمانين آية من البقرة».

ولا يعارض الرواية عن ابن عباس ﷺ، في أنّ هذه آخر آية نزلت ما أخرجه

البُخاريّ وأبو عُبَيْد و ابن جرير والبيهقيّ من طريق الشَّعْبِيّ عنه عليه السلام، أنّه قال: آخر آية أنزلها الله تعالى على رسوله ﷺ آية الرِّبَا.

ومثله ما أخرجه البيهقيّ من طريق ابن المُسَيَّب عن عمر بن الخطّاب، كما قاله محمّد بن سلَمَة فيما نقله عنه عليّ بن أحمد الكُرباسيّ: أنّ المراد من هذا أنّ آخر ما نزل من الآيات في البيوع آية الرِّبَا، أو أنّ المراد أنّ ذلك من آخر ما نزل، كما يصرّح به ما أخرجه الإمام أحمد. (٥٥-٥٤:٣)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ التوبة / ١٢٨-١٢٩

وهاتان الآيتان على ما روي عن أبيّ بن كعب آخر ما نزل من القرآن، لكن روى الشَّيْخَان عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أنّه قال: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ...﴾ و آخر سورة نزلت: براءة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: آخر آية نزلت: ﴿وَاقْتُلُوا يُومًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾. وحاول بعضهم التوفيق بين الرويات في هذه الشّأن بما لا يخلو عن كدر، ويبعد عن أبيّ ما أخرجه ابن مَرْدُؤَيْهِ عن سعد بن أبي وقاص، فقالوا له: إنك قد نزلت بين أظهرنا، فأوثق لنا نأمنك وتأمنّا، قال: «ولم سألتهم هذا؟» قالوا: نطلب الأمان، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾ والله تعالى أعلم بحقيقة الحال. (٥٣:١١)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة النصر)

و تسمّى سورة (إذا جاء) و عن ابن مسعود أنّها تسمّى سورة التّوديع لما فيها من الإيماء إلى وفاته عليه الصّلاة و السّلام و توديعه الدّنيا و ما فيها. وهي مدنيّة على القول الأصحّ في تعريف المدنيّ.

فقد أخرج الترمذيّ في مسنده. و البيهقيّ من حديث موسى بن عُبَيْدة و عبد الله بن دينار، و صدّقة بن بشار عن ابن عمر أنّه قال: هذه السّورة نزلت على رسول الله ﷺ أوّسط أيّام التّشريق بمنى؛ و هو في حجة الوداع ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ حتّى ختمها الخبر.

وأخرجه أيضًا عن ابن أبي شَيْبَةَ و عبد بن حَمِيد و غيرهما، لكن قال الحافظ ابن رَجَب بعد أن أخرجه عن الأولين، أن إسناده ضعيف جدًا، وموسى بن عُبيدة قال أحمد: لا تحلّ الرواية عنه وعليه، إن صحّ يكون نزولها قريبًا جدًا من زمان وفاته عليه السلام فإنّ ما بين حجة الوداع وإجابته عليه الصّلاة والسّلام داع الحقّ ثلاثة أشهر ونيف.

وأخرج عبّد بن حَمِيد و ابن جرير و ابن المُنذر عن قتادة، أنّه قال: والله ما عاش عليه السلام بعد نزول: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلا قليلاً سنتين، ثمّ توفّي عليه الصّلاة والسّلام. وفي «البحر»: أن نزولها عند منصرفه عليه السلام من خيبر، وأنّ تعلم أنّ غزوة خيبر كانت في سنة سبع أواخر المحرم فيكون ما في البين أكثر من سنتين. ويدلّ على مدنيّتها أيضًا، ما أخرجه مُسلم، و ابن أبي شَيْبَةَ و ابن مَرْدُوَيْه عن ابن عبّاس أنّه قال: آخر سورة نزلت من القرآن جميعًا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ...﴾ و آيها ثلاث بالاتّفاق وفيها إشارة إلى إضمحلال ملّة الأصنام و ظهور دين الله عزّ وجلّ على أتمّ وجه... (٢٥٥:٣٠)

الفصل الثلاثون

نص رشيد رضا (م: ١٣٥٤) في تفسيره: «المنار»

أول سورة نزلت من القرآن

(سورة الفاتحة)

قال الأستاذ الإمام^١: سميت الفاتحة فاتحة لأنها أول القرآن في هذا الترتيب... وهي مكية خلافاً لمجاهد، فالإجماع على أن الصلاة كانت بالفاتحة لأول فرضيتها. ولا ريب أن ذلك كان في مكة. وقالوا هي المراد بالسبع المثاني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^٢ وهو مكِّي بالنص.

وقال بعضهم: إنها نزلت مرتين، مرة بمكة عند فرضية الصلاة، وأخرى بالمدينة حين حوّلت القبلة، وكأن صاحب هذا القول أراد الجمع بين القولين، وليس بشيء. وقال كثيرون: إنها أول سورة أنزلت بتمامها.

أقول الآن: ذكر الحافظ السيوطي في «الإنقان» أربعة أقوال... [وذكر كما تقدّم عنه، ثم قال]: هذا؛ وأما الأستاذ الإمام فقد رجّح أنها أول ما نزل على الإطلاق، ولم يستثن قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ ونزع في الاستدلال على ذلك منزعاً غريباً في حكمة القرآن وفقه الدين [إلى أن قال:]

فنبين من مجموع ما تقدّم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الأصول التي يفصلها

القرآن تفصيلاً، فكان إنزالها أولاً موافقاً لسنة الله تعالى في الإبداع. وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى (أم الكتاب)، كما نقول: إنَّ النَّوَاةُ أُمُّ النَّخْلَةِ، فإنَّ النَّوَاةَ مشتملة على شجرة النَّخْلَةِ كلّها حقيقة، لا كما قال بعضهم: إنَّ المعني في ذلك أنَّ الأُمَّ تكون أولاً، و يأتي بعدها الأولاد.

وأقول الآن: هذا ما قاله الأستاذ الإمام مبسوطاً موضحاً، ويمكن أن يقال: إنَّ نزول أول سورة العلق قبل الفاتحة لا ينافي هذه الحكم التي يبيتها، لأنَّه تمهيد للوحي المجمل والمفصل خاص بحال النَّبِيِّ ﷺ، وإعلام له بأنَّه يكون وهو أُمِّي قارئاً بعناية الله تعالى، ومخرجاً للأُمِّيَّين من أُمِّيَّتِهِمْ إلى العلم بالقلم، أي الكتابة، وفي ذلك استجابة لدعوة إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ﴾^١ فسر الأستاذ الإمام: الكتاب بالكتابة، ثم كانت الفاتحة أول سورة نزلت كاملة، وأمر النَّبِيِّ بجعلها أول القرآن، وانهقد على ذلك الإجماع. (١: ٣٤ - ٣٨)

آخر آية نزلت من القرآن

(آية الرِّبَا)

أخرج البخاري عن ابن عباس: أنَّ آخر آية نزلت آية الرِّبَا. وأخرج البيهقي عن عمر مثله. قال في «الإتقان»: والمراد بها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾^٢.

[ثم ذكر روايات عديدة حول آخر ما نزل، منها قول الشُّيُوطِي، كما تقدّم عنه، فقال:]

وقيل: غير ما ذكر في آخر القرآن نزولاً وفي مدّة بقائه ﷺ بعد نزول: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ وورد أنَّه قال: «اجعلوها بين آية الرِّبَا...» [وذكر كما تقدّم عن الألويسي]. (١٠٥: ٣)

(آية الكلاله)

و من مباحث تاريخ القرآن و أسباب نزوله ماروي من كون هذه الآية آخر آية نزلت، روى الشيخان و الترمذي و النسائي و غيرهم عن البراء... [و ذكر كما تقدّم عن الواحدي، ثم قال:]

وبهذا لا تنافي مارواه البخاري عن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت آية الرّبا. وروى البیهقي عن ابن عمر مثله، و في بعض الروايات عن عمر التّعبير بقوله: من آخر ما نزل آية الرّبا، رواه أحمد و ابن ماجه، قالوا المراد بآية الرّبا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ذُرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا...﴾. و ذكر عمر أن النبي ﷺ توفي و لم يفسرها.

و في روايات ضعيفة عن ابن عباس أن آخر آية نزلت، أو آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية، و هي بعد آيات الرّبا من سورة البقرة التي تقدّم أنّها من آخر ما نزل أو آخره. قال في رواية الكلبي عن أبي صالح عنه: و كان بين نزولها و بين موت النبي ﷺ أحد و ثمانون يومًا. ورواية الكلبي عن أبي صالح هي أو هي الروايات عن ابن عباس، فلا يعتدّ بها. وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبّير أنّها: آخر ما نزل من القرآن كلّ، قال: و عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال، و مات ليلة الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأوّل. و في هذه الرواية بحث ليس هذا محلّه.

وجملة القول أنّه لا سبيل إلى القطع بآخر آية نزلت من القرآن، وإنّما نقول: إنّ هذه الآية من آخر ما نزل قطعًا، و يجوز أن تكون آخرها كلّها، والله أعلم. (١١٢-١١١:٦)

﴿الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ المائدة ٣.

مكث رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية إحدى و ثمانين يومًا ثم قبضه الله إليه... و ذكر مارواه قبل ذلك عن ابن عباس و السّدي من تفسير الإكمال بإكمال الفرائض و الأحكام، و ما يعارضه من قول البراء ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ...﴾ إنّها آخر آية نزلت. و نقول: لا معارضة، فإنّ مراده أنّها آخر آيات الفرائض، و هذا لا ينفي أن تكون نزلت

قبل آية المائدة أو سورة المائدة واستدلّ على التّرجيح أيضاً باتّفاق العلماء على أنّ الوحي لم ينقطع عن رسول الله ﷺ إلى أن قبض، وكونه كان قبل وفاته أكثر ما كان تتابعاً، وجعل منه آية الفتوى في الكلاله، وأصحاب القول الآخر يمتنعون أن تكون هذه الآية ممّا نزل بعد آية المائدة، ولا يمتنعون غيرها ممّا ليس فيه فرائض ولا حلال ولا حرام، وبهذا يبطل ترجيحه إثبات نزول شيء من الأحكام على نفيه بتقديم المثبت على النّافي. (٦: ١٥٤)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ التوبة / ١٢٨.

ونختم تفسير الآيتين بتحقيق مسألتين ذكرتا في تفسيرهما، ولم نر أحداً حقّقهما؛ الأولى: ما ورد في كتابة الآيتين عن النبي ﷺ، وكونهما آخر ما نزل، أنّ معنى هاتين الآيتين لا يظهر إلّا في دعوته ﷺ إلى الإسلام بمكة في أوّل زمن البعثة. وقد ذكرت في الكلام على هذه السّورة قبل البدء بتفسيرها أنّ ابن أبي الفرس قال: إنّهما مكيّتان، وأنّه يردّ قوله ما ورد من أنّهما آخر ما نزل من القرآن، ثمّ ذكرت هنالك أصحّ ما ورد في آخر ما نزل من القرآن، وهو غير هاتين الآيتين.

وأقول الآن: إنّ قول ابن أبي الفرس هو الوجه من جانب المعنى، فهو يؤيّد الرواية، وأمّا القول بأنّهما آخر ما نزل، فقد أخرج في بعض المسانيد والتّفسير المأثورة عن أبي بن كعب بالفاظ متقاربة؛

منها: عن ابن عباس عنه: أنّ آخر آية أنزلت على النبي ﷺ وفي لفظ أنّ آخر ما أنزل من القرآن: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلخ.

ومنها: عن الحسن عنه، أنّه كان يقول: إنّ أحدث القرآن عهداً بالله، وفي لفظ بالسّماء، هاتان الآيتان: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلخ السّورة.

ومنها: من طريق أبي العالية عنه أنّهم جمّعوا القرآن في مصحف في خلافة أبي بكر... [وذكر كما تقدّم عن ابن كثير، ثمّ قال:]

وهو صريح في أنّهما آخر ما نزل من هذه السّورة، لا من القرآن مطلقاً، إلّا إذا صحّ أنّ سورة براءة آخر سورة نزلت والصّحيح في الرواية أنّ آخر ما نزل من السّور سورة النّصر، ومن الآيات ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ كما تقدّم في محله. [إلى أن قال:]

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف أنّ خُزَيْمَةَ بن ثابت جاء عثمان حين تصدّى لكتابة القرآن بعد مقتل عمر، فقال: إني رأيتمكم تركتم آيتين لم تكتبوهما فقالوا ما هما؟ قال: تلقيت من رسول الله ﷺ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾ إلى آخر السورة. فقال عثمان: وأنا أشهد أنّهما من عند الله، فأين ترى أن نجعلها؟ قال: اختم بهما آخر ما نزلت من القرآن، فختمت بهما براءة. (١١: ٩١-٩٣)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة البراءة)

وهي مدنية بالاتفاق، قيل: إلا قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^١. واستثنى ابن الفرس قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾ إلى آخر الآيتين في آخرها، فزعم أنّهما مكّتان، ويرده مارواه الحاكم وأبو الشيخ في تفسيره عن ابن عباس من أنّ هاتين الآيتين آخر ما نزل من القرآن، وقول الكثيرين: إنّها نزلت تامة. وما يعارض هذا مما ورد في أسباب نزول بعض الآيات يجاب عنه بأن أكثر ما روي في أسباب النزول كان يراد به أنّ الآية نزلت في حكم كذا، أعني أنّ الرواة كانوا يذكرونها كثيراً في مقام الاستدلال، وهذا لا يدلّ على نزولها وحدها، ولا على كون النزول كان عن حدوث ما استدللّ بها عليه، كما قلنا آنفاً في احتمال نزول آية استنكار الاستغفار للمشركين في المدينة، وإن كان مذكروه من سببها حدث بمكة قبل الهجرة... وقد نزل معظمها بعد غزوة تبوك وهي آخر غزواته ﷺ وفي حال الاستعداد لها في زمن الفسرة والخروج إليها في القيظ، وفي أثناءها ظهر من آيات نفاق المنافقين ما كان خفياً من قبل.

وقد صرحوا بأنّ أولها نزل سنة تسع بعد فتح مكة، فأرسل النبيّ صلوات الله وسلامه

عليه علياً ﷺ ليقراها على المشركين في الموسم، كما يذكر مفصلاً في محله.

وفي صحيح البخاري وغيره عن البراء، قال: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ...﴾
 وآخر سورة نزلت: براءة، وهو رأي له لا رواية مرفوعة، ويحمل قوله في الآية على أنها
 آخر ما نزل في الكلاله، فهي بعد آيات المواريث، وفي السورة على بعضها أو معظمها.
 وأرجح ما ورد في آخر آية نزلت أنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ أو ما
 قبلها من آيات الربا من دونها، والأرجح أن يقال معها، و تقدّم تفصيل المسألة في آخر
 سورة البقرة. وأما آخر سورة نزلت تامة فالأرجح أنها سورة النصر وقد عاش ﷺ بعدها
 أياماً قليلة. (١٤٥:١٠)

الفصل الحادي والثلاثون

نصّ أبي عبدالله الزّنجانيّ (م: ١٣٦٠) في «تاريخ القرآن»

أول ما نزل من القرآن

الصّحيح أنّ أول ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿إِقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾؛ قال محدّد بن إسحاق المعروف بابن أبي يعقوب التّدِيم في كتابه: «فوز العلوم» المعروف بالفهرست:

حدّثني أبو الحسن محدّد بن يوسف، قال: حدّثنا أبو عبدالله محدّد بن غالب، قال: حدّثنا أبو محدّد عبدالله بن الحجاج المدنيّ قدم من المدينة سنة ٢٩٩، قال: حدّثنا بكر بن عبد الوهاب المدنيّ، قال حدّثني الواقديّ محدّد بن عمر، قال: حدّثني معمر بن راشد عن الزّهرري، عن محدّد بن نعمان بن بشر، قال: أول ما نزل من القرآن على النّبيّ ﷺ: ﴿إِقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - إِلَى قوله - عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. روى الشّيخان عن عائشة: كان النّبيّ ﷺ يأتي جِراء... [وذكر كما تقدّم عن الطّبريّ الرّقم ٣ ثمّ قال:]

وقال أبو عبيدة في «فضائل القرآن»: حدّثنا عبدالرحمان عن سُفيان، عن ابن أبي نجيج، عن مجاهد رضي الله عنه، قال: إنّ أول ما نزل من القرآن: ﴿إِقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ و﴿ن وَالْقَلَمِ﴾. وأخرج ابن أشتة في كتاب «المصاحف»... [إلى أن قال:] وأخرج عن الزّهرري... [وذكر كما تقدّم عن الشّيوطيّ، ثمّ قال:]

ولم تنزل بعد نزول آية: ﴿إِقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ إلى ثلاث سنوات آية من القرآن، وتسمّى هذه المدة زمن فترة الوحي، ثمّ أخذ القرآن ينزل على النّبيّ ﷺ منجمًا، وكان تنجيّمه مثار اعتراض المشركين، وقد ذكر ذلك القرآن وأجاب عنه، وقال في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ

وَرَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا^١ لما في تنجيحه و تكرار الوحي و إشراق نورالعلم على قلبه من التثبيت لفؤاده الشريف. ولا تنافي بين نزوله مفرقًا و مُتَجَمًّا و بين قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ^٢﴾ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ^٣﴾ و ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرُكٍ^٤﴾ لصحة إطلاق القرآن على بعضه، كما في قوله تعالى ﴿كِتَابٌ أُخْكِمَتْ آيَاتُهُ^٥﴾ مع العلم بأن آخر منها متشابهات. على أنه يمكن أن نقول بأن روح القرآن، و هي أغراضه الكلية التي يرمي إليها، تجلّت لقلبه الشريف في تلك الليلة ﴿نُزِّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿عَلَى قَلْبِكَ^٦﴾ ثم ظهرت بلسانه الأظهر مفرقة في طول سنين ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا^٧﴾ و دلّ استقراء الأحاديث أن أكثر القرآن نزل مفرقًا، و من أمثله في السُّور القصار، سورة (إِقرَأْ)، أول ما نزل منها إلى قوله تعالى: ﴿مَالَمْ يَغْلَمْ﴾ و الضَّحَى، أول ما نزل منها إلى قوله: ﴿فَتَرَضَى^٨﴾ و منه ما نزل جميعًا، و من أمثله فيها سورة الفاتحة، والإخلاص، والكوثر، و تَبَّتْ، و لَمْ يَكُنْ، و النَّصِير^٩، و من أمثله في السُّور الطوال، و المُرْسَلَات^{١٠}.

و قد دلّ الاستقراء على نزول خمس آيات و عشر آيات، و صحّ نزول عشر آيات من أول المؤمنين جملةً، و صحّ نزول ﴿غَيْرِ أُولَى الضَّرَرِ﴾ وحدها، و هي بعض آية ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^{١١}﴾ و كذا قوله تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^{١٢}﴾ فإنها نزلت بعد نزول أول الآية، و هي بعض الآية.

(ص: ٨١)

١ - الفرقان / ٣٢.

٣ - البقرة / ١٨٥.

٥ - هود / ١.

٧ - الإسراء / ١٠٦.

٩ - ذكر في «الإتقان» للحافظ جلال الدين السيوطي.

١٠ - في «المستدرک» عن ابن مسعود (رض) قال: كنّا مع النبي ﷺ في غار فنزلت عليه: (وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا)، فأخذتها من فيه، و إن فاء رطب بها، فلا أدري بأيهما ختم ﴿قَبَائِلُ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أو ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا يُزَكُّونَ﴾.

١١ - النساء / ٩٥.

١٢ - التوبة / ٢٨.

الفصل الثاني والثلاثون

نصّ سيّد قطب (م: ١٣٨٥) في تفسيره: «في ظلال القرآن»

أول آية نزلت من القرآن

(صدر آيات سورة العلق)

مطلع هذه السّورة هو أول ما نزل من القرآن باتّفاق، والزّوايات التي تذكر نزول غيرها ابتداء ليست وثيقة.

قال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الرزّاق، حدّثنا معمر بن الزّهرّي، عن عروّة، عن عائشه... [وذكر كما تقدّم عن الطّبريّ الرّقم ٩، ثمّ قال:]

وروى الطّبريّ بإسناده عن عبد الله بن الزّبير قال: قال رسول الله ﷺ فجاءني وأنا نائم... [وذكر كما تقدّم عنه الرّقم ٤، ثمّ قال:] وقد رواه ابن إسحاق مطوّلاً عن وهب بن كيّسان، عن عبّيد أيضاً...

إنّها السّورة الأولى من هذا القرآن، فهي تبدأ باسم الله، وتوجّه الرّسول ﷺ، أول ما توجّه في أول لحظة من لحظات اتّصاله بالملائكة، وفي أول خطوة من خطواته في طريق الدّعوة الّتي اختير لها توجّهه إلى أن يقرأ باسم الله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾. (٦: ٣٩٣٥-٣٩٣٨)

آخر آية نزلت من القرآن

(آية الرِّبَا)

[سورة البقرة] من أوائل ما نزل من السُّور بعد الهجرة... وفي هذه السُّورة آيات في أواخر ما نزل من القرآن كآيات الرِّبَا، في حين أن الرِّاجح أن مقدماتها كانت من أول ما نزل من القرآن في المدينة. (٢٧:١).

(آية إكمال الدِّين)

في روايات كثيرة أن هذه السُّورة [أي سورة المائدة] نزلت بعد سورة الفتح، وسورة الفتح معروف أنها نزلت في الحُدَيْبِيَّة في العام السادس من الهجرة، وفي بعض هذه الروايات أنها نزلت مرَّةً واحدةً فيما عدا الآية الثالثة التي فيها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾^١ فإنها نزلت في حجة الوداع في السنة العاشرة.

ولكنَّ المراجعة الموضوعية للسُّورة مع أحداث السيرة تكاد تنفي هذا الرواية التي تقول: إنَّ السُّورة نزلت بكاملها بعد الفتح، فضلاً على أن هناك حادثة من حوادث السيرة في غزوة بدر تقطع بأنَّ الآيات الخاصَّة بموقف بني إسرائيل مع موسى ﷺ من دخول الأرض المقدَّسة، كانت معروفة للمسلمين قبل غزوة بدر في السنة الثانية الهجرية وقد وردت إشارة إليها على لسان سعد بن مُعَاذ الأنصاري ﷺ في رواية، وعلى لسان المقداد بن عمرو في رواية، وهو يقول لرسول الله ﷺ: إذن والله لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾^٢ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون... إلخ [إلى أن قال:]

ومن هذه الملاحظات يترجَّح لدينا أن مطالع السُّورة وبعض مقاطعها هي التي نزلت بعد سورة الفتح، بينما نزلت مقاطع منها قبل ذلك، كما أنَّ الآية التي فيها قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ لا بد أن تكون قد نزلت بعد ذلك، فقد كانت آخر ما نزل من

القرآن على أرجح الأقوال، وأنَّ السَّورة لم تنزل كلَّها مرَّةً واحدةً كما جاء في إحدى الروايات. (٨٣٢:٢)

﴿الْيَوْمَ يَنْصُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ...﴾ المائدة ٣/ و هي آخر ما نزل من القرآن ليعلن كمال الرِّسالة و تمام النِّعمة... اليوم نزلت فيه هذه الآية في حجة الوداع، أكمل الله هذا الدِّين. فما عادت فيه زيادة لمستزيد وأتمَّ نعمته الكبرى بهذا المنهج الكامل الشَّامل و رضي لهم الإسلام دينًا... فأعلن لهم إكمال العقيدة، وإكمال الشريعة معًا، فهذا هو الدِّين... (٢: ٨٤١ - ٨٤٣)

أول سورة نزلت من القرآن

(سورة المدثر)

ينطبق على هذه السَّورة من ناحية سبب نزولها ووقت نزولها ما سبق ذكره عن سورة المزمل.

فهناك روايات بأنَّها هي أول ما نزل بعد سورة العلق، ورواية أخرى بأنَّها نزلت بعد الجهر بالدعوة وإيذاء المشركين للنبي.

قال البخاري: حدَّثنا يحيى، حدَّثنا وكيع عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، قال: سألت أبا سلمة... [و ذكر كما تقدّم عن البخاري الرِّقم ٣، ثم قال:]

و قد رواه مسلم من طريق عقيل عن ابن شهاب، عن أبي سلمة، قال: أخبرني جابر بن عبد الله... [و ذكر كما تقدّم عن مسلم والطبري الرِّقم ٧ و ٣، ثم قال:]

علّق ابن كثير في التفسير على هذا الحديث بقوله: وهذا السِّياق هو المحفوظ... [وذكر كما تقدّم عنه، ثم قال:] فهذه رواية، وهناك روايه أخرى؛

قال الطَّبْرَانِي: حدَّثنا مُحَمَّد بن علي بن شُعَيْب السَّمْسَار، حدَّثنا الحسن بن بشر البجلي، حدَّثنا المُعافي بن عمران عن إبراهيم بن يزيد، سمعت ابن أبي مَليكة يقول:

سمعت ابن عباس يقول: إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً... [وذكر كما تقدّم عن القاسمي، ثم قال:]

وتكاد تكون هذه الرواية هي ذاتها التي رويت عن سورة المزمل، ممّا يجعلنا لانستطيع الجزم بشيء عن أيتهما هي التي نزلت أولاً، والتي نزلت بهذه المناسبة أو تلك. غير أنّ النظر في النصّ القرآني ذاته يوحى بأنّ مطلع هذه السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَلِذِكِّكَ فَاضِيزٌ﴾ ربّما يكون قد نزل مبكراً في أوائل أيام الدعوة، شأنه شأن مطلع سورة المزمل، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كُرِ اسْمُ رَبِّكَ وَتَبَيَّنَ إِلَيْهِ تَبْيِيلاً﴾ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً^١. وهذا وذلك لإعداد نفس الرسول ﷺ للنهوض بالتبعة الكبرى، ومواجهة قريش بعد ذلك بالدعوة جهاراً وكافة، ممّا سيترتب عليه مشاق كثيرة متنوعة، تحتاج مواجهتها إلى إعداد نفسيّ سابق، ويكون ما تلا ذلك في سورة المدثر، وما تلا هذا في سورة المزمل، قد نزل بعد فترة بمناسبة تكذيب القوم وعنادهم، وإيدائهم للنبي ﷺ بالاثّام الكاذب والكيد اللّثيم.

إلا أنّ هذا الاحتمال لا ينفي الاحتمال الآخر، وهو أن يكون كلّ من المطلعين قد نزل متّصلاً بما تلاه في هذه السورة وفي تلك بمناسبة واحدة هي التّكذيب، واغتمام رسول الله ﷺ للكيد الذي كادته قريش ودبرته، ويكون الشّأن في السورتين هو الشّأن في سورة القلم على التّحوّل الذي بيّناه هناك (٣٧٥١:٦).

[من أواخر السّور التي نزلت من القرآن: البراءة]

هذه السّورة مدنيّة من أواخر ما نزل من القرآن، إن لم تكن هي آخر ما نزل من القرآن.

(١٥٦٤:٣)

الفصل الثالث والثلاثون

نص عَزَّةَ دَرَوَزَة (معاصر) في «التفسير الحديث»

أول آية نزلت من القرآن

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ..»

هذه الآيات هي على ما جاء في حديث رواه البخاري عن عائشة، سنورده بعد قليل أولى الآيات القرآنية نزولاً ومع أنَّ هناك روايات تذكر أنَّ الآيات الأولى من سورة أخرى مثل سورة القلم والمُذْتَرِّ والمَزْمَل، وأنَّ سوراً أخرى مثل سورتي الفاتحة والضُّحَى هي أول القرآن نزولاً، فإنَّ أحاديث أولية هذه الآيات أقوى سنداً، كما أنَّ مضمونها يلهم ترجيح هذه الأولية وليس في هذه الآيات الواضحة العبارة أمراً بالدعوة، وإنَّما هي تنبيه وإعداد. ولما كانت الآيات التالية لها تتضمن مشهداً من مشاهد تصدَّى بعض الطغاة للنبي ﷺ حينما بدأ بدعوته وصلاته، فإنَّ المعقول أن تكون هذه الآيات قد نزلت وحدها ثم نزلت آيات أو سور قرآنية أخرى فيها أمر بالدعوة ومبادئها، وأن تكون أولية السورة في ترتيب النزول هي بسبب أولية نزول هذه الآيات.

أول قرآن نزل على النبي ﷺ

وقد نزلت هذه الآيات على النبي ﷺ ليلاً في غار حراء، أحد جبال مكة أثناء اعتكافه في هذا الغار في رمضان، على ما ورد في حديث رواه البخاري ومسلم عن

عائشة، جاء فيه أول ما بدىء به رسول الله [و ذكر كما تقدّم عن البخاري وغيره بألفاظٍ مختلفة] (٢٢:١)

﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ - إِلَى قَوْلِهِ - فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ المزمّل / ٩-١

وقد جاء في بعض الروايات^١ أنّ هذه الآيات أول ما نزل من القرآن، كما جاء في بعضها^٢ أنّها نزلت حينما رجع النبي ﷺ من غار حراء بعد نزول الوحي عليه لأول مرة وقلبه يرجف، فقال لأهله: «زَمِّلُونِي».

ومضمون الآيات يجعل الرواية الثانية أقوى، وهو ما عليه جمهور المفسرين. وهذه الروايات تعني والحالة هذه أنّ هذه الآيات نزلت وحدها؛ لأنّ الآيات التالية احتوت مشاهد و مواقف لا يمكن أن تقع إلا بعد أن يكون قد نزل جملة من القرآن، وسار النبي ﷺ في الدعوة شوطاً غير يسير وفي هذه الحالة يكون ترتيب السورة كثلاثة السور نزولاً بسبب ذلك.

على أنّ ما بين هذه الآيات والآيات التالية لها من انسجام وتوازن كافية، وعطف ما بعدها عليها، وما فيها من حكاية لموقف المكذّبين، وتثبيت للنبي ﷺ، يمكن أن يدلّ على أنّها ليست منفصلة عمّا بعدها، وأنّها جاءت كمطلع تمهيدّي له، فيه تثبيت وإعداد. وإذا صحّ هذا فإنّ أوليّة الآيات وبالتالي ترتيب السورة لا يكون صحيحاً. (٧٣:١)

﴿يَأْتِيهَا الْمُدْتَرُّ - إِلَى قَوْلِهِ - وَالرُّجُزَ فَاهْجُرْ﴾ المدتّر / ٥-١

وقد ذكرت الروايات أنّ هذه الآيات نزلت بعد فترة قصيرة من الوحي، بعد نزوله الأول على النبي ﷺ في غار حراء ومّا جاء في حديث مرويّ عن جابر بن عبد الله الأنصاري... [و ذكر كما تقدّم عن البخاري الرّقم ٣، ثم قال:]

وهناك روايات تذكر أنّها أول ما أنزل، أو أنّها ثاني أو ثالث أورايع مجموعة نزلت. ولما كانت الآيات التالية لها قد احتوت حكاية أقوال بعض المكذّبين و مواقفهم،

١ - أنظر تفسير الألوسي لهذه السورة.

٢ - المصدر السابق أيضاً. في تفسير الطبري وابن كثير.

ولا يمكن أن يكون هذا إلا بعد نزول جملة من القرآن و سير النبي ﷺ في الدّعوة شوطاً، فيكون ترتيب السّورة المتقدّم بسبب رواية تبكير نزول آياتها الأولى هذه.

و الآيات تحتوي أول أمر للنبي ﷺ بإنذار النّاس ودعوتهم، وبما يجب عليه من الظّهور بالمظهر الطّاهر التّظيف و اللّسان العفيف و التّواضع. وهذا ممّا يمكن أن يدعم رواية كونها ثانية مجموعة نزلت بعد آيات العلق الأولى. والمُصحف الّذي اعتمده هو الّذي ذكر أنّها نزلت بعد المزمّل، وجعلها رابع السّور نزولاً، فلم نشأ أن نخلّ في ترتيبه. على أنّ روح الآيات ونظمها وروح الآيات التّالية لها ونظمها أيضاً يمكن أن يلهم أنّها غير منفصلة عن بعضها. و حينئذ فإنّ الآيات تكون قد نزلت بقصد تثبيت النبي ﷺ، وتكون قد نزلت هي والآيات التّالية لها معاً أو متلاحقة بعد نزول سور وفصول قرآنية فيها مبادئ الدّعوة وأهدافها. وفي هذه الحالة يكون ترتيبها كرابعة سورة قرآنيّة غير صحيح. وعلى كلّ حال فالآيات و آيات السّورة معاً ممّا نزل مبكراً على ما يلهم أسلوبها ومضمونها، والخطة الّتي رسمها الله للنبي ﷺ في الدّعوة، والاتّصال بالنّاس ودعوتهم وإنذارهم من الأدلّة القويّة على ذلك. (٩٢:١ - ٩٣)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾ البقرة ٢٨١.

وقد روى المفسّرون: أنّ الآية (٢٧٨) نزلت في مناسبة مطالبة العباس بن عبدالمطلب وخالدين الوليد، أو رجل من بني المغيرة لديّين لهما بالزّبا عند بعض التّفقيّين قبل إسلامهما، فرفع الأمر إلى النبي ﷺ فنزلت، وأنّ الآية (٢٨١) آخر آية نزلت من القرآن. وقالوا: كانوا في الجاهليّة يكون للرّجل على الرّجل دين من بيع إلى أجل، فإذا حلّ الأجل ولم يكن عنده قضاء، طلب المُدين من الدّائن تأخير الأجل مقابل زيادة في الدّين. وهذا هو الزّبا. والّذي نلاحظه أنّ الآيات فصل تامّ منسجم سبكاً وموضوعاً، ورجّح أنّه دفعة واحدة، ولا ينبغي هذا أن يكون تشدّد أصحاب الأموال المرايين من المسلمين في طلب أموالهم من مدينيين معسّرين من الأسباب المباشرة لنزول الآيات.

ويتبادر لنا أنَّ الآية الأخيرة منسجمة مع سابقاتها انسجامًا وثيقًا، ولذلك نتوقف في رواية كونها لحدثها آخر القرآن نزولاً. ونرجح أنها نزلت مع هذه الآيات، فإذا كان لرواية نزولها كآخر آيات القرآن أصل فالمتبادر أنَّ ذلك يشمل الفصل جميعه. وقد روى البخاري حديثاً في هذا الباب عن ابن عباس، جاء فيه: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الرِّبَا. وروى ابن كثير حديثاً عن عمر جاء فيه: إنَّ آخر ما نزل آية الرِّبَا، وفي رواية إنَّ من آخر القرآن نزولاً آية الرِّبَا، وإنَّ النبي ﷺ مات ولم يفسرها لنا، فدعوا ما يريكم إلى ما لا يريكم، أو دعوا الرِّبَا والرِّبَا؛ بحيث يمكن الاستئناس بهذين الحديثين على أنَّ فصل الرِّبَا إلى آخر الآية (٢٨١)، نزل دفعةً واحدةً في أواخر عهد النبي. ولقد روي أنَّ النبي قال في حجةٍ وداعه فيما قال: «إنَّ كلَّ ربا موضوع، ولكن ﴿فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَنْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾^١ قضى الله أنَّه لا ربا، وإنَّ ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله» وهذا ممَّا يستأنس به كذلك؛ لأنَّ العباس آمن قبل الفتح المكي، ثم هاجر عقبه إلى المدينة، فلو كانت الآيات نزلت قبل حجة الوداع لما كان للعباس ربا يطالب به؛ لأنَّه لا يمكن إلاَّ أن يتقيَّد بأمر الله المشدَّد.

ومع هذا فإنَّنا ننبه على أنَّ هناك روايات تذكر غير هذه الآية، كآخر ما نزل من القرآن على ما سوف ننبه إليه في مناسبتة. [إلى أن قال:]

وقد روت الروايات أنَّ الرِّبَا كان يتضاعف بسبب الإعسار، إلى أن يبلغ أضعافاً مضاعفةً، ويستغرق جميع مال المُدين وما في حيازته. وإلى هذا أشارت آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^٢.

وإذا صحَّ أنَّ هذه الآيات كان من آخر ما نزل من القرآن والروايات التي أوردناها تؤيِّد ذلك، فتكون آية آل عمران هذه قد نزلت قبلها، فنهت عن أكل الرِّبَا أضعافاً مضاعفةً كخطوةٍ أولى، ثمَّ جاءت هذه الآيات لتحريمه تحريماً حاسماً. وهذا من أساليب التشريع القرآني؛ حيث اقتضت حكمة التنزيل التدرُّج في إلغاء العادات التي كانت راسخة وذات تأثير شديد في المجتمع. وقد سار القرآن على هذا الأسلوب في تحريم الخمر والميسر

على ما ذكرناه في مناسبة في هذه السورة، لأنَّهما كان لهما تأثير شديد ورسوخ في المجمع... (٤٠١:٧)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ التَّوبَة / ١٢٨.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ والآية التالية لها وما فيها من صور و تلقين وما روي في صدهما من روايات، وتمحيص رواية مكِّيَّتهما ومدنيَّتهما، ومسألة كونهما آخر القرآن نزولاً.

ولقد كثرت الروايات والأقوال في صدد هاتين الآيتين ومداهما، فالمُصَحَّف الَّذِي اعتمدنا عليه يذكر أنَّهما مكِّيَّتان. ولم نر في كتب التفسير تأييداً لهذه الرواية إلا في تفسير «المنار» عزوا إلى ابن أبي الفَرَس، وهذا ورد أيضاً في كتاب «الإتقان» عزوا إلى ابن الفَرَس... [إلى أن قال:]

ولقد روى ابن كثير حديثاً عن عبد الله بن الإمام أحمد عن أبي كعب جاء فيه: أنَّهم جمعوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر... [وذكر كما تقدَّم عنه، ثم قال:]

وقد وصف ابن كثير الحديث بأنَّه غريب، وهو كذلك لم يرد في مساند الأحاديث الصحيحة. وبالإضافة إلى هذا وذاك فقد روى الطَّبْرِيُّ عن عُبيد بن عُمَيْر، قال: كان عمر لا يثبت آية في المُصَحَّف حتَّى يشهد رجلان، فجاء رجل من الأنصار بالآيتين، فقال عمر لا أسألك عليهما بيَّنة أبداً، كذا كان رسول الله ﷺ.

وروى البخاري عن زيد بن ثابت، بعد أن ذكر ما كان من تكليف أبي بكر وعمر له بتتبع القرآن وجمعه. قوله: فتتبع القرآن أجمعه من العُشب واللِّخاف وصدور الرجال، حتَّى وجدت آخر سورة التَّوبَة مع أبي خُرَيْمَةَ الأنصاري، لم أجد لها مع أحد غيره^١ وليس في الحديثين إيضاح ما إذا كانت الآيتان مكِّيَّتين أو مدنيَّتين وعن وقت نزولها. وحديث عبد الله بن الزُّبَيْر الَّذِي أورده ابن كثير يفيد أنَّ السورة التي نزلت الآيتان فيها لم تكن معروفة، وأنَّ عمر بن خطَّاب فكَّر في جعلهما سورة برأسهما لو وجد آية ثالثة، ثمَّ

ألحقهما في آخر سورة براءة؛ حيث يستنتج منه ما استنتجناه من حديث زيد بن ثابت. وهناك روايات أشرنا إليها في مقدّمة السّورة تذكر أنّ سورة براءة هي آخر السّور في ترتيب نزول القرآن؛ حيث يحتمل أن يكون إلحاقهما بسورة براءة، لأنّه لم يكن لهما محلّ في سورة أخرى. ولما رأوه فيهما من الثناء العظيم على رسول الله ﷺ حيث استحسنا أن تكونا خاتمة للقرآن.

وبناءً على هذا نقول: إمّا أن تكون الآيتان مكّيتين لم تعرف السّورة التي نزلتا فيها، فوضعتا في آخر سورة براءة، وهذا متّسق مع التّنبية الذي تبّه عليه مفسّر «المنار» على ما قلناه قبل. وإمّا أن تكونا معقبتين على الآيات السّابقة التي احتوت صوراً بموقف المنافقين، ودلّت كما قلنا على شدة عمق الكفر والتّفاق في قلوبهم وإصرارهم عليها، بقطع التّظر عمّا إذا كانتا آخر ما نزل من القرآن أم لا؛ لأنّ ذلك مرتبط بمسألة صحّة كون سورة براءة آخر ما نزل من القرآن، وهي مسألة لا يمكن الجزم بها. وفي هذه الحالة يكون معناهما ظاهر الصّلة بالسياق، ولا يكون من الضّروري أن يكون هذا المعنى ممّا لا يكون إلّا في العهد المكيّ. نحن نرجّح هذا؛ لأنّنا نعتقد - استناداً إلى الدّلائل العديدة القرآنيّة والزّوايات المتّسقة معها والتي أوردناها وشرحناها في كتابنا القرآن المجيد^١ - أنّ القرآن كان يدوّن أولاً فأولاً، وتوضع آياته في سور بأمر النّبي ﷺ، وأنّ سورة كانت تامّة التّرتيب في أواخر عهد النّبي ﷺ حسب ما جاء في المصحف، وأنّه كان لبعض أصحاب رسول الله مصاحف تحتوي سور القرآن بترتيبها المشهور. ولا نعتقد أنّ الآيتين كانتا منسيّتين من التّدوين، فألحقنا بآخر سورة التّوبة ارتجالاً. ولا نرى حديث زيد بن ثابت ناقضاً لهذا... (٢٤٨: ١٢)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة المائدة)

و أورد [ابن كثير] حديثاً أخرجه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو، قال: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها وأورد حديثاً أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو أيضاً، قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح^١ وأخرج الحاكم حديثاً عن جُبَيْر بن نُفَيْر، قال: حججت، فدخلت إلى عائشة، فقالت لي: يا جُبَيْر تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما أنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم من حرام فحرّموه. ولم ينفرد ابن كثير في إيراد هذه الأحاديث؛ حيث أوردها مفسرون آخرون أقدم منه، مثل الطبري والبغوي والزّمخشري، منهم من أوردها جميعها، ومنهم من أورد بعضها، ومنهم من زاد عليها؛ حيث روى الطبري عن عكرمة أن عمر بن الخطاب، قال: نزلت سورة المائدة يوم عرفة، ووافق يوم الجمعة...^٢ [إلى أن قال:]

وكلّ هذا يجعلنا نتوقف في الأحاديث التي تقول: إنها نزلت دفعةً واحدةً، أو إنها آخر ما نزل من القرآن، ونقول: إن فصولها ألّفت تأليفاً بعد تكامل نزول ما اقتضت حكمة التنزيل أن تحتويه من فصول، وكلّ ما يحتمل أن يكون بعض فصولها قد تأخر في النزول إلى أواخر عهد النبي ﷺ وأن تأليفها تأخر بناء على ذلك إلى أواخر هذا العهد.

والمُصحف الذي اعتمدها يروي ترتيبها بعد سورة الفتح، وتروي هذا رواية أخرى، في حين أن هناك روايات ترتيب تجعلها بعد عدّه بعد سورة الفتح^٣، وقد جارينا المُصحف الذي اعتمدها. والمتبادر أنّ رواية ترتيبها بعد سورة الفتح هي بسبب مطلع السورة الذي ترجّح أنّه نزل بعد صلح الحديبية بوقت قصير، والله تعالى أعلم.

هذا، ولقد انطوى في فصول السورة صور وأحكام كثيرة، فأدّى بنا هذا إلى التوسّع

١ - أورد ابن كثير حديثاً عن ابن عباس أن آخر سورة نزلت: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)، فالتبادر أنّ المقصود من الفتح في حديث الترمذي هو هذه السورة.

٢ - وقد رأينا المفسر القاسمي يوردها بدون أيّ تعليق.

٣ - أنظر روايات ترتيب السور المدينة في كتابنا «سيرة الرسول» ٩: ٢.

في الشرح، وإيراد ما ورد في صدها من أحاديث وروايات حتى استوعب حيِّزاً أوسع من الحيِّز الذي استوعبه تفسير سورة البقرة، مع أن آياتها لا تكاد تزيد عن خمس آيات هذه السورة، وقد رأينا أن نجعلها في جزء برأسه حتى يظل حجم الأجزاء متقارباً. (٤:١١)

(سورة النصر)

ومعظم المفسرين على أن الفتح المذكور في السورة هو فتح مكة، حتى إنهم جعلوا تفسيرها وسيلة لإيراد قصة هذا الفتح.

ولقد تمّ هذا الفتح في رمضان في السنة الثامنة للهجرة على ما شرحناه في سياق تفسير سورة الحديد، في حين أن النبي ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى في أوائل السنة الحادية عشرة.

والروايات متواترة على أن السورة قد نزلت قبل وفاته بمدة قصيرة أقل من ثلاثة أشهر، وهذا يجعلنا نرجح أن يكون ما عنته الآيات ليس فتح مكة وحسب، بل مجموعة الانتصارات والفتوحات الضخمة التي يسرها الله لنبيه ﷺ إلى قبيل وفاته، والتي بلغت ذروتها بفتح مكة الذي شرحنا قصته في سورة الحديد، وبغزوة تبوك الكبرى التي شرحنا قصتها في سورة التوبة، وفتح الطائف التي ظلت مستعصية إلى السنة الهجرية التاسعة، والتي لم تقتض حكمة التنزيل أن يشار إليها في القرآن، ثم بسبيل الوفود التي أخذت تندفق من جميع أنحاء جزيرة العرب على المدينة المنورة خلال السنتين التاسعة والعاشر، لمبايعة النبي ﷺ والدخول في دين الله أفواجا، واستمر تدفقها إلى قبيل وفاة الرسول ﷺ ثم بتوطد سلطان النبي والإسلام في جميع أنحاء الجزيرة العربية...

الفصل الرابع والثلاثون

نصّ الزُّرقانيّ (معاصرٌ) في «مناهل العرفان»^١

[فوائد أوّل ما نزل و آخر ما نزل من القرآن]

و من فوائد الإلمام بأوّل ما نزل و آخره تمييزُ النَّاسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات على موضوع واحد، وكان الحكم في إحدى هذه الآيات يغيّر الحكم في الأخرى. و من فوائده أيضًا معرفة تاريخ التشريع الإسلاميّ، و مراقبة سيره التّدرجيّ، والوصول من وراء ذلك إلى حكمة الإسلام و سياسته في أخذه النَّاس بالهواة و الرّفق، والبعد بهم عن غوائل الطّفرة و العُنف، سواء في ذلك هدم ما مرّدوا عليه من باطل، و بناء ما لم يحيطوا بعلمه من حقّ.

يضاف إلى هاتين الفائدةين فائدة ثالثة هي إظهار مدّى العناية التي أُحيط بها القرآن الكريم، حتّى عُرف فيه أوّل ما نزل و آخر ما نزل، كما عُرف مكّيّه و مدنيّه، و سفريّه و حضريّه، إلى غير ذلك. و لا ريب أنّ هذا مظهر من مظاهر الثّقة به، و دليلٌ على سلامته من التّغيير و التّبديل، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^٢.

وليس من غرضنا في هذا الباب أن نتحدّث عن أوّل ما نزل و آخر ما نزل في كلّ تعليم من تعاليم الإسلام، فتلك غاية بعيدة المدى، و مجهود طويل جدير أن يُفرد بالتأليف، و له مواضع أخرى يمكن طلبه منها. إنّما الميسور لنا أن نحدّثك عن أمرين؛ أحدهما - أوّل ما نزل من القرآن على الإطلاق، و آخر ما نزل منه على الإطلاق، وهذا هو المقصود المهمّ.

الثاني - نماذج من أول ما نزل في بعض الأحكام التشريعية و آخر ما نزل منها، أي أوائل وأواخر إضافية مخصوصة ومقتدة ببعض الأحكام.

أول ما نزل على الإطلاق

ورد في ذلك أقوال أربعة:

القول الأول وهو أصحها - أنه صدر سورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - إِلَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ - عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^١ ودليله ما يأتي:

١- روى البخاري ومسلم - واللفظ للبخاري - عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدىء به... [وذكر كما تقدم عن الطبري وأبي الفتوح الرقم ٢ و ٣].

٢- وصحح الحاكم في مستدركه، والبيهقي في دلائله عن عائشة أيضاً أنها قالت: أول سورة نزلت من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

٣- وصحح الطبراني في الكبير بسنده عن أبي رجاء العطاردي... [إلى أن قال:]

٤- وردت آثار في هذا المعنى أيضاً في بعضها زيادة تعرفها من رواية الزهري...

[وذكر هاتين الروایتين كما تقدم عن السيوطي ثم قال:]

القول الثاني - أن أول ما نزل إطلاقاً: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾^٢، واستدل أصحاب هذا الرأي

بما رواه الشيخان عن أبي سلمة... [وذكر كما تقدم عن الطوسي، الرقم ١، ثم قال:]

لكن هذه الرواية ليست نصاً فيما نحن بسبيله من إثبات أول ما نزل من القرآن إطلاقاً، بل تحتل أن تكون حديثاً عما نزل بعد فترة الوحي، وذلك هو الظاهر من رواية أخرى رواها الشيخان أيضاً عن أبي سلمة، عن جابر... [وذكر كما تقدم نحوه عن مسلم الطبري الرقم ٧ و ٣، ثم قال:]

فظاهر هذه الرواية يدل على أن جابراً استند في كلامه على أن أول ما نزل من القرآن هو المدثر، إلى ما سمعه من رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، وكأنه لم يسمع بما حدث به رسول الله ﷺ عن الوحي قبل فترته، من نزول الملك على الرسول في جِراء

بصدر سورة (إقرأ) كما روت عائشة فاقتصر في إخباره على ما سمع ظاناً أنه ليس هناك غيره اجتهداً منه غير أنه أخطأ في اجتهد بشهادة الأدلة السابقة في القول الأول، ومعلوم أن النصّ يقدّم على الاجتهاد، وأن الدليل إذا تطرّق إليه الاحتمال، سقط به الاستدلال، فبطل إذاً القول الثاني وثبت الأول.

القول الثالث - أن أول ما نزل هو: (سورة الفاتحة) وقد استدلل أصحاب هذا الرأي بما رواه البيهقي في «الدلائل» بسنده عن أبي ميسرة عمر بن شريحيل: أن رسول الله ﷺ قال لخديجة... [وذكر كما تقدّم عن أبي الفتوح والقرطبي، ثم قال:]. ولكنّ هذا الحديث لا يصلح للاحتجاج به على أوليّة ما نزل مطلقاً، وذلك من وجهين؛

أحدهما - أنه لا يفهم من هذه الرواية أن الفاتحة التي سمعها الرسول ﷺ كانت في فجر النبوة أول عهده بالوحي الجليّ وهو في غار حراء، بل يفهم منها أن الفاتحة كانت بعد ذلك العهد. وبعد أن أتى الرسول إلى ورقة، وبعد أن سمع النداء من خلفه غير مرّة، وبعد أن أشار عليه ورقة أن يثبت عند هذا النداء حتّى يسمع ما يلقي إليه. وليس كلامنا في هذا، إنّما هو فيما نزل أول مرّة.

الثاني - أن هذا الحديث مرسل سقط من سنده الصحابي، فلا يقوى على معارضة حديث عائشة السابق في بدء الوحي، وهو مرفوع إلى النبي ﷺ. فبطل إذاً هذا الرأي الثالث وثبت الأول أيضاً.

بيد أن صاحب الكشف عزا هذا القول الثالث إلى أكثر المفسرين، ولكن ابن حجر فنّده فيما ذهب إليه من هذا العزو، وصرّح بأن هذا القول لم يقل به إلا عدد أقل من القليل.

القول الرابع - أن أول ما نزل هو: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ واستدلّ قائلوه بما أخرجه الواحدي بسنده عن عكرمة والحسن قالوا: أول ما نزل من القرآن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وأول سورة: (إقرأ). وهذا الاستدلال مردود من ناحيتين أيضاً:

إحداهما - أن الحديث مرسل كسابقه، فلا يناهض المرفوع. الثانيه: أن البسملة كانت بطبيعة الحال تنزل صدراً لكلّ سورة إلا ما استثنى. إذن فهي نازلة مع ما نزل من صدر سورة (إقرأ) فلا يستقيم اعتبار الأوليّة في نزولها قولاً مستقلاً برأسه.

آخر ما نزل على الإطلاق

اختلف العلماء في تعيين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، واستند كل منهم إلى آثار ليس فيها حديث مرفوع إلى النبي ﷺ فكان هذا من دواعي الاشتباه، وكثرة الخلاف على أقوال شتى:

القول الأول - أن آخر ما نزل قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^١. أخرجه التّسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس... [و ذكر كما تقدّم عن السيوطي]

القول الثاني - أن آخر ما نزل هو قول الله تعالى في سورة البقرة أيضاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^٢ أخرجه البخاري عن ابن عباس و البيهقي عن ابن عمر.

القول الثالث - أن آخر ما نزل آية الدين في سورة البقرة أيضاً وهي قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ آجِلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ - إِلَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ - وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^٣ وهي أطول آية في القرآن. أخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيّب: أنه بلغه أن أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدين.

أخرج أبو عبيد في «الفضائل» عن ابن شهاب، قال: آخر القرآن عهداً بالعرش آية الرّبا وآية الدين.

ويمكن الجمع بين هذا الأقوال الثلاثة بما قاله السيوطي... [و ذكر كما تقدّم عنه، ثم قال:]

أقول: ولكنّ النفس تستريح إلى أن آخر هذه الثلاثة نزولاً هو قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. وذلك لأمرين: أحدهما - ما تحمله هذه الآية في طياتها من الإشارة إلى ختام الوحي والدين،

١ - لفظة «القول» ليس في هذا التّرتيب ولكن أضفناه لتنسيق النّظم كما في ترتيب السابق (م).

٢ - البقرة / ٢٧٨.

٣ - البقرة / ٢٨١.

٤ - البقرة / ٢٨٢.

بسبب ما تحثُّ عليه الاستعداد ليوم المعاد، وما تنوّه به من الرجوع إلى الله، واستيفاء الجزاء العادل من غير غبن ولا ظلم، وذلك كلّه أنسب بالختم من آيات الأحكام المذكورة في سياقها.

ثانيهما - التّصيص في رواية ابن أبي حاتم السّابقة على أنّ النّبي ﷺ عاش بعد نزولها تسع ليال فقط، ولم تظهر الآيات الأخرى بنصّ مثله.

القول الرابع - أنّ آخر القرآن نزولاً قول الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ نَسِيَ^١﴾ الآية. ودليل هذا القول ما أخرجه ابن مردويه من طريق مُجاهدٍ عن أمّ سلمة أنّها قالت: آخر آية نزلت هذه الآية: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ إلى آخرها. وذلك أنّها قالت: يا رسول الله، أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء، فنزلت: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ^٢﴾ ونزلت: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ^٣﴾، ونزلت هذه الآية، فهي آخر الثلاثة نزولاً، وآخر ما نزل بعد ما كان ينزل في الرجال خاصّة.

ومن السّهل ردُّ الاستدلال بهذا الخبر على آخر ما نزل مطلقاً، وذلك لما يصرّح به الخبر نفسه من أنّ الآية المذكورة آخر الثلاثة نزولاً وآخر ما نزل بالإضافة إلى ما ذكر فيه النساء، أي فهي آخر مقيّد لا مطلق، وليس كلامنا فيه.

القول الخامس - أنّه آية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا^٤﴾ واستدلوا بما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عباس؛ قال: هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ هي آخر ما نزل، وما نسخها شيء. ولا يخفى عليك أنّ كلمة «وما نسخها شيء» تشير إلى أنّ المراد من كونها آخر ما نزل، أنّها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمداً، لا آخر ما نزل مطلقاً.

القول السادس - أنّ آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ^٥﴾ وهي

١ - آل عمران / ١٩٥.

٢ - النساء / ٣٢.

٣ - الأحزاب / ٣٥ وتمامها.

٤ - النساء / ٩٦.

٥ - النساء / ١٧٦.

خاتمة سورة النساء، وأن آخر سورة نزلت سورة: (براءة). واستند صاحب هذا الرأي إلى ما يرويه البخاري ومسلم عن البراء بن عازب: أنه قال: آخر آية نزلت: (يَسْتَفْتُونَكَ...) الآية، و آخر سورة نزلت: (براءة). ويمكن نقض هذا الاستدلال بحمل الخبر المذكور على أن الآية آخر ما نزل في الموارث، وأن السورة آخر ما نزل في شأن تشريع القتال والجهاد، فكلاهما آخر إضافي لا حقيقي.

القول السابع - أن آخر ما نزل سورة المائدة، واحتج صاحب هذا القول برواية للترمذي والحاكم في ذلك عن عائشة رضي الله عنها. ويمكن ردّه بأن المراد أنها آخر سورة نزلت في الحلال والحرام، فلم تُنسخ فيها أحكام، وعليه فهي آخر مقيد كذلك.

القول الثامن - أن آخر ما نزل هو خاتم سورة براءة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة، رواه الحاكم وابن مَرْدُويه عن أبي بن كعب. يمكن نقضه بأنها آخر ما نزل من سورة براءة لا آخر مطلق، ويؤيده ما قيل من أن هاتين الآيتين مكيّتان بخلاف سائر السورة. ولعلّ قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾^١ الخ، يشير إلى ذلك من حيث عدم الأمر فيه بالجهاد عند تولّى الأعداء وإعراضهم.

القول التاسع - أن آخر ما نزل هو آخر سورة الكهف: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيُفْلِلْ فَعَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^٢ أخرجه ابن جرير عن معاوية بن أبي سفيان. قال ابن كثير: هذا أثر مشكل، ولعله أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها، بل هي مثبتة محكمة. وهو يفيد أنها آخر مقيد لا مطلق.

القول العاشر - أن آخر ما نزل هو سورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ رواه مسلم عن ابن عباس. ولكنك تستطيع أن تحمل هذا الخبر على أن هذه السورة آخر ما نزل مشعراً بوفاة النبي ﷺ ويؤيده ما روي من أنه ﷺ قال حين نزلت: «نُعِيْتُ إِلَيَّ نَفْسِي» وكذلك فهم بعض كبار الصحابة. كما ورد أن عمر بكى حين سمعها، وقال: الكمال دليل الزوال، ويحتمل أيضاً أنها آخر ما نزل من السور فقط، ويدلّ عليه روايه ابن عباس: آخر سورة من القرآن جميعاً ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

تلك أقوال عشرة، عرفتُها وعرفتُ توجيهها، ورأيتُ أنَّ الذي تستريح إليه النفس منها هو أنَّ آخر القرآن نزولاً على الإطلاق قولُ الله في سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^١ وأنَّ ما سواها أواخر إضافية أو مقيّدة بما علمت... [ثم حكى قول الباقلانيّ، كما تقدّم عن الرُّقائِي، فقال:]
وكأنّه يشير إلى الجمع بين تلك الأقوال المتشعبة بأنّها أواخر مقيّدة بما سمع كلّ منهم من النبيّ ﷺ وهي طريقة مريحة، غير أنّها لا تلقي ضوء على ما عسى أن يكون قد اختتم الله به كتابه الكريم.

مَثَلان من أوائل و أواخر مخصوصة

نضع بين يديك هنا مثلين من أوائل و أواخر مخصوصة ببعض الأحكام الشرعيّة لنلاحظ فيهما سيّر التشريع الإسلاميّ و تدرّجه الحكيم.

١- ما نزل في الخمر - روى الطيالسيّ في مسنده عن ابن عمر، قال:.... [وذكر كما تقدّم عن الشيوطيّ]

٢- ما نزل في أمر الجهاد والدّفاع - لم يشرّع الجهاد دفاعاً في صدر الإسلام، على الرّغم من أنَّ الأذى كان يُصبّ على المسلمين من أعدائهم صَبّاً. بل كان الله يأمر بالعفو والصفح، ومن ذلك قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٢ فكانت أمراً صريحاً لهم بالعفو والصفح حتّى يأتي الله بأمره فيهم من القتال، ويتضمّن ذلك التّهي عن القتال حتّى يأتي أمر الله. ثمّ شرّع القتال دفاعاً في السّنة الثّانية من الهجرة بقوله تعالى في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ - إِلَى قَوْلِهِ - وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^٣. ثمّ حصّ الله عليه حصّاً شديداً في آخر الأمر، فنزلت سورة براءة وهي من آخر

ما نزل من القرآن، وفيها قوله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾^١ وقوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^٢، وقوله: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٣.

شبهة في هذا المقام

بقي أن تُدحض شبهة أثبتت حول تعيين آخر ما نزل من القرآن؛ قالوا: لماذا لا تكون آية المائدة آخر ما نزل من القرآن؟ وهي قوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^٤ مع أنها صريحة في أنها إعلام بإكمال الله لدينه، ذلك اليوم المشهود الذي نزلت فيه، وهو يومُ عرفة في حجة الوداع بالسنة العاشرة من الهجرة. والظاهر أن إكمال دينه لا يكون إلا بإكمال نزول القرآن وإتمام جميع الفرائض والأحكام.

والجواب: أن هناك قرآناً نزل بعد هذه الآية حتى بأكثر من شهرين، ولعلك لم تنس أن آية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ كانت آخر الآيات نزولاً على الإطلاق، وأن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال فقط. تلك قرينة تمنعنا أن نفهم إكمال نزول القرآن من إكمال الدين في آية المائدة المذكورة. والأقرب أن يكون معنى إكمال الدين فيها يومئذ هو إنجازه وإقراره، وإظهاره على الدين كله ولو كره الكافرون. ولا ريب أن الإسلام في حجة الوداع كان قد ظهرت شوكته وعلت كلمته، وأدب له على الشرك وحزبه، والكفر وجنده، والتفاق وحشراته، حتى لقد أُجِّلِيَ المشركون عن البلد الحرام، ولم يخالطوا المسلمين في الحج والإحرام. (١: ٨٥-٩٦)

١- التوبة / ٣٦.

٢- التوبة / ٤١.

٣- التوبة / ٣٩.

٤- المائدة / ٣.

الفصل الخامس والثلاثون

نص العلامة الطباطبائي (م: ١٤٠٢) في تفسيره: «الميزان»

أول سورة نزلت من القرآن

(سورة المدثر)

والسورة مكيّة من العتائق النازلة في أوائل البعثة وظهور الدّعوة، حتّى قيل: إنّها أوّل سورة نزلت من القرآن، وإن كان يكذّبه نفس آيات السّورة الصّريحة في سبق قراءته ﷺ القرآن على القوم وتكذيبهم به، وإعراضهم عنهم، ورميهم له بأنّه سحر يؤثّر.

ولذا مال بعضهم إلى أنّ النّازل أوّلًا هي الآيات السّبع الواقعة في أوّل السّورة، ولازمه كون السّورة غير نازلة دفعةً، وهو إن كان غير بعيد بالنّظر إلى متن الآيات السّبع، لكن يدفعه سياق أوّل سورة العلق الظّاهر في كونه أوّل ما نزل من القرآن.

واحتمل بعضهم: أن تكون السّورة أوّل ما نزل على النّبي ﷺ عند الأمر بإعلان الدّعوة بعد إخفائها مدّة في أوّل البعثة، فهي في معنى قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^١ وبذلك جمع بين ما ورد من أنّها أوّل ما نزل، وما ورد أنّها نزلت بعد سورة العلق، وما ورد أنّ سورتي المزمل والمدثر نزلتا معًا، وهذا القول لا يتعدّى طور الاحتمال.

وكيف كان فالمتيقن أن السورة من أوائل ما نزل على النبي ﷺ من السور القرآنية، والآيات السبع التي نقلناها تتضمن الأمر بالإنذار وسائر الخصال التي تلزمه مما وصاه الله به. (٧٩:٢٠)

(سورة العلق)

أمر للنبي بتلقي القرآن بالوحي منه تعالى، وهي أول سورة نزلت من القرآن، وهي مكية قطعاً. (٢٠: ٣٢٢)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ البقرة / ٢٨١

أقول: والراويات في هذه المعاني كثيرة، والمتحصل من روايات الخاصة والعامة: أن الآية نزلت في أموال من الربا كانت لبني المغيرة على ثقيف، وكانوا يربونهم في الجاهلية، فلما جاء الإسلام طالبوهم ببقايا كانت لهم عليهم فأبوا التأدية لوضع الإسلام ذلك، فرفع أمرهم إلى رسول الله ﷺ، فنزلت الآية.

وهذا يؤيد ما قدمناه في البيان أن الربا كان محرماً في الإسلام قبل نزول هذه الآيات ومبيهاً للناس، وإن هذه إنما تؤكد التحريم وتقرره، فلا يعاب بعض ما روي أن حرمة الربا، إنما نزلت في آخر عهد رسول الله ﷺ، وأنه قبض ولم يبين للناس أمر الربا، كما في الدر المنثور عن ابن جرير وابن مردويه عن عمر بن الخطاب، أنه خطب فقال: من آخر القرآن نزولاً آية الربا، وإنه قدمات رسول الله ﷺ ولم يبينه لنا، فدعوا ما يريكم إلى ما لا يريكم. على أن من مذهب أئمة أهل البيت  أن الله تعالى لم يقض نبه حتى شرع كل ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم، وبين ذلك للناس نبه ﷺ.

وفي الدر المنثور بطرق عديدة عن ابن عباس والسدي وعطية الوقي وأبي صالح وسعيد بن جبير: أن آخر آية نزلت من القرآن قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾

وفي الدر المنثور: أخرج ابن شبيبة و البخاري و الترمذي و النسائي و ابن ضريس و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقي في «الدلائل» عن البراء... [و ذكر كما تقدم عن الشيوطي، ثم قال:]

أقول: وروي فيه^١ عدة روايات أن رسول الله ﷺ و الصّابة كانوا يسمّون الآية بآية الصّيف.

قال في المجمع: و ذلك أن الله تعالى أنزل في الكلاله آيتين؛ إحداهما في الشتاء، وهي التي في هذه السّورة، و أخرى في الصّيف، و هي هذه الآية: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾.^٢ (١٦٥:٥)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ التوبة / ١٢٧ - ١٢٨

و فيه^٣ أخرج ابن الضريس في «فضائل القرآن» و ابن الأنباري في «المصاحف» و ابن مردويه عن الحسن، أن أبي بن كعب كان يقول: إن أحدث القرآن عهداً بالله، - و في لفظ «بالسّماء» - هاتان الآيتان ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر الآية.

أقول: و الرواية مروية من طريق آخر عن أبي بن كعب، و هي لا تخلو عن تعارض مع ما سيأتي من الرواية و كذا مع ما تقدم من الروايات في قوله تعالى: ﴿وَأَسْقُوا سَوْماً تَرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^٤ أنّها آخر آية نزلت من القرآن.

على أن لفظ الآيتين لا يلائم كونهما آخر ما نزلت من القرآن إلا أن يكون إشارة إلى بعض الحوادث الواقعة في مرض النبي ﷺ كحديث الدّواة و القِرطاس.

و فيه أخرج ابن إسحاق و أحمد بن حنبل و ابن أبي داود عن عبّاد بن عبد الله بن الزّبير، قال: أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ - إلى قوله - وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿ إلى عمر، فقال: من معك على هذا؟ فقال: لا

١ - أي الدر المنثور.

٢ - النّساء / ١٧٦.

٣ - أي الدر المنثور.

٤ - البقرة / ٢٨١.

أدري والله، إلا أنني أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ، ووعيتها وحفظتها. فقال عمر: وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن فالحقوها، فالحقت في آخر (براءة).

أقول: وفي رواية أخرى أن عمر قال للحارث: لا أسألك عليها بيّنة أبدًا، كذلك كان رسول الله ﷺ وفي هذا المعنى أحاديث أخرى، وسنستوفي الكلام في تأليف القرآن وما يتعلق به من الأبحاث في تفسير سورة الحجر إن شاء الله تعالى. (٤١٤:٩)

آخر سورة نزلت من القرآن

(سورة النصر)

في المجمع، عن مقاتل: لما نزلت هذه السورة قرأها رسول الله ﷺ على أصحابه ففرحوا واستبشروا، وسمعها العباس فبكى، فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا عم؟ قال: أظن أنه قد نعت إليك نفسك يا رسول الله، فقال: إنه لكما تقول فماش بعدها ستين، ما زوي بعدها ضاحكًا مستبشراً. أقول: وروي هذا المعنى في عدة روايات بألفاظ مختلفة، وقيل في وجه دلالتها: إن سياقها يلوح إلى فراغه ﷺ مما عليه من السعي والمجاهدة وتمام أمره، وعند الكمال يرقب الزوال.

وفيه عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ بالآخرة لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلا قال: سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه، فسالنا عن ذلك فقال: إني أمرت بها ثم قرأ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...﴾.

أقول: وفي هذا المعنى غير واحد من الروايات مع اختلاف ما فيما كان يقوله ﷺ وفي العيون بإسناده إلى الحسين بن خالد، قال الرضا عليه السلام: «سمعت أبي يحدث عن أبيه عليه السلام أن أول سورة نزلت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، وآخر سورة نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾. أقول: لعل المراد به أنها آخر سورة نزلت تامة كما قيل. (٣٧٧:٢٠)

الفصل السادس و الثلاثون

نصُّ الأَشْيَقِر (مُعاصِرٌ) في «لمحات من تاريخ القرآن»

[بدء الوحي وأول ما نزل]

وكان أول ما نزل من القرآن هو دعوته سبحانه و تعالى لرسوله و للناس جميعاً للقراءة و التعلّم، و تذكيرهم بخلقتهم الأولى و أصل نشأتهم، فضلاً عن الإشارة إلى وحدانيّته و فضله على عموم الناس بقوله تعالى: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾^١. و قد كان نزول هذه الآيات في يوم الاثنين (١٧) رمضان للسنة (٤٠) من ميلاد الرسول ﷺ، المصادف ١ شباط أو ٦ آب من سنة (٦١٠) ميلاديّة، و في غار حراء، في أعلى جبل النور الذي يقع على بعد (٥) كيلومترات من مكّة، و موقعه على يسار الدّاهب إلى منى و عرفات من مكّة، و الذي كان الرسول ﷺ يتعمّد فيه و يخلو به قبل أن يبعثه الله بالرسالة و يصطفيه للنبوّة. كانت ساعة الصّفر في الثّورة الإسلاميّة قد دقّت عند ما دوّى جنّات غار حراء صوت عال متّسم بالوضوح و الجلاء، و قاضيّاً على سكّون الغار و صمته، مخاطباً الرسول ﷺ (إِقْرَأ) فيجيبه «ما أنا بقارئ». و هكذا يتكرّر الخطاب ثلاثاً، حتّى يعود الصّوت أخيراً لينشد البيان الأوّل لقيام الثّورة، و هو: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾ فما كان من الرسول ﷺ إلّا يردّد في تَوَدّة و هُدوء و سكّون هذه الألفاظ التي سمعها لتوّه مرّةً و مرّةً و مرّات بعد أن يكون الطّارق الجديد قد أنهى مهمّته الأولى و انصرف خارجاً.

وما هي إلّا لحظات حتّى يغادر الرسول ﷺ الغار مسرعاً تلقاء داره؛ ليخفّف عن كاهله و طأة هذا الحدث الجديد، و ليجد فيه من يفسّره حقيقة ما رآه و سمعه آنفاً، حتّى

إذا كان في وسط الجبال وإذا به ﷺ يسمع من السماء صوتاً مماثلاً للأول يقول له: «يا محمد، أنت رسول الله إلى الناس كافة، وأنا الأمين جبريل» وينقطع الصوت، ويغيب الوحي ليخيم على جنبات الجبل صمتٌ كصمت القبور.

عرف الرسول ﷺ أن الأمر جدّي، وأنه أمسى رسولاً إلى الناس جميعاً، وأن عليه الآن أن يشرع في إنجاز المهمة الموكّلة بها، وأن كلّ ما سمعه آنفاً لم يك من خيالات النفس ولا أوهام البقطة، وإنما هي الحقيقة الواضحة والواقع الجليّ وضوح الشمس وجلاء النور لذي عينين.

جاء النبي ﷺ إلى داره من أقصر الطرق، من دون أن يعرج على أحد أو يمرّ على آخر، وحال وصوله إلى الدار نراه يلقي بنفسه إلى حجر خديجة بنت خويلد طالباً منها أن تدثّر في الحال، فما عثمت هذه المجاهدة وهذه الزوجة البارة أن لمست من زوجها ﷺ - وعلى خلاف العادة - وضعاً جديداً، وطوراً غريباً لم يسبق لها أن وجدته فيه من قبل، فقارها تفكيرها إلى أن شيئاً أوحداً قد حصل لزوجها في هذا اليوم، ولكن ما هو هذا الشيء وما هذا الحدث؟ لا أحد يعرف حقيقته من الناس عدا زوجها نفسه. لذا استجمعت قواها وصمّت على معرفة واقع الحال، فسأله ﷺ بعد حين عن حقيقة الأمر، وهل ألمّ به حادث مهم، أو أصابه طارئ جديد في محابة يومه هذا؟

ولكنه ﷺ طلب منها التريث قليلاً، وبعد ذلك قصّ عليها حقيقة الوحي وواقع الرسالة، وكلّ ما شاهده وسمعه في مطلع هذا اليوم. وبعد صمتٍ مطبّق خيم على أرجاء الغرفة فإذا بها تحييه بكلام يطمئن قلبه ونفسه، ويبعث فيهما القوة والعزيمة والمضاء قائلة: «كلاً، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»، فأبشريا ابن العم وأثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة». فكانت (رحمها الله) أول مسلمة في الإسلام كما وكان إمام الهدى عليّ بن أبي طالب عليه السلام أول مسلم فيه.

لم يهدأ روع خديجة بعد كلّ الذي سمعته من زوجها، ولم يقرّ لها قرار، بل انطلقت مسرعة لتقاء دارها الأولى، حيث يقيم فيه قريبها ورقة بن نوفل ابن عبد العزى، فأخبرته

بالفضّة كاملة، وهي آملة أن تسمع منه شيئاً يسرّها و يضاعف يقينها، و يقوّي في عزيمة زوجها محمد ﷺ، و يشدّ في أزره و تصميمه على أداء الرّسالة الجديدة.

فما يكاد ورّقة يسمع آخر قولها حتّى انتفض واقفاً على قدميه، و كأنّه قد وجد شيئاً طالما كان ينتظره و يبحث عنه، أجل وقف ورّقة و قال لقريبته خديجة قولته المشهورة المأثورة، وهي 'لئن كنت قد صدّقتيني يا خديجة فيما قلتيه لي - و ما أظنّك و أحسبك إلّا صادقة - فقد جاء زوجك أمين الوحي الذي أتى موسى من قبل، و أنّه لنبيّ هذه الأُمّة، فقولني له فليثبت، فإنّه ذائق من قومه ما ذاق إخوانه موسى و عيسى من قبله، فطوبى لمن يؤمن به و من يصدّقه.

عادت خديجة بعد كلّ الذي سمعته إلى زوجها مسرعة؛ من أجل أن تروي له جواب قريبها ورّقة علّ هذا الجواب يخفّف من وقع الوحي على زوجها، و يضاعف عزمته و إرادته فحكّت له الجواب كاملاً، فما كان من الرّسول ﷺ إلّا أن حمد الله ربّه و شكره طويلاً على ما أصفاه للرّسالة، و أثره بتبليغها و نشرها بين النّاس، رغم ما ينتظر أن يلاقي في سبيلها من عقبات و مكاره و متاعب، كما ورد على لسان قريب زوجته ورّقة بن نوفل.

هذا و أنّ الوحي الذي جاء إلى الرّسول ﷺ انقطع عن النزول عليه مدّة (٤٠) يوم أو ثلاث سنوات بقول آخر، و هي الفترة المسماة بـ «فترة انقطاع الوحي» و هي الفترة والمدّة التي كانت الدّعوة في خلالها تلتزم جانب السّريّة التّامة، و لم تصل أخبارها و أنبأؤها إلى قريش بعد، لذا لم تلق هذه الدّعوة أيّة معارضة أو مقاومة تذكر من طواغيت قريش و طغاتها.

ثمّ يعود الوحي بعد مضيّ هذه الفترة «و هي ثلاثة سنوات على أصحّ الأقوال» ليستأنف نزوله كرّة أخرى، لينقل إلى الرّسول الأكرم ﷺ قوله تعالى: ﴿يَأْئِيهَا الْمُدُنُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾^٢ و عند نزول هذا الآيات المعلنة عن علنيّة الدّعوة يذهب الرّسول ﷺ إلى جبل الصّفا بمكّة، و يقف عليه و يهتف بأعلى صوته: «يا معشر قريش، أرايتم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تُغيّر عليكم، أكنتم تصدّقوني؟ فأجابت قريش - التي اجتمعت من كلّ

جانب بعد سماعها لهذا النداء أجابت: نعم أنت عندنا غير متهم، وما جربنا عليك كذباً قطّ، فقال النَّبِيُّ ﷺ «إذن فاسمعوا، إنّي نذير لكم بين عذاب شديد، إنّ الله أمرني أن أنذركم وعشيرتي الأقربين، وإني لا أملك من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله». فأجاب من بينهم أبو لهب غاضباً: ألهذا جمعتنا؟ تبّاً لك هذا اليوم، تفرّقوا أيّها النّاس، عن هذا الضّالّ، ولا تعيروا لقوله أذنّاً واعية.

فقال الرّسول ﷺ: «ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتمكم به، لقد جئتمكم بخير الدّنيا والآخرة، وقد أمرني ربّي أن أدعوكم إليه، فأيّكم مؤازري على هذا الأمر، على أن يكون أخي وصيّ وخليفتي فيكم؟» وسكت الجميع ثمّ ضحكوا ساخرين، بينما نهض من بينهم الإمام عليّ عليه السلام وقال: «أنا يا نبيّ الله، أكون وزيرك عليه وحزب علي من حاربت و سلم لمن سالمت» فقال الرّسول ﷺ: بعد أن أخذ برقبة الإمام عليّ عليه السلام: «هذا أخي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا».

وبعد هذه الواقعة أخذت الآيات الكريمة تأخذ طريقها إلى صدر النَّبِيِّ ﷺ دونما انقطاع أو تأخير؛ حيث مضى عهد سرّيّة الدّعوة وغدت لذلك علنيّة، وأخذ أفراد المسلمين يزدادون ويتضاعفون شيئاً فشيئاً، في نفس الوقت الذي أخذت مقاومة قريش وعدوانها هو الآخر يزداد وينمو من أجل الحدّ من اندفاع حركة الدّين الجديد، ويَقَاف زخم تقدّمها وبالتالي القضاء عليها في مهدها. (ص: ٤٣-٤٩)

آخر آية نزلت من القرآن

﴿أَلَيْوَمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ المائدة ٣.

أمّا آخر ما نزل من القرآن الكريم فهو قوله تعالى: ﴿أَلَيْوَمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

وقد نزلت هذه الآية في غدير خمّ بين مكّة والمدينة، بعد الخطبة الشهيرة الّتي ألقاها الرّسول ﷺ على جموع المسلمين، حين الفراغ من حجّة الوداع عام ١٠ هجرية، وقبل أن يتفرّق هؤلاء المسلمون وينطلقوا إلى أمصارهم وديارهم، وهي الخطبة المسماة

بـ «خطبة الوداع» حيث أحاط الرسول ﷺ المسلمين علمًا بأحكام دينهم وأُمور دنياهم، فخوَّفهم من عذاب الله، ورغَّبهم في رضوانه، وعبَّد لهم السَّبيل الموصل للوحدة والحرِّيَّة والعدالة الاجتماعية، وحذَّره من ارتياد سلوك الطُّرق والسَّبيل المفضية إلى الخلاف والشقاق والنِّزاع، فضلاً عن التَّأكيد بلزوم التَّمسُّك بالتَّقَلُّين: كتاب الله وعترته الطَّاهرة وقد حرص ﷺ بعد كلِّ أمر أو نهى فيها أن يردِّد جملة الخالدة «ألا هل بلغت، اللهم اشهد»^١. وقد كان وقت إلقاء هذه الخطبة على وجه الحصر هو في ١٨ ذي الحِجَّة من السَّنة العاشرة للهجرة، وقد كان عمره الشَّريف ﷺ حينئذٍ ٦٣ سنة، وقبل ارتحاله لجوار ربِّه بفترة قصيرة... [ثم ذكر أقوال أخرى في آخر ما نزل، كما تقدَّم سابقاً].

آخر سورة نزلت من القرآن

أما بشأن آخر سورة كاملة نزلت على الرسول ﷺ، فقد قيل: هي سورة النَّصر، وقال آخرون: هي سورة المائدة وقال غيرهم: بل هي سورة براءة، كما قد قال قوم: إنها سورة الأنعام، والتي قيل بصدها: إنَّه قد شيعها سبعون ألف ملك حتَّى نزلت على الرسول ﷺ. (ص: ٤٨ - ٤٩)

الفصل السابع والثلاثون

نص السيّد مصطفى الخميني (م: ١٣٩٨) في «تفسير القرآن الكريم»

أول ما نزل من القرآن

﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾

الأقوال في أول ما أنزل أربعة:

١- ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، وهو المروي عن عائشة وعن مجاهد وعطاء وابن يسار، وهو قول أكثر المفسرين.

٢- سورة المدثر، وهو قول سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله، عن رسول الله ﷺ في حديث^١.

٣- سورة الفاتحة بتمامها، وقول جماعة قليلين، ونسب ذلك في الكشف إلى الأكثر، وهو محلّ منع، ولكنّه يساعده الاعتبار؛ لأنّ الصّلاة كانت بالفاتحة عند الفرض وهو بمكّة، ولأنّها من الابتداء كانت مسمّاة بالفاتحة، وبها فُتِح الوحي، وهو المراد من السّبع المثاني على ما اشتهر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^٢ وهو مكّي، فإذا كانت هي مكّيّة، فهي أول ما نزلت للإجماع المركّب، ولكنّه كما ترى.

٤- التفصيل، أول الآيات من (اقرأ) وأول السور (الفاتحة) بتمامها، وفي المسألة بعض الأقوال الأخر.

والذي هو الأظهر حسب نصوصنا هو الأول، ولا ينافيه كون الفاتحة مكّية كما يأتي إنشاء الله تعالى.

وأمّا ما قيل استدلالاً على أوّلية الفاتحة نزولاً بأنّها سورة إجمالية من الكتاب العزيز، ونموذج من هذا البحر المحيط، فلها الإحاطة التامة على ما فيه من التوحيد والقصص والأحكام وغيرها، فهو ممّا لا يبالي به العاقل، ولا يركن إليه اللبيب، بدهاء أنّ الثّاريخ لا يصطاد بالذّوق والاستحسان، ويعارضه ما أفيد من أنّ سؤاله ﷺ عمّا يقرأ بعد الأمر بالقراءة على ما في الكتب، شاهد على عدم أنسه بالوحي، وعدم سبقه ﷺ بالبارقة الإلهية، والله العالم.

نعم، شهادة فضلاء الإسلام كابن النّديم، في كتابه «نورالعلوم» المعروف بالفهرست، ناقلاً حديثاً مسنداً عن محمّد بن نُعمان بن بشير، وهو موجود في البخاريّ ومُسلم وسائر ما قيل بالمعنى، تورث الظنّ بل الاطمئنان بأوّلية «اقرأ» إلى قوله تعالى - عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ - وقال أبو عُبَيْدة في «فضائل القرآن»: حدّثنا عبدالرحمان، إلى أن قال: إنّ أوّل ما أنزل: «اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ» و «ن وَالْقَلَمِ» انتهى وهو الوحيد في هذا الذّيل كما ترى... [إلى أن قال:]

سورة الفاتحة

والذي يظهر من تتبّع الآثار ومراجعة الأخبار أنّ الصّلاة كانت مفروضة في مكّة، بل كان الرّسول ﷺ يصليّ قبل البعثة كما في سيرته وقد وردت في أحاديثنا وأحاديث العامة ما يدلّ على أن لا صلاة إلاّ بفاتحة الكتاب، وقضية إطلاق هذه الأخبار وتلك الثّعابير أنّه ﷺ ما كان يصليّ بغيرها؛ لظهور الروايات في تقوّم طبيعة الصّلاة بها مطلقاً، فصلاته قبل كانت معها، فهي أوّل ما نزلت، والله الموقّق، فليتناوّل.

بحث و تحصيل

لاشبهة في أَنَّ الصَّلَاةَ كانت مخترعة قبل الإسلام ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾^١ وَأَنَّهُ ﷺ على ما قيل كان يصلي في المسجد الحرام في ابتداء البعثة، بل وقبلها، فإن كان بعد البعثة و بعد تشريعها، فالجواب واضح، وإن كان قبلها أو قلنا بأنها مدنية أو مكية، ولكنها نزلت بعد تشريع الصلاة، فربما يشكل، ولكن التاريخ قاطع بأن نزولها لم يكن بعد تشريعها، نعم لا يمكن الإحاطة العلمية بسيرة النبي ﷺ.

والذي يمكن أن يقال: إنه كان يصلي من غير الفاتحة؛ لأنها ليست ركناً، وأدلتها لا تفيد بطلانها بدونها على الإطلاق، كما هو الظاهر، أو يقال بنزولها عليه قبل البعثة أو بعدها، وقبل أن يأمر بإبلاغها إلى الأمة الإسلامية، فإنه ﷺ ما كان قبل البعثة بدين اليهود والنصارى، فربما كان نبياً ثم صار رسولاً.

قال ابن عطية:^٢ ظن بعض العلماء أن جبرئيل عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد؛ لما رواه مسلم عن ابن عباس، قال: بينما قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً (هو الصوت من فوقه)، فرفع رأسه فقال: «هذا باب من السماء ففتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم فقال: أبشر بنورين أو تيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتم سورة البقرة، لم تقرأ بحرف منها إلا أعطيته» انتهى.^٣

والذي يصطاد منه أن هذه المسألة، ليست حديثة، فلعل الملك كان ينزل عليه ﷺ قبل ذلك، وكان يأخذ عنه المعارف قبل البعثة، وكان عارفاً بأحكامه الفردية، فيقرأ القرآن قبل أن يقضى عليه وحيه توسط جبرئيل بعنوان الرسالة، وربما يشهد لذلك قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَخَيْهُ﴾^٤ أو أن القرآن حسب قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^٥ قوله تعالى: ﴿فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^٦ ولو كان بمعنى بعض القرآن لما كان له اختصاص بالذكر

١ - مريم / ٣١.

٢ - المستدرك على الصحيحين ١: ٥٥٨، سنن النسائي ٢: ١٣٨.

٣ - طه / ١١٤.

٤ - البقرة / ١٨٥.

٥ - القدر / ٥.

٦ - الجامع لأحكام القرآن ١: ١١٦.

وشرف بوحى بصورة و حدائيّة، مرّةً و بصورة مفصّلة نجومًا و تدريجًا ﴿كِتَابٌ أُخْكِمَتْ
 آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾^١ و ربّما كان ذلك الإجمال حسب ما يظهر من سيرة النّبى ﷺ قبل البعثة،
 يوحى إليه قبلها، و كان عارفًا بحقائقها و بواطنها أو بألفاظها على نعت الإجمال
 والاندماج. (١: ١٧-٢٣)

الفصل الثامن والثلاثون

نصّ الآصفي (معاصر) في «دراسات في القرآن»

البعثة أو بدء نزول القرآن

البعثة واجبة لاشتماله على اللطف الواجب على الله سبحانه، فإنّ الإنسان بمقتضى قواه الحيوانية التي أودعها الله فيه لمصالح شتى، لو خلّي وطبعه يريد الإباحية والانهماك في الشهوات، ولا يدري أنّ من وراء نشأته هذه نشأة الحياة الدنيا نشأة أخرى يحاسب فيها، فيثاب أو يعاقب، كما لا يعرف بنفسه ما ينفعه أو يضرّ به في حياته الاجتماعية والفردية، ولا يميّز بين ضارّ الأشياء ونافعها إلّا بعد تجارب كثيرة في أدوار من عمره، وربما لا يفي عمره بها، فلا بدّ له من شرع يفرضه له مشرّع من قبل الله عزّ وجلّ حتّى لو أراد أن يتبعه ويهتدي به أمكنه ذلك، ولا يقول يوم القيامة: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾^١.

نعم، الإنسان قد يدلّه عقله الفطريّ على واجبات ومنهيات، ويستقلّ بمعرفتها ولو لم يكن شرع أصلاً، فتكون البعثة حين ذا لطفاً في تلک الواجبات والمنهيات العقلية، فإنّ الإنسان لو كان واقفاً على تكاليفه بحسب الشرع كان أقرب إلى الصواب، فأوجبت تلك القاعدة قاعدة اللطف البعث والإرسال، فأرسل الله رسله تتّرى يتبع بعضهم بعضاً حتّى بعث المسيح عيسى عليه السلام، ثمّ أرسل رسوله محمداً ﷺ على فترة، أي انقطاع من الرسل، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾^٢.

وكانت الفترة بين مجيء عيسى ومحمد ﷺ (٦٠٠) سنة على قول أو (٥٦٠)

أو (٤٦٠) وبضع سنة، أو (٥٠٠) وشيء على قول آخر. فما أرسل الله في تلك المدة على اختلاف الأقوال فيها رسولا.

وأما إرسال الرّسل إلى أصحاب القرية (مدينة أنطاكية) في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾^١، فقد اختلفت فيه الأحاديث؛ ففي حديث العياشي بإسناده عن الثّمالي وغيره: عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام: «إِنَّهُمْ كَانُوا رُسُلَ عِيسَى عليه السلام مِنَ الْخَوَارِيِّينَ، وَإِنَّمَا أَضَافَ اللَّهُ إِسْرَالَهُمْ إِلَى نَفْسِهِ لِأَنَّ عِيسَى أَرْسَلَهُمْ بِأَمْرِهِ». ويظهر ذلك ممّا جاء في الأصحاح (١٠ - ١١) من إنجيل لوقا في إرسال المسيح تلاميذه إلى القرى بأمر الله. وحاصل ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾^٢، إِنَّ عِيسَى عليه السلام بعث رسولين من الخواريين إلى مدينة أنطاكية، فاتّصل الرسولان بحبيب التجار، وكان منزله في أقصى باب المدينة، فأمن بهما، وشفى الله على أيديهما كثيرا من مرضى أهل المدينة، فأمنوا بهما. وكان لهم ملك يعبد الأصنام، فطلبهما حتّى وجدهما وحبسهما، فبعث عيسى عليه السلام شمعون الصّفا رأس الخواريين على أثرهما. وفي رواية أخرى: أَنَّ اللَّهَ بعث الرّسولين إلى أهل أنطاكية، ثمّ بعث الثالث. وقيل: كان بين ميلاد عيسى ومحمّد عليه السلام (٥٦٩) سنة، وكان بعد عيسى أربعة من الرّسل، وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾^٣، ولا أدري من الرّابع، فكان من تلك المدة (٥٦٩) سنة بين ميلاد المسيح ومحمّد عليه السلام (١٣٤) سنة نبوة وسائرهما فترة.

وكيفما كان فقد ختم الله النبوة بمحمّد عليه السلام وبشر به في التّوراة والإنجيل، كما قال سبحانه الرّسول: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾^٤. ومن الواضح أنّ المراد التّوراة والإنجيل الأصل، لا هذا المحرّف المشحون بالأغلاط والاختلافات، وممّا حرّف في التّوراة اسم محمّد وصفاته. ففي الدرّ المنثور، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ

يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ»^١. قال: هم أحبار اليهود، وجدوا صفة النبي مكتوبة في التوراة أكحل، أعين، ربعة، جعد الشعر، حسن الوجه. فلمّا وجدوه محوه حسداً وبغياً، فأتاهم نفر من قريش، فقالوا: تجدون في التوراة نبياً منّا؟ قالوا: نجد طويلاً، أزرق، سبط الشعر، فأنكرت قريش، وقالوا: ليس هذا منّا.

وفيه بالإسناد عن عثمان بن عفّان، عن رسول الله في قوله: ﴿قَوْلُ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾^٢، قال: «الويل جبل في الثّار، وهو الذي أنزل فيه اليهود؛ لأنّهم حرّفوا التّوراة وزادوا فيها ما أحبّوا، ومحوّا منها ما كانوا يكرهون، ومحوّا اسم محمّد».

نعم، ذكر في الموجود من الإنجارييل على ما يقول الإمام البلاغيّ في «الرحلة»: (پريقلوط) معرّب (پريقليطوس) بمعنى أحمد أو محمّد، أو (فارقليط) معرّب (پاراقليطوس).

وقال في مجمع البيان: وفي الإنجيل بشارة (فارقليط) في مواضع، منها: «تعطيكم فارقليط آخر ما يكون معكم» ومنها: «سيأتيكم فارقليط آخر روح الحقّ الذي لا يتكلّم من قبل نفسه».

والذي وجدته في إنجيل يوحنا في المحلّ الذي عيّنه الإمام البلاغيّ هو هذا: «وأما متى جاء ذاك روح الحقّ، فهو يرشدكم إلى جميع الحقّ؛ لأنّه لا يتكلّم من نفسه، بل كلّ ما يسمع يتكلّم به ويخبركم بأمر آتية» لا غير، وهو قدّس سرّه أبصر، والله أعلم.

وذكر في الموجود من التّوراة في الأصحاح الثامن عشر من سفر التّثنية هكذا «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فيه، فيتكلّم بكلّ ما أوصيه به».

وقال في المجمع: ومكتوب في التّوراة أيضاً: «وأما ابن الأمة فقد باركت عليه جدّاً جدّاً، وسيلد اثني عشر عظيماً، وأآخره لأمة عظيمة» وفيها أيضاً «أتانا الله من سيّئاء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبل فاران».

وفاران جبل بالقرب من مكّة، يقال له: حراء، وقد كان محمّد ﷺ يصعده ويتعبّد فيه قبل بعثته.

كان عليه السلام يتجر بأموال خديجة بنت خويلد من قبل أن يتزوج بها، وكانت خديجة امرأة ليبية حازمة ذات مال كثير، يتجر في مالها رجال قريش تضاربهم بشيء من الرّيح. فلما بلغها عن محمد عليه السلام صدقه وأمانته وشيمته الكريمة، بعثت إليه أن يخرج في مالها تاجرًا إلى الشام، وتعطيه أكثر ممّا كانت تعطي غيره، فأجابها إلى ذلك وخرج مع غلام يقال له: ميسرة، حتّى قدم الشام، فباع واشترى، ورجع بتجارة رابحة. وكان من أمره مع راهب في القرب من الشام، قد شاهد منه آية النّبوة ما حكاه أهل السير، وقالوا: كان ميسرة إذا كانت الهاجرة يرى ملكين يظلاله من الشمس وهو على بعيره، فأخبر سيّدته خديجة بما رأى، فرغبت فيه وعرضت نفسها عليه، وقد كانت موضع رغبة رجال من قريش لكثرة مالها، فحدّث محمد عليه السلام أعمامه بما أشارت إليه خديجة، فخرج عمّه حمزة وأبو طالب ابنا عبد المطلب حتّى دخلا على خويلد، فخطبها أبو طالب من خويلد لمحمد عليه السلام، فزوجها أبوها منه وأنكحها إياها، فباشرها عليه السلام وعاشرها بالمعروف. ثم حبّب الله إليه الخلوة التي بها فراغ القلب، فكان عليه السلام يختلي في غار في أعلا جبل على ثلاثة أميال من شمال مكة يقال له: حراء، ويتعبّد فيها ليالي ذات عدد، كما في الحديث قال شارح الحديث: يعني مع أيّامها، فتارة كان ثلاث ليال وتارة سبع ليال وتارة شهر رمضان وغيره. وكان يتزوّد الكعك والزّيت، فإذا نفذ زاده عاد إلى أهله يتزوّد مثل ذلك وكان يطعم من جاءه كدأب المتألّهين من قريش.

قال ابن أثير: أوّل من تحنّف بحراء عبد المطلب، كان إذا دخل شهر رمضان صعد الحراء، ثم ورّقه بن نوفل، وأبي أمّته بن مغيرة. وكان من نُسكهم في ذلك المحلّ أن يطعم الرّجل من جاءه من المساكين. وكان محمد عليه السلام إذا قضى جواره بحراء نزل منه يطوف البيت سبعاً، ثم يدخل داره، حتّى إذا كان الوقت الذي أراد الله أن يبعثه كافّةً للنّاس كشف عن بصره، وأنزل عليه الملائكة وهو في حراء، فأتاه جبرائيل عليه السلام وبشّره بالرسالة من الله، وأجلسه على كرسيّ من ياقوتة حمراء، وأعطى لواء الحمد بيده، وقال: يا محمد اقرأ. أو أخرج قطعة ديباج فيها خطوط، فقال: أنقرأ، قال: كيف اقرأ ولست بقارىء. أو قال ما أقرأ، إلى ثلاث مرّات. فقال جبريل في الرّابعة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ

- إلى قوله - مَا لَمْ يَعْلَمْ^١ فلما صعد جبرائيل والملائكة إلى السماء توجه نزول جِراء إلى أم القرى، فما مرّ على حجر ولا مدر إلا وسلم عليه بالرسالة، وأشرقت دار خديجة بنور وجهه. فقالت: ما هذا النور الذي يسطع من وجهك؟ قال: هذا نور النبوة. قولي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فقالت: طالما قد عرفت ذلك منك، ثم أسلمت، وكان ﷺ قد بلغ من عمره أربعين سنة على المشهور بين الجمهور من أهل السير، ولهم فيه أقوال أخرى ومجموعها سبعة.

تاريخ البعثة واختلاف أهل السير فيه

بعث النبي محمد ﷺ في يوم الاثنين بلا خلاف فيه، كما ولد في يوم الاثنين، وإن اشتهر أن ولادته كانت ليلة الجمعة قريباً من طلوع الفجر، وإن الأحاديث الدالة على أن بعثته كانت في يوم الاثنين لا تخلو عن ذكر الولادة، بل قدّم ذكر الولادة فيها على البعثة. فعن ابن عباس أنه قال: ولد النبي ﷺ يوم الاثنين، واستنّبى يوم الاثنين. وعن أبي قتادة الأنصاري: سئل رسول الله عن صوم يوم الاثنين، فقال: «ذلك يوم وُلِدْتُ فيه، ويوم بُعِثْتُ فيه، وأنزل عليّ فيه». وعنه عن عمر أنه قال: يانبى الله أصوم يوم اثنين؟ فقال: «ذلك يوم بعثت فيه، ويوم أنزل عليّ فيه»^٢.

وإنما الخلاف في يوم بعثته وولادته من الشهر، وشهر بعثته من الشهور. فالمشهور عند الإمامية أن ولادته كانت في السابع عشر من ربيع الأول، وعند العامة أنها كانت في الثاني عشر منه، واختاره ثقة الإسلام الشيخ الكليني أيضاً. وأما البعثة فالمشهور بل المتفق عليه عند الإمامية أنها كانت في السابع والعشرين من شهر رجب المطابق لنيروز سنة (٦٢٠٣) من هبوط آدم عليه السلام. وظاهرهم الاتفاق على أنها كانت في النهار، وأما العامة فلهم في يوم بعثته وشهرها اختلاف، ويظهر من أقوالهم الاختلاف أيضاً في أنها كانت في الليل أو في النهار.

ففي سيرة السيد أحمد زيني دحلان بهامش الحليّة وقيل: «السابع والعشرين من رجب»^١.

وفي السيرة الحليّة قيل: كان ذلك ليلة، أو يوم السابع والعشرين من رجب أورده الحافظ الدِّمياطي في «سيرته» عن أبي هريرة عنه عليه السلام، قال: «من صام يوم السابع والعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهراً»^٢.

فهذا القول متفق عليه بين الفريقين في الجملة، قالت به الإماميّة جمعاء وبعض العامة، فهو أقوى الأقوال.

وفيها أيضاً: وقيل ليلة ثمانية من ربيع الأول، وقيل: ليلة ثالثة منه، وقيل: رابعة عشر من رمضان.

وفيها: ليلة سبع عشر من رمضان وفي كلام بعض: أتاها - يعني جبرائيل عليه السلام - ليلة سبت وليلة الأحد، ثم ظهر له بالرسالة يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان. وهذا القول قال به جماعة، منهم الإمام الصّرصري؛ حيث قال:

وَأَتَتْ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ فَأَشْرَقَتْ شَمْسُ النَّبُوءَةِ مِنْهُ فِي رَمَضَانَ^٣

وفي زاد المعاد لأبي عبد الله بن قَيِّم الجوزيّة: ولا خلاف في أنّ مبعثه كان يوم الاثنين، واختلف في شهر المبعث، فقيل: لثمان مضيّن من ربيع الأول سنة (٤١) من عام الفيل، وهذا قول الأكثرين، وقيل: بل كان ذلك في رمضان، واحتجّ هؤلاء بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^٤، وإلى هذا ذهب جماعة، منهم الإمام يحيى الصّرصري^٥. وفي سيرة زيني دحلان أيضاً، وسبع عشر من رمضان، وقيل: ثامن من ربيع الأول^٦.

وفي مروج الذهب: لعشر خلون من ربيع الأول^٧. وفي الكامل: قال أبو قلابة الجرّمي: أنزل القرآن على النبي عليه السلام لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان، وقال آخر: كان ذلك لتسع خلت من رمضان^٨.

٢ - السيرة الحليّة ١: ١٢٨.

٤ - البقرة / ١٨٥.

٦ - سيرة زيني دحلان ١: ١٥٨.

٨ - الكامل لابن أثير: ١٦٢٤.

١ - سيرة زيني دحلان ١: ١٥٧.

٣ - السيرة الحليّة ١: ١٢٨.

٥ - زاد المعاد ١: ٢٤ - ٤٣.

٧ - مروج الذهب ١: ٣١٢.

وفي تاريخ الطبري: عن أبي قلابة: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ ثمانين ليلة خلت من رمضان، وقال آخرون: بل نزل لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان، وقال آخرون: بل أنزل لأربع وعشرين ليلة خلت من رمضان^١.

وفي المواهب للقسطلاني: وقيل: في أول ربيع الأول، وقال ابن عبد البر: يوم الاثنين لثمان من ربيع الأول، وقيل: لأربع وعشرين ليلة من رمضان، وقيل: لسبع من شهر رمضان^٢.

وفي شرح الزرقاني على المواهب: ثم كون البعث فيه (يعني رمضان) هو قول الأكثر والمشهور عند الجمهور، قاله الحافظان ابنا كثير وحجر^٣.

وفي سيرة ابن هشام: قال ابن إسحاق: فابتدأ رسول الله ﷺ بالتنزيل في شهر رمضان؛ يقول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^٤، ويقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^٥، ويقول سبحانه: ﴿حَمْدٌ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ﴾^٦، ويقول: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَافُتِ الْجَمْعَانِ﴾^٧، ويوم الفرقان كانت صبيحة يوم الجمعة لسبع عشرة من رمضان^٨.

هذه مجموعة أقوالهم في تاريخ البعثة أو بدء نزول القرآن على رسول الله ﷺ، وقد عرفت أن أقوى هذه الأقوال هو القول الأول؛ لأنه قالت به الإمامية جمعاء وجماعة من العامة. كما تقدم عن سيرة زيني دحلان وسيرة الحلبي، نقلاً عن الحافظ الدمي في سيرته عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «أنه قال من صام يوم السابع والعشرين من رجب...».

واحتمال ابتداء نزول القرآن على رسول الله ﷺ في ليلة القدر، وهو القول الثاني من الأقوال الأربعة المتقدمة في كيفية نزول القرآن في ليلة القدر، وإنما يأتي على القول بكون البعثة في شهر رمضان على الإجمال، وقد كانت أقوالهم في ذلك ستة وليست منها

١ - تاريخ الطبري: ٢: ٢٠٢.

٢ - المواهب للقسطلاني: ١: ٢٠٧.

٣ - شرح الزرقاني: ١: ٢٠١.

٤ - البقرة / ١٨٥.

٥ - القدر / ١.

٦ - الدخان / ١ - ٣.

٧ - الأنفال: ٤١.

٨ - سيرة ابن هشام: ١: ١٥٤.

ليلة القدر؛ لأنّا قد أبطلنا في أوائل الكتاب جميع ما قيل في تعيين ليلة القدر، وأثبتنا هناك بالأحاديث الصحيحة التّرديد بين ليلة إحدى وعشرين وثلاث وعشرين، وليسنا من السّنة، مع أنّ الأقوال السّنة اختلفت في أنّ البعثة كانت في اللّيل من شهر رمضان أو في نهاره. وقد تقدّم عن السّيرة الحليّة أنّ جبرائيل عليه السلام ظهر له بالرّسالة يوم الاثنين لسبع عشر خلت من رمضان.

وعن سيرة ابن هشام نقلًا عن ابن إسحاق: أنّ البعثة كانت صبيحة يوم الجمعة لسبع عشر من رمضان، والآيات التي تمسّك بها ابن إسحاق تنافي قوله.

أما آية ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^١، وآية ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ﴾^٢ فلصراحتهما في أنّ النزول كان في اللّيل. وأمّا آية: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجُنْعَانِ﴾^٣ فلأنّ يوم الفرقان كان في سنة اثنين من الهجرة على رأس ثمانية عشر شهرًا، وهو يوم بدر المشهور الذي التقى فيه الجمعان؛ جمع من المسلمين، وهم ثلاثمائة وبضعة وعشرين رجلاً، وجمع من المشركين، وهم بين تسعمائة إلى ألف من صناديد قريش، وكان ما أنزله الله فيه على رسوله قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ...﴾^٤ الآية.

هذا مع أنّ يوم الفرقان كان يوم الجمعة، والبعثة أول بدء نزول القرآن على رسول الله ﷺ كانت يوم الإثنين بلاخلاف فيه أضف إلى هذا وما قبله أنّ يوم الفرقان كانت صبيحة يوم الجمعة للتّاسع عشر من رمضان كما قيل، وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أيضًا. وأمّا الآية الأولى التي تمسّك بها ابن إسحاق لإثبات كون البعثة وابتداء التّنزيل على رسول الله ﷺ في شهر رمضان على الإجمال، وهي قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، فيمكن أن لا تكون لها صلة بمحلّ الكلام؛ لما قيل في تفسيرها من أنّ المراد أنزل في إيجاب صومه القرآن، ويقرّبه البيان الآتي في فرضه على الصّحيح الحاضر دون المريض والمسافر، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى

١ - القدر / ١.

٢ - الدّخان / ١.

٣ - الأنفال / ٤١.

٤ - الأنفال / ٤١.

سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ^١.

لكن يبعده قوله تعالى بعده مباشرة: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾^٢ لأنَّ الجملتين حاليتان، فهما صفتان للقرآن المنزل، والمراد كل القرآن كما تقدّم، ولا يبعد دلالة هذا التّوصيف عليه أيضاً، فالمعنى إذن أنزل القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان جملةً واحدةً إلى بيت العزّة من سماء الدّنيا، على حدّ معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، فالآيتان قرينتان على المراد من شهر رمضان ونزول القرآن فيه، والله العالم.

فحصل من مجموع ما بيّناه أنّ احتمال ابتداء نزول القرآن في ليلة القدر على رسول الله ﷺ باطل، وأنّ المتعين هو القول الأوّل من الأقوال الأربعة المتقدّمة في كيفية نزول القرآن في ليلة القدر، وهو القول المشهور، والأحاديث فيه متضاربة.

فالحقّ أنّ القرآن الكريم نزل مرّتين، مرّةً نزل من اللّوح المحفوظ جملةً واحدةً إلى بيت العزّة وبيت المعمور من سماء الدّنيا في ليلة القدر، ومرّةً أخرى نزل منها نجوماً على رسول الله ﷺ، من يوم السّابع والعشرين من رجب إلى عشرين أو ثلاث وعشرين سنة، في السّفر والحضر في الوقائع والأحكام، ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾، وقد صرح به أعلام المفسّرين كالإمام البلاغي^٣، والشّيخ الطّبرسي^٤، والشّيخ الطّوسي^٥، وابن كثير القرشي^٦، والطّبري^٧، والسيوطي^٨، والرّازي^٩ ... [ثمّ ذكر قول الشّيخ الصّدوق كما تقدّم عنه، فقال:]

والأحاديث في ذلك كثيرة، منها ما رواه الكلينيّ بسنده عن حفص بن غياث، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ... [وذكر كما تقدّم عنه]. [١٥١ - ١٦١]

١ - البقرة / ١٨٤.

٢ - البقرة / ١٨٥.

٣ - آلاء الرحمن ١: ١٦٠.

٤ - مجمع البيان ١: ٥١٨ و ٥: ٦١.

٥ - التّبيان ١: ٢٠٣ و ٢: ٥٧٣.

٦ - تفسير ابن كثير ١: ٢١٦.

٧ - تفسير الطّبري ٢: ٢١٦.

٨ - الدرّ المنثور ١: ١٨٩.

٩ - التفسير الكبير ٢: ١٨١.

أَوَّل ما نزل من القرآن و آخر ما نزل منه

قد يقال: الأوّل و يراد به معناه الإِضافي، و البحث عن أوّل ما نزل من القرآن بهذا المعنى بحث عن ترتيب سور القرآن و آياته كما نزل، الأوّل فالأوّل إلى آخر ما نزل في الوقائع و الأحكام و غيرها. و هذا بحث طويل و جدير بأن يفرد بالتأليف، و قلّ من بلغ إلى تلك الغاية؛ لأنّها بعيدة المدى، فهذا البحث غير ميسور لنا، وإنّما الميسور أن نتحدّث عن أوّل ما نزل من القرآن بمعناه الحقيقي، أي على الإطلاق، و آخر ما نزل منه كذلك، ثمّ انقطع بعده الوحي، و قبض النبيّ ﷺ بعد ذلك.

نعم، قد نتحدّث عن أوائل و أواخر إِضافيّة مخصوصة ببعض الأحكام، ثمّ نتحدّث عن أوّل من آمن برسول الله ﷺ و صلّى معه.

أَوَّل ما نزل من القرآن

اختلفوا في أوّل ما نزل من القرآن على أقوال أربعة، و هذا يكشف عن عناية الأُمّة الإسلاميّة في الصّدّر الأوّل بالقرآن الكريم بالحفظ و الرعاية، حتّى عرفوا أوّل ما نزل و آخر ما نزل منه، كما عرفوا مكّيّة. و مدنيّة، و سفريّة. و حضريّة، و غير ذلك من خصوصيّاته، وهي من أدلّتنا على صيانة القرآن من التّحريف، و يأتي تفصيله في محلّه. القول الأوّل - وهو أصحّها: أنّه صدر سورة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ - إِلَى قوله تعالى - عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ و دليله أحاديث معتبرة رواها الطّبريّ و العلامة السّيوطيّ و الواحديّ و غيرهم من العامّة، و المحقّق رشيد الدّين ابن شهر آشوب و عليّ بن إبراهيم القسّيّ و غيرهم من الخاصّة.

و هناك أحاديث أخرى ضعيفة سنداً و متناً، و قد استدلّ بها بعض أصحاب هذا القول أيضاً... [ثمّ ذكر رواية عبدالله بن شدّاد و غيره، و رواية عائشة كما تقدّم عن الطّبريّ و أبي الفتح]. و أخرجه مُسلم عن يونس، عن ابن شهاب، عن عروّة بن زبَيْر، عن عائشة و أخرجه أيضاً عن الزُّهريّ، عن عروّة بن الزُّبَيْر، عن عائشة، باختلاف يسير.

و أخرجه الحافظ ابن كثير أيضاً باختلاف يسير و قال بعد نقله الحديث، و قد

تكلّمناه على هذا الحديث من جهة سنده و متنه و معناه في أوّل شرحنا للبُخاريّ مستقصى، فمن أرادَه فهو هنالك محلّه .^١

مناقشة الحديث من جهة السند و المتن

ولنا في الحديث نظر من حيث السند و المتن. أمّا من حيث السند: فإنّ كلام عائشة ظاهر في الدّراية، و لم تكن عائشة ممّن أدرك بعثة النّبيّ ﷺ، فهو إذن رواية مقطوعة. و أمّا من جهة المتن: فإنّ الله تعالى إذا أراد أن يبعث رسولاً فإنّما يبعثه بالوحي الجليّ أو القول الصّريح، كما بعث موسى ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّا اخْتَرْنَاكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾^٢، و قال ﴿وَاضْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ * إِذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآيَاتِي﴾^٣ فلا يكاد يشتهيه عليه الأمر، حتّى ظنّ أنّه قد عرض له شيء، فيقول: «أي خديجة مالي! لقد خشيت على نفسي»؟ أو يقول: فانطلقت به خديجة إلى وِرْقَة بن نوّفل فبشّره بالرسالة.

أكان وِرْقَة أعرف بأمر الرسالة ممّن اختاره الله، و أيّده بروح القدس، و قرنه بنبوّته ثلاثة سنين من قبل أن يبعثه كما في الحديث.

و حديث خديجة مع وِرْقَة بن نوّفل، و إخباره بنبوّه محمّد ﷺ غير منكر، و أشعاره في ذلك معروفة، و قد ثبت أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «لا تسبّوا رئيس القيس، إنّّه آمن بي و صدّقني». و لكن له محمل صحيح، و هو أنّ خديجة لما شاهدت من زوجها محمّد ﷺ بعض علامات النبوّ أتت عمّها أو ابن عمّها وِرْقَة، و حدّثته بما شاهدت منه ﷺ، فبشّرها وِرْقَة بأنّه نبيّ و سوف يأمر بالجهاد، و أنشأ يقول... [و ذكر كما تقدّم عن القميّ و ابن كثير الرّم ٢ و ٢١].

القول الثّاني: أنّ أوّل منازل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ قال الواحديّ: فأما الحديث الصّحيح الذي روي أنّ أوّل منازل سورة المدّثر فهو ما أخبرناه الأستاذ أبو إسحاق الثّعالبيّ: قال: سألت أبا سلّمة... [و ذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]

١ - تفسير ابن كثير ٤: ٥٢٧.

٢ - طه / ١٣.

٣ - طه / ٤١، ٤٢.

أقول: لا خلاف ظاهرًا في أنّه ابتداء نزول القرآن على رسول الله ﷺ، وهو على حِراء. وهذا الحديث يدلّ على أنّ أوّل ما نزل عليه، وهو المدّثر نزل عليه في داره بعد أن نزل من حِراء واستبطن الوادي، ونودي وأخذته الرّجفة وأتى خديجة، وأمرهم فذرّوه. ولكن ورد عن جابر حديث آخر بسند صحيح يدلّ على أنّ نزول سورة المدّثر كان بعد فترة الوحي عن رسول الله ﷺ، فيدلّ بالملازمة القطعية على أنّه نزل عليه قبل ذلك شيء من القرآن ثم وقعت الفترة، ثم نزلت عليه المدّثر.

الواحديّ عن جابر، قال: سمعت النّبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي... [وذكر كما تقدّم عنه، ثم قال:]

وقد ثبت بالأحاديث الصحيحة أنّ الملك الذي جاء به حِراء أنزل عليه صدرًا من سورة: ﴿اقْرَأْ - إِلَى قَوْلِهِ - مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فبان بهذا الحديث أنّ المدّثر كانت أوّل سورة كاملة نزلت على رسول الله ﷺ بعد الفتره الواقعة بعد نزول صدر سورة اقرأ عليه يوم حِراء. والذي ينبغي أن يقال هو: إنّ جابرًا حدّث حديثه الأوّل قبل أن يسمع عن رسول الله حديث الفترة، وإليك حديث الفترة بتمامه:

حدّثنا الطّبريّ عن الزّهرّي، قال: فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة... [وذكر كما تقدّم عنه.]

القول الثالث: قال العلّامة الزّمخشريّ في «الكشاف»: وأكثر المفسّرين إلى أنّ أوّل سورة نزلت فاتحة الكتاب، ودليله حديث أبي ميسرة.

روى البيهقيّ في «الدلائل» بسنده عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل... [وذكر كما تقدّم عن أبي الفتح والقرطبي، ثم قال:]

ولكنّ هذا الحديث لا يصلح للاستدلال به على ما نسبته صاحب «الكشاف» إلى أكثر المفسّرين، وذلك لما أوردناه فيما تقدّم على متن حديث عروة بن زبّير عن عائشة، مع أن ابن حجر ناقش في نسبة هذا القول إلى الأكثر بقوله: وأمّا الذي نسبته إلى الأكثر، فلم يقل به إلا عدد أقلّ من قليل بالنسبة إلى من قال بالأوّل، يعني كون أوّل ما نزل صدر سورة (اقرأ). وقال الواحديّ: فعند الأكثر هي مكّيّة من أوائل ما نزل من القرآن... [ثم ذكر رواية

أبي إسحاق عن عليّ عليه السلام ورواية عبد الرحمن عن أبي هريرة، وقول الحسين بن الفضل، كما تقدّم عن الواحدي، وقال: [

وقيل: نزلت مرّتين، وقد فسّر بذلك المثاني أيضاً، فهي مكّيّة مدنيّة و من أوائل ما نزل من القرآن، والأوّل على إطلاق ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ - إلى قوله - مَا لَمْ يَعْلَمْ.]

القول الرابع: إنّ أوّل ما نزل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ... [ثمّ ذكر رواية الواحدي بسنده عن عكرمة، كما تقدّم عنه، فقال: [

وهذا رأي حسن، غير أنّه لا ينبغي أن يعدّ قولاً مستقلاًّ برأسه؛ لأنّ البسملة أوّل آية من كلّ سورة على الصّحيح، فكانت تنزل صدراً لكلّ سورة إلا ما استثنى، بل ورد أن ابن مسعود قال: كنّا لا نعلم فصل ما بين السّورتين حتّى نزل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ...﴾ وأنّ ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يعرف ختم السّورة حتّى ينزل عليه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ...﴾^١

فالابتداء به لازم الابتداء بالسّورة، فلا يعدّ اعتبار الأوليّة في نزوله قولاً مستقلاًّ برأسه، بل يرجع إلى القول بأوليّة نزول سورة ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

وقد يستفاد ذلك من ظاهر كلام الحسن و عكرمة أيضاً؛ لأنّهما قالّا: أوّل ما نزل من القرآن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ...﴾ وأوّل سورة ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾. ولكن يلوّح منه أوليّة نزول السّورة بتمامها، وهو خلاف ما دلّت عليه الأحاديث الواردة في أوليّة نزولها.

والذي يتحصّل لنا من مجموع أحاديث الباب - ما تقدّم منها وما يأتي - هو أنّه نزل عليه صدر سورة: ﴿إِقْرَأْ - إلى - مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وهو على جرّاء، ثمّ نزلت عليه هناك سورة الحمد بتمامها؛ لأنّه صلى الله عليه وآله صلّى في اليوم الذي بعث فيه.

فعن ابن عباس وأنس وزيد بن أرقم ومُجاهد وفتادة وابن إسحاق: بُعث النّبي صلى الله عليه وآله و صلّى يوم الإثنين.

ثمّ وقعت الفترة، ولهم في مدّتها اختلاف عظيم، فلم ينزل عليه في تلك المدّة شيء

من القرآن، ثم نزلت عليه المدثر، كما في حديث جابر عنه عليه السلام، وهو يحدث عن فترة الوحي، ثم نزلت عليه تمام سورة (اقرأ) في أبي جهل، ثم تتابع الوحي. وسبب نزول تمام سورة (اقرأ)، من قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ إلى آخر السورة في أبي جهل، هو ما رواه البخاري وابن جرير الطبري والواحدي وغيرهم.

آخر ما نزل من القرآن

اختلف العلماء في تعيين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق على أقوال شتى؛ القول الأول - أن آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^٢. القول الثاني - أن آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿يَاءَ يُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^٣.

القول الثالث - أن آخر ما نزل آية الدين، وهي قوله تعالى: ﴿يَاءَ يُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى قَوْلِهِ - وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^٤ وهي أطول آية في كتاب الله. [ثم ذكر قول الزرقاني: في جمع هذه الأقوال الثلاثة، كما تقدّم عنه، فقال:]

أقول: بل ذلك غير صحيح؛ لأن سورة البقرة لم تنزل دفعةً واحدة، بل نزلت دفعات، كما أنها ليست قصةً واحدة، بل فيها قصص وأحكام كثيرة، فقد جزم الشيخ الأجل الطبرسي بأن قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾ نزل في حجة الوداع بمنى. وروى عن السدي وابن عباس أنه لما أنزلت هذه الآية قال جبرائيل: ضعها في رأس الثمانين والمأتين من البقرة، وهذا يدل على أنها لم تنزل دفعة.

وعلى تقدير القول بأنها نزلت دفعة، ليست آخر سورة أنزلت؛ ليخبر كل من بعض ما نزل منه بأنه آخر ما نزل، سلمنا أنها آخر سورة نزلت، إلا أنه كان يلزم حينئذ أن يكون آخر ما نزل من القرآن آخر آية من هذه السورة قولاً واحداً. من دون خلاف في ذلك أصلاً، لفرض أنها نزلت كترتيبها في المصحف، على ما حكاه عن السيوطي جازماً به،

١ - لفظة «القول» ليس في هذا الترتيب ولكن أصفاه لتنسيق النظم كما في ترتيب السابق (م).

٢ - البقرة / ٢٨١.

٣ - البقرة / ٢٧٨.

٤ - البقرة / ٢٨٢.

فمن أين نشأت هذه الأقوال؟ وكيف أخبر كلٌّ عن بعض ما نزل بأنه آخر؟
 القول الرابع - أن آخر ما نزل هو سورة: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ) رواه مُسلم عن ابن عباس، وحمل الخبر على أن هذه السورة آخر ما نزل مشعراً بوفاة النبي ﷺ.
 ويؤيده ما ورد عن ابن عباس والسُّدي: أنه لما نزل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^١ قال رسول الله ﷺ: «ليتني أعلم متى يكون ذلك»، فأنزل الله عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...﴾.
 فكان رسول الله ﷺ يسكت بين التكبيرات والقراءة بعد نزول السورة، ويقول: «سبحان الله وبحمده أستغفره وأتوب إليه»، ف قيل له: إنك لم تكن تقول له قبل، فقال: «أما أن نفسي نعت إلي».

وقال مقاتل: لما نزلت هذه السورة قرأها... [وذكر كما تقدّم عن العلامة الطَّبَّاطبائي].
 وروى الشيخ الطبرسي عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ قال النبي ﷺ: «نُعِيَتْ إِلَيَّ نفسي، إنها مقبوضة في هذه السنة».

وقال الواحدي: نزلت في منصرف النبي ﷺ عن غزوة حُنين، وعاش سنتين بعد نزولها.
 وعن ابن عباس قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة حُنين، وأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ قال: «يا علي بن أبي طالب، ويا فاطمة، قولوا: جاء نصر الله والفتح، ورايت الناس...».

أقول: نزلت سورة النصر قبيل فتح مكة بشارة للنبي ﷺ وأصحابه بدخول أهلها ومن حولها في دين الله أفواجاً بعد أن كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً أو اثنين اثنين. أو نزلت بمكة يوم الفتح كما قيل^٢ وغزوة حُنين كانت بعد فتح مكة؛ لأنه ﷺ فتح مكة في رمضان سنة ثمان من الهجرة، وخرج من مكة وقد بقي من رمضان أيام لقتال هَوازِن وثَقِيف في وادي حُنين. وعاش بعد فتح مكة سنتين وخمسة أو ستة أشهر على الخلاف في شهر وفاته، ونزلت عليه بعد فتح مكة سورة براءة^٣، ونزلت عليه خلال نزول تلك

١ - الزمر / ٣٠.

٢ - التآخ و المنسوخ لأبي نصر المفسر بهامش «أسباب النزول» للواحدي.

٣ - فسر الواحدي في أسباب النزول «الأمر» في قوله تعالى في سورة براءة: ﴿فَقَرَّبْصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، فسرهُ بالقتال و فتح مكة، و حكاها الشيخ الطبرسي عن المجاهد، ثم ردّه بأن سورة براءة نزلت بعد فتح مكة.

السورة آية المباهلة من سورة آل عمران، ولم تنزل عليه بعد سورة براءة سورة أخرى قط، فهي آخر سورة نزلت بالمدينة بلاخلاف فيه ظاهر. أو كان النبي ﷺ قد بعث بآيات من صدرها مع أبي بكر في السنة التاسعة إلى مكة؛ ليقراها على أهل الموسم، فلما خرج أبو بكر بعث علياً عليه السلام خلفه، فخرج على ناقه رسول الله ﷺ الغضباء يحث في السير حتى أدرك أبا بكر بذى الحليفة فأخذها منه ومضى ورجع أبو بكر، فقال: هل نزل يا رسول الله في شيء؟ فقال: «لا، إلا خيراً، ولكن لا يؤدّي عني إلا أنا أو رجل مني» وقيل: أخذها رسول الله ﷺ منه قبل أن يخرج، وقال: «لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل مني» وقيل: كان أبو بكر أميراً على الموسم، وعليّ يقرأ الآيات عليهم. وهذه القصة مما قد أجمعت عليه المسلمون، وإن اختلفوا في كيفيةها.

ولما دخلت السنة العاشرة وخرج رسول الله ﷺ مع أصحابه إلى حجة الوداع نزلت عليه - وهو في مسيره - خاتمة سورة النساء: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ»^١ الآية. ويحمل حديث البخاري ومسلم عن البراء بن عازب في آخرة الآية نزولاً على الآخرة بمعناها الإضافي، أي أنها آخر ما نزلت في الموارث.

قال ابن سيرين: وتسمى هذه الآية آية الصيف، وذلك أن الله تعالى أنزل في الكلاله آيتين؛ أحدهما في الشتاء وهي التي في أول هذه السورة، وأخرى في الصيف وهي هذه الآية. ثم نزلت عليه آيات ثلاثة من سورة المائدة «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ» - إلى قوله - «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»^٢ إلى آخر الآية.

بين سبحانه في هذه الآية أحد عشر حكماً من الأحكام التحريمية، ثم قال: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» ولن يثبت أن هذه الأحكام أو كثير منها شرعت قبل ذلك اليوم المشهور، أي لم يكن الرسول ﷺ مأموراً بتبليغها؛ لأنّ تشريع الأحكام وتبليغها كان على نحو التدرج بتتجيم نزول الآيات على حسب قابلية الظروف والحالات. وإذن يسهل الجواب عن شبهة قد أثيرت حول هذه الجملة: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ»، وهي أكان دين الله ناقصاً حتى أكمله في ذلك اليوم؟.

والجواب: أمّا دين الله فلم يكن ناقصاً في وقت من الأوقات، ولا يلوح من الآية احتماله: لأنّه تعالى لم يقل: اليوم أكملت الدين. وأمّا من ناحية إضافته إلى الناس بقوله ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الرَّاجِع إلى تبليغة إليهم فلا مانع من الالتزام بنقصانه قبل ذلك اليوم، ولا فساد فيه، هذا جوابنا، وهو إنّما يتمّ لولم تنزل بعد هذه الآية، آية أخرى في تحليل أو تحریم أو فريضة، وإن نزلت في غيرها ختاماً للوحي، وليس إكمال الدين بإكمال القرآن، وإنّما هو بإكمال أحكامه.

وأمّا أن نزلت بعدها فريضة أخرى كفريضة الكلاله، كما جزم به الطبري وقال به القراء، بل قالوا: إنّ فريضة الكلاله - خاتمة سورة النساء - هي آخر ما نزل على الإطلاق، استناداً إلى حديث البخاريّ ومسلم عن البراء بن عازب الذي حملناه على ما علمت، فالجواب إذن ما قاله الطبري في تأويل الآية... [وذكر كما تقدّم عن السيوطي، ثم قال:].

فلما حجّ رسول الله ﷺ مع أصحابه حجة الوداع، ولم يكن يخالطهم في ذلك اليوم مشرك، نوّه سبحانه بما أنعم عليه وعلى أصحابه بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ هذا، ولكن الأحاديث المعتبرة دلّت على أنّ المراد إكمال الدين وإتمام النعمة بولاية عليّ بن أبي طالب، وأنّ الآية نزلت على النبيّ في غدير خم منصرفة عن حجة الوداع لا يوم الحجّ وأنّ النبيّ ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية قال: الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الرّبّ برسالتي وولاية عليّ بن أبي طالب من بعدي» وقال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهمّ وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله». وهذا بحث يطول، ولنا بصدد الحديث عنه هنا، وقد أشبعه العلماء بحثاً.

القول الخامس - أنّ آخر ما نزل هو خاتمة سورة براءة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السّورة، رواه الحاكم وابن مردويه والواحديّ بأسانيدهم عن أبي بن كعب، قال: آخر آية نزلت على عهد رسول الله ﷺ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ الآية.

وعمل هذا الخبر على أنّ المراد أنّها آخر ما نزل من سورة براءة لا آخر مطلقاً، والإنصاف أنّه حمل بعيد. هناك أقوال أخرى في تعيين آخر ما نزل من القرآن ومجموعها

عشرة.. [ثم حكى قول الباقلاني، كما تقدّم عن الزركشي، فقال:]

وأظنه يشير بكلامه هذا إلى عدم تعيين ما ختم الله تعالى به كتابه الكريم، وهو بعيد عما ثبت من سيرة النبي ﷺ في إبلاغ كان ينزل عليه من أي القرآن، وبعيد عن اهتمام أصحابه وشدّة عنايتهم خصوصاً كتاب الوحي بشأن القرآن الكريم، فقد كان ﷺ كلما نزلت عليه آية يتلوها عليهم آن نزولها، ويأمر كتاب الوحي بكتابتها، معيّنًا لهم السورة التي تكون الآية منها، وموضع الآية من تلك السور طبق نزول الوحي بذلك فكيف أهمل والحال هذه بيان ما عساه أن يكون قد ختم الله به كتابه الكريم. وأمّا هذا الاختلاف والأقوال المتشعبة في تعيين ذلك فهو كسائر اختلافهم، وعسى أن تكون رحمة.

والراجح من هذه الأقوال هو ما أخرجه النسائي من طريق عكرمة، وأخرجه الواحدي من طريق الضحاك عن ابن عباس أنّه قال: آخر ما نزل من القرآن كله، أو قال: آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَلَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُنْظَرُونَ﴾^١.

قال الشيخ الطبرسي مشيرًا إلى الآية: هذه آخر آية نزلت من القرآن وقال جبريل: ضعها... [وذكر كما تقدّم عنه، ثم قال:]

وأما مبدأ نزول الوحي بالقرآن الذي هو يوم بعث الرّسالة، وهبوط جبرئيل بأمر الجليل جلّ جلاله على النبي ﷺ بصدر سورة (إقرأ) في غار حراء فقد تقدّم وإذن تستطيع أن تتحصّل على مدى نزول القرآن لما بيّن المبدأ والمنتهى.

سير التشريع الإسلامي في تحريم الخمر، وأول ما نزل فيه وآخره

وكما أن التّعود بشيء لا يحصل للإنسان إلا على نحو التدرّج لمدى زمان كثير، كذلك ترك التّعود به إذا كان مضرًا بحال الإنسان ينبغي أن يكون على هذا النحو، لنألاً يصعب عليه تركه أو يتضرّر بتركه، هذا من ناحية الواقع، وأمّا من ناحية الأمرية بفعل شيء يشقّ على الإنسان فعله، أو بترك شيء يشقّ عليه تركه، فالأصلح أن يكون على

هذا التَّحْوِ أيضًا، وعليه جرى سير التشريع الإسلامي في كثير من واجباته ومحرماته، ومنها تحريم الخمر، فأول ما نزل فيه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾^١ فلم يحرمه بالهي الصريح، ولكنه سبحانه بيّن أن فيه إثم كبير، وصرّح بأن إثمه أكبر من نفعه، وهذا يدلّ على تحريمه بحكم العقل، فإنّ مضرة الشيء إذا غلبت منفعته يحكم العقل بالامتناع منه، فقالوا على ما حكى عن ابن عمر: يا رسول الله، دعنا نتنفع بها كما قال الله (أي كما قال الله): ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ فسكت عنهم، فكانوا يشربونها إلى أن شربها رجل قرب الصلوة، فدخل في الصلوة و هجر. فأنزل الله تعالى في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾^٢، فقالوا: يا رسول الله، لانشرها قرب الصلوة، فسكت عنهم، فشرها من شربها. حتّى شربها الرّجل المعروف، فأخذ بلحّيّي بعير وشجّ بهما رأس عبد الرحمن بن عوف، ثمّ جعل ينوح على قتلى بدر بأشعار الأسود بن يعفر:

و كأنّ بالقلّيب قليب بدرٍ	مِنَ الْفِتْيَانِ وَالْعَرَبِ الْكِسَامِ
أبو عدي ابن كَيْسَةَ أن سَحَيَا	وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءٍ وَهَامٍ؟
فَقُلْ لله يَمْنَعُنِي شِرَابِي	وَقُلْ لله يَمْنَعُنِي طَعَامِي

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج مغضبًا يجرّ رداءه، فرفع شيئًا كان في يده فضربه به، فقال الرّجل، أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجُسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^٣ وهذا آخر ما نزلت في حكم الخمر، ويدلّ على حرمتها من وجوه خمسة: أهمّها أنّ الله تعالى قرن فيه حكم الخمر بعبادة الأنصاب، والأنصاب: الأوثان. وروي عن الباقر عليه السلام أنّه قال: «مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ الْوَثْنِ».

تشريع القتال و أول ما نزل فيه و آخره

لم يكن النبي ﷺ مأذوناً من الله تعالى في القتال مع المشركين و أعداء الدين مدة إقامته بمكة، و سنة من مدة إقامته بالمدينة، بل كان مأموراً بالعفو و الصّح عنهم؛ حتى نزل عليه في أوائل السنة الثانية في سورة الحج ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾^١ فوقعت الغزوات و بعث السرايا. ثمّ حضّ الله تعالى حضّاً شديداً على قتال المشركين في أواخر الأمر، فأنزل سورة براءة، و فيها: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^٢، ﴿فَقَاتِلُوا أَلْسِنَةَ الْكُفْرِ﴾^٣ ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾^٤ و ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾^٥ ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^٦، ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^٧، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾^٨ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾^٩ و آخر غزوة غزاها النبي ﷺ غزوة تبوك، و آخر سرية بعثها جيش أسامة بن زيد، و كان ﷺ مريضاً، فأمر كبار أصحابه بتنفيذ الجيش قائلاً «نفذوا جيش أسامة»، وقصته مشهورة. (ص: ١٧٤ - ١٩٠)

٢ - التوبة / ٥.

٤ - التوبة / ١٤.

٦ - التوبة / ٣٩.

٨ - التوبة / ٧٣.

١ - الحج / ٣٩.

٣ - التوبة / ١٢.

٥ - التوبة / ٣٦.

٧ - التوبة / ٤١.

٩ - التوبة / ١٢٣.

الفصل التاسع والثلاثون

نص الشيخ معرفة (١٣٥٦ -) في «التمهيد في علوم القرآن»

بدء نزول الوحي «البعثة»

قال الشيخ الجليل الثقة علي بن إبراهيم القمي: إن النبي ﷺ لما أتى له سبع و ثلاثون سنة. [و ذكر كما تقدّم عنه، ثم ذكر قول الإمام العسكري في تفسيره^١ كما تقدّم نحوه عنه، فقال:]

و في شرح النهج: إن بعض أصحاب أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام سأل عن قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾^٢ فقال: يوكل الله تعالى بأبيائه ملائكة يحصون أعمالهم، و يؤدّون إليه تبليغهم الرسالة، و وكل بمحمد ﷺ ملكاً عظيماً منذ فصل عن ارتضاع يرشده إلى الخيرات و مكارم الأخلاق، و يصدّه عن الشرّ و مساوئ الأخلاق، هو الذي كان يناديه: السلام عليك يا محمد يا رسول الله، و هو شاب لم يبلغ درجة الرسالة بعد، فيظنّ أنّ ذلك من الحجر والأرض، فيتأمل فلا يرى شيئاً^٣.

وراجع الخطبة القاصعة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الشأن، و قد نقلنا فيما سبق شطراً منها، و هي الخطبة رقم (٢٣٨) في شرح النهج لا بن أبي الحديد.

١ - تفسير الإمام: (ص: ١٥٧)، و هو منسوب إلى الإمام الحادي العشر للشيعة الإمامية: الحسن بن علي العسكري عليه السلام
وقد طعن بعض المحققين في نسبته إلى الإمام عليه السلام، لما فيه من تناكر، لكن لو كان المقصود أنّه من تأليف الإمام بقلمه و إنشائه الخاص، فهذا شيء لا يمكن قبوله بتاتاً. ٢ - الجنّ / ٢٧.

٣ - شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٠٧.

و في تاريخ الطبري: كان رسول الله ﷺ من قبل أن يظهر به جبرئيل عليه السلام برسالة الله إليه، يرى ويعاين آثاراً وأسباباً من آثار من يريد الله إكرامه واختصاصه بفضله، فكان من ذلك ما مضى من خبره عن الملكين اللذين أتياه فشققا بطنه^١، واستخرجا ما فيه من الغل والدنس، وهو عند أمه من الرضاعة (حليمة) ومن ذلك أنه كان إذا مرّ في طريق لا يمرّ بشجر ولا حجر إلّا سلّم عليه. وهكذا كان إذا خرج لحاجته أبعد حتّى لا يرى بيتاً، ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية. فلا يمرّ بحجر ولا شجر إلّا قال: السلام عليك يا رسول الله ﷺ، فكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً^٢.

قال اليعقوبي: كان جبرئيل يظهر له ويكلّمه، أو ربّما ناداه من السماء ومن الشجر ومن الجبل. ثم قال له: إنّ ربك يأمرك أن تجتنب الرّجس من الأوثان، فكان أوّل أمره. فكان رسول الله يأتي خديجة ابنة خويلد ويقول لها ما سمع وتكلّم به، فتقول له: أستر يا ابن عم! فوالله إنّني لأرجو أن يصنع الله بك خيراً^٣.

وكان ﷺ يوم بعث قد استكمل الأربعين، لعشرين مضين من ملك كسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان^٤. قال اليعقوبي: كان مبعثه ﷺ في شهر ربيع الأوّل، وقيل: في رمضان، ومن شهور العجم في شباط. قال: وأتاه جبريل ليلة السبت ليلة الأحد، ثمّ ظهر له بالرسالة يوم الاثنين^٥ قال ابن سعد: نزل الملك على رسول الله ﷺ بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان^٦.

قال أبو جعفر الطبري: وهذا - أي نزول الوحي عليه بالرسالة يوم الاثنين - ممّا لا خلاف فيه بين أهل العلم، وإنّما اختلفوا في أيّ الأثنين كان ذلك؟ فقال بعضهم: نزول القرآن على رسول الله ﷺ لثماني عشرة خلت من رمضان، وقال آخرون: لأربع و

١ - لم يرد بهذا المعنى حديث من طريق أهل البيت عليه السلام.

٢ - أبو جعفر الطبري - التاريخ ٢: ٢٩٤ - ٢٩٥. ٣ - تاريخ اليعقوبي ٢: ١٧ طبعة النجف الثانية.

٤ - ابن الأثير الكامل: ٢ - ٣١. ٥ - تاريخ اليعقوبي ٢: ١٧ - ١٨.

٦ - طبقات ابن سعد ١ - ١٢٩.

عشرين خلت منه وقال آخرون: لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، واستشهدوا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّنْفِي الْجَمْعَانِ﴾^١. وذلك ملتقى رسول الله ﷺ والمشرّكين ببدر، وكان صبيحة سبع عشرة من رمضان^٢. لكن لا دلالة في الآية على أن مبعثه كان مصادفًا لذلك اليوم.

أولاً - لأنّ المقصود ما أنزل عليه ذلك اليوم من دلائل الحقّ وآيات النصر، لا القرآن كلّ ولا مبدأ نزوله.

و ثانياً - سوف نذكر أنّ مبدأ نزول القرآن - بعنوان كونه كتاباً سماوياً - كان متأخراً عن يوم مبعثه بالرسالة، فقد بعث ﷺ رسولاً إلى النّاس في (٢٧) رجب، وأنزل عليه القرآن في شهر رمضان ليلة القدر، وربّما كان بعد فترة ثلاث سنين كما يأتي.

و ثالثاً - معنى يوم الفرقان اليوم الذي فرّق فيه بين الحقّ والباطل، وغلب الحقّ على الباطل فكان زهوقاً، وكان يوماً حاسماً في حياة المسلمين، وقد أيس الشيطان فيه أن يعبد أو يطاع إلى الأبد.^٣ ثم ذكر قول المسعودي، كما سيأتي عنه في أول ما نزل، فقال: [و كانت سنة ستّمائة وتسع من تاريخ ميلاد المسيح ﷺ].^٤

والصحيح عندنا في تعيين يوم مبعثه ﷺ أنّه اليوم السابع والعشرون من شهر رجب الأصبّ، على ما جاء في روايات أهل البيت، ويستحبّ صيامه والقيام بآداب وعبادات تخصّه، تلتزم بها الشيعة الإمامية كلّ عام تقديساً لهذا اليوم المبارك الذي أنزلت الرّحمة فيه على النّاس جميعاً، وافتتحت أبواب البركة العامّة على أهل الأرض؛ إذ بعث النبي ﷺ رحمة للعالمين، فياله من يوم مبارك... [ثم ذكر روايتين نقلًا عن الإمامين الصادق والرضا ﷺ كما تقدّم عن العلامة المجلسي، فقال:].

والروايات بهذا الشأن من طرق أهل البيت ﷺ كثيرة^٥. وهكذا وردت روايات من

١ - الأنفال / ٤١.

٢ - تاريخ الطبري ٢: ٢٩٤.

٣ - راجع تفسير شبر: ١٩٥.

٤ - تاريخ التمدّن الإسلامي لجرّجي زيدان ١: ٤٣.

٥ - راجع وسائل الشيعة للشيخ الحرّ العاملي، كتاب الصّوم المندوب، الباب: ١٥.

طرق أهل السُّنَّة بتعيين نفس اليوم؛ أورد الحافظ الدِّمياطِي في سيرته عن أَبِي هُرَيْرَةَ؛ قال من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله تعالى له صيام ستين شهراً، وهو اليوم الَّذِي نزل فيه جبريل على النَّبِيِّ ﷺ بِالرَّسَالَةِ، وَأَوَّلُ يوم هبط فيه جبرئيل.^١

وروى البيهقي في «شُعَب الإيمان» عن سلمان الفارسي قال: في رجب يوم و ليلة، من صام ذلك اليوم وقام تلك اللَّيْلَة كان كمن صام مائة سنة وقام مائة سنة، وهو لثلاث بقين من رجب، وفيه بعث الله مُحَمَّدًا ﷺ.^٢

وروى صاحب المناقب عن ابن عباس وأنس بن مالك أَنَّهُمَا قالَا: أوحى الله إلى مُحَمَّد ﷺ يوم الاثنين، السابع والعشرين من رجب، وله من العمر أربعون سنة.^٣

وقال العلامة المَجْلِسِي رحمه الله: اختلفوا في اليوم الَّذِي ... [وذكر كما تقدّم عنه، ثم قال:] أقول: وهناك قول سادس: ثامن ربيع الأوّل، وقول سابع: ثالث ربيع الأوّل، ذكرهما ابن برهان الحلبي في سيرته. ثم ذكر القول بأنّه الثَّاني عشر من ربيع الأوّل، يوم مولده الشريف؛ ليوافق القول بأنّه بعث على رأس تمام الأربعين.^٤

وسنذكر أن أكثرية القائلين ببعثته ﷺ في شهر رمضان، لعلّه قد اشتبه عليهم مبدأ حادث النبوّة بمبدأ حادث نزول القرآن كتاباً فيه تبيان كلّ شيء. وهذا الاشتباه يبدو من استدلالهم على تعيين يوم البعثة بمادّل على أن القرآن نزل في ليلة القدر من شهر رمضان، وسنتحقّق أن لا صلة بين الحادثين، فقد بعث ﷺ في رجب (٢٧)، ولكن القرآن باسمته كتاباً مفضّلاً، بدأ نزوله على النَّبِيِّ ﷺ في شهر رمضان ليلة القدر بعد ثلاث سنين من نبوّته ﷺ فكانت مدّة نبوّته ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة. ولكن فترة نزول القرآن مفرّقا استغرقت عشرين عاماً بدأت بدخول السّنة الرّابعة من البعثة، وختمت في عاشر الهجرة بوفاة ﷺ. (١: ٧٢-٧٨)

٢ - منتخب كنز العمال بهامش المسند ٣: ٣٦٢.

١ - السيرة الحلبيّة ١: ٢٣٨.

٣ - المناقب ابن شهر آشوب ١: ١٥٠، والبحار ١٨: ٢٠٤. ٤ - السيرة الحلبيّة ١: ٢٣٨.

أَوَّلُ مَا نَزَلَ

احتلف الباحثون في شؤون القرآن في أن أي آياته أو سورة نزلت قبل؟ و الأقوال في ذلك ثلاثة:

١- سورة العلق؛ لأن نبوته ﷺ بدأت بنزول ثلاث أو خمس آيات من أول سورة العلق، وذلك حينما فجأه الحق وهو في غار جراء... [إلى أن قال:]

وفي تفسير الإمام: هبط إليه جبرائيل وأخذ بضبعه وهزه، فقال: يا محمد ﷺ اقرأ، قال: «وما أقرأ؟ قال: يا محمد ﴿إِذَا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾».

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «أول ما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * ﴿إِذَا بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ و آخر ما نزل عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾^١.

٢- سورة المدثر؛ لما روي عن ابن سلمة، قال: سألت جابر... [و ذكر كما تقدّم عن الطبري الرقم ٣، ثم قال:]

هذا، ولعلّ جابرًا اجتهد من نفسه أنّها أول سورة نزلت؛ إذ ليس في كلام رسول الله ﷺ دلالة على ذلك، والأرجح أنّ ما ذكره جابر كان بعد فترة انقطاع الوحي، فظنّه جابر بدء الوحي^٢. وإليك حديث فترة انقطاع الوحي برواية جابر أيضًا، قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي؛ قال... [و ذكر كما تقدّم عن البخاري الرقم ٢].

٣- سورة الفاتحة؛ قال الزمخشري: أكثر المفسرين على أنّ الفاتحة أول ما نزل^٣. وروى العلامة الطبرسي عن الأستاذ أحمد الزاهد في كتابه: «الايضاح»، بإسناده عن سعيد بن المسيّب، عن عليّ عليه السلام... [و ذكر كما سيأتي عن الطبرسي في ترتيب النزول، ثم حكى رواية الواحدي عن أبي ميسرة كما تقدّم عنه، الرقم ١١ فقال:]

١- أصول الكافي ٢: ٦٢٨، عيون أخبار الرضا ٦: ٢، البحار ٢: ٣٩، البرهان ١: ٢٩.

٢- البرهان في علوم القرآن ١: ٢٠٦.

٣- الكشف ٤: ٧٧٥، وناقشه ابن حجر مناقشة سطحية لا مجال لها بعد توضيحنا الآتي في وجه الجمع بين الأقوال الثلاثة، راجع الباري ٨: ٥٤٨.

قلت: لا شك أن النبي ﷺ كان يصلي منذ بعثته، وكان يصلي معه عليّ وجعفر و زيد بن حارثة وخديجة^١ ولا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب^٢، فقد ورد في الأثر: أول ما بدأ به جبرائيل أن علمه الوضوء والصلاة،^٣ فلا بد أن سورة الفاتحة كانت مقرونة بالبعثة. قال جلال الدين السيوطي: لم يحفظ أنه كان في الإسلام صلاة بغير فاتحة الكتاب.

وبعد، فلا نرى تنافياً جوهرياً بين الأقوال الثلاثة، نظراً لأن الآيات الثلاث أو الخمس من أول سورة العلق، إنما نزلت تبشيراً بنبوته ﷺ، وهذا إجماع أهل الملة. ثم بعد فترة جاءته آيات أيضاً من أول سورة المدثر، كما جاء في حديث جابر ثانياً. أما سورة الفاتحة فهي أولى سورة نزلت بصورة كاملة، وبسمة كونها سورة من القرآن كتاباً سماوياً للمسلمين، فهي أول قرآن نزل عليه ﷺ بهذا العنوان الخاص، وأما آيات غيرها سبقتها نزولاً، فهي إنما نزلت لغايات أخرى، وإن سجلت بعدئذ قرآناً ضمن آياته وسوره.

ومن هنا صح التعبير عن سورة الحمد بسورة الفاتحة، أي أول سورة كاملة نزلت بهذه السمة الخاصة. وهذا الاهتمام البالغ بشأنها في بدء الرسالة، واختصاص فرضها في الصلوات جميعاً، جعلها في الفضيلة عدلاً للقرآن العظيم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمُنَافَى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^٤، فقد امتنَّ الله على رسوله بهذا النزول الخاص تجاه سائر القرآن.

نعم، لو اعتبرنا السور باعتبار مفتتحها فسورة الحمد تقع الخامسة، كما جاء في رواية جابر بن زيد الآتية.^٥

آخر مآزل

جاء في رواياتنا: أن آخر ما نزل هي سورة النصر، روي أنها لما نزلت وقرأها ﷺ على أصحابه فرحوا واستبشروا، سوى العباس بن عبد المطلب، فإنه بكى، قال ﷺ: «ما يبكيك يا عم؟» قال أظن أنه قد نعت إليك نفسك يا رسول الله ﷺ فقال: «إنه لكما تقول».

١ - تفسير القمي: ٣٥٣.

٢ - مستدرك الحاكم: ١/ ٢٣٨ - ٢٣٩، صحيح مسلم ٩: ٢.

٣ - سيرة ابن هشام ١: ٢٦٠ - ٢٦١، البحار ١٨: ١٨٤ و ١٩٤.

٤ - الاتقان ١: ٢٥٠.

٥ - الجبر ٨٧/.

فعاش ﷺ بعدها سنتين^١.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «و آخر سورة نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^٢ وأخرج مسلم عن ابن عباس، قال: آخر سورة نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^٣ وروي آخر سورة نزلت: (براءة)، نزلت في السنة التاسعة بعد عام الفتح عند مرجعه ﷺ من غزوة تبوك، نزلت آيات من أولها، فبعث بها النبي مع علي عليه السلام ليقراها على ملأ من المشركين^٤. وروي آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾ [و ذكر كما تقدم عن الميبدئي]. قال ابن واضح اليقوبي: وقد قيل: إن آخر ما نزل عليه ﷺ: ﴿أَلَيْسَ أَكْمَلْتُ...﴾... [و ذكر كما سيأتي عنه في قسم الترتيب].

أقول: لا شك أن سورة النصر نزلت قبل (براءة)؛ لأنها كانت بشارة بالفتح، أو بمكة عام الفتح^٥ و (براءة) نزلت بعد الفتح بسنة فطريق الجمع بين هذه الروايات، أن آخر سورة نزلت كاملة هي سورة النصر، فقال عليه السلام: «أَمَا أَنْ نَفْسِي نُعِيَتْ إِلَيَّ»^٦. و آخر سورة نزلت باعتبار مفتتحها هي سورة (براءة).

و أما آية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، فإن صح أنها نزلت بمعنى يوم النحر في حجة الوداع - كما جاء في رواية الماوردي^٧ فأخر آية نزلت هي آية الإكمال، كما ذكرها اليقوبي؛ لأنها نزلت في مرجعه ﷺ من حجة الوداع ثامن عشر ذي الحجة. وإلا فلو صح أن النبي عاش بعد آية ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾ أحدًا وعشرين يومًا أو سبعة أو تسعة أيام، فهذه هي آخر آية نزلت عليه ﷺ.

و الأرجح عندنا هو ما ذهب إليه اليقوبي، نظرًا لأنها آية الإعلام بكمال الدين، فكانت إنذارًا بانتهاء الوحي عليه ﷺ بالبلاغ والأداء. فلعل تلك الآية كانت آخر آيات

٢ - تفسير البرهان ١: ٢٩.

١ - مجمع البيان ١٠: ٥٥٤.

٤ - تفسير الصافي ١: ٢٨٠.

٣ - الاتقان ٢٧: ٢٧.

٦ - تفسير شير ٨٣.

٥ - أسباب النزول بهامش الجلالين ٢: ١٤٥.

٧ - مجمع البيان ٢: ٣٩٤.

الأحكام، وهذه آخر آيات الوحي إطلاقاً.

وهناك أقوال و آراء أخر لاقيمة لها، إنّها غير مستندة إلى نصّ معصوم. [ثمّ ذكر قول

الزّركشي، كما تقدّم عنه]. (١: ٩٣-٩٨)

الفصل الأربعون

نصّ أبي شهبه (معاصرٌ) في «المدخل لدراسة القرآن»

أوّل ما نزل من القرآن و آخر ما نزل منه

هذا المبحث المدار فيه على النّقل عن الصّحابة والتّابعين، ولا مجال للعقل فيه إلّا بالترجيح بين الأدلّة، أو الجمع بين ما ظاهره التّعارض منها، و يترتّب على العلم بأوّل ما نزل و آخر ما نزل فوائد؛ منها:

- ١- معرفة النّاسخ و المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو أكثر في موضع واحد، و حكم إحداهما يغيّر الأخرى تغايرًا لا يمكن معه الجمع، فنعرف أنّ المتأخّر منها ناسخ للمتقدّم.
- ٢- معرفة تاريخ التشريع الإسلاميّ، و ذلك مثل ما إذا عرفنا أنّ الآيات التي نزلت في فرضيّة الصّلاة كانت بمكّة قبل الهجرة، و أنّ الآيات التي نزلت في فرض الزّكاة^١ و الصّوم كانت في السّنة الثّانية بعد الهجرة، و أنّ الآيات التي نزلت في فرض الحجّ كانت في السّنة السادسة على ما هو الرّاجح أمكننا أن نرتّبها ترتيبًا تشريعيًّا، فنقول: إنّ أوّل ما فرض الصّلاة، ثمّ الزّكاة و الصّوم، ثمّ الحجّ.

و مثل ما إذا عرفنا أنّ آية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا...﴾^٢ نزلت بالمدينة في السّنة الثّانية، علمنا أنّ تشريع الجهاد كان بالمدينة بالسّنة الثّانية و هكذا بقيّة التشريعات.

١ - بعض العلماء يرى أنّ الزّكاة فُرِضت بمكّة، و إنّما الذي كان بالمدينة بيان مصارفها و أنصبتها، و لكنّ الأكثر على أنّها فرضت بالمدينة في السّنة الثّانية.

و قد اختلف هؤلاء؛ فرضها قبل الصّوم أم بعده؟ رأيان، و يرجّح الثّاني حديث قيس بن سعد بن عبادة عند أحمد وابن خزيمة و النسائيّ و ابن ماجة و الحاكم، قال قيس: أمرنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزّكاة، ثمّ نزلت فريضة الزّكاة، فلم يأمر و لم ينها، و نحن نفعله. قال الحافظ ابن حجر: إسناده صحيح. (فتح الباري ٣: ٢٠٧).

٣- معرفة التدرّج في التشريع، فتوصل إلى حكمة الله سبحانه العالوية في أخذ الشعوب بهذه السياسة الحكيمة في الإسلام، وذلك مثل ما إذا عرفنا ترتيب الآيات التي نزلت في شأن تحريم الخمر، وقد ذكرنا ذلك آنفاً. ومثل ما إذا عرفنا أنّ الآيات الدّاعية إلى أصول العقائد نزلت أولاً، وأنّ الآيات التي نزلت في التشريعات التفصيلية والأحكام العملية نزلت بعدها، أدركنا أسرار الله في التربية والتشريع، فمالم تعرف الأصول، وتطمئنّ إليها القلوب، لا يسهل الأخذ بالفروع.

ثم إنّ أوليّة النزول وآخريته تارة تكون على الإطلاق، أي بالنسبة للقرآن كلّ، وتارة تكون مقيّدة إمّا بالنسبة لموضع معيّن، وذلك مثل أول ما نزل في الجهاد وآخر ما نزل فيه، وإمّا بالنسبة لمكان خاصّ، مثل أول ما نزل بمكة وآخر ما نزل بها، وأول ما نزل بالمدينة وآخر ما نزل بها، وإمّا بالنسبة لسورة ما، مثل أول ما نزل من سورة كذا وآخر ما نزل منها.

أمّا الأوليّة والآخريّة المطلقتان فسأتنا ولهما بالتفصيل، وأمّا المقيّدتان فسأكتفي بضرب بعض الأمثلة؛ لأنّ استيعابها يحتاج إلى مؤلّف خاصّ. ولنبدأ بأول ما نزل وآخر ما نزل على الإطلاق.

أول ما نزل من القرآن

اختلف العلماء في هذا على أقوال أربعة؛

القول الأول - إنّ أول ما نزل هو قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - إِلَى - مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^١، ويدلّ لذلك ما يأتي:

أ- روي عن البخاريّ ومسلم - واللفظ للبخاريّ - بسندهما عن عائشة أنّها قالت: أول ما بدىء... [وذكر كما تقدّم عنه، الرّم ٨، ثم قال:].

وقد سقت الحديث بطوله، وشرّحته في كتابي: «السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة» وعائشة وإن لم تعاین القصّة وتشاهدها، إلّا أنّه يحتمل أن تكون سمعتها من

النَّبِيِّ بعد، أو حَدَّثَهَا بها صحابيٌّ سمعها من النَّبِيِّ، وأَيُّا كان الأمر فهو حديث متَّصل مرفوع.
ب - وروى الحاكم في «مستدركه» والبيهقي في «دلائل النبوة»، وصحَّاحه عن عائشة، أَنَّها قالت: أَوَّلُ سورة نزلت من القرآن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، و مرادها بالسُّورة صدرها، إلَّا فباقيها نزل بعد، كما تدلُّ على ذلك رواية الصَّحيحين.

[ثم ذكر رواية الطَّبْرَانِي عن أَبِي رَجَاء الغَطَارْدِي، و رواية ابن أَشْتِه في «المصاحف»، ورواية الزُّهْرِي، كما تقدَّم عَنِ السُّيُوطِي فقال:]

و لعلَّ هذا - إن صحَّ - يفسِّر لنا الأمر بالقراءة في رواية الصَّحيحين، أي اقرأ ما في هذا التَّمَط، إلى غير ذلك من الآثار الَّتِي ذكرها الإمام السُّيُوطِي في «الإنِّتان» الصَّحيح، و عليه جمهور العلماء سلفاً و خلفاً.

القول الثَّانِي - إنَّ أَوَّل ما نزل هو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ - إِنْ - وَالْوَجْزُ فَاهْجُرُ﴾^١ وهذا القول مرويٌّ عن جابر بن عبد الله و أبي سَلَمَةَ بن عبد الرَّحْمَان بن عَوْف.
ويدلُّ لهذا ما رواه الشَّيْخَان - و اللَّفْظ لِلْبُخَارِيِّ - عن يحيى بن أبي كَثِيرٍ قال: سألت أبا سَلَمَةَ بن عبد الرَّحْمَان ... [و ذكر كما تقدَّم عنه، الرِّقْم ٣، ثم قال:]

وقد أجاب القائلون بالأوَّل عن هذا بأجوبة أحسنها و أخلقها بالقول: إنَّ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أَوَّل ما نزل بعد فترة الوحي، أمَّا (اقْرَأْ) فهي أَوَّل ما نزل على الإطلاق.
ويؤيِّد هذا التَّأْوِيل و يقوِّيه ما رواه الشَّيْخَان أيضًا عن طريق الزُّهْرِي - و اللَّفْظ لِلْبُخَارِيِّ - عن أبي سَلَمَةَ بن عبد الرَّحْمَان، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال... [و ذكر كما تقدَّم عنه الرِّقْم ٣ ثم قال:]

فقوله: و هو يحدث عن فترة الوحي،^٢ نصَّ على أنَّ ذلك بعد فترة الوحي، فهي أَوَّلِيَّة مقبَّدة لا مطلقة.

و كذلك قوله ﷺ «فإذا الملك الَّذي جاءني بجِراء» الخ، يدلُّ على أنَّ هذه القصَّة متأخِّرة عن قصَّة جِراء الَّتِي نزل فيها: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

على أنَّنا نلاحظ أنَّ جابراً استنبط ذلك باجتهاده على حسب علمه من روايته،

ولذلك لما روجع، لم يجد بدءاً من ذكر ماسمعه، ولم يقطع برأي، ثم لما تبين له الأمر، وأن ذلك كان بعد فتره الوحي، ذكر ذلك صراحة كما في طريق الزُّهريّ، بخلاف حديث عائشة، فالمتيقن أنّه من روايتها لا من اجتهداها.

و من الأجوبة التي أُجيب بها:

١- أن أول سورة المدثر مقيد بما نزل متعلقاً بالإنذار، ولذلك دعا النبيّ بعدها إلى الله، بخلاف صدر سورة العلق، فهو مطلق غير مقيد بشيء خاص.

٢- أن سورة المدثر أول سورة نزلت بكما لها قبل نزول تمام سورة (إفراً)، فإنها أول مانزل منها صدرها.

أقول: هذا الجواب غير مسلم، فقد ذكرت آنفاً رواية الصحيحين عن جابر، وفيها فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ - إِلَى - وَالرُّجْزَ فَاهْجُزْ﴾.

فكيف يدّعي مدّح، أو يقول قائل: إنّ المدثر أول سوره نزلت بتمامها؟ فالحق أنّه لا يصلح أن يكون جواباً.

و لذلك لما تعرّض الحافظ ابن حجر في «الفتح» للتوفيق بين الحديثين: حديث عائشة وحديث جابر، لم يذكر هذا الوجه^١، وإنّما ذكره صاحب الإتيان.

القول الثالث - إنّ أول ما نزل سورة الفاتحة، وقد عزا هذا القول الزمخشريّ في «كشافه» إلى أكثر المفسرين، وردّ عليه الحافظ ابن حجر بأنّ هذا القول لم يقل به إلا عدد أقل من القليل، وإلى هذا الرأي مال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في تفسير سورة الفاتحة. وقد استدللّ الذاهبون إليه بما رواه البيهقيّ في «دلائل النبوة» والواحيّ بسنده عن أبي ميسرة - عمرو بن شُرحبيل... [و ذكر كما تقدّم عن أبي الفتوح والقرطبيّ، ثم قال:] ويجاب عن هذا القول بأنّه حديث مرسل وإن كان رجاله ثقات، فلا يعارض حديث عائشة المرفوع، فالراجح هو الأوّل.

أقول: وليس فيه التنصيص على أنّ الفاتحة أول ما نزلت، فيجوز - على فرض صحّة

هذا المرسل - أن تكون من أوائل ما نزل، و إلى هذا ذهب البَيْهَقِيُّ؛ قال و إن كان - أي المرسل - محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد ما نزلت عليه: **إِقْرَأْ وَالْمَدَّثُ ١**. والظاهر أنَّ الفاتحة من أوائل السور نزولاً كما يفهم ذلك من صنيع المرتبين للسور على حسب نزولها.

القول الرابع - إنَّ أول ما نزل هو قوله تعالى: **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** ... [ثم ذكر رواية الواحدي عن عكرمة والحسن، ورواية ابن جرير عن ابن عباس، كما تقدّم عنهما الرقم ١، فقال:].

وقد أجاب السيوطي عن هذا القول، فقال: و عندي أنَّ هذا لا يُعدُّ قولاً برأسه، فإنَّ من ضرورة نزول السورة نزول التسمية معها، فهي أول آية نزلت على الإطلاق ٢. أقول: وهذا الجواب غير مسلم، فالأحاديث الصحيحة في بدء الوحي كحديث عائشة وغيره لم تذكر قطَّ نزول التسمية مع صدرها، والظاهر أنَّها نزلت بعد نزول تمام السورة. وقد ذكر ابن عطية في مقدّمة تفسيره: - عند حكاية هذا القول - أنَّ في بعض طرق حديث خديجة، و حملها رسول الله ﷺ إلى وَرَقَةَ بن نَوْفَل أنَّ جبريل قال للنبي ﷺ: قل: **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾**، فقالها، فقال: (إِقْرَأْ)، قال: «ما أنا بقارئ» ٣. فإذا ثبت هذا يكون مؤيِّداً لما أجاب به السيوطي.

نعم، هذه الآثار و الأحاديث لا تنهض لمعارضة حديث عائشة المرفوع الذي اتفق عليه صاحبها الصحيحين، فهو في أعلى درجات الصحة.

إزالة إشكال: لكن يشكل على الوجه الذي رجّحنا مارواه الشيخان عن عائشة، قالت إنَّ أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة و النار، حتّى إذا ثاب الإسلام نزل الحلال والحرام. لأنّه ليس في صدر سورة (إِقْرَأْ) ذكر الجنة و النار، بل ولا في السورة كلّها.

والجواب: أنَّ «من» مقدّرة في الكلام، أي من أول ما نزل، و مرادها رضي الله عنها

١ - الإتيان ٢٤: ١.

٢ - الإتيان ٢٤: ١.

٣ - مقدّمات في علوم القرآن: ٢٨٩.

سورة المدثر، فإنها أول ما نزل بعد فترة الوحي وفي آخرها ذكر الجنة والنار، فلعل آخرها نزل قبل نزول بقية (إقرأ)، وبهذا يزول هذا الإشكال.

آخر ما نزل من القرآن

ليس في هذا الموضوع أحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ، وإنما هي آثار مروية عن بعض الصحابة والتابعين، استنتجوها مما شاهدوه من نزول الوحي وملابس الأحوال، وقد يسمع أحدهم ما لا يسمعه الآخر، ويرى [أحدهم] ما لا يرى الآخر، فمن ثم كثرت الاختلاف بين السلف والعلماء في آخر ما نزل، وتعددت الأقوال وتشعبت الآراء، وإليك تفصيل القول في هذا.

القول الأول - إن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى في آخر سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^١. والدليل على ذلك:

١- روى النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس، قال: آخر ما نزل من القرآن ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾.

٢- وروى ابن مردويه بسنده عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾.

٣- وأخرج ابن جرير عن طريق عطية، عن أبي سعيد، قال: آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾.

٤- وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن جبير... [وذكر كما تقدم عن السيوطي، ثم قال:].

٥- وذكر البغوي في تفسيره عند هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: هذه آخر آية... [وذكر كما تقدم عن الطبرسي، ثم حكى قول الألوسي كم تقدم عنه، فقال:]

وهذا الرأي هو أرجح الآراء والأقوال، وهو الذي تركز إليه النفس بعد النظر في هذه

الأحاديث أو الآثار، وذلك لما يأتي:

أ- لم يحط قول من الأقوال التي سنذكرها بجملة من الآثار وأقوال أئمة التفسير مثل ما حظي به هذا القول.

ب - ما تشير إليه هذه الآية في ثناياها من التذكير باليوم الآخر، والرجوع إلى الله ليوفى كلاً جزءاً عمله، وهو أنسب بالختم.

ج - ما ظفر به هذا القول من تحديد الوقت بين نزولها، وبين وفاة النبي ﷺ، ولم يظفر قول غيره بمثل هذا التحديد، ولا يضّر الاختلاف في تحديد المدة، فالروايات حددت المدة بينها قدر مشترك، وهو بيان قرب نزول هذه الآية من وفاة النبي ﷺ.

القول الثاني - إن آخر ما نزل هو قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^١.

ويدل لذلك ما أخرجه البخاري عن ابن عباس، قال: و آخر آية نزلت آية الربا، وأخرج البيهقي عن عمر مثله، والمراد بآية الربا الآية التي ذكرناها والحق هو الأول. ويجب عن هذا القول: إما بأنها آخر آية نزلت في شأن الربا، وإما بأن المراد أنها من أواخر الآيات نزولاً.

و يؤيد هذا الجواب الأخير، وأنها ليست آخر آية على الإطلاق، ما رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن عمر نفسه، قال: من آخر ما نزل آية الربا، وما ذكره ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري، قال: خطبنا عمر، فقال: إن من آخر القرآن نزولاً آية الربا. والظاهر أن هذا هو مراد ابن عباس أيضاً في روايته، وهذا التعبير له نظائر في اللغة العربية.

و يرى بعض العلماء^٢ أن المراد بقول ابن عباس «آية الربا» أي الآية التي ختمت بها آيات الربا، وهي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾ وهكذا تكون رواية البخاري مؤيدة لما ذكرناه عن ابن عباس في القول الأول.

القول الثالث - إن آخر آية نزلت آية الدين، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا

تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى آجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ...» الآية^١، وهي أطول آية في القرآن أخرج أبو عبيد في كتاب «فضائل القرآن» عن ابن شهاب الزُّهري، قال: آخر القرآن عهداً بالعرش آية الرُّبَا، وآية الدِّين. وأخرج ابن جرير من طريق ابن شهاب عن سعيد بن المسيَّب أنه بلغه أن آخر القرآن عهداً بالعرش آية الدِّين، مرسل صحيح الإسناد.

و يجاب عن هذا القول: بأن هذه الآية آخر ما نزل في باب «المعاملات»، فهي أخريّة مقيدة، لا مطلقة كالآية الأولى... [ثم ذكر جمع السيوطي بين هذه الأقوال، كما تقدّم عنه، فقال:] ومقتضى هذا الجمع من الإمام السيوطي: أن آية الدِّين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق.

ولكّني أقول: إن في النفس من هذا التوفيق شيئاً، وما ذكره غير مسلم له، فقد سمعت أنفاً قول الفاروق عمر في أن آية الرُّبَا من أواخر الآيات لا آخرها واستدلال السيوطي بأن الآيات الثلاث في قصّة واحدة غير مسلم، فالآية الأولى في ترك ما بقي من الرُّبَا عند المدينين بعد نزول آية التَّحريم، والثانية في التذكير باليوم الآخر وما فيه من جزاء، والثالثة في أحكام تتعلق بالدِّين، فكيف يقال إذا: إنها في قصّة واحدة؟.

ومّا يضعف هذا الطّريق في الجمع أيضاً أن آية الرُّبَا نزلت^٢ لما أسلمت ثقيف، وأرادوا أن يستمروا على رباهم، فاشتكى بنو المغيرة - وكانوا مدينين لهم - إلى عامل رسول الله ﷺ، فأنزل الله الآية أمرة لهم أن يتركوا ما بقي لهم من رباهم قبل التَّحريم، وإلاّ فلبأذنوا بحرب من الله ورسوله، وثقيف إنّما كان إسلامهم في رمضان في السنة التاسعة، والظاهر أن هذه القصّة كانت بعد إسلامهم، وأين زمن إسلامهم من زمن اختتام القرآن قبيل وفاة الرسول؟ [ثم ذكر طريق الجمع بين القول بآية الرُّبَا وآية (وَاتَّقُوا يَوْمًا...) عن ابن حجر، كما تقدّم عنه، فقال:]

و بعد هذا التّحقيق يتبيّن لنا أن الصّحيح أن آخر ما نزل على الإطلاق هي آية ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾ لما حفّ بها من دلائل وقرائن.

١ - البقرة / ٢٨٢.

٢ - أسباب النزول للسيوطي على هامش تفسير الجلالين ١: ٦٩.

القول الرابع - إن آخر ما نزل هو قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ...﴾^١.

و يدل على هذا ما رواه البخاري ومسلم عن البراء بن عازب أنه آخر سورة نزلت: (براءة) و آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ...﴾.

و يجاب عن هذا: بأن سورة براءة آخر ما نزل في شأن القتال والجهاد، أو أن في الكلام تقديرًا، أي من أواخر السور نزولاً سورة براءة، وأن آية الكلاله آخر ما نزل في شأن الموارث، وقد سمعت أنفاً قول الحافظ ابن حجر في هذا.

القول الخامس - إن آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾^٢.

واستدل صاحب هذا القول بما رواه البخاري وغيره عن ابن عباس، قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ هي آخر ما نزل، ومانسوخا شيء^٣. و يجاب عن هذا القول: بأنها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمدًا، فهي آخرة مقيدة، و يؤيد هذا قوله في الحديث: و ما نسخها شيء، فهو يدل على نزول شيء بعدها، ولكن ليس بناسخ لها، وقوله في حديث النضر عند مسلم عن ابن عباس، قال: إنها لمن آخر ما أنزلت^٤، و في الحديث الذي رواه الإمام أحمد النسائي عنه: لقد نزلت في آخر ما نزل، مانسوخا شيء^٥.

القول السادس - إن آخر ما نزل قوله تعالى في خاتمة سورة براءة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾^٦.

والدليل على ذلك ما رواه الحاكم في «المستدرک» عن أبي بن كعب، قال: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ إلى آخر السورة. وروى ابن مردويه عن أبي أيضًا، قال: آخر القرآن عهدًا بالله هاتان الآيتان: ﴿لَقَدْ

١ - النساء / ١٧٦، والمراد بالكلاله من لا ولد له أولم يرثه والد وولاولد.

٢ - النساء / ٩٢. ٣ - صحيح البخاري (كتاب التفسير).

٤ - صحيح مسلم بشرح النووي ١٨: ١٥٨. ٥ - الإتيقان ١: ٢٨.

٦ - التوبة / ١٢٨.

جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ... الآية^١.

ويجاء عنه: بأنهما آخر مانزل من سورة براءة، أو أنه أخبر بذلك بحسب ظنه واجتهاده. القول السابع - إن آخر مانزل سورة المائدة، واستند صاحب هذا القول إلى ما رواه الترمذي والحاكم عن عائشة، قالت: آخر سورة نزلت المائدة، فما وجدت فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدت من حرام فحرّموه.

ويجاء عن هذا القول: بأنها آخر سورة نزلت في الحلال والحرام، ولم ينسخ فيها شيء، ويشير إلى هذا آخر الحديث.

القول الثامن - إن آخر سورة نزلت هي: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...﴾ روى هذا مسلم في صحيحه عن ابن عباس، ورواه النسائي أيضاً عنه ويجاء عن هذا القول بأنها آخر سورة نزلت بتمامها في حجة الوداع فلا ينافي نزول آية أو آيات بعدها.

أو أنها آخر ما نزل مشعراً بوفاة النبي صلوات الله وسلامه عليه، ويؤيد هذا ما رواه البخاري عن ابن عباس حين سأله عمر بمحضر من الصحابة عنها، فقال: أجل، أو مثل ضرب لمحمد ﷺ نعت إليه نفسه^٢ وفي رواية أخرى للبخاري عن ابن عباس هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه^٣. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول.

وروى أبو يعلى عن ابن عمر: أن هذه السورة نزلت في حجة الوداع، في أوسط أيام التشريق، فعرف رسول الله ﷺ أنه الوداع. هذا وقد أوصل السيوطي في «الإتقان» الأقوال إلى عشر.

وقد عرفت أن القول الأول هو الصحيح الراجح، وعرفت الإجابة عما ورد مخالفاً له، وأن المراد أواخر مقيدة لا مطلقة، وهذه الطريقة في التوفيق بين النصوص المتعارضة في هذا الباب هي أعدل الطرق، وهو المنهج الذي سلكه المحققون من العلماء... [ثم حكى

١ - التوبة / ١٢٨.

٢ - بضم النون وكسر العين وفتح الياء وسكون التاء مبنياً للمجهول، من كلام ابن عباس، وقد وهم بعض الرواة فزعم أن النبي قال لجبريل لما نزل بها عليه «نُتِيتَ إلي نفسي» (بفتح النون والعين وسكون الياء وفتح التاء خطاباً لجبريل) فتح الباري ٥٩٨: ٨.

٣ - صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ).

قول الباقلياني، كما تقدّم عن الزركشي، فقال: [

ويحتمل أيضاً: أن تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك، فيظن أنها آخر ما نزل في الترتيب. و مردّ هذا التوفيق بين الأقوال إلى غلبة الظنّ والاجتهاد من القائل بناء على ما سمعه أو شاهده من قرائن، وقد لا يوافق الظنّ والاجتهاد والواقع ونفس الأمر، وقد تركنا صاحب هذا الرأي بين جملة من الاحتمالات من غير أن يقطع برأي. ويقرب من هذا الرأي في التوفيق ما ذهب إليه البتيهي أيضاً؛ حيث قال: يجمع بين هذه الاختلافات - إن صحّت - بأن كلّ واحد أجاب بما عنده.

التنبيه إلى خطأ مشهور

من الأخطاء المشهورة على ألسنة العامة وبعض الخاصة^١ ما يزعمونه من أن قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^٢ هي آخر ما نزل من القرآن، فإنّها تدلّ على إكمال الدّين في ذلك اليوم المشهود الذي نزلت فيه، وهو يوم عرفة في حجة الوداع، وكان يوم جمعة، ففهموا منه أن إكمال الدّين لا يكون إلّا بإكمال نزول القرآن الكريم.

والحقّ أن هذا الزّعم غير صحيح، ولم يقل أحد قطّ من العلماء: إنّها آخر ما نزل من القرآن، والإمام السيوطي، وهو الباقعة الذي لا يخفي عليه قول، سرد الأقوال في آخر ما نزل، ولم ينقل عن أحد مثل هذا القول، بل تبّه على خطئه وزيفه^٣.

وقد رأيت في الآثار السابقة التي ذكرناها أنّها آية الرّبا وآية الكلاله من أواخر القرآن نزولاً، بل آية ﴿وَتَقَوُّوا يَوْمًا...﴾ نزلت بعد: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ بأكثر من شهرين، فقد حدّدت رواية ابن أبي حاتم أن نزولها كان قبل وفاة النّبي ﷺ بتسعة ليال، ممّا يجعلنا نقطع بأنّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ ليس آخر القرآن نزولاً، وأنّ هذا

١ - وقع في هذا الخطأ بعض المؤلّفين في تاريخ التشريع الإسلامي كالأستاذ الشّيخ الخضرّي رحمه الله. و تابعه بعض المؤلّفين في كليات الشريعة والحقوق.

٢ - المائدة ٣.

٣ - الإتيان ١: ٢٦-٢٨.

الرّاعم لانصيب له من الصّحة.

بم يفسّر الإكمال في الآية؟

وقد يقول لي قائل: وإذا كان الأمر كما ذكرت، فبم تفسّر إذا إكمال الدّين وإتمام النّعمة؟ والجواب: أنّ للعلماء المفسّرين في فهم الآية رأيين؛
الأوّل - أنّ المراد بإكمال الدّين يومئذ هو إيجابه وإقراره وإظهاره على الدّين كلّ، ولو كره الكافرون بفتح مكّة، وإتمام حجّهم الأكبر.

ولا شك أنّ الإسلام في حجة الوداع كان قد ظهرت شوكته، وعلت كلمته، وأذلّ الشّرك وأهله، وأجلى المشركون عن البلد الحرام، وانفرد المسلمون بالحجّ والطّواف بالبيت، لم يشاركهم فيهما مشرك، فأيّ كمال بعد هذا؟ وأيّ نعمته بعد تلك النّعمة؟ وإلى هذا الرّأي ذهب العلّامة ابن جرير الطّبريّ في تفسيره؛ حيث قال... [وذكر كما تقدّم عن السيوطيّ ثم قال:]

وهذا الرّأي في تفسير الآية لا ينفي نزول آيات بعدها في الحلال والحرام والوعظ والتذكير.

الثّاني - أنّ المراد بإكمال الدّين إكمال الأحكام والحلال والحرام، فلم ينزل بعدها شيء من الفرائض والتّحليل والتّحريم، روي هذا عن السّديّ وجماعة.
وعلى هذا الرّأي فلا مانع من نزول آيات بعدها ليست منشئة لأحكام جديدة، بل مقرّرة لما سبق من الأحكام كآية الرّبا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^١.

وذلك عند من يرى أنّها آخر آية نزلت من القرآن^٢ فإنّها ليست منشئة لتحريم الرّبا؛ إذ التّحريم مستفاد قبل ذلك من آية آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^٣ وآية البقرة التي هي قبل: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا

٢ - أمّا عند المحقّقين فليست آخر آية كما قدّمنا.

١ - البقرة / ٢٧٨.

٣ - آل عمران / ١٣٠.

لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَنِيُّ مِثْلُ الرَّبِّوَا
وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَنِيَّ وَحَرَّمَ الرِّبَا^١، وإنما جاءت هذه مقررة ومؤكدة للحرمة.
وكآيات التذكير بالآخرة والوعظ والترغيب والترهيب، وذلك مثل قوله: ﴿وَاتَّقُوا
يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾ فإنها للتذكير باليوم الآخر والترغيب والترهيب.
ومن ثم يتبين لنا أنَّ الآية كيفما فهمناها وحملناها لا تدلُّ على أنها آخر القرآن
نزولاً، وهو ما قاله ثقات المفسرين، وأجمع عليه علماء علوم القرآن.

أمثلة لأوائل وأواخر مقيّدة

هذا الذي قدّمناه في البحثين السابقين إنما أريد به الأوائل والأواخر المطلقة، وإن
كان التحقيق العلمي دعانا إلى تنزيل بعضها على أنها أوائل وأواخر مقيّدة. وكما بحث
العلماء في النوع الأول، بحثوا في الأوائل والأواخر المقيّدة بمحرّم خاص أو بموضوع
خاص، وقد ذكروا لذلك أمثلة كثيرة منها.

١- فمن ذلك الآيات التي نزلت في الخمر؛ فأوّل آية نزلت فيها هي قوله تعالى:
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا^٢﴾.
وآخر ما نزل في التحريم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ
وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى - فَهَلْ
أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ^٣﴾. فحرّمت الخمر تحريماً باتاً، وأراق الناس ما عندهم حتّى سالت طرق المدينة.
٢- الجهاد: قيل أوّل ما نزل فيه قوله تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ...﴾^٤ روى هذا، الحاكم
في «المستدرک» عن ابن عباس.

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية، قال: أوّل ما نزل في القتال بالمدينة: ﴿وَكَاتِلُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ^٥﴾.
وقيل: إن أوّل ما نزل في القتال قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ

٢- البقرة / ٢١٩.

١- البقرة / ٢٧٥.

٤- الحج / ٤١، ٣٩.

٣- المائدة / ٩١، ٩٠.

٥- البقرة / ١٩٠.

وَأَمْوَالُهُمْ بِأَن لَّهُمُ الْجَنَّةَ - إلى قوله - هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^١.

والذي تركن إليه النفس هو الأول، إذ فيه التصريح بمبررات الجهاد وبيان حكمته في الإسلام، وأن الغرض منه رد الظلم الواقع عليهم من المشركين ودفعه، وتأمين العقيدة حقاً تجد سبيلها إلى القلوب، وتأمين أهلها ومعتنقيها، وتأمين الدعوة إلى الله حتى لا يطفئ الباطل على الحق، والكفر على الإيمان، والشر على الخير، وذكر المبررات والحكم هو الأليق ببدء التشريع.

أما الآية الثانية فقد ذكر أنها نزلت عام عمرة القضاء^٢، لما خاف المسلمون أن يباغتهم المشركون، فأنزل الله الآية مبيّنة لهم حلّ الدفاع عن النفس، والقتال في هذا الوطن، وتشريع الجهاد كان في السنة الثانية، وبينهما بضع سنوات.

وأما الآية الثالثة فيبعد كونها أول آية؛ لأن سورة براءة من أواخر القرآن نزولاً كما رواه البخاري عن البراء بن عازب، وهي إلى التّرجيب في الجهاد أقرب منها إلى بدء التشريع، وآخر آية نزلت في شأن الجهاد قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^٣...

[ثم ذكر أول ما نزل في القتل والأطعمة (رقم ٣ و ٤) كما تقدّم عن السيوطي، فقال:]
٥- روي عن مجاهد أنه قال: أول ما نزل من سورة التوبة: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ...﴾ الآيات^٤.

وعن مسروق، عن أبي الضحى: إن أول ما نزل من براءة: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ...﴾^٥ الآية، ثم أنزل الله أولها - أي السورة^٦ - ثم أنزل آخرها. والآيات الأولى نزلت بعد حنين، وأما الآية الثانية فالظاهر أنها نزلت في تبوك

١ - التوبة / ١١١.

٢ - أسباب النزول للسيوطي على هامش الجلالين ٤٥٠: ١ ط: الحلبي.

٣ - التوبة / ٣٦. ٤ - التوبة / ٢٥.

٥ - التوبة / ٤١.

٦ - وذلك في السنة التاسعة، فقد أرسل بصرها علياً كرم الله وجهه ليقراها على الناس.

وَحُنَيْنٍ مُتَقَدِّمَةً عَلَى تَبُوكَ، فَالرَّاجِعُ هُوَ الْأَوَّلُ.

و آخر ما نزل من التوبة هو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾^١ الآيات، وقد ورد أنهما آخر ما نزل من القرآن، وأولنا ذلك بأنها آخر ما نزل من (براءة).
٦- أول سورة نزلت بمكة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، أي صدرها إلى ﴿مَالَمْ يَغْلَمْ﴾ و آخر سورة نزلت بها المؤمنون، و يقال: العنكبوت.

و أول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة، وقد ذكر الحافظ ابن حَجَرٍ في الفتح الاتفاق على ذلك، لكن في دعوى الاتفاق نظر، فقد نقل الواحدي عن علي بن الحسين: أن أول سورة نزلت بالمدينة: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. و آخر سورة نزلت: بَرَاءَةٌ.

وقيل: سورة المائدة، وقيل: سورة النّصر. أقول: والظاهر أن آخر سورة نزلت بالمدينة بتمامها هي سورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...﴾، فقد روي أنها نزلت في حجة الوداع في أوسط أيام التشريق على النبي ﷺ، أما (براءة) والمائدة فهما من أواخر السور نزولاً. (ص: ١٠٩-١٣١)

الفصل الحادي والأربعون

نص الدكتور حُجّتي (معاصرٌ) في مختصر «تاريخ القرآن الكريم»

أول ما نزل من القرآن

اختلف المفسرون والمحققون وكذا المحدثون في أول ما نزل من القرآن على رسول الله ﷺ، وينقل السيوطي في ذلك أربعة أقول:.... [وذكر كما تقدّم عنه، ثم قال:] والقول الأول أقرب إلى الحقيقة؛ لأنّ المدّثر نزلت بعد العلق، وبعد فترة انقطاع الوحي عن النبي ﷺ ويمكن اعتبارها أول سورة نزلت بعد تلك الفترة، وهذا الرأي موضع اتفاق أكثر العلماء^١.

وروي عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام ما يؤيد أنّ العلق أول ما نزل من القرآن، وسورة الفتح آخر ما نزل منه^٢.

أمّا سورة الحمد فقد تجلّت في قلب الرّسول بصورة رؤيا صادقة لا بصورة الوحي، وهذه الرؤيا ترتبط بزمان سابق على البعثة ونزول الوحي^٣ هذه السّورة - إذن - ليست أول ما نزل على النبي ﷺ بالمعنى الاصطلاحي لنزول القرآن.

أمّا بالنسبة للبسملة فهي آية تتصدّر كلّ السّور عدا سورة التّوبة، ولذلك لا تتنافى أوّليتها مع أوليّة سورة العلق.

١ - راجع الإنقاذ ١: ٤٢-٣٩، الفهرست لابن النديم: ٣٧، مجمع البيان ١٠: ٥١٤، جلاء الأذهان ١٠: ٤٠٣، جامع البيان

٢٩: ١٤٤، الثّبيان للشيخ الطّوسي ١٠: ٣٧٨، مقدّمات: ٨.

٣ - دارالسلام: ٣٠٩، بشأن حقيقة الرؤيا الصادقة والكاذبة.

٢ - سفينة البحار ١٣: ٤.

آخر ما نزل من القرآن

نستعرض هنا آراء العلماء والمحدثين بشأن آخر ما نزل من القرآن. [ثم ذكر آيات مختلفة حول هذا القول، وقد تقدّم ترتيبها عن الشُّيُوطِي، فقال:]

هذه هي الآيات التي يدور البحث عنها حول آخر ما نزل من القرآن، والعلماء تجاهها بين معترض ومؤيد^١ غير أننا لا نرى بين هذه البحوث ذكرًا للآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي...﴾^٢. مع أن هذه الآية نزلت في عرفة عام حجة الوداع، ويبدو من ظاهر الآية أن جميع الفرائض والأحكام كانت قد بلغت مرحلة الكمال قبل نزول هذه الآية، من هنا يمكن أن نعتبر هذه الآية - على الظاهر - آخر ما نزل من القرآن. ومن أجل الجمع بين ظاهر هذه الآية - الدال على أنها آخر ما نزل على النبي ﷺ من القرآن، وبين ما قيل بشأن آية الرِّبَا وآية الكلاله وغيرها من أنها آخر ما نزل من القرآن - ذكر المحققون أقوالاً مختلفة؛

أولاً - هذه الآية تؤكد إكمال الفرائض والحدود والحلال والحرام، لذلك لم تنزل بعد هذه الآية آية ناسخ تزيد شيئاً في الأحكام النازلة أو تنقص منها شيئاً. ويؤيد ذلك ما قاله ابن عباس والسُّدِّيُّ والجُبَّائِيُّ من أنه لم ينزل على النبي ﷺ شيء من الفرائض في تحليل ولا تحريم بعد هذه الآية^٣ ولذا يمكن اعتبارها إيذاناً بانتهاء النسخ في القرآن، وهذا لا يتنافى مع نزول آيات أخرى بعدها.

ثانياً - إن معنى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ اليوم أكملت لكم حجكم وأفردتكم بالبلد الحرام تحجونه دون المشركين، ولا يخالطكم مشرك^٤.

ثالثاً - المقصود من إكمال الدين انتصار المسلمين على المشركين^٥

رابعاً - معنى إكمال الدين إعلام خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وروي عن طريق أئمة أهل البيت عليهم السلام أن هذه الآية نزلت بعد واقعة غدير خم، حيث أعلن

١ - راجع ٤٤:١-٤٧.

٢ - المائدة / ٣.

٣ - مجمع البيان ٦: ٢٥.

٤ - الإتيان ١: ٤٨، ٤٧.

٥ - مجمع البيان ٦: ٢٥-٢٦.

رسول الله ﷺ لدى عودته من حجة الوداع ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، ثم لم ينزل بعدها فريضة^١.

الرأي المختار: والذي نختاره من بين هذه الآراء بشأن آخر ما نزل من القرآن ما رواه الطبرسي؛ إذ قال في سبب نزول الآية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾...^٢ [وذكر كما تقدّم عنه]. (ص: ٢٨-٣٢)

١ - لمزيد من التفصيل راجع المصدر نفسه.

٢ - البقرة / ٢٨١.

الفصل الثاني والأربعون

نص جمال الدين عياد (معاصر) في «بحوث في تفسير القرآن»

(سورة العلق)

القول بأن البسملة أول ما نزل

يرى البعض أن البسملة أول ما نزل، فلقد أخرج الواحدي بإسناده عن عكرمة والحسن قالا... [وذكر كما تقدّم عن الواحدي، الرقم ١ ثم قال:]
والراجح أن من قالوا بهذا قد تأثروا بوجود البسملة في مطلع العلق وسائر السور ما عدا (براءة)، فظنوا أن مطلع العلق نزلت مسبوقه بالبسملة، وأن البسملة بذلك أول آيات القرآن نزولاً.

والتأثير - كما قدّمنا - أن الوحي حين نزل بمطلع العلق لم يقل لرسول الله: استعذ ثم قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وإنما قال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ دون أن يسبقها باستعاذة أو بسملة.

أضف إلى ذلك أن الآيات لم ترتب في السور بترتيب نزولها، فقد تجد آية متأخرة النزول سابقة لآية متقدمة النزول، أو تجد آية متقدمة النزول لاحقة لآية متأخرة النزول. ومن الجائز أن البسملة نزلت متأخرة^١، ثم أمر عليه السلام بوضعها في مطلع العلق وسائر السور ما عدا (براءة)، شأنه مع ما ينزل من الآيات؛ إذ يقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وهذا هو الرأي الذي نرتضيه.

القول بأن مطالع المدثر أول ما نزل

و يرى البعض أن مطالع المدثر أول ما نزل، ولعلهم يستندون في ذلك إلى فهم خطأ لجابر بن عبد الله؛ إذ سأله أبو سلمة بن عبد الرحمن فيما يرويه الشيخان: أي القرآن أنزل قبل؟ قال... [وذكر كما تقدم عن القُرطبي ثم قال:]

و واضح أن جابر بن عبد الله قد أخطأ في استنباطه من الحديث أن تكون مطالع المدثر أول ما نزل، فتعبير الرسول ﷺ عن الملك بضمير الغائب «فإذا هو» دليل على أن الملك قد سبق نزوله، و سبقت معرفة الرسول له.

أضف إلى ذلك ما جاء في الصحيحين عن نزول المدثر... [و ذكر كما تقدم عن ابن كثير، ثم قال:]

و واضح من هذا الرواية أن مطالع المدثر نزلت بعد فترة الوحي، أي بعد نزول مطالع العلق بفترة لا تقل عن أشهر ستّة، و واضح كذلك أن الرسول ﷺ حين تحدّث عن الملك أشار إلى سبق نزوله بقوله: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء...».

و هذا - فيما نرى - كافٍ لإثبات خطأ ما ذهب إليه جابر بن عبد الله، و لا وجه بعد ذلك لأن نلتمس له الأعذار كما فعل البعض فنقول: إنّه تحدّث عن أول ما نزل بسبب متقدّم، أو عن أول ما نزل بعد فترة الوحي، أو عن أول سورة نزلت كامله، أو عن أول ما نزل خاصّاً بالرسالة.

فليس ثمة ما يفيد أن جابر بن عبد الله سئل عن شيء من ذلك، إنمّا سئل: أي القرآن أنزل قبل؟ فهو سؤال عن أول ما نزل على الإطلاق، و لا يحتمل التأويل إلى واحد من الوجوه التي حاول بها البعض تبرير خطأ جابر.

القول بأن الفاتحة أول ما نزل

و يرى البعض أن الفاتحة أول ما نزل، و حجّتهم في ذلك؛

أولاً - ما أخرجه البيهقي في «الدلائل» و الواحديّ من طريق يونس بن بكير عن يونس بن عمرو، عن أبيه، عن أبي ميثيرة عمرو بن شرحبيل... [و ذكر كما تقدم عن أبي

الْفُتُوحِ وَالْقُرْطَبِيِّ].

ثانيًا - أَنَّ السَّنَةَ الإِلَهِيَّةَ فِي هَذَا الْكَوْنِ أَنْ يَظْهَرَ سُبْحَانَهُ الشَّيْءُ مُجْمَلًا ثُمَّ يَتْبَعُهُ بِالتَّفْصِيلِ، وَالْفَاتِحَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مُجْمَلٍ مَا فِي الْقُرْآنِ، وَكُلٌّ مَا فِيهِ تَفْصِيلٌ لِلْأُصُولِ الَّتِي وَضَعَتْ فِيهَا^١، وَهَذَا مَا يَرَاهُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ.

أَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ وَالْوَاحِدِيُّ فَمَرْدُودٌ لِسَبَبَيْنِ؛

١- إِنَّهُ مَرْسَلٌ^٢ سَقَطَ الصَّحَابِيُّ مِنْ سَفْكٍ، وَالْمَرْسَلُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْمُحَدِّثِينَ نَازِلٌ عَنْ مَرْتَبَةِ الصَّحِيحِ، وَلَا يَحْتَجُّ بِهِ.

٢- إِنَّهُ يَتَعَارَضُ مَعَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْمُتَّصِلِ السَّنَدِ الَّذِي أَفَادَ بِأَسْبَقِيَّةِ نَزُولِ مَطَالِعِ الْعَلْقِ فَمَطَالِعِ الْمَذْثَرِ، وَالَّذِي سَجَّلْنَاهُ فِي آخِرِ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ نَقْلًا عَنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ. أَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّ السَّنَةَ الإِلَهِيَّةَ أَنْ يَسْبِقَ التَّفْصِيلُ إِجْمَالًا، وَأَنَّ الْفَاتِحَةَ إِجْمَالًا فَصَلَهُ الْقُرْآنُ، هَذَا الْقَوْلُ لَا يَسْتَلْزِمُ مَطْلَقًا أَنْ تَكُونَ الْفَاتِحَةُ أَوَّلَ مَا نَزَلَ. فَمِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ نَقُولَ كَمَا قَالَ السَّيِّدُ رَشِيدٌ رَضَا: إِنَّ نَزُولَ مَطَالِعِ الْعَلْقِ قَبْلَ الْفَاتِحَةِ لَا يَنَافِي هَذِهِ السَّنَةَ الإِلَهِيَّةَ؛ لِأَنَّهُ تَمْهِيدٌ لِلْوَحْيِ الْمَجْمَلِ وَالْمَفْصَّلِ عَلَى السَّوَاءِ.

أُضِفَ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ قَدْ أَغْفَلَ تَمَامًا مَا هُوَ ثَابِتٌ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مِنْ أَسْبَقِيَّةِ نَزُولِ مَطَالِعِ الْعَلْقِ، وَلَمْ يَضَعْهُ مَوْضِعَ الْإِعْتِبَارِ عِنْدَ مَا أَدْلَى بِحُجَّتِهِ، مِمَّا يَفْقَدُ هَذِهِ الْحُجَّةَ قِيَمَتَهَا.

ثُمَّ إِنَّ الْفَاتِحَةَ بَعِيدَةً عَنِ الْمُنَاسِبَةِ وَعَنْ خُصَائِصِ السُّورِ الْأُولَى مِنَ الْقُرْآنِ، فَلَيْسَ فِيهَا مَا فِي هَذِهِ السُّورِ مِنْ تَقْرِيرٍ لِبَعَثْتِهِ ﷺ، أَوْ بَيَانٍ لِمَهْمَّتِهِ، أَوْ إِعْدَادٍ لَوُضُوفِهِ، أَوْ إِشَارَةٍ إِلَى تَتَابُعِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي مَطَالِعِ الْعَلْقِ وَمَطَالِعِ الْمَذْثَرِ وَمَطَالِعِ الْمَزْمَلِ، وَهِيَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ بِالتَّرْتِيبِ الْمَذْكُورِ.

وَالْفَاتِحَةُ - فِي رَأْيِنَا - أَنْسَبُ لِمَوَاقِفِ الْعِبَادَةِ مِنْهَا لِلْمَوْقِفِ الَّذِي يَبْعَثُ فِيهِ الَّتِي تَمْهِيدًا لِلرَّسَالَةِ، فَهِيَ ثَنَاءٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِقْرَارٌ بِعِبَادَتِهِ، وَدَعَاءٌ بِالْهَدَايَةِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. يَقُولُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا

سأل، فإذا قال العبد: ﴿أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله: «حمدني عبدي»، فإذا قال: ﴿الْوَحْنُ مِنَ الرَّجِيمِ﴾، قال الله: «أنتني عليّ عبدي»، فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: «مجدني عبدي»، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدني ما سأل، فإذا قال: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ...﴾ الخ، قال: «هذا لعبدني ولعبدني ماسأل» وواضح من الحديث أنّ الآيات الأولى من الفاتحة ثناءً على الله تعالى؛ إذ يقول تعالى لمن يتلوها في صلاته: «حمدني عبدي، أنتني عليّ عبدي، ومجدني عبدي على التّوالي، والآيات التالية إقرار بالعبادة ودعاء الله تعالى.

وكون الفاتحة هكذا ثناء وإقراراً بالعبادة ودعاء، يجعلها أنسب لموقف المتعبّد الذي يشني على الله شاكراً فضله الأعظم. وهذا ما جعلت الفاتحة له، فقد جعلت قراءتها في كلّ صلاة ضرورة لا تصحّ الصّلاة إلّا بها؛ إذ يقول ﷺ: من صلّى صلاة لم يقرأ بفاتحة الكتاب فهي خِداج^١». أي ناقصة. ويقول: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»^٢. وفي الحديث القدسيّ الذي أشرنا إليه آنفاً ما يشير إلى أنّ الفاتحة لبّ الصّلاة، فهو تعالى يقول: «قسّمت الصّلاة بيني وبين عبدي نصفين»، ثمّ يتحدّث عن فاتحة الكتاب.

وهذا الارتباط الوثيق بين الفاتحة ومواقف العبادة يجعل من اللائق عندنا أن ننزل الفاتحة في وقت متأخّر نسبياً، فمن المناسب أن ننزل الفاتحة وأمثالها من آيات الثّناء على الله بعد أن يبدأ النّاس في الإيمان بالدّين الجديد والتّعبّد للرّبّ سبحانه. أمّا أن ننزل في أوّل الوحي ولم يبدأ النّاس في الإيمان بعد، فضلاً عن أن يتعبّدوا لله سبحانه فذلك بعيد. وأنسب منه أن ننزل الآيات التي تجذب النّاس إلى عبادة الرّبّ سبحانه بذكر فضله ونعمه بياناً لجدارته بالعبادة وحده، كهذه الآيات الأولى من سورة العلق.

أضف إلى ذلك ما ذكره الدكتور التّويهي^٣ من أنّ صيغه المتكلّم الجمع في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^٤ وفي قوله: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^٥، تفيد أنّ

٢ - صحيح البخاري ١: ١٥٢.

١ - الإتيان في علوم القرآن ١: ٢٤.

٣ - من محاضراته بالجامعة الأمر بكيّة بالقاهرة في الفصل الدّراسيّ الثاني سنة ١٩٦٠، أذن بالإشارة إليه.

٥ - الفاتحة ٥/.

٤ - الفاتحة ٥/.

الفاتحة نزلت في وقت كان الإسلام فيه قد عرف طريقه إلى قلوب جماعة تقول: نعبد، ونستعين، واهدنا، بصيغة الجمع، ولم يكن ذلك إلا في وقت متأخر نسبياً.

أقوال أخرى يعوزها الدليل

وإلى جانب هذه الأقوال بأن البَسْمَلَةَ أو المَدَّثَر أو الفاتحة أول ما نزل توجد أقوال أخرى يعوزها الدليل، من ذلك قولهم: إن قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾^١ هو أول ما نزل^٢ وهو قول يعوزه الدليل كما أشرنا، إذ لا يرويه صاحبه عن رسول الله ﷺ، ولا يعدو أن يكون ظناً لا يقوم على أساس.

مطالع العلق أول ما نزل

وهذا هو الرَّاجح عندنا من غير شك، وحجَّتنا في ذلك؛
أولاً - ما هو ثابت في الحديث الصحيح الذي سجلناه في آخر الفصل الأول نقلاً عن صحيح البخاريّ ومُسلم من أن أول ما نزل مطالع العلق فمطالع المَدَّثَر.
ثانياً - ما أثبتناه - فيما قدّمناه - من فساد الحجج التي استند إليها القائلون بغير هذا.
ثالثاً - إن سورة العلق أنسب للموقف وأصلح للمناسبة، فمن المناسب أن تكون أول آيات القرآن نزولاً إيذاناً ببعثته ﷺ، وتتابع الوحي عليه بالقرآن. وهذا ما تشير إليه سورة العلق، فقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ كما سنبيّن بعد إيذان ببعثته ﷺ، وإشارة إلى أن الوحي سوف يتابع عليه بما يقرأه باسم ربّه. (ص ٢٣ - ٢٩)

الفصل الثالث والأربعون

نص السُّبْحَانِي (معاصر) في «مجلة رسالة القرآن»

[أَوَّل و آخر منازل]

أَوَّل ما نزل على رسول الله ﷺ ذكر أكثر المفسرين: أَنَّ أَوَّل سورة نزلت على رسول الله هي سورة العلق، وتدلّ عليه روايات أئمة أهل البيت؛ روى الكليني عن الصادق عليه السلام قال: «أَوَّل ما نزل على رسول الله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...» و آخر سورة هو قوله: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)^١ ومثله عن الإمام الرضا عليه السلام. ولعلّ المراد نزول آيات خمس من أولها لا جميع السّورة؛ لأنّ قوله سبحانه في نفس تلك السّورة ﴿وَأَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى...﴾^٢ إلخ، لا يناسب أن تكون أَوَّل ما نزل، بل هو حاكٍ عن وجود تشريع للصلاة، ووجود من يقيمها حتّى واجه نهى بعض المشركين، وهذا لا يتفق مع كونه أَوَّل ما نزل.

أساطير وخرافات

دلّت الأدلّة العقلية والآيات القرآنية على أنّ الأنبياء مصنونون عن الخطأ والاشتباه في تلقّي الوحي أَوَّلًا، وضبطه ثانيًا، وإبلاغه ثالثًا، وإنهم لا يشكّون فيما يلقي في روعهم من أنّه نداء ربّ العالمين، وأنّ ما يعاينونه رسول إله العالمين. والكلام كلامه، لا يشكّون في ذلك طرفة عين ولا يتردّدون، بل يتلقّونها بنفس مطمئنّة. هذا هو القرآن الكريم يذكر كيفية بدء نزول الوحي إلى موسى، وأنّه تلقّاه بلا تردّد

ولا تريث، بذكره في سور مختلفة؛ يقول: ﴿فَلَمَّا آتِيَهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى * وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ...﴾^١.

تري أن الكليم عندما فوجئ، بنزول الوحي تلقاه بصدر رحب، ولم يتردد في أنه وحيه سبحانه وأمره، ولذلك سأله سبحانه أن يشرح له صدره، ويسر له أمره، ويحلّ العقدة التي في لسانه، ويجعل له وزيراً من أهله، يشدّ به أزره، ويشركه في أمره.

يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^٢ وجاءت هذه القصة في سورة القصص على وفق ما وردت في السورتين^٣، ومن لاحظ هذه الآيات يقف على أن موقف الأنبياء من الوحي هو موقف الإنسان المتيقن المطمئن إليه، وهذه خاصة تعمّ جميع الأنبياء ﷺ نرى أنه سبحانه يذكر رؤية النبي الأكرم، ومواجهته لمعلمه الذي وصفه القرآن بـ (شَهِيدُ الْقُوَى)؛ يقول: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَخِي يُوحى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى...﴾^٤ فأَيّ كلمة أصرح في توصيف إيمان النبي وإذعانه في مجال الوحي ومواجهته عينه من قوله سبحانه: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ أي صدّق القلب عمل العين، ويحتمل أن يكون المراد مارآه الفؤاد.

قال العلامة الطباطبائي: فالمراد بالفؤاد فؤاد النبي و ضمير الفاعل في ﴿مَا رَأَى﴾ راجع إلى الفؤاد، والرؤيا رؤيته، ولا بدع في نسبة الرؤية - وهي مشاهدة العيان - إلى الفؤاد، فإن للإنسان نوعاً من الإدراك الشهودي وراء الإدراك بإحدى الحواس الظاهرة، والتخيل والتفكير بالقوى الباطنة، كما أننا نشاهد من أنفسنا أننا نرى، وليست هذه المشاهدة العيانية رؤية بالبصر ولا معلوماً بالفكر، وكذا نرى من أنفسنا أننا نسمع ونشم ونذوق ونلمس ونشاهد، وأننا نتخيل ونتفكر، وليست هذه الرؤية ببصر أو بشيء من الحواس الظاهرة أو الباطنة^٥.

٢- النمل / ٨-٩.

١- طه / ١٠-٣٥.

٤- النجم / ٤-١٢.

٣- القصص / ٢٩-٣٥.

٥- الميزان / ١٩: ٣٠.

فالله سبحانه يؤيد صدق النَّبِيِّ فيما يدّعيه من الوحي ورؤية آيات الله الكبرى سواء كانت بالعين أو بالفؤاد.

وعلى كلّ تقدير فهذه الآيات وغيرها تدلّ على أنّ الأنبياء وغيرهم لا يشكّون ولا يتردّدون فيما يواجهون من الأمور الغيبية.

وعلى ضوء ذلك تتقف على أنّ ما ملأ كتب السيرة وبعض التّفسير في مجال بدء الوحي، وأنّه تردّد النَّبِيِّ وشكّ عندما بُشِّرَ بالنبوة وشاهد ملك الوحي، وامتلاً روعاً وخوفاً، إلى حدّ حاول أن يلقي نفسه من شاهق، وعاد إلى البيت فكلم زوجته فيما واجهه، وعادت زوجته تسليّه وتقنعه بأنّه رسول ربّ العالمين، وأنّ ما رآه ليس إلاّ أمراً حقاً.

إذ كلّ ذلك أساطير وخرافات تناقض البراهين العقلية، وما يتلقاه الإنسان من قصص الأنبياء الواردة في القرآن الكريم، وقد دسّها الأخبار والرّهبان وسما سيرة الحديث والقصاصون في كتب القصص والسّير والحديث ونحن نكتفي في المقام بما ذكره البخاريّ في صحيحه وابن هشام في سيرته، فإنّ استقصاء كلّ ما ورد حول هذا الموضوع من الروايات المدسوسة يدفع بنا إلى تأليف رسالة مفردة ولكن فيما ذكرنا غنى وكفاية؛ قال البخاريّ بعد ذكر نزول أمين الوحي عليه في جبل حراء فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «زملوني زملوني» فزملوه حتّى ذهب عنه الرّوع... [وذكر كما تقدّم عنه، الرّقم ١، فقال:]

هذا ما لدى البخاريّ، وأمّا صاحب السيرة النبوية فبعد ما ذكر مسألة الغت ينقل عن النَّبِيِّ أنّه قال: «فخرجت حتّى إذا»... [وذكر كما تقدّم عن ابن كثير، فقال:]

ثمّ يذكر انطلاق خديجة إلى ورقة بن نوفل، وما أجابها به ورقة بنفس النصّ الذي ذكره البخاريّ، ثمّ يذكر لقاء النَّبِيِّ ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة، فسأله ورقة بما رأى وسمع، فأخبره النَّبِيُّ ﷺ فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنّك لنبيّ هذه الأمّة.

ثمّ عقبه بذكر ما قامت به خديجة من امتحان صدق نبوته، فذكر أنّها قالت لرسول الله: أي ابن عم، أستطيع... [وذكر كما تقدّم أيضاً عن الطّبريّ، الرّقم ٣٥.]

وقال الطّبريّ بعد ما ذكر نزول جبرئيل إليه وتعليم آيات من سورة العنق: «ثمّ

دخلتُ على خديجة وقلتُ: زملومي زملوني حتّى ذهب عنيّ الرّوع...» [وذكر كما تقدّم عنه، الرّقم ٩]

نظرة تحليليّة حول هذه النصوص

إنّ هذه النصوص التّاريخيّة الّتي نقلها المشايخ كالبخاريّ وابن هشام والطّبريّ، وتلقّاها الآخرون من بعدهم على أنّها حادثة متسالم عليها تضادّ ما يستشفيه الإنسان من التدبّر في حالات الأنبياء في القرآن الكريم و تناقض البديهة العقليّة، وإليك بيان ما فيها من نقاط الضّعف وعلام الجعل و التّهافت:

١- إنّ النّبوة كما عرفت منصب إلهيّ، لا يفيضه الله إلّا على من امتلك زخماً هائلاً من القدّرات الرّوحيّة، والقوى النّفسيّة العالية، حتّى يقوى على معاينة الوحي ومشاهدة الملائكة. فعندئذ فلا معنى لما ذكره البخاريّ: «لقد خشيت على نفسي» أفيمكن أن ينزل الوحي الإلهيّ على من لا يفرق بين لقاء الملك و لقاء الجنّ و مكالمتهما، حتّى يخشى على نفسه الجنون أو الموت؟.

٢- وأسوأ منه ما ذكره الطّبريّ من أنّه ﷺ هم أن يرمي بنفسه من شاهق من جبل، فندم عليه ورجع عنه حين سمع كلام جبرئيل: يا محمّد أنا جبرئيل.

إنّ هذا الكلام يعرب عن أنّ نفسه ﷺ - لم تكن نفساً مستعدّة لتحمل الوحي على حدّ، هم أن يقتل نفسه بالإلقاء من حالق، و على هذا هو إلّا نفس الجنون الّذي كان المشركون يصفونه به طيلة بعثته، فواعجباً نسمعه من أعوانه وأنصاره و من لسان زوجته.

٣- إنّ قول خديجة لرسول الله ﷺ كلاً والله ما يخزيك الله أبداً. تعرب عن أنّها كانت أوثق إيماناً بنبوته من نفس الرّسول، أفهل يمكن التّوّء بذلك؟ و ما حاجة النّبيّ الأعظم الّذي قال تعالى في حقّه: ﴿وَعَلَّمَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمَ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^١ إلى هذا التّسلي؟ و هل يصحّ و يتعقّل للنّبيّ أن يشكّ في رسالة نفسه حتّى يستفتي زوجته، فيزول شكّه بتصدّقها؟.

٤- ذكر البخاري أنّ خديجة انطلقت مع رسول الله إلى وَرَقَةَ، فأخبره رسول الله بما وقع، فأجاب وَرَقَةَ بما ذكره، وأنّ ما نزل عليه هو التّاموس الذي نزل الله على موسى.
و معنى هذا أن يكون وَرَقَةَ أعلم بالسّرّ المودع في قلب رسول الله من نفسه، كما أنّ معنى ذلك أنّ كلّاً من الزّوجين كانا شاكّين في صحّة الرّسالة، فانطلقا إلى متصرّ، وقرأ وُريقات من العهدين حتّى يستفتياه؛ ليزيل عنهما حجاب الشكّ وغشاوة الرّيب.
٥- إنّ معنى ما ذكره البخاريّ من أنّ وَرَقَةَ أخبر النّبّيّ بأنّه سيخرجك قومك، فتعجب الرّسول من هذا الكلام وقال: أو مخرجي هم؟ كون المرسل إليه أعلم من الرّسول وأفضل منه.

٦- إنّ ما ذكره ابن هشام من أنّ الرّسول كلّما رفع رأسه إلى السّماء لينظر، ما رأى إلّا رجلاً صافّاً قدميه في أقب السّماء، فلا ينظر في ناحية من السّماء إلّا رآه فيها، يشبه كلام النّصّابين في عقولهم وشعورهم والمختلّين في أفكارهم، فلا يرون في كلّ جهة إلّا الصّورة المتخيّلة؛ لطغيانها على مخيلتهم وشعورهم، أعاذنا الله من إكالة الشّنائع بمقام النّبوة بنحو لا يليق بساحة العاديين من النّاس، فضلاً عن النّبّيّ الأكرم خاتم النّبّيين.

٧- انظر إلى امتحان خديجة لبرهان النّبوة، فإنّ ظاهر أنّها كانت شاكّة في نبوة زوجها، لكنّها استحصلت اليقين على الوجه الذي سمعته في كلام ابن هشام والطّبريّ، ولكن أيّ صلة بين رفع الخمار وإلقائه وعدم رؤية جبرئيل؟ وهل لرفع الخمار وتعرية شعر الرّأس تأثير في غياب أمين الوحي عن البيت؟

نرى أنّه سبحانه ينقل في غير سورة من سور القرآن الكريم مكالمة الملائكة زوجة الخليل وتبشيرها بالولد أفهل يمكن لنا أن نقول بعد ذلك: إنّ زوجة الخليل لو كانت مكشوفة الرّأس لا تمتنع الملائكة من دخول بيت الخليل ﷺ.

٨- إنّ وَرَقَةَ بن نوفل على حدّ تصرّيح نصّ الرّواية كان بادئ بدئه نصرانيّاً بعد ما كان مشركاً، فمقتضى الحال أن يشبّه الرّسول الأعظم بالمسيح الذي كان يعتقد بنبوته لا بالكليم. أو ليس هذا يعرب عن لعب يد الأخبار في الخفاء في اصطناع هذه الأحاديث،

ودورهم في تشويش صفاء رسالة الرسول الأعظم بأمثال هذه الأساطير والمهاترات والخُرانات؟.

٩- نحن على ثقة و يقين بأن النبوة منصب إلهي لا يتحمّله إلاّ الأمثل و الأكمل فالأكمل من الناس، و لا يقوم بأعباء مهامّها إلاّ من امتلك قدرة روحية خاصة تبعث في نفسه الإذعان و التسليم و الاتقياد حينما يتمثّل له رسول ربّه و أمين و حيه، فلا تأخذه المسكنة، و لا يستولي عليه الخوف عند سماع كلامه و وحيه، و قد درسنا وضع الكلم عندما فوجيء بالوحي، فما حاق به الرّوع، و لا أحاط به الخوف، و لا همّ بإلقاء نفسه، إلى غير ذلك ممّا ورد في هذه الروايات، و بما أنّ القرآن هو المرجع الفصل في تمييز الصّحيح من الزّائف في جملة هذه الروايات، يحتمّ علينا إعراض الصّفح عنها و ضربها عرض الجدار، مضافاً إلى ما فيها من التناقض و الاختلاف في حكاية القصة، كما هو معلوم لمن تدبّر فيها و تأمل نصّها.

فرية انقطاع الوحي و فتوره

وقفت على ما في الروايات السابقة من الوضع والدسّ بهدف تشويش صفاء صورة رسالة النبي الأكرم، فهلّمّ معي نتناول فرية أخرى حُكيت على المنوال السابق و للغاية نفسها، و هي مسألة انقطاع الوحي بعد نزول آيات من سورة العلق أو سورة المدثر أو سورة الحمد، على اختلاف في أوّل سورة نزلت على رسول الله ﷺ و قد حازت هذه الفرية على نصيب من الاهتمام و التقدير في كتب السيرة و التفسير، حتّى أنّ الدكتور حسين هيكل أرسلها إرسال المسلّمات في كتابته بقوله: انتظر هداية الوحي إيّاه في أمره وإنارة سبيله، فإذا الوحي يفتّر، و إذا جبرئيل لا ينزل عليه. إلى أن قال: و قد روي أنّ خديجة قالت له: ما أرى ربك إلاّ قد قلاك، و تولّاه الخوف و الوجل، فهما يبعثانه من جديد، يطوي الجبال، و ينقطع في جِراء يرتفع بكلّ نفسه ابتغاء وجه ربّه، سأله: لِمَ قلاه بعد أن اصطفاه، و لم تكن خديجة بأقلّ منه إشفاقاً و وجلّاً، و يتمنّى الموت صادقاً، لولا أنّه كان يشعر بما أمر به، فيرجع إلى نفسه ثمّ إلى ربّه، و لقد قيل: إنّهُ فكّرني أن يلقي بنفسه من أعلى جِراء أو أبي قُبَيْس، و أيّ خير في الحياة، و هذا أكبر عمله فيها يذوي و ينقضي،

وَأَنَّهُ كَذَلِكَ تَسَاوَرَهُ هَذِهِ الْمَخَافُ؛ إِذْ نَزَلَ جَاءَهُ الْوَحْيُ بَعْدَ طَوِيلٍ فَتَوَرَّهَ، إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ - إِلَى قَوْلِهِ - وَآتَا بِنِعْمَةٍ رَبُّكَ فَحَدَّثُ﴾^١.

هذا ما يذكره رجل مثقف في القرن العشرين في حق النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ، فَمَا ظَنُّكَ بغيره مِمَّنْ سَبَقَهُ مِنَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِالرَّوَايَاتِ، وَلَا يَحِيدُونَ عَنْ شَاذِهَا وَسَقِيمِهَا قَيْدَ أُنْمُلَةٍ وَقَدَرِ شَعْرَةٍ، وَأَصْلُ هَذِهِ الْفَرِيَةِ يَرْجِعُ إِلَى كِتَابِ السَّيِّرةِ وَالتَّفْسِيرِ وَإِلَيْكَ مَا يَذْكُرُهُ وَاحِدٌ مِنْ أَوْلَئِكَ مِنْ أَمْثَالِ الطَّبْرِيِّ؛ حَيْثُ يَصْرِّحُ فِي تَفْسِيرِهِ بِمَا نَصَّه:

١- عَنْ ابْنِ زَيْدٍ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ تَكْذِيبًا مِنْ اللَّهِ قَرِيشًا فِي قَوْلِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ لَمَّا أَبْطَأَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ: قَدْ وَدَّعَ مُحَمَّدًا رَبَّهُ وَقَلَاهُ.

٢- عَنْ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ: لَمَّا أَبْطَأَ جَبْرِئِيلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِهِ أَوْ مِنْ قَوْمِهِ: وَدَّعَ الشَّيْطَانُ مُحَمَّدًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿وَالضُّحَىٰ - إِلَى - مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

٣- عَنْ جُنْدَبِ الْبَجَلِيِّ: أَبْطَأَ جَبْرِئِيلُ عَلَى النَّبِيِّ، حَتَّى قَالَ الْمَشْرُكُونَ: وَدَّعَ مُحَمَّدًا رَبَّهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَالضُّحَىٰ...﴾ وَعَنْهُ، قَالَتْ امْرَأَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ مَا أَرَى صَاحِبَكَ إِلَّا قَدْ أَبْطَأَ عَنْكَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ: مَا أَرَى شَيْطَانَكَ إِلَّا قَدْ تَرَكَكَ.

٤- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادٍ أَنَّ خَدِيجَةَ قَالَتْ لِلنَّبِيِّ: مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا قَدْ قَلَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَالضُّحَىٰ...﴾.

٥- وَ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ جَبْرِئِيلَ أَبْطَأَ عَلَيْهِ بِالْوَحْيِ، فَقَالَ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ: مَا نَرَى صَاحِبَكَ إِلَّا قَدْ قَلَكَ فَوَدَّعَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

٦- عَنْ الضَّحَّاكِ: مَكَثَ جَبْرِئِيلُ عَنْ مُحَمَّدٍ، فَقَالَ الْمَشْرُكُونَ: قَدْ وَدَّعَهُ رَبَّهُ.

٧- عَنْ ابْنِ عُزْوَةٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَبْطَأَ جَبْرِئِيلُ عَلَى النَّبِيِّ، فَجَزَعَ جَزَعًا شَدِيدًا، وَقَالَتْ خَدِيجَةُ: أَرَى رَبَّكَ قَدْ قَلَكَ، مِمَّا نَرَى مِنْ جَزَعِكَ، قَالَ: فَنَزَلَتْ: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾^٢.

يَلَاحِظُ عَلَى هَذِهِ الرِّوَايَاتِ وَعَلَى فَرِيَةِ فِتْرَةِ انْقِطَاعِ الْوَحْيِ عِدَّةَ أُمُورٍ:

١- إِنَّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ الَّتِي مَلَأَتْ التَّفَاسِيرَ وَكُتِبَ السَّيْرُ رُوِيَتْ عَنْ أَنَاسٍ لَا يَرْكُنُ

إلهم كَقَتَادَةَ وَالصَّحَّاحَ، فَإِنَّهُمَا كَانَا يَأْخِذَانِ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،^١ وَجَلَّهَا بَلْ كُلُّهَا مَرْسَلَةٌ غَيْرُ مُسْنَدَةٍ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ.

٢- إِنَّهَا اخْتَلَفَتْ فِي الْقَائِلِ الَّذِي شَمَتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِهِ: وَدَعَكَ رَبُّكَ، فَرَبَّمَا يَسْنَدُ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِهِ أَوْ قَوْمِهِ، وَأُخْرَى إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَثَالِثَةٌ إِلَى طَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ، وَرَابِعَةٌ إِلَى زَوْجَتِهِ خَدِيجَةَ.

إِنَّ نِسْبَةَ هَذَا الْقَوْلِ إِلَى زَوْجَتِهِ الطَّاهِرَةِ الَّتِي آمَنَتْ بِهِ يَوْمَ بَعَثَتْهُ - وَقَدْ عُرِفَتْ فُضَائِلُهُ وَمَلَكَاتِهِ النَّفْسِيَّةُ عَنْ كَثَبٍ - بَعِيدٌ جَدًّا.

٣- إِنَّهَا اخْتَلَفَتْ فِي مَدَّةِ الْفَتْرَةِ؛ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: احْتَبَسَ عَنْهُ الْوَحْيُ اثْنِي عَشَرَ يَوْمًا، وَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا وَقِيلَ خَمْسَةٌ وَعَشْرِينَ يَوْمًا، وَقَالَ مِقَاتٌ: أَرْبَعِينَ يَوْمًا^٢، وَفِي فَتْحِ الْبَارِيِّ: إِنَّهُ كَانَ ثَلَاثَ سِنِينَ^٣، كَمَا فِي السِّيَرَةِ الْحَلِيبَةِ، وَفِيهَا أَيْضًا: إِنَّهَا كَانَتْ سَنَتَيْنِ وَنِصْفًا، وَعَلَى قَوْلِ سَنَتَيْنِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي تَحْكِي عَنْ اضْطِرَابٍ فِي الرِّوَايَةِ وَالتَّقَلُّبِ.

٤- اخْتَلَفَتْ الرِّوَايَةُ فِي سَبَبِ الْفَتْرَةِ وَانْقِطَاعِ الْوَحْيِ؛

فَتَارَةً: زَعَمُوا أَنَّ سَبَبَهَا هُوَ أَنَّ الْيَهُودَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ مَسَائِلَ ثَلَاثَ: عَنْ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَعَنْ الرُّوحِ، وَعَنْ قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: سَأَخْبِرُكُمْ غَدًا، وَلَمْ يَسْتَنْ، فَاحْتَبَسَ عَنْهُ الْوَحْيُ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: مَا قَالُوا، فَنَزَلَتْ^٤.

وَأُخْرَى: قَالُوا: إِنَّ عُثْمَانَ أَهْدَى إِلَيْهِ عُثْقُودَ عَنَبٍ، وَقِيلَ: عَذْقُ ثَمَرٍ. فَجَاءَ سَائِلٌ فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ اشْتَرَاهُ عُثْمَانُ بِدَرَاهِمَ، فَقَدَّمَهُ إِلَيْهِ ﷺ ثَانِيًا، ثُمَّ عَادَ السَّائِلُ فَأَعْطَاهُ، وَهَكَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ ﷺ: مَلَأْتُكَ لَاغْضَبَانِ: «أَسْأَلُ أَنْتَ يَا فُلَانٌ أَمْ تَاجِرٌ؟» فَتَأَخَّرَ الْوَحْيُ أَيَّامًا، فَاسْتَوْحَشَ، فَنَزَلَتْ.

وَالثَّالِثَةُ: رَوَوْا عَنْ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ فِي مُسْنَدِهِ وَالطَّبْرَانِيِّ وَابْنِ مَرْدُوَيْهِ مِنْ حَدِيثِ خَوْلَةَ، وَكَانَتْ تَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ جَرَوْا دَخَلَ تَحْتَ سَرِيرِ رَسُولِ اللَّهِ، فَمَاتَ وَلَمْ

١ - آلاءُ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ ٤٦١: ٤٦٦.

٢ - تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ ٩٢: ٢٠.

٣ - رُوحُ الْمَعَانِي ١٥٧: ١٠ نقله عَنْ جَمْعِ الْمُفَسِّرِينَ.

٤ - السِّيَرَةُ الْحَلِيبَةُ ٢٦١: ١.

تشعر به، فمكث رسول الله أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: «يا خَوْلَة! ما حدث في بيت رسول الله؟ جبرئيل لا يأتيني». فقالت: يا نبي الله، ما أتى علينا يوم خير من هذا اليوم. فأخذ برده فلبسه و خرج، فقلت في نفسي، لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فإذا بشيء ثقيل، فلم أزل به حتى بدا لي الجرؤ ميتًا، فأخذته بيدي فألقيته خلف الدار، فجاء النبي ترعد لحيته، وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة، فقال: «يا خَوْلَة، دثّريني»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾^١.

ورابعة: إن المسلمين قالوا: يا رسول الله، مالك لا ينزل عليك الوحي؟ فقال: «و كيف ينزل عليّ وأنتم لا تتقون رواجبكم - وفي رواية براجبكم - ولا تقصّون أظفاركم، و لا تأخذون من شواربكم»، فنزل جبرئيل بهذه السورة. فقال النبي: «ما جئت حتى اشتقت إليك»، فقال جبرئيل: وأنا كنت أشدّ إليك شوقًا، ولكنني عبد مأمور. ثم أنزل عليه: ﴿وَمَا تَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾^٢.

إن الاضطراب في أسباب فتور الوحي تعرب عن عدم صحّة الرواية؛

أما الأول - فلو صحّ فيلزم كون انقطاع الوحي في العام السابع من البعثة؛ لأنّ قُرَيْشًا أرسلت النضر بن الحارث و ابن أبي مُعَيْط إلى أحبار اليهود يسألانهم عن النبي الأكرم، قالوا لهم: إنكم أهل التّوراة، و قد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ، فجاءوا إلى رسول الله و قالوا: يا محمّد، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدّهر الأوّل، قد كانت لهم قصّة عجب، و عن رجل كان طوّافًا قد بلغ مشارق الأرض و مغاربها، و أخبرنا عن الرّوح ما هي؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم بما سألتهم عنه غدًا»، و لم يستثن، فانصرفوا عنه^٣.

نحن ننزّه ساحة النبي الأكرم الذي نشأ نشأة الأنبياء في عالم مليء بالطّهر و القداسة - أن يخبرهم على وجه قاطع بأنّه سيحييهم غدًا على أسئلتهم تلك، فمن أين علم أنّه سبحانه ينزل الوحي عليه غدًا؟ أو أنّه سبحانه يجيب عن أسئلتهم عن طريق الوحي؟.

٢ - تفسير القرطبي ٢: ٩٢ و الآية مريم / ٦٤.

١ - روح المعاني ١٠: ١٥٧.

٣ - مجمع البيان ١٠: ٥٥.

و أمّا الثّاني - فهو أشبه بالقصص الموضوعّة، فهل من المعتاد أن يباع عنقود عنب ثلاث مرّات في السّوق؟ ومثله عِدْقُ تمر، ولعلّ الجاعل كان يهدف إلى اختلاق الفضائل لعُثمان، فحسب أنّ هذا الموضع مناسب له.

و أمّا الثّالث - فبعيد جدّاً؛ إذ كيف يمكن أن يموت الجَرّو تحت سرير النّبيّ أو في زاوية من البيت ولا يلتفت إليه؟ على أنّ ظاهر الرّواية أنّ انقطاع الوحي كان بعد تلقّي النّبيّ لنزول الوحي مدّة مديدة؛ حيث أنّ خولة قالت: وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرّعدة، فإنّ ذلك يعرب عن أنّ الحادثة كانت في أزمنة متأخّرة من بدء البعثة أي بعد نزول سورة العلق أو آيات منه.

و أمّا الرّابع - فهو أشبه بحمل النّبيّ وزر الغير، فإنّ عدم قصّ المسلمين شواربهم، أو عدم تنظيف رواجبهم لا يكون سبباً لا لقطع الوحي؛ قال سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

هذه الوجوه كلّها تدفع بنا إلى القول بأنّ مسألة انقطاع الوحي فريضة تاريخيّة صنعتها يد الجعل والوضع لغاية أو لغايات خاصّة، ولم يكن هناك أيّة فترة وإمّا المسألة كانت بصورة أخرى، هي أنّه تعلّقت مشيئته سبحانه على نزول الوحي نجومًا، أي فترة بعد فترة، حسب مقتضيات والأسباب الموجبة لنزوله أولاً، وتثبيت فؤاد النّبيّ بذلك ثانيًا؛ قال سبحانه مشيرًا إلى مشيئته الحكيمة: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنُزْلَانًا تَنْزِيلًا﴾^٢ وقال سبحانه مشيرًا إلى أنّ من بواعث نزول الوحي تدريجيًّا كونه سببًا لتثبيت فؤاده: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾^٣. فعلى ضوء ذلك لم يكن هناك إلّا مسألة طبيعيّة على صعيد الوحي، وهو نزوله تدريجيًّا لا دفعةً واحدةً، غير أنّ المشركين الجاهليين بمشيئته سبحانه وأسرار نزول الوحي تدريجيًّا كانوا يترقّبون نزول الوحي عليه دومًا وفي كلّ يوم وساعة، أو نزول مجموع الشّريعة دفعةً واحدةً كما نزلت التّوراة على موسى؛ قال سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكُمُ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا

سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ^١.

فلَمَّا شاهدوا خلاف ما كانوا يترقّبونه من مدّعي التّبوّ انصرفوا إلى اتّهام النّبّي بأنّه ودّعه ربّه الذي ينزل إليه الوحي، أو الشّيطان الذي يلهمه على حدّ تعبيرهم.

فحصيلة البحث أنّه لم يكن هناك انقطاع ولافتور، ولاسبب من الأسباب المذكورة في الروايات، بل كان مجرّد توهم توهموه.

ثمّ إنّ المعروف بين المفسّرين أنّ سورة الضّحي حسب التّرتيب النّزوليّ السّورة الحادية عشرة، وكانت الأولى هي العلق فالقلم فالمزمل فالمدّثر فلهب فالتّكوير فالانشراح فالعصر فالفجر فالضّحي^٢.

والظاهر ممّن ينقل مسألة انقطاع الوحي وفتوره أنّها نزلت في بدء الوحي بعد انقطاعه، أي نزل بعد العلق أو بعد المدّثر، مع أنّها نزلت متأخّرة، وكان الوحي ينزل على النّبّي بترى حسب مقتضيات الظّروف والمناسبات والوقائع والأحداث.

نعم، ذكر اليعقوبي: أنّ سورة الضّحي هي السّورة الثالثة، ولعلّه متفرّد في ذلك القول^٣.
(العدد: ٤، عام: ١٤١١، ص: ١٤٦)

الفصل الرابع والأربعون

الأراكيّ (معاصر) في «مجلة رسالة القرآن»

أول ما نزل من القرآن الكريم و آخر ما نزل

تعددت الأقوال حول أول ما نزل من القرآن، وأشهر ما قيل في ذلك وأصحّه، إن قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى - عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أول ما نزل من القرآن، وقد روي في ذلك أيضاً رايان آخران؛

أحدهما - أن سورة الفاتحة هي أول ما نزل من القرآن.

و ثانيهما - أن سورة المدثر هي أول ما نزل من القرآن، روي عن جابر.

وقد جمع بعض الباحثين هذه الآراء الثلاثة، فقال: وطريق الجمع بين الأقاويل أن أول ما نزل من الآيات ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ وأول ما نزل من أوامر التبليغ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾ وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة.^١

ومهما يكن من أمر فلم يعد بين علماء القرآن خلاف في أن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ هو أول ما نزل من القرآن، وأما غير ذلك من الأقوال فبين مرفوض لا يعباؤه، وبين ما جمع بينه وبين كون ﴿اقْرَأْ﴾ أول ما نزل بوجه من وجوه الجمع.

والذي يهتمنا في هذا الموضع من البحث هو الصورة التي تمّ بها أول نزول للقرآن على النبي ﷺ، كما رسمتها لنا كتب التاريخ والحديث المتداولة بين إخواننا العامة. ولم يكن يغنيننا ذلك كثيراً لولا ما في ذلك من شناعة النسبة إلى الرسول الكريم، وبشاعة المشهد الذي تصوّره لنا تلكم الأحاديث. وسوف نحاول فيما يلي نقل تلك الصور

والمشاهد مع نقدها على ضوء من العقل و مسلّمات الإسلام وأصوله.
وروى الطبري في تفسيره عن عروة، عن عائشة. أنها قالت... [وذكر كما تقدّم عنه،
الرّم ٩، فقال:]

هذه هي القصة كما روتها لنا كتب التفسير والتاريخ والحديث لدى إخواننا أهل السنة.
والقصة هذه مختلفة دون ريب، وقد افعلتها أباد أثيمة عبثت بالتاريخ الإسلامي
أيما عبث، وشوّهت حقائق الأحداث أيما تشويه. وليست هذه القصة بأكثر خطراً على
الإسلام والمسلمين، ولا أقلّ تعبيراً عن الكيد والحق الذي كان يكتنه مفتعل الحديث
للإسلام من قصة أخرى تقرن في كثير من كتب التاريخ والتفسير والحديث بهذه القصة
وإليك نصّها:

عن إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير، أنّه حدّث عن خديجة رضي الله عنها
أنّها قالت لرسول الله ﷺ: أي ابن عمّ، أستطيع أن تخبرني... [وذكر كما تقدّم عن الطبري
الرّم ٣٥، فقال:]

وهذه جريمة أخرى من جرائم الدسّ والاختلاق والتزوير التي بلي بها الإسلام
أشدّ البلاء، منذ انحسرت القيادة المبدئية عن مسرح الحكم وتناولت أمواج الحوادث
وتيارات الأهواء سفينة الإسلام، فأخذت بها يميناً وشمالاً.
ولابدّ هنا أن نلمح إلى دلائل الاختلاق والانتحال البادية على هاتين القصتين،
ونبدأ بالقصة الأولى، وفيها من دلائل الاختلاق ما يلي:

الأول: أنّ الرواية تصرّح في أوّل الأمر بأنّ أوّل ما ابتدئ به رسول الله من الوحي
الرؤيا الصادقة، ثمّ حبّب إليه الخلاء. ممّا يدلّ على أنّ مسألة النبوة المحمّدية كانت
مبسوقة برعاية خاصّة، وأنّها لم تكن حدثاً فجائياً لم تمهّد له الأرضيّة ولم تهَيّأ له
المقدمات، وإنّما أعدّ الرسول الكريم إعداداً إلهياً خاصّاً تحت رعاية وتربية إلهية فريدة،
تتقبّل الوحي والاتّصال بعالم الغيب، فلم يكن نزول الوحي عليه أمراً متجلاً و مولود
الساعة. وإذا كان الأمر كذلك فإنّ الإنسان المتأمل يقف حائراً أمام المشهد الذي تصوّره
الرواية لنزول الوحي: رسول الغيب ينزل على النبيّ ليبتعثه رسول رحمة للعالمين،

فترتجف بوادِر هذا و يفقد تمالكه، حتّى يكاد يطرح نفسه من حالق من جبل، ثمّ يصرّح له رسول الغيب بالحقيقة مرّة و مرّتين: أنت رسول الله و أنا جبرئيل. و لا يغني هذا التصريح في رفع الهول و إزالة الرّوع شيئاً، أفليس تلك التّربيّة الإلهيّة و الإعداد الرّبّانيّ كان كفيلاً بتهيئة الجوّ الرّوحيّ و التّفسيّ الذي تزول معه كلّ أشكال القلق و الاضطراب المنبعث عن الارتجال المفاجئ؟.

الثّاني: أنّ الاتّصال بالعالم الأعلى من طبيعته أن يلهم الإنسان في حالة الصّلاة و أمثالها، و لا يمكن أن يكون الوحي - و هو ليس إلّا نوعاً خاصّاً من الاتّصال بعالم الغيب - إلّا باعتماداً على هذا السّكون و الاطمئنان و الاستقرار التّفسيّ، بل لا بدّ أن يوجد من الاطمئنان أسمى أشكاله في النّفس و من الاستقرار على نماذجه في الرّوح. أمّا أن تصيب النّفس البشريّة بهذه المسة المروّعة التي تشبه مسة العفاريث و الأغوال، فتترك الإنسان في قلق صاحب و اضطراب ثائر، فهذا ممّا لا تهضمه العقول.

الثّالث: أنّ قبول هذه الرّواية يعني قبول أحد الأمور التّالية:

١- أن يكون الرّسول - و العياذ بالله - غير صادق فيما يحدث به عن حالة الوحي الأوّل.
٢- أن يكون صادقاً، و لكنّ المشاهد التي حكّاها عن ظروف الوحي الأوّل و ملباساته لم تكن إلّا صوراً خياليّة و أشباحاً و هميّة، كالتي تتراءى للمصابين بالأمراض النّفسيّة و الرّوحيّة.

٣- أن يكون صادقاً، و المشاهد التي شاهدها مشاهد حقيقة غير خياليّة و كان الرّسول ﷺ على سلامة كاملة، و لكنّه مع ذلك لم يؤمن بكلّ ما رأى، و لم تكف تلك الحقائق العينيّة التي شاهدها و عاشها أن توجد في قلبه اطمئناناً و يقيناً بالوحي، بل ظلّ شاكاً متردّداً في هذا الذي تراءى له. أهو حقيقة أم خيال؟ أهو واقع أم وهم؟ حتّى طمأنته خديجة بذلك، و حتّى شهد له ورّقة بصحة كلّ ما رأى و كلّ ما شاهد.

و كلّ هذه الثّلاثة باطلة بحكم العقل و الواقع.

أمّا الأوّل و الثّاني: فهما باطلان بحكم العقل و بحكم الشّواهد و الأرقام التّاريخيّة التي تنطق بالعظمة التي كانت تتّصف به شخصيّة الرّسول الكريم و الكمال الإنسانيّ الذي

كان قد تجلّى بأسمى أشكاله في وجوده الطاهر. وهذا بغض النظر عن كونه رسول الله وخاتم النبيين وسيد الأنبياء.

وأما الثالث: فهو زائف بحكم الوجدان، أو ليس من شهد الحقيقة عياناً أولى باليقين بها ممن لم يعلم بها، إلاّ بالسَّماع عن مخبر واحد شاك في حقيقة ما يخبر عنه؟ أو ليس من الهزل أن يرى امرؤ حدثاً ثم يخبر به إنساناً آخر، ثم يكون هذا الثاني أكثر منه اطمئناناً بما أخبره به، بل يحاول تطمينه وتسكينه إلى الحدث الذي أخبره به.

ثم لا نعلم كيف يرضى مفتعل الرواية أن يكون النبي - والعباذ بالله - شاكاً فيما سمعه ورآه؟ ثم ينقلب شكّه هذا إلى يقين بمجرد أن سكنته خديجة، أو أقره ورقة على مارآه وأخبر عنه.

الرابع: والآن لنعرف المصدر الذي استلهم منه واضع هذه الرواية هذه الأرقام التي نسجها حول بدء الوحيء فإننا إذا طالعنا شيئاً من كتب العهدين رأينا فيها صوراً من الوحي على الأنبياء تحمل نفس الطابع الذي تحمله روايتنا هذه، ونذكر على سبيل المثال التماذج الآتية.^١

في التّوارة: أن إبراهيم لما أوحى إليه في شأن نسله و غربتهم وقع عليه عند مغيب الشّمس سبات ورُعبه مظلمة.^٢

وأن يعقوب لما رأى في الحلم السّلم والملائكة وخاطبه الرّب واستيقظ، خاف وقال ما أرهب هذا المكان.^٣

وعن قول دانيال في بعض رؤياه ومكاشفاته بالوحي: و سمعت صوت إنسان بين أولاي فنادى وقال: يا جبرائيل، فهمّ هذا الرّجل فجاء إليّ حيث وقفت ولما جاء خفت وحزرت على وجهي، وإذ كان يتكلّم معي كنت مسنّجاً على وجهي إلى الأرض، فلمسني وأوقفني على مقامي.^٤

١ - اعتمدنا في هذه التّماذج على التّفول التي وردت في كتاب «الهدى إلى دين المصطفى» ١: ١٤ - ١٦.

٢ - سفر التكوين: الإصحاح ١٥: ١٢-١٥.

٣ - سفر التكوين: الإصحاح ٢٨: ١٢ - ١٨.

٤ - كتاب دانيال: الإصحاح ٨: ١٦ - ١٩.

و في الإنجيل: إِنَّ زَكَرِيَّا لَمَّا رَأَى مَلَكَ الرَّبِّ عَنْ يَمِينِ مَذْبَحِ النَّجُورِ، اضْطَرَبَ وَوَقَعَ عَلَيْهِ الْخَوْفُ.^١

فالرواية إذن إسرائيلية مدخولة، شاء بها اليوم الحاقدون و من شاكلهم من عصابة المختلقين و الوضّاعين أن يطفنوا نور الإسلام، و يُشوّهوا صورته، و يغيّروا معالمه. ولكنّ الله أبى إلا أن يتمّ نوره و لوكره الكافرون.

و من الغريب الذي يؤسف له أن تتناقل كتب الحديث و الرواية و التاريخ هذه الأكذوبة، و يعتمد عليها الكتاب الإسلاميون حتّى المتجدّدون و المحدثون منهم.

أمّا الرواية الثانية فهي مهزلة من مهازل الاختلاق و الوضع. أو كان الوحي الإلهيّ ألعوبة يتلّهى بها البُسطاء؟ أم كان النبيّ العظيم - و العياذ بالله - ذلك الرّجل المتجلّل المطواع الذي ينتقل من فخذ إلى فخذ إلى حجر، لتقضي خديجة أمنيّتها في رؤية الملك؟

أم كانت خديجة عليها السلام المرأة الخفيفة العقل التي تطلب أمراً تعلم أنّ لا سبيل لها إليه؟ أو كانت التّبوّة و رسالة الله العظيم التي تحمل مسؤوليّة إنسان الأرض من أقصاها إلى أقصاها لتخضع لهذه الأمانيّ و الأحلام التي تراود صدر هذا و ذهن ذلك؟ -

العدد: ١ عام: ١٤١١ ص: ١٢ - ١٦

الفصل الخامس والأربعون

نصّ الوِشْنَوِيُّ (١٣٢٩ - ...) في «حياة النّبِيِّ و سيرته»

مبعث رسول الله ﷺ

قال ابن هشام^١: فلما بلغ محمد رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمةً للعالمين وكافةً للناس بشيرًا، وكان الله تبارك وتعالى قد أخذ الميثاق على كلّ نبيّ بعثه قبله بالإيمان به، والتّصديق له، والتّصرّ له على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدّوا ذلك إلى كلّ من آمن بهم وصدّقهم، فأدّوا من ذلك ما كان عليهم من الحقّ فيه؛ يقول تعالى لمحمد نبيّه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي ۚ أَي ثَقُلَ مَا حَمَلْتُمْ مِنْ عَهْدِي. ﴿قَالُوا أَأَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا ۚ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^٢. فأخذ الله ميثاق النّبيّين جميعًا بالتّصديق له والتّصرّ له ممّن خالفه، وأدّوا ذلك إلى من آمن بهم وصدّقهم من أهل هذين الكتابين.

قال الطّبريّ وابن الأثير، والعبارة له في الكامل^٣ بعث الله نبيّه محمدًا لعشرين سنة مضت من مُلك كسرى ابرويز بن هرْمُز بن أنوشيروان.

قال ابن عبّاس من رواية حمزة وعكرمة عنه وأنس بن مالك وعروة بن زُبَيْر: إنّ النّبِيَّ ﷺ بعث ونزل عليه الوحي وهو ابن أربعين سنة.

وقال ابن عبّاس من رواية عكرمة أيضًا عنه وسعيد بن المسيّب: إنّ نزل عليه ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة.

وكان نزول الوحي عليه يوم الاثنين بلاخلاف، واختلفوا في أي الأثنين كان ذلك، فقال أبو قلابة الجَرَمي: نزل الفرقان على النَّبيِّ لثمان ليلة خلت من رمضان، وقال آخرون: كان ذلك لتسع عشرة مضت من رمضان. [ثم ذكر قول الطَّبْرِي كما تقدّم عن معرفة، فقال:] محمد بن سعد قال: نزل الملك على رسول الله ﷺ بجراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، ورسول الله يومئذ ابن أربعين سنة، بعثه الله رحمةً للعالمين، وكافةً للناس أجمعين إلى أن قال: فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ بعث على رأس الأربعين، قال: وهذا هو المشهور بين الجمهور من أهل السير والعلم بالأثر، وقيل بزيادة يوم، وقيل بزيادة عشرة أيام، وقيل بزيادة شهرين، وقيل بزيادة سنتين، وهو شاذ. وأكثر منه شذوذاً ما قيل: إنه بزيادة ثلاث سنين، وما قيل: إنه خمس سنين. قال بعضهم: الأربعون هي سنّ الكمال ونهاية بعث الرّسل - إلخ.

وقال الصَّبَّان^١: واختلف في شهر ابتداء الوحي، والذي عليه الأكثر أنه رمضان لسبع ليال مضت منه، وقيل: لسبع عشرة، وقيل: ربيع الأول، وقيل: رجب. وأمّا اليوم فالذي عليه جمع أن في يوم الإثنين ولادته وبعثته وخروجه من مكّة وصوله المدينة ووفاته - إلخ [ثم ذكر قول المسعودي، كما سيأتي عنه في أول ما نزل، فقال:] قال الطَّبْرِي ومحمد بن سعد وابن الأثير، والعبارة له في الكامل^٢: كان أول ما ابتدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبْرِي، ثم قال:]

قال الحَلَبِيّ والرَّيْثِي دُحْلان وابن هشام، والعبارة له في السيرة^٣: قال ابن إسحاق: فذكر الزُّهري عن عروة بن الزُّبير عن عائشة أنّها حدثته... [وذكر كما تقدّم عن البخاري، ثم قال:]

كرامته ورحمته العباد به ما رأى رؤياً في نومه إلا جاءت كفلق الصّبح. قالت: وحسب الله تعالى إليه الخلو، فلم يكن شيء أحبّ إليه من أن يخلو وحده.

١ - الطبقات لابن سعد ١: ١٩٤.

٢ - إسعاف الزّاغيين: ١٧.

٣ - الكامل ٢: ٤٨، تاريخ الطَّبْرِي ٢: ٢٩٨، الطبقات لابن سعد ١: ١٩٤.

٤ - السيرة النبوية لابن هشام ١: ٢٤٩، السيرة الحلبية ٢: ٢٣٣، السيرة النبوية لإحسان.

قال السُّبُلَنْجِيّ وَ الصَّبَّان، وَ العبارة للصَّبَّان^١: وَ لَمَّا قَرِبَتْ أَيَّامُ الْوَحْيِ حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْهِ الْخُلُوةَ، فَكَانَ يَخْتَلِي فِي غَارِ حِرَاءٍ وَ يَتَعَبَّدُ فِيهِ، قِيلَ: بِالذِّكْرِ، وَ قِيلَ: بِالْفِكْرِ، وَ رُدَّ بِمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي طَبَقَاتِ الْمَنَاوِي.

وَ فِي كَلَامِ الشَّيْخِ مُحْيِي الدِّينِ بْنِ الْعَرَبِيِّ: إِنَّ تَعَبُّدَهُ قَبْلَ نُبُوَّتِهِ كَانَ بِشَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ قِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ.

وَ كَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصَّبْحِ، وَ كَانَتْ تِلْكَ الْمَنَامَاتُ الصَّادِقَةُ مَقْدَمَاتٍ لِلْوَحْيِ، قِيلَ: مَدَّتْهَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ.

وَ ثَبَتَ أَنَّهُ لَمَّا دَنَا زَمَنُ الْوَحْيِ إِلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَثُرَ رَجْمُ الشَّيَاطِينِ بِالتَّجُومِ مَعَ إِصَابَتِهِمْ وَ انْقِطَاعِ بِالْمَرَّةِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ مِنْ حِينِهِ. وَ مَا رَوَى مِنْ رَجْمِهِمْ بِهَا لَيْلَةً مَوْلَدَهُ وَ قَبْلَهَا فِي أَزْمَنَةِ الرِّسْلِ، فَعَلَى ثُبُوتِهِ كَانَ قَلِيلًا، وَ تَارَةً يَصِيبُ وَ تَارَةً لَا يَصِيبُ، وَ أَمَّا فِي زَمَنِ قَرَبِ الْوَحْيِ إِلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَانَ يَصِيبُ وَ لَا يَدُّ مَعَ الْكَثْرَةِ، قَالَهُ الْحَلَبِيُّ فِي سِيرَتِهِ. (١: ٨٩ - ٩٢)

أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾

فَلَمَّا تَمَّ لَهُ^٢ أَرْبَعُونَ سَنَةً جَاءَهُ جَبْرِيلُ بِالنَّبُوءَةِ وَ هُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَقَالَ لَهُ: اقْرَأْ فَقَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، فَضَمَّهُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ الْجَهْدَ، ثُمَّ أَطْلَقَهُ فَقَالَ لَهُ: اقْرَأْ. فَقَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، فَضَمَّهُ كَذَلِكَ ثُمَّ أَطْلَقَهُ، فَقَالَ لَهُ: اقْرَأْ. فَقَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، فَضَمَّهُ كَذَلِكَ ثُمَّ أَطْلَقَهُ، فَقَالَ لَهُ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ^٣﴾. الْخ.

قَالَ الطَّبْرِيُّ وَ ابْنُ الْأَثِيرِ وَ الْعَبَّاسُ لَهُ فِي الْكَامِلِ^٤: ثُمَّ إِنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ بَعْدَ اقْرَأْ، ن وَالْقَلَمُ وَ مَا يَسْطُرُونَ، يَاءُهَا الْمَدْتُورُ وَ الضُّحَى.

وَ قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ: سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ عَنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَ: نَزَلَتْ، ﴿يَاءُهَا الْمَدْتُورُ﴾ أَوَّلُ مَا نَزَلَ، قَالَ: قُلْتُ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ قَالَ: ... [وَ ذَكَرَ كَمَا

١ - نور الأبصار: ١٥، إسعاف الراغبين: ١٥.

٢ - أي رسول الله ﷺ.

٤ - الكامل ٢: ٤٩، تاريخ الطبري ٢: ٢٩٩.

٣ - العلق ١/ ٥.

تقدّم عن مُسلم، الرّقم ٧، ثمّ قال: [.

قال هشام الكلبي: أتى جبريل النّبي ﷺ أوّل ما أتاه ليلة السّبت وليلة الأحد، ثمّ ظهر له برسالة الله يوم الاثنين، فعلمه الوضوء والصّلاة، وعلمه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وكان لرسول الله ﷺ أربعون سنة. انتهى ما نقله ابن الأثير والطّبري. [ثمّ ذكر قول ابن هشام نقلًا عن ابن إسحاق، كما تقدّم عن معرفة، فقال:]

قال محمّد بن إسحاق: وحدثني أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين رضي الله عنه، إنّ رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون بيدي يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان. وقال الحلبيّ^١ وعن النّحعيّ: أنّ أوّل سورة أنزلت عليه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ قال الإمام التّوويّ: وهو الصّواب الَّذي عليه الجماهير من السّلف والخلف، هذا كلامه.

ولا يخفى أنّ مراد النّحعيّ بالسّورة هنا القطعة من القرآن، أي أوّل آيات أنزلت، فلا ينافي ما تقدّم من رواية عمرو بن شُرحبيل ممّا يدلّ على أنّ أوّل سورة أنزلت فاتحة الكتاب؛ لأنّ المراد أوّل سورة كاملة أنزلت لا في شأن الإنذار، فلا ينافي ما تقدّم من رواية جابر ممّا يقتضي أنّ أوّل ما أنزل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، لأنّ المراد بذلك أوّل سورة كاملة نزلت في شأن الإنذار بعد فترة الوحي، أي فإنّها نزلت قبل تمام سورة اقرأ، وهذا الجمع تقدّم الوعد به... إلخ.

وقال الشّبلنجي^٢: وتمرّ الوحي حتّى حزن النّبي ﷺ حزنًا شديدًا، وكان مدّة فترته ثلاث سنين كما جزم به ابن إسحاق، ثمّ نزل عليه جبريل بسورة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وتتابع الوحي ونزولها ابتداء رسالته ﷺ، فهي متأخّره عن نبوّته بثلاث سنين، وقيل: مقارنة لنبوّته، و صار يدعو النّاس إلى الله خفية لعدم الأمر بالإظهار، وكان من أسلم إذا أراد الصّلاة ذهب إلى بعض الشّعاب؛ ليستخفي بصلاته من المشركين... إلخ.

وقال الزّيني دحلان^٣: وفي فتح الباري: جزم ابن إسحاق بأنّ مدّة فترة الوحي كانت ثلاث سنين، وجزم السّهيليّ بأنّها كانت سنتين ونصفًا، وقيل: خمسة عشرة يومًا، وقيل غير ذلك - إلخ.

قال ابن هشام في السيرة: قال ابن إسحاق: ثم فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة حتى شقّ ذلك عليه فأحزنه، فجاء جبريل بسورة الضحى يقسم له، وهو الذي أكرمه بما أكرمه، ما ودّعه ربّه وما قلاه، فقال تعالى: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى...﴾^١ [ثم ذكر قول المسعودي كما تقدّم عنه فقال:]

محمد بن سعد^٢ قال: أول ما أنزل على النبيّ ﷺ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - إِلَى - مَا لَمْ يَلَمْ﴾ فهذا صدرها الذي نزل على النبيّ يوم حراء، ثم نزل آخرها بعد ذلك بما شاء الله.

و عن عبيد بن عمير قال: أول سورة أنزلت على النبيّ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. و عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه الوحي بحراء مكث أياماً لا يرى جبرئيل، فحزن حزناً شديداً. إلى أن قال: فبينما رسول الله ﷺ عامداً لبعض تلك الجبال إلى أن سمع صوتاً من السماء، فوقف رسول الله ﷺ صعباً للصوت، ثم رفع رأسه فإذا جبريل على كرسي بين السماء والأرض متربّعاً عليه يقول: يا محمد أنت رسول الله ﷺ حقاً وأنا جبريل. قال: فانصرف رسول الله ﷺ وقد أقر الله عينه وربط جأشه، ثم تتابع الوحي بعد وحمي...

[تاريخ البعثة]

قال الحلبي^٣ وقال بعضهم: القول بأنّه في ربيع الأول يوافق القول بأنّه بعث على رأس أربعين؛ لأنّ مولده ﷺ كان في ربيع الأول على الصحيح وهو قول الأكثرين. وقيل: كان ذلك في ليلة أو يوم السابع والعشرين من رجب، فقد أورد الحافظ الدميّاطي في سيرته عن أبي هريرة، قال: من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله تعالى له صيام سنّين شهراً، وهو اليوم الذي نزل فيه جبريل على النبيّ ﷺ بالرّسالة، وأول يوم هبط فيه على النبيّ ولم يهبط عليه قبل ذلك. و سيأتي في بعض الروايات أنّ جبريل نزل في سحر تلك الليلة التي هي ليلة

٢ - الطبقات لابن سعد ١: ١٩٦.

١ - الضحى ١ - ١١.

٣ - السيرة الحلبيّة ١: ٢٣٨.

الاثنين، و يجوز أن يكون كلّ من تلك الليالي كانت ليلة الاثنين، فقد جاء أنّ رسول الله ﷺ قال لبّال: «لا يفوتك صوم يوم الاثنين»: لأنّي ولدت فيه، ونبتت فيه» فلا مخالفة بين كونه نبيّ في اللّيل وبين كونه نبيّ في اليوم؛ لأنّ وقت الشّعر قد يلحق بالليل. وفي كلام بعضهم: أتاه ﷺ جبريل ليلة السّبت و ليلة الأحد، ثمّ ظهر له بالرسالة يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان في حراء، فجاء بأمر الله تعالى.

وهذا القول - أي البعث كان في رمضان - قال به جماعة، منهم الإمام الصّرصري؛ حيث قال: وأتت عليه أربعون، فأشرقت شمس النّبوة منه في رمضان.

واحتجّوا بأنّ أوّل ما أكرمه الله تعالى بنبوّته نزل عليه القرآن. وأجيب: بأنّ المراد بنزول القرآن في رمضان نزوله جملةً واحدةً في ليلة القدر إلى بيت العزّة في سماء الدّنيا...

(١: ٩٢ - ٩٧)

الفصل السادس والأربعون

نصُّ مُرتضى العالميّ (معاصر) في «الصَّحيح من سيرة النَّبيِّ الأعظم ﷺ»

بدء الوحي وأوّل ما أنزل عليه ﷺ

لقد كان بدء الوحي في غار حِراء، وهو جَبَل على ثلاثة أميال من مكّة، ويقال: هو جَبَل فاران الَّذي ورد ذكره في التَّوراة، إلّا أنَّ الظَّاهر هو أنَّ فاران اسم لجبال مكّة، كما صرَّح به ياقوت الحَمَوِّي حسبما تقدّم، لا لخصوص حِراء:

وكان ﷺ يتعبّد في حِراء هذا، على التَّحوّل الَّذي ثبتت له مشروعيّته، وكان قبل ذلك يتعبّد فيه عبدالمطلّب.

وأوّل ما نزل عليه ﷺ هو قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ إلخ^١.

وهذا هو المرويّ عن أهل البيت (عليهم السلام)، وروي أيضًا عن غيرهم بكثرة، ويدلّ عليه أيضًا سياق الآيات المذكورة.

وربّما يقال: إنّ أوّل ما نزل عليه ﷺ هو فاتحة الكتاب، ولا سيّما بملاحظة أنّه ﷺ قد صلّى في اليوم الثّاني. هو ﷺ وعليّ (عليه السلام) وخديجة (عليها السلام) حسبما ورد في الرّوايات.

ولكن من الواضح أنّ ذلك لا يثبت شيئًا؛ إذ يمكن أن تُنزل بعد سورة إقرأ بألفصل، ثمّ يصلّي وقرأها في صلاته، كما أنّ من الممكن أن تكون صلاتهم آنئذٍ غير مشتملة على فاتحة الكتاب، ثمّ وجبت بعد ذلك، وإن كان لم يذكر أحد ذلك. هذا كلّ عدا عن أنّهم يروون أنّ سورة الفاتحة قد نزلت بعد المدّثر.

هذا، وثمة قول آخر، وهو أن أول ما نزل هو سورة المدثر^١. وسيأتي الإشارة إلى أنها قد نزلت بعد المرحلة السريّة، كما أنهم يروون روايات عديدة تنافي قولهم هذا، وليراجع الميزان (٢٢:٢) وعلى كلّ حال، فإنّ تحقيق هذا الأمر لا يهّمنا كثيرًا، فلا بدّ من توفير الفرصة للحديث عن الأهمّ فالأهمّ. (١٩٧:١)

ما روي في بدء الوحي

روى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن الزُّهريّ، عن عروة بن الزُّبير، عن عائشة في بدء الوحي، ما ملخصه: أنّ الملك جاء للنبيّ، وهو ﷺ في غار حراء، فقال: اقرأ... [وذكر كما تقدّم عنه، ثم قال:] وثمة روايات كثيرة أخرى متناقضة ومتعارضة، ونذكر على سبيل المثال:

١- أنّ رواية تقول: إنّ خديجة أرسلته مع أبي بكر إلى وَرَقَةَ بن نَوْفَل، فأخبره ﷺ أنّه يسمع نداء خلفه: يا محمد يا محمد، فينطلق هاربًا في الأرض، فأمره وَرَقَةُ أن يثبت؛ ليسمع ما يقول ثم يخبره، ففعل، فناداه: يا محمد، قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ - حتّى بلغ - وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ قل لا إله إلا الله. فأخبر وَرَقَةَ بأنّه هو الذي بُشِّر به ابن مريم. فلمّا توفّي وَرَقَةُ قال ﷺ: «لقد رأيت القسّ^٢ في الجنّة، عليه ثياب الحرير؛ لأنّه آمن بي وصدّقني^٣».

٢- ورواية أخرى تقول بعد أن ذكرت أنّ خديجة أخبرت وَرَقَةَ بالأمر، فأخبرها أنّه نبيّ هذه الأمّة: إنّ بعد مدّة التقى بالنبيّ ﷺ وهما يطوفان، فسأله وَرَقَةُ عمّا رأى وسمع، فأخبره، فأخبره وَرَقَةَ أنّه نبيّ هذه الأمّة^٤.

٣- إنّ خديجة لما أخبرها بما رأى بشرته بأنّه نبيّ هذه الأمّة، وأنّ الذي أخبرها

١ - الإتيان ١: ٣٢، والبخاريّ وغيره.

٢ - القسّ جمعه قُسُوس: من كان بين الأسقف والسّامس، القسيس جمعه قسيسون: بمعنى القسّ. (المنجد ١: ٦٢٧).

٣ - البداية والنهاية ٩: ٩٠ و الرّوض الأنف ١: ٢٧٤ - ٢٧٥ والسيرة النبويّة لدخلان ١: ٨٣ - ٨٤ والسيرة الحليّة ١: ٢٥٠

٤ - سيرة مغلطاي: ١٥.

٤ - البداية والنهاية ١٢: ١٣ - ١٤ وسيرة ابن هشام ١: ٢٥٤ والسيرة الحليّة ١: ٢٣٩ - ٢٤٠، والسيرة النبويّة لدخلان ١: ٨١ - ٨٢.

بذلك هو غلامها ناصح، وبحيرا الرَّاهب. وأمرها أن تتزوَّجه منذ أكثر من عشرين سنة. ولم تنزل برسول الله حتَّى طعم و شرب و ضحك، ثم خرجت إلى الرَّاهب، وكان قريبًا من مكَّة فأخبرته، فأخبرها أنَّ جبرئيل هو أمين الله و رسوله إلى أنبيائه. ثم أتت عدَّا سًا فسألته، فأخبرها بمثل ذلك، ثم أتت وَرَقَّة، فأخبرها بمثل ذلك. و لكنَّها حلفت أن يكتنم الأمر، فطلب منها أن ترسل ابن عبد الله إليه؛ ليسأله و يسمع منه، مخافة أن يكون الَّذي جاؤهُ هو غير جبرئيل، فإنَّ بعض الشَّياطين يتشبه ليضلَّ و يفسد، حتَّى يصير الرَّجل بعد العقل الرّضي مدلَّهاً مجنوناً. فرجعت إلى النَّبي ﷺ، و أخبرته بمقالة ورقة، فنزل قوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُورُونَ * مَا أَنْتَ بِنَعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾^١ و لكنَّها أصرت عليه أن يذهب إلى وَرَقَّة، ففعل، و صدَّقه وَرَقَّة، فذاع قول وَرَقَّة و تصديقه لرسول الله ﷺ، فشقَّ ذلك على الملأ من قومه^٢.

٤- إنَّ خديجة طلبت منه أن يخبرها حين يأتيه الملك ففعل، فأمرته أن يجلس إلى شقِّها الأيمن، ففعل، فلم يذهب الملك. فأجلسته في حجرها، فلم يذهب. فتحسَّرت، فشالت خمارها، و رسول الله ﷺ في حجرها، فذهب الملك فقالت: ما هذا بشيطان، إنَّ هذا الملك يابن عمِّ، فأثبت و أبشر.

و في رواية أنَّها أدخلت رسول الله بين جلدها و درعها، و أخرجت رأسه من جيِّبها، فذهب جبرئيل ﷺ عند ذلك^٣. و في رواية أنَّ ذلك كان بإشارة وَرَقَّة^٤.

٥- و في رواية أنَّ وَرَقَّة قال لخديجة: إسأليه مَن هذا الَّذي يأتيه، فإن كان ميكائيل، فقد أتاه بالخفض والدَّعة واللَّين، و إن كان جبريل، فقد أتاه بالقتل و السَّبي، فسألته، فقال: جبريل، فضربت خديجة جبهتها^٥.

٦- و في رواية أنَّه لما أتاه الوحي قال: «إنَّ الأبعد - يعني نفسه - لشاعر أو مجنون، لا

١ - القلم / ٢.

٢ - البداية و النِّهاية ٣: ١٤ - ١٥ و راجع الأوائل لأبي هلال العسكري ١: ١٤٦.

٣ - البداية و النِّهاية ٣: ١٥ - ١٦، و سيرة ابن هشام ١: ٢٥٥، والطَّبري ٢: ٥٠ و تاريخ الخميس ١: ٢٨٣، و السَّيرة الحليَّة

١: ٢٥١، و السَّيرة النبويَّة لدخلان ١: ٨٤. ٤ - السَّيرة الحليَّة ١: ٢٥٢.

٥ - تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٣.

تحدث بها فُرَيْش عَتَّى أَبَدًا، لِأَعْمَدٍ إِلَى حَالِقٍ مِنَ الْجَبَلِ، فَلَأَطْرَحَنَّ نَفْسِي مِنْهُ، فَلَأَقْتُلْنَهَا، وَ لِأَسْتَرِيحَنَّ. قَالَ: فَخَرَجْتَ أُرِيدُ ذَلِكَ»، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي وَسْطِ الْجَبَلِ سَمِعَ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. ثُمَّ تَسْتَمِرُّ الرِّوَايَةُ حَتَّى تَذَكَرَ أَنَّهُ ذَكَرَ لَخْدِيجَةَ أَنَّ الْأَبْعَدَ لَشَاعِرٍ أَوْ مَجْنُونٍ: فَقَالَتْ أَعْيْذُكَ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ التَقَتْ بِوَرَقَةَ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ بِالنِّبَاتِ، ثُمَّ التَقَى بِهِ فِي الطَّوْفِ، فَجَرَى لَهُ مَعَهُ مَا جَرَى^١.

و عِنْدَ السُّهَيْلِيِّ وَغَيْرِهِ أَنَّ خَدِيجَةَ سَأَلَتْ وَرَقَةَ وَ عَدَّاسًا وَ نَسْطُورًا عَنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^٢.

٧- وَ فِي رِوَايَةٍ أَنَّ عَدَّاسًا أَطْعَمَهَا كِتَابًا لَتَضَعَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنْ كَانَ مَجْنُونًا شَفِي، وَإِلَّا لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، فَلَمَّا عَادَتْ إِلَيْهِ بِالْكِتَابِ وَجَدَتْ مَعَهُ جَبْرِيلَ يَقْرَأُ الْآيَاتِ مِنْ سُورَةِ الْقَلَمِ، فَفَرَحَتْ، وَأَخَذَتْهُ إِلَى عَدَّاسٍ، فَكَشَفَ عَدَّاسٌ عَنْ ظَهْرِهِ، فَوَجَدَ خَاتَمَ النَّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ الْخِ^٣.

و يَرَوِي الْبَعْضُ أَنَّهُ لَمَّا أَخْبَرَهَا بِجَبْرِيلَ كَتَبَتْ إِلَى بَحِيرِ الرَّاهِبِ، وَ قِيلَ: سَافَرَتْ بِنَفْسِهَا إِلَيْهِ لَتَسْأَلَهُ عَنِ الْأَمْرِ^٤.

٨- وَ فِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ حِينَ ذَهَبَ لِتَرَدِّيٍّ مِنْ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، كَانَ إِذَا ارْتَقَى بِذُرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى لَهُ جَبْرِيلُ، وَ يَخَاطِبُهُ بِالرَّسَالَةِ، فَيَسْكُنُ جَأْشَهُ، وَ تَطْمَئِنُّ نَفْسُهُ^٥.

٩- وَ يَرَوُونَ أَيْضًا أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ النَّبُوَّةِ يَتَعَرَّضُ لِلرَّعْدَةِ وَ تَغْمِيضِ الْعَيْنَيْنِ، وَ تَرَبُّدِ الْوَجْهِ، وَ لَمَّا يَشْبَهُ الْإِغْمَاءَ، وَ يَغْطُ كَغَطِيطِ الْبَكْرِ^٦.

١٠- وَ فِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ ﷺ عَادَ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا مَوْقِنًا أَنَّهُ قَدْ رَأَى أَمْرًا عَظِيمًا، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ قَالَتْ: «أَرَيْتَكَ الَّذِي كُنْتَ حَدَّثْتَنِي أَنَّ رَأْيَتَهُ فِي الْمَنَامِ، فَإِنَّ جَبْرِيلَ اسْتَعْلَنَ إِلَيَّ، أَرْسَلَهُ إِلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، وَ أَخْبَرَهَا بِالَّذِي جَاءَهُ مِنَ اللَّهِ، وَ مَا يَسْمَعُ مِنْهُ فَقَالَتْ

١- تاريخ الطبري ٢: ٤٩-٥٠.

٢- الرُّوضُ الْأَنْفَ (١: ٢٧٣) وَ الْأَوَائِلُ لِأَبِي هِلَالٍ الْقَشْكَرِيِّ ١: ١٤٦.

٣- تاريخ الخميس (١: ٢٨٤) وَ السِّيرَةُ وَ النَّبُوَّةُ لِلْخُلَانِ ١: ٨٣ وَ السِّيرَةُ الْحَلَبِيَّةُ ١: ٢٤٣-٢٤٤.

٤- السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِلْخُلَانِ ١: ٨٣ وَ السِّيرَةُ الْحَلَبِيَّةُ ١: ٢٤٤.

٥- الْمُصَنَّفُ ٥: ٣٢٣.

٦- السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِلْخُلَانِ ١: ٨٤ وَ السِّيرَةُ الْحَلَبِيَّةُ ١: ٢٥٢.

له: أبشر، فوالله لا يفعل الله بك إلاَّ خيرًا، وأقبل الذي جاءك من أمراالله، فإنَّه حقّ، أبشر، فإنَّك رسول الله حقًّا.

ثمَّ انطلقت إلى عدّاس التّصراني، غلام عُبّة بن ربيعة، من أهل نينوى، فسألته عن جبرئيل، فتعجّب من ذكر جبرئيل بتلك الأرض، ثمَّ أخبرها بأنّه أمين الله بينه وبين الأنبياء، ثمَّ جاءت إلى وَرَقَةَ إلخ^١.

هذا غيض من فيض، ممّا قيل و يقال حول ماجرى حين بدء الوحي، وكيفيّة وملايساته، من روايات وأقوال متضاربة ومتناقضة.

ولنتنقل الآن إلى الإشارة إلى بعض مالنا من مناقشات في تلك الأراجيف المتقدّمة، ومتوخّين الإيجاز والاختصار مهما أمكن، فنقول:

مناقشة روايات بدء الوحي

إنّنا في مجال بيان ما في تلك الرّوايات من خلل و خلل لا نستطيع أن نستوعب كلّ ما فيها من نقاط ضعف في هذه العجالة؛ لأنّ استيعاب ذلك - كما يبدو - يحتاج إلى وقت طويل، بل إلى مؤلّف مستقلّ. ولكن ما لا يدرك كلّ لا يترك كلّ، لأنّنا نريد أن نسهم بدورنا في الذّبّ عن مقام النّبوة الأقدس، ولو بشكل محدود ومقتضب، وما نريد أن نشير إليه هنا هو:

أولاً - من حيث السند، وحيث إنّ العمدة في ذلك هو ماورد في الصّحيحين وغيرهما عن الزّهرريّ، عن عروّة بن الزّبير، عن عائشة، فنحن نكتفي بالإشارة الإجماليّة إلى حال هؤلاء فنقول:

١- الزّهرريّ كان من أعوان الظّالمين، ومن الذين يركنون لهم وكان كاتبًا لهشام بن عبد الملك ومعلّمًا لأولاده.

وعده الثّقفيّ من فقهاء الكوفة الذين خرجوا عن طاعة عليّ عليه السلام، وكانوا أهل عداوة وبغض، وخذلوا عنه^٢، وجلس هو وعروّة في مسجد المدينة فنا لا من عليّ عليه السلام، فبلغ

ذلك السَّجَّاد عليه السلام، فجاء حتَّى وقف عليهما؛ فقال: «أما أنت يا عُرْوَة، فإنَّ أباي حاكم أباك، فحكم لأبي على أبيك، وأما أنت يا زُهْرِي؛ فلو كنت أنا وأنت بمكَّة لأريتكَ كُنَّ أَيْيَك»^٢ ونحن لا نستطيع أن نتق بأعوان الظَّلَمَة، وبمبغضي علي عليه السلام، كيف وقد قال عليه السلام «من سبَّ عليًّا فقد سبَّني»^٣؟.

٢- عُرْوَة بن الزُّبَيْر، عن عُرْوَة قال: أتيت عبد الله بن عمر بن الخطَّاب، فقلت له: يا أبا عبد الرِّحمان، إنَّا نجلس إلى أئمَّتنا هؤلاء، فيتكلَّمون بالكلام، نعلم أنَّ الحقَّ غيره فنصدِّقهم، ويقضون بالجور فننقوِّبهم ونحسِّنه لهم، فكيف ترى في ذلك؟ فقال: يا ابن أخي، كنَّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نعدُّ هذا التَّفَاق، فلا أدري كيف هو عندكم فَعُرْوَة يُعتبر أئمَّة الجور أئمَّته، وابن عمر يحكم عليه بالتَّفَاق.

وعدَّه الإسكافي من التَّابعين الَّذِينَ كانوا يضعون أخبارًا قبيحة في علي عليه السلام^٥. وكان يتألَّف النَّاس على روايته^٦، وروى عبد الرِّزَّاق عن مَعْمَر، قال: كان عند الزُّهْرِي حدِيثان عن عُرْوَة، عن عائشة في علي عليه السلام، فسألته عنهما يومًا، فقال: ما تصنع بهما وبعديتهما؟ إنِّي لأتَّهمهما في بني هاشم^٧. وكان إذا ذكر عليًّا نال منه^٨، ويصيبه الرَّمع فيسبُّه، ويضرب إحدى يديه على الأُخرى إلخ^٩.

و بعد ذلك كلِّه، فإنَّه لم يثبت سماع الزُّهْرِي عنه، ولكنَّ أهل الحديث اتَّفَقوا على ذلك^{١٠}.

٣- أمَّا عائشة التي حاربت عليًّا وعادته، والتي يتَّهمها الزُّهْرِي بأنَّها لا تؤمن في بني

١- الكن: البيت.

٢- شرح التَّهْج للمعتزلي: ٤: ١٠٢ والفارَات لِلتَّقْفِي ٢: ٥٧٨. والبحار ٤٦: ١٤٣.

٣- مستدرک الحاكم ٣: ١٢١ وصَحَّحَه الذَّهَبِي في تلخيص المستدرک هامش نفس الصَّفحة.

٤- سُنن البَيْهَقِي ٨: ١٦٥ وقريب منه ما في: ١٦٤ من دون ذكر اسم «عُرْوَة»، ومثله التَّرغِيب وَالتَّرْهيب ٤: ٣٨٢ عن البخاري، وإحياء علوم الدِّين ٣: ١٥٩ وفي هامشة عن الطَّبْرَانِي.

٥- شرح التَّهْج للمعتزلي: ٤: ٦٣. ٦- صفة الصَّفوة ٢: ٨٥، وتهذيب التَّهْذِيب ٧: ١٨٢.

٧- شرح التَّهْج للمعتزلي: ٤: ٦٤، وقاموس الرِّجَال ٦: ٢٩٩.

٨- الفارَات ٢: ٥٧٦، وشرح التَّهْج ٤: ١٠٢. ٩- قاموس الرِّجَال ٦: ٣٠٠.

١٠- تهذيب التَّهْذِيب ٩: ٤٥٠.

هاشم، فقد أرسلت هذه الرواية، ولم تبين لنا عمن روتها فإنهم يقولون: إنها قد ولدت بعد البعثة، وإن كنّا نحن نناقش في ذلك، كما ربّما نشير إليه في ما يأتي.

وأخيرًا، فإنّ لنا كلامًا طويلًا في بقيّة رجال الأسانيد في الصحاح وغيرها لا مجال له هنا، ونكتفي بهذا القدر، لنشير إلى بقيّة ما في الرواية من مواضع للنظر، فنقول:

و ثانيًا - تناقض الروايات الظاهر لدى كلّ أحد، ويظهر ذلك بالملاحظة والمقارنة، ونكل ذلك إلى القارئ نفسه. ولو أنّ الاختلاف كان بالزيادة والتقيصة لأمكن قبوله، على اعتبار أنّ أحدهما حفظ دون الآخر، أو تعلّق غرضه بهذا التحو من النقل، وذاك بنحو آخر. وكذا لو كان التناقض في مورد واحد مثلاً، فلربّما يمكن الاعتذار عن ذلك بأنّ من الممكن وقوع الاشتباه غير العمدي من أحد الثقلّة.

ولكنّ الأمر هنا أبعد من ذلك، فإنّ التناقض والاختلاف إن لم يكن في كلّ ما تضمّنته تلك الروايات من نقاط، ففي جلّها ممّا يعني أنّ ثمة تعمدًا للوضع والجعل، وقد يما قيل: لا حافظة للكذب.

هذا كلّ مع غضّ النظر عن المناقضة بين هذه الروايات وبين الرواية التي يذكرها البخاريّ نفسه في أول كتابه بعد هذه الرواية مباشرة، من أنّ أول ما نزل عليه ﷺ هو سورة المدثر، وليس في تلك الرواية ذكر لأيّ شيء من تلك الأمور الغريبة والعجيبة التي تضمّنتها رواية عائشة السابقة عليها.

وثالثًا - إنّ رواية الصحاح، بل وسائر الروايات تذكر أنّ جبرئيل قد أخذ النبيّ ﷺ فغطّه، أي عصره وحبس نفسه أو خنقه، حتّى بلغ منه الجهد، أو حتّى ظن أنّه الموت، ثمّ أرسله، وأمره بالقراءة، فأخبره النبيّ ﷺ أنّه لا يعرفها، فلم يقنع منه، بل عاد فغطّه، ثمّ أرسله، وهكذا ثلاث مرّات.

ولنا على هذا الكلام العديد من الأسئلة؛ فإنّا لانعرف ما هو المبرّر لذلك كلّ؟ كيف جاز لجبرئيل أن يروّع النبيّ الأعظم ﷺ، وأن يؤذيه بالعصر والخنق، إلى حدّ أنّه ﷺ يظنّ أنّه الموت؟ يفعل به ذلك، وهو يراه عاجزًا عن القيام بما يأمره به، ولا يرحمه، ولا يلين معه! ولماذا يفعل به ذلك ثلاث مرّات، لا أكثر ولا أقلّ؟ ولماذا صدّقه في الثالثة، ولا

يصدّقه في المرة الأولى أو الثانية؟ وإذا كان النبي ﷺ قد كذب عليه أولاً، فكيف بقي أهلاً للنبوّة؟ وإذا كان قد صدّقه فلما ذالم يقتنع جبرئيل بكلامه، وعاد فخنقة حتّى ليطنّ أنّه الموت؟! وأيضاً، هل جاء جبرئيل إليه بكتاب ليقرأه؟ إذ أن قوله ﷺ: «ما أنا بقارىء» إنّما يصحّ لو كان ﷺ قد فهم أن جبرئيل يأمره بالقراءة نفسها لا بتعلّم القراءة كما ذكره السنّديّ...
وإذا كان المراد القراءة بمعنى التلاوة، فلماذا يطلب منه جبرئيل ذلك قبل أن يتلوا عليه شيئاً؟ ثمّ لماذا يعاند هو ويرفض ذلك؟ وبعد هذا كلّه، لماذا يستسلم النبي ﷺ لجبرئيل ليعذّبه على هذا النحو الذي لا مبرّر له؟.

ثمّ لماذا يرجع مرعوباً خائفاً؟ ألم يكن باستطاعته أن يلطمه لطمه يقطع بها عينه كما فعل موسى بملك الموت من قبل؟ حيث إنّ لما جاء ليقبض روحه، لطمه على عينه فقلّعها، كما نصّ عليه البخاريّ وكثير من المصادر الأخرى^١. أم يعقل أنّه كان - والعياذ بالله - جبّاناً إلى هذا الحدّ؟ وكانت الشّجاعة من مختصّات نبيّ الله موسى وحده؟.

إشارة: هذا، ومن المضحك المبكي هنا، أن نجد البعض يحاول أن يستدلّ بهذه الرواية على رأي يكذّبه العقل والنقل، وبالذات يكذّبه نصّ القرآن الكريم، فنراه يجعل ذلك دليلاً على جواز التّكليف بما لا يطاق^٢ - كما هو مذهبه - الأمر الذي يصادم العقل والفطرة، ويخالف القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^٣ وقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^٤، وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^٥، وغير ذلك كثير.

رابعاً - حول ما يذكر من خوفه ﷺ، ودور زوجته وورقة وغيرهما في بعث الطّمانينة في نفسه نذكر:

١ - حاشية السنّديّ على البخاريّ بهامشه ١: ٣ ط: سنة ١٣٠٩.

٢ - البخاريّ ١: ١٥٢، أبواب الجنائز ٢: ١٥٩ باب وفاة موسى عليه السلام وصحيح مسلم ٧: ١٠٠ باب فضائل موسى، ومسند أحمد ٢: ٣١٥، ومصنّف الحافظ عبدالرزاق ١١: ٢٧٤ وسنن التّسائي ٤: ١١٨ وتاريخ الطّبريّ ١: ٣٠٥، والبداية والنهاية ١: ٣١٧، والغدير ١١: ١٤٠، ١٤١، وعن مختصر تذكرة القرطبيّ للشّعرازيّ: ٢٩، والمرانس للتّعلبيّ: ١٣٩.

٣ - فتح الباري ٨: ٥٥١ وإرشاد الساري ١: ٦٣.

٤ - البقرة / ٢٨٦.

٥ - البقرة / ١٨٥.

٥ - الحجّ / ٧٨.

ألف - كيف يجوز إرسال نبيٍّ يجهل نبوة نفسه، و يحتاج في تحقيقها إلى الاستعانة بامرأة أو نصرانيٍّ؟ ألم تكن هي - فضلاً عن ذلك النصراني - أجدر بمقام النبوة من ذلك الخائف المرعوب الشاك؟ ولماذا لم يستطع هو أن يدرك ما أدركته تلك المرأة، و ذلك النصراني؟ أم يعقل أن يكون كلاهما أكبر عقلاً وأكثر معرفةً بالله و تفضلاً منه؟ نعوذ بالله من الزلل في القول والعمل...

وإذا جاز أن يرتاب هو مع معانيته لما يأتيه من ربه، فكيف ينكر على من ارتاب من سائر الناس، مع عدم معانيتهم لشيء من ذلك؟ قال السندي: مقتضى جواب خديجة، والذهاب إلى وَرَقَةَ أَنْ هَذَا كَانَ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ الشَّكِّ، و هو مشكل بأنّه لَمَّا تَمَّ الوحي صار نبياً، فلا يمكن أن يكون شاكاً بعد في نبوته، و في كون الجائي عنده ملكاً من الله، و كون المنزل عليه كلام رب العالمين.

ثم حاول السندي توجيه ذلك بأنه أراد اختبار خديجة، و أن يمهّد لإعلامها بالأمر^١. و هو توجيه عجيب، فإننا لم نعهد منه عليه السلام اتباع مثل هذه الأساليب الملتوية في الوصول إلى مقاصده، و نحن نجلّه عليه السلام عن نسبة الكذب إليه على خديجة، معاذ الله، ثم معاذ الله! ثم كيف يتناسب ذلك مع كونه أراد أن يلقي نفسه من شواحق الجبال، و غير ذلك ممّا تقدّم ممّا ذكرته روايات الوحي؟.

وأيضاً، كيف يبعث الله رجلاً، قبل أن يربيّه تربية صالحة، و يعدّه إعداداً تامّاً، بحيث يستطيع أن يكون في مستوى الحدث العظيم الذي ينتظره؟ نعم، كيف أهمله هكذا حتّى إنّه حين بعثته ليبدو مذعوراً خائفاً، ظانّاً بنفسه الجنون، يريد أن يلقي بنفسه من شواحق الجبال، حتّى كأنّه طفل تائه، يملأ قلبه الهمّ، يحتاج إلى من يطمئنه ويهديه و يأخذ بيده، و لو امرأة أو أي إنسان عاديٍّ آخر؟ هذا كلّه عن أنّ ذلك يدلّ على ضعف إرادته و ضآلة شخصيّه. وأين ذهبت عن ذاكرته تلك الكرامات التي يواجهها دون كلّ أحد، كتسليم الشجر والحجارة عليه^٢، والرؤيا الصادقة، و غير ذلك ممّا ذكره المؤلفون والمؤرخون؟.

١ - حاشية السندي بهامش البخاري ط: سنة ١٣٠٩ هـ ٣:١.

٢ - سيرة ابن هشام ١: ٢٣٤ - ٢٣٥.

ب - قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾^١. وقال تعالى ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^٢. وقال: ﴿إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾^٣. وقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾^٤.

وإذن، فالثبوت و تنزيل القرآن ليس إلا لتثبيت المؤمنين، ولتثبيت فؤاد النبي ﷺ، وهذا يتنافى مع قولهم: إن نفسه الشريفة قد سكنت اعتماداً على قول نصراني أو امرأة. كما أن من الواضح أنه لا حاجة بيّنة في قول وَرَقَّة أو خديجة، فكيف صح أن يقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي...؟﴾

و خامساً - لا بد من الإشارة إلى بعض الكلام حول وَرَقَّة و نسطور و عدّاس و بحيرا وغيرهم، ممّن ذكرت أَسْمَاءُهم فيما تقدّم، وعمدة الروايات تتّجه نحو وَرَقَّة و تركّز عليه، ولا سيما وأنّه هو الذي نصّ عليه البخاري وغيره من المصادر الموثوقة لدى غير الشيعة.

١- أمّا نسطور و بحيرا فهما الزّاهبان اللذان تنسب إليهما القضية التي جرت للنبي ﷺ في صغره، حينما سافر مع أبي طالب إلى الشام و بُصرى؛ حيث بشر نسطور أو بحيرا بنبوة النبي ﷺ، و أمر بإعادته ﷺ إلى مكّة كما تقدّم.

و إذا كان بحيرا أو نسطور في بُصرى - وهي قصبة كورة حوران في الشام من أعمال دمشق - فيرد السّؤال كيف سافرت خديجة من مكّة إلى الشام هذه السّفرة الطويلة؟ أو متى كتبت إليه مع أنّهم يقولون: إنّهُ ﷺ بعث في أوّل يوم، فأسلم عليّ و خديجة ﷺ في اليوم الثاني، و صلّيا معه مسلمين مؤمنين بنبوته؟ و هل كان في ذلك الزّمان طائرات؟ أو أنّها سافرت على بساط الرّيح أو طويت لها الأرض؟! و لا ندرى فلعلّهم قد انتقلوا ليسكنوا قرب مكّة؛ لتتمكن خديجة من استشارتهم في الوقت المناسب، ثم لا يعود يسمع لهما ذكر أصلاً؛ لأنّ مهمّتهما قد انتهت.

٢- و عدّاس، أليس هو الذي أسلم على يد النبي ﷺ في الطائف بعد عشر سنين من

البعثة، أي بعد وفاة أبي طالب عليه السلام؟ وتروي القصّة بنحو يدلّ أنّ عدّاسًا لم يكن يعرف النَّبِيَّ عليه السلام قبل ذلك، وستأتي القصّة. كما أنّ الروايات تنصّ على أنّ جوابه هو نفس جواب وَرَقَةَ، وعلى أنّه كان - كَوَرَقَةَ - راهبًا كبير السنّ، قد وقع حاجباه على عينيه، وقد ثقل سمعه إلخ. وهذه الأوصاف يشاركه فيها غيره ممّن سألتهم خديجة، ماعدائقل السّمع الذي عوّض عنه وَرَقَةَ المسكين بالعمى.

و يبقى هنا سؤال أخير، وهو أنّه كيف لم يسمع بإسلام هؤلاء: بحيرا و عدّاس و نستطور من حين بعثته عليه السلام مع معرفتهم بأنّ النَّبِيَّ عليه السلام قد بعث، ومع أنّ سند نبوّته تلقّاه عليه السلام منهم حسب نصّ الروايات المتقدّمة؟.

كما أنّ رواية عدّاس تقول: إنّهُ لَمَّا عادت خديجة من عند عدّاس، إذا بجبرئيل يقرئ النَّبِيَّ عليه السلام سورة القلم. وهذا مخالف لما يذكره المفسّرون من أنّ هذه السّورة إنّما نزلت حينما وصف المشركون النَّبِيَّ عليه السلام بأنّه مجنون^١، وواضح أنّ هذا لم يحصل إلّا بعد انتهاء فتره الدّعوة السّريّة، وحينما صدع بما يؤمر به كما هو معلوم.

٣- وَ وَرَقَةَ، فإنّهم بالإضافة إلى ما ينسبونه له من دورهاّم في تثبيت نبوّه نبينا عليه السلام، نجدهم يذكرون أنّه عليه السلام قد قال عن وَرَقَةَ كلامًا يدلّ على أنّه في الجنّة، ولكنهم اختلفوا في نصّ ذلك الكلام، ففي رواية: «لا تسبّوا وَرَقَةَ - فإنّي رأيت له جنّة، أو جنتين...» أو «رأيت في ثياب بيض» وفي أخرى: «لقد رأيت القسّ - يعني وَرَقَةَ - في الجنّة عليه ثياب الحرير» وفي ثالثة: «أبصرته في بطنان الجنّة و عليه ثياب السّدس» وفي رابعة: «قد رأيت به فرأيت عليه ثيابًا بيضًا، وأحسبه لو كان من أهل النّار لم تكن عليه ثياب بيض»^٢.

وعده ابن مندّة في الصّحابة، و عدّه الزّين العراقيّ على أنّه أوّل من أسلم، و مال إليه البلقيّني^٣.

١- الذّر المنثور ٦: ٢٥٠ والسّيرة الحليّة ١: ٢٤٤.

٢- راجع في تلکم النصوص مستدرک الحاكم ٢: ٦٠٩ وتلخيصه للذهبي هامش نفس الصفحة، وصحّاه على شرط الشّخين، و سيرة منطاي: ١٥ عن الحاكم، والمصنّف ٥: ٣٢٤ و نسب قریش لمنصب الزّبيری: ٢٠٧، والبداية و النهاية ٣: ٩ و الرّوض اللّاف ١: ٢٧٥ و السّيرة الحليّة ١: ٢٥٠ و أسد الغابة ٥: ٨٩ و الإصابة ٣: ٦٣٥ و غير ذلك...

٣- شرح بهجة المحافل ١: ٧٤ وإرشاد السّاري ١: ٦٧.

و تقدّم في الروايات بدء الوحي التي هي موضع المناقشة أنّه صدّق النبي ﷺ، وعرفه أنّه نبيّ، و وعده النّصر، ثم لم ينشب أن توفي. هذا ما قيل عنه، و لكننا نجد في مقابل ذلك:

١- أنّ ابن عسّاكر يقول: لا أعرف أحداً قال: إنّهُ أسلم^١.

٢- وابن الجوزيّ يقول: إنّهُ آخر من مات في الفترة، و دفن في الحجون، فلم يكن مسلماً، وكذا قال غيره^٢.

٣- وابن عباس يقول: مات على نصرانيّته^٣.

٤- لقد مات على نصرانيّته، مع أنّه عاش بعد البعثة عدّة سنوات، فكيف يدخل الجنّة إذن؟ و يدلّ على أنّه عاش بعد البعثة عدّة سنوات مارواه غير واحد من أنّه كان يمرّ ببلال و هو يعذب، ونهاهم عنه فلم ينتهوا، فقال: والله، لئن قتلتموه لأتخذنّ قبره حنائاً^٤ و تعذيب بلال إنّما كان بعد الإعلان بالدعوة كما هو معروف.

وكيف يصحّ قول البعض: إنّهُ مات بعد النّبوة و قبل الرّسالة^٥؟.

وقد أسلم عليّ و خديجة، وصلياً ثاني يوم البعثة، بدعوة منه ﷺ، فلماذا بقي ورقة على نصرانيّته هذه السنين المتعدّدة؟.

هذا، عدان أنّ البعض قد استنتج ممّا رواه البخاريّ و غيره، من أنّ سورة المدثر كانت أوّل منازل عليه ﷺ و بالذات من قوله: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ استنتج أنّ البعثة كانت مقترنة بالنّبوة^٦.

٥- قال في «الإمتاع» و غيره: إنّ ورقة قد توفي في السّنة الرابعة للمبعث، أو بعد تتابع الوحي^٧.

١- الإصابة ٣: ٦٣٣.

٢- الإصابة ٣: ٦٣٤ و السّيرة النّبوية لدحلان ١: ٨٣ - ٨٤ و السّيرة الحليّة ١: ٢٥٠.

٣- السّيرة الحليّة ١: ٢٥٠ و الإصابة ٣: ٦٣٤.

٤- جلية الأولياء ١٤٨: ١ و نسب قرّيش لمصعب: ٢٠٨، و إرشاد السّاري ١: ٦٧ و فتح الباري ١: ٢٦٦ و ٨: ٥٥٤ و السّيرة النّبوية لدحلان ١: ٨٤ و ١٢٥ و السّيرة الحليّة ١: ٢٥٢ و الإصابة ٣: ٦٣٤، و ليراجع نهاية ابن الأثير ١: ٢٦٦ و السّيرة النّبوية لابن كثير ١: ٩٢٢.

٥- السّيرة النّبوية لدحلان ١: ٨٤ و غيره...

٦- السّيرة الحليّة ١: ٢٥١.

٧- السّيرة الحليّة ١: ٢٥٠ و ٢٥٢ عن كتاب الخميس عن الصّحّاحين، و السّيرة النّبوية لدحلان ١: ٨٤.

٦- بل نقل عن الواقديّ أنّه توفّي بعد الأمر بالقتال^١، وكان ذلك بعد الهجرة.
و عليه فكيف يكون ورقة في الجنّة عليه ثياب السندس أو الحرير؟ وكيف يكون هو في الجنّة، وأبو طالب حامي الإسلام والدين في ضحاح من نار؟!
و بعد ذلك كلّ، فإنّا لم نفهم سبب تردّد النبيّ ﷺ في أن يكون له جنّة أو جنتان، ولا نفهم أيضاً لماذا قال: وأحسبه لو كان من أهل الثّار لم يكن عليه ثياب بيض؟ أم لعلّه نسي أنّه قد قال: إنّّه رآه في الجنّة عليه ثياب السندس أو الحرير؟ أو أنّ النبيّ نفسه ﷺ قد ترقّى و تدرّج في التعرّف على ما لورقة من مقام؟ أم أنّ ورقة نفسه قد ترقّى في مدارج القرب والزّلفى؟!.

وأخيراً، فإنّا لاندري بعد ورود تلك الأقوال فيه لماذا لم يحكم المسلمون جميعاً بأنّه أوّل من أسلم، لا عليّ ولا خديجة ولا غيرها؟ ولماذا لا يعدّونه من جملة الصّحابة؟ وكيف يقولون: إنّّه توفّي وهو على نصرانيّته؟ ثمّ كيف يدخل هذا النّصرانيّ الجنّة؟ كانت تلك بعض الأسئلة الّتي تحتاج إلى جواب، وأنّى...

و ثمة أسئلة أخرى

هذا غيض من فيض ممّا يرد على تلك الروايات، وبقي فيها الكثير من الأسئلة الّتي تحتاج إلى جواب، فمثلاً حول ذهاب المَلَك حينما كشف خديجة قناعها، وأدخلته ﷺ بين درعها وجلدها. يستدعي سؤال: إنّّه هل الحجاب في ذلك الوقت مفروضاً تلتزم به النساء؟ وكيف وهم يقولون: إنّ الحجاب قد فرض في المدينة بعد الهجرة وبعد وفاة خديجة ؑ؟ فكيف إذن أدركت خديجة أنّ المَلَك يذهب إذا كانت بلا قناع؟
و أيضاً هل الملك مكلف بعدم النّظر إلى نساء البشر؟ وهل للملك شهوة كشهوة الإنسان لا بدّ من الاحتراس منها؟ ومن أين عرفت خديجة كلّ ذلك؟.

وسؤال آخر، إنّ بعض الروايات تقول: إنّ الملك قد أخبره أنّه رسول الله، وليس ما يراه من قبيل الشّعر أو الجنون، فلماذا بقي شاكّاً، واحتاج تثبیت خديجة و ورقة أو

غيرهما له؟ إلى غير ذلك من الأسئلة الكثيرة التي لن تجدها عند هؤلاء الجواب المقنع والمفيد.

و من الطَّعْنِ فِي النَّبَوَةِ أَيْضًا

وبالمناسبة، فإنَّ كُلَّ ما تقدَّم لم يفهم، بل زادوا عليه أنَّه كان للنَّبِيِّ ﷺ عدوٌّ من شياطين الجنِّ يسمَّى الأبيض، كان يأتيه في صورة جبرئيل، ولعله الشَّيْطَان الَّذِي أعانه الله عليه فأسلم كما يقولون^١، وشيطانه هذا الَّذِي أسلم كان يجري منه مجرى الدَّم^٢، وكان يدعوا لله بأن يخسأ شيطانه، فلما أسلم ذلك الشَّيْطَان ترك ذلك^٣.

ويروون أيضًا أنَّه ﷺ قد صلَّى بهم الفجر، فجعل، يهوي بيديه قُدَّامه وهو في الصَّلَاة، وذلك لأنَّ الشَّيْطَان كان يلقي عليه النَّار؛ ليفتنه عن الصَّلَاة^٤.

ونحن لانشك في أنَّ هذا كله من وضع أعداء الدِّين، بهدف فسح المجال أمام التشكيك في النَّبَوَةِ وفي الدِّين الحقِّ. وقد أخذ بعض المسلمين - لربما - بسلامة نيَّة، وحسن طويَّة، وبلا تدبُّر أو تأمُّل، سامحهم الله وعفاهم.

والغريب في الأمر أنَّنا نجدهم في مقابل ذلك يروون عنه ﷺ قوله لعمر: «والَّذي نفسي بيده، مالتيك الشَّيْطَان قَطَّ سالكًا فجًّا، إلَّا سلك فجًّا غير فجك^٥»، وقوله له: «إنَّ الشَّيْطَان ليخاف منك يا عمر^٦»، وقوله: «إنَّ الشَّيْطَان لم يلقَ عمر منذ أسلم إلَّا خَرَّ لوجهه^٧». وعن مجاهد: كنَّا نتحدَّث، أو نحدِّث إنَّ الشَّيْطَان كان مصفِّدة في إمارة عمر، فلما أُصيب بثَّت^٨. و صار عمر الشَّيْطَان مرَّات، وفي كلِّ مرَّة يصصره عمر^٩.

١ - السِّيرة الخَلْبِيَّة ١: ٢٥٣، وراجع إحياء علوم الدِّين ٣: ١٧١ وفي هامشه عن مُسلم، والغدير ١١: ٩١ عنه، والمواهب الدُّدِّيَّة ١: ٢٠٢. ومشكل الآثار ١: ٣٠. وراجع حياة الصَّحابة ٢: ٧١٢ عن مُسلم وعن المشكاة: ٢٨٠.

٢ - مشکل الآثار ١: ٣٠. - المصدر السابق.

٣ - المصنَّف ٢: ٢٤ وراجع البخاري ط: سنة ١٣٠٩ هـ ١٣٧: ١ و١٤٣: ٢.

٤ - صحيح مُسلم ٧: ١١٥، والبخاري ط: سنة ١٣٠٩ (٢: ١٤٤ و ١٨٨ و مسند أحمد ١: ١٧١ و ١٨٢ و ١٨٧.

٥ - صحيح التِّرْمِذِيّ كتاب ٤٦ باب ١٧، وفيض القدير عنه وعن أحمد وابن حَبَّان.

٦ - عن فيض القدير ٢: ٣٥٢ عن الطَّبْرَانِيّ وابن مُثَنَّة وأبي نُعَيْم، والإصابة ٤: ٣٢٦ عنهم.

٧ - منتخب كنز العمال، هامش مسند أحمد ٤: ٣٨٥ - ٣٨٦، عن ابن عساكر و حياة الصَّحابة ٣: ٦٤٧ عن المنتخب.

٨ - حياة الصَّحابة ٣: ٦٤٦ عن مجمع الزَّوَاعِد ٧: ٧١ عن الطَّبْرَانِيّ، وعن أبي نُعَيْم في الدَّلَال: ١٣١.

هذا عمر! وهذه حالة الشيطان معه! وذلك هو نبي الإسلام الأعظم ﷺ، وتلك هي حالته مع الشيطان عند هؤلاء الذين تروق لهم هذه الترهات، ويستقبلونها من أعداء الإسلام والمتاجرين به بسذاجة هي إلى الغباء أقرب. ولربما يكون الدافع لدى بعضهم أن يجد لأبي بكر الذي قال حين أصبح خليفة: إن له شيطاناً يعتره به أن يجد له نظيراً، ولكن من مستوى لا يداني ولا يجاري، فوقع اختياره على النبي الأعظم ﷺ، ليكون هو ذلك النّظير، فإنّا لله وإنا إليه راجعون.

ما هو الصحيح في قضية بدء الوحي؟

والذي نطمئن إليه هو أنه قد أوحى إلى النبي ﷺ، وهو غار حراء، فرجع إلى أهله مستبشراً مسروراً بما أكرمه الله به مطمئناً إلى المهمة التي أوكلت إليه - كما يرويه ابن إسحاق، وأشارت إليه الرواية الأخيرة التي تقدّمت عند ذكر نصوص الروايات، وإن كان قد زيد فيها ما لا يصحّ - فشاركه أهله في السرور، وأسلموا، وقد روي هذا المعنى عن أهل البيت عليه السلام. فعن زرارة أنه سأل الإمام الصادق عليه السلام: كيف لم يخف رسول الله ﷺ فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ممّا ينزع به الشيطان؟ فقال «إن الله اتخذ عبداً رسولاً، أنزل عليه السكينة والوقار، فكان الذي يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه»^١. وسئل عليه السلام: كيف علمت الرّسل أنّها رسل؟ قال: «كشف عنهم الغطاء»^٢.

وقال الطبرسي: إن الله لا يوحى إلى رسوله إلا بالبراهين الثبيرة، والآيات البيّنة الدالة على أن ما يوحى إليه إنّما هو من الله تعالى، فلا يحتاج إلى شيء سواها، ولا يفرّق ولا يفرق^٣.

وقال عياض: لا يصحّ أن يتصوّر له الشيطان في صورة الملك، ويلبس عليه الأمر، لافي أوّل الرسالة ولا بعدها، والاعتماد في ذلك على دليل المعجزة، بل لا يشكّ النبي أن ما يأتيه من الله هو الملك ورسوله الحقيقي، إمّا بعلم ضروري يخلقه الله له، أو

١ - التمهيد في علوم القرآن ١: ٤٩ عن العياشي ٢: ٢٠١ والبحار ٨: ٢٦٢.

٢ - مجمع البيان ١٠: ٣٨٤، والتمهيد ١: ٥٠.

٣ - التمهيد ١: ٥٠ والبحار ١١: ٥٦.

ببرهان جلِّي يظهره الله لديه: لتستَم كلمة ربك صدقًا وعدلاً، لا مبدل لكلمات الله^١

لماذا الكذب والافتعال إذن؟

وبعد كل ما تقدّم، فإننا نرى أنّ افتعال تلك الأكاذيب يعود لأسباب، أهمّها:

١- إنّ حديث الوحي هو من أهمّ الأمور التي يعتمد عليها الاعتقاد بحقائق الدّين وتعاليمه، وله أهميّة قصوى في إقناع الإنسان بضرورة الاعتماد في التّشريع والسلوك والاعتقاد والإخبارات الغيبيّة، وكلّ المعارف والمفاهيم عن الكون وعن الحياة على الرّسل والأنبياء والأئمّة والأوصياء. وله أهميّة كبرى في إقناعه بعصمة ذلك الرّسول، وصحّة كلّ مواقفه وسلوكه وأقواله وأفعاله.

فإذا أمكن أن يتطرّق الشّكّ في نفسه إلي الوحي، على اعتبار أنّه إذالم يستطع النّبِي ﷺ نفسه أن يفرّق بين الملك والشّيطان والوسوسة والحقيقة، وهو يعاين ويشاهد، فإنّ غيره وهو لا يتيسّر له الإطلاع الحسيّ على شيء من ذلك يكون أولى بالشّكّ وعدم الاعتماد. وقد نقل الحجّة البلاغيّ؛ أنّ بعض أهل الكتاب قد نقض على المسلمين بذلك، فقال: الشّيطان قرين محدّد، وتثبت بنقله عن بعض المفسّرين قولهم: إنّ كان لرسول الله عدوّ من شياطين الجنّ، كان يأتيه بصورة جبرئيل، وأنّه يسمّى الأبيّض^٢. وبعد هذا، فإننا نستطيع أن نعرف سرّ محاولات أعداء الإسلام الدّائبة للتّشكيك في اتّصال نبيّنا الأعظم ﷺ بالله تعالى، فافتلوا الكثير ممّا أوّه مناسباً لذلك، من الوقائع والأحداث التي رافقت الوحي في مراحلهِ الأولى، أو حرّفوه وحوّروه حسب أهوائهم وخططهم ومذاهبهم، على اعتبار أنّها فترة بعيدة نسبياً عن متناول الأيدي عادة. فلمّا فشلوا في ذلك حاولوا ادّعاء أنّ ما جاء به نبيّنا ﷺ كان نتيجة عبقرّيته ونبوغه، وعمق تفكيره، ومعرفته بطرق استغلال الظّروف، وانتهاز الفرص، وليس لأجل اتّصاله بالمبدئيّ الأعلى تبارك وتعالى. وهكذا، فإننا نستطيع أن ننّهم يد أهل الكتاب في موضوع الأحداث غير المعقولة

١- التمهيد ١: ٥٠ عن رسالة الشفاء: ١١٢.

٢- الهدى إلى دين المصطفى ١: ١٦٩ عن كتاب الهداية في الردّ على إظهار الحقّ، والسيف الحميدي ٣: ٥.

التي تنسب زوراً وبهتاناً إلى مقام نبيِّنا الأعظم ﷺ حين بعثته، ولا أقلَّ من تشجيعهم لمثل هذه الترهات.

٢- كما أنَّه لا بدَّ وأن يحتاج نبيِّنا ﷺ إليهم لإمضاء صلِّ نبوته، وتصديق وحيه، ويكون مدينًا لهم، وعلى كلِّ مسلم أن يعترف بفضلهم، وبعق وسعة اطلاعهم، ومعرفتهم بأمر لا يمكن أن تعرف إلاَّ من قبلهم، فكان اختراع هذا الدَّور لَوَرَقَة و عَدَّاس و بحيرا و ناصح و نسطور، وكلِّهم أهل الكتاب.

٣- إنَّنا لا ندري لماذا اختصَّ نبيِّنا ﷺ بكلِّ تلك المصاعب والأهوال، وبهذه المعاملة السيِّئة من جبرائيل؟ حتَّى لقد صرَّح البعض أنَّه لم ينقل عن أيِّ من الأنبياء السابقين أنَّه تعرَّض لمثل ذلك عن ابتداء الوحي، حتَّى عدَّ ذلك من خصائص نبيِّنا ﷺ. ولكن، هذا الإشكال ينحلُّ إذا لاحظنا أنَّ بعض الأمور والأحوال غير المعقولة قد تسرَّبت إلى بعض المسلمين من قبل أهل الكتاب، حتَّى أصبحت جزء من التَّاريخ والفقه والعقائد وإلخ.

وإذن، فليس غريباً أن نجد ملامح هذه القصة موجودة في العهدين، فقد جاء في الكتابين اللَّذَيْن يطلق عليهما اسم التَّوراة والإنجيل: أنَّ دانيال خاف وخرَّ على وجهه، وذكرياً اضطرب ووقع عليه الخوف، ويوحنا سقط في رؤياه كميَّت، وعيسى تغيَّرت هيئته وجهه، وبطرس حصلت له غيبوبة وإغماء، وهكذا الحال بالنسبة ليعقوب وإسراهم وغيرهم.^٢

ولكن ذلك لا يعني أنَّنا ننكر ثقل الوحي عليه ﷺ، فإنَّ ذلك بحث آخر^٣، ولكننا ننكر اضطرابه وخوفه ﷺ، حتَّى أراد أن يتردَّى من شواهِق الجبال، وخاف على نفسه الجنون. وننكر ما فعله به جبرئيل، حسب ما ذكرته الرِّوايات المتقدِّمة، فإنَّ الظَّاهر أنَّ ذلك قد تسرَّب من قبل أهل الكتاب إلى المحدثين الأتقياء، أو فقل: الأغبياء، كما هو

١ - بهجة المحافل ٦٢:١ وفتح الباري ٥٢:٨، وإرشاد السَّاري ٦٣:١ والسَّيرة الحليَّة ١: ٢٤٢.

٢ - راجع في ذلك كلُّه الهدى إلى دين المصطفى، للحجَّة البلاغي ١: ١٤.

٣ - وقوله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقْبَلُهُ﴾، يرى المحقِّق السيِّد مهدي الرُّوحاني أنَّ معناه أنَّ مهمَّة دعوة النَّاس إلى الحقِّ وترك عاداتهم و ما هم عليه حتَّى يزكِّهم، من أثقل الأمور وأصعبها.

الحال في كثير من نظائر المقام، حسبما يظهر للتأد البصير، والمتتبع الخبير.

٤- إنك تجد في العهدين أن الشيطان يتصرف بالأنبيا و غيرهم حتى بابين الإله بزعمهم، فيقولون: إن الروح أصدع المسيح إلى البرية أربعين يوماً؛ ليجرب من قبل إبليس، فأصعده الشيطان إلى جبل عال، وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان، وقال له: أعطيك هذا السلطان كله، واسجد لي إلخ^١.

وقال في موضع آخر: ولما أكمل إبليس كل تجربة (أي مع المسيح) فارقه إلى حين^٢. ويقول بولس الرسول: ولثلاً أرتفع بفرط الأعلانات أعطيت شوكة في الجسد ملاك الشيطان ليلطمني: لثلاً أرتفع، من جهة هذا تضرعت إلى الرب ثلاث مرّات أن يفارقني^٣. ويقولون في موضع آخر: لذلك أردنا أن نأتي أنا وبولس مرّة و مرّتين، وإنّا عاقنا الشيطان^٤.

كما أن الإنجيل يذكر أن المسيح قد عبّر عن بطرس بأنه الشيطان^٥، إلى غير ذلك ممّا لا مجال لتتبعه، ولا بأس بمراجعة كتاب الهدى إلى دين المصطفى (١: ١٦٩ - ١٧٣) في ذلك.

٥- و عدا عن ذلك كله، فإننا لانستبعد أن يكون الهدف من جعل تلك الترهات هو الحطّ من كرامة النبي الأعظم ﷺ، والطعن في قدسيته ومقامه في نفوس الناس، وتصويره لهم على أنّه رجل عاديّ مبتذل، ولا أدلّ على ذلك من احتياجه إلى أبسط الناس حتّى النساء؛ ليرشده إلى طريق الهدى، ويدلّه على الحقّ، ممّا يدلّ على أنّه قاصر محتاج باستمرار إلى مساعدة الآخرين الذين هم أحسن تصرّفًا وأكثر تعقلاً منه. وقد أشرنا في تمهيد الكتاب إلى بعض ما يمكن أن يقال في ذلك، وأنّ الظاهر هو أنّ تلك خطّة السياسيين الذين يريدون أن يرغموا أنوف بني هاشم، و يزيّونهم سياسيًا، من أمثال معاوية الذي أقسم على أن يدفن ذكر النبي ﷺ، ومع معاوية سائر الأمويين وأعوانهم.

١ - إنجيل متى الإصحاح ٤ الفقرة ٣ - ١٣ و الهدى إلى دين المصطفى ١: ١٧٠ عنه.

٢ - الهدى إلى دين المصطفى ١: ١٧١ عن إنجيل لوقا ١٣.

٣ - كورنثوس الثانية الإصحاح ١٢ فقرة ٧ - ٩.

٤ - تسالونيكي الأولى الإصحاح ١٦ فقرة ٢٣، و الهدى إلى دين المصطفى ١: ١٧١.

٥ - إنجيل متى الإصحاح ١٦ فقرة ٢٣، و الهدى إلى دين المصطفى ١: ١٧١.

ومن أمثال عبدالله بن الزُّبَيْر الَّذِي قَطَعَ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَدَّةً طَوِيلَةً؛ لِأَنَّ لَهُ أَهِيلَ سَوْءٍ، إِذَا ذَكَرَ شَمَخَتْ أَنَافَهُمْ^١.

٦- لَقَدْ كَانَ الزُّبَيْرِيُّونَ يُوَاجِهُونَ وَيَنَافِسُونَ الْأُمَوِيِّينَ، وَيَعَادُونَ الْهَاشِمِيِّينَ، وَيَحْسَدُونَهُمْ عَلَى مَالِهِمْ مِنْ شَرَفٍ وَسُوءٍ. وَإِذَا لَاحَظْنَا أَنَّ عَمْدَةَ رِوَاةِ قَضِيَّةٍ وَرَقَّةً هُمْ مِنَ الزُّبَيْرِيِّينَ وَحِزْبِهِمْ، كَعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ الَّذِي اصْطَنَعَهُ مَعَاوِيَةُ؛ لِيَضَعَ أَخْبَارًا قَبِيحَةً فِي عَلِيِّ وَكَاسِمَاعِيلَ بْنِ حَكِيمٍ مَوْلَى آلِ الزُّبَيْرِ، وَكَذَلِكَ وَهَبُ بْنُ كَيْسَانَ، ثُمَّ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ خَالَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ. ثُمَّ لَاحَظْنَا فِي الْمَقَابِلِ أَنَّ خَدِيجَةَ هِيَ بِنْتُ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدٍ، وَرَقَّةٌ هُوَ ابْنُ ثَوْقَلِ بْنِ أَسَدٍ، وَالزُّبَيْرِيُّ هُوَ ابْنُ الْعَوَّامِ بْنِ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدٍ، فَتَكُونُ النَّسَبَةُ بَيْنَ الْجَمِيعِ وَاضِحَةً الْمَعَالِمِ. إِذَا لَاحَظْنَا ذَلِكَ كُلَّهُ، فَإِنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ أَنَّهُ كَانَ لَا بَدَّ وَأَنْ يَكُونَ لِأَقَارِبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ بْنِ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدٍ، وَمِنْ ثَمَّ لِلزُّبَيْرِيِّينَ بِشَكْلِ عَامٍّ دَوْرٌ حَاسِمٌ فِي انْبِعَاطِ الْإِسْلَامِ؛ إِذْ لَوْلَاهُمْ لَقُتِلَ النَّبِيُّ ﷺ نَفْسُهُ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَى لَمْ يَسْتَطِيعْ أَنْ يَكْتَسِفَ نُبُوَّةَ نَفْسِهِ.

وَإِذَا كَانَ لِلزُّبَيْرِيِّينَ هَذَا التَّأْرِخُ الْمَجِيدُ، فَلَيْسَ لِلأُمَوِيِّينَ أَنْ يَفْخَرُوا عَلَيْهِمْ بِخِلَافَةِ عُثْمَانَ، وَلَيْسَ لِلْهَاشِمِيِّينَ أَنْ يَفْخَرُوا بِمَوَاقِفِ أَبِي طَالِبٍ وَوَلَدِهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ. وَإِذْنًا، فَلَا بَدَّ مِنْ دَعْوَى أَنَّ وَرَقَّةً قَدْ تَنْصَرُّ، وَأَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ، إِلَى آخِرِ مَا قِيلَ وَيَقَالُ فِي ذَلِكَ.

النتيجة

وَهَكَذَا، فَإِنَّ النَّتِيجَةَ تَكُونُ هِيَ أَنَّ الْأُمَوِيِّينَ يَسْتَفِيدُونَ مِنْ افْتِعَالِ الْقِصَّةِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ، وَيَحَقِّقُونَ عَزْزَ أَهْدَافِهِمْ وَأَغْلَاهَا، كَمَا أَنَّ الزُّبَيْرِيِّينَ أَيْضًا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا، أَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ لَهُمْ مِنْهَا حِصَّةُ الْأَسَدِ.

وَهَكَذَا، فَقَدْ التَقَّتِ الْمَصَالِحُ وَالْأَهْوَاءُ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، فَلَمَّا ذَا لَا يُدْلِي كُلٌّ بِدَلْوِهِ، وَيَشْجَعُ أَمْثَالُ هَذِهِ التَّرَهَاتِ وَالْأَبَاطِيلِ؟ (٢١٦:١)

الفصل السابع والأربعون

نص الشيخ الملكي (معاصر) في «تفسير مناهج البيان»

أول سورة نزلت من القرآن

(سورة المدثر)

في رواية عن ابن عباس أنهما مكّية وهي السورة الرابعة من القرآن. وقد قيل: إن السورة المباركة كانت أول ما نزلت على رسول الله ﷺ واستدلوا على ذلك بروايات منها: ما في «نور الثقلين» قال: قال الأوزاعي: سمعت يحيى بن كثير يقول: سألت جابر بن عبد الله... [وذكر كما تقدّم عن مسلم الرقم ٧، ثم قال] وفيه أيضًا في رواية أخرى: فجئت منه فرقًا، حتّى هويت إلى الأرض. فقلت: زَمِّلُونِي! زَمِّلُونِي! فنزل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ...﴾^١.

وفي الكشف ٤: ١٨٠ قال: وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ كنت على جبل حِرا فنوديت: يا محمد! إنك رسول الله. فنظرت عن يميني ويساري، فلم أر شيئًا. فنظرت فوقّي، فرأيت شيئًا.

وفي رواية عائشة: فنظرت فوقّي، فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض - يعني الملك الذي ناداه فرعبت ورجعت إلى خديجة فقلت دثروني! دثروني! فنزل جبرئيل وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ...﴾.

وعن الزُّهري: أول ما نزل سورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ - إِلَى قَوْلِهِ: - مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فحزن رسول الله ﷺ وجعل يعلو شواهد الجبال. فأتاه جبرئيل فقال: إِنَّكَ نَبِيُّ اللَّهِ خديجة فقال: دثروني، وصَبُّوا عَلَيَّ ماءً باردًا. فنزل... ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.

وفيه ٤: ١٧٤: وقيل: دخل على خديجة وقد جثت فرقاً أول ما أتاه جبرئيل وبوادره ترعد؛ وقال: زَمِّلُونِي! زَمِّلُونِي! وحسب أنه عرض له. فبينما هو على ذلك، إذ ناداه جبرئيل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ﴾.

أقول: هذه الروايات ونظائرها، لا وزن لها ولا اعتبار بها. إذ هي مرسلات تاريخية لا دليل على التَّعَبُّدِ بها؛ ولا يجوز الاعتماد عليها. فلا تفيد علماً ولا توجب عملاً في شيء من الأحكام، فضلاً عن مثل المقام الذي هو من مُعْظَم المسائل الدِّينِيَّةِ وأصولها. على أَنَّ فيها إهانةً واستخفافاً بمقام النبوة والرسالة، من حيث أَنَّهُ ﷺ لم يعرف جبرئيل، وقد اضطرب واستوحش منه، عند أول مارآه، ثم استأنس به بتكرار ملاقاته، ولم يكن له حجة بينه وبين ربه على رسالته ونبوته، ولم يكن له حجة على أَنَّ من يأتيه ملك مقرب أو غيره، وإِنَّمَا كان ملاقاته إِيَّاهُ من قبيل الأمور العادية، فيصيبه ما يصيب الأشخاص من الخوف والاضطراب وعدم السكون والاعتماد في أمره.

وفي سيرة ابن هشام ١: ٢٤٩-٢٥٥ ما يُقْضَى منه العجب أَنَّهُ كان في ترديد وريب من أمره حتَّى سألت خديجة رضي الله عنها من وَرَقَةٍ؛ وغيرها من القصص المذكورة فيها. أقول: وليس الأمر على ما زعموا، وقد صرح - سبحانه - أَنَّهُ تعالى أَيْدَ رسوله بروح القدس. وهو عبارة عن العلم المفاض على الإنسان الرسول والنبي والصديق. وهذا هو العلم والعيان الحقيقي المصون المعصوم بذاته، يستحيل دخول الريب فيه. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا...﴾^١ وغيرها من الآيات. فهذا العلم الصريح يَعْرِفُ ﷺ جبرئيل عياناً ويكلِّمه مشافهةً. وبهذا العلم يأخذ عنه ما يأخذ وكذلك يأخذ عن الله سبحانه وبهذا العلم يحفظ ما يأخذ. وبه يبلغ ما يبلغ.

وكذلك الكلام بعينه في الإنسان النبي. وهو الذي يأخذ النبأ من الله مستقيماً بلا

واسطة الملك، فيعرف بهذا العلم عياناً وبداهةً أنه نبيّ. ويعرف أن ما أُوحي إليه إنما هو من الله سبحانه لا ريب فيه ولا ترديد، بل كلّها أحكام إلهية وشرائع حقّة؛ فلا يغفل، فلا ينسى، فلا يخطئ، فلا يسهو، فلا يضلّ.

وكذلك الكلام بعينه في الصّدّيق المحدث. وهو الإنسان الذي يحدثه الملك، فيعرف صوته، ولا يرى شخصه فيعرف أن كلّ ما يحدثه من المعارف والحقائق والعلوم، إنّما يفاض إليه من الله - سبحانه. وهذا في غير الأحكام والشرائع. ومن هذا القبيل مُصحف فاطمة الصّدّيقة صلوات الله عليها.

وتفسير الرّسالة والتّبوّة والتّحديث، بهذا المعنى الذي ذكرناه، قد جاء به الكتاب والسّنّة. وتقرّد بذلك التّفسير أئمة أهل البيت عليهم السلام ومن يتّبع منهم، لم يشاركهم أحد فيه ممّن يدّعي العلم والعرفان. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وأما ما زعموا من اضطرابه وحشته عند أول ما رأى جبرئيل، فمختلق عليه عليه السلام ولا دليل على ذلك. ولا وجه لخوفه ودهشته من جبرئيل. لأنّ الله سبحانه - ما جعله رسولاً ولا نبيّاً، إلّا مقارناً بإفاضة روح القدس إليه وتأبيده به. فيعرف عليه السلام مقام شخصه بالنسبة إلى جبرئيل، ومقام جبرئيل بالنسبة إليه، وكذلك ما يوحى إليه من الوحي بواسطة جبرئيل أو ما يأخذه عن الله سبحانه بلا واسطة.

وفي عدّة من الرّوايات أنّ جبرئيل عليه السلام كان يستأذن عليه ويقعد بين يديه.^١ وأما الكلام في خوفه وخشيته عن الله سبحانه سيّما إذا تجلّى له ربّه عند أخذ الوحي بلا واسطة فهو حقيقة أخرى خارج عن محلّ البحث. وهو من باب السّكينة من الرّب وطمأنينة القلب، ومن أشرف مراحل الإيمان والعرفان؛ ليس فيه دغدغة ولا حيرة ولا اضطراب.

في البحار ١٨: ٢٥٦، عن التّوحيد مسنداً، عن عبيد بن زُرارة، عن أبيه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فذك؛ الغشية التي كانت تصيب رسول الله صلى الله عليه وآله إذا نزل عليه الوحي؟ قال: فقال: ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد. ذاك إذا تجلّى الله له. قال: ثمّ قال

تلك النبوة يا زُرارة. وأقبل يتخشع.

و فيه أيضًا عن العلل مسندًا عن عمرو بن جَمِيع، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان جبرئيل إذا أتى النبي ﷺ يقعد بين يديه قعدة العبد. وكان لا يدخل حتى يستأذنه. أقول: وأنت بعد الإحاطة بجميع ما ذكرناه، تعرف أنه ليس في شيء من تلك الروايات ونظائرها ما يدلّ على أن سورة المدثر أول ما نزل من القرآن. وأما رواية جابر بن عبد الله المتقدمة، فهي قاصرة عن معارضة ما هو أقوى سندًا وأظهر دلالة على أن أول ما نزل من القرآن سورة العلق. وسيجيء إن شاء الله إشباع الكلام في أن أول ما نزل هي سورة العلق أو الفاتحة أو غيرهما. (٢٩: ١٥٩ - ١٦٣)

(سورة العلق)

في رواية عن ابن عباس قال: إن أول ما أنزل بمكة: (اقرأ باسم ربك ثم ن والقلم؛ ثم المزمل؛ ثم المدثر).

[ثم ذكر رواية حسين بن خالد عن الرضا ٧ ورواية علي بن السري عن الصادق عليه السلام كما تقدّم عن البحرانيّ الرقم ١ و ٢، فقال:] وفيه أيضًا، مسندًا عن عبد الله بن كيسان، عن أبي جعفر عليه السلام: نزل جبرئيل على محمد ﷺ فقال: يا محمد، اقرأ. قال: وما أقرأ؟ قال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾.

أقول: في هذا الحديث إشعار بأن القضية كانت في بدء أمره وكانت عند أول قراءة القرآن... [ثم ذكر قول المسعودي كما تقدّم عنه، فقال:]

وقد ورد أمير المؤمنين عليه السلام أن الفاتحة أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ كما في البحار ٤: ٢٦٦ في خطبة لعلي عليه السلام مسندًا عن التوحيد قال: ... ثم إن الله - وله الحمد - افتتح الكتاب بالحمد لنفسه، وختم أمر الدنيا ومجيء الآخرة بالحمد لنفسه فقال «وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين».

أقول: تشكل معارضة ما في الخطبة الكريمة بما تقدّم من الروايات من أن سورة

العلق أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ لكثرتها وصراحتها، بخلاف الخطبة المباركة، فإنها ليست بهذه المكانة من التصريح. فالمتعین الأخذ بالروايات المتقدمة وتأييدها بما تقدم من التاريخ في كتاب مروج الذهب.

وهناك روايات عامية في شأن نزول جبرئيل عليه السلام وحشته عليه السلام عنه حتى استوضح ذلك عن ورقة بن نوفل، وما أشبه ذلك من الأوهام الباطلة، أعرضنا عن إيرادها في المقام. والحق في هذا الباب ما هو المسلم بحسب الروايات الكثيرة عن أئمة أهل البيت عليه السلام من أن الله سبحانه ما أكرم أحداً من عباده بالرسالة والنبوة، إلا وأيده قبل مرتبة الرسالة والنبوة أو مقارناً لهما بروح القدس؛ وهو العلم المصون المعصوم بذاته. فيتلقى الرسول والنبى الرسالة والنبوة بهذا العلم المعصوم. ويتحمّله ويحفظه ويبلغه بهذا العلم القدسي. ويعرف جبرائيل بعينه بالبداهة؛ والنبوة والرسالة أيضاً بالبداهة. وكان ﷺ على سكينه من ربه وعليه جمال العلم وبهاؤه ومكانته وعصمته وقداسته. وكان جبرائيل يستأذن عليه ويقعد بين يديه قعدة العبد. وقد بسطنا الكلام في ذلك بعد تفسير سورة النبأ في رسالتنا «الروح في القرآن» في الآية الأولى. (٣٠: ٥٧٨ - ٥٧٩)

آخر سورة نزلت من القرآن:

(سورة النصر)

وورد في بعض الروايات أنها آخر ما نزل من القرآن. ففي نور الثقلين ٥: ٦٩٠، عن الكافي مسنداً عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أول ما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿إِذَا بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ و آخره ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ...﴾. وفيه عن العيون مسنداً عن الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام مثله.

والظاهر من كلام عدّة من المفسرين أن المراد من الفتح فتح مكة والسورة نزلت قبل الفتح وهي بشارة بالفتح. وعدّه بعضهم من جملة الإخبار بالغيب؛ حيث وعد الله لرسوله الفتح وقد تحقّق بفتح مكة. وذكر في التبيان ١٠: ٤٢٦ نقلاً عن قتادة أن النبي ﷺ عاش بعد نزول السورة سنتين. وذكر مثله في المجمع ١٠: ٥٥٤، عن مقاتل.

أقول: كان فتح مكة في سنة ثمان من الهجرة. ولا يخفى أن الذي ذكره ينافي ما أوردناه من الحديثين أن السورة آخر ما نزل من القرآن. وقد نزل بعد فتح مكة آيات كثيرة من القرآن. منها سورة براءة نزلت بتسع من الهجرة وأرسلها رسول الله ﷺ مع أبي بكر ليقرأها على الناس في الموسم ثم عزل أبا بكر وأرسلها مع عليّ ﷺ فقرأها على المشركين. ونزلت سورة المائدة؛ فهي من آخر ما نزل عليه. وقد ورد في الروايات أن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن لم ينسخ من آياتها شيء.

وفي نور الثقلين ٥: ٦٠٩. في تفسير علي بن إبراهيم: «إِذَا جَاءَ النَّصْرُ لِلَّهِ وَالْفَتْحُ» قال: نزلت بمعنى في حجة الوداع.

وهذا هو الظاهر. ولادليل بحسب ظاهر الآية وبحسب الروايات وبحسب التاريخ على شيء مما ذكره. نعم؛ يمكن فرض التعارض بين ما أوردناه من الحديثين وبين ما ورد في نزول سورة المائدة.

ففي تفسير العياشي ١٠: ٢٨٨، عن زرارة بن أعين، عن أبي جعفر ﷺ قال: قال علي بن أبي طالب صلوات الله عليه: «نزلت المائدة قبل أن يقبض النبي ﷺ بشهرين أو ثلاثة». وفيه أيضاً عن عيسى بن عبد الله، عن أبيه، عن جده، عن عليّ ﷺ قال: «كان القرآن ينسخ بعضه بعضاً. وإنما كان يؤخذ من أمر رسول الله بآخره وكان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة، فنسخت ما قبلها ولم ينسخها شيء...».

أقول: لا تعارض بين الطائفتين؛ لصريح الطائفة الأولى أن النص آخر سورة نزلت من القرآن، وفي الطائفة الثانية أن المائدة من آخر ما نزل، لا أنها آخر بعينها. وكذلك قوله ﷺ: «شهرين أو ثلاثة» على التردد، والتعارض متوقف على تعيين التاريخ.

فعلى هذا نزلت السورة في السنة العاشرة من الهجرة بمعنى في حجة الوداع. وقبض ﷺ في العشر الثالثة من صفر في سنة إحدى عشر. فعاش ﷺ بعد نزول السورة شهرين وأياماً. (٣٠: ٧٠١-٧٠٣)

الفصل الثامن والأربعون

نصّ الدّوز دوزاني (معاصر) في «دروس حول نزول القرآن»

في بيان أوّل ما نزل من القرآن

و هذا البحث وإن لم يكن من التّفسير الموضوعيّ إلّا أنّه نبّحث فيه استطراداً كما لا يخفى، وقد وقع الخلاف في أوّل ما نزل من القرآن على أقوال؛ أحدها - وهو المشهور ﴿إِقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - إلى قوله تعالى - مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. ثانيها - سورة الفاتحة؛ قال الزّمخشرّي في «الكشاف»: ذهب ابن عبّاس ومجاهد إلى أنّ أوّل سورة نزلت: (اقرأ)، ثمّ قال: وأكثر المفسّرين إلى أنّ أوّل سورة نزلت: (فاتحة الكتاب).

ثالثها - ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ...﴾ وهو المنسوب إلى جابر كما سيأتي، والأظهر منها هو القول الأوّل؛ لأنّه ليس للقول الثّاني والثّالث دليل معتنى به، فلذا أُشير أولاً إليهما وبيان دليلهما، والجواب عنهما، ثمّ أذكر دليل المختار.

واعلم، أنّه استدلّ للقول الثّاني - وهو كون الفاتحة أوّل ما نزل - بأُمور؛ الأوّل - كما في «الإِتقان» وحجّته ما أخرجه البيهقيّ في «الدّلائل» والواحديّ من طريق يونس بن بكير عن يونس، عن عمرو، عن أبيه، عن أبي ميسرة عمرو بن سرحبيل... [و ذكر كما تقدّم عن القرطبيّ، ثمّ قال:]

قلت: لا يكاد ينقضي تعجّبي من السّيوطيّ والبيهقيّ، أمّا عن البيهقيّ لأنّ توجيهه بما ذكره ورضاه به أمر بعيد، بل غلط؛ لأنّه بعد نزول سورة اقرأ والمدثّر لا معنى لخوفه من نفسه، وهربه من الملائكة، وتسليّة خديجه له ﷺ... ولو على اعتقادهم في أمره ﷺ.

وبالآخرة احتمال أمثال هذه في أول الأمر، إن كان ممكناً على مذهبه، إلا أنه لا يصحّ بعد نزول الملائكة بمراتٍ ومأموريته ﷺ بتكاليف، كما في سورة المدثر من الإنذار ونحوه. ومما ذكرنا يعلم وجه التعجب من السُّبُوطِي؛ لأنّه نقل كلام البَهِتِيِّ بلا إيراد و نقد عليه، بل سكوته دليل على رضاه به وقبول توجيهه.

والحقّ في الجواب أنّ الخبر مرسل شاذّ، معارض بأخبار كثيرة دالّة على أنّ أول ما نزل هو ﴿اقْرَأْ﴾، هذا مع أنّ في متن الخبر ما لا يخفى من شكّه ﷺ و ترديده في أمره وتسليية خديجة لرسول ﷺ من قولها له ﷺ: ما كان الله ليفعل بك، كلّ هذه يسقطه عن الاعتبار، ويأتي البحث حوله عن قريب.

وأما نسبة «الكشاف» هذا القول إلى الأكثر فخالية عن السّداد؛ لأنّه لم يذهب إليه إلاّ قليل. ومن هنا قال ابن حجر: والذي ذهب إليه أكثر الأئمّة هو الأوّل، وأما الذي نسبته إلى الأكثر فلم يقل به إلاّ عدد أقلّ من القليل بالنسبة إلى من قال بالأوّل.^١

الثاني - إنّه لا شكّ في اعتبار الفاتحة في الصّلاة، وقد ورد أنّه لا صلاة إلاّ بفاتحة الكتاب. والحال أنّه جاء في سورة اقرأ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾^٢ فلا يصحّ حينئذٍ ما في سورة (اقرأ)، إلاّ أن يكون نزولها بعد الفاتحة.

قلت: أولاً - أنّه ممّا الإشارة في أول البحث أنّ القول الأوّل هو نزول خمس آيات من (اقرأ) لإتمامها، فحينئذٍ يمكن أن يكون نزول ما بعد خمس آيات (اقرأ) بعد الفاتحة، بل هو غير بعيد.

و ثانياً - أنّ عدم صحّة الصّلاة في أول الأمر إلاّ بالفاتحة أول الكلام؛ لأنّ الأحكام إنّما جاءت تدريجاً، فيمكن أن يكون هذا (وجوب الفاتحة فيها) منها، فاعتبار لزوم الفاتحة اليوم لا يدلّ على اعتبارها في أول الأمر.

الثالث: أنّ التسمية بالفاتحة تشعر بذلك، وتدلّ على هذه التسمية جملة من الروايات؛ منها: ما عن أبي بكر الحضرميّ، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قلت: أصلحك الله و ما المثاني؟ قال: «فاتحة الكتاب».

ومنها: ما عن السُّدِّيِّ عَمَّنْ سَمِعَ عَلِيًّا عليه السلام يقول «سبعاً من المثاني فاتحة الكتاب»^١.
 وأُجِيب: أَنَّ الْفَاتِحَةَ أَوَّلُ نَزُولاً بِاعْتِبَارِ تَمَامِهَا وَكَمَالِهَا، وَ لَا يَنَافِي حِينَئِذٍ أَنْ يَكُونَ
 (اقْرَأْ) أَوَّلًا بِاعْتِبَارِ خَمْسِ آيَاتِهِ الْأَوَّلِ، فَالْفَاتِحَةُ أَوَّلُ بِاعْتِبَارِ تَمَامِهَا.
 وَ هَذَا كَمَا قَالَ «عَبْدُهُ» فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ (اقْرَأْ): ثُمَّ هَذَا لَا يَنَافِي أَنَّ أَوَّلَ سُورَةٍ نَزَلَتْ
 كَامِلَةً بَعْدَ ذَلِكَ أُمُّ الْكِتَابِ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِهَا.

قلت: هذا كله مبني على كون التسمية بفاتحة الكتاب باعتبار النزول، أما لو قيل
 باعتبار كتابة الفاتحة أول القرآن كما قيل، أو باعتبار أنها واجبة في الصلاة، فلا حاجة إلى
 هذا التجشّم.

فحينئذ نقول في مقام الجواب: إِنَّمَا سَمِيَتِ السُّورَةُ بِالْفَاتِحَةِ لَا فَتَاحِ الْكِتَابِ بِهَا، وَجَعَلَهَا
 فِي أَوَّلِهِ، كَمَا هُوَ الْمَرْسُومُ. وَ فِي «الْمَجْمَعِ»: سَمِيَتَ بِذَلِكَ لَا فَتَاحِ الْمَصَاحِفِ بِكِتَابَتِهَا.
 إِن قُلْتُ: نَعَمْ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَسَاعِدُهُ مَا نَقَلَ مِنْ عَدَمِ كِتَابَتِهَا فِي أَوَّلِ قُرْآنِ عَلِيٍّ أَمِيرِ
 الْمُؤْمِنِينَ وَ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عليه السلام، بَلْ وَ قُرْآنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَ ابْنِ مَسْعُودٍ كَمَا فِي تَارِيخِ الْقُرْآنِ
 لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الزَّيْجَانِيِّ.

قلت: لم يثبت لنا وجود قرآن لعلي عليه السلام لم يكتب في أوله الفاتحة، و ما جمعه عليه السلام بعد
 النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يره أحد من الصحابة، بل في حديث منه عليه السلام: إِنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي عِنْدِي لَا يَمْسُهُ
 إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ وَ الْأَوْصِيَاءُ مِنْ وَلَدِي»^٢.

فلم يكن قرآنه في رأى حتى ينقله لنا أحد، و كذا القرآن المنسوب إلى الإمام
 الصَّادِقِ عليه السلام زد على ذلك أَنَّ الْقُرْآنَ الْمُنْسُوبَ إِلَيْهِمَا نَاقِصٌ؛ عَدَمُ ذِكْرِ لِفَاتِحَةٍ أَصْلًا فِي
 قُرْآنِ عَلِيٍّ عليه السلام، وَ عَدَمُ ذِكْرِ سِتِّ سُورٍ فِي قُرْآنِ الصَّادِقِ عليه السلام.

فعلم أَنَّ الْمُنْقُولَ لَا اعْتِبَارَ لَهُ، وَأَنَّ الْحَقَّ فِي وَجْهِ التَّسْمِيَةِ هِيَ كِتَابَتُهَا أَوَّلَ الْمَصَاحِفِ،
 أَوْ لَوْ جُوبَ قَرَأَتْهَا فِي الصَّلَاةِ كَمَا قِيلَ.

أما القول الثالث فقد استدلل عليه بخبر جابر، و في «الْمَجْمَعِ» قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: سَمِعْتُ
 يَحْيَى ابْنَ أَبِي كَثِيرٍ يَقُولُ: سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ: أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِ؟ قَالَ: «يَأْتِيهَا الْمُدَّتُّ».

فقلت ... [و ذكر كما تقدّم عن الطّبرسيّ، ثمّ ذكر قوله كما تقدّم أيضاً عنه، فقال:]

قلت: والذي يظهر من الطّبرسيّ أنّ الحديث من حيث الدّلالة لا إشكال فيه، بل الإشكال من جهة أخرى، وهو أنّ الحديث دالّ على ترديده ﷺ في أمره و خوفه، وهذا شيء لا يصحّ من رسول الله ﷺ.

فعلم أنّه ردّ الحديث من هذه الجهة، إلّا أنّ الأظهر عندنا أنّ دلالة الحديث غير تامّة. والوجه في ذلك أنّ قوله ﷺ: «فإذا هو على العرش في الهواء» يعني جبرائيل، دليل على أنّه ﷺ كان يعرف جبرائيل من حيث نزوله عليه قبلاً، فالحديث يدلّ ضمناً على نزول جبرائيل له ﷺ قبل هذا.

وهذا المعنى صريح ما نقله في «الدّر المنثور» عن جابر؛ حيث جاء فيه: «فإذا الملك الذي جاءني بحراة جالس على كرسيّ بين السماء والأرض» إلخ. ويظهر من حديثه - أي جابر - الآخر الذي نقله السيوطيّ ذيل سورة (إقرأ)، أنّه حصل في الوحي فترة، نزلت بعد الفترة المدّتر، فهي الأولى بعد الفترة؛ قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلّمة عن عبد الرّحمان أنّ جابر بن عبد الله ... [و ذكر كما تقدّم عن البخاريّ و الطّبرسيّ، ثمّ قال:]

فعلم من تمام ذلك أنّ ما نقل عن النّبيّ ﷺ و يدلّ على أنّه كان جبرائيل نازلاً عليه ﷺ قبلاً، وكان يعرفه.

فحينئذٍ يكون قول جابر بأنّ المدّتر هو أوّل ما نزل، استنباطاً منه، و لا يخفى أنّ اجتهاده ليس بحجّة لنا، مع وضوح عدم استقامة فهمه.

و قلنا أيضاً: إنّ يظهر من خبره الآخر أنّ أوّل ما نزل هو سورة المدّتر بعد الفترة، فلا ينافي كون سورة (إقرأ) أوّل ما نزل.

هذا، و في «الإتقان» ذكر أجوبة أخرى، أعرضنا عن نقلها؛ لوضوح ضعفها، و من أراد فليراجع هناك.

وإذا تحرّر ذلك علم أنّ الأظهر هو القول الأوّل، وهو المشهور عند العامّة والخاصّة، بل لم أجد القائل بغيره من الخاصّة. فعلى أيّ حال، فهذا القول هو كالمسلّم به عندنا، وإن

كان بين العامة فيه خلاف، إلا أنه غير معتد به.

وفي «الإتقان»: اختلف في أول ما نزل من القرآن على أقوال: أحدها: وهو الصحيح ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾. [ثم ذكر رواية الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ. كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ الطَّبْرِيِّ، الرَّقْمُ ٩، فَقَالَ:].

وفي «الدَّر المنثور» بدل ترجف بوادره «يرجف فؤاده» و ذيله بقوله: فدخل على خديجة بنت خُوَيْلِد، فقال: «رَمَلُونِي رَمَلُونِي»، فزَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرُّوحُ، فَقَالَ لَخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»!.

هذا، و نقل السُّيُوطِيُّ عِدَّةَ رَوَايَاتٍ آخَرَ مِثْلَهَا فِي كِتَابَيْهِ «الإِتْقَانُ» وَ «الدَّر المنثور»، إِنْ شِئْتَ فَرَاجِعْ.

و هذه المقالات والأحاديث قد تكررَت في كتب التَّوَارِيخِ وَ السِّيَرِ وَ التَّفْسِيرِ وَ غيرها في القرون المتوالية، بلا أيِّ إشارة إلى ضعف و نقد و بلا دغدغة، بل أرسَلوه إِرْسَالِ الْمُسْلِمَات، فانظر إلى تفسير جزء (عَمَ) لمحمد عبده حتَّى يتَّضح ما قلناه، وإليك نصُّه: صحَّ في الأخبار أن النَّبِيَّ ﷺ أوَّل ما تمثَّل له الملك الَّذِي يتلقَّى عنه الوحي، قال له الملك: إقرأ.

قال رسول الله: «فقلت: ما أنا بقارىء»، قال: «فأخذني فغطَّاني حتَّى بلغ مِنِّي الجهد، ثمَّ أرسلني، فقال: إقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطَّاني ثانية حتَّى بلغ مِنِّي الجهد، ثمَّ أرسلني، فقال: إقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فغطَّاني ثالثة حتَّى بلغ مِنِّي الجهد، فقال: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - حتَّى بلغ - ما لم يعلم﴾.

قال الرَّاوِيُّ فرجع بها ترجف بوادره حتَّى دخل على خديجة، و الحديث طويل و فيه أنَّ الوحي قد فتر فترة بعد ذلك حزن لها النَّبِيُّ ﷺ حزنًا غدا منه مرارًا كي يتردَّى من رؤوس شواهِق الجبال، ولكن كان يمنعه تمثَّل الملك له وإخباره بأنَّه رسول الله حقًّا إلخ^١.

وكلامه هذا صريح في عدِّه الخبر من المسلمات، و لذا قال: صحَّ في الأخبار، و... وما أدري كيف قال بصحَّة ما نقل مع دلالتِهِ على أنَّ النَّبِيَّ ﷺ بعد تحقُّق نبوته في زمان

الفترة، كان يريد أن يقتل نفسه، بأن يتردّي من رؤوس الجبال، مع أنّ المسلم العادي لا يقصد قتل نفسه، بل هذا لا يقصده عاقل، وهذا واضح؟!

وأنت إذا تأملت في هذا الخبر، ودلالته على قصد النبي ﷺ بأن يتردّي نفسه من رؤوس شواهد الجبال في زمان رسالته، تصل إلى فساد هذا القول، وعدم صحّة هذا الخبر بلا حاجة إلى البيان والبرهان.

ومع هذا نرى كثيراً من مفسري الشيعة أنّهم ينقلون بعض هذه الأخبار الدّالة على تردّد رسول الله ﷺ في أمره، وعدم علمه بنبوته، واستمداده من ورقة، وإظهاره مالا يجوز له ﷺ، من عروض الجنون له، أو قصد إلقاء نفسه من رؤوس الجبال....

ولم يفتنوا إلى أنّ هذه مخالفة لمعتقداتهم من كون وحي النّبوة والرّسالة يلزم اليقين من النبيّ والرّسول بكونه عن الله تعالى.

بل ليس لهذا نظير في الأنبياء السّلف، كيف وعيسى عليه السلام تكلم في حال الطّفولة في المهد، وأخبر أنّه عبد الله، وآتاه الكتاب، وجعله نبياً بلا شكّ وترديد. وموسى عليه السلام بعد وروده الطّور، خوطب: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾^١، ﴿إِذْ هَبَّ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾^٢. ولم يرد في رواية تردّده وتزلزله في أوّل أمره، والحال أنّ نبيّنا أفضل من تمام الأنبياء.

فالنتيجة أنّ أمثال هذه الأحاديث من جعل الجاعلين، ودسّ الدّسّاسين لأغراض فاسدة، من تنقيص مقامه ومنزلته الرّبّاني، وجعله فرداً عادياً، مع أنّه ثبت في أخبارنا أنّه كان له ﷺ ملك من حال الصّباوة يسدّده.

ومن هنا لا يكاد ينقضي تعجّبي من أبي الفتوح الرّازي والطّبرسيّ والكاشانيّ صاحب تفسير المنهج، حيث أوردوا هذه الأخبار بلا إشارة إلى الرّد والتّقذ.

فانظر تفسير أبي الفتوح؛ حيث نقل أنّه ﷺ كان يتردّي من شواهد الجبال، وسكت عليه وكذا الطّبرسيّ في ذيل السّورة.

والعلامة الطّباطبائيّ وإن أشكل على الحديث بعد نقله، وأجاد في الإيراد عليه، إلّا

أنه لم يشر إلى ورود حديث عن الأئمة الطاهرين، مع أن ما ورد عنهم عليهم السلام خالية عن الإشكال والإيراد.

إذا تحرّر ذلك و علم أن هذه الأخبار كلّها ضعيفة جدّاً من حيث المتن و السند، فنقول: إن الدليل على أن سورة (اقرأ) أول ما نزل جملة أخبار واردة عن الأئمة عليهم السلام؛
الخبر الأول: ما رواه علي بن إبراهيم بإسناده عن عبدالله بن كيسان، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «نزل جبرئيل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد، اقرأ، قال: ما أقرأ؟ قال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾.

الحديث كما ترى يدل على نزول (اقرأ) أولاً بلا إشكال في الحديث؛ لأن الظاهر بل المقطوع أن ما في قوله: «ما أقرأ» استفهام.

الخبر الثاني: ما رواه علي بن إبراهيم الأوسي، قال ابن عباس: إن أول ما ابتدأ به رسول الله... [و ذكر كما تقدّم عن البخاري، الرقم ٤ ثم قال:]

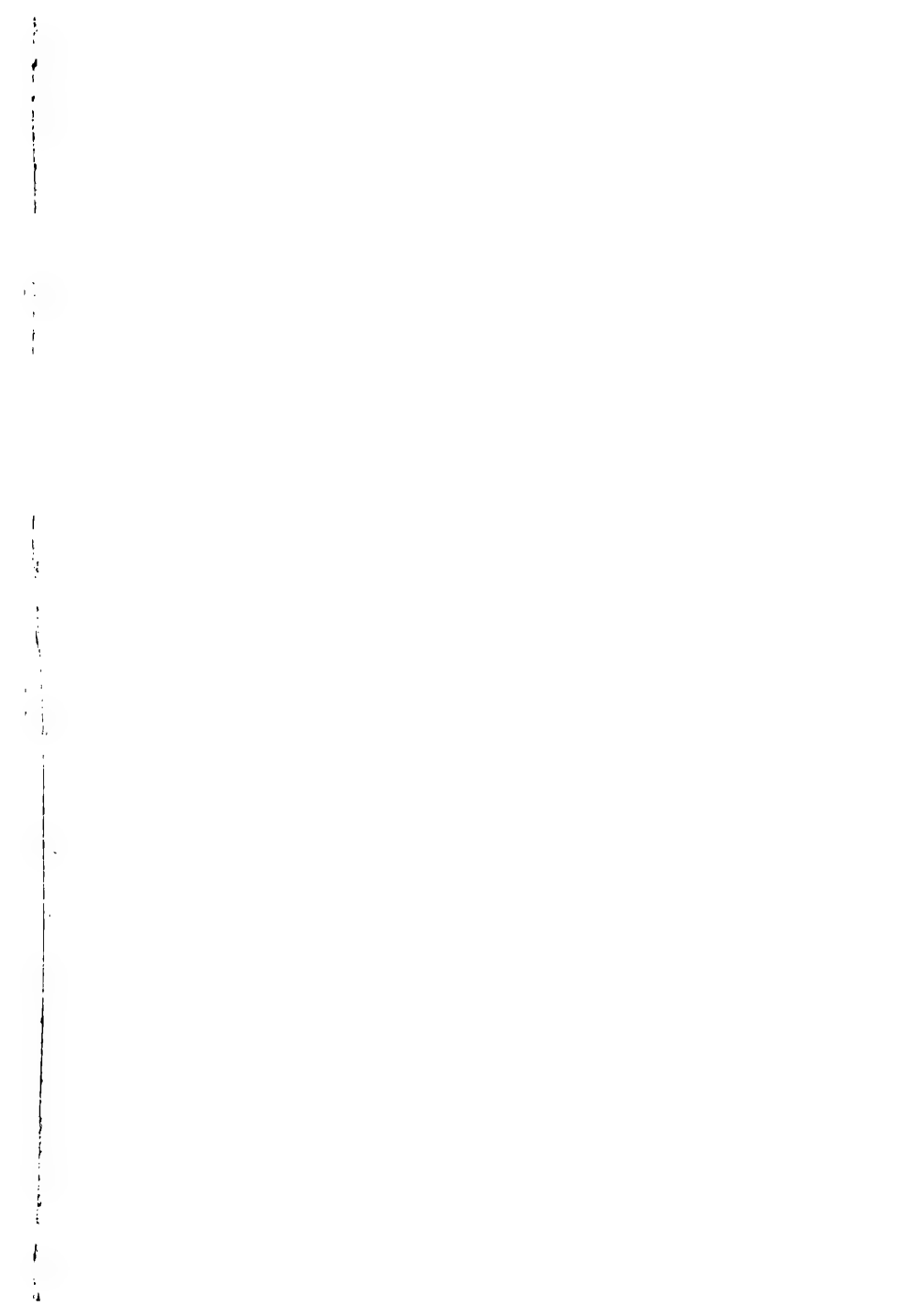
الخبر كما ترى يدل على المراد بلا أي إيراد و نقد عليه، مع شموله بعض ما في رواياتهم من عروض الجنون له، إلا أنه على فرض صحيح من نقل قول المشركين بذلك: «تزوجت بمجنون». و هذا موافق للقرآن من حكاية ذلك عنهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾^١.

و يظهر من الخبر أنه صلى الله عليه وآله كان يعرف جبرئيل قبل نزول (اقرأ)، نظراً إلى قوله لخديجة: «و أظنه جبرئيل» بل يستفاد منه أنه كان حينئذ نبياً، و خديجة عليها السلام كانت عارفة بذلك؛ حيث قالت في جوابها: بل تزوجت نبياً مرسلًا.

و الحاصل أن الخبر مع طوله و اشتماله على مطالب عديدة خالٍ من النقد و الإشكال و الفتور، فارجع البصر كرتين هل ترى من فتور؟. [ثم ذكر الزوايتين حول أول ما نزل، كما تقدّم عن البخاري، الرقم ٢ و ٣، فقال:]

و تحصّل من تمام ذلك: أن أول ما نزل هو خمس آيات من سورة (اقرأ)، و لا يصغى إلى ما قيل من نزول الفاتحة أو المدثر أولاً؛ لعدم الدليل عليهما كما لا يخفى.

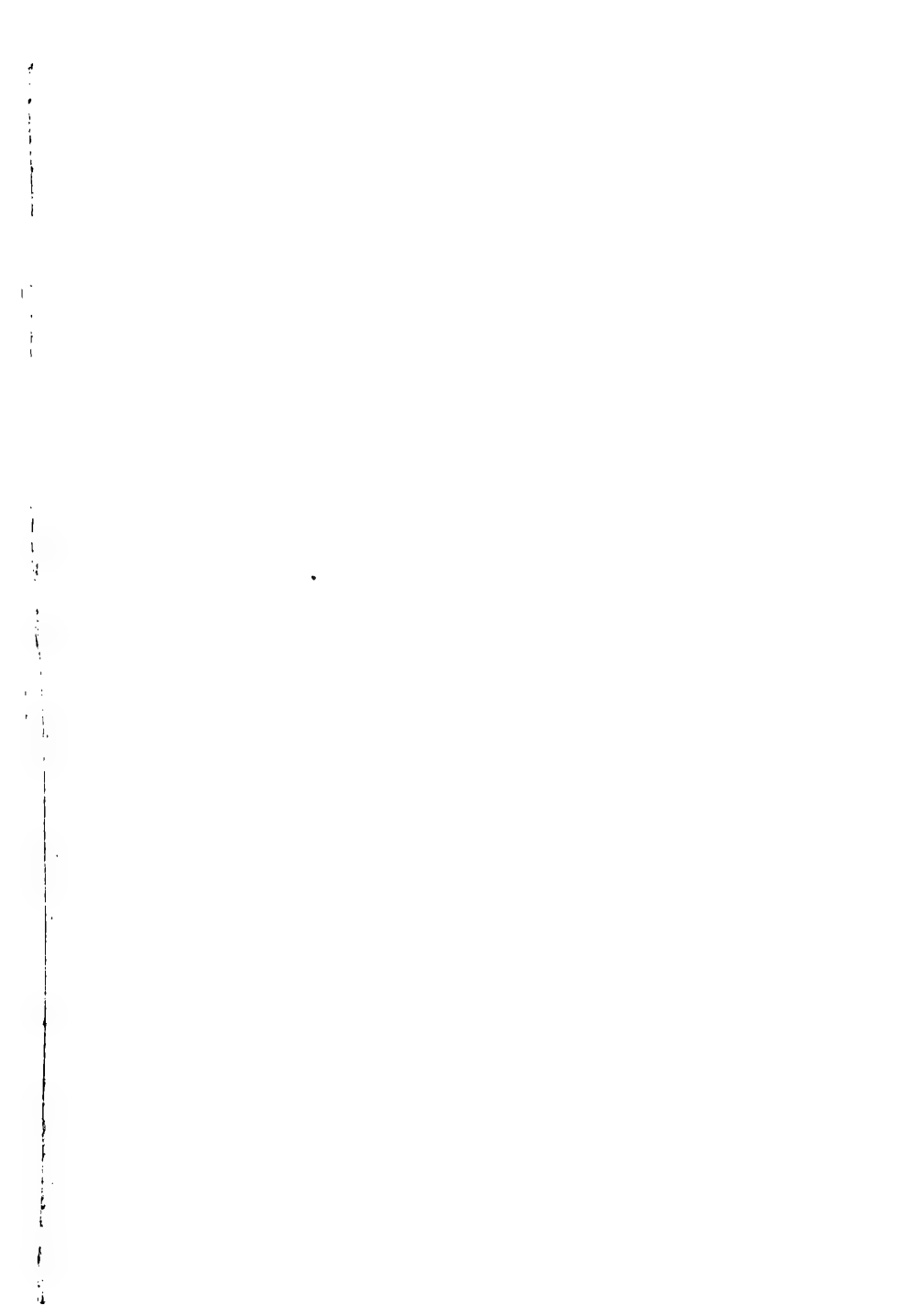
هذا، مع أنّه يمكن استفادة هذا من نفس السّورة، وأنّ قوله تعالى: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾
معناه كن قارئاً باسم الله، من قبيل الأمر التّكوينيّ بعد أن لم يكن قارئاً.
وهذا يناسب نزوله أولاً كما لا يخفى على المتأمّل، هذا آخر ما تيسّر لنا من إيراده.
(ص: ٨٩ - ١٠٥)



الباب الرابع من القسم الأول

السور المكيّة والمدنيّة و ترتيب نزولها

وفيه فصول



الفصل الأول

نصّ اليعقوبيّ (م: ٢٨٤) في تاريخه

ما نزل من القرآن بمكة

نزل من القرآن بمكة اثنتان وثمانون^١، على ما رواه محمد بن حفص بن أسد الكوفي عن محمد بن كثير و محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس: وكان أول ما نزل على رسول الله ﷺ: اقْرَأْ، ن وَالْقَلَمِ... [راجع الجدول، الرقم ١ في آخر هذا الجزء].

ما نزل من القرآن بالمدينة

و نزل عليه بالمدينة من القرآن اثنتان و ثلاثون سورة أول ما نزل: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ، البقرة... [راجع الجدول، الرقم ١ في آخر هذا الجزء].

وقد اختلف الناس في هذا التأليف في غير رواية ابن عباس، وكان الاختلاف أيضاً يسيراً. وروى محمد بن كثير و محمد بن السائب عن ابن صالح، عن ابن عباس أنه قال: كان القرآن ينزل مفزّلاً، لا ينزل سورة سورة، فما نزل أولها بمكة أثبتناها بمكة وإن كان تمامها، وكذلك ما نزل بالمدينة، وإنه كان يعرف فصل ما بين السورة والسورة إذا نزل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فيعلمون أن الأولى قد انقضت وابتدئ بسورة أخرى. وروى بعضهم أن التوراة أنزلت لست خلوّن من شهر رمضان، والزبور لا تتهي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، بعد التوراة بألف وخمسةة عام، والإنجيل لثمانى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، بعد الزبور بثما مائة عام، وقيل: ستمائة.

١ - لكنّه لم يذكر سوى (٧٩) سورة.

وروى آخرون أن القرآن نزل لعشرين ليلة خلت من شهر رمضان. وروي عن جعفر بن محمد أنه قال: «إن الله لم يبعث قط نبياً إلا بما هو أغلب على أهل زمانه، مبعث موسى بن عمران إلى قوم كان الأغلب عليهم السحر، فأتاهم بما ضلّ معه سحرهم من العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفلاق البحر وانفجار الحجر حتى خرج منه الماء والطمس على وجوههم، فهذه آياته، وبعث داود في زمن أغلب الأمور على أهله الصنعة والملاهي، فألأن له الحديد، وأعطاه حسن الصوت، فكانت الوحوش تجتمع لحسن صوته، وبعث سليمان في زمانه قد غلب على الناس فيه حبّ البناء واتخاذ الطلسمات والعجائب، فسخر له الريح والجنّ، وبعث عيسى في زمان أغلب الأمور على أهله الطبّ، فبعثه بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وبعث محمّداً في زمان أغلب الأمور على أهله الكلام والكهنة والسّجع والخطب، فبعثه بالقرآن المبين والمحاورة».

الفصل الثاني

نصّ ابن النّديم (م: ٤٣٨) في كتابه: «الفهرست»

نزول القرآن بمكة و المدينة و ترتيب نزوله

حدّثني أبو الحسن محمّد بن يوسف، قال: حدّثنا أبو عبد الله محمّد بن غالب، قال: حدّثنا أبو محمّد عبد الله بن الحجاج المدينيّ؛ قدم من المدينة سنة تسع و تسعين ومائتين، قال حدّثنا بكر بن عبد الوهاب المدينيّ، قال: حدّثني الواقديّ محمّد بن عمر، قال: حدّثنا معمر بن راشد عن الزّهرريّ، عن حمّد بن نُعمان بن بشير، قال: أوّل ما نزل من القرآن على النّبيّ ﷺ... [راجع الجدول، الرّقم ٣ في آخر هذا الجزء].

و قال: و حدّث ابن جرّيج عن عطاء الخراسانيّ، عن ابن عبّاس، قال: نزلت بمكة خمس و ثمانون سورة و نزل بالمدينة ثمان و عشرون سورة^١، نزل بالمدينة... [راجع الجدول، الرّقم ٣ في آخر هذا الجزء]. (ص: ٣٦)

١ - والجمع (١١٣) فيقل عن (١١٤) واحدة، و لعلّها الفاتحة.

الفصل الثالث

نص «المباني في نظم القرآن» - ومؤلفه مجهول - وقد ألف سنة ٤٢٥

ترتيب نزول القرآن

أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد بن علي عليه السلام وأرضاه، وجعل الجنة منقلبه و مأواه قال: أخبرنا أبو النضر محمد بن علي الطالقاني، قال: حدّثنا الشيخ أبو سهل محمد بن علي الطالقاني الأنماري رحمه الله، وذكره في كتاب «فيه ما فيه»، وأخبرني الشيخ أبو القاسم عبد الله بن محمّشاذ عليه السلام بهراة، قال: أجاز لي الشيخ أبو سهل محمد بن محمد بن علي الأنماري بكتاب «فيه ما فيه» قال: حدّثنا عبد الله بن محمد بن سليم، قال: حدّثنا صالح بن محمد الترمذي، قال: حدّثنا محمد بن مروان الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: إن أول شيء نزل بمكة: اقرأ، ن والقلم... [راجع الجدول، الرقم ٦ في آخر هذا الجزء].

هن ثلاث وثمانون سورة ممّا نزلت بمكة على النبي عليه السلام، ثم قال: أول شيء نزل بالمدينة: ويل للمطففين، البقرة، الأنفال... [راجع الجدول، الرقم ٣ في آخر هذا الجزء].

وإذا كانت فاتحة سورة نزلت بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء بالمدينة، ونزلت بمكة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾^١ إلى آخر السورة، ثم سورة إذا وقعت، ثم والعاديات ضبحاً، ثم سورة الفلق، ثم قل أعوذ بربّ الناس، وذلك ثلاثون سورة نزلت بالمدينة. فجميع منازل بمكة والمدينة مائة و ثلاث عشرة سورة^٢، منها ثلاث وثمانون بمكة وثلاثون بالمدينة.

قال: وأخبرنا أبو النضر، قال: حدّثنا أبو سهل الأنماري، قال: حدّثنا محمد بن حاتم

١ - التوبة / ١٢٨.

٢ - هذا عدا سورة الفاتحة، ومعه يكون المجموع (١١٤) سورة.

الجوزجانيّ وغيره، قالوا: أخبرنا إبراهيم بن يوسف، قال: حدّثنا عمر بن هارون عن عثمان بن عطاء، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: أوّل ما نزل بمكّة وما أنزل منه المدينة الأوّل فالأوّل. وكانت إذا نزلت سورة فاتحة الكتاب^١ بمكّة كتبت بمكّة، ثمّ يزيد الله فيها ما يشاء بالمدينة، فكان أوّل ما نزل من القرآن: **اقْرَأْ، ن وَالْقَلَمِ، الْمُزْمَلِ...** [إلى أن قال:] ثمّ أنزل بالمدينة: البقرة، الأنفال... [راجع الجدول، الرّقم ٧ في آخر هذا الجزء].

قال: وأخبرنا أبو النّضر، قال: أخبرنا أبو سهل الأنماريّ، حدّثنا محمّد بن حاتم وغيره، قالوا: أخبرنا إبراهيم بن يوسف، قال: حدّثنا عمر بن هارون، عن عثمان بن عطاء الخراسانيّ مثله. **إِلَّا أَنَّهُ شَكَّ فِي الصّحِي؛** قال: لا أدري أمكيّة أو مدنيّة؟.

قال أبو سهل: فهذه الروايات كما ترى قد اتّفقت على أنّ جميع سور القرآن مائة وثلاث عشرة سورة، ولم يذكر في شيء منها فاتحة الكتاب في العدد، ولا في أنّها مكّيّة أو مدنيّة، ولا متى أنزلت. غير أنّ الشّيخ أبا محمّد عبد الله بن محمّد بن سلّيم جمعه... ذكر أوّل ما ابتدأ في التّفسير أنّها مكّيّة، وكذا كان مكتوباً في طيّه.

قال أبو سهل: وأخبرنا غير واحد، منهم إسحاق بن الحسن بن صدّقة الجوزجانيّ عن محمّد بن الأزهريّ، عن وكيع بن الجراح بن مليح، قال: حدّثني أبي وسفيان عن منصور ومجاهد، قال: نزلت فاتحة الكتاب بالمدينة، وهذا إسناد كما ترى في صحّته وشهرته.

قال أبو سهل: وقد وقع عندي حديث هو أوجب من هذه الأحاديث كلّها، وأقرب إلى المعنى المحتمل أنّ أوّل ما نزل من القرآن فاتحة الكتاب، ثمّ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ،** وهذا عندي أشبه بالمعنى لجهتين؛

إحداهما: أنّها سُمّيت أمّ الكتاب؛ لأنّها أقدم ما أنزل وأوّل، كما سُمّيت مكّة أمّ القرى؛ لأنّها أقدمها. وسمّيت فاتحة الكتاب لأنّ الكتاب فتح بها، أي ابتدئ التّزول بتلك السّورة.

والأخرى: أنّ بها تفتّح القراءة في الصّلاة، وتثنّى في كلّ صلاة، وليس من السّور سورة بتلك المنزلة، فيحتمل أن يكون تركهم ذكر نزولها وعدّها في عدد السّور لشهرتها، ولأنّها لا تخفى على أحد منزلتها بذلك على ما ذهبنا إليه. وطرح عبد الله بن مسعود إيّاها

من المصحف؛ لأنَّ المصحف إنما كتب وجمع بين اللوحين مخافة الشك والنسيان، فلمَّا لم تخف عليه فاتحة الكتاب طرحها من المصحف.

قال الشيخ أبو سهل: حدَّثنا أبو طلحة سريح بن عبد الكريم التميمي، ومُحَبَّر بن محمد، وأبو يعقوب يوسف بن علي، ومحمد بن قُراس الطالقانيون، قالوا: حدَّثنا أبو الفضل جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي^١، قال: حدَّثنا سُلَيْمان بن حَرْب المكي، قال: حدَّثنا حَمَّاد بن زيد عن علي بن زيد بن جدعان. عن سعيد بن المسيَّب، عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: سألت النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله عن ثواب القرآن، فأخبرني بثواب كلِّ سورةٍ سورةٍ على نحو ما نزلت من السماء، وبأنَّ أوَّل ما أنزل بمكة فاتحة الكتاب، ثمَّ: **اقْرَأْ تَمَنِّ** والقَلَمَ... [إلى أن قال:] وما أنزل بالمدينة: البقرة ثمَّ الأنفال، ثمَّ الأحزاب... [راجع الجدول، الرِّقم ٨ في آخر هذا الجزء].

فهذا ما أنزل بالمدينة، ثمَّ قال النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: جميع سور القرآن مائة وأربع عشرة، وآيات القرآن... [سيأتي تفصيلها لا حقًا عن الشيخ الطبرسي، ثمَّ قال:].

قلت: وأكثر الروايات قد تظاهرت أنَّ **«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ»** أوَّل ما نزل من القرآن. وفي بعضها **«يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ»**، مع أنَّه جعل المعوذتين ممَّا أنزل بمكة. والمشهور من الروايات أنَّهما أنزلتا حين سحر لُبَيْد بن أعصم^٢ اليهودي رسول الله صلى الله عليه وآله وهو بالمدينة فأخذه عن عائشة، ولأنَّه جعل التَّجَمُّع آخر القرآن نزولاً، وهي في مشهور الروايات من أوائل القرآن نزولاً، فكيف وقد ذكر فيه حديث الغرائق، وسجود صناديد قُريش. وقد رُوي أنَّها أوَّل سورة أظهرها رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة، ولأنَّ خطاباتهما توافق ابتداء الحال، ولأنَّ فيها حديث المعراج موافقاً لسورة سبحان، اللهمَّ إلا أن نقول: إنَّ ذلك المعراج كان سوى هذا، ولأنَّه جعل والعاديات: مكية. وفي المشهور أنَّها نزلت في سرِّيَّة^٣ أنفذها رسول الله صلى الله عليه وآله وأبطأ عليه خبرها فاشتغل قلبه. وهذه من أوصاف كونه بالمدينة بلا مَرِية. وأمَّا تسمية سورة

١ - في هذا السند خلل، فإنَّه لو أُريد به جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فليس كنيته أبا فضل، ثمَّ إنَّه لا يقال القرشي، ثمَّ إنَّه لا يروي عن سُلَيْمان بن حَرْب، فلاحظ. (م).

٢ - انظر سيرة رسول الله لابن هشام: ٣٥٢، وأسباب النزول للواحدي: ٣٤٦.

٣ - انظر أسباب النزول للواحدي: ٣٤١.

الحمد بفاتحة الكتاب فلأنّه ابتدأ الله سبحانه في التّكليم حين نزل بها جبريل عليه السلام إلى السّفرة كما نذكره في الفصل الثالث إن شاء الله تعالى.

و هذه الأحاديث كلّها مكتوبة على وجهها في كتاب: «فيه ما فيه» للشيخ أبي سهل رحمة الله عليه. إلّا أنّه لم يكن عندي إسنادها، و وجدت إسنادها فيما أجازني الشيخان أبو عبد الله محمّد بن عليّ، والشيخ أبو القاسم عبد الله بن محمّشاذ، رَوَيْتَها عنهما لأكون قد جمعت بين ذكر المشايخ، فيكون الكتاب مباركاً عليّ و على من تخلف إليّ، فعند ذكر الصّالحين تنزل الرّحمة. (ص: ٨ - ...)

الفصل الرابع

نص الطبرسي (م: ٥٤٨) في تفسيره: «مجمع البيان»

[سورة الدهر]

قد روى الخاص والعام: أن الآيات من هذه السورة وهي قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ - إِلَى قوله - وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ نزلت في علي و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السلام و جارية لهم تسمى فضة، و هو المروي عن ابن عباس و مجاهد و أبي صالح...

[ثم ذكر قصة مرض الحسن و الحسين و نذر علي عليه السلام عند شفائهما، ثم صومه مع أهل بيته وفاءً للنذر فقال:] و في هذا دلالة على أن السورة مدنية.

و قال أبو حمزة الثمالي في تفسيره: حدثني الحسن بن الحسن أبو عبدالله بن الحسن: أنها مدنية نزلت في علي و فاطمة السورة كلها.

حدثنا السيد أبو الحمد مهدي بن نزار الحسيني القايي، قال: أخبرنا الحاكم أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله الحسكاني، قال: حدثنا أبو نصر المفسر، قال حدثني عمي أبو حامد إملاء، قال: حدثني الفزاري أبو يوسف يعقوب بن محمد المقرئ قال: حدثنا محمد بن يزيد السلمي، قال: حدثنا زيد بن موسى، قال: حدثنا عمرو بن هارون عن عثمان بن عطاء، عن أبيه، عن ابن عباس، قال أول ما أنزل بمكة: (اقرأ...) [و ذكر كما تقدم عن صاحب كتاب المباني، ثم قال:]

وقد رواه الأستاذ أحمد الزاهد بإسناده عن عثمان بن عطاء، عن أبيه، عن ابن عباس في كتاب «الإيضاح» وزاد فيه، وكانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد

الله فيها ما يشاء بالمدينة وبإسناده عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن البصري: أن أول ما أنزل الله من القرآن بمكة على الترتيب: (اقرأ باسم ربك) ون والمزمل إلى قوله: وما نزل بالمدينة ويل للمطففين والبقرة والانفال وآل عمران والأحزاب والمائدة والمنتحنة والنساء وإذا زلزلت والحديد وسورة محمد ﷺ والرعد والرحمن وهل أتى على الإنسان إلى آخره.

وبإسناده عن سعيد بن المسيب، عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «سألت النبي عن ثواب القرآن، فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء، فأول ما نزل عليه بمكة: فاتحة الكتاب، ثم اقرأ باسم ربك، ثم (ن) إلى أن قال: أول ما نزل بالمدينة سورة البقرة، ثم الأنفال، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم المنتحنة، ثم إذا زلزلت، ثم الحديد، ثم سورة محمد، ثم الرعد، ثم سورة الرحمن، ثم هل أتى إلى قوله: «فهذا ما أنزل بالمدينة» ثم قال النبي ﷺ: «جميع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، وجميع آيات القرآن ستة آلاف آية ومائتا آية وست وثلاثون آية، وجميع حروف القرآن ثلاثمائة ألف حرف، واحد وعشرون ألف حرف ومائتان وخمسون حرفاً، لا يرغب في تعلم القرآن إلا السعداء، ولا يتعهد قراءته إلا أولياء الرحمن».

أقول: قد أتبع نطاق الكلام في هذا الباب حتى كاد يخرج عن أسلوب الكتاب، وربما نُسبنا به إلى الإطباب. ولكن الغرض فيه أن بعض أهل العصبية قد طعن في هذه القصة بأن قال: هذه السورة مكّية، فكيف يتعلق بها ما كان المدينة؟ واستدل بذلك على أنها مخترعة جراءة على الله سبحانه، وعداوة لأهل بيت رسوله، فأحببت إيضاح الحق في ذلك، وإيراد البرهان في معناه، وكشف القناع عن عناد هذا المعاند في دعواه. على أنه كما ترى يحتوي على السرّ المخزون، والذرّ المكنون من هذا العلم الذي يستضاء بنوره، ويتلأأ بزهوره، وهو معرفة ترتيب السور في التنزيل، وحصر عددها على الجملة والتفصيل. (٥: ٤٠٤-٤٠٦)

الفصل الخامس

نصّ الشهرستاني (م: ٥٤٨) في التفسير المنسوب إليه: «مفاتيح الأسرار...»

[اختلاف الرّواة في ترتيب نزول سور القرآن]

في ذكر اختلاف الرّواة في ترتيب نزول سور القرآن مثل مُقاتِل عن رجاله، ومُقاتِل عن عليّ عليه السلام والكلبيّ عن ابن عبّاس، وابن واقد بإسناده، وجعفر بن محمّد الصادق عليه السلام. إنّ الصّدر الأوّل من الصّحابة والتّابعين بإحسان عليهم السلام اختلفوا في ترتيب نزول سور القرآن و ترتيب كتابتها في المصاحف.

والصّدر الثّاني وجدوا مصاحف بالحجاز والعراق والشّام مختلفة السّور والآيات والكلمات فهجروها، واتّفقوا على الرّجوع إلى المصحّف الّذي هو الإمام، وفيه قليل تفاوت في الكتابة... [إلى أن قال:]

ثمّ إنّ ترتيب نزول القرآن بحكم الوحي سورة فسورة وآية فأية، فمما عليه إلّا الخواصّ من العلماء، الّذي عندهم الرّوايات الصّحيحة والنّصوص الصّريحة، وأمّا السّور فقد نقلت كيف نزلت على اختلاف الرّوايات وأنها مكّيّة وأنها مدنيّة، وكيف كتبت في المصاحف الخمسة. وقد رأيناها جمعت في جداول على اختلافات فيها بين الرّواة، فنقلناها كما وجدناها، ولا عهدة على الثّاقِل، وأحقّناها ذكر السّور الطّول والمثاني والمفصّل القصار، والنّقل عن رجالٍ هم ثقات، ومن كُتّب هي معتبرة لا يطرؤ بجنابها شبهات ولعلّك لا تجد لها مسطورة في سائر التّفاسير، فإنّها قد أقفرت عن أمثالها، لأنّ المفسّرين خلوا عن الإحاطة بها والإعتماد عليها، ولكن لقلّة الفائدة فيها وكثرة المهمّات الشّاغلة عنها، وقد أوردتها في جداولها كما وجدتها، والله أعلم بالصّواب. [راجع الجدول، الرّقم ٩ في آخر هذا الجزء]. (١: ٦٦)

الفصل السادس

نصّ ابن طاووس (م: ٦٦٤) في «سعد السُّعود»

[ترتيب السُّور و عدد الآيات في كلّ سورة و مكان نزولها]

فيما ذكره من كتاب مجلّد، يقول مصنّفه في خطبته: هذا كتاب جمعت فيه ما استفدت في مجلس الشَّيخ أبي زُرْعَة عبد الرّحمان بن محمّد بن نحلة المقرئ نذكر منه من الوجهة الأولى من القائمة الثَّانية من النّسخة الّتي عنده بلفظه.

باب ما اتّفقوا في نزوله من السُّور: اتّفقوا أنّ سورة الماعون ثلاث آيات، منها نزلت بمكّة و أربع آيات نزلت بالمدينة، و اتّفقوا أنّ ثمانية و سبعين سورة منها نزلت بمكّة. ثمّ ذلك على ضربين؛

أحدهما - أنّ السُّورة كلّها نزلت بمكّة.

و الثَّاني - أنّ السُّورة نزلت بالمدينة ثمّ ذلك أيضًا على ضربين؛ أحدهما: السُّورة كلّها بالمدينة. و الثَّاني - آيات منها نزلت بمكّة... [راجع الجدول، الرّقم ١٠ في هذا الجزء].
و جملة الآيات المكيّة على اختلاف، نذكر في كلّ سورة أربعة آلاف و ثلاثمائة وستّ و تسعين آية.

و جملة الآيات المدنيّة على اختلاف، نذكر في كلّ سورة ألف و أربع مائه و سبع عشرة آية، و جملة الآيات الّتي نزلت في الطّاهر من السّماء ثلاث آيات.

يقول عليّ بن موسى بن طاووس: فانظر رحمك الله ما بلغ إليه نقض الاختلاف في هذا الكتاب إليهم، الّذي اتّفق على تعظيمه أهل الوفاق و أهل الانحراف، فأيّ عجب يبقي في اختلافهم فيما هم يختلفون في أصله، و بينهم أحقاد و قوم حُساد يمنعهم ذلك من نقله.

[الآيات المُستثناة من السُّور المَكِّيَّة والمَدَنِيَّة]

و نحن نذكر ما حكاه جدِّي أبو جعفر محمَّد بن الحسن الطُّوسي في كتاب «التَّبيان» و جملته التَّفقيَّة على الاختصار عليه من تفصيل المَكِّي من المَدَنِي، والخلاف في أوقاته، و ما اقتصر عليه من الأُقويل في عدد آياته. و نبدأ بما ذكروا أنَّه نزل بمَكَّة، فنقول إنَّ: سورة الحمد؛ مَكِّيَّة و هي سبع آيات. و قال الطُّوسي: مَكِّيَّة عن ابن عَبَّاس و قَتادة، و مدنيَّة عن مجاهد و قيل: أنزلت من بين مَكَّة و المدينة.

و قال جدِّي الطُّوسي:

سورة الأنعام؛ قال ابن عَبَّاس و مُجاهد و قَتادة و غيرهم: إنَّها مَكِّيَّة. و قال زيد بن رُومان: بعضها مَكِّي و بعضها مدنيَّة. و عن شهر بن حَوْشَب: هي مَكِّيَّة إلا آيتين منها: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾^١ و التي بعدها، و هي خمس و ستون آية كوفيَّة، و ست في البَصْرِيَّة، و سبع في المَدَنِيَّة. و روي عن ابن عَبَّاس أنَّها مَكِّيَّة غير ست آيات منها، فإنَّها مدنيَّات ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ...﴾، و آيتان بعدها، و قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾^٢ و الآية التي بعدها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾^٣ إلى آخرها.

سورة الأعراف؛ قال قَتادة، إنَّها مَكِّيَّة و قال قوم: هي مَكِّيَّة إلا قوله: ﴿وَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقُوْيَةِ﴾^٤ إلى آخر السُّورة و قال قوم: هي محكمة كُلِّها، و قال آخرون: حَرَفان منها منسوخان: أحدهما: ﴿خُذِ الْعُقُودَ﴾ و الآخر: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^٥ نسخ بالسَّيف و قال قوم: ليست واحدة منهما منسوخًا بل لكل واحد منهما موضع، وهو الأقوى، و هي مائتان و ست آيات كوفيَّة، و خمس آيات مدنيَّات و بصريَّة.

سورة يونس؛ مائة و تسع ليس فيها خلاف، و هي مَكِّيَّة في قول قَتادة و مُجاهد.

سورة يوسف؛ مَكِّيَّة في قول قَتادة و مُجاهد، و هي مائة و إحدى عشرة آية بلا خلاف في ذلك.

سورة إبراهيم؛ قال قَتادة: هي مَكِّيَّة إلا آيتين؛ قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا

١ - الأنعام / ١٥١.

٢ - الأنعام / ٩١.

٣ - الأنعام / ٩٣.

٤ - الأعراف / ١٦٣.

٥ - الأعراف / ١٩٩.

إلى قوله - وَبِئْسَ^١ قال مجاهد: هي مكيّة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ وهي اثنتان وخمسون آية في الكوفي، وأربع في المدني، وآية في البصري.

سورة العنكبوت؛ مكيّة في قول قتادة ومجاهد، وهي تسع وتسعون آية بلا خلاف. سورة النحل؛ مكيّة إلا آية: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾^٢ الآية. وقال الشعبي: نزلت بمكة إلا قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾^٣ إلى آخرها وقال قتادة: من أول السورة إلى قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾^٤ مكيّة وباقيها مدنيّ وقال مجاهد: أولها مكيّة وآخرها مدنيّ، وهي مائة وثمان وعشرون آية بلا خلاف.

سورة بني إسرائيل؛ هي مكيّة في قول قتادة ومجاهد، وهي مائة وإحدى عشرة آية في الكوفي، وعشر آيات في البصري، وعشر آيات في البصري والمدنيّين. سورة الكهف؛ قال مجاهد و قتادة: هي مكيّة، وهي مائة وعشر آيات في الكوفي، وإحدى عشرة في البصري وخمس في المدنيّين.

سورة مريم؛ هي مكيّة في قول قتادة ومجاهد، وهي ثمان وتسعون آية في الكوفي والبصري والمدنيّ، وتسع آيات في عدد إسماعيل.

سورة طه؛ مكيّة في قول قتادة ومجاهد، وهي مائة وخمس وثلاثون آية في الكوفي، وأربع في المدنيّين، وآيتان في البصري.

سورة الأنبياء؛ مكيّة في قول قتادة ومجاهد، وهي مائة واثنى عشرة آية في الكوفي، وإحدى في البصري والمدنيّين.

سورة المؤمنين؛ مكيّة بلا خلاف، وهو قول قتادة ومجاهد، وهي مائة وثمانين عشرة آية في الكوفي، وتسع عشرة في البصري والمدنيّين وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، إلا ما روي أنهم كانوا يجيزون الالتفات يميناً وشمالاً وإلى وراء، فنسخ بقوله: ﴿فِي صَلَواتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾^٥ فلم يجيزوا أن ينظر إلا إلى موضع السجود.

٢- النحل / ٤١.

١- إبراهيم / ٢٨- ٢٩.

٤- النحل / ٤٠.

٣- النحل / ١٢٦.

٥- المؤمنون / ٢.

سورة الفرقان؛ قال مُجاهِد وقَتادة هي مَكِّيَّة، وقال ابن عباس: نزلت آيتان بالمدينة من قوله: ﴿لَا يَذْعُوبَنَّكَ اللَّهُ إِلَهًا آخَرَ﴾ إلى قوله - رَجِيمًا^١ وعددها سبع وتسعون آية ليس فيها خلاف. سورة الشعراء؛ قال قَتادة: هي مَكِّيَّة وقيل: أربع آيات مدنيَّة من قوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ...﴾ إلى آخرها وهي مائتان وسبع وعشرون آية في الكوفي والمدني الأولين، وست في البصري والمدني الأخير.

سورة النمل؛ قال قَتادة ومُجاهِد: هي مَكِّيَّة، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وهي ثلاث وتسعون آية في الكوفي، وأربع في البصري، وخمس في المدنيين.

سورة القصص؛ مَكِّيَّة في قول حسن البصري وعطاء وعكرمة ومُجاهِد وقَتادة، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وقال ابن عباس: إنَّ منها نزلت بالمدينة، وقيل: بالبحفة، وهي قوله: ﴿إِنَّ الْبَدْيَ فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادِّكَ﴾^٢ إلى آخرها، وهي ثمان آيات.

سورة العنكبوت؛ قال قوم: هي مَكِّيَّة، وقال قَتادة: العشر الأول مدني والباقي مكِّي، وقال مُجاهِد: هي مَكِّيَّة، وهي تسع وستون آية بلاخلاف في جملتها، وفي بعضها خلاف.

سورة الزُّوم؛ مَكِّيَّة في قول مُجاهِد وقَتادة، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وقال حسن البصري: كلُّها مَكِّيَّة إلَّا قوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ إلى قوله - تُظْهِرُونَ^٣، وهي ستون آية، ليس في جملتها خلاف بين الكوفيين والبصريين والمدني الأول وفي بعضها خلاف، وفي المدني الآخر تسع وخمسون آية.

سورة لقمان؛ وهي مَكِّيَّة في قول مُجاهِد وقَتادة، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وقال حسن البصري: هي مَكِّيَّة إلَّا آية واحدة، وهي قوله ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾^٤، لأنَّ الصَّلَاةَ والزَّكَاةَ مدينتان، وهي أربع وثلاثون آية في الكوفي والبصري، وثلاث في المدنيين.

سورة السَّجدة؛ وهي مَكِّيَّة في قول مُجاهِد وقَتادة وغيرهما، وقال الكلبي ومقاتل:

٢ - القصص / ٨٥.

٤ - لقمان / ٤.

١ - الفرقان / ٦٨ - ٧٠.

٣ - الزُّوم / ١٧ - ١٨.

ثلاث آيات منها مدنيّة قوله: ﴿أَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ فَاسِقًا﴾^١ إلى تمام ثلاث آيات، وهي ثلاثون آية في الكوفي، وتسع وعشرون في البصري؛ لأنّ ﴿أَلَمْ يَعِدْهَا أَهْلَ الْكُوفَةِ آيَةً فَقَطْ﴾.

سورة سبأ؛ هي مكّيّة في قول مُجاهد و قتادة و حسن البصريّ و غيرهم، ليس فيها ناسخ و لا منسوخ، و قيل: إنّ آية منها مدنيّة، وهي قوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾^٢ وهي أربع و خمسون آية في الكوفي.

سورة الملائكة؛ مكّيّة في قول مُجاهد و قتادة، ليس فيها ناسخ و لا منسوخ، و به قال حسن البصريّ، إلّا آيتين قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ - إِلَى قَوْلِهِ - ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾^٣ وهي خمس و أربعون آية في الكوفيّ و البصريّ و المدنيّ الأوّل، و في الآخر ستّ و أربعون آية.

سورة يس؛ مكّيّة في قول مُجاهد و قتادة و حسن البصريّ، و ليس فيها ناسخ و لا منسوخ، و قال ابن عباس: آية فيها مدنيّة وهي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾^٤، وهي ثلاث و ثلاثون آية في الكوفيّ، و آيتان في البصريّ و المدنيّين.

سورة الصافات؛ مكّيّة في قول مُجاهد و قتادة و حسن البصريّ، وهي مائة و اثنتان و ثلاثون آية في الكوفيّ و المدنيّين، و إحدى و ثمانون في البصريّ، و ليس فيها ناسخ و لا منسوخ. سورة ص؛ مكّيّة في قول مُجاهد و قتادة و حسن البصريّ، و ليس فيها ناسخ و لا منسوخ، وهي ثمان و ثمانون آية في الكوفيّ، و خمس و ثمانون في البصريّ، و ستّ في المدنيّ.

سورة الزمر؛ و تسمّى سورة العرف: مكّيّة في قول قتادة و مجاهد و حسن البصريّ، و ليس فيها ناسخ و لا منسوخ، عدد آياتها خمس و سبعون آية في الكوفيّ، و آيتان في البصريّ و المدنيّين.

سورة المؤمن؛ مكّيّة في قول مُجاهد و قتادة، ليس فيها ناسخ و لا منسوخ، و قال حسن البصريّ: هي مكّيّة إلّا آية واحدة، وهي قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾^٥

١ - السجدة / ١٨.

٢ - سبأ / ٦.

٣ - فاطر / ٢٩ - ٣٢.

٤ - يس / ٤٧.

٥ - المؤمن / ٥٥.

يعني بذلك صلاة الفجر والمغرب، وقد ثبت أن فرض الصلوات بالمدينة، وهي خمس وثمانون آية في الكوفي، وأربع في المدنيين، وآيتان في البصري.

سورة حم؛ (السجدة) مكّية في قول قتادة ومجاهد، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وهي أربع وخمسون آية في الكوفي، وثلاث في المدني، وآيتان في البصري.

سورة حمسحق؛ مكّية في قول قتادة ومجاهد، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وهي أربع وخمسون آية في الكوفي، وخمس في البصري والمدنيين.

سورة الزخرف؛ مكّية في قول قتادة ومجاهد، وهي بضع وثمانون آية بخلاف في جملتها.

سورة الدخان؛ مكّية في قول قتادة ومجاهد، وهي تسع وخمسون آية في الكوفي، وسبع في البصري، وست في المدنيين.

سورة الجاثية؛ مكّية في قول مجاهد و قتادة، وهي سبع وثلاثون آية في الكوفي، وست في البصري والمدنيين.

سورة الأحقاف؛ مكّية بخلاف، وهي خمس وثلاثون آية في الكوفي، وأربع وثلاثون في البصري والمدنيين. عدّ أهل الكوفة (حم) آية ولم يعدّها الباقون، والباقي بخلاف فيه.

سورة ق؛ مكّية، وهي خمس وأربعون آية بخلاف.

سورة الذاريات؛ مكّية بخلاف، وهي ستون آية بخلاف.

سورة الطور؛ مكّية بخلاف، وهي تسع وأربعون في الكوفي، وثمان في البصري، وسبع في المدنيين.

سورة التّحريم؛ مكّية، وهي اثنتان وستون آية في الكوفي، وست في البصري والمدنيين.

سورة القمر؛ مكّية بخلاف، وهي خمس وخمسون آية بخلاف.

سورة الواقعة؛ مكّية بخلاف، وهي ست وتسعون آية في الكوفي، وسبع في البصري، وتسع في المدنيين.

سورة الملك؛ مكّية في قول ابن عباس والضّحّاك وعطاء وغيرهم، وهي ثلاثون

آية في الكوفي والبصري والمدني الأول، وإحدى وثلاثون في المدني الأخير.
سورة نوح؛ مكيّة في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما، وهي اثنتان وخمسون
آية في الكوفي والمدنيين، وإحدى وخمسين آية في البصري.
سورة سأل سائل؛ مكيّة في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما، وهي أربع و
أربعون آية بلاخلاف.

سورة نوح؛ مكيّة في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما، وهي ثمان وعشرون
آية في الكوفي، وسبع في البصري، وثلاث في المدنيين.
سورة الجن؛ مكيّة في قول قتادة وابن عباس والضحاك وغيرهم، وهي ثمان
وعشرون آية، وليس فيها خلاف.

سورة المزمل؛ مكيّة في قول ابن عباس والضحاك، وهي عشرون آية في الكوفي
والمدني الأول، وتسع عشرة في البصري، وثمان عشرة في المدني.
سورة المدثر؛ مكيّة في قول ابن عباس، وقال الضحاك: هي مدنيّة، وهي خمسون و
ست آيات في الكوفي والبصري والمدني الأول، وخمسون في المدني الأخير.
سورة القيامة؛ مكيّة في قول ابن عباس والضحاك وهي أربعون آية في الكوفي،
وتسع وثلاثون في البصري والمدنيين.

سورة الإنسان؛ مكيّة في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما، وقال قوم: هي
مدنيّة، وهي إحدى وثلاثون آية بلاخلاف.

يقول علي بن موسى بن طاووس: ومن العجب العجيب أنهم رَوَوْا من طرق الفريقين
أن المراد بنزول سورة ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾^١ مولانا علي و فاطمة والحسن
والحسين عليهم السلام وقد ذكرنا في كتابنا هذا بعض روايتهم لذلك، ومن المعلوم أن الحسن
والحسين عليهم السلام كانت ولادتهما في المدينة، ومع هذا فكأنهم نسوا ما رَوَوْه على اليقين،
وأقدموا على القول بأن هذه السورة مكيّة، وهو غلط عند العارفين.

سورة المرسلات؛ مكيّة في قول ابن عباس والضحاك، وهي خمسون آية بلاخلاف.

سورة عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ؛ مَكِّيَّة في قول ابن عباس والضَّحَّاك، وهي أربعون آية في الكوفي والمدنيين، وإحدى وأربعون في البصري.

سورة النَّازِعَات؛ مَكِّيَّة في قول ابن عباس والضَّحَّاك، وهي ست وأربعون آية في الكوفي، وخمس في البصري والمدنيين.

سورة عَبَسَ؛ مَكِّيَّة في قول ابن عباس والضَّحَّاك، وهي اثنتان وأربعون آية في الكوفي والمدنيين، وإحدى وأربعون في البصري.

سورة إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ؛ مَكِّيَّة في قول ابن عباس والضَّحَّاك، وهي تسع وعشرون آية بلا خلاف.

سورة انفطرت؛ مَكِّيَّة بقول ابن عباس والضَّحَّاك، وهي تسع عشرة آية بلا خلاف. سورة المطففين؛ مَكِّيَّة في قول ابن عباس، وقال الضَّحَّاك: هي مدنيَّة، وهي ست وثلاثون آية بلا خلاف.

سورة إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ؛ مَكِّيَّة في قول ابن عباس والضَّحَّاك، وهي خمس وعشرون آية في الكوفي والمدنيين، وثلاث وعشرون آية في البصري.

سورة البروج؛ مَكِّيَّة في قول ابن عباس والضَّحَّاك، وهي اثنتان وعشرون آية بلا خلاف. سورة الطَّارِق؛ مَكِّيَّة في قول ابن عباس والضَّحَّاك، وهي سبع عشرة آية في الكوفي والبصري والمدني الأخير، وست عشرة في المدني الأول.

سورة الأعلى؛ مَكِّيَّة في قول ابن عباس، وقال الضَّحَّاك: هي تسع عشرة آية بلا خلاف. سورة الغاشية؛ مَكِّيَّة في قول ابن عباس والضَّحَّاك، وهي ست وعشرون آية بلا خلاف. سورة الفَجْرِ؛ مَكِّيَّة في قول ابن عباس، والضَّحَّاك: هي مدنيَّة، وهي ثلاثون آية في الكوفي، وتسع وعشرون في البصري، واثنتان وثلاثون في المدنيين.

سورة البلد؛ مَكِّيَّة في قول ابن عباس، والضَّحَّاك: أنزلت حين افتتحت مكة، وهي عشرون آية بلا خلاف.

سورة وَالشَّمْسُ؛ مَكِّيَّة في قول ابن عباس والضَّحَّاك، وهي خمس عشرة آية في الكوفي والبصري، وستة عشرة في المدنيين.

سورة الليل؛ مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي عشرون آية بلا خلاف.
سورة الضحى؛ مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي إحدى عشرة آية بلا خلاف.
سورة ألم نشرح؛ مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ثمان آيات بلا خلاف.
سورة التين؛ مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ثمان آيات بلا خلاف.
سورة اقرأ؛ مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي تسع عشرة آية في الكوفي والبصري، وعشرون آية في المدنيين.

سورة القدر؛ مكية في قول الضحاك، وقال عطاء الخراساني؛ وهي خمس آيات بلا خلاف.
سورة العاديات؛ مكية في قول ابن عباس، وقال والضحاك؛ هي مدنية، وهي إحدى عشرة آية في الكوفي، وعشرة في المدنيين، وثمان في البصري.
سورة ألهمكم؛ مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي أربع آيات بلا خلاف في جملتها، وإن اختلفوا في تفصيلها.

سورة الهزعة؛ مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي تسع آيات بلا خلاف.
سورة الفيل؛ مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي خمس آيات بلا خلاف.
سورة الإيلاف؛ مكية في قول ابن عباس، وقال والضحاك؛ هي مدنية، وهي أربع آيات في الكوفي والبصري، وخمس آيات في المدنيين.

سورة أرايت؛ مكية في قول ابن عباس، وقال والضحاك؛ مدنية، وهي سبع آيات في الكوفي والبصري، وست في المدنيين.

سورة الكوثر؛ مكية في قول ابن عباس، وقال والضحاك؛ مدنية، وهي ثلاث بلا خلاف.
سورة الكافرون؛ مكية في قول ابن عباس، وقال والضحاك؛ وهي ست آيات بلا خلاف.
سورة تبت؛ مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي خمس آيات بلا خلاف.
سورة الإخلاص؛ مكية في قول ابن عباس، وقال والضحاك؛ مدنية، وهي أربع آيات بلا خلاف.

سورة الفلق؛ مكية في قول ابن عباس، وقال والضحاك؛ مدنية، وهي خمس آيات بلا خلاف.
سورة الناس؛ مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ست آيات بلا خلاف.

يقول علي بن موسى بن طاووس: ومن عجيب هذه المقالة عن ابن عباس، أنهم علموا أنه ما كان بالغاً، ولعل، ما كان موجوداً بمكة عند نزول السور المكية، وإنما رواها عن غيره ممن حضرها! فهلاً ذكروا القرابة والصحابة الذين رواها ابن عباس عنهم، وجملوا ذكرهم بهذا المقدار، وكان زيادة في قوة الثقل والآثار.

[الأقوال في عدد الآيات في السور المدنية]

فيما نذكره مما نزل من القرآن بالمدنية على ما وجدناه، وروناه عن جدّي الطوسي. سورة البقرة؛ كلّها مدنيّة، وهي مائتان وستّ وثمانون آية في الكوفي، وستّ في البصري، وخمس في المدني. وروي أن قول: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^١، نزلت بمنى في حجة الوداع. سورة آل عمران؛ مأتا آية في الكوفي، وروي عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وجميع المفسرين أن هذه السورة مدنيّة.

سورة النساء؛ مائة وستّ وسبعون آية في الكوفي، وخمس وسبعون في البصري والمدني، وهي كلّها مدنيّة. وقال بعضهم: إلا آية، وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^٢ فإنّ هذه الآية نزلت بمكة عند فتحها.

سورة المائدة؛ مدنيّة في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقال جعفر بن مبرّر: هي مدنيّة إلا قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، في حجة الوداع، وقال الشعبي: نزلت: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^٣ والنبي ﷺ واقف على راحلته في حجة الوداع.

يقول علي بن موسى بن طاووس: وقد روينا في هذا الكتاب وكتاب «الطرائف» وكتاب «الإقبال» من طرق المخالفين لأهل البيت (عليه السلام) يوم غدير خم نزولها عند النّص من النبي ﷺ على مولانا علي (عليه السلام) بالولاية، وهو أليق بصورة الحال عند ذوي العناية والرعاية. وقال ابن عمر: آخر سورة نزلت في المدنية، وهي مائة وعشرون آية كوفي،

واثنتان وعشرون بالمدينيتين، وثلاث وعشرون في البصريين.

سورة الأنفال: مدينية في قول ابن عباس وقتادة ومجاهد، وحكي عن ابن عباس أنها مدينية إلا تسع آيات، وروي عن ابن عباس أن الأنفال نزلت في بدر، وهي سبع وسبعون آية في الشامي، وست في البصري والمدينيتين، وخمس وسبعون آية في الكوفي.

سورة براءة: مدينية، وهي مائة وتسع وعشرون آية في الكوفي، وثلاثون في البصري والمدينيتين. قال قتادة ومجاهد وعثمان: هي مدينية، وهي أول ما نزل.

سورة الرعد: قال قتادة: هي مدينية إلا آية منها، فإنها مكية، وهي قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾^١ وقال مجاهد: هي مكية، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وهي ثلاث وأربعون آية في الكوفي، وأربع في المدينيتين، وخمس في البصري. سورة الحج: قال قتادة: هي مدينية إلا أربع آيات، فإنها مكيات، ومن قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ - إلى قوله - عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ^٢ وقال مجاهد والعباس بن أبي ربيعة: هي مدينية كلها، وهي ثمان وسبعون آية في الكوفي، وست في المدينيتين وخمس في البصري.

سورة النور: مدينية بلا خلاف، وهي أربع وستون آية في البصري والكوفي، واثنتان وسبعون في المدينيتين.

سورة الأحزاب: مدينية في قول مجاهد وحسن البصري، وهي ثلاث وسبعون آية بلا خلاف.

سورة الفتح: مدينية بلا خلاف، وهي تسع وعشرون آية بلا خلاف.

سورة الحجرات: مدينية إلا آية واحدة، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾^٣ إلى آخرها، وقال قوم: كلها مدينية، وهي ثمان عشرة آية بلا خلاف.

سورة الحديد: مدينية بلا خلاف، وهي تسع وعشرون آية في الكوفي والبصري. وثمان وعشرون في المدينيتين.

سورة المجادلة: مدينية بلا خلاف، وهي اثنتان وعشرون آية في الكوفي والبصري

والمديني الأول، واحد وعشرون في المديني الآخر.

سورة الحشر؛ مدينية بلاخلاف، وهي أربع وعشرون بلاخلاف.

سورة الممتحنة؛ مدينية بلاخلاف، وهي ثلاث عشرة آية.

سورة الصف؛ مدينية بلاخلاف، وهي أربع عشرة آية بلاخلاف.

سورة الجمعة؛ مدينية، وهي إحدى عشرة آية ليس فيها خلاف، وقال ابن عباس والضحاك؛ هي مكية.

سورة المنافقين؛ مدينية بلاخلاف، وهو قول ابن عباس وعطاء والضحاك و مجاهد، وهي إحدى عشرة آية بلاخلاف.

سورة التغابن؛ مدينية بلاخلاف، وفي قول ابن عباس وعطاء والضحاك، وهي ثمان عشرة آية بلاخلاف.

سورة الطلاق؛ مدينية في قول ابن عباس وعطاء والضحاك وغيرهم، وهي اثنتا عشرة آية في الكوفي والمديني، وعشرة في البصري.

سورة التحريم؛ مدينية في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما، وهي اثنتا عشرة آية بلاخلاف.

سورة لم يكن؛ مدينية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ثمان آيات في الكوفي والمديني، وتسع آيات في البصري.

سورة الزلزلة؛ مدينية في قول ابن عباس، وقال الضحاك مكية. وهي ثمان آيات في الكوفي والمديني، وتسع آيات في البصري والمديني الأخير.

سورة النصر؛ في قول ابن عباس والضحاك. وهي ثلاث آيات بلاخلاف.

الفصل السابع

نص الخازن (م: ٧٢٥) في «لُباب التأويل»

اعلم أنَّ الله تعالى أنزل القرآن المجيد من اللوح المحفوظ جملةً واحدةً إلى سماء الدنيا في شهر رمضان في ليلة القدر، ثم كان ينزله مفرقاً على لسان جبرئيل عليه السلام إلى النبي ﷺ مدةً رسالته نجومًا عند الحاجة وحدث ما يحدث على ما شاء الله تعالى. و ترتيب نزول القرآن غير ترتيبه في التلاوة و المصحف، فأما ترتيب نزوله على رسول الله... فأول ما نزل من القرآن بمكة: إقرأ، ن و ألقلم... [راجع الجدول، الرّقم ١١ في آخر هذا الجزء].

واختلفوا في آخر ما نزل بمكة، فقال ابن عباس: العنكبوت، و قال الضّحّاك و عطاء المؤمنون، و قال مُجاهد: وَيَلُلْ لِلْمُطَفِّفِينَ. فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة، فذلك ثلاث و ثمانون سورة على ما استقرّت عليه روايات الثّقات.

و أمّا ما نزل بالمدينة فأحدى و ثلاثون سورة^١: فأول ما نزل بها سورة البقرة، ثم الأنفال... [راجع الجدول، الرّقم ١١ في آخر هذا الجزء].

واختلفوا في سورة الشّورى، فقيل: نزلت بمكة، و قيل: نزلت بالمدينة، و سنذكر ذلك في موضعه.^٢ (١: ٩)

١ - لكنّه لا يذكر سوي ٢٨ سورة، فأسقط المطففين و النّور و الجُمعة، كما أسقط في المكيّ: الشّمس و الملائكة، و هي

٢ - راجع إلى ٦: ٩٧ (م).

كلّها مع الفاتحة تصير ١١٤ سورة (م).

الفصل الثامن

نص الزركشي (م: ٧٩٧) في «البرهان في علوم القرآن»

معرفة المكي والمدني وما نزل بمكة والمدينة و ترتيب ذلك

إعلم أن للناس في ذلك ثلاثة اصطلاحات؛

أحدها - أن المكي ما نزل بمكة، والمدني ما نزل بالمدينة^١.

والثاني - وهو المشهور - أن المكي ما نزل قبل الهجرة، وإن كان بالمدينة، والمدني

ما نزل بعد الهجرة، وإن كان بمكة.

والثالث - أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة،

وعليه يحمل قول ابن مسعود الآتي؛ لأنّ الغالب على أهل مكة الكفر، فخطبوا:

بـ «يَا أَيُّهَا النَّاسُ»، وإن كان غيرهم داخلًا فيهم، وكان الغالب على أهل المدينة الإيمان،

فخطبوا بـ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» وإن كان غيرهم داخلًا فيهم.

وذكر الماوردي أن البقرة مدنيّة في قول الجميع إلا آية، وهي: «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ

فِيهِ إِلَى اللَّهِ»^٢، فإنّها نزلت يوم النحر في حجة الوداع بمنى، انتهى.

ونزولها هناك لا يخرجها عن المدني بالاصطلاح الثاني، أن ما نزل بعد الهجرة مدني

سواء كان بالمدينة أو بغيرها.

وقال الماوردي: في سورة النساء: هي مدنيّة، إلا آية واحدة نزلت في مكة في

عثمان بن طلحة، حين أراد النبي ﷺ أن يأخذ منه مفاتيح الكعبة ويسلمها إلى القباس،

١ - قال السيوطي في الإتيان ٩: ١؛ ويدخل في مكة ضواحيها، كالمنزى بمنى و عرفات و الحديبية، و في المدينة

٢ - البقرة ٢٨١/.

ضواحيها، كالمنزى ببدر و أحد و سلع.

فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^١.

و من جملة علاماته أن كلَّ سورة فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وليس فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهي مكيّة، وفي الحجّ اختلاف. وكلّ سورة فيها: ﴿كَلَّا﴾ فهي مكيّة، وكلّ سورة فيها حروف المعجم فهي مكيّة، إلّا البقرة وآل عمران، وفي الرّعد خلاف. وكلّ سورة فيها قصّة آدم وإبليس فهي مكيّة سوى البقرة. وكلّ سورة فيها ذكر المنافقين فمدنيّة سوى العنكبوت. وقال هشام عن أبيه: كلّ سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض فهي مدنيّة، وكلّ ما كان فيه ذكر القرون الماضية فهي مكيّة.

و ذكر أبو عمرو عثمان بن سعيد الدّارميّ بإسناده إلى يحيى بن سلام، قال: ما نزل بمكة و ما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النّبيّ ﷺ المدينة فهو من المكيّ، و ما نزل على النّبيّ ﷺ في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدنيّ، و ما كان من القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فهو مدنيّ، و ما كان ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، فهو مكيّ.

و ذكر أيضًا بإسنادة إلى عروة بن الزّبير، قال: ما كان من حدّ أو فريضة فإنّه أنزل بالمدينة، و ما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنّه أنزل بمكة.

وقال الجعبريّ: لمعرفة المكيّ والمدنيّ طريقان: سماعيّ وقياسيّ، فالسماعيّ ما وصل إلينا نزوله بأحدهما، والقياسيّ قال علقمة عن عبد الله: كلّ سورة فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فقط أو ﴿كَلَّا﴾ أو أولها حروف تهجّ سوى الزّهاوين^٢ والرّعد في وجهه، أو فيها قصّة آدم وإبليس سوى الطّوليّ^٣، فهي مكيّة، وكلّ سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكيّة وكلّ سورة فيها فريضة أو حدّ، فهي مدنيّة، انتهى.

و ذكر ابن أبي شيبة في مصنّفه في كتاب «فضائل القرآن»: حدّثنا وكيع عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، قال: كلّ شيء نزل فيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهو بمكة، وكلّ شيء نزل فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو بالمدينة. وهذا مرسل قد أسند عن عبد الله بن

١ - النساء / ٥٨.

٢ - هما سورتا البقرة وآل عمران، وقرأ في تفسير القرطبيّ ٤: ٣ سبب التسمية.

٣ - هي سورة البقرة، أطول سورة في القرآن.

مسعود، ورواه الحاكم في مستدركه في آخر كتاب الهجرة عن يحيى بن معين، قال: حدثنا وكيع عن أبيه، عن الأعمش وعن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود به. ورواه البُهقي في أواخر دلائل التَّبوَّة، وكذا رواه البزار في مسنده، ثم قال: وهذا برويه غير قيس عن علقمة مرسلًا، ولا نعلم أحدًا أسنده إلا قيس، انتهى.

ورواه ابن مَرْدُويه في تفسيره في سورة الحج عن علقمة، عن أبيه، وذكر في آخر الكتاب عن عُرْوَة بن الزُّبَيْر نحوه، وقد نص على هذا القول جماعة من الأئمة منهم أحمد بن حنبل وغيره، وبه قال كثير من المفسرين، ونقله عن ابن عباس.

وهذا القول إن أخذ على إطلاقه ففيه نظر، فإن سورة البقرة مدنية، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم﴾^١ وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾^٢، وسورة النساء مدنية، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم﴾^٣ وفيها: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾^٤ وسورة الحج مكية وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَزْكُوا وَاسْجُدُوا﴾^٥. فإن أراد المفسرون أن الغالب ذلك فهو صحيح، ولذا قال مكِّي: هذا إنما هو في الأكثر وليس بعام، وفي كثير من السور المكية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ انتهى.

والأقرب تنزيل قول من قال: مكِّي ومدني، على أنه خطاب المقصود به أو جل المقصود به أهل مكة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كذلك بالنسبة إلى أهل المدينة.

وفي تفسير الرازي عن علقمة والحسن: أن ما في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مكِّي، وما كان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فبالمدينة، وأن القاضي قال: إن كان الرجوع في هذا إلى النقل فمسلّم، وإن كان السبب فيه حصول المؤمنين بالمدينة على الكثرة دون مكة فضعيف؛ إذ يجوز خطاب المؤمنين بصفتهم واسمهم وجنسهم، ويؤمر غير المؤمنين بالعبادة، كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار عليها والازدياد منها، انتهى.

١ - البقرة / ١٦٨.

٢ - البقرة / ٢١.

٣ - النساء / ١٣٣.

٤ - النساء / ١.

٥ - الحج / ٧٧.

[ضرورة معرفة المكي والمدني]

و يقع السؤال أنّه هل نصّ النبي ﷺ على بيان ذلك؟ قال القاضي أبو بكر في الانتصار: إنّما هذا يرجع لحفظ الصحابة و تابعيهم، كما أنّه لا بدّ في العادة من معرفة معظّمَي العالم والخطيب، وأهل الحرص على حفظ كلامه و معرفة كتبه و مصنفاته من أن يعرفوا ما صنّفه أولاً و آخرًا، و حال القرآن في ذلك أمثل، والحرص عليه أشدّ، غير أنّه لم يكن من النبي ﷺ في ذلك قول، و لا ورد عنه أنّه قال: اعلموا أن قدر ما نزل بمكة كذا و بالمدينة كذا و فصله لهم، و لو كان ذلك منه لظهر و انتشر، و إنّما لم يفعله لأنّه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأُمّة، و إن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ النّاسخ و المنسوخ، ليعرف الحكم الذي تضمّنهما، فقد يُعرف ذلك بغير نصّ الرّسول بعينه، و قوله: هذا هو الأوّل المكيّ، و هذا هو الآخر المدنيّ. وكذلك الصحابة و التابعون من بعدهم لمّال يعتبروا أنّ من فرائض الدّين تفصيل جميع المكيّ و المدنيّ ممّا لا يسوغ الجهل به، لم تتوفّر الدّواعي على إخبارهم به و مواصلة ذكره على أسماعهم، و أخذهم بمعرفته. و إذا كان كذلك ساع أن يختلف في بعض القرآن هل هو مكيّ أو مدنيّ، و أن يعملوا في القول بذلك ضربًا من الرّأي و الاجتهاد، و حينئذ فلم يلزم الثقل عنهم ذكر المكيّ و المدنيّ، ولم يجب على من دخل في الإسلام بعد الهجرة أن يعرف كلّ آية أنزلت قبل إسلامه مكّيّة أو مدنيّة. فيجوز أن يقف في ذلك أو يغلب على ظنه أحد الأمرين، و إذا كان كذلك بطل ما توهموه من وجوب نقل هذا أو شهرته في النّاس، و لزوم العلم به لهم، و وجوب ارتفاع الخلاف فيه.

[معرفة المكيّ و المدنيّ و مواضع نزول الآيات]

قال أبو القاسم الحسن بن محمّد بن حبيب التّيسابوريّ في كتاب: «التّنبية على فضل علوم القرآن»: من أشرف علوم القرآن علم نزوله و جهاته، و ترتيب ما نزل بمكة ابتداءً و وسطًا و انتهاءً، و ترتيب ما نزل بالمدينة كذلك، ثمّ ما نزل بمكة و حكمه مدنيّ، و ما نزل بالمدينة و حكمه مكيّ، و ما نزل بمكة في أهل المدينة، و ما نزل بالمدينة في أهل مكة، ثمّ ما يشبه نزول المكيّ في المدنيّ، و ما يشبه نزول المدنيّ في المكيّ، ثمّ ما نزل بالبحفّة، و ما نزل ببیت المقدّس، و ما نزل بالطائف، و ما نزل بالحدّيبية، ثمّ ما نزل ليلاً، و ما نزل نهارًا،

و منازل مشيعةً، و منازل مفردًا، ثم الآيات المدنيات في السور المكيّة، و الآيات المكيّة في السور المدنيّة، ثم ما حُمل من مكّة إلى المدينة، و ما حُمل من المدينة إلى مكّة، و ما حُمل من المدينة إلى أرض الحبشة، ثم ما نزل مجملًا، و ما نزل مفسرًا، و ما نزل مرموزًا، ثم ما اختلفوا فيه، فقال بعضهم: مدنيّ. هذه خمسة و عشرون وجهًا، من لم يعرفها و يميّز بينها لم يحلّ له أن يتكلّم في كتاب الله تعالى.

[ثم ذكر ترتيب السور المكيّة بحسب ما تقدّم عن صاحب كتاب «المباني» و ذكر أيضًا عقيبها اختلاف في آخر منازل بمكّة و ترتيب منازل بمكّة كما تقدّم أيضًا عن الخازن فقال:].
و منهم من يقدّم المائدة على التوبة، و قرأ النبي ﷺ المائدة في خطبة حجة الوداع و قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ آخِرَ الْقُرْآنِ نَزُولًا سورة المائدة، فأحلّو حلالها، و حرّموا حرامها». فهذا ترتيب ما نزل بالمدينة، و أمّا ما اختلفوا فيه ففاتحة الكتاب؛ قال ابن عباس والضحاك و مقاتل و عطاء: إنها مكيّة، و قال مجاهد: مدنيّة، و اختلفوا في «وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ»، فقال ابن عباس: مدنيّة، و قال عطاء: هي آخر ما نزل بمكّة، فجميع منازل بمكّة خمس و ثمانون سورة، و جميع منازل بالمدينة تسع و عشرون سورة على اختلاف الروايات.

ذكر ما نزل بمكّة و حكمه مدنيّ

منها قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ...»^١ الآية، و لها قصة يطول بذكرها الكتاب^٢، و نزولها بمكّة يوم فتحها، و هي مدنيّة؛ لأنّها نزلت بعد الهجرة.
و منها قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» - إلى قوله: - «الْخَاسِرِينَ»^٣ نزلت يوم الجمعة و الناس و قوف بعرفات، فبركت ناقة النبي ﷺ من هيبة القرآن. و هي مدنيّة؛ لنزولها بعد الهجرة، و هي عدّة آيات يطول ذكرها.

٢ - انظر تفصيل القصة في سيرة ابن هشام ٤: ٣٢٣١.

١ - الحُجُرَات ١٣/.

٣ - المائدة ٣/ - ٥.

ذكر منازل بالمدينة و حكمه مكّي

منه الممتحنة إلى آخرها، وهي قصّة حاطب بن أبي بلتعة و سارة، و الكتاب الذي دفعه إليها - وقصّتها مشهورة - فخطب بها أهل مكّة.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا...﴾^٢ إلى آخر السّورة، مدنيّات يخاطب بها أهل مكّة.

ومنها سورة الرّعد يخاطب أهل مكّة، وهي مدنيّة.

ومن أوّل (براءة) إلى قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾^٣، خطاب لمشركي مكّة، وهي مدنيّة. فهذا من جملة منازل بمكّة في أهل المدينة و حكمه مدنيّ، و ما نزل في أهل مكّة و حكمه مكّي.

ما يشبه تنزيل المدينة في السّور المكيّة

من ذلك قوله تعالى في النّجم: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾^٤ يعني كلّ ذنب عاقبته النّار ﴿وَالْفَوَاحِشُ﴾ يعني كلّ ذنب فيه حدّ، ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ و هو بين الحدّين من الذّنوب نزلت في نَبْهَان و المرأة التي راودها عن نفسها فأبت، و القصّة مشهورة، و استقرّت الرواية بما قلنا، و الدّليل على صحّته أنّه لم يكن بمكّة حدّ و لا غزو.

ومنها قوله تعالى في هود: ﴿وَاقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ...﴾^٥ الآية، نزلت في أبي مقبل الحسين بن عمر بن قيس^٦ والمرأة التي اشترت منه التمر فراودها.

١ - و ذلك حينما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكّة، و كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابه إلى قُرَيْش يخبرها بالذي

أجمع عليه رسول الله من الأمر بالسّير إليهم. و انظر تفصيل الخبر في ابن هشام ٤: ١٦ - ١٧.

٢ - التوبة / ٢٨.

٣ - النحل / ٤١.

٤ - هود / ١١٤.

٥ - النّجم / ٣٢.

٦ - في تفسير القرطبي ٩: ١١٠ - ١١١ أنّها نزلت في رجل من الأنصار اسمه أبو اليسر بن عمرو. ثم ذكر تفصيل الخبر والخلاف الوارد فيه.

ما يشبه تنزيل مكة في السور المدنية

من ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَا تَخَذُهَا مِنْ لَدُنَّا﴾^١ نزلت في نصارى نجران، ومنهم السيد والعاقب.
ومنها سورة (والعاديات ضيحا) في رواية الحسين بن واقد، وقصتها مشهورة. ومنها قوله تعالى في الأنفال: ﴿إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ...﴾^٢ الآية.

ما نزل بالجحفة

قوله عز وجل في سورة القصص: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾^٣، نزلت بالجحفة والنبي ﷺ مهاجر.

ما نزل ببيت المقدس

قوله تعالى في الزخرف: ﴿وَسُئِلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾^٤ نزلت عليه ليلة أسرى به.

ما نزل بالطائف

قوله تعالى في الفرقان: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ...﴾^٥ ولذلك قصة عجيبة.
وقوله في (إذا السماء انشقت): ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^٦ يعني كفار مكة.

ما نزل بالحديثية

قوله تعالى في الرعد: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالْحَدِيثِ﴾^٧ نزلت بالحديثية حين صالح

١ - الأنفال / ٣٢.

٢ - الأنبياء / ١٧.

٣ - الجحفة قرية على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل.

٤ - الزخرف / ٤٥.

٥ - القصص / ٨٥.

٦ - الفرقان / ٤٥ - ٢٢ - ٢٤.

٧ - الرعد / ٣٠.

النبي ﷺ أهل مكة، فقال رسول الله ﷺ علي: أكتب: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فقال سهيل بن عمرو: ما نعرف الرحمن الرحيم، و لو نعلم أنك رسول الله لتابعناك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ - إِلَى قَوْلِهِ - مَتَابِ﴾.

منها سورة الأنعام، وهي كلها مكية خلاست آيات، واستقرت بذلك الروايات.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^١، نزلت هذه في مالک بن الصَّيْف، إلى آخر الآية.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾^٢ نزلت في عبد الله بن أبي سرح، أخي عثمان من الرضاة، حين قال: ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾^٣ وذلك أنه كان يكتب لرسول الله ﷺ فأنزل الله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾^٤، فأملأها عليه رسول الله ﷺ، فلما بلغ قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾^٥ قال رسول الله ﷺ أكتب: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ...﴾ إلخ الآية؛ فقال: إن كنت نبياً فأنا نبي؛ لأنه خطر بيالي ما أملت علي، فلحق كافراً.

و أما قوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾^٦ فإنه نزل في مُسَيْلَمَةَ الكَذَّاب، حين زعن أن الله سبحانه أوحى إليه. وثلاث آيات من آخرها: ﴿قُلْ تَعَالَوْا - إِلَى قَوْلِهِ - نَتَّقُونَ﴾^٧.

سورة الأعراف مكية، إلا ثلاث آيات: ﴿وَسَلِّطْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾^٨.

سورة إبراهيم مكية، غير آيتين نزلتا في قتلى بدر ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا...﴾^٩ إلخ الآيتين.

سورة النحل مكية إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾^{١٠} والباقي مدني.

سورة بني إسرائيل مكية، غير قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الْبَدَىٰ أَوْ حِينَا إِلَيْكَ﴾^{١١}

١ - الأنعام / ٩١.

٢ - الأنعام / ٩٣.

٣ - الأنعام / ٩٣.

٤ - المؤمنون / ١٢.

٥ - المؤمنون / ١٤.

٦ - الأنعام / ٩٣.

٧ - الأنعام / ١٥١ - ١٥٣.

٨ - الأعراف / ١٦٣ - ١٧١.

٩ - إبراهيم / ٢٨ - ٢٩.

١٠ - النحل / ٤١.

١١ - الإسراء / ٧٣.

يعني ثقيلاً، وله قصّة^١.

سورة الكهف مكيّة، غير قوله: ﴿وَاضِرُّكَ﴾^٢ نزلت في سلمان الفارسي وله قصّة^٣.
سورة القصص مكيّة، غير آية: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾^٤ - يعني الإنجيل - ﴿مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني الفرقان. نزلت في أربعين رجلاً من مؤمني أهل الكتاب قدموا من الحبشة مع جعفر بن أبي طالب فأسلموا، ولهم قصّة^٥.

سورة الزمر مكيّة، غير قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ...﴾^٦ الآية.
الحواميم كلّها مكّيات، غير آية في الأحقاف نزلت في عبدالله بن سلام^٧: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾^٨.

١ - في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩: ٢٩٩. نزلت في و قد تقيف، أتوا النبي ﷺ فسألوه شططاً، وقالوا متعبنا بالهتنا حتى نأخذ ما يهدى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وحرّمنا وادينا كما حرّمت مكة، حتى تعرف العرب فضلتنا عليهم فهم رسول الله ﷺ أن يعطيهم ذلك فنزلت هذه الآية.

٢ - الكهف / ٢٨.

٣ - عن سلمان الفارسي قال: جاءت المؤلفة القلوب إلى رسول الله ﷺ عُنَيْتَ بن حِصْن و الأقرع بن حابس و دُووهم، فقالوا: يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المجلس و نَحَيْتَ عنّا هؤلاء و أرواح جياهم - يعنون سلمان و أباذر و فقراء المسلمين، و كانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها - جلسنا إليك و حادثناك، و أخذنا عنك، فأنزل الله: ﴿وَأَنْتَ مَا أَوْجَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً * وَاضِرُّكَ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَفْئِ...﴾ الكهف / ٢٧ - ٢٨. فقام النبي ﷺ يلتصمهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى، قال: «الحمد لله الذي لم يعتني حتى أمرني أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا و معكم الممات». أسباب النزول للواحد: ٢٢٥. ٤ - القصص / ٥٢.

٥ - في تفسير ابن كثير ٣: ٣٩٤ عن ابن إسحاق: قدّم على رسول الله ﷺ و هو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه و كلّموه و سألوه و رجال من قريش في أندية حول الكعبة، فلما فرغوا من مساءلة عمّا أرادوا دعاهم إلى الله تعالى، و تلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله و آمنوا به و صدّقوه، و عرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبوجهل ابن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خبيك الله تعالى من ركب! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم تترادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطلن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم و صدّتموه فيما قال، ما نعلم ركباً أحقّ منكم! فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً.

٦ - الزمر: ٥٣. ٧ - في هذا خلاف ذكره ابن كثير في التفسير ٤: ١٥٦.

٨ - الأحقاف / ١٠.

الآيات المكيّة في السور المدنيّة

منها قوله تعالى في الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ...﴾^١ الآية، يعني أهل مكة حتّى يخرجك من بين أظهرهم. استقرّت به الرواية.

سورة التوبة مدنيّة، غير آيتين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ...﴾^٢ إلخ السورة.

سورة الرعد مدنيّة، غير قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُورَافًا سَيَّرَتْ بِهَ الْجِبَالَ - إِلَى قَوْلِهِ - جَمِيعًا﴾^٣

سورة الحجّ مدنيّة، وفيها أربع آيات مكيّات، قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى - إِلَى قَوْلِهِ - عَقِيمٌ﴾^٤ وله قصّة.

سورة آرايت مكيّة إلّا قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾^٥ إلى آخرها، فإنّها مدنيّة كذا قال مقاتل بن سليمان.

ما حُمل من مكة إلى المدينة

أول سورة حملت من مكة إلى المدينة سورة يوسف، انطلق بها عوف بن عفراء في الثمانية الذين قدموا على رسول الله ﷺ مكة، فعرض عليهم الإسلام فأسلموا، وهم أول من أسلم من الأنصار، قرأها على أهل المدينة في بني زريق، فأسلم يومئذ بيوت من الأنصار روى ذلك يزيد بن رومان عن عطاء، عن ابن يسار، عن ابن عباس. ثمّ حمل بعدها ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ...﴾ إلى آخرها. ثمّ حمل بعدها الآية التي في الأعراف ﴿قُلْ يَاءَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا - إِلَى قَوْلِهِ - تَهْتَدُونَ﴾^٦ فأسلم عليها طوائف من أهل المدينة، وله قصّة.

١ - الأنفال / ٣٣.

٢ - التوبة / ١٢٨.

٣ - الرعد / ٣١.

٤ - الحج / ٥٢ - ٥٥، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢: ٨٠ وما بعدها.

٥ - الأعراف / ١٥٨.

٥ - الماعون / ٤.

ما حُمِلَ من المدينة إلى مكة

من ذلك الأنفال التي في البقرة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ...﴾ الآية، وذلك حين أورد عبدالله بن جحش كتاب مُسلمي مكة على رسول الله ﷺ، بأنَّ المشركين عيرونا قتل ابن الحضرمي وأخذ الأموال والأسارى في الشهر الحرام فكتبت بذلك عبدالله بن جحش إلى مُسلمي مكة: إن عيروكم فعيروهم بما صنعوا بكم.^١

ثم حملت آية الرِّبَا من المدينة إلى مكة في حضور تقيف وبنو المُغيرة إلى عَتَّاب بن أُسيد عامل رسول الله ﷺ على مكة، فقرأ عَتَّاب عليهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾^٢ فأقرؤا بتحريمه، وتابوا وأخذوا رؤوس الأموال، ثم حملت مع الآيات من أول سورة براءة من المدينة إلى مكة، قرأهنَّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام يوم النحر على النَّاس، وفي ترتيبها قصّة.^٣

ثم حُمِلت من المدينة إلى مكة الآية التي في النساء: ﴿إِلَّا الْمُسْتَظْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ - إِلَى قَوْلِهِ - عَفْوًا غَفَوًا﴾^٤ فلا تعاقبهم على تخلفهم عن الهجرة. فلما بعث رسول الله ﷺ بها إلى مُسلمي مكة، قال جُنْدُع بن صَمرة الليثي ثم الجُنْدُعِيّ لبنيه - وكان شيخاً كبيراً: ألسْتُ من السمتضعفين وأنّي لا أهتدي إلى الطّريق؟ فحمّله بنوه على سريره متوجّهاً إلى المدينة، فمات بالتّنعيم^٥ فبلغ أصحاب رسول الله ﷺ موته، فقالوا: لو

١ - البقرة / ٢١٧.

٢ - انظر تفسير ابن جرير الطّبري ٤: ٢٩٩ - ٣١٥، و تفسير القرطبي ٣: ٤٢ - ٤٣.

٣ - البقرة / ٢٧٨.

٤ - انظر تفسير القرطبي ٣: ٣٦٣ - ٣٦٤.

٥ - النساء / ٩٨ - ٩٩.

٦ - التّنعيم: موضع على طريق المدينة يحرم منه المكيّون بالعمرة. (ياقوت)

لحق بنا لكان أكمل لأجره، فأنزل الله تعالى^١: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ - إِلَى قَوْلِهِ - غَفُورًا رَحِيمًا﴾^٢.

ما حُمِلَ من المدينة إلى الحبشة

هي ست آيات، بعث رسول الله ﷺ إلى جعفر بن أبي طالب في خصومة الرهبان والقسيسين ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾^٣ فقرأها جعفر بن أبي طالب عليهم عند النجاشي، فلما بلغ قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾^٤ قال النجاشي: صدقوا، ما كانت اليهودية والنصرانية إلا من بعده ثم قرأ جعفر: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ...﴾^٥ الآية، قال النجاشي: اللهم إني ولي لأولياء إبراهيم، وقال: صدقوا والمسيح، ثم أسلم النجاشي وأسلموا. (١: ١٨٧ - ٢٠٥)

١ - أنظر تفسير القرطبي ٥: ٣٤٩.

٢ - النساء / ١٠٠.

٣ - آل عمران / ٦٤.

٤ - آل عمران / ٦٧.

٥ - آل عمران / ٦٨.

الفصل التاسع

نصّ الفيروزاباديّ (م: ٨١٧) في «بصائر ذوي التمييز»

[بعد ذكر ترتيب السور على طبق ما نقله الماوردّيّ والتيسابوريّ كما تقدّم قال:]

فيما لا بدّ من معرفته في نزول القرآن

إعلم أنّ نزول آيات القرآن وأسبابه، و ترتيب نزول السور المكيّة والمدنيّة، من أشرف علوم القرآن.

[ثمّ ذكر معرفة المكيّ والمدنيّ ومواضع نزول الآيات مانزل بمكة وحكمه مدنيّ وبالعكس، كما تقدّم عن الزركشيّ، فقال:]

وأما ابتداء سورة الحجّ فنزلت في غزوة بني المصطلق.

وقوله تعالى: ﴿وَاللّٰهُ يَعْصِيْكَ مِنَ النَّاسِ﴾^١ نزلت في بعض الغزوات، لما قال ﷺ: مَنْ يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ؟ فنزلت الآية.

وفي سورة القصص ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^٢ نزلت بالليل وهو في لحاف عائشة رضي الله عنها.

[ثمّ ذكر الآيات المدنيّة في السور المكيّة وبالعكس، و ذكر أيضًا ما حمل من مكة إلى المدينة وبالعكس، بحسب ما تقدّم عن الزركشيّ، فقال:]

وأما الآيات المجملة فهي مثل قوله في سورة يونس: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُوْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ

لَمَّا ظَلَمُوا﴾^٣، وفي سورة هود: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾^٤ وفي

٢- القصص / ٥٦.

٤- هود / ١٠٠.

١- البقرة / ٦٧.

٣- يونس / ١٣.

سورة الحج: ﴿وَأَفْعَلُوا الْغَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^١، وقوله: ﴿يَاءِئُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^٢ وقوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^٣.

وأما الآيات المفسرة فمثل قوله: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾^٤، وقوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾^٥، و ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^٦ و ﴿يَاءِئُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَزْكَمُوا وَأَسْجَدُوا﴾^٧. ومن وجه آخر ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ تفسيره ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ تفسيره ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾^٨.

وأما الآيات الرموزة فمثل (طه)، قيل: هو الرجل بلغه عك، وقيل: معناه طوبى وهاوية، وقيل: معناه طاهر يا هادي. وقوله: (يس)، قيل: معناه يا إنسان، وقيل: يا سيد البشر، وقيل: يا سني القدر. وعلى هذا القياس جميع حروف التهجي المذكورة في أوائل السور. وقال عروة بن الزبير: كل سورة فيها ضرب المثل وذكر القرون الماضية فهي مكّية، وكل سورة تتضمن الفرائض والأحكام والحدود فهي مدنيّة. وكل عبارة في القرآن بمعنى التوحيد و﴿يَاءِئُهَا النَّاسُ﴾ خطاب لأهل مكة و﴿يَاءِئُهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب لأهل المدينة. و﴿قُلْ﴾ خطاب للنبي ﷺ. (١: ١٠٠)

وأما ترتيب نزول السور فاعتمدنا على ما نقله الماوردي وأبو القاسم النيسابوري في تفسيرهما. ولنبتديء بالسور المكّية. [ثم ذكر ترتيب السور المكّية والمدنيّة كما تقدّم عن صاحب كتاب «المباني»، فقال:]

فهذه جملة منازل بمكّة من القرآن، وما نزل بالمدينة. ولم نذكر الفاتحة؛ لأنّه مختلف فيها؛ قيل: أنزلت بمكّة، وقيل: بالمدينة، وقيل: بكلّ مرّة (١: ٩٧)

٢ - الأعراف / ١٥٨.

٤ - يس / ١٣.

٦ - المؤمنون / ١.

٨ - المعارج / ١٩ - ٢١.

١ - الحج / ٧٧.

٣ - التور / ٣١.

٥ - التوبة / ١١٢.

٧ - الحج / ٧٧.

الفصل العاشر

نص السُّيُوطِيّ (م: ٩١١) في «الإتقان في علوم القرآن»

في معرفة المكي والمدني

أفردّه بالتصنيف جماعة، منهم مكِّي والعزّ الدِّيرينيّ. و من فوائد معرفة ذلك العلم بالتأخّر، فيكون ناسخاً أو مخصّصاً على رأي من يرى تأخير المخصّص.

[ثمّ ذكر قول أبي القاسم الحسن بن محمّد النّيسابوريّ عن كتابه: «التنبيه على فضل

علوم القرآن» كما تقدّم عن الزُّركشيّ، فقال:]

قلت: وقد أشبعت الكلام على هذه الأوجه، فمنها ما أفردته بنوع ومنها ما تكلمت

عليه في ضمن بعض الأنواع.

وقال ابن العربيّ في كتابه «الناسخ والمنسوخ»: الذي علمناه على الجملة من القرآن

أنّ منه مكّيّاً ومدنيّاً، وسفريّاً وحضريّاً، وليليّاً ونهاريّاً، وسمائيّاً وأرضيّاً، وما نزل بين

السّماء والأرض، وما نزل تحت الأرض في الغار.

وقال ابن التّقيّ في مقدّمة تفسيره: المنزل من القرآن على أربعة أقسام: مكّيّ

ومدنيّ، وما بعضه مكّيّ وبعضه مدنيّ، وما ليس بمكّيّ ولا مدنيّ. اعلم أنّ للنّاس في

المكّي والمدني اصطلاحات ثلاثة؛

أشهرها - أنّ المكّيّ منازل قبل الهجرة، والمدنيّ منازل بعدها، سواء نزل بمكّة أم

بالمدينة، عام الفتح أو عام حجّة الوداع، أم بسفرٍ من الأسفار.

أخرج عثمان بن سعد الرّازيّ بسنده إلى يحيى بن سلام، قال: ما نزل بمكّة وما نزل

في طريق المدينة قبل أن يبلغ النّبيّ ﷺ المدينة فهو من المكّي، وما نزل على النّبيّ ﷺ

في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدنيّ، وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أنّ ما نزل في سفر

الهجرة مَكِّيَّ اصطلاحًا.

الثاني - أن المَكِّيَّ منازل بمكّة ولو بعد الهجرة، والمدنيّ منازل بالمدينة. وعلى هذا تثبت الوساطة، فما نزل بالأسفار لا يُطلق عليه مَكِّي ولا مدنيّ. وقد أخرج الطَّبْرَانِي فِي «الكبير» من طريق الوليد بن مُسلم عن عَفَيْر بن مَعْدَان، عن ابن عامر عن أَبِي أُمَامَةَ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُنزل القرآن في ثلاثة أمكنة: مكّة، والمدينة، والشّام» قال الوليد: يعني بيت المقدس. وقال الشَّيْخ عماد الدِّين بن كثير: بل تفسيره بتبوك أحسن.

قلت: يدخل في مكّة ضواحيها، كالمنزل بمنى وعرفات والحُدَيْبِيَّة، وفي المدينة ضواحيها، كالمنزل ببدر وأُحُد وسلْع.

الثالث: أن المَكِّيَّ ما وقع خطاباً لأهل مكّة، والمدنيّ ما وقع خطاباً لأهل المدينة، وحُيِّلَ على هذا قول ابن مسعود الآتي. [ثم ذكر قول القاضي أبي بكر، كما تقدّم عن الزُّركَشِيِّ، فقال:]

وقد أخرج البخاريّ عن ابن مسعود أنّه قال: والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله تعالى وإلاّ وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت.

وقال أيُّوب: سألت رجل عِكْرِمَةَ عن آية من القرآن، فقال: نزلت في سَفْحِ ذلك الجبل «أشار إلى سلْع»، أخرجه أبو نُعَيْم فِي «الحلية».

وقد ورد عن ابن عبّاس وغيره عدّ المَكِّيَّ والمدنيّ، وأنا أسوق ما وقع لي من ذلك، ثمّ أعقبه بتحرير ما اختلف فيه.

قال ابن سعد فِي «الطبقات»: أنبأنا الواقديّ، حدّثني قُدّامة بن موسى عن أبي سَلَمَةَ الحَضْرَمِيِّ، سمعت ابن عبّاس قال: سألت أبيّ بن كَعْبَ عما نزل من القرآن بالمدينة؟ فقال: نزل بها سبع وعشرون سورة، وسائرهما بمكّة.

وقال أبو جعفر النُّحَّاس فِي كتابه «التّاسخ والمنسوخ»: حدّثني يموت بن المزرع، حدّثنا أبو حاتم سَهْل بن محمّد السَّجِسْتَانِيّ، أنبأنا أبو عُبَيْدَةَ مَعْمَر بن المثنى، حدّثنا يُونُس بن حَبِيب، سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: سألت مجاهدًا عن تلخيص أي القرآن،

المدنيّ من المكيّ، فقال: سألت ابن عباس عن ذلك، فقال:

سورة الأنعام نزلت بمكة جملةً واحدةً، فهي مكيّة، إلّا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾^١ إلى تمام الآيات الثلاث، وما تقدّم من السور مدنيّات، ونزلت بمكة سورة الأعراف و يونس و هود و يوسف و الرعد و إبراهيم و الحجر و النحل، سوى ثلاث آيات من آخرها، فإنّهنّ نزلن بين مكة والمدينة في منصرفه من أحد و سورة بني إسرائيل و الكهف و مريم و طه و الأنبياء و الحجّ، سوى ثلاث آيات ﴿هَٰذَا نِ خَصْمَانِ...﴾^٢ إلى تمام الآيات الثلاث، فإنّهنّ نزلن بالمدينة. وسورة المؤمنون و الفرقان و سورة الشعراء، سوى خمس آيات من آخرها نزلن بالمدينة ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ...﴾^٣ إلى آخرها. وسورة النمل و القصص و العنكبوت و الروم و لقمان، سوى ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ...﴾^٤ إلى تمام الآيات و سورة السجدة، سوى ثلاث آيات ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانُ فَاسِقًا...﴾^٥ إلى تمام الآيات الثلاث و سورة سبأ و فاطر و يس و الصافات و ص و الزمر، سوى ثلاث آيات نزلن بالمدينة في وحشي قاتل حمزة ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا...﴾^٦ إلى تمام الثلاث آيات و الحواميم السبع و ق والذاريات و الطور و النجم و القمر و الرحمن و الواقعة و الصف و التغابن، إلّا آيات من آخرها نزلن بالمدينة. و الملك و ن و الحاقة و سأل و سورة نوح و الجنّ و المزمل، إلّا آيتين ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ...﴾^٧ و المذثر إلى آخر القرآن، إلّا إذا زُلزِلَتْ، وإذا جاء نصرُ الله، و قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ فإنّهنّ مدنيّات. ونزل بالمدينة: سورة الأنفال و براءة و التور و الأحزاب و سورة محمد و الفتح و الحُجرات والحديد و ما بعدها إلى التّحريم.

هكذا أخرجه بطولة، وإسناده جيّد، رجاله كلّهم ثقات من علماء العربيّة المشهورين. وقال البيهقيّ في «دلائل النّبوة»: «أبنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو محمد

٢- الحجّ / ١٩ - ٢١.

٤- لقمان / ٢٧.

٦- الزمر / ٥٣.

١- الأنعام / ١٥١ - ١٥٣.

٣- الشعراء / ٢٢٤.

٥- السجدة / ١٨.

٧- المزمل / ٢٠.

بن زياد العدل، حدّثنا محمّد بن إسحاق، حدّثنا يعقوب بن إبراهيم الدَّورَقِيّ، حدّثنا أحمد بن نصر بن مالك الخُزَاعِيّ، حدّثنا عليّ بن الحسين بن وإد عن أبيه، حدّثني يزيد النُّحَوِيّ عن عِكْرَمَةَ والحسن بن أبي الحسن قالاً: أنزل الله من القرآن بمكّة... [ثم ذكر ترتيب السور المكيّة والمدنيّة فراجع الجدول، الرّقم ١٣ في آخر هذا الجزء].

قال: وقد أخبرنا عليّ بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبّيد الصَّفَّار، حدّثنا محمّد بن الفضل، حدّثنا إسماعيل بن عبد الله بن زُرَّارَةَ الرَّقِّيّ، حدّثنا عبدالعزيز بن الرّحمان القرشيّ، حدّثنا خصيف عن مجاهد، عن ابن عبّاس، أنّه قال: إنّ أوّل ما أنزل الله على نبيّه من القرآن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، فذكر معنى هذا الحديث، وذكر السور التي سقطت من الرواية الأولى في ذكر ما نزل بمكّة، وقال: وللحديث شاهد في تفسير مُقَاتِلٍ وغيره مع المرسل الصّحيح الذي تقدّم.

وقال ابن الضُّرَيْس في «فضائل القرآن»: حدّثنا محمّد بن عبد الله بن أبي جعفر الرّازي، أنبأنا عمرو بن هارون، حدّثنا عثمان بن عطاء الخراسانيّ عن أبيه، عن ابن عبّاس، قال: كانت إذا أنزلت فاتحة الكتاب بمكّة كتبت بمكّة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء بالمدينة، فكان ما أنزل من القرآن... [ثم ذكر ترتيب السور المكيّة والمدنيّة كما تقدّم مثله عن صاحب المباني فراجع الجدول، الرّقم ٧ في آخر هذا الجزء].

وقال أبو عُبَيْد في «فضائل القرآن»: حدّثنا عبد الله بن صالح و معاوية بن صالح عن عليّ بن أبي طلّحة، قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وآل عمران، والنّساء، والمائدة، والأنفال، والتّوبة، والحجّ، والتّور، والأحزاب، والَّذِينَ كَفَرُوا، والفتح، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والحواريّين - يريد الصّفّ - والتّغابن، وَيَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ، وَيَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ، والفجر، والّيل، وَإِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ، وَلَمْ يَكُنْ، وَإِذَا زُلْزِلَتْ، وَإِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ، وسائر ذلك بمكّة.

وقال أبو بكر بن الأنباريّ: حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدّثنا حجاج بن منهل، ثبأنا هشام عن قتادة، قال: نزل في المدينة من القرآن: البقرة، وآل عمران، والنّساء، والمائدة، وبراءة، والرّعد، والتّحل، والحجّ، والتّور، والأحزاب، ومحمّد،

والفتح، والحجرات، والحديد، والرحمن، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، وياءُ يها النبي لم تحرم، إلى رأس العشر، وإذا زُلزِلت، وإذا جاء نصرُ الله، وسائر القرآن نزل بمكة.

وقال أبو الحسن بن الحصار في كتابه «التاسخ والمنسوخ»: المدني باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة، وما عدا ذلك مكّي باتفاق. ثم نظم في ذلك أبياتاً، فقال:

يا سائلي عن كتاب الله مجتهداً وعن ترتّب ما يُثلي من السُورِ
وكيف جاء بها المُختار من مُضَرٍ صلى الإله على المختار من مُضَرٍ
وما تقدّم منها قبل هجرته وما تأخّر في بدو وفي حَضَرٍ
ليعلم التّسخ والتّخصيص مجتهدُ يؤيّد الحُكم بالتّاريخ والتّظَرِ
تعارض النّقل في أم الكتاب وقد تُؤوّل الحِجْر تنبيهاً لمعتبرِ
أم القرآن وفي أم القرى نزلت ما كان للخمس قبل الحمد من أثرٍ^١
وبعد هجرة خير النّاس قد نزلت عشرون من سور القرآن في عَشَرِ
فأربع من طُوال السّبع أولها وخامس الخمس في الأنفال ذي العِبرِ
و توبة الله إن عُدّت فسادةً وسورة النّور والأحزاب ذي الذّكرِ
وسورة لنبيّ الله محمّدةً والفتح والحجرات الغرّ في غرِ
ثمّ الحديدُ ويتلوها مُجادلةً والحشر ثمّ امتحان الله للبَشَرِ
وسورة فضح الله التّفاقَ بها وسورة الجُمع^٢ تذكاراً لمُدّكرِ
وللطلاق وللتّحريم حكُمها والتّصر والفتح تنبيهاً على العُمُرِ
هذا الذي اتّفقت فيه الرّواة له وقد تعارضت الأخبار في آخرِ

١ - في حاشية الأصل بعد هذا البيت:

لو كان ذاك لكان التّسخُ أوّلها

قال ورد هذا البيت في «التّحبير»، فانظر لماذا أسقط هنا، وقد بيّنت معنى هذا البيت لهامش «التّحبير» فراجعه.

٢ - أراد بها سورة الجمعة، فحذفت التاء لضرورة النظم. فلا يقال: إن مراده بسورة الجمع سورة التغابن: لقوله تعالى فيها: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ﴾ فيخالف هذا ما يأتي بعد النظم من جعلها التغابن من المختلف فيه، القول: ثمّ التغابن والتّطيف.

فَالرَّعْدُ مُخْتَلَفٌ فِيهَا مَتَى نَزَلَتْ
وَمِثْلُهَا سُورَةُ الرَّحْمَنِ شَاهِدُهَا
وَسُورَةُ الْحَوَارِيِّينَ قَدْ عَلِمْتُ
وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ قَدْ خُصَّتْ بِمِلَّتِنَا
وَقُلْ هُوَ اللَّهُ مِنْ أَوْصَافِ خَالِقِنَا
وَذَا الَّذِي اخْتَلَفْتُ فِيهِ الرِّوَاةُ لَهُ
وَمَا سِوَى ذَلِكَ مَكِّيٌّ تَنْزَلُهُ
فَلَيْسَ كُلُّ خِلَافٍ جَاءَ مَعْتَبَرًا

وَأَكْثَرُ النَّاسِ قَالُوا: الرَّعْدُ كَالْقَمَرِ
مِمَّا تَضَمَّنَ قَوْلَ الْجَنِّ فِي الْخَبْرِ
ثُمَّ التَّغَابُنُ وَالتَّطْفِيفُ ذُو النُّذُرِ
وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَهَا الزَّلْزَالُ فَاعْتَبِرِ
وَعُودَتَانِ تَرِدُ الْبَأْسَ بِالْقَدْرِ
وَرَبِّمَا اسْتُثْنِيَتْ آيٌ مِنَ السُّورِ
فَلَا تَكُنْ مِنْ خِلَافِ النَّاسِ فِي حَصْرِ
إِلَّا خِلَافٌ لَهُ حِطٌّ مِنَ النَّظَرِ

وَقَالَ الدَّرَيْنِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمَا نَزَلَتْ «كَلًّا» بِيَثْرٍ فَاعْلَمْنِي
وَحِكْمَةُ ذَلِكَ أَنَّ نِصْفَهُ الْأَخِيرَ نَزَلَ أَكْثَرَهُ بِمَكَّةَ، وَأَكْثَرُهَا جَابِرَةٌ، فَتَكَرَّرَتْ فِيهِ عَلَى
وَجْهِ التَّهْدِيدِ وَالتَّعْنِيفِ لَهُمْ وَالْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، بِخِلَافِ النَّصْفِ الْأَوَّلِ، وَمَا نَزَلَ مِنْهُ فِي الْيَهُودِ
لَمْ يَحْتَاجْ إِلَى إِبْرَادِهَا فِيهِ؛ لَذَلَّتْهُمْ وَضَعْفُهُمْ، ذَكَرَهُ الْعَمَّانِيُّ.

تَنْبِيهِ: قَدْ تَبَيَّنَ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْأَوْجِهِ الَّتِي ذَكَرَهَا ابْنُ حَبِيبٍ الْمَكِّيُّ وَالْمَدَنِيُّ، وَمَا
اخْتَلَفَ فِيهِ، وَتَرْتِيبَ نَزُولِ ذَلِكَ، وَالْآيَاتِ الْمَدَنِيَّاتِ فِي السُّورَةِ الْمَكِّيَّةِ، وَالْآيَاتِ
الْمَكِّيَّاتِ فِي السُّورِ الْمَدَنِيَّةِ، وَبَقِيَ أَوْجُهُ تَتَعَلَّقُ بِهَذَا التَّوَعُّعِ ذَكَرَهُ أَمَثَلُهَا فَنَذَكِرُهُ.

مِثَالُ مَا نَزَلَ بِمَكَّةَ وَحِكْمَةُ مَدَنِيٍّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى...﴾ الْآيَةُ،
نَزَلَ بِمَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ، لِأَنَّهَا نَزَلَتْ بَعْدَ الْهَجْرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ
دِينَكُمْ﴾ كَذَلِكَ.

قُلْتُ: وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا...﴾^٣ فِي آيَاتٍ أُخَرَ.

وَمِثَالُ مَا نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ وَحِكْمَةُ مَكِّيٍّ: سُورَةُ الْمُمْتَحِنَةِ، فَإِنَّهَا نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ مُخَاطَبَةً

لأهل مكة. وقوله في التحل: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا...﴾^١ إلى آخرها، نزل بالمدينة مخاطباً به أهل مكة. وصدر (براءة) نزل بالمدينة خطاباً لمشركي أهل مكة.

ومثال ما يشبه تنزيل المدني في السور المكية: قوله في النجم: ﴿الَّذِينَ يَخْتَفُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾^٢، فإن الفواحش: كل ذنب فيه حدّ، والكبائر: كل ذنب عاقبة النار، واللمم: ما بين الحدين من الذنوب ولم يكن بمكة حدّ ولا نحوه.

ومثال ما يشبه تنزيل مكة في السور المدنية: قوله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ وقوله في الأنفال: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ...﴾^٣ الآية.

ومثال ما حُمل من مكة إلى المدينة: سورة يوسف والإخلاص.

قلت: و (سَيِّح)، كما تقدّم في حديث البخاريّ

ومثال ما حُمل من المدينة إلى مكة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾^٤، و آية الرّبا، و صدر (براءة)، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ طَالِمَى أَنْفُسِهِمْ...﴾^٥ الآيات.

ومثال ما حُمل إلى الحبشة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ...﴾^٦ الآيات.

قلت: صحّ حملها إلى الروم.

و ينبغي أن يمثل لما حُمل إلى الحبشة بسورة مريم، فقد صحّ أن جعفر بن أبي طالب قرأها على النجاشي، وأخرجه أحمد في مسنده.

وأما ما نزل بالجحفة والطائف وبيت المقدس والحديبية فسيأتي في النوع الذي يلي هذا، ويضمّ إليه ما نزل بمنى وعرفات وعسفان وتبوك وبدر وأحد وحراء وحمراء الأسد. (١: ٣٦ - ٧٢)

فرع: أخرج الواحديّ من طريق الحسين بن واقد، قال: سمعتُ عليّ بن الحسين

يقول:.... [و ذكر كما تقدّم عنه في أوّل ما نزل، ثم قال:]

و في «شرح البخاريّ» لابن حجر: اتّفقوا على أن سورة البقرة أوّل سورة أنزلت

٢ - النجم / ٣٢.

٤ - البقرة / ٢١٧.

٦ - آل عمران / ٦٤.

١ - التحل / ٤١.

٣ - الأنفال / ٣٢.

٥ - النساء / ٩٧.

بالمدينة. و في دعوى الاتفاق نظر؛ لقول عليّ بن الحسين المذكور.

و في «تفسير النَّسَفِيّ» عن الواقديّ: إنّ أول سورة نزلت بالمدينة سورة القدر.

و قال أبو بكر محمّد بن الحارث بن أبيض في جزئه المشهور: حدّثني أبو العباس عبيد الله محمّد بن أعين البغداديّ، حدّثنا حسان بن إبراهيم الكرمانيّ، حدّثنا أميّة الأزديّ عن جابر بن زيد، قال: [ثمّ ذكر ترتيب السور المكيّة والمدينة، فراجع الجدول، ١٠ في آخر هذا الجزء، ثمّ قال:]

قلت: هذا سياق غريب، و في هذا التّرتيب نظر، و جابر بن زيد من علماء التابعين بالقرآن. [ثمّ استشهد بشعر الجعبريّ في ترتيب النزول و ذكر أيضًا عقبيه فصلاً في تحرير السور المختلف فيها، و إن شئت فراجع] [٩٦: ٩٨ - ٩٨]

قال البیهقيّ في «الدلائل»: في بعض السور التي نزلت بمكة آيات نزلت بالمدينة فألحقت بها. وكذا قال ابن الحصار، وكلّ نوع من المكيّ والمدنيّ منه آيات مستثناة؛ قال: إلا أنّ من الناس من اعتمد في الاستثناء على الاجتهاد دون الثقل.

في ذكر ما استثنى من المكيّ والمدنيّ

[بعد ذكر قول ابن حجر، كما تقدّم عنه، قال:]

قلت: وها أنا أذكر ما وقفتُ على استثناءه من التّوعين مستوعبًا ما رأيته من ذلك على الاصطلاح الأوّل دون الثّاني، وأشير إلى أدلّة الاستثناء لأجل قول ابن الحصار السّابق، و لا أذكر الأدلّة بلفظها اختصارًا وإحالة على كتابنا «أسباب النزول».

الفاتحة: تقدّم قول أنّ نصفها نزل بالمدينة، والظاهر أنّه النّصف الثّاني، ولادليل لهذا القول.

البقرة: استثنى منها آيتان ﴿فَاعْبُدُوا وَأَصْفَحُوا﴾^١ و ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدْيُهُمْ﴾^٢.

الأنعام: قال ابن الحصار: استثنى منها تسع آيات، و لا يصحّ به نقل، خصوصًا قد ورد أنّها نزلت جملةً.

قلت: قد صحَّ الثَّقَلُ عن ابن عباس باستثناء ﴿قُلْ تَعَالَوْا...﴾^١ الآيات الثلاث كما تقدَّم، والبواقي ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^٢.

لما أخرجه ابن أبي حاتم أنها نزلت في مالك بن الصَّيف، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا...﴾^٣ الآيتين، نَزَلَتْ في مُسَيِّلَمَة، وقوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْكِتَابَ يَغْرِفُونَهُ﴾^٤، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا الْكِتَابَ يَغْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾^٥.

وأخرج أبو الشَّيْخ عن الكلبي، قال: نزلت الأنعام كلها بمكة إلا آيتين نزلتا بالمدينة في رجل من اليهود، وهو الذي قال: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾^٦.

وقال الفريابي: حدثنا سُفيان عن ليث، عن بشر، قال: الأنعام مكية إلا ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتَلُ﴾ والآية التي بعدها.

الأعراف: أخرج أبو الشَّيْخ بن حيَّان عن قَتَادَة، قال: الأعراف مكية إلا آية: ﴿وَسُئِلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾^٧، وقال غيره: من هنا إلى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ...﴾^٨ مدني.

الأنفال: استثنى منها: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾^٩ الآية؛ قال مقاتل: نزلت بمكة.

قلت: يرده ماصح ابن عباس أن هذه الآية بعينها نزلت بالمدينة، كما أخرجه في «أسباب النزول»، واستثنى بعضهم قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ...﴾^{١٠} الآية، وصحَّحه ابن العربي وغيره.

قلت: يؤيده ما أخرجه البرزّاز عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر.

براءة: قال ابن الفرس: مدنيّة إلا آيتين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾^{١١} إلى آخرها.

قلت: غريب، كيف وقد ورد أنها آخر ما نزل! واستثنى بعضهم: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾^{١٢} الآية؛ لما ورد أنها نزلت في قوله عليه الصّلاة والسلام لأبي طالب: «لأستغفرن لك ما لم أُنّه عنك».

٢ - الأنعام / ٩١.

٤ - الأنعام / ٢٠.

٦ - الأنعام / ٩١.

٨ - الأنعام / ١٧٢.

١٠ - الأنفال / ٦٤.

١٢ - التوبة / ١١٣.

١ - الأنعام / ١٥١ - ١٥٣.

٣ - الأنعام / ٢١ - ٢٢.

٥ - الأنعام / ١١٤.

٧ - الأنعام / ١٦٣.

٩ - الأنفال / ٣٠.

١١ - التوبة / ١٢٨ - ١٢٩.

يونس؛ استثنى منها: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ﴾^١ الآيتين. و قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ...﴾^٢ الآية. قيل: نزلت في اليهود، وقيل: من أولها إلى رأس أربعين مكيّ والباقي مدنيّ حكاها ابن الفرس والسّخاويّ في «جمال القرآن». هود؛ استثنى منها ثلاث آيات: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ...﴾^٣، ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ...﴾^٤، ﴿وَاقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ...﴾^٥.

قلت: دليل الثالثة ما صحّ من عدّة طرق أنّها نزلت بالمدينة في حقّ أبي اليسر. يوسف؛ استثنى منها ثلاث آيات من أولها، حكاها أبو حيّان، وهو وإمّ جدّاً لا يلتفت إليه. الرّعد؛ أخرج أبو الشّيح عن قتادة، قال: سورة الرّعد مدنيّة إلاّ آية، قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ...﴾^٦ وعلى القول بأنّها مكيّة يستثنى قوله: ﴿اللّٰهُ يَعْلَمُ - إلى قوله - شَهِيدُ الْمَحَالِ﴾^٧ كما تقدّم والآية آخرها، فقد أخرج ابن مرّدويه عن جندب، قال: جاء عبد الله بن سلام حتّى أخذ بعَضَاديّ باب المسجد، قال: أنشدكم بالله أيّ قوم، تعلمون أيّ الذي أنزلت فيه: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^٨؟ قالوا: اللّٰهُمّ نعم. إبراهيم؛ أخرج أبو الشّيح عن قتادة، قال: سورة إبراهيم مكيّة غير آيتين مديّتين ﴿أَلَمْ تَرَأِ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا - إلى - وَبِئْسَ الْقَرَارُ...﴾^٩.

الحجر؛ استثنى بعضهم منها: ﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَاكَ سَبْعًا...﴾ الآية.^{١٠} قلت: وينبغي استثناء قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُتَكَذِّبِينَ...﴾^{١١} الآية، لِمَا أخرجه الترميذيّ وغيره في سبب نزولها، وأنّها في صفوف الصّلاة. النّحل؛ تقدّم عن ابن عباس أنّه استثنى آخرها، وسيأتي في السّفريّ ما يؤيّده. أخرج أبو الشّيح عن الشّعبيّ، قال نزلت النّحل كلّها بمكّة إلاّ هؤلاء الآيات: ﴿وَإِنْ

١ - يونس / ٩٤ - ٩٥.

٢ - يونس / ٤٠.

٣ - هود / ١٢ - ١٤.

٤ - هود / ١٧.

٥ - هود / ١١٤.

٦ - الرّعد / ٣١.

٧ - الرّعد / ٨ - ١٣.

٨ - الرّعد / ٤٣.

٩ - إبراهيم / ٢٨ - ٢٩.

١٠ - الحجر / ٨٧.

١١ - الحجر / ٢٤.

عَاقِبْتُمْ...^١ إلى آخرها.

و أخرج عن قتادة، قال: سورة النحل من قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَغْدِ مَا ظَلَمُوا...﴾^٢ إلى آخرها مدني، وما قبلها إلى آخر السورة مكِّي، وسيأتي في أول ما نزل عن جابر بن زيد أن النحل نزل منها بمكة أربعون، وباقيها بالمدينة. ويرد ذلك ما أخرجه أحمد عن عثمان بن أبي العاص في نزول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^٣ وسيأتي في نوع الترتيب.

الإسراء: استثني منها: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...﴾^٤ الآية؛ لما أخرج البخاري عن ابن مسعود أنها نزلت بالمدينة في جواب سؤال اليهود عن الروح. استثني منها أيضًا: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ - إِلَى قَوْلِهِ - إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^٥، وقوله: ﴿قُلْ لِّسِنِ اجْتِمَاعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾^٦ الآية، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْوَيْتَ...﴾^٧ الآية، و﴿إِنَّ الَّذِينَ أُتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾^٨؛ لما أخرجه في «أسباب النزول».

الكهف: استثني من أولها إلى ﴿جُزْأًا﴾^٩، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾^{١٠} الآية و﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾^{١١} إلى آخر السورة.

مريم: استثني منها آية السجدة، وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾^{١٢}.

طه: استثني منها: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ...﴾^{١٣} الآية.

قلت: ينبغي أن يستثنى آية أخرى، فقد أخرج البرزاري وأبو يعلى عن أبي رافع، قال: أضاف النبي ﷺ ضيفًا، فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقًا إلى هلال رجب، فقال: لا، إلا برهن، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «أما والله إنني لأمين في السماء أمين في الأرض»، فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْتُم بِهِ

١ - النحل / ١٢٦.

٢ - النحل / ٤١.

٣ - والنحل / ٩٠.

٤ - الإسراء / ٨٥.

٥ - الإسراء / ٧٣ - ٨١.

٦ - الإسراء / ٨٨.

٧ - الإسراء / ٦٠.

٨ - الإسراء / ١٠٧.

٩ - الكهف / ٨.

١٠ - الكهف / ٢٨.

١١ - الكهف / ١٠٧.

١٢ - مريم / ٧١.

١٣ - طه / ١٣٠.

أَزَوَاجًا مِنْهُمْ^١.

الأنبياء؛ استثنى منها: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ...﴾^٢ الآية.

الحج؛ تقدّم ما يُستثنى منها.

المؤمنون، استثنى منها: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ - إلى قوله - مُبْلِسُونَ﴾^٣.

الفرقان؛ استثنى منها: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ - إلى - رَجِيمًا﴾^٤.

الشّعراء؛ استثنى ابن عباس منها: ﴿والشّعراء﴾^٥ إلى آخرها كما تقدّم. زاد غيره قوله:

﴿وَأَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^٦، حكاه ابن الفّرس.

القصص؛ استثنى منها: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ - إلى قوله - الْجَاهِلِينَ﴾^٧، فقد أخرج

الطبراني عن ابن عباس أنّها نزلت هي و آخر الحديد في أصحاب النّجاشي الذين قدموا وشهدوا وقعة أحد، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ...﴾^٨ الآية؛ لما سيأتي.

العنكبوت؛ استثنى من أولها إلى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾^٩ لما أخرجه ابن جرير في

سبب نزولها.

قلت؛ ويضمّ إليه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ...﴾^{١٠} لما أخرجه ابن أبي حاتم في سبب نزولها.

لقمان؛ استثنى منها ابن عباس: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ...﴾^{١١} الآيات الثلاث كما تقدّم.

السّجدة؛ استثنى منها ابن عباس: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا...﴾^{١٢} الآيات الثلاث كما تقدّم،

وزاد غيره ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ...﴾^{١٣}، ويدلّ له ما أخرجه البرّار عن بلال، قال: كنّا نجلس

في المسجد، وناس من الصّحابة يصلّون بعد المغرب إلى العشاء، فنزلت.

سبأ؛ استثنى منها: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ...﴾^{١٤} الآية. وروى الترمذي عن فروة بن

نُسيك المرادي، قال: أتيتُ النّبيّ ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ألا أقاتل من أدبر من قومي...

٢ - الأنبياء / ٤٤.

١ - طه / ١٣١.

٤ - الفرقان / ٦٨ - ٧٠.

٣ - المؤمنون / ٦٤ - ٧٧.

٦ - الشّعراء / ١٩٧.

٥ - الشّعراء / ٢٢٤ - ٢٢٧.

٨ - القصص / ٨٥.

٧ - القصص / ٥٢ - ٥٥.

١٠ - العنكبوت / ٦٠.

٩ - العنكبوت / ١١.

١٢ - السّجدة / ١٨ - ٢٠.

١١ - لقمان / ٢٧ - ٢٩.

١٤ - سبأ / ٦.

١٣ - السّجدة / ١٦.

الحديث، وفيه: «وَأُنْزِلَ فِي سَبَأٍ مَا أُنْزِلَ». فقال رجل: يا رسول الله. وما سبأ؟... الحديث. قال ابنُ الحَصَّار: هذا يدلُّ على أنَّ هذه القصة مدنيّة؛ لأنَّ مهاجرة قُرُوءَ بعد إسلام تقيف سنة تسع.

قال: ويحتمل أن يكون قوله: «أُنْزِلَ» حكاية عما تقدّم نزوله قبل هجرته. يس؛ استثنى منها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُغَيِّبُ الْمَوْتَى...﴾^١ الآية؛ لِمَا أخرجهُ التِّرْمِذِيُّ والحاكم عن أَبِي سَعِيدٍ، قال: كانت بنو سَلَمَةَ في ناحية المدينة، فأرادوا الثَّقَلَةَ إلى قرب المسجد، فنزلت هذه الآية، قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ آثَارَ كَمْ تُكْتَبُ»، فلم ينتقلوا. واستثنى بعضهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا...﴾^٢ الآية، قيل: نزلت في المنافقين.

الرُّمَر؛ استثنى منها: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ...﴾^٣ الآيات الثلاث كما تقدّم عن ابن عباس. وأخرج الطَّبْرَانِيُّ من وجه آخر عنه: أَنَّهَا في نزلت في وحشيٍّ قاتل حَمْزَةَ، وزاد بعضهم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ...﴾^٤ الآية، ذكره السَّخَاوِيُّ في «جمال القراء»، وزاد غيره: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ...﴾^٥ الآية، وحكاها ابن الجَزَرِيُّ.

غافر، استثنى منها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾^٦ فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية وغيره، أَنَّهَا نزلت في اليهود لَمَّا ذكروا الدَّجَالَ، وأوضحته في «أسباب النزول».

الشُّورَى؛ استثنى منها: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى﴾ إلى قوله - بصيرٍ^٧. قلت: بدلالة ما أخرجهُ الطَّبْرَانِيُّ والحاكم في سبب نزولها، فَإِنَّهَا نزلت في الأنصار. وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾^٨ الآية، نزلت في أصحاب الصُّفَّة. واستثنى بعضهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ إلى قوله - مِنْ سَبِيلٍ^٩ حكاها ابن الغَرَس. الزُّخُوف؛ استثنى منها: ﴿وَسَمَلٌ مِّنْ أَرْسَلْنَا...﴾^{١٠} الآية، قيل: نزلت بالمدينة، وقيل في السماء.

٢ - يس / ٤٧.

١ - يس / ١٢.

٤ - الرُّمَر / ١٠.

٣ - الرُّمَر / ٥٥ - ٥٣.

٦ - غافر / ٥٦، ٥٧.

٥ - الرُّمَر / ٢٣.

٨ - الشُّورَى / ٢٧.

٧ - الشُّورَى / ٢٤ - ٢٧.

١٠ - الزُّخُوف / ٤٥.

٩ - الشُّورَى / ٣٩ - ٤١.

الجاثية؛ استثنى منها: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا...﴾^١ الآية، حكاه في «جمال القراء» عن قتادة.

الأحقاف؛ استثنى منها: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾^٢ الآية، فقد أخرج الطبراني بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي أنها نزلت بالمدينة في قصة إسلام عبدالله بن سلام، وله طرق أخرى، لكن أخرج ابن أبي حاتم عن مسروق، قال أنزلت هذه الآية بمكة، إنما كان إسلام ابن سلام بالمدينة، وإنما كانت خصومةً خاصم بها محمدًا.

وأخرج عنه عن الشعبي، قال: ليس بعبدالله بن سلام، وهذه الآية مكية واستثنى بعضهم: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾^٣ الآيات الأربع، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَرْصِ...﴾^٤ الآية، حكاه في «جمال القراء».

ق؛ استثنى منها: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ - إِلَى - لُغُوبٍ﴾^٥ فقد أخرج الحاكم وغيره أنها نزلت في اليهود.

النجم؛ استثنى منها: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ - إِلَى - اتَّقَى﴾ وقيل: ﴿أَفَرَأَيْتَ اللَّبْدَى تَوَلَّى...﴾^٦ الآيات التسع.

القمر؛ استثنى منها: ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ...﴾^٧ الآية، هو مردود؛ لما سيأتي في النوع الثاني عشر وقيل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ...﴾^٨ الآيتين.

الرحمن؛ استثنى منها: ﴿يَسْأَلُهُ﴾^٩ حكاه في «جمال القراء».

الواقعة؛ استثنى منها: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾^{١٠}

وقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ - إِلَى - تُكَذَّبُونَ﴾^{١١} لما أخرجه مسلم في سبب نزولها.

الحديد؛ يستثنى منها على القول بأنها مكية آخرها.

المجادلة؛ استثنى منها: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ...﴾^{١٢} الآية، حكاه ابن الفرس و

١ - الجاثية / ١٤.
٢ - الأحقاف / ١٠.
٣ - الأحقاف / ١٥.
٤ - الأحقاف / ٣٥.
٥ - ق / ٣٨.
٦ - النجم / ٣٢.
٧ - النجم / ٣٣ وما بعدها.
٨ - القمر / ٥٤ - ٥٥.
٩ - القمر / ٢٩.
١٠ - الرحمن / ٢٩.
١١ - الواقعة / ٣٩ - ٤٠.
١٢ - المجادلة / ٧.

غيره.

التَّعَابُن؛ يستثني منها على أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ آخَرُهَا؛ لما أخرجهُ التِّرْمِذِيُّ و الحَاكِمُ في سبب نزولها.

التَّحْرِيم؛ تقدّم عن قَتَادَةَ أَنَّ المَدَنِيَّ منها إلى رأس العشر، و الباقي مَكِّيٌّ. تبارك؛ أخرجَ جُوَيْرٍ في تفسيره عن الضَّحَّاك، عن ابن عَبَّاس، قال: أنزلت الملك في أهل مَكَّةَ إِلَّا ثلاثَ آيات.

ن؛ استثني منها: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ - إِلَى - يَغْلُمُونَ﴾^١ و من ﴿قَاضِي - إِلَى - الصَّالِحِينَ﴾^٢ فَإِنَّهُ مَدَنِيٌّ حكاها السَّخَاوِيُّ في «جمال القراء».

المَزْمَل؛ استثني منها: ﴿وَاضْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ...﴾^٣ الْآيَتَيْنِ، حكاها الأصبهاني، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَغْلُم...﴾^٤ إلى آخر السُّورَةِ، حكاها ابن الغَرَس و يردّه ما أخرجهُ الحَاكِمُ عن عائشة أَنَّهُ نزل بعد نزول صدر السُّورَةِ بسنة، و ذلك حين فرض قيام اللَّيْلِ في أوَّل الإسلام قبل فرض الصَّلوات الخمس.

الإنسان؛ استثني منها: ﴿قَاضِي لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾^٥.
المرسلات؛ استثني منها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَزَكُّوْنَ﴾^٦ حكاها ابن الغَرَس و غيره.
المطققين؛ قيل: مَكِّيَّةٌ إِلَّا ستَّ آيات من أوَّلها.
البلد؛ قيل مدنيَّةٌ إِلَّا أربعَ آيات من أوَّلها.
اللَّيْلِ؛ قيل مَكِّيَّةٌ إِلَّا أوَّلها.
أَرَأَيْتَ؛ ثلاث آيات من أوَّلها بمَكَّةَ، و الباقي المدينة.

ضوابط في المَكِّيِّ و المَدَنِيِّ

أخرج الحَاكِمُ في مستدركه و البَيْهَقِيُّ في «الدَّلَائِلُ» و البَرَّازُ في مسنده من طريق الأعمش عن إبراهيم، عن عَلْقَمَةَ، عن عبد الله، قال: ما كان ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أنزل

٢ - ن ٤٨ / ٥٠.

٤ - المَزْمَل / ٢٠.

٦ - المرسلات / ٤٨.

١ - ن ١٧ / ٣٣.

٣ - المَزْمَل / ١٠ - ١١.

٥ - الإنسان / ٢٤.

بالمدينة، و ما كان ﴿يَاءُيُهَا النَّاسُ﴾ فبمكة.

وأخرجه أبو عبيد في «الفضائل» عن علقمة مرسلًا.

وأخرج عن ميمون بن مهران، قال: ما كان في القرآن ﴿يَاءُيُهَا النَّاسُ﴾ أو ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ فإنه مكِّي، و ما كان ﴿يَاءُيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه مدني.

قال ابن عطية و ابن الغرس و غيرهما: هو في ﴿يَاءُيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صحيح، و أما ﴿يَاءُيُهَا النَّاسُ﴾ فقد يأتي في المدني.

و قال ابن الحصار: قد اعتنى المتشاعلون بالنسخ بهذا الحديث، و اعتمدوه على ضعفه، و قد اتفق الناس على أن (النساء) مدنية و أولها: ﴿يَاءُيُهَا النَّاسُ﴾ و على أن (الحج) مكية، و فيها: ﴿يَاءُيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا ازْكُوا وَاَسْجُدُوا﴾^١.

و قال غيره: هذا القول إن أخذ على إطلاقه فيه نظر، فإن سورة البقرة مدنية، و فيها: ﴿يَاءُيُهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾^٢، ﴿يَاءُيُهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾^٣، و سورة النساء مدنية، و أولها: ﴿يَاءُيُهَا النَّاسُ﴾.

و قال مكِّي: هذا إنما هو في الأكثر و ليس بعام، و في كثير من السور المكية: ﴿يَاءُيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

و قال غيره: الأقرب حملُه على أنه خطاب المقصود به - أو جل المقصود به - أهل مكة أو المدينة.

و قال القاضي: إن كان الرجوع في هذا إلى التثقل فمسلّم، و إن كان السبب فيه حصول المؤمنين المدينة على الكثرة دون مكة فضعيف؛ إذ يجوز خطاب المؤمنين بصفتهم و باسمهم و جنسهم، و يؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار عليها و الازدياد منها، نقله الإمام فخر الدين في تفسيره.

و أخرج البيهقي في «الدلائل» من طريق يونس بن بكير، عن هشام بن عروة، عن

أبيه، قال: كلَّ شيءٍ نزل من القرآن فيه ذكر الأمم و القرون فإنَّما نزل بمكَّة، و ما كان من الفرائض و السَّنَن فإنَّما نزل بالمدينة. [ثمَّ ذكر قول الجعفي، كما تقدَّم عن الزركشي فقال:].
و قال مكِّي: كلَّ سورة فيها ذكر المنافقين فمدنيَّة، زاد غيره: سوى العنكبوت. و في كامل الهدلي: كلَّ سورة فيها سَجْدَة فهي مكِّيَّة... (١: ٣٦ - ٦٩)

الفصل الحادي عشر

نصّ القسطلاني (م: ٩٢٣) في «لطائف الإشارات لفنون القراءات»

[ترتيب السور المكيّة والمدنيّة]

وقد كان نزوله كلّ بمكّة والمدينة خاصّة، و نزل منه كثير في غير الحرمين؛ حيث كان ﷺ في سفر حجّ أو غزو، لكنّ الاصطلاح أن كلّ منزل قبل الهجرة فهو مكّيّ، وما نزل بعد الهجرة فهو مدنيّ، سواء أنزل في البلد حال الإقامة، أو^١ في غيرها السّفر.

وقد اعتنى بعضهم ببيان منازل من الآيات المدنيّة والمكيّة، ففي «الدلائل» للبيهقي عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن قالوا: أنزل الله من القرآن بمكّة... [ثم ذكر ترتيب السور المكيّة والمدنيّة، كما تقدّم تفصيلها عن السيوطي، فقال:]

وفي بعض السور التي نزلت بمكّة آيات نزلت بالمدينة، فألحقت بها، يأتي بيان ما تيسّر منها أول كلّ سورة من هذا المجموع إن شاء الله تعالى... [ثم ذكر رواية ابن الصّريس في «فضائل القرآن» و رواية مسلم عن أنس كما تقدّم عن ابن حجر، فقال:]

و عن زين العابدين «أول سورة نزلت بالمدينة وئيل للمطّفين» و عن عكرمة البقرة. و عن هشام بن عروة، عن أبيه: كلّ شيء نزل على رسول الله ﷺ من القرآن فيه ذكر الأمم والقرون، و ما يُنبّئ به الرّسول فإنّما نزل بمكّة، و ما كان من الفرائض والسّنن فإنّما نزل بالمدينة. و عن علقمة، عن عبد الله، قال: ما كان ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نزل بالمدينة،

١ - كان الأولى أن يأتي هنا ب (أم) المعادلة لهزمة الاستفهام بدلاً من (أو)، لكن هكذا في جميع النسخ، و قد أشار ابن هشام في كتابه: «مغني اللبيب» عند حديثه عن همزة الاستفهام إلى أن بعض المؤلفين و الكتاب يخطئون في هذا الاستعمال، و الصواب ماورد به نصّ القرآن ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُكُمْ أَمْ صَبَرْنَا﴾ إبراهيم ٢١.

وما كان ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ بمكة^١ و يقال إن مصحف علي عليه السلام كان على ترتيب النزول، أوله: اقرأ، ثم المدثر، ثم ن والقلم، ثم المزمل، ثم تبت، ثم التكوثر، ثم سبح وهكذا إلى آخر المكي ثم المدني. وأول سورة أعلن بها عليه السلام سورة والنجم.

وأما ترتيب المصحف على ما هو عليه الآن فقال القاضي أبو بكر ابن الباقلاني يحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وآله هو الذي أمر بترتيبه هكذا، و يحتمل أن يكون من اجتهاد الصحابة. و رجح الأول بأنه صلى الله عليه وآله كان يعارض به جبريل في كل سنة، فالذي يظهر أنه عارضه به، هكذا على الترتيب، وبهذا جزم ابن الأنباري.

وفيه نظر، بل الذي يظهر أنه كان يعارضه به على ترتيب النزول، نعم، ترتيب بعض السور على بعض أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفاً.

وقد روى الإمام أحمد وابن أبي داود والطبراني من طريق عبيدة بن عمرو السلماني أن الذي جمع عليه عثمان الناس موافق للعرضة الأخيرة.

ومن طريق محمد بن سيرين قال: كان جبريل يعارض النبي صلى الله عليه وآله بالقرآن... الحديث وفي آخره: فيرون أن قراءتنا أحدث القراءات عهداً بالعرضة الأخيرة. (ص: ٢٦)

١ - ليس هذا القول باطلاق، فقد نزل بالمدينة: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ و نزل بمكة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و قد ذكرنا عن السيوطي تفصيلاً (م).

الفصل الثاني عشر

نص القاسمي (م: ١٣٣٢) في تفسيره: «محاسن التأويل»

في أن المدني من السور منزّل في الفهم على المكيّ

قال الشَّاطِبيّ: المدني من السور ينبغي أن يكون منزلاً في الفهم على المكيّ، وكذلك المكيّ بعضه مع بعض، و المدنيّ بعضه مع بعض، على حسب ترتيبه في التّنزيل، وإلاّ لم يصحّ. والدليل على ذلك أن معنى الخطاب المدنيّ في الغالب مبنيّ على المكيّ. كما أن المتأخّر من كلّ واحد منهما مبنيّ على مقدّمه، دلّ على ذلك الاستقراء. وذلك إنّما يكون ببيان مجمل، أو تخصيص عموم، أو تقييد مطلق، أو تفصيل مالم يفصل، أو تكميل مالم يظهر تكميله. و أوّل شاهد على هذا أصل الشريعة: فإنّها جاءت متممة لمكارم الأخلاق، ومُصلحة لما أُفيد قبل من ملّة إبراهيم عليه السلام. وبليه تنزيل سورة الأنعام، فإنّها نزلت مبيّنة لقواعد العقائد وأصول الدّين. وقد خرّج العلماء منها قواعد التّوحيد التي صنف فيها المتكلّمون من أوّل إثبات واجب الوجود إلى إثبات الإمامة، هذا ما قالوا. وإذا نظرت بالنظر المسوق في هذا الكتاب تبين به قرب بيان القواعد الشرعيّة الكلّيّة التي إذا انخرم منها كلّّي واحد انخرم نظام الشريعة، أو نقص منها أصل كلّّي.

ثمّ لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة كان من أوّل ما نزل عليه سورة البقرة، وهي التي قرّرت قواعد التّقوى المبيّنة على قواعد سورة الأنعام، فإنّها بيّنت من أقسام أفعال المكلّفين جملتها، وإنّ تبين في غيرها تفاصيل لها، كالعبادات التي هي قواعد الإسلام.

والعادات من أصل المأكول والمشروب وغيرهما، والمعاملات من البيوع والأنكحة وما داربها، والجنايات من أحكام الدماء وما يليها. وأيضاً فإنَّ حفظ الدِّين فيها وحفظ النَّفس والعقل والنَّسل والمال مضمَّن فيها، وما خرج عن المقرَّر فيها فبحكم التَّكميل، فغيرها من السُّور المدنيَّة المتأخِّرة عنها مبنيٌّ عليها، كما غير الأنعام من المكيِّ المتأخَّر عنها مبنيٌّ عليها. وإذا تنزَّلت إلى سائر السُّور بعضها مع بعض في التَّرتيب وجدها كذلك حذو القذَّة بالقذَّة. فلا يَعيَّن على الناظر في الكتاب هذا المعنى، فإنَّه من أسرار علوم التَّفسير، وعلى حسب المعرفة به تحصل له المعرفة بكلام ربِّه سبحانه. (١٥٠:١)

الفصل الثالث عشر

نصّ رشيد رضا (م: ١٣٥٤) في تفسيره: «المنار»

سورة الفاتحة

هذه السُورة مكيّة، وآياتها سبع. والفرق بين السُور المكيّة والمدنيّة هو أنّ المكيّة أكثر إيجازًا؛ لأنّ المخاطبين بها هم أبغ العرب وأفصحهم، وعلى الإيجاز مدار البلاغة عندهم، ثمّ إنّ معظمها تنبيهات وزواجر وبيان لأصول الدّين بالإجمال. وقد قلت في مقدّمة الطّبعة الثّانية لمجلّد المنار الأوّل في أسلوب السُور المكيّة ما نصّه:

إنّ أكثر السُور المكيّة لا سيّما المنزلة في أوائل البعثة قوارع تصحّ الجنان، و تصدع الوجدان، و تفرّغ القلوب إلى استشعار الخوف، و تدعّ العقول إلى إطالة الفكر في الخطيّن الغائب و العتيد، و الخطرّين القريب و البعيد، و هما عذاب الدّنيا بالابادة و الاستئصال، أو الفتح الذّاهب بالاستقلال، و عذاب الآخرة، و هو أشدّ و أقوى، و أنكى و أخزى، بكلّ من هذا و ذاك أنذرت السُور المكيّة أولئك المخاطبين إذا أصروا على شركهم، و لم يرجعوا بدعوة الإسلام عن ضلالهم و إفكهم، و يأخذوا بتلك الأصول المجملّة الّتي هي الحنيفيّة السّميحة السّهلة، و ليست بالشّيء الّذي ينكره العقل، أو يستثقله الطّبع، و إنّما ذلك تقليد الآباء و الأجداد، يصرف النّاس عن سبيل الهدى و الرّشاد.

راجع تلك السُور العزيزة، و لا سيّما قصار المفصّل منها: كالحاقّة ما الحاقّة، و القارعة ما القارعة، و إذا وقعت الواقعة، و إذا الشمس كوّرت، و إذا السّماء انظطرت، و إذا السّماء انشقت، و إذا زلزلت الأرض زلزالها، و الدّاريات دُزّوا، و المُرسلات عُرفّا، و التّازعات عُرفّا.

تلك السُور الّتي كانت بنذرها، و فهم القوم لبلاغتها و عبرها، تفرّعهم من سماع القرآن حتّى يفرّوا من الدّاعي ﷺ من مكان إلى مكان «كَانَتْهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ * فَوَتْ مِنْ

قَسْرَةً^١ «أَلَا إِنَّهُمْ يَفْتَنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا جَبِينٌ يَسْتَعْشُونَ نِيَابَتَهُمْ يُعَلِّمُوا مَا يُسْرُونَ وَ مَا يُغْلِبُونَ»^٢ ثم إلى السور المكية الطوال، فلانجدها تخرج في الأوامر والتواهي عن حد الإجمال، كقوله عز وجل: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»^٣ إلى ٣٧ منها، وقوله بعد إباحة الزينة وإنكار تحريم الطيبات من الرزق: «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ وَ الْأَنَّمِ وَ اللَّغْوِ وَ الْبَغْيِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ»^٤.

وأما السور المدنية ففي أسلوبها شيء من الإسهاب، ولا سيما في مخاطبة أهل الكتاب، لأنهم أقل بلاغة وفهما من العرب الأصلاء، ولا سيما قرئش، وما فيها من الكلام في أصول الدين أكثره حاجة لهم - لأهل الكتاب - ونعى عليهم، وإثبات لتحريفهم ما نزل إليهم، وابتداعهم فيه وإعراضهم عن هدايته، ونسيانهم خطأ مما ذكروا به، ودعوة لهم إلى التوحيد الخالص توحيد الألوهية والرؤية، وبيان لكون الإسلام الذي جاء به القرآن هودين جميع الأنبياء ﷺ.

وفي هذه السور المدنية أيضاً بيان لما لا بد منه من الأحكام العملية في العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والسياسية والحربية، ولأصول الحكومة الإسلامية والتشريع فيها، كما تراه في طوال المفصل منها كالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة... [ثم ذكر اختلاف العلماء في المكي والمدني كما تقدم عن الزرقاني وغيره، فقال:] فالسور المكية، هي التي نزلت في أول الإسلام لأجل الدعوة إليه، وبيان أساس الدين وكنياته من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والتبيين، ومن ترك الشور والمعاصي والمنكرات المعروفة للناس بعقولهم وفطرتهم، وفعل الخيرات والمعروف بحسب الرأي والاجتهاد الموكول إلى القلوب والضمائر.

والسور المدنية هي التي نزلت بعد الهجرة وكثرة المسلمين، وتكون جماعتهم بيان الأحكام التفصيلية كما قلنا آنفاً، وسترى ذلك مفصلاً في القسمين تفصيلاً (٣٢: ٣٣ - ٣٣).

١- المدثر ٥٠- ٥١.

٢- هود ٥.

٣- الإسراء ٢٣.

٤- الأعراف ٣٣.

(سورة البقرة)

جميعها مدنيّة بالإجماع، منها آية نزلت على ما قيل في حجة الوداع، وروي أنّها آخر آي القرآن نزولاً وهي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، ومعظمها نزل في أول الهجرة. وهي أطول جميع سور القرآن، فأياتها مائتان وثمانون وسبع آيات أو ستّ، وعليه عدّ المصاحف المشهورة الآن ولا حاجة إلى بيان التّناسب بينها وبين الفاتحة، وإن كان التّناسب ظاهراً، فإنّها لم توضع بعدها لأجله، وإنّما وضعت في أول القرآن بعد فاتحته - التي كانت فاتحته بمالها من الخصائص التي بيّناها في تفسيرها - لأنّها أطول سورة، وتليها بقية السبع الطوال بتقديم المدنيّ منها على المكيّ، لا الطّوليّ فالطّوليّ، فإنّ الأنعام أطول من المائدة وهي بعدها، والأعراف أطول من الأنعام وقد أخرت عنها، و قدّمت الأنفال على التوبة وهي أقصر منها، وكلتاها مدنيّتان، وإنّما روعي الطّول في ترتيب سور القرآن في الجملة لافي كلّ الأفراد، وروعي التّناسب في ترتيب ذلك، ويراه القارئ في محلّه من كلّ منها. ثمّ مزج المدنيّ بالمكيّ في سائر السور؛ لأنّ اختلاف أسلوبيهما ومسائلهما أدنى إلى تشييط القارئ، وأنأى به عن الملل من التلاوة، وهذا من خصائص القرآن... (١٠٥:١)

الفصل الرابع عشر

نصّ أبي عبد الله الزّنجانيّ (م: ١٣٦٠) في «تاريخ القرآن»

تاريخ نزول السّور

اعتمدت في ذلك على كتاب «نظم الدّرر و تناسق الآيات و السّور» لمؤلفه إبراهيم بن عمر البقاعيّ طبع مصر، و على كتاب «الفهرست» لابن النّديم طبع مصر، و كتاب أبي القاسم عمر بن محمّد بن عبد الكافي كما ذكر، و نقل عنه الأستاذ نُولْدِكِه Noldeke في كتابه «تاريخ القرآن des chefte der Qeran»، و قال: إنّ كتاب أبي القاسم موجود في مكتبة (cod lugd 674 Warn). [ثمّ ذكر ترتيب السّور المكيّة و المدنيّة، فراجع الجدول، الرّقم ١١ في آخر هذا الجزء].

ترتيب نزول القرآن في مكّة و المدينة

على النّظم الّذي ذكره ابن النّديم بإسناده عن محمّد بن نَعْمَان بن بَشِير نذكر قوله؛ لأنّه سند قديم يعتمد عليه، ولأنّ بين ما ذكره من التّرتيب و التّرتيب المذكور في كتاب إبراهيم بن عمر البقاعيّ، و كتاب أبي القاسم عمر بن محمّد بن عبد الكافي كما نقله الأستاذ «نُولْدِكِه Noldeke» عنه اختلاف يسير، قال: أوّل ما نزل من القرآن على النّبيّ ﷺ في مكّة هو ... [ثمّ ذكر ترتيب السّور المكيّة و المدنيّة كما سيّجيء عن ابن النّديم الجدول، الرّقم ٣ في آخر هذا الجزء].

قد علم ممّا سبق أنّ القرآن كتب في عهد النّبيّ ﷺ، بين يديه في جرائد النّخل والأكتاف و الحرير. خرّج الحاكم بسنده على شرط الشّيخين عن زيد بن ثابت؛ قال: كنّا عند رسول الله ﷺ نوّلف القرآن من الرّقاع. و كان هذا التّأليف عبارة عن ترتيب الآيات

حسب إرشاد النّبي ﷺ إلى مواضعها، ولكنّ الصّحف المكتوبة كانت متفرّقة، ولأجل ذلك أمر النّبي ﷺ لعليّ عليه السلام بجمعه، وحذّر عن تضييعه، كما يدلّ عليه رواية عليّ بن إبراهيم القمّي. وكان القرآن محفوظاً في صدور الرّجال، وحفظته جماعة من الصّحابة كلّ حسب ما سمعوه من النّبي ﷺ و قتل في وقعة بئر معونة في (سنة ٤ هـ) جماعة تقرب عدّتهم من سبعين رجلاً، يقال لهم: الرّزاء. (٢٧ - ٣٥)

رأي بعض علماء الإفرنج في تاريخ سور القرآن

أهمّ ما ألفه الإفرنج في تاريخ القرآن هو الكتاب الذي ألفه الأستاذ (نولديكه Theodor _ Noldeke) باللغة الألمانية.

فيه أبحاث تحليليّة قيّمة، كما أنّ فيه ما يؤاخذ عليه عالم محقّق كنولديكه^١ Noldeke؛ حيث لم يستوف البحث والفكر فيه حقّه.

بحث في كتابه: عن «تاريخ القرآن» من نواحٍ شتى بما يشهد بتضلّعه وإطلاعه الواسع، كما بحث عن حقيقه الوحي والنّبوة، وشخصيّة النّبي ﷺ، ونزول القرآن وتاريخ نزول السّور، مكّيّها ومدنيّها.

فأثّرنا إيراد خلاصة بحثه في تاريخ السّور - وإن كان قد أخذ عن نفس المصادر العربيّة التي أخذنا نحن عنها - لما فيه من فائدة.

سلك في كشف تاريخ السّور مسلكاً قوياً يهدي إلى الحقّ أحياناً، فإنّه جعل الحروب والغزوات الحادثة في زمن النّبي ﷺ، وعُلم تاريخها بالتحقيق كحرب بدر والخندق و صلح الحديبيّة وأشباهها من المدارك لفهم تاريخ ما نزل من القرآن فيها، و جعل أيضاً اختلاف لهجة القرآن وأسلوبه الخطابيّ دليلاً آخر لتاريخ آياته.

فيقول: إنّ الغالب في الخطابات الواردة في الآيات بلفظ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) والشّدّة في الإنذار نزلت في أوّل النّبوة وقلة عدد المسلمين. و الخطابات بلفظ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) وآيات الرّحمة نزلت بعد ازدياد عدد المسلمين والمؤمنين.

و هو يرتاب في بحثه التحليلي في الروايات والأحاديث وأقوال المفسرين في تاريخ القرآن.

وفي عين الحال يأخذ من مجموعها ما يضيء فكره ويرشده إلى كشف تاريخ السور والآيات ونظمها أحياناً.

أخذ ترتيب السور عن كتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي من رجال القرن الخامس الذي ذكرنا ترتيبه وكلامه، ولكنه قسمه إلى قسمين: القسم المكي والقسم المدني، وهو يضع سورة العلق مثلاً - وهي أول ما نزل على مارواه المحدثون - في أول القرآن، وسورة القلم - وهي التي تليها في النزول - بعدها، وهكذا.

ترتيب القسم المكي على رأي نُؤدِيكِه

٩٦ / ٦٨ / ٧٣ / ٧٤ / ١١١ / ٨١ / ٨٧ / ٩٢ / ٨٩ / ٩٣ / ٩٤ / ١٠٣ / ١٠٠ / ١٠٨ / ١٠٢ /
 ١٠٧ / ١٠٩ / ١٠٥ / ١١٣ / ١١٤ / ١١٢ / ٥٣ / ٨٠ / ٩٧ / ٩١ / ٨٥ / ٩٥ / ١٠٦ / ١٠١ /
 ٧٥ / ١٠٤ / ٧٧ / ٥٠ / ٩٠ / ٨٦ / ٥٤ / ٣٨ / ٧ / ٧٢ / ٣٦ / ٢٥ / ٣٥ / ١٩ / ٢٠ / ٥٦ / ٢٦ /
 ٢٧ / ٢٨ / ١٧ / ١٠ / ١١ / ١٢ / ١٥ / ٦ / ٣٧ / ٣١ / ٣٤ / ٣٩ / ٤٠ / ٤١ / ٤٢ / ٤٣ / ٤٤ /
 ٤٥ / ٤٦ / ٥١ / ٨٨ / ١٨ / ١٦ / ٧١ / ١٤ / ٢١ / ٢٣ / ٣٢ / ٥٢ / ٦٧ / ٦٩ / ٧٠ / ٧٨ / ٧٩ /
 ٨٢ / ٨٤ / ٣٠ / ٢٩ / ٨٣.

ترتيب القسم المدني على رأي نُؤدِيكِه

٢ / ٨ / ٣ / ٣٣ / ٦٠ / ٤ / ٩٩ / ٥٧ / ٤٧ / ١٣ / ٥٥ / ٧٦ / ٦٥ / ٩٨ / ٥٩ / ١١٠ / ٢٤ / ٢٢ /
 ٦٣ / ٥٨ / ٤٩ / ٦٦ / ٦٢ / ٦٤ / ٦١ / ٤٨ / ٥ / ٩٠ (٧٠ - ٧١)

ترتيب السور في مُصحف عليّ عليه السلام

واخترنا ذكر ترتيب السور في مصاحف بعض كبار الصحابة والتابعين عن المدارك المعتمدة القديمة لما له مساس بتاريخ القرآن وفهم إن ترتيبه كان باجتهاد منهم.

فقد قال ابن النديم في الفهرست: قال ابن المُنَادى: حَدَّثَنِي الحسن بن العباس قال ...
[و ذكر كما تقدّم عنه، ثم قال:]

و سقط ذكر ترتيب السُّور عن أصل النسخة المطبوعة في (ليپسك Leipzig) من سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٨٧٢ ولكن ذكر اليعقوبى في الجزء الثاني من تاريخه.
و قال: وروى بعضهم: أنَّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان جمعه (يعني القرآن) لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله و أتى به يحمله على جمل فقال: هذا القرآن جمعته ؛ و كان قد جزّاه سبعة أجزاء: ... [و ذكر كما تقدّم عن اليعقوبى].

ترتيب سُور القرآن في مُصحف أبيّ بن كعب (م: ٢٠)
قال ابن النديم: قال الفضل بن شاذان أخبرنا الثقة من أصحابنا. قال: كان تأليف السُّور في قراءة أبيّ بن كعب ... [و ذكر كما تقدّم عنه].

ترتيب سُور القرآن في مُصحف عبدالله بن مسعود (م: ٣٢ و ٣٣)
روى ابن النديم عن الفضل بن شاذان أنّه قال: وجدت في مُصحف عبدالله بن مسعود تأليف سور القرآن على هذا الترتيب... [و ذكر كما تقدّم عنه].

ترتيب السُّور في مُصحف عبدالله بن عباس (م: ٦٨)
نجد في التاريخ و الحديث للصّحابي الجليل ابن عباس رضي الله عنه الذي تَخَصَّص في تفسير القرآن صلة خاصة بعليّ عليه السلام فما يذكر عنه في القرآن له مزية كبيرة.
ذكر ابن طاووس في كتاب سعد السّعود أنّه اشتهر بين أهل الإسلام أنّ ابن عباس كان تلميذ عليّ عليه السلام. و ذكر محمّد بن عمر الرّازي في كتاب الأربعين أنّ ابن عباس رئيس المفسّرين كان تلميذ عليّ بن أبي طالب عليه السلام فأثرنا نقل ترتيب مُصحفه كما ذكر الشّهستاني في مقدّمة تفسيره و هو سند أمين ... [و ذكر كما تقدّم عنه في قسم النزول].

ترتيب السُّور في مُصحف الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام (م: ١٤٨)

[بعد ذكر ترتيب السُّور نقلاً عن الشهرستاني كما سيأتي في الجداول الرقم ٩، فقال:]

اختلاف ترتيب السُّور في مصاحف هؤلاء الصَّحابة يشير إلى أن ترتيبها كان باجتهاد الصَّحابة والجامعين بخلاف وضع الآيات و ترتيبها؛ فإنه كان بإشارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم قد ظهر من الروايات أن القرآن كتب بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقطع من العُصب و اللُخاف و الأكتاف و جرائد التُّخل، و هذه الأشياء كانت متفرقة منفصلاً بعضها عن بعض و لم تكن كالورق أو الأديم الذي كتب عليه المصحف في الجمع الثاني و الثالث فلا بد أن الجامعين وضعوا علامة تميزُ المقدّم من المؤخّر كما نحن نجعل العلامة الفاصلة بالأعداد أو بالحروف الأبجدية في هذا الزّمان.

فيعلم أنه ذكر محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في مقدّمة تفسيره (مفاتيح الأسرار و مصابيح الأبرار) نقلاً عن كتاب «الاستغناء» عن سعيد بن جبّير. و عن يحيى بن الحارث الدّيناري في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾^١ قال هي السّبع الطُّوال: البقرة، و آل عمران، و النّساء - و المائدة، و الأنعام، و الأعراف، و يونس، و يسمّى السّابعة. و في الآية - يضمّ الرواية إليها - دلالة واضحة. أن هذه السُّور السّبع كانت منظّمة منسّقة الآيات بإرشاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتّى أُشير إليها في الآية. (٤٧ - ٥٧)

الفصل الخامس عشر

نص الزرقاني (مُعاصرٌ) في «مناهل العرفان»

المكِّي والمدني من القرآن الكريم

١- الاصطلاحات في معنى المكِّي والمدني

للعلماء في معنى المكِّي والمدني ثلاثة اصطلاحات؛

الاصطلاح الأول: أن المكِّي بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة. ويدخل في مكة ضواحيها، كالمنزل على النبي ﷺ بمعنى وعرفات والحديبية ويدخل في المدينة ضواحيها أيضًا، كالمنزل عليه في بدر وأحد.

وهذا التقسيم لوحظ فيه مكان النزول كما ترى، لكن يرد عليه أنه غير ضابط ولا حاصر؛ لأنه لا يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيها كقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ عَرَصًا قَرِيبًا وَ سَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ﴾^١ الخ، فإنها نزلت بتبوك، وقوله سبحانه: ﴿وَسُئِلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾^٢ الخ، فإنها نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء. ولا ريب أن عدم الضبط في التقسيم يترك واسطةً لا تدخل فيما يُذكر من الأقسام، وذلك عيبٌ يخلُّ بالمقصود الأول من التقسيم، وهو الضبط والحصر.

الاصطلاح الثاني: أن المكِّي ما وقع خطابًا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابًا لأهل المدينة وعليه يحمل قول من قال: إن ما صدر في القرآن بلفظ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهو مكِّي، وما صدر فيه بلفظ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو مدني؛ لأن الكفر كان غالبًا على أهل مكة، فخطبوا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وإن كان غيرهم داخلًا فيهم، ولأن الإيمان كان غالبًا

على أهل المدينة، فخطبوا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وإن كان غيرهم داخلًا فيهم أيضًا. والحق بعضهم بصيغة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ بصيغة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ أخرج أبو عبيد في «فضائل القرآن» عن ميمون بن مهران، قال: ما كان في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أو ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ فإنه مكِّي، وما كان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فإنه مدني. وهذا التقسيم لوحظ فيه المخاطبون كما ترى، لكن يرد عليه أمران؛

أحدهما - ما ورد على سابقه من أنه غير ضابطٍ ولا حاصر، فإن في القرآن منازل غير مصدرٍ بأحدهما، نحو قوله سبحانه في فاتحة سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ^١﴾، الخ، ونحو قوله سبحانه في فاتحة سورة المنافقين: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ^٢﴾، الخ.

ثانيهما - أن هذا التقسيم غير مطرد في جميع موارد الصيغتين المذكورتين، بل إن هناك آياتٍ مدنيّة صُدّرت بصيغة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وهناك آيات مكّيّة صُدّرت بصيغة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. مثال الأولى سورة النساء، فإنها مدنيّة، وأولها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾، وكذلك سورة البقرة مدنيّة، وفيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، ومثال الثانية سورة الحجّ فإنها مكّيّة مع أن في آخرها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَزْكُمُوا وَأَسْجُدُوا^٣﴾، الخ. وقال بعضهم: فيه نظر... [وذكر كما تقدّم عن الزركشي، فقال:]

أقول: ولكن صحّة الكلام في ذاته لا تُسوّغُ صحّة التقسيم، فإن من شأن التقسيم السليم أن يكون ضابطاً حاصراً، وأن يكون مطرداً. وقيد الغالبية المراد لا يحقّق الضبط والحصر، وإن حقّق الاطراد، فيبقى التقسيم معيّباً. على أنهم قالوا: المراد لا يدفع الإيراد. الاصطلاح الثالث: وهو المشهور أن المكّي ما نزل قبل هجرته ﷺ إلى المدينة وإن كان نزوله بغير مكّة، والمدني ما نزل بعد هذه الهجرة وإن كان نزوله بمكّة.

وهذا التقسيم كما ترى لوحظ فيه زمن النزول، وهو تقسيم صحيح سليم؛ لأنّه ضابطٌ حاصر ومُطَرِّدٌ لا يختلف بخلاف سابقه، ولذلك اعتمده العلماء واشتهر بينهم. وعليه

٢ - المناقون ١/.

١ - الأحزاب ١/.

٣ - الحجّ ٧٧/.

فآية: ﴿الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَعْتُ عَلَيْكُمْ بِغَمَّتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^١ مدنية، مع أنها نزلت يوم الجمعة بعرفة في حجة الوداع. وكذلك آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^٢ فإنها مدنية، مع أنها نزلت بمكة في جوف الكعبة عام الفتح الأعظم. وقل مثل ذلك فيما نزل بأسفاره عليه الصلاة والسلام، كفاتحة سورة الأنفال وقد نزلت ببدر، فإنها مدنية لا مكية على هذا الاصطلاح المشهور.

فائدة العلم بالمكي والمدني

من فوائد العلم بالمكي والمدني تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم في موضع واحد، وكان الحكم في إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفاً للحكم في غيرها، ثم عُرف أنَّ بعضها مكي وبعضها مدني، فإننا نحكم بأنَّ المدني منها ناسخ للمكي نظراً إلى تأخر المدني عن المكي. ومن فوائده أيضاً معرفة تاريخ التشريع وتدرُّجه الحكيم بوجه عام، وذلك يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد. وسيستقبلك في هذا المبحث فروق بين المكي والمدني، تلاحظ فيها جلال هذه الحكمة. ومن فوائده أيضاً الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالمًا من التغيير والتحريف. ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام حتَّى ليعرفون ويتناقلون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها، وما نزل بالحضر وما نزل بالسفر، وما نزل بالليل، وما نزل بالشتاء وما نزل بالصيف، وما نزل بالأرض وما نزل بالسَّماء، إلى غير ذلك. فلا يعقل بعد هذا أن يسكتوا ويتركوا أحداً يمسُّه ويُعبثُ به، وهم المتحمسون لحراسته وحمايته والإحاطة بكل ما يتصل به، أو يحتفُّ بنزوله إلى هذا الحد.

الطريق الموصلة إلى معرفة المكي والمدني

لا سبيل إلى معرفة المكي والمدني إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك؛ لأنَّه

لم يرد عن النَّبِيِّ ﷺ بيانٌ للمكِّيِّ والمدنيِّ، وذلك لأنَّ المسلمين في زمانه لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان، كيف وهم يشاهدون الوحي والتَّزيل، ويشهدون مكانه وزمانه وأسباب نزوله عياناً، وليس بعد العيان بيان.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: والله الَّذي لا إله غيره، ما نزلت سورةٌ من كتاب الله إلاَّ وأنا أعلمُ أين نزلت؟ ولا نزلت آيةٌ من كتاب الله إلاَّ وأنا أعلمُ فيما نزلت؟ ولو أعلم أن أحدًا أعلمُ مِنِّي بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه وقال أيُّوب: سألت رجلاً عِكْرِمَةَ عن آيةٍ من القرآن، فقال: نزلت في سَفْح ذلك الجبل، وأشار إلى سَلْع. ولعلَّ هذا التَّوجيه الَّذي ذكرته أولى ممَّا ذكره القاضي أبوبكر... [وذكر كما تقدَّم عن الزُّركشي].

الضَّوابط الَّتِي يَعْرِفُ بِهَا الْمَكِّيُّ وَالْمَدَنِيُّ

قد عرفنا فيما مضى أنَّ مَرَدَّ الْعِلْمِ بِالْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ هُوَ السَّمْعُ عَنْ طَرِيقِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، يَبْدُو أَنَّ هُنَاكَ عِلَامَاتٍ وَضَوَابِطَ يَعْرِفُ بِهَا الْمَكِّيُّ وَالْمَدَنِيُّ.

وهاك ضوابط المكيِّ:

١- كُلُّ سُورَةٍ فِيهَا لَفْظٌ (كَلَامٌ) فِيهَا مَكِّيَّةٌ، وَقَدْ ذُكِرَ هَذَا اللَّفْظُ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً، فِي خَمْسَةِ عَشْرَةِ سُورَةٍ، كُلُّهَا فِي النِّصْفِ الْآخِرِ مِنَ الْقُرْآنِ. قَالَ الدَّرِينِي:
وَمَا نَزَلَتْ (كَلَامٌ) بِشَرْبٍ فَاعْلَمَنَّ وَلَمْ تَأْتِ فِي الْقُرْآنِ فِي نِصْفِهِ الْأَعْلَى
[ثُمَّ ذَكَرَ قَوْلَ النُّعْمَانِيِّ كَمَا تَقَدَّمَ عَنِ الشَّيْطَوِيِّ].

٢- كُلُّ سُورَةٍ فِيهَا سَجْدَةٌ فِيهَا مَكِّيَّةٌ لَا مَدَنِيَّةٌ.

٣- كُلُّ سُورَةٍ فِي أَوَّلِهَا حُرُوفُ التَّهَجِّيِّ فِيهَا مَكِّيَّةٌ، سِوَى سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا مَدَنِيَّتَانِ بِالْإِجْمَاعِ، وَفِي الرَّعْدِ خِلَافٌ.

٤- كُلُّ سُورَةٍ فِيهَا قِصَصُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ السَّابِقَةِ فِيهَا مَكِّيَّةٌ سِوَى الْبَقَرَةِ.

٥- كُلُّ سُورَةٍ فِيهَا قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ فِيهَا مَكِّيَّةٌ سِوَى الْبَقَرَةِ أَيْضًا.

٦- كُلُّ سُورَةٍ فِيهَا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وَلَيْسَ فِيهَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فِيهَا مَكِّيَّةٌ، وَلَكِنَّهُ وَرَدَ عَلَى هَذَا مَا تَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْكَ مِنْ سُورَةِ الْحَجِّ.

٧- كلُّ سورة من المفصل فهي مَكِّيَّة؛ أخرج الطَّبْراني عن ابن مسعود، قال: نزل المفصل بمكة، فمكثنا حِجَجًا نقرأه ولا ينزل غيره. لكن يرد على هذا أنَّ بعض سور المفصل مدنيّ نزل بعد الهجرة اتفاقاً كسورة النّصر، فإنّها كانت من أواخر منازل بعد الهجرة، بل قيل: إنّها آخر منزل، كما سبق في مبحث أوّل منازل و آخر منازل. فالأوّل أن يُحمل كلام ابن مسعود هذا على الكثرة الغالبة من سور المفصل، لا على جميع سور المفصل. و المفصل على الأصحّ، وسميت بذلك لكثرة الفصل فيها بين السّور بعضها وبعض من أجل قصرها، وقيل: سُميت بذلك لقلة المنسوخ فيها، فقوله: (قَوْلُ فَصْلٍ) لا نسخ فيه ولا نقض.

أما ضوابط المدنيّ فكما يأتي

- ١- كلُّ سورة فيها الحدود و الفرائض فهي مدنيّة.
- ٢- كلُّ سورة فيها إذنٌ بالجهاد و بيان لأحكام الجهاد فهي مدنيّة.
- ٣- كلُّ سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنيّة ما عدا سورة العنكبوت. و التّحقيق أنَّ سورة العنكبوت مَكِّيَّة، ما عدا الآيات الإحدى عشرة الأوّل منها فإنّها مدنيّة، و هي الّتي ذكر فيها المنافقون.

[ثمّ ذكر في تعيين السّور المَكِّيّة و المدنيّة نقلاً عن السيوطي، كما تقدّم عنه]

أنواع السّور المَكِّيّة و المدنيّة

قد تكون السّورة كلّها مَكِّيّة، و قد تكون كلّها مدنيّة، و قد تكون السّورة مَكِّيّة ما عدا آيات منها، و قد تكون مدنيّة ما عدا آيات منها، فتلك أربعة أنواع. مثال النوع الأوّل سورة المدثر، فإنّها كلّها مَكِّيّة. و مثال الثاني سورة آل عمران، فإنّها كلّها مدنيّة و مثال الثالث سورة الأعراف، فإنّها مَكِّيّة ما عدا آية: ﴿وَسَلِّطْهُمْ عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي﴾

كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبُحْرِ^١، قاله قتادة، واستثنى غيره هذه الآية المذكورة وما بعدها من الآيات إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾^٢، وقال: إِنَّ تِلْكَ الْآيَاتَ مَدِينَةٌ. ومثال النوع الرابع سورة الحج، فإنها مدنيّة ما عدا أربع آيات منها، بتدريج بقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى - إِلَى - عَذَابِ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾^٣.

واعلم أنّ وصف السّورة بأنّها مكّيّة أو مدنيّة يكون تبعاً لما يغلب فيها، أو تبعاً لفاتحتها، فقد ورد أنّه إذا نزلت فاتحة سورة بمكّة مثلاً كتبت مكّيّة، ثمّ يزيد الله فيها ما يشاء ولعلّ الأنسب بالاصطلاح المشهور في معنى المكّي والمدنيّ أن يقال: إذا نزلت فاتحة سورة قبل الهجرة كتبت مكّيّة، وإذا نزلت فاتحة سورة بعد الهجرة كتبت مدنيّة، ثمّ يذكر المستثنى من تلك السّور إن كان هناك استثناء، فيقال: سورة كذا مكّيّة إلاّ آية كذا، فإنّها مدنيّة، أو سورة كذا مدنيّة إلاّ آية كذا، فإنّها مكّيّة أو نحو ذلك، كما تراه في كثير من المصاحف عنواناً للسّورة.

وقد بذل العلماء همّة جبارة في استقصاء حال منازل من السّور والآيات... [ثمّ ذكر قول النيسابوريّ والسيوطيّ كما تقدّم عن الرّكشيّ والسيوطيّ].

وُجُوهٌ تَتَعَلَّقُ بِالْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ

نبّه السيوطيّ عند كلامه في هذا المبحث إلى أنّ هناك وجوهاً في المكّيّ والمدنيّ، منها ما تستطيع أن تفهمه ممّا قصصناه عليك آنفاً، ومنها ما يشبه تنزيل المدنيّ في السّور المكّيّة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾^٤، قال السيوطيّ في توجيهه ما نصّه: فَإِنَّ الْفَوَاحِشَ كُلَّ ذَنْبٍ فِيهِ حَدٌّ، والكبائر: كلّ ذنب عاقبته النّار، واللّمَم: ما بين الحدين من الذّنوب، ولم يكن بمكّة حدٌّ ولا نحوه. لكن فيه نظر من وجهين: أحدهما - أنّ تفسير الفواحش بما ذكر غير متفق عليه، بل فسرها غيره بأنّها الكبائر مطلقاً، وفسرها آخر بما يكبر عقابه دون تخصيص بحدٍّ، وفسرها السيوطيّ نفسه في

١ - الأعراف / ١٦٣.

٢ - الأعراف / ١٧٢.

٣ - الحج / ٥٢ - ٥٥.

٤ - النّجم / ٣٢.

سورة الأنعام بأنّها الكبائر.

و ثانيهما - أنّ بعضهم يستثني هذه الآية من سورة النّجم المكيّة، وينصّ على أنّها مدنيّة. ومنها: ما يشبه تنزيل المكيّ في السّور المدنيّة، نحو سورة ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، وكقوله سبحانه في سورة الأنفال المدنيّة: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ إلخ. وفي هذا نظر أيضًا، فإنّ المعروف أنّ سورة (وَالْعَادِيَاتِ) من السّور المكيّة كما سبق، وأنّ آية ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ﴾ إلخ، منصوص على أنّها نزلت بمكّة، كما نقل السيوطيّ نفسه عن مقاتيل، وقال إنّها مُستثناة من سورة الأنفال المدنيّة. بل نصّ بعضهم على أنّ هذه الآية مع آيتين قبلها وأربع بعدها كلّها مكّيات مستثنيات من سورة الأنفال المدنيّة. ومنها: ما حُمِلَ من مكّة إلى المدينة، نحو سورة يوسف و سورة الإخلاص و سورة سيح. ومنها: ما حُمِلَ من المدينة إلى مكّة، نحو آية الرّبا في سورة البقرة المدنيّة، و صدر سورة التّوبة المدنيّة.

ومنها: ما حُمِلَ إلى الحبشه نحو سورة مريم، فقد صحّ أنّ جعفر بن أبي طالب قرأها على النّجاشيّ.

ومنها: ما حُمِلَ إلى الرّوم، كقوله سبحانه و تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾^٢ الآية.

وأنت خبير بأنّ الاصطلاح المشهور في المكيّ والمدنيّ ينتظم كلّ ما نزل سواء أكان بمكّة و المدينة أم بغيرهما كالجُحفة و الطائف و بيت المقدّس و الحُدَيْبِيَّة و مِثْنَى و عَرَفَات و عُشْفَانَ و تَبُوك و بَدْر و أُحُد و جِرَاء و حَمْرَاء الْأَسَد و تفصيل ذلك يخرج بنا إلى حدّ الإطالة، فناهيك ما ذكرنا، و اللّيب تكفيه الإشارة.

فروق أخرى بين المكيّ والمدنيّ

توجد فروق أخرى بين المكيّ والمدنيّ غير ما قدّمناه في ضوابطهما، وهذه الفروق فيها دقّة عن تلك ؛ لتعلّقها في مجموعها بأمر معنويّة و بلاغيّة. ثمّ إنّ أعداء الإسلام قد

صاغوا عن طريق بعضها شُبُهَات سَدَدُوا سَهَامَهَا إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، لَذَلِكَ أَفْرَدْنَاهَا بِعُنْوَانِ تَوَظُّعٍ لِنَقْضِ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ، وَقَبْلَ الرَّمْيِ يُرَاشُ السَّهْمُ.

و نذكر من خواص القسم المكي أنه قد كثر فيه ما يأتي:

أولاً - أنه حمل حملة شفاء على الشرك والوثنية، وعلى الشُّبُهَات التي تذرّع بها أهل مكة للإصرار على الشرك والوثنية، ودخل عليهم من كل باب، وأتاهم بكل دليل، وحاكمهم إلى الحسن، وضرب لهم أبلغ الأمثال، حتى انتهى بهم إلى أن تلك الآلهة المزيقة لا تقدر أن تخلق مجتمعة أقل نوع من الذباب، بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شرّ عادية الذباب، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾^١. ولما عاندوا واحتجّوا بما كان عليه آبائهم، نعى عليهم أن يمتنعوا كرامة الإنسان إلى هذا الحضيض من الدّلة للأحجار والأصنام، وسفّه أعلامهم وأحلام آبائهم الذين أهملوا النظر في أنفسهم وفي آيات الله في الآفاق، وقبح إليهم الجمود على هذا التّقليد الأعلى للآباء والأجداد ﴿وَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^٢. وناقشهم كذلك في عقائدهم الضّالة التي نجمت عن تلك الوثنية من حُجُود الإلهيات والتّبوّات، وإنكار البعث والمسؤوليّة والجزاء.

ثانياً - أنه فتح عيونهم على ما في أنفسهم من شواهد الحقّ، وعلى ما في الكون من أعلام الرّشد، نوع لهم في الأدّلة، وتفنّن في الأساليب، وقاضاهم إلى الأوّليات والمشاهدات، ثمّ قادهم من وراء ذلك قيادة راشدة حكيمة إلى الاعتراف بتوحيد الله في ألوهيّته وربوبيّته، والإيمان بالبعث ومسؤوليّته، والجزاء العادل ودقّته، ثمّ التّسليم بالوحي وبكلّ ما جاء به الوحي من هدى الله في الإلهيات والتّبوّات والسّمعيّات في العقائد على سواء.

ثالثاً - أنه تحدّث عن عاداتهم القبيحة كالقتل وسفك الدّماء، ووأد البنات، واستباحة الأعراض، وأكل مال الأيتام. فلنّفت أنظارهم إلى ما في ذلك من أخطار وما زال

بهم حتّى طَهَّرهم منها، و نَجَّح في إبعادهم عنها.

رابعاً - أنّه شرح لهم أصول الأخلاق و حقوق الاجتماع شرحاً عجيباً كَرَّه إليهم الكفر و الفسوق و العصيان، و فوضى الجهل، و جفاء الطّبع، و قذارة القلب و خشونة اللفظ و حبَّب إليهم الإيمان و الطّاعة و النّظام و العلم و المحبّة و الرّحمة و الإخلاص و احترام الغير و برّ الوالدين و إكرام الجارّ و طهاره القلوب و نظافة الألسنة إلى غير ذلك.

خامساً - أنّه قصّ عليهم من أنباء الرّسل و أمهم السّابقة ما فيه أبلغ المواظ و أنفع الإحسان، مهما طالّت الأيّام و امتدّ الزّمان، ماداموا قائمين بنصرة الحقّ و تأييد العبر، من تقرير سنّته تعالى الكونيّة في إهلاك أهل الكفر و الطّغيان، و انتصار أهل الإيمان الإيمان.

سادساً - أنّه سلك مع أهل مكّة سبيل الإيجاز في خطابه، حتّى جاءت السّور المكيّة قصيرة الآيات صغيرة السّور؛ لأنّهم كانوا أهل فصاحة و لسن، صناعتهم الكلام، و همّهم البيان، فيناسبهم الإيجاز و الإقلال دون الإسهاب و الإطناب.

كما أن قانون الحكمة العالية قضى بأن يسلك سبيل التّدريج و الارتقاء في تربية الأفراد، و أن يقدّم الأهمّ على المهمّ. ولا ريب أنّ العقائد و الأخلاق و العادات أهمّ من ضروب العبادات و دقائق المعاملات؛ لأنّ الأولى كالأصول بالنسبة للثّانية، لذلك كثر في القسم المكيّ التّحدّث عنها و العناية بها، كما علمت في الخواصّ الماضية جرياً سنّة التّدريج من ناحية، و تقديماً للأهمّ على المهمّ من ناحية أخرى.

أما خواصّ القسم المدنيّ فنذكر منها أنّه قد كثر فيه ما يأتي:

أولاً - التّحدّث عن دقائق التشريع و تفاصيل الأحكام و أنواع القوانين المدنيّة والجنائيّة و الحربيّة والاجتماعيّة والدّوليّة و الحقوق الشّخصيّة، وسائر ضروب العبادات والمعاملات. انظر - إن شئت - في سورة البقرة والنّساء والمائدة والأنفال والفتح والحجّرات ونحوها.

ثانياً - دعوة أهل الكتاب من يهود و نصارى إلى الإسلام، ومناقشتهم في عقائدهم الباطلة، و بيان جنياتهم على الحقّ، و تحريفهم لكتب الله، و محاكمتهم إلى العقل والتّاريخ. اقرأ - إن شئت - سورة البقرة و آل عمران و المائدة و الفتح و نحوها.

ثالثًا - سلوك الإطناب و التّطويل في آياته و سوره، و ذلك لأنّ أهل المدينة لم يكونوا يضاهئون أهل مكّة في الذّكاء و الألمعيّة و طول الباع في باحات الفصاحة و البيان، فيناسبهم الشّرح و الإيضاح، و ذلك يستتبع كثيرًا من البسط و الإسهاب؛ لأنّ دستور البلاغة لا يقوم إلّا على رعاية مقتضيات الأحوال، و خطاب الأغبياء بغير ما يُخاطب به الأذكياء، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾^١ (١٨٥:١ - ١٩٧)

[ثمّ ذكر نقض الشّبهات المهمّة التي أُثيرت حول هذا الموضوع بالتّفصيل وإن شئت فراجع]

الفصل السادس عشر

نص عَزَّةَ دَرُوزَةَ (معاصر) في كتابه: [تاريخ] القرآن المجيد

تميُّزُ الأسلوب المكيِّ والأسلوب المدني

نستطرد فنقول: إنَّ أسلوب القرآن يساعد بنطاق ضيق على التمييز بين السُّور المكيَّة والسُّور المدنيَّة، بل الآيات المكيَّة والآيات المدنيَّة أيضًا. فالسُّور المكيَّة: أولاً - تنحو في الأغلب نحو التَّسجيع والتَّوازن.

ثانيًا - تتكشف فيها الدَّعوة إلى الله، وإثبات استحقاقه وحده للخضوع والعبادة، ومحاربة الشُّرك وكلِّ ما يتصل به، وتعنيف الكُفَّار وتقريعهم بسببه.

ثالثًا - أنَّ أسلوبها المتَّصل بالدَّعوة إلى المكارم الاجتماعيَّة والروحيَّة والإنسانيَّة وبالتَّحذير من الآثام والفواحش أسلوب دعوة وحضّ وتشويق وتثديد وتنويه.

رابعًا - أنَّ القصص ومشاهد الآخرة والحديث عن الملائكة والجنّ، وحكاية أقوال الكُفَّار وجدلهم وافتراءاتهم، ونسبهم المختلفة للنبيّ قد كثرت وتكرّرت.

خامسًا - إنَّ وحدة الموضوع في السُّور الطَّويلة والمتوسطة فضلًا عن القصيرة ملموحة في كلِّ سورة منها تقريبًا.

سادسًا - إنَّ تلاحق الفصول والسيّاق جدلاً وحكايةً وإنذارًا وتبشيرًا ووعداً ووعيداً وتدعيمًا وتمثيلًا وتذكيرًا وقصصًا وتطمينًا وتوجيهًا وتلقينًا وبرهنةً، ملموح كذلك في كلِّ سورة منها تقريبًا وفي السُّور المكيَّة تبرز مبادئ الدَّعوة القرآنيَّة قويَّة واضحة، وتبرز خصوصيات القرآن ومميّزاته الأسلوبية والموضوعية بالنسبة إلى الكُتُب السماوية الأخرى قويَّة واضحة كذلك. ومن مميّزات الأسلوب المكيّ اللهجة الخطابية والقويّة النافذة إلى الأعماق، والقارعة للأسماع والقلوب، واللهجة التي يذكر بها اليهود

خاصة؛ حيث خلت من التّقرّيع والتّعنيف والجدل والأخذ والردّ، وتلك الصّور الجحوديّة والإزعاجيّة والتّشكيكيّة والدّسيّة الواردة عنهم في القرآن المدنيّ، واللّهجة المحبّية الاستشهاديّة التي يذكّر بها الكتّابيّون وأولو العلم كأنّما هم حزب المسلمين والدّعوة النّبويّة والأسلوب المكيّ يغلب فيه وصايا الصّبر والتّطمين والتّسكين، وعدم المبالاة بمواقف الكفّار، كما أنّه خلا من الحُصّ على الجهاد وقائع الجهاد، وخلا كذلك من ذكر المنافقين ومواقفهم ودسائسهم والحملات القاصمة عليهم. وواضح أنّ هذا كلّ متّصل بظروف العهد المكيّ من السّيرة النّبويّة ممّا نبّهنا عليه في سياق التّفسير.

أمّا القرآن المدنيّ فالسّجع فيه قليل بل نادر، وطول نفس الآيات غالب، ونقل فيه فصول القصص وصف مشاهد الآخرة والجنّ والملائكة والجدل، ووصف مشاهد الكون. أو تقصر، ويكتفي من ذلك بالتذكير والإشارات الخاطفة، وتصطبغ فيه المبادئ والتكاليف التّعبديّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة والقضائيّة والسلوكيّة بصبغة التّقنين والتّقييد، وفيه تشريع الجهاد وقائعه وظروفها، وفيه إبطال عادات وتقاليده قديمة، وإقرار عادات وتقاليده قديمة أخرى مع الإصلاح والتّهديب، وإنشاء عادات وتقاليده جديدة في سبيل الإصلاح الأخلاقيّ والاجتماعيّ، وفيه صور النّفاق والمنافقين ومواقفهم، ولهجته عن اليهود لهجة شديدة في الدّعوة والتّعنيف والتّنديد، وفيه صور عن مواقفهم وأحوالهم، وفيه الاستفتاءات والأسئلة القضائيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة والأسرويّة وأجوبتها التّشريعيّة. وواضح أنّ هذا كلّ متّسق أيضًا مع ظروف العهد المدنيّ من السّيرة النّبويّة ممّا نبّهنا عليه في سياق التّفسير كذلك.

وعلى ضوء هذه المميّزات، ومع استلهاام المضمون والسيّاق أمكننا ترجيح مكّيّة سور الرّعد والحجّ والرّحمن والإنسان والزّلزلة التي يذكّر مصحف «قدّور أوغلي» وغيره مدنيّتها، وأمكننا كذلك ترجيح مكّيّة ومدنيّة السّور القصيرة الأخرى التي اختلفت الرّوايات فيها، وترجيح احتمال تقدّم بعض السّور المتأخّرة، وتأخّر بعض السّور المتقدّمة، وترجيح مكّيّة آيات ذكرت الرّوايات أنّها مدنيّة في سور مكّيّة ومدنيّة آيات ذكرت الرّوايات أنّها مكّيّة في سور مدنيّة ممّا نبّهنا عليه في سياق التّفسير الكامل.

كتابة ترتيب نزول السُّور القرآنيّة

كتابة ترتيب نزول السُّور وصفاتها وعدّ آياتها وأرقامها وفواصلها.

إنّ بعض المصاحف تذكر في فواصل السُّور:

١- ترتيب نزول كلّ سورة، أي أنّ السُّورة قد نزلت بعد السُّورة الفلانيّة.

٢- وصفة كلّ سورة، أي مكّيّة أو مدنيّة.

٣- وعدد آيات كلّ سورة.

٤- ورقم الآيات المدنيّة في سورة المكّيّة، ورقم الآيات المكّيّة في السُّورة المدنيّة،

إذا كانت السُّورة احتوت آيات مكّيّة ومدنيّة معًا.

٥- ورقم كلّ آية بعد كتابتها في السُّورة، في حين أنّ بعض المصاحف لا تذكر شيئاً

من هذا وتكتفي بذكر اسم السُّورة، وإنّ بعضها تذكر بعض هذه الأمور دون بعض، وأنّ

بين المصاحف التي تذكر هذه الأمور جميعها أو بعضها اختلافاً في ما تذكره، حيث يذكر

بعضها سورة ما مكّيّة، بينما يذكرها بعضها مدنيّة. وحيث يكون عدد آيات السُّورة في

مصحف أقلّ أو أكثر منه في مصحف آخر، وحيث يكون عدد الآيات المكّيّة والآيات

المدنيّة في السُّور المدنيّة والمكّيّة وأرقامها في مصحف مغايرة لعددها وأرقامها في

مصحف آخر، وحيث توضع فاصلة وراء آية ما في بعضها، بينما لا تكون مفصولة في

بعضها، وحيث تكون الفواصل بين الآيات في بعضها صمّاء، بينما تكون في بعضها تحمل

رقم الآية المتسلسل.

فالواضح من كلّ ذلك أنّ هذه الأمور - عدا فصل الآيات بفاصلة ما - هو عمل

تنظيمي متأخّر، وليس له أصل في المصحف العثمانيّ.

وقد استثنينا فصل الآيات بفاصلة ما ؛ لأنّنا نعتقد أنّ المصحف العثمانيّ لم يسرد

الآيات سرداً دون فصل بينها، ولأنّ الآية هي الوحدة القرآنيّة الصّغرى المستقلّة، وقد

أشير إليها في القرآن نصّاً كذلك، كما جاء مثلاً في آية: ﴿وَإِذَا بَدُلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

بِمَا يُنْزَلُ﴾^١.

فلا يعقل إلا أن توضع فواصل بين الآيات. ولعلّ الفاصلة التي كانت تفصل بين الآيات في المصحف العثماني هي نقطة صماء.

وهناك اختلاف في عدد آيات كثير من السور، وقد ذكر السيوطي في «الإتقان» أن المتفق على عدد آياته أربعون سورة فقط ومع أن هناك حديثاً أورده ابن العربي عن النبي ﷺ ونقله السيوطي، يفيد أن الفاتحة سبع آيات، والملك ثلاثون آية، فإن هذا لم يمنع الخلاف على عدد آيات هاتين السورتين أيضاً. وقد قال بعض العلماء: إن سبب اختلاف السلف في عدد الآيات أن النبي ﷺ كان يقف على بعض كلمات من الآيات، فيحسب السامع أنه يقف على آخر الآية. على أن مما يرد أن يكون ليس في تمييز بعض الفواصل في المصحف العثماني، فكان هذا الخلاف في المصاحف التي نسخت عنه وتدوولت. وننبه على أن الخلاف في عدد الآيات ليس كبيراً، وكل ما تناوله دار في نطاق ضيق من نقص آية أو آيتين في بعض السور، أو زيادة آية أو آيتين في بعض آخر، مثل وصل بعضهم كلمات «طسم» و«طس» في سور الشعراء والتل والقصص، و«الم» في سورة العنكبوت وغيرها، و«ألر» في سورة يونس وغيرها، و«حم» في سورة فصلت وغيرها، وعدّها موصولة مع ما بعدها أو مفصولة عنه فتكون آية عند عدّها موصولة، ولا تكون كذلك عند من عدّها مفصولة، ومثل عدّ البسملة آية في سورة الفاتحة وعدم عدّها، وعدّ «صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» في سورة الفاتحة آية عند بعضهم، أو آيتين عند بعض آخر.

ونقول في صدد ترتيب نزول السور: إننا أطلعنا على عدة ترتيبات، منها ترتيب المصحف الذي اعتمدهنا، ونعني مصحف «قدور أوعلي»، ومنها ترتيب للسيوطي استند فيه إلى ما اعتمده من الروايات، ومنها ترتيب في تفسير الخازن وآخر في تفسير الطبرسي، وثلاثة أخرى أوردها السيوطي في «الإتقان» منسوبة إلى الحسن وعكرمة وابن عباس وجابر. وبين هذه الترتيبات تخالف يسير أو كبير، مع التنبيه على أن مضامين بعض السور المكية والمدنية تسوّغ التوقف في ترتيبها الوارد في هذه الترتيبات، وتحمل على القول إنها لا تمثل الحقيقة تمثيلاً صادقاً، وإنه ليس هناك ترتيب يثبت على

التَّدُّد والتَّحْيِص بكامله، أو يستند إلى أسناد وثيقة متَّصلة بالعهد النَّبَوِيّ. فهناك روايات عديدة مختلفة في صفات بعض السُّور، وبينما يسلك بعضهم سوراً في سلك السُّور المَكِّيَّة أو بالعكس، مثل سور الرُّعد والحجّ والرَّحْمَن والإنسان والزَّلْزَلَة والفلق والنَّاس والإخلاص والكوثر وقريش والعصر والعاديات والقدر والمطففون، والفاتحة الَّتِي تسلكها بعض الرِّوايات في السَّلك المدنيّ، بينما تسلكها روايات أخرى في السَّلك المَكِّيّ، ومثل سور الحديد والصفّ والتَّغَابُن والبيَّنة الَّتِي تسلكها بعض الرِّوايات في السَّلك المَكِّيّ، بينما تسلكها روايات أخرى في السَّلك المدنيّ. فضلاً عن ذلك فإنّ في القول بترتيب نزول سور القرآن تجوّزاً خاصّة بالنَّسبة لبعض السُّور المدنيّة؛ حيث تلهم مضامينها أنّ بعض فصول سور متقدّمة في روايات التَّرتيب قد نزلت بعد بعض فصول سورة متأخّرة فيه، وأنّ فصول هذه السُّور قد ألّفت تأليفاً متأخّراً عن نزولها وقتاً ما، ممّا ذكرنا بعض نماذجها ونهنا عليه في بحث سابق. وكلّ ما يمكن أن يقال في مثل هذه السُّور: إنّ وضعها في ترتيب التَّزول كسور تامّة بعد سور تامّة حقيقة أو رواية إنّما جاء من أنّ فصلها الأوّل أو فصولها الأوّل قد نزلت بعد الفصل الأوّل أو الفصول الأوّل من السُّورة الَّتِي قبلها.

ولقد أجمعت الرِّوايات مثلاً على أنّ سور العلق والقلم والمزمل والمدثر هي أوائل السُّور نزولاً على اختلاف في الأوّلية بينهما. وعند التدقيق تراءى لنا أنّ هذه الرِّوايات محلّ نظر، فالآيات الأوّل من سورة القلم احتوت آية: ﴿إِذَا تُثْلَىٰ عَلَيْهِ إِيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^١ والآيات الأوّل من سورة المزمل احتوت آية: ﴿وَرَسَّالِ الْقُرْآنِ زَبِيلًا﴾^٢ والآيات الأوّل من سورة المدثر احتوت آية: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾^٣ والآيات الَّتِي أعقبت الآيات الخمس الأوّل من سورة العلق احتوت آيات فيها وصف لموقف بعض الطّغاة من دعوة النَّبِيّ وصلاته، وبالإضافة إلى حكاية السُّور الثَّلاث الأوّل مواقف بعض الكافرين والمكذِّبين وجدلهم ومكابرتهم، وإلى حملات عليهم فيها بسبب ذلك. فهذا كلّ يلهم بقوة أنّ ينبغي أن يكون قد نزل قبل هذه السُّور وبعد آيات سورة العلق الخمس

الأولى على الأقلّ قرآن يصحّ أن يرثل، وأن يقال عنه أساطير الأولين، وقول البشر، وفيه دعوة وإنذار عامّان، وقد تلي على الناس ودعوا إلى الله به، فوقف الكفّار منه موقف الجاهد المعاند، فنزلت بقيّة سورة العلق والسور الثلاث الأخرى تحكي مواقفهم وتردّ عليهم. ومن أجل هذا ضمّنا أن تكون سور الفاتحة والأعلى والشمس والعصر والليل و أمثالها ممّا لا يحتوي إلاّ الدّعوة والإنذار والأهداف بصورة عامّة، هي السابقة بالنزول بعد آيات العلق الخمس الأولى، إن لم يكن هناك قرآن نزل ثمّ رفع يحتوي ذلك، ويمكن إيراد أمثلة متعدّدة أخرى كثيرة أيضًا. (١٢٠ - ١٢٤)

و نصّه أيضًا في «التفسير الحديث»

[و بعد ذكره لطريقة تبويب كتابه، اقتطعنا نبذة من هذا الكتاب وهي تخصّ بحثنا]
ولقد رأينا أن نجعل ترتيب التفسير وفق ترتيب نزول السورة؛ بحيث تكون أولى السور المفسّرة سورة العلق ثمّ القلم ثمّ المزمل، إلى أن تنتهي السور المكيّة ثمّ سورة البقرة فسورة الأنفال إلى أن تنتهي السور المدنيّة؛ لأنّنا رأينا هذا يتّسق مع المنهج الذي اعتقدنا أنّه الأفضل لفهم القرآن وخدمته، إذ بذلك يمكن متابعة السيرة النبوية زمنًا بعد زمن، كما يمكن متابعة أطوار التنزيل ومراحلها بشكل أوضح وأدقّ، وبهذا وذاك يندمج القارئ في جوّ نزول القرآن وجوّ ظروفه ومناسباته ومداه ومفهوماته، وتجلّى له حكمته التنزيل. وقد قلبنا وجوه الرّأي حول هذه الطّريقة، وتساءلنا عما إذا كان فيها أساس بقُدسيّة المصحف المتداول، فانتهى بنا الرّأي إلى القرار عليها؛ لأنّ التفسير ليس مُصحفًا للتلاوة من جهة، وهو عمل فنيّ أو علميّ من جهة ثانية، ولأنّ تفسير كلّ سورة يصحّ أن يكون عملاً مستقلًّا بذاته، لا صلة له بترتيب المصحف، وليس من شأنه أن يمسّ قُدسيّة ترتيبه من جهة ثالثة.

ولقد أثر عن علماء أعلام قدماء ومحدثين تفسيرات لوحات و سور قرآنيّة، دون وحدات و سور كما أثر عن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أنّه كتب مُصحفًا وفق نزول القرآن، ولم نر نقدًا أو إنكارًا لهذا وذاك، ممّا جعلنا نرى السّير على هذه الطّريقة سائغًا. لاسيّما

والقصد منه هو خدمة القرآن بطريقة تكون أكثر نفعًا، وليس هو الانحراف والشذوذ، والله أعلم بالنيات، ولكلّ امرئ ما نوى. ومع ذلك فقد رأينا أن نستوثق من صحة ما ذهبنا إليه، فاستفتينا سماحة «الشيخ أبي اليُسّر عابدين» مفتي سورية و«الشيخ عبد الفتاح أبا غدة» الذي كان من المرشحين لإفتاء مدينة حلب، فتلّقينا منهما جوابًا مؤيدًا؛ حيث قال الأوّل في جوابه: إنّ التّأليف والتّصنيف تابع لأغراض المؤلّفين حسبما يعرض لهم من أشكال؛ لإظهار الفوائد التي يطّلعون عليها، وليس التّفسير بقرآن يُتلى حتّى يراعى فيه ترتيب الآيات والسّور، فقد يعنّ للمفسّر أن يفسّر آية ثمّ يترك ما بجانبها لظهور معناها، وقد يفسّر سورة ثمّ يترك ما بعدها اعتمادًا على فهم التّالي. ولا مانع من تأليف تفسير على الشّكل المذكور، والله أعلم وحيث قال الثّاني: إنّ شبهة المنع لهذه الطّريقة آتية من جهة أنّها طريقة تخالف ما عليه المصحّف الشريف اليوم من التّرتيب المجمع عليه والمتواتر إلى الأُمّة نقله جيلاً بعد جيل. ودفع هذه الشّبهة أنّ المنع يثبت فيما لو كان هذا الصّنيع مسلوکًا من أجل أن يكون هذا التّرتيب مُصحّفًا للتّلاوة، أي ليتلو الثّاس القرآن على النّحو الذي سلكتموه. أمّا وإنّ الغرض للمفسّر والقارىء معًا غير هذا فلا مانع من سلوكه إطلاقًا. ويستأنس لسواغية هذه الطّريقة بما سلكه أجلّة من علماء الأُمّة المشهود لهم بالإمامة والقُدوة من المتقدّمين في تأليفهم، ولم يعلم أنّ أحدًا أنكر عليهم ما صنعوا. ويحضرنى منهم الآن الإمام ابن قُتيّبة المتوفّى سنة (٢٧٦) للهجرة، فقد مشى في تفسير ما فسّره في كتابه المطبوع «تأويل مشكل القرآن» على غير ترتيب التّزول وعلى غير التّرتيب المتلوّ الآن. بيدوا هذا جليًّا في الصّحف (٢٤٠ - ٣٣٩). على أنّ القول بالمنع تبعًا لهذه النّظرة الضّيقة ينبغي أن يشمل ما سلكه الشّيخ جلال الدّين المُحلّي، ثمّ جلال الدّين السيّوطي في تفسيرهما المعروف بتفسير «الجلالين»؛ إذ قد بدأ الأوّل بالتّفسير من آخر القرآن الكريم وهو صاعد إلى سورة الكهف، ثمّ مات فأتته الجلال السيّوطي من حيث وقف سلفه إلى أوّل القرآن الكريم.

فهما لم يراعى في مسلكهما هذا البدء على ترتيب القرآن من أوّله إلى آخره. كذلك ينبغي أن يشمل ما صنعه الشّيخ عبد الوهّاب الثّجّاري في كتابه «قصص الأنبياء»، والشّيخ

محمّد أحمد العدويّ في كتابه «دعوة الرّسل إلى الله». فهما أيضًا لم يراعيّا في موضوعات كتابيهما ترتيب المصحف المتلوّ اليوم، بل راعيا اعتبارًا آخر. وكذلك ينبغي أن يتناول المنع كتابكم الدّستور القرآنيّ في شؤون الحياة، فقد سلكتم فيه نحو طريقتكم في التّفسير من جمع طائفة من الآيات الكريمة في صعيد واحدة، ثمّ تفسيرها وبيان ما تلهمه من المعاني الكريمة.

فإن قيل: إنّ هناك فارقًا بين صنيعكم في الدّستور و صنيعكم في التّفسير؛ لأنّ الأوّل يمكن أن يجعل من باب التّأليف على اعتبار وحدة الموضوع التي ينظر فيها إلى مدلول الآيات فحسب، في حين أنّ النّظر في الثّاني متّجه إلى مراعاة التّزول فحسب.

فالجواب: فليجعل هذا أيضًا من باب وحدة الموضوع بين السّورة و السّورة من حيث زمن نزولها سابقةً أو لاحقةً. وللعلماء أقوال في صدد ترتيب السّور، وما إذا كان توقيفيًا أو اجتهاديًا. فقد ذكر السيوطيّ في كتابه: «الإنّتان» أنّ جمهور العلماء على الثّاني، منهم مالك و القاضي أبو بكر في أحد قوليه.

و ممّا استدلّ به على ذلك اختلاف مصاحف السّلف في ترتيب السّور - و الكلام للسيوطيّ - فمنهم من ربّتها على التّزول وهو مصحف عليّ، كان أوّل: (اقرأ ثمّ المدّثر ثمّ نون ثمّ المزمل ثمّ تبتّ ثمّ التّكوير، وهكذا إلى آخر المكيّ و المدنيّ. وكان أوّل مصحف ابن مسعود البقرة ثمّ النّساء ثمّ آل عمران، و كذا مصحف أبيّ و غيره. ثمّ ساق السيوطيّ رحمه الله بعد نحو صفحتين صورة عن التّرتيب الذي في مصحف أبيّ بن كعب و مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنهما. و قد قال شيخ الإسلام تقيّ الدّين أحمد بن تيمية: إنّ ترتيب السّور بالاجتهاد لا بالنّص في قول جمهور العلماء من الحنابلة و المالكيّة و الشّافعيّة، فيجوز قراءة هذه قبل هذه، و كذا في الكتابة. و لهذا تنوّعت مصاحف الصّحابة في كتابتها، نعتي لما اتّفقوا على المصحف في زمن عثمان صار هذا ممّا سنّه الخلفاء الرّاشدون، و قد دلّ الحديث على أنّ لهم سنّة يجب اتّباعها. و واضح كلّ الوضوح أنّ محلّ اتّباع هذه السنّة التي يجب اتّباعها إنّما هو في كتابة المصحف الذي يكون للتّلاوة لا في كتابة تفسير و شرح لمعاني الآيات و السّور الكريمة. فإنّ ذلك غير داخل في موضوع

اختلاف العلماء أو اتّفاقهم إطلاقاً، بل هم فيما روي متّفقون على سواغيته وجوازه، والله تعالى أعلم.

وقد استخرنا الله بعد أن تلقّينا هذين الجوابين من الأستاذين الجليلين، و عزمنا على السّير في الطّريقة المذكورة؛ لما لها من فوائد عظيمة دون أن يكون لها مساس بقُدسيّة ترتيب المُصحّف.

ولقد أورد السيوطي في كتاب «الإِتقان»^١ ترتيبات نزول للسُّور المكيّة والسُّور المدنيّة منسوبة إلى جابر بن زيد والحسن وعكرمة وابن عبّاس، و ترتيباً رابعاً لم يذكر صاحبه. ولقد اطلّعنا في مقدّمة: «تفسير الخازن» على ترتيب، وفي مقدّمة تفسير «مجمع البيان» على ترتيب آخر، وفي المُصحّف الَّذي كتبه الخطّاط الشّهير بـ «قُدُور أوغلي» - الَّذي طبع بتصريح من وزارة الدّاخلية المصريّة وإذن مشيخة المقارئ المصريّة من قبل عبد الحميد أحمد حنفيّ - ترتيب آخر أُشير إليه في رؤوس السُّور وبين هذه التّرتيبات السّبعة بعض التّخالف من ناحية التّقديم والتّأخير والمدنيّ والمكيّ، على أنّ الحقّ أن نقول: إنّهُ ليس في الإمكان تعيين ترتيب صحيح لنزول السُّور القرآنيّة جميعها، كما أنّه ليس هناك ترتيب يثبت بكامله على التّقّد أو يستند إلى أسانيد قويّة وثيقة. وزيادة على هذا فإنّ في القول بترتيب السُّور حسب نزولها شيئاً من التّجوّز، فهناك سور عديدة مكيّة ومدنيّة يبدو من مضامينها أنّ فصولها لم تنزل مرّة واحدة أو متلاحقة، بل نزلت بعض فصولها أولاً ثمّ نزلت بعض فصول سور أخرى، ثمّ نزلت بقيّة فصولها في فترات، وأنّ بعض فصول سور متقدّمة في التّرتيب قد نزلت بعد فصول سور متأخّرة فيه أو بالعكس، وأنّ فصول هذه السُّور قد أُلّفت بعد تمام نزول فصولها، وأنّ ترتيبها في التّزول قد تأثّر بفصلها أو فصولها الأولى، وأنّ بعض السُّور المتقدّمة في التّرتيب أولى أن تكون متأخّرة أو بالعكس، أو بعض ما روي مدنيّة من السُّور أولى أن يكون مكيّاً أو بالعكس، ممّا سوف ننبّه إليه في سياق تفسير كلّ سورة إن شاء الله.

ومع ذلك فإنّ هذا لا يعني أنّ التّرتيبات المستندة إلى روايات قديمة أو المنسوبة إلى

أعلام الصحابة والتابعين غير صحيحة كلها، أو أنها لا يصح التعويل عليها. فالقسم الأعظم من السور المكية نزل دفعة واحدة أو فصولاً متلاحقة، ولم تبدأ سورة جديدة حتى تكون السورة التي قبلها قد تمت. ومضامين سور عديدة مكية ومدنية تلهم أن كثيراً مما روي في ترتيب النزول صحيح أو قريب من الصحة، وكل ما يعنيه أن فيها ما يدعوا إلى التوقف، وأن الأمر يظل في حدود المقاربة والترجيح. ولهذا لم يكن ما يمكن أن يوجه من مآخذ إلى ترتيب نزول السور ليغير ما قرأنا عليه؛ لأننا رأينا على كل حال يظل مفيداً في تحقيق ما استهدفناه والمنهج الذي ترسمناه، وخاصة بالنسبة إلى فائدة تتنوع صور التنزيل القرآني مرحلة فمرحلة، والاستشعار بجو هذه الصور؛ حيث يكون ذلك أدعى إلى تفهم القرآن وحكمة التنزيل.

وقد اعتمدنا الترتيب الذي جاء في مُصْحَف الخطَّاط «قُدور أوغلي» المذكور قبل؛ لأنه ذكر فيه أنه طبع تحت إشراف لجنة خاصة من ذوي العلم والوقوف، حيث يتبادر إلى الذهن أن يكون أُشير إلى ترتيب فيه (السورة كذا نزلت بعد السورة كذا) بعد اطلاع اللجنة على مختلف الروايات والترجيح بينها. ولقد جاء في تعريف المُصْحَف «إنه كتب وضبط على ما يوافق رواية حَفْص بن سليمان بن المغيرة الأسدي الكوفي لقراءة عاصم بن أبي النجود الكوفي التابعي عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبي بن كعب، عن النبي ﷺ، وأخذ هجاؤه مما رواه علماء الرسم عن المصاحف التي بعث بها عثمان بن عفان إلى البصرة والكوفة والشَّام ومكة، والمُصْحَف الذي جعله لأهل المدينة، والمُصْحَف الذي اختص به نفسه، وعدَّ المصاحف المنتسخة عنها. أمَّا الأحرف اليسيرة التي اختلفت فيها أهجية تلك المصاحف فاتبع فيها الهجاء الغالب مع مراعاة قراءة القارئ الذي يكتب المُصْحَف لبيان قراءته ومراعاة القواعد التي استنبطها علماء الرسم من الأهجية المختلفة على حسب ما رواه الشيخان أبو عمرو الداني وأبو سليمان بن نجاح، مع ترجيح الثاني عند الاختلاف. والعمدة في ذلك على ما حققه الأستاذ محمد بن محمد الأموي الشريشي المشهور بالخرَّاز في منظومته (مورد الظَّمان)، وما قرَّرة شارحها المحقق الشيخ عبد الواحد بن

عاشر الأنصاريّ الأندلسيّ. وأخذت طريقة ضبطه ممّا قرّره علماء الضبط على حسب ماورد في كتاب «الطراز على ضبط الخراز» للإمام التَّنْيسِيّ، مع إبدال علامات الأندلسيّين و المغاربة بعلامات الخليل بن أحمد وأتباعه من المشاركة. و اتّبع في عدّ آياته طريقة الكوفيّين عن أبي عبد الرّحمان عبد الله بن حبيب السُّلَميّ، عن عليّ بن أبي طالب على حسب ما ورد في كتاب «ناظمة الزّهر» للإمام الشّاطبيّ و شرحها لأبي عبّيد رضوان المخلّلاتيّ، و كتاب أبي القاسم عمر بن عبد الكافي، و كتاب «تحقيق البيان» للأستاذ الشّيخ محمّد المتولّي شيخ القراء بالديار المصريّة سابقاً. وأخذ بيان مكّيّة ومدنيّة من الكتب المذكورة و كتاب أبي القاسم عمر بن محمّد بن عبد الكافي، و كتب القراءات والتفسير على خلاف في بعضها. وهذا هو ترتيب نزول السُّور على حسب ماورد في مطالع سور هذا المصحف... [راجع الجدول الرّقم ١٣ في آخر هذا الجزء].

ولقد رأينا مع ذلك أن يخالف ترتيب هذا المصحف بعض الشّيء، فسور العلق والقلم والمزمل والمدثر التي وردت فيه كالسُّور الأولى والثّانية والثالثة والرابعة بالتوالي ليست كذلك إلّا بالنسبة لمطالعها فقط على أحسن تقدير؛ حيث إنّ ما يأتي بعد هذه المطالع لا يمكن أن يكون نزل إلّا بعد نزول سور وفصول غيرها، على ما سوف نشرحه في سياق تفسيرها، في حين أنّ هناك رواية معزّوة إلى ابن عبّاس ومُجاهد تذكر أنّ سورة الفاتحة التي تأتي الخامسة في ترتيب التّزول هي أوّل ما نزل من القرآن. وهناك حديث أخرجه البَيْهَقِيُّ والوَاحِدِيُّ ووصف رجاله بالثّقات عن شُرْحُبِيل عن النَّبِيِّ ﷺ أنّ الفاتحة أوّل منازل من القرآن ولما كان هناك أحاديث صحيحة منها حديث رواه البخاريّ عن عاشة رضي الله عنها سنورده في سياق سورة العلق تذكر أنّ آيات سورة العلق الخمس الأولى هي أوّل آيات القرآن نزولاً، فيمكن أن تحمل رواية أوّليّة سورة الفاتحة على أنّها أوّل السُّور الثّامة نزولاً بعد مطلع سورة العلق و مطالع السُّور الثّلاث التّالية لها في التّرتيب و الفاتحة، بالإضافة إلى ذلك هي فاتحة المصحف، والواجب تلاوتها في كلّ ركعة صلاة، ولذلك رأينا أن تكون فاتحة التفسير أيضاً.

وهناك أربع سور ذكر المصحف الَّذي اعتمدها أنّها مدنيّة، وهي الزّلزلة والإنسان والرّحمن والرّعد، في حين أنّ مضمونها وأسلوبها مشابهان للسُّور المكّيّة دون السُّور

المدينة، وأنّ هناك روايات تذكر أنّها مكّيّة، ولذلك فسّرناها في عداد السُّور المكيّة. وهناك سور يمكن أن يلهم مضمونها أنّها نزلت قبل سور متقدّمة عليها في التّرتيب أو بعد سور متأخّرة عنها، فلم نشأ الإخلال بترتيبها، واكتفينا بالتّنبية إلى ذلك في مقدّمة كلّ سورة منها. (١٦-٨:١)

تعليق على روايات الآيات المدينة في السُّور المكيّة

وبمناسبة ذكر رواية مدنيّة الآيات المذكورة لأوّل مرّة نقول: إنّ هناك روايات عديدة عن وجود آيات مدنيّة في السُّور المكيّة. والمُصحف الَّذي اعتمدنا عليه يروي مدنيّة (١٤٧) آية في (٣٤) سورة مكّيّة، وهناك روايات تزيد في عدد الآيات، وأخرى تنقص منها.

والمتدبّر في الآيات يرى طابع العهد المكيّ وصوره وأحداثه بارزاً على معظمها، كما يرى انسجام معظمها انسجاماً تامّاً في السّياق والمضمون بل والنّظم مع ما قبلها وما بعدها، ولا يستبين الحكمة في وضعها لو كانت مدنيّة حقّاً بحيث يسوّغ الشّكّ والتّوقّف في صحّة الرّوايات التي تروي مدنيّتها وتروي أسباب نزولها في المدينة، إلّا إذا فرض أن تكون حكمة التّنزيل اقتضت تدعيم السّياق المكيّ بها، وهو فرض لا يمكن أن تطمئنّ النّفس به. ومن الجدير بالذّكر أنّ معظم الرّوايات ليست أحاديث نبويّة أو صحابيّة موثّقة ومسنّدة على أسلوب توثيق الأحاديث وإسنادها. ومما يرد على البال تعليلاً لها أنّ الآيات المكيّة ذكرت أو استشهد بها بمناسبة بعض أحداث جرت في المدينة، وكان بعضهم قد نسيها، فالتبس عليهم الأمر وظنّوها آيات مدنيّة.

والكلام ينطبق كما قلنا على معظم الآيات، وهناك بضعة آيات في بعض السُّور المكيّة تستثنى من ذلك؛ حيث يسوّغ طابعها ومضمونها الجزم بصحّة رواية مدنيّتها، وقد وضعت في السّياق المناسب لمضمونها على ما سوف نشرحه في مناسباتها. (١:٥٥)

الفصل السابع عشر

نص الشعراني (م: ١٣٩٣) في مقدّمة «تفسير منهج الصادقين»

[ترتيب سور القرآن]

إنّ سور القرآن ليست مرتّبة بحسب نزولها، فنها تبدأ بالفاتحة تتبعها السُّور الطُّوال، ثمّ تنتهي بالسُّور القصار. ومن يبغي ترتيبها بحسب النزول فعليه أن يرجع إلى سيرة النّبي وأحاديثه. كما أنّ الآيات في السُّور لم تكن مرتّبة بحسب النزول أيضاً، ولا يمكن ترتيبها طبق الأحاديث التّبويّة، كما أنّ ترتيبها ليس بحاجة ماسّة إلّا عند معرفة النّاسخ من المنسوخ في بضعة مواضع عرفت بالتّواتر. ولا يخفى أيضاً أنّ ترتيب الآيات في السُّور كان من فعل النّبي ﷺ بأمر من الله تعالى، فلا يتأتّى لأحد الاعتراض على النّبي ﷺ. وجاء في مجمع البيان «عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾:

هذه آخر آية نزلت من القرآن، وقال جبرائيل: ضعها في رأس الثمانين والمائتين من البقرة. وعلماء السيرة والحديث متفقون على أنّ سورة البقرة وسائر السُّور كانت مرتّبة في عهد النّبي ﷺ، وكان لكلّ سورة اسم؛ إذ كان النّبيّ يأمر بقراءة سورة كاملة في الصّلاة، أو يبيّن ثواب السُّور، أو يتحدّى من ينكر دينه بأن يأتي بسورة مثل سور القرآن، أو يأمر بوضع الآيات النّازلة المتأخّرة، في موضع كذا من سورة كذا، وكان المسلمون يدركون مرّماه؛ لأنّهم مطلّعون على السُّور.

وقد نُقل عن سعد بن عبد الله الأشعريّ قوله بأنّ عدم ترتيب القرآن بحسب النزول يدلّ على تصرّف المسلمين فيه. فإن صحّ نسبة هذا القول إليه فهو على غير صواب؛ لأنّ

المؤلف حُرِّف في ترتيب فصول كتابه بأيّ نحو كان. فقد ألّف الحاج الملاّ هادي السبزواريّ رحمه الله، المنطق قبل الفلسفة بزمان طويل في منظومته المشهورة، كما أفصح هو عن ذلك في كتابه المشهور، والحال أنّ الفلسفة ينبغي أن تقدّم على المنطق. وكذا فعلنا نحن؛ إذ لم نراع في تدوين مواضعنا في الرّسائل والكتب تاريخ الاستنباط والضبط، ويحدث أحياناً أن أضع لأسباب خاصّة موضوعاً كتبته قبل عشر سنوات في فصول أخيرة، وأُقدّم أحياناً فكرة عنّت لي قبل يوم واحد، وهذا ما يدركه كلّ من اشتغل في التّأليف والتّصنيف ولذا نستبعد أن يكون هذا القول قد صدر من سعد بن عبدالله؛ لأنّه مؤلّف يدرك هذه الحقيقة.

(١٧:١)

الفصل الثامن عشر

نص الشيخ أبي زهرة (م: ١٣٩٤) في كتابه: «المعجزة الكبرى»

المكي والمدني

كان نزول القرآن منجماً سبباً في أن بعضه نزل بمكة وبعضه نزل بالمدينة، فكان منه المكي ومنه المدني، فالمكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعد الهجرة، فما نزل بعد الهجرة ولو بمكة يسمى مدنيًا، وما نزل قبل الهجرة يسمى مكياً، فالتقسيم زمني وليس بمكاني، ليست العبرة بمكان النزول، إنما العبرة فيه بزمانه.

والآيات المكية فيها بيان العقيدة الإسلامية، وبطان عبادة الأوثان، ومجادلة المشركين، والدعوة إلى التوحيد، ومخاطبة العرب، وفيها قصص الأنبياء الذين جاءوا إلى بلاد العرب، ولهم آثار في أجزائها تنادي بما صنع أقوامهم، وما أصابهم الله تعالى بكفرهم من حاصب ومن خسف، جعل عالي ديارهم سافلها، ومن ربح صرصر عاتية. ولم يكن في الآيات المكية أحكام للمعاملات، وإن كان فيها إشارات إلى محرمات كالخمر والزنا، فقد قال تعالى مشيراً إلى أن الخمر أمر غير حسن: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^١. فإن هذا النص الكريم يشير إلى أن الخمر ليست أمراً حسناً؛ لأنه سبحانه وتعالى جعلها مقابلة للأمر الحسن، ولا يقابل الحسن إلا القبيح، وأعلى الأقل الأمر غير الحسن.

ولقد جاء أيضاً في سورة الروم ما يشير إلى أن الزنا أمر غير مستحسن فقد قال تعالى ﴿وَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ رَبٍّ لَّا لِزَبَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَزْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ

قَاوَلَنِكَ هُمُ الْمُضَعِفُونَ^١.

رإنَّ عدم وجود أحكام للمعاملات في مكَّة سببه أنَّ الدَّولة التي كانت قائمة كانت دولة شرك، وإنَّ من المستحيل أن تتفدَّ أحكام المعاملات الإسلامية في ظلِّها، وكان الإتيان الأوَّل إلى إخراجها من الشُّرك وإدخالها في التَّوحيد أوَّلًا، ثمَّ من بعد ذلك تكون الدَّولة الإسلامية المنفَّذة، ولكنَّ المحرَّمات كانت ثابتة من أوَّل تشريع الإسلام، وإن كان مسكوتًا عنها. فلم تكن موضع إياحة، بل كانت موضع سكوت وعفو حتَّى ينزل التشريع بتحريمها تحريمًا قاطعًا، فما كانت الخمر مباحة، ولكن كان مسكوتًا عنها، أو كانت في مرتبة العفو كما يقول علماء الأصول، حتَّى إذا كان المنع الصَّريح في المدينة، كان معه العقاب، وهكذا كلَّ ما كان مسكوتًا عنه لم يكن موضع إياحة.

ولما انتقل النَّبي ﷺ إلى المدينة كان التَّنظيم الكامل للمعاملات؛ لأنَّه وجدت دولة إسلامية فاضلة، تنظَّم العلاقات بين النَّاس، وتقوم على تنفيذها والقضاء بها، فنظَّم التَّعامل، وابتدأ بأعلى أنواع التَّعاون بين النَّاس، وهو الإخاء الَّذي آخى فيه النَّبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، بعضهم مع بعض، والمهاجرين بعضهم مع بعض. وشرَّعت النَّظم الاجتماعية، والمعاملات الإنسانية، من أحكام للبيع والمزارعات، وتحريم للرِّبويَّات وغيرها، وفرضية الصَّدقات وتنظيمها، وإعطاء الفقير حقَّه، والتَّنظيم الاجتماعيَّ الكامل، وشرَّعت الزَّواجر الاجتماعية من حدود وقصاص، وسنَّت الأحكام الفاصلة بين الحقوق، وفتح باب الجهاد، ووضعت نظم الحرب، وقامت العلاقات الدَّولية على أُسُس متينة محكمة، ويراعى فيها حقَّ العدوِّ، كما يلاحظ حقَّ الوليِّ على سواء؛ لأنَّ المبادئ المدنية في الإسلام قامت على إعطاء كلِّ ذي حقَّ حقَّه من غير بخس ولا شطط، ولا مجاوزة للحدِّ ولا اعتداء.

و يلاحظ أنَّ مبادئ العدالة جاءت مع وجود الشريعة الإسلامية، وقد دعا إليها القرآن الكريم في مكَّة والمدينة؛ لأنَّ العدالة حقَّ ابتدائي لا يختلف في دولة عن دولة، فهو يتعلَّق بالنَّفْس الإنسانية في ذاتها.

فالأمر بالعدالة والإحسان، والوفاء بالعهد جاء في سورة النحل، وهي مكية عند نظر الأكثرين؛ لأن الله تعالى يقول فيها وهو أحكم القائلين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ - إلى قوله - أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۖ

ولقد أحصى القُزطُبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» السُور المدنيّة، فقال: عن قتادة: نزل بالمدينة من القرآن البقرة وآل عمران و... [وذكر كما تقدّم عن السيوطي، ثم قال:]
ويلاحظ أنّه جعل سورة النحل من السُور المدنيّة، ولكنّ المذكور في المصاحف التي بين أيدينا أنّها مكيّة، ولعلّ فيها روايتين. (ص: ٢٤ - ٢٦)

ونصّه أيضًا في «المكية ونظريّة العقد في الشريعة الإسلامية»

القرآن الكريم هو معجزة النبي ﷺ الكبرى، نزل به الرّوح الأمين على النبي ﷺ في ثلاثة وعشرين عامًا منجمًا، تنزل عليه الآية أو الآيات لما يناسبها من موضع لدعاية، أو مقام لهداية، أو أحداث اجتماعيّة، لتكون تلك الأحداث مبيّنة لمرماها، وليكون الناس على بينة من حكمة الشريعة فيها، وليكون المؤمنون أكثر إقبالاً عليها، إذ تنزل وقت الحاجة إليها. وكثيرًا ما كانت تنزل الآية بعد تكرار السّؤال في موضوعها، فيكون معناها متمكّنًا في النفس فضل تمكّن.

وفي القرآن سور مكيّة وأخرى مدنيّة، فالمكيّة ما نزلت بمكة، والمدنيّة ما نزلت بالمدينة، والسُور المكيّة تتصدّى في أكثر ما تتصدّى له لبيان الأصول الأولى للإسلام، فتبيّن العقيدة الإسلاميّة، وأساس الوجدانيّة، وتجادل المشركين، ثمّ تبيّن بعض العبادات التي تؤكّد عقيدة التّوحيد وتثبيتها في القلوب، ولا تتصدّى إلّا قليلًا لبيان الشّرائع التي تنظّم المدينة والأسرة، وتربط الجماعة الإنسانيّة بأواصر من المودة والرّحمة وحكمة ذلك جليّة واضحة، فإنّ المسلمين الأوّلين كانوا مستضعفين في الأرض يسامون الخسف، ويلاقون الحتف، وهم يلاحون المشركين، ويناضلونهم بسهام من الحجج لإثبات

التَّوْحِيدَ و بطلان الشَّرْكَ، و تنزيه النَّفس عن بوائِق الجاهليَّة و أدْران الوثنيَّة، و لم تكن قد تكوَّنت منهم وحدة اجتماعيَّة تستقلُّ بشئون نفسها، و يشرع لها من النَّظْم ما تسير عليه و تحكم به، حتَّى إذا هاجر النَّبيُّ إلى المدينة، و كان من المسلمين جماعة مستقلَّة بأُمورها، لها وحدة جامعة، و شوكة و قوَّة نزلت الآيات القرآنيَّة المنظَّمة لهذا الاجتماع الرِّابطة بين آحاده، فكانت لهذا السُّور المدنيَّة مشتملة على الشُّرائع و الأحكام، لتتكوَّن بها من هذه الجماعة المدينة الفاضلة الَّتِي كانت أُمِّيَّة المصلحين و المفكرِّين، لذلك نقول: إنَّ أكثر شرائع القرآن كانت بالمدينة؛ لأنَّ أكثر آيات الأحكام نزل بالمدينة.

و ليست التَّفَرُّقَةُ بين المكيِّ و المدنيِّ من سُور القرآن الكريم معناها أنَّهما قسمان متقابلان أو نوعان متغايران، بل إنَّهما يكوَّنان وحدة متلاقية متناسبة الأجزاء، و أنَّ المكيَّ أصل ينبنى عليه المدنيُّ، أو المكيُّ ابتداء و نهايته المدنيُّ، و لقد قال الشَّاطِبيُّ في موافقاته^١: إنَّ المدنيِّ من السُّور ينبغي أن يكون منزلاً في الفهم على المكيِّ... [و ذكر كما تقدَّم عن القاسميِّ ثم قال:]

و كأنَّ الشَّاطِبيُّ يرمي بهذا القول إلى تقرير حقيقة ثابتة، و هي أنَّ القرآن مترابط الأجزاء، بعضه أخذ بحجز بعضه إلى غاية واحدة، و هو متماسك بعُروة واحدة، هي إصلاح النَّاس في معاشهم، و إقامة بنيانهم على دعامة من الفضيلة و الرَّحمة، و هو في هذا يسير سير التَّدَرُّج و التَّنَقُّل من المألوف إلى غيره، و لا يصار إلى الثَّاني حتَّى تستأنس النَّفس به و تسكن إليه.

و لقد يبدو بادي الرَّأي أنَّ القرآن الكريم غير متَّصل الأجزاء اتِّصالاً منطقيًّا، كما يبدو في الكُتُب الَّتِي يؤلِّفها النَّاس، و لكن من المؤكَّد الَّذي لا ريب فيه عند الَّذِينَ يفقهون ما ينبغي للمصلح أن يسلكه أنَّ القرآن مرَّتَّب مسلسل من النَّاحية الإجماعيَّة الإصلاحيَّة، فهو قد عالَج نفوس العرب من شماسها، طَبَّ لها بما أخرجها عن شكاسها، و كانت الآيات تنزل في المناسبات مصلحة أو معالجة عندما يجدي العلاج، و هي تعطي للمدرك الأريب صورة المصلح كأنَّه الطَّبيب البارِع، يحمل المبضع عندما يشتدُّ ألم

الفرحة، ويهون بجواره ألم البضع^١ فالآيات القرآنية مترابطة من حيث إصلاحها، تنزل الآية لإصلاح حال قد حان حينه وجاء إتيانه، وهي تسير في هذا بخطوات متلاحقة كل خطوة متممة لسابقتها، وممهدة للاحقها. حتى إذ تمّ نزوله كملت الشريعة، وكان بين يدي الناس وحدة كاملة فيها إصلاح للناس، فيها هداهم، وفيها أصول لأكمل الشرائع، ولقد صدق الله تعالى؛ إذ يقول في آخر آية نزلت: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^٢ (٩-٧)

١ - والمثال الحيّ لذلك آيات الخمر، نبه أولاً في وفق إلى إثمها، ثم نهى عن قربان الصلاة والشخص سكران، حتى إذا أنسوا بالامتناع، وأرهف إحساسهم، فأدركوا مسلوبها، حتى لقد قال قائلهم: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، نزل النهي القاطع: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ...﴾ إلخ.

الفصل التاسع عشر

نص العلامة الطباطبائي (م: ١٤٠٢) في «تفسير الميزان»

ترتيب السور نزولاً

[بعد أن حكى رواية ابن عباس نقلاً عن السيوطي حسب ما تقدّم عن المباني قال:]
وقد سقطت من الرواية سورة فاتحة الكتاب، وربما قيل: أنها نزلت مرّتين، مرّةً بمكة و مرّةً بالمدينة.

ونقل فيه عن البيهقي في «دلائل النبوة» أنّه روى بإسناده عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن، قالوا: أنزل الله من القرآن بمكة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وساقا الحديث نحو حديث عطاء السابق عن ابن عباس، إلّا أنّه قد سقط منه الفاتحة والأعراف وكهيعص ممّا نزل بمكة. وأيضاً ذكر فيه حمّ الدخان قبل السجدة، ثمّ إذا السماء انشقت قبل إذا السماء انفطرت، ثمّ ويل للمطففين قبل البقرة، ممّا نزل بالمدينة، ثمّ آل عمران قبل الأنفال، ثمّ المائدة قبل الممتحنة.

ثمّ روى البيهقي بإسناده عن مجاهد، عن ابن عباس أنّه قال: إنّ أوّل ما أنزل الله على نبيّه من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ الحديث. وهو مطابق لحديث عكرمة في الترتيب، وقد ذكرت فيه السور التي سقطت من حديث عكرمة فيما نزل بمكة.
وفيه عن كتاب «التاسخ والمنسوخ» لابن حصار أنّ المديني باتّفاق عشرون سورة والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك مكّي باتّفاق، انتهى.

والذي اتّفقوا عليه من المدينيات البقرة و آل عمران والنساء والمائدة والأنفال والنوبة والتور والأحزاب وسورة محمد والفتح والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والمنافقون والجُمعة والطلاق والتحرّيم والنصر.

وما اختلفوا في مكّيته ومدنيّته سورة الرّعد والرّحمن والجنّ والصفّ والتّغابن والمطفّفين والقدر والبيّنة والزّلزال والتّوحيد والمعوذتان.

وللعلم بمكّيّة السّور ومدنيّتها ثمّ ترتيب نزولها أثر هامّ في الأبحاث المتعلّقة بالدّعوة النّبويّة وسيرها الرّوحيّ والسّياسيّ والمدنيّ في زمنه ﷺ وتحليل سيرته الشّريفة، والرّوايات - كما ترى - لا تصلح أن تنهض حجّة معتمداً عليها في إثبات شيء من ذلك، على أنّ فيما بينهما من التّعارض ما يسقطها عن الاعتبار.

فالطّريق المتعيّن لهذا الغرض هو التّدبر في سياق الآيات، والاستمداد بما يتحصّل من القرائن والأمارات الدّاخلية والخارجية، وعلى ذلك نجري في هذا الكتاب، والله المستعان. (١٣: ٢٣٣)

و نصّه في كتابه: «القرآن في الإسلام»

ترتيب نزول السّور

لاشكّ أنّ السّور والآيات القرآنيّة لم تثبت في القرآن على ترتيب نزولها على الرّسول ﷺ وعلماء الإسلام الماضون، وخاصّة أهل السنّة منهم، كانوا يعتمدون في ترتيب السّور والآيات على ما جاء في الأثر، ومن جملة الآثار المذكورة بهذا الشّأن حديث مرويّ عن ابن عبّاس أنّه قال: إذا نزلت فاتحة سورة بمكّة... [ثمّ ذكر ترتيب السّور حسب ما تقدّم عن صاحب المباني في الرّواية الثّانية]

نظرة في الحديث والأحاديث الأخرى

يحدّد الحديث المنقول عن ابن عبّاس عدد السّور القرآنيّة في (١١٣) سورة كما رأيته، ولم يذكر سورة الفاتحة من ضمنها.

وفي حديث رواه البيهقيّ عن عكرمة يحدّد عدد السّور في (١١١) سورة، ولم يذكر فيه سورة الفاتحة والأعراف والشّورى، كما أنّه روى حديثاً آخر عن ابن عبّاس ذكر فيه (١١٤) سورة، إلّا أنّ الرّوايتين اعتبرت - أولاً - سورة المطفّفين من السّور المدنيّة، بخلاف

الحديث السابق الذي ذكر سورة المطففين أنها مكّيّة. اختلف - ثانيًا - ترتيب السور فيها مع ما ذكرناه سابقًا.

وروي حديث آخر عن عليّ بن أبي طلحة يقول فيه: نزلت بالمدينة سورة البقرة وآل عمران... [وذكر كما تقدّم عن السيوطي، ثم قال:]

الظاهر أنّ هذا الحديث يريد التفرقة والتّمييز بين السّورة المكيّة والمديّنة من دون النّظر إلى ترتيب النّزول؛ لأنّ سورتي المائدة والتّوبة بلا شكّ تقعان في التّرتيب بعد ما هو مذكور بكثير، وقد عدّد سورة الفجر واللّيل والقدر من السّور المديّنة، بينما الأحاديث السابقة عدّتها من السّور المكيّة، كما أنّه جعل سورة الرّعد والرّحمن والإنسان والجُمعة والحجرات مكّيّة، وهي مديّنة في الأحاديث السابقة.

وفي حديث عن قتادة أنّه قال: نزل في المدينة من القرآن البقرة... [وذكر كما تقدّم عن السيوطي، ثم قال:]

هذا الحديث يخالف الأحاديث السابقة وخاصّة - حديث آخر مروى عن قتادة نفسه - في سورة المطففين والإنسان ولم يكن.

والذي يمكن أن يقال في هذه الأحاديث: إنّها لا يمكن الإعتماد عليها بوجه من الوجوه؛ لأنّه ليس لها قيمة الأحاديث الدّينيّة ولا قيمة النّقول التّاريخيّة. أمّا أنّها ليس لها قيمة الأحاديث الدّينيّة فلاّنها لم يتّصل سندها بالنّبيّ ﷺ، ولم يعلم أنّ ابن عبّاس مثلاً تعلّم التّرتيب من النّبيّ أو من إنسان آخر أو هو اجتهدايّ نظريّ. وأمّا من الوجهة التّاريخيّة فلاّ أنّ ابن عبّاس مثلاً أدرك مدّة قصيرة من حياة الرّسول، فلم يكن معه دائماً حتّى يشاهد كيفيّة نزول كلّ السّور والآيات، فلو لم يكن اجتهد في هذا التّرتيب فلاّ بدّ أنّه نقله من إنسان آخر لم نعلم شخصه، فهذا نقل تاريخيّ لم يذكر فيه المصدر، فليس له قيمة في سوق التّحقيق.

و على فرض صحّة هذه الأحاديث واستقامتها فهي من قبيل الخبر الواحد، وقد ثبت في أصول الفقه أنّ الخبر الواحد غير حجّة في ما عدا الفقه. فإذا الطّريقة الوحيدة لمعرفة المكيّ والمديّني هو التّدبر في الآيات، والنّظر في مدى

موافقتها لما جرى قبل الهجرة أو بعدها هذه الطريقة مفيدة إلى حد ما للتمييز بين المكي والمدني، فإن مضامين سورة الإنسان والعاديات والمطففين تشهد بأنها مدنية بالرغم من أنها ذكرت في بعض الأحاديث على أنها مكية. (١٦٤ - ١٦٥)

كيف نزلت الآيات؟

لم تنزل سور القرآن وآياته دفعةً واحدةً. وبالإضافة إلى اتّضح الموضوع من التاريخ الذي يشهد بالتّزول طيلة ثلاث وعشرين سنة، فإن الآيات نفسها شاهدة على ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾^١ وفي القرآن النَّاسِخَ والمنسوخَ بلاشكّ، وفيه أيضاً آيات تدلّ على قصص وأحداث لا يمكن جمعها في زمن واحد لنذهب إلى وحدة زمن التّزول.

و الآيات و السور القرآنية لم تنزل قطعاً على الترتيب الذي نقرأه في القرآن اليوم، بأن تكون أولاً سورة الفاتحة ثم سورة البقرة ثم سورة آل عمران ثم سورة النساء وهكذا؛ لأنّه بالإضافة إلى الشواهد التاريخية على ذلك فإن مضامين الآيات نفسها تشهد عليه، لأنّ بعض السور والآيات لها مضامين تناسب أوائل زمن البعثة، وهي واقعة في أواخر القرآن كسورة العلق والتّون، وبعضها تناسب ما بعد الهجرة وأواخر عصر الرّسول، وهي واقعة في أوائل القرآن كسورة البقرة وآل عمران والنساء والأنفال والتّوبة.

إنّ اختلاف مضامين السور والآيات وارتباطها الكامل بالأحداث والحوادث التي وقعت طيلة أيام الدّعوة يفرض علينا القول بأنّ القرآن نزل في ثلاث وعشرين سنة عصر الدّعوة النبويّة.

فمثلاً الآيات التي تدعو المشركين إلى الإسلام ونبذ عبادة الأوثان تناسب مع عصر قبل هجرة الرّسول من مكّة؛ حيث ابتلي الرّسول بالوثنيين. وأمّا آيات القتال وآيات الأحكام فقد نزلت في المدينة المنورة؛ حيث أخذ الإسلام ينتشر، وأصبحت المدينة تشكّل حكومة إسلاميّة كبرى.

بعد البحث السابق أقسام الآيات و السور القرآنية |

بناء على بحث السابق تنقسم الآيات و السور القرآنية إلى أقسام حسب اختلاف محل النزول و زمانه و أسبابه و شروطه، وهي:

- ١- بعض السور و الآيات مكّية و بعضها مدنيّة، فإنّ ما نزل قبل هجرة الرّسول من مكّة يعتبر مكّيّاً، وهو القسم الأكبر من السور و على الأخصّ السور القصيرة، و ما نزل بعد هجرة الرّسول يسمّى مدنيّاً، و لو كان نزولها خارج المدينة، و حتّى لو كان في مكّة نفسها.
- ٢- بعض السور و الآيات نزلت في السّفَر و بعضها في الحضر، و هكذا تنقسم إلى منازل بالليل أو النّهار، أو ما نزل في الحرب أو في السّلم، أو ما نزل في الأرض أو في السّماء، أو ما نزل بين النّاس أو في حال الانفراد. و سنبحث عن فائدة معرفة هذه الأقسام في فصل «أسباب النزول».

- ٣- نزلت بعض السور مكرّراً كما يقال في سورة الفاتحة؛ حيث نزلت في مكّة و المدينة، كما أنّ بعض الآيات نزلت مكرّراً كآية: ﴿فَبَآئِيَ الْأَيْمَانُ أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾؛ حيث تكرّرت في سورة الرّحمن ثلاثون مرّةً، و آية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ و إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ^١ حيث كرّرت في سورة الشعراء ثمان مرّات. و قد تكرّرت بعض الآيات في أكثر من سورة واحدة كآية: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٢ حيث كرّرت في ستّ سور مختلفة.

و هكذا نجد جملة خاصّة هي آية كاملة في مكان و جزء آية في مكان آخر، نحو ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^٣، فجعلت في أوّل سورة آل عمران آية كاملة، و في سورة البقرة جزء من آية الكرسيّ. و لكن مع هذا كلّ أكثر السور و الآيات نزلت مرّةً واحدة فقط. و علّة هذا الاختلاف هي اختلاف ما يقتضيه البيان، ففي موضع يقتضي تكرار الجملة للتنبيه مثلاً، و في موضع لا يقتضي ذلك.

١ - الشعراء / ١٣٩، ١٤٠.

٢ - يونس / ٤٨، الأنبياء / ٣٨، التّمل / ٧١، سبأ / ٢٩، يس / ٤٨، الملك / ٢٥.

٣ - البقرة / ٢٥٥.

و يشبه هذا الاختلاف الاختلاف الموجود بين السور والآيات في الطول والقصر،
فإلى جانب سورة الكوثر أقصر السور نجد سورة البقرة أطولها، كما نرى آية
«مُدْهَامَتَانِ» أقصر آية إلى جانب آية الدين - وهي الآية (٢٨٢) من سورة البقرة - أطول
آية في القرآن.

كل هذه الاختلافات لمقتضيات بيانية، وربما نجدها آيتين متصلتين أيضاً،
كالآيتين (٢٠) و (٢١) من سورة المدثر مثلاً، فإن الأولى جملة واحدة، والثانية أكثر من
خمس عشرة جملة.

ومن وجوه الاختلاف أيضاً ما نجده عند المقارنة بين السور والآيات في الإيجاز
والإطناب، كما يتبين ذلك عند مقابلة أمثال سورة الفجر وسورة الليل بأمثال سورة البقرة
والمائدة، والغالب في السور المكيّة الإيجاز، كما أن الغالب في السور المدنيّة الإطناب.
ومن هذا القبيل ما يقال بأن أول ما نزل على الرسول ﷺ هو سورة العلق أو خمس
آيات الأولى منها بالقياس إلى آخر ما نزل عليه ﷺ وهو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ
فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^١ (١٥١ - ١٥٤)

الفصل العشرون

نص الخِضْرِيّ (معاصر) في «تاريخ التشريع الإسلامي»

التشريع في حياة رسول الله ﷺ الكتاب والسنة

الكتاب هو القرآن وهو أجلّ من أن يعرف. أنزل على محمد ﷺ منجّماً من ليلة السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده حيث أوحى إليه من غار جِراء الذي كان يتحنّث فيه: **أَوَّل آيَةٍ وَهِيَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ - إِلَى مَا لَمْ يَعْلَمْ**^١ إلى تاسع ذي الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة والثالثة والستين من ميلاده، حيث أوحى إليه بآخر آية وهي: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾**^٢ فالمدة بين مبتداء التنزيل ومختمه اثنتان وعشرون سنة وشهران واثنا وعشرون يوماً. [إلى أن قال:]

وعهد نزول القرآن ينقسم إلى مدّتين متمايزتين

الأولى - مدّة مقامه ﷺ بمكة، وهي اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً من ١٧ رمضان سنة ٤١ إلى أوّل ربيع الأوّل سنة ٥٤ من ميلاده، ومانزل من القرآن فيه يقال له المكّي.

الثانية - ما بعد الهجرة وهي تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيّام من أوّل ربيع الأوّل سنة ٥٤ إلى تاسع ذي الحجة سنة ٦٣ من ميلاده وسنة عشر من الهجرة، ومانزل من القرآن فيها يقال له المدني، ومكّي القرآن نحو $\frac{19}{30}$ منه، ومدنيّه نحو $\frac{11}{30}$ منه.

و السُّور المدنيّة هي:

(١) البقرة (٢) آل عمران (٣) النساء (٤) المائدة (٥) الأنفال (٦) التوبة (٧) التّور
(٨) الأحزاب (٩) القتال (١٠) الفتح (١١) الحُجُرات (١٢) الحديد (١٣) المجادلة
(١٤) الحشر (١٥) الممتحنة (١٦) الصّفّ (١٧) الجمعة (١٨) المنافقون (١٩) التّغابن
(٢٠) الطّلاق (٢١) التّحريم (٢٢) إذا جاء نصر الله. وما عدا ما ذكر فهو مكّيّ.
و مجموع القرآن أربع عشرة و مائة سورة أوّلها الفاتحة و آخرها التّاس...

مميّزات المكيّ و المدنيّ

قدّمنا أنّ لنزول القرآن مدّتين: ما قبل الهجرة، و ما بعدها، ولكلّ من المكيّ و المدنيّ
مميّزات متى عرفها المتعلّم أمكنه التّمييز بينهما، منها:
أولاً - أنّ آيات المكيّ على الجملة قصار بخلاف الآيات المدنيّة. و شاهد ذلك أنّ
السُّور المدنيّة تزيد قليلاً على $\frac{11}{3}$ من القرآن، و عدد آياتها ١٤٥٦ أي أنّها تزيد قليلاً على
ربع مجموع آياتها. و من الأمثلة القريبة على ذلك جزء (قد سمع) كلّهُ مدنيّ و عدد
آياته ١٣٧، و جزء (تبارك) مكّيّ و عدد آياته ٤٣١، و جزء (عمّ) مكّيّ و عدد آياته ٥٧٠.
و من ذلك الأنفال و الشعراء كلتاها نصف جزء من القرآن لكنّ الأولى المدنيّة عدد
آياتها ٧٥، و الثانية المكيّة عدد آياتها ٢٢٧. وهذا المميّز أغلبيّ، فقد يوجد في بعض
الآيات المكيّة طول و أكثره في السُّور الطّوال.

ثانياً - خطاب الجمهور في الآيات المدنيّة يغلب أن يكون بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و قلّما يرد بقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، و أمّا خطابه في الآيات المكيّة فبالعكس،
و لم نر في السُّور المكيّة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أمّا في السُّور المدنيّة فورد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾
سبع مرّات ١- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ ٢- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا
طَيِّبًا﴾ كلتاها بالبقرة. ٣- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ ٤- ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ٥-
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ٦- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ
رَبِّكُمْ﴾ بالنساء ٧- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أَنْثَى﴾: بالحجرات.

ثالثاً - آيات المكيّ ليس فيها شيء من التّشريع التّفصيليّ، بل معظم ما جاء فيها
يرجع إلى المقصد الأوّل من الدّين و هو توحيد الله سبحانه و تعالى و إقامه البراهين على

وجوده و التحذير من عذابه و وصف يوم الدين و أهواله و نعيمه و الحث على مكارم الأخلاق التي بعث رسول الله ﷺ ليكملها ثم ضرب الأمثال بما أصاب الأمم الماضية حينما خالفت ما دعاها إليه أنبياءها.

أما التشريع التفصيلي فمعظمه وارد في الآيات المدنية. و القرآن الكريم ينتظم في ثلاثة أمور:

الأول - ما يتعلق بالإيمان بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر. وهذا مباحث علم الكلام أو أصول الدين.

الثاني - ما يتعلق بأفعال القلوب و الملكات من الحث على مكارم الأخلاق و هذه مباحث علم الأخلاق.

الثالث - ما يتعلق بأفعال الجوارح من الأوامر و النواهي و التخيرات و هذه مباحث الفقهاء.

أساس التشريع الإسلامي في القرآن

أعلن القرآن أنه إنما أنزل لإصلاح أحوال الناس و لذلك وردت الأوامر و النواهي ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْغَبَائِثَ﴾^١. و قد روعي في التشريع ثلاثة أساس:

الأول - عدم الحرج. الثاني - تقليل التكاليف. الثالث - التدرج في التشريع.

عدم الحرج

الحرج في لغة العرب الضيق. و الأدلة على أن هذه الشريعة مؤسسة على رفع الحرج كثيرة كقوله تعالى في وصف الرسول ﷺ ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^٢. و قوله فيما علمنا أن ندعوه به: ﴿وَبَنَّا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾^٣ وَبَنَّا وَلَا تَحْمِلُنَا مَالًا طَاقَةً لَّنَا بِهِ^٤ و في الحديث: قال الله تعالى «قد فعلت» و

كقوله تعالى: ﴿لَا يَكْفُلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^١ وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^٢ وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^٣ وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^٤ وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمُ مِنْ حَرَجٍ﴾^٥ وفي الحديث «بعثت بالحنيفية السمحة» وفي شمائله عليه السلام «ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً» إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث. وقد عدّه الفقهاء أصلاً من الأصول التي اعتبرها الشارع واستنبطوا به أحكاماً كثيرة وهو من الأصول المقطوع بها. ومن أجله شرّعت الرّخص كالفطر للمسافر، وإباحة ما حرم عند الضرورة والتّيمم.

تقليل التكاليف

هو نتيجة لازمة لعدم الحرج، لأنّ في كثرة التكاليف إحراجاً. والذي يشتغل بالقرآن ليرى مافيه من الأوامر والنّواهي يقتنع بصحّة هذا الأصل إذ يراها قليلة يمكن العلم بها في قليل من الزّمن ويسهل العمل بها وليست كثيرة التفاصيل حتّى لا ينشأ من كثرتها إخراج الذين يريدون الاعتصام بكتاب الله المتين. ومما يدلّ على ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَلْكُمْ تَشْكُمُ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَلْ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ^٦ وهذه المسائل التي نهوا عنها أشياء عفا الله عنها أي سكت عن تحريمها فيكون سؤالهم عنها سبب تحريمها ولولم يسألوا عنها لكانت عفواً متروكاً لهم الخيار في فعلها أو الكفّ عنها، ومن ذلك قوله عليه السّلام وقد سئل عن الحجّ: «أفي كلّ عام؟» فقال: «لو قلت نعم لوجبت، ذروني ما تركتكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم» ويدلّ على هذا التّأويل قوله عليه السلام: «أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته» وقوله عليه السلام: «إنّ الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحدّ حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت

١ - البقرة / ٢٨٦.

٢ - البقرة / ١٨٥.

٣ - الحج / ٧٨.

٤ - النّساء / ٢٨.

٥ - المائدة / ٦.

٦ - المائدة / ١٠١ - ١٠٢.

عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها».

التدرّج في التشريع

جاء النبي ﷺ والعرب قد استحكمت فيهم عادات منها ما هو صالح للبقاء ولا ضرر منه على تكوين الأمة، ومنها ما هو ضارّ يريد الشارع إبعادهم عنه. فاقترضت حكمته أن يتدرّج بهم شيئاً فشيئاً لبيان حكمه وإكمال دينه. والمتأمل لا يرى في الآخر إبطالاً للأوّل ويظهر ذلك من المثل الآتي: سئل رسول الله ﷺ عن الخمر والميسر وهما من العادات المستحكمة عندهم، فأجابهم بلسان القرآن في سورة البقرة ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾^١ ولم يصرح بطلب الكفّ عنهما وإن كان يفهمه من هذه الآية، فقيه النفس العالم بسرّ التشريع، لأنّ ما كثر إثمه حرم فعله، إذ لا يوجد في الأفعال ما هو شرّ محض، فالمدار في التحليل غلبة الخير على الشرّ، ثمّ صرّح بنهيهم عن الصلّة وهم سكارى حتّى يعلموا ما يقولون فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^٢، وليس في هذا التّهيّ إبطال للأوّل بل هو مؤكّد له. ثمّ قال مصرّحاً بالنّهي بتأّللحكم فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجُسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ - إِلَى أَنْ قَالَ: - فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾^٣.

وعلى أصل التدرّج في التشريع وجد أصل آخر وهو الإجمال ثمّ التفصيل، ويرى هذا واضحاً من المقارنة بين التشريع المكي والمدنيّ فالتشريع المكيّ مجمل قلّما يتعرّض القرآن فيه لأحكام تفصيليّة. أمّا التشريع المدنيّ فقد تعرّض القرآن فيه لكثير من التفصيلات التشريعيّة بالنسبة للمكيّ، ولا سيّما فيما يتعلّق بالمعاملات المدنيّة، ولذلك نرى أنّ معظم الآيات التي تستنبط منها الأحكام مدنيّة، وليس في المكيّ إلاّ الأحكام التي تحمي العقيدة كتحرّيم مالم يذكر عليه اسم الله من الذبائح. (ص: ٧-١٩)

الفصل الحادي والعشرون

نصّ الأُشَيْقِرْ (معاصر) في «لمحات من تاريخ القرآن»

القرآن المكيّ والقرآن المدنيّ

لاشكّ وأنه لم يقتصر نزول القرآن الكريم على مكان واحد ولا بلد واحد، فهناك آيات نزلت في مكة المكرمة وأخرى نزلت في المدينة، وغيرها هبطت في الجُحفة والطائف والحُدَيْبِيَّة وخُم وغيرها من الأماكن.

وفي سبيل دراسة وفهم وشرح هذه الآيات للناس وتلمّس أمكنة نزولها وأسبابها وأغراضها، وتاريخ الحوادث التي عرض لها القرآن وضعت، أو بقول آخر وجدت هناك قواعد وضوابط مختلفة تشبه تلك التي نجدها في اللغة العربيّة، ودعت إلى تقسيم الجُمْل والأفعال إلى عدّة أقسام، أو تلك التي نراها في عالم الكيمياء، ودعت لتقسيم المعادن إلى فلزّات وغير فلزّات (لافلزّات)، والموادّ إلى صلبة وسائلة وغازية.

وكلّ هذه التّقسيمات الآنفة وغيرها إنّما وجدت من أجل سهوله دراستها وتفهمها وبأقلّ ما يمكن من العناء والجهد.

وهكذا الحال في آيات القرآن الكريم حَذُو الْقِدَّة بِالْقِدَّة، حيث وجدت فيه آيات مكيّة ومدنيّة وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه ومطلق ومقيّد عامّ وخاصّ الخ، سنشير إلى بعضها في هذا الفصل والفصول التّالية.

فيلزم والحالة هذه على المفسّر للقرآن أو الشّارح له والخائض فيه أن يلمّ بكلّ هذه الأمور والأحوال بتقسيماتها وتشعباتها وفروعها، ويستوعبها عن كشب، ويفهم أغراضها ومقاصدها قبل أن يشرّع في كتابته عن القرآن، أو أن يبدأ في تدوين شيء عنه. إنّ عدم التّقيّد حرفيًّا بكلّ هذا سيؤدّي بالمرء لأنّ ينحرف عن الحقيقة، ويخطئ في

الأحكام خبط عشواء، و سيقعه في التناقضات والبعد عن الحق والصواب. و كمثل بسيط على هذا الانحراف والشطط والبعد عن الحق والواقع و خلط الآيات المكيّة في المدنيّة - قبل أن تأتي على تفصيلها - هو قول من يقول بنسبة هذه الآية و هي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^١.

أجل، نسبة و إلصاق هذه الآية من سورة التوبة، والتي هي سورة المدنيّة نزلت في السنة الثامنة من الهجرة، تعدّ من أواخر ما نزل من القرآن - كما مرّ سابقاً^٢ - نسبتها إلى أبي طالب - عمّ الرسول ﷺ، و ادّعاه أنها نزلت حال وفاته و استغفار الرسول نفسه له. و سنعرف الآن مدى بُعد هذه النسبة و هذا الزعم عن الحقيقة إذا ما علمنا بأن وفاة أبي طالب كانت قبل الهجرة بثلاث سنوات أو أكثر، و أن بين وفاته و بين نزول هذه الآية أكثر من إحدى عشرة سنة.

هذا بالإضافة إلى الدلائل القاطعة التي تشير إلى إيمان أبي طالب، و أنّه قد تظاهر بوجه قريش بعدم إسلامه كمؤمن آل فرعون، و ذلك لحكمة بالغة، و هي المحافظة على الرسول و عدم السماح للقرشيين بالقضاء عليه و على الدّعوة الجديدة النامية. و مصداق كلّ ذلك تجلّى واضحاً بعد وفاته؛ حيث بات موقف الرسول ﷺ و أصحابه قلقاً و ضعيفاً، ممّا دعاه للتفكير بالهجرة إلى المدينة بعد أن مات في مكّة الناصره ﷺ و المعين الممثل في عمّه أبي طالب رحمه الله.

ولذا و لكلّ مامرّ من كلام و بيان حرص أقطاب أهل البيت و الصحابة و التابعين والفقهاء على دراسة موضوعيّة، و كشف أوجه التمييز و الفروق بين المكيّ من الآيات والمدنيّ، و التأسخ منها و المنسوخ، و المحكم من المتشابه الخ...، فضلاً عن تلمّس أسباب التزول و خصائص و مميّزات كلّ منها.

وكلّ هذا العمل و السعي هو لأجل إمام واستيعاب عموم المسلمين للآيات

١ - التوبة / ١١٣.

٢ - راجع باب «أول ما نزل و آخر ما نزل» في هذا الكتاب، الفصل الثالث و الثلاثون.

الكريمة، و حتّى لا يقعوا في الأخطاء و التناقضات، كنتلك التّي وجدناها في قصّة أبي طالب أو في غيرها من الأحكام.

قلنا: في مطلع هذا الفصل بأنّ آيات القرآن لم تنزل كلّها في مكّة أو في المدينة المنورة، بل نزلت أيضًا في أماكن أخرى، وأنّ أوّل ما نزل من القرآن و آخر ما نزل منه نزل في خارج مكّة و المدينة في حراء و غدير خمّ على التّوالي.

و إذا كانت كافّة الآيات الكريمة لم تنزل في مكّة أو في المدينة فلا يمكن هنا تجاهل الحقيقة والواقع، و هو أنّ الغالبية العظمى منها نزلت فيهما.

كما و لا يمكن بعد ذلك تناسي أو تجاهل وجود حدث دُوليّ هامّ، و لحظة حاسمة و خطيرة، و نقطة تحوّل هامّة يقف فاصلاً بين عهدين و وضعين، هما وضع حالة و طبيعة عمل الرّسول ﷺ و أصحابه، و أسلوب الدّعوة في مكّة المكرمة و في المدينة المنورة، ألا و هي الهجرة النبويّة الشريفة التي هي في الواقع و الحقيقة أهمّ يوم في حياة الرّسول ﷺ و في تاريخ الإسلام أيضًا.

فقد كان الرّسول و المسلمون قبل الهجرة في كنف عدوّ جبار لا يرحم و لا تسليّن له قناة يتربّص بهم الدّوائر، و يحصي عليهم أنفاسهم، و لا يملك المسلمون إزاءه إلّا المسالمة و الاختفاء و التّرقّب و انتظار الفرج...

ولكن بعد الهجرة المباركة اتّسع مجال الدّعوة، و لاح في الأفق الأمل و الرّجاء و أصبح المسلمون في المدينة هم أسياد الموقف عن طريق تضاعف أنصارهم و أشياعهم، و أخذوا في العمل لبناء الدّولة الجديدة و تثبيت أركانها و دعائمها.

وقد تدرّجوا في التّقدّم و التّضامن و القوّة، حتّى أصبحوا في موضع و درجة لم يجد المكّيّون بدّاً إزاءه إلّا الخضوع له و تسليم مفاتيح بلدهم و هم صاغرون.

لكلّ هذا كان أمراً طبيعياً أن تتجاوب الآيات المنزلّة على الرّسول ﷺ، و تتفق مع سير هذه الأحداث و تطوّر ها من مكّة إلى المدينة المنورة.

١ - أجبنا في هذا الموضع الإشارة إلى سبب اتّخاذ المسلمين للهجرة النبويّة دون المولد أو المبعث أو غير ذلك تاريخاً لهم و ابتدأوا من عنده... [و لا موضوع جيلة وإن شئت فراجع]

فما ينزل في الأولى - مكة - وحالة المسلمين يرثي لها، والدعوة لا تزال في منطلقها و بدايتها يختلف عن الآيات المنزلة في الثانية، حيث تنفّس المسلمون فيها الصّعداء، وأخذوا في بناء أمة و بعث دولة ستمتدّ حدودها في بحر سنين معدودة إلى كلّ ما كان معروفاً من المعمورة، فيرتفع للإسلام علم في أقصى الشرق، وعلم في أقصى الغرب. ومن خلال كلّ هذا أمكن دراسة كافّة الآيات المنزلة وأغراضها، فأمكن لذلك تصنيف و ترتيب هذه الآيات إلى نوعين و شكلين، دعي أحدهما المكيّ، بينما سمي الآخر بالمدينيّ، كما أمكن تبيان خصائص كلّ منهما و ميزاته، و سيرد ذكرهما بعد قليل وبشيء من الإسهاب.

هذا و أنّ سبب تسمية الآيات بالمكيّة و المديّية و تحديدها الدقيق لم يتفق عليه بين جموع الفقهاء و المؤرخين، بل تشعبت و افترقت إلى اتجاهات ثلاثة، وإن كان الرّأي والقول الأوّل هو المفضّل و المعمول به بين غالبية هؤلاء الفقهاء و المؤرخين السّاحقة. أمّا هذه الاتجاهات الثلاثة في سبب و علّة تسمية الآيات بالمكيّة و المديّية فهي ما نشير إليها أدناه و على التّوالي:

١- إنّ المشهور بين النّاس و المتعارف ما بينهم هو أنّ المكيّ منازل قبل الهجرة المباركة، سواء نزل في مكة أو في خارج مكة، و هي المدة التي امتدّت إلى (١٣) سنة كاملة أو (١٢) سنة و (٥) أشهر و (١٣) يوماً على وجه الحصر، و تكون الآيات المكيّة ٦٣٪ من القرآن.

وإنّ المدينيّ من القرآن هو منازل بعدها بعد الهجرة، سواء نزل في المدينه ذاتها أو مكة أو الجفّة أو غدير خمّ، و تساوي ٣٧٪ من القرآن، و هو مجموع (٢٣) سورة.

و على هذا القول - كما نوّهنا آنفاً - تسير الغالبية من المسلمين و به نأخذ، و هو المعوّل عليه في مطالع السّور في كافّة المصاحف الموجودة في أيدي المسلمين من أنّها سورة مكيّة أو مديّية، فالسّورة المكيّة إذا نزل أوّلها في مكة قبل الهجرة و إن تخلّلتها آيات مديّية، و المديّية إذا نزل أوّلها بعد الهجرة بالمدينة و إن تخلّلتها آيات مكيّة.

٢- وقيل: إنّ المكيّ منازل بمكة و ضواحيها و لو بعد الهجرة، أمّا المدينيّ من القرآن

فهو منازل بالمدينة وأطرافها، وأما نزل بين المدينتين فينسب إلى أقربهما مسافة.

٣- وقيل أخيراً: إنَّ المَكِّيَّ هو ماجاء لأهل مَكَّة، بينما المدنيّ مَوقِع خطاباً لأهل المدينة، وهذا قول ضعيف؛ لأنَّ آيات القرآن غير متخصّصة لسُكَّان مدينة خاصّة ليصحّ هذا التّمييز.

هذا وبعد أن عرفنا أنفاً سبب وعلّة تقسيم الآيات إلى مكّيّة ومدنيّة، والمعيّار الذي يؤخذ به ويعمل في هذا التّقسيم، علينا الآن أن ننقل إلى الموضوع الآخر، وهو بيان خصائص وميزات كلّ من هذه الآيات، وأوجه الفرق بين كلّ من الآيات المكّيّة والمدنيّة فيما إذا كان هناك فروق تذكر.

قيل: في هذا الصّدّد: إنَّ الفروق والمميّزات بين الآيات المكّيّة والمدنيّة هي ما يلي:

١- إنَّ النّاظر إلى الآيات المكّيّة يراها بصورة عامّة قصار الحجم، وذات حرارة في التّعبير، وتجانس في الصّوت بالتزامها بنغمات موسيقيّة معيّنة، بخلاف الآيات المدنيّة التي تكون عموماً طويلة، وذات أسلوب تشريعيّ هاديّ.

ودليل القصر والطّول هو أنّ السّور المدنيّة التي تزيد على ٣٧٪ من القرآن بقليل يبلغ مجموع آياتها (١٤٥٦) آية، أي أقلّ من ربع القرآن^١، وهذه الميزة هي الغالبة في هذه الآيات وإن كان لها شذوذ واستثناءات قليلة.

٢- إنَّ خطاب الله سبحانه للجمهور في الآيات المدنيّة يغلب عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهذا وضع طبيعيّ إذا ما علمنا بأنّ غالبية النّاس في البيئة الحجازيّة في العهد المدنيّ قد تحوّلت إلى الإسلام أو هي في الطّريق إليه.

أما السّور المكّيّة فلا نشاهد فيها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، بل تطالعنا عوضها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. وكلّما ورد في الآيات المدنيّة من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ لا يتجاوز السّبعة مرّات فقط.

وسبب ورود ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في الآيات المكّيّة هو أنّ عدد المسلمين في العهد المكّي كان يعدّ على الأصابع، ولما كانت الآيات تهبط لتخاطب الأكثرية وهم الكفّار

لتمهّد لهم طريق الإيمان والإسلام، كان أمراً طبيعياً أن تخاطبهم بلفظ النَّاس، وهذا اللفظ يستوعب الكفار، كما يستوعب ويسع في نفس الوقت المسلمين في المخاطبة.

٣- ليس في معظم الآيات المكيّة آية تفصيلات للتشريعات والقوانين، بل هي تدعو دَوْماً لِلتَّمَسُّك بِالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ، والاستقامة على الخير ونُبذ عبادة الأوثان، ثمّ الإيمان بالبعث بعد الموت والحساب في يوم الجزاء، بسبب أن الإسلام لم يزل حينئذ غُضّاً طريّاً، وأنّ الحاجة المُلِحّة كانت تدعو أولاً لتصحيح الاعتقاد عن طريق انتزاع عقيدة الشُّرك، وتثبيت عقيدة التَّوْحِيد، وإقامة مختلف الأدلّة والبراهين على إثباتها، فضلاً عن تحذير العصاة والكافرين بعذاب أليم وعقاب جسيم عند الموت.

أمّا التَّشْرِيع التَّفْصِيلِيّ كالمعاملات والقوانين الاجتماعية والدُّوْلِيَّة والحدود والفرائض وتفاسيها فتحتل بها الآيات المدنيّة، بسبب أن سلطان الإسلام قد استتبّ على أطراف البلاد، كما وأخذت أنواره وأشعته تتجّه إلى خارج الجزيرة العربيّة، وهذا يتطلّب بيان الأحكام التَّفْصِيلِيَّة في تنظيم المجتمع، وتسيير دَفْته إلى شاطئ السَّلامَة، فضلاً عن كشف أنواع الرُّوابط التي تنظم العائلة والفرد.

ومن عبّر كلّ هذا يمكن أن يقال بأنّ الآيات المكيّة عالجت شؤون الدَّعوة بوصفها تعبيراً عن عقيدة، بينما الآيات المدنيّة عالجتّها بوصفها تعبيراً عن عقيدة مجسّدة في دولة ومجتمع.

هذا وليس كلّ ما ذكرناه آنفاً هي كلّ الخصائص والمعايير والفوارق القائمة بين المكيّ من الآيات والمدنيّ منها، بل سعى القُراء والمفسّرون في البحث عن معايير أخرى في الآيات الكريمة يمكن تمييز المكيّ منها عن المدنيّ.

وقد أمكن لهم بعد حين من إحصاء واستخراج الفروق الأخرى التَّالِيَة، وهي: ... [وذكر كما تقدّم نحوه عن الزُّرقانيّ في بحثه: «الضُّوابط التي يعرف به المكيّ والمدنيّ»].

(ص ١١١ - ١١٩)

الفصل الثاني والعشرون

نصّ الدكتور صُبحي الصّالح (م: ١٤٠٧) في: «مباحث في علوم القرآن»

علم المكي والمدني

أما العلم بالمكي والمدني فلا غنى له عن تناول القرآن كلّ سورًا وآيات، فكلّ سورة فيه إمّا مكيّة أو مدنيّة، وقد تستثنى من السّورة المكيّة آيات مدنيّة، ومن السّورة المدنيّة آيات مكيّة، كما أنّ كلّ آية في القرآن معروفة الهوية واضحة السّيرة، فإذا اختلطت بغير زمرتها أخضعها العلماء الثّقات لمقاييسهم الثّقديّة الدّقيقة حتّى قطعوا أو كادوا يقطعون بأنّها تنتمي إلى التّوازل المكيّة أو المدنيّة.

كان العلم بالمكي والمدني إذن خليفًا بالعناية البالغة التي أُحيط بها، وجديرًا أن يعدّ بحقّ منطلق العلماء لاستيفاء البحث في مراحل الدّعوة الإسلاميّة، والتّعرّف على خطواتها الحكيمة المتدرّجة مع الأحداث والظّروف، والتّطلّع إلى مدى تجاوبها مع البيئة العربيّة في مكّة والمدينة، وفي البادية والحاضرة، والوقوف على أساليبها المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشرّكين وأهل الكتاب. وفاء هذا العلم بتلك المعارف الواسعة جعل بحوثه أشتاتًا وألوانًا، فهو في آن واحد ترتيب زمنيّ، وتحديد مكانيّ، وتبويب موضوعيّ، وتعيين شخصيّ. ويخيّل إلينا أنّ هذه الألوان المتباينة جميعًا قد طافت بأذهان العلماء حين تردّدوا في تقسيم المكي والمدني على أساس من المكان أو الزّمان أو الأشخاص. فمن قال: المكيّ ما نزل بمكّة ولو بعد الهجرة، والمدنيّ ما نزل بالمدينة، لاحظ المكان، ومن قال: المكيّ ما وقع خطابًا لأهل مكّة، والمدنيّ ما وقع خطابًا لأهل المدينة، راعى أشخاص المخاطبين، ومن آثر الأخذ بالاصطلاح المشهور: المكيّ ما نزل قبل هجرة الرّسول ﷺ إلى المدينة، وإن كان نزوله بغير مكّة، والمدنيّ ما نزل بعد هذه

الهجرة وإن كان نزوله بمكة، عُنِيَ بالترتيب الزمني في مراحل الدعوة الإسلامية. ونحن إذ نأخذ بهذا التعريف الأخير لانكتم القارئ ما نلمحه من تحقق عناصر الزمان والمكان والأشخاص في الاصطلاحات الثلاثة على السواء^١، بل نلمح فيها أيضاً عنصراً رابعاً لا يخفى على ذي بصر، وهو عنصر الموضوع.

هذه سورة (المتنحة) من مطلعها إلى ختامها^٢ نزلت بالمدينة إذا لاحظنا المكان، وكان نزولها بعد الهجرة إذا اعتبرنا الزمان، ووقعت خطاباً لأهل مكة إذا أردنا الأشخاص، واشتملت على توجيه اجتماعي محصّ قلوب المؤمنين إذا رغبنا بمعرفته موضوعها. لذلك أدرجها العلماء في باب ما نزل بالمدينة وحكمه مكّي^٣.

وذلك قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا»^٤، نزل بمكة إذا التمسنا المكان، ويوم الفتح بعد الهجرة إن تحررنا الزمان، والغاية منه الدعوة إلى التعارف وتذكير الإنسانية بوحدة أصلها إن عنيينا الموضوع، وهو - إن راعينا الأشخاص - خطاب لأهل مكة والمدينة على السواء، فما سمّا العلماء مكّيّاً على الإطلاق، ولا مدنيّاً على التعمين، بل أدرجوه في باب «ما نزل بمكة وحكمه مدني»^٥.

على أننا لم نتردد في تفضيل التقسيم الزمني للمكّي والمدني؛ لأننا نواجه موضوعاً وثيق الصلة بالتاريخ، فليس لنا أن نختار في مثله التَّبويب المكاني ما دمننا نرمي إلى تحديد ما نزل بمكة أو بالمدينة ابتداءً ووسطاً وختاماً، فإن هذه الأطوار المتعاقبة تفرض أن يكون اختيار الترتيب الزمني أمراً بدهيّاً لا مجال لتردد فيه. أمّا تعيين الأشخاص واستخراج الموضوعات فأمران ثانويان يقعان موقعهما المناسب من الترتيب الزمني المترادف ترادف الوقائع والأحداث.

وبهذا المنهج التاريخي الزمني الذي لا يتغاضى عن الآفاق النفسية والأطوار الاجتماعية، ولا يتجاهل أثر البيئة في الحياة والأحياء، أخذ المحققون من علمائنا،

١ - انظر هذه الاصطلاحات الثلاثة في البرهان ١: ١٨٧ والإيتقان ١: ١٣ - ١٤.

٢ - انظر تفصيل قصتها في سيرة الرسول لابن هشام: ١٦ - ١٧ وقد نزلت في حاطب بن أبي بلتمة حين دفع كتابه إلى

قُريش يخبرها بمسير النبي إلى مكة. - البرهان ١: ١٩٥.

٤ - الحُجرات / ١٣. ٥ - البرهان ١: ١٩٥.

وشدّدوا في مأخذهم به حتّى منعوا الجاهل بمراحل الدّعوة الإسلاميّة أن يتصدّى لكتاب الله مفسّراً لآياته أو خائضاً فيه... [ثمّ ذكر قول النّيسابوريّ كما تقدّم عن الرّزكشيّ، فقال].

و يعيننا من قول أبي القاسم النّيسابوريّ هنا أنّه التفت التفتاة صريحة إلى تقسيم القرآن كلّه ستّ مراحل زمنيّة: ثلاث في مكّة بدايةً وتوسّطاً و ختاماً، و ثلاث بعدها في المدينة بدايةً وتوسّطاً و ختاماً. فما جرح إليه بعض المستشرقين من ترتيب القرآن على أسباب النزول، وتقسيمه إلى مراحل ستّ أو أربع^١ - كما سنرى بعد قليل - لا ضرر فيه لذاته؛ إذ أباح الخوض في مثله علماؤنا الأعلام، وإنّما يتجسّد الضّرر فيه حين يتجافى هذا التّرتيب عن الرّوايات الصّحيحة، و يأخذ بالرّأي المرتجل الفطير.

ولو أتمننا عبارة أبي القاسم النّيسابوريّ لألفيناه فيها - بعد التزامه المنهج التّاريخيّ الرّمزيّ - لا يلبث أن يلحق بهذا المنهج نفسه جزئيّات تبدو في نظرنا صغيرة يسيرة، ولكنّها في نظره هامّة جليّة؛ إذ يجعل العلم بها فريضة على كلّ من يعني بتفسير كتاب الله المجيد، فعلى المفسّر المحقّق أن يعرف كذلك ما نزل بمكّة في أهل المدينة، و ما نزل بالمدينة في أهل مكّة، ثمّ ما يشبه نزول المكيّ في المدنيّ، و ما يشبه نزول المدنيّ في المكيّ، ثمّ ما نزل بالبحّفة^٢، و ما نزل ببيت المقدّس، و ما نزل بالطائف، و ما نزل بالحدّيّة، ثمّ ما نزل ليلاً، و ما نزل نهاراً، و ما نزل مشيّعاً، و ما نزل مفرداً، ثمّ الآيات المدنيّات في السّور المكيّة، و الآيات المكيّة في السّور المدنيّة، ثمّ ما حُمّل من مكّة إلى المدينة، و ما حُمّل من المدينة إلى مكّة، و ما حُمّل من المدينة إلى أرض الحبشة، ثمّ ما نزل مجعلاً، و ما نزل مفسّراً، و ما نزل مرموزاً، ثمّ ما اختلفوا فيه، فقال بعضهم: مكيّ، و بعضهم مدنيّ، هذه خمسة و عشرون وجهاً من لم يعرفها و يميّز بينها لم يحلّ له أن يتكلّم في كتاب الله تعالى^٣.

١ - نشير بهذا إلى محاولة مؤرّر ترتيب القرآن إلى ستّ مراحل: خمس في مكّة و السّادسة في المدينة، و محاولة و بل التي قسّم بها القرآن أربع مراحل: ثلاث في مكّة و الرّابعة في المدينة، و أخذ بها كلّ من نولذكيه و شقالي و بل و ررود و بل، و بلاشير، و سنفضّل أمر هذه المراحل في هذا البحث نفسه.

٢ - البّحّفة: قرية على طريق المدينة، من مكّة على أربع مراحل.

٣ - البرهان ١: ١٩٢.

ونحن نعترف بأنه ليس في وسعنا أن نعرض هنا تفصيلاً لتلك الملابس كافة، فإن بحث كلٍّ منها على حدة يستغرق مجلداً بأكمله، وهيهات له أن يكون وافياً بالمقصود، شافياً للغليل، فحسبنا - للدلالة على ما عاناه العلماء في تتبع مراحل الوحي - أن نشير إجمالاً إلى بعض الروايات التي لم يكتف أصحابها بوصف منزل في مكة أو في المدينة، قبل الهجرة أو بعدها، بل بلغت عنايتهم بهذا الكتاب الكريم أقصى ما يبلغه الباحثون من التحريِّ والتدقيق، فلم يَفْتَهُمْ ذكر أبسط التفصيلات وأصغر الجزئيات.

لاحظوا مثلاً بصورة عامّة أن أكثر القرآن نزل نهاراً، ثم استرعى انتباههم أن هذه القاعدة لم تُتَّبَع في بعض الحالات الجزئية، فسورة مريم أنزلت ليلاً؛ روى الطبراني عن أبي مريم الغساني، قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ولدت لي الليلة جارية، فقال: «والليلة أنزلت عليّ سورة مريم، سمها مريم». و أول سورة الفتح نزل ليلاً، ففي البخاريّ من حديث عمر: «لقد نزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ ممّا طلعت عليه الشمس»، فقرأ: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا» الحديث^١. و أول سورة الحج: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ»^٢ نزل ليلاً في غزوة بني المصطلق، وهم حيٌّ من خزاعة، والناس يسرون^٣.

و يوشك أحدنا - إذا جعل الروايات الصحيحة عُمْدَتَهُ - أن يستحضر النازل القرآنيّ في أيّ جزء من الليل كان، في وسطه أم أوله أم آخره، وإنّي لأتمثّل هذه اللحظة رسول الله ﷺ في الرّكعة الأخيرة من صلاة الصّبح حين نزل عليه - كما في الصحيح - قوله تعالى: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ»^٤.

ثم أتمثله صلوات الله عليه في خيمة من آدم، وقد بات نفرٌ من أصحابه على باب الخيمة يحرسونه، فلما أن كان بعد هزيع من الليل أنزل الله عليه ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^٥. و أتمثله أخيراً عند السيّدة أمّ سلمة أمّ المؤمنين وقد بقي من الليل ثلثه^٦ حين نزلت عليه آية الثلاثة الذين خَلَفُوا^٧.

١ - الإتيان ١: ٣٥.

٢ - صحيح البخاريّ ١٣٥: ٦.

٣ - البرهان ١: ١٩٨.

٤ - المائدة ٦٧.

٥ - التوبة ١١٨.

٦ - آل عمران ١٢٨، وانظر الإتيان ١: ٣٦.

٧ - كما في صحيح مُسلم عن أنس، الإتيان ١: ٣٨.

ولقد تكون الليّلة شاتية، ويكون البرد فيها شديداً، فلا يفوت الرّاوي أن يصفها لنا إرهافاً لذكر الآيات التي نزلت في هذا الجوّ المكفّه، فما من جزئية مهما تكن تافهة في نظرنا الآن إلّا وهي على لسان الرّاوي شيء له قيمته الدّينية والاجتماعية، فليصوّرها تصويراً واقعياً أميناً، ولا ينقصنّ منها، ولا يزيدنّ عليها. أولئك هم النّاس يتفرّقون عن رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب إلّا اثني عشر رجلاً، فيخاطبهم الصّحابي الجليل حذيفة قائلاً: «قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب»، فيجيبه حذيفة: والذي بعثك بالحقّ ما قمت لك إلّا حياءً من البرد! فأنزل الله: ﴿بَاءَئِهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^١.

ونجد في المقابل أن الآيات النّازلة في غزوة تبوك إنّما كانت في شدّة الحرّ، وأن رجلاً من المنافقين قال يؤمئذ: لا تنفروا في الحرّ، فأنزل الله ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾^٢. وإذا كان أكثر القرآن نزل في الحضر فإنّ تنقّل الرسول ﷺ في سبيل الدّعوة جعله يتلقّى الوحي أحياناً في بعض أسفاره، تنبيهاً لقوّاده، وتأييداً لجهاده، وكثيراً ما يعبر الرّواة عن هذا بمثل قولهم: نزلت الآية أو الآيات على النّبي ﷺ في «مسير» له ويغلب عليهم تعيين هذا المسير، وتحديد السّفر ومكانه وزمانه. وفي الصّحيح عن عمر أن قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^٣، نزل عشية عرفة يوم الجمعة عام حجّة الوداع. وفي «دلائل» البيهقي أن خاتمة سورة التّحلّ نزلت بأحد والنّبي ﷺ واقف على حنزة حين استشهد^٤.

ولقد كانت حياة الرسول ﷺ سلسلة من الجهاد المتواصل، فكثير نزول الوحي عليه في مغازيه، ففي بدر عقب الواقعة نزل أول الأنفال^٥، وفي عمرة الحديبية نزل قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنَ اتِّمَاعِهَا﴾^٦، وفي تبوك نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^٧ وقد تتبّع

١ - الأحزاب / ٩، والحديث أخرجه البيهقي في «دلائل النّبوة» انظر الإتيان ١: ٣٧.

٢ - النّبوة / ٨١، وانظر الإتيان ١: ٣١. ٣ - المائدة / ٣، وانظر الإتيان ١: ٣١.

٤ - الإتيان ١: ٣٢. ٥ - الإتيان ١: ٣٢.

٦ - البقرة / ١٨٨، وانظر الإتيان ١: ٣٠ ويرى بعضهم أنّها نزلت في غزوة الفتح أو في حجّة الوداع.

٧ - الإسراء / ٧٦، وانظر الإتيان ١: ٣٢.

السيوطي عدداً من الأمثلة الأخرى، تراجع في موضعها من «الإتقان»^١.

وليلة الإسراء والمعراج ليست إلا ليلة في حساب الزمان، ولكنها جزء من الأزل البعيد العميق في علم الله، فمن القرآن آيات نزلت في تلك الليلة القدسية، ولئن صح أن قوله تعالى: ﴿وَسُئِلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾^٢، نزل ببيت المقدس عندما أسرى الله بعبد له ليلاً^٣، فإن الآيتين من آخر سورة البقرة نزلتا -كما يقول ابن العربي- في الفضاء بين السماء والأرض^٤، حين رأى محمد من آيات ربه الكبرى ساعة المعراج.

وهذا الاستقصاء في تحرّي ما عسى أن يبدو لبعضهم غير ذي بال لم يكن له في نفوس الرّواة والعلماء إلا تفسير واحد، إنه صدق الرّواية وإمكان الثقة بها إلى أبعد حدّ فيما يتعلّق بتحديد المكي والمدني في كتاب الله.

وعلى هذا الأساس من الدّقة والاستقصاء فرّق العلماء بين ما يشبه تنزيل المدينة في السّور المكيّة، وما يشبه تنزيل مكة في السّور المدنيّة^٥، وغرضهم من التعبير «بالتشبيه» واضح، فإنهم يلاحظون الطّابع العامّ لكلّ سورة، ثمّ ما يشبه هذا الطّابع شيئاً قريباً يكاد يلحقه به، فإذا وجدت في سورة هود المكيّة مثل قوله تعالى: ﴿وَاقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ...﴾^٦ فليس من الضروري أن تعتبرها مدنيّة وإن أشبهت التّنزيل المدنيّ. وإذا تلوت في سورة الأنفال المدنيّة مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ تَنْبِذْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^٧، فليس لك أن تحكم بأنّها مكيّة ولو كان فيها من التّنزيل المكيّ ظلال وسمات.

وكثيراً ما يصرف وجه الشّبه القريب بين المكي والمدنيّ الباحثين المتسرّعين عن

١ - الإتقان ٣٠ - ٣٤.

٢ - الزّخرف ٤٥/.

٣ - البرهان ١: ١٩٧.

٤ - الإتقان ١: ٣٨.

٥ - انظر البرهان ١: ١٩٦.

٦ - في تفسير القرطبي ٩: ١١٠ - ١١١ أنهانزلت في رجل من الأنصار يسمّى أبا اليسر بن عمرو وفي البرهان ١: ١٩٦ أنها نزلت في أبي مفضل الحسين بن عمر بن قيس والمرأة التي اشترت منه الثمر، فراودها، والآية في سورة هود: ١١٤.

٧ - الأنفال / ٣٢، وانظر البرهان ١: ١٩٧.

تتبع مرحلة دقيقة خطيرة في تاريخ الدعوة الإسلامية، حين تستدعي ظروف معينة حمل النازل القرآني من مكان إلى مكان. ولكن العلماء الثقات وافقوا بذلك كله، فلكل آية في القرآن تاريخها، بل لكل لفظة فيه سيرتها و ترجمتها، فمن شيخ المفسرين الطبري علمنا أن قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾^١، حمل من المدينة إلى مكة^٢، ومن القرطبي، علمنا أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾^٣، حمل مع الآيات من أول سورة براءة من المدينة إلى مكة، ثم قرأها علي بن أبي طالب عليه السلام يوم النحر على الناس^٤.

و حين نجد علماءنا يبذلون هذا الجهد المشكور في تحري الروايات وضبطها ليرتبوا السور القرآنية تبعاً لتطورات الدعوة وأدق جزئياتها، لا نملك أنفسنا من الدهشة والذهول إذ نسمع المستشرقين يدعون بالويل والثبور على الرواة والروايات، و يرتابون في إمكان ترتيب القرآن اعتماداً على سيرة الرسول^٥.

ومن الغريب حقاً أن يظن المستشرقون أن في وسعهم ترتيب القرآن زمنياً وهم يجحدون كل أثر للرواية الصحيحة في هذا الترتيب. ولو كانوا يتشددون في الروايات فلا يقبلون منها إلا المسندة الصحيحة لهان الأمر، فإن علماء الإسلام أنفسهم كانوا - ولا يزالون - يرفضون الأخذ بالروايات الضعيفة في المكي والمدني وغيرهما من الموضوعات التي تلقى الضياء ساطعاً على تتبع مراحل الوحي القرآني، و ترتيب سور وآياته، و تدرج تعاليمه وإرشاداته.

على أن بين المستشرقين من حاول أن يبحث هذا الموضوع على صعيد لا يختلف كثيراً عن صعيدنا، كالأستاذ «غريم» الذي اعتمد على الروايات والأسانيد الإسلامية في ترتيب سور القرآن^٦ و يؤخذ عليه مع ذلك أمران: أما أحدهما فعدم تحييصه صحيح تلك

١ - البقرة / ٢١٧.

٢ - تفسير الطبري ٢: ٢٠١ - ٢٠٦ و انظر البرهان ١: ٢٠٣ - ٢٠٤.

٣ - البقرة / ٢٧٨. ٤ - تفسير القرطبي ٣: ٣٦٣ - ٣٦٤.

٥ - انظر على سبيل المثال: 252. Intro. cor. Blaahere.

٦ - انظر منهجه في الاعتماد على الروايات في كتابه:

الروايات و سقيمها، وعجزه كسائر المستشرقين عن هذا التّحصيل، ولذلك لم يبال بترتيب القرآن على أساس واهٍ من الأسانيد الضّيفة أحياناً و الباطلة أخرى. وأمّا الآخر فهو تخلّيه عن المنهج الذي اشترطه على نفسه من احترام الروايات ليصدر في نهاية المطاف - في مواطن مختلفة - عن رأي المستشرق نُولْدِكِه في وصف المراحل المتعاقبة على الوحي القرآني^١.

والواقع أنّ المستشرق نُولْدِكِه كان مقتنعاً بضرورة ترتيب القرآن زمنياً على غير الطّريقة الإسلاميّة و قد رسم لنفسه منهجاً جديداً تأثر به كثيرون، فأصبح موضوع هذا التّرتيب يشغل أذهان المستشرقين جميعاً، و يعلّقون عليه أخطر التّنتاج في عالم الدّراسات القرآنيّة.

و قد ظهرت في أوروبة في منتصف القرن التّاسع عشر محاولات لترتيب سور القرآن و دراسة مراحلها التاريخيّة، منها محاولة «وَلِيم مُوِير» الذي قسّم المراحل القرآنيّة إلى ستّ: خمس في مكّة و سادستها في المدينة^٢. و اعتمد فيها - إلى حدّ غير قليل - على سيرة الرّسول ﷺ و أسانيدها بعد دراستها دراسة نقدية حشد لها الكثير من معلوماته التاريخيّة^٣، و لكنّه وقع - مع ذلك - في أخطاء عديدة و أخذ بروايات واهية، و المقارنة في هذا المجال بينه و بين «غريم» ستظلّ ممكنة ميسورة.

و منها محاولة «ويل» التي بدأها سنة (١٨٤٤) و لم تتخذ صورتها النّهائيّة إلّا سنة (١٨٧٢)، و لا يقيم فيها وزناً للروايات و الأسانيد الإسلاميّة^٤، لذلك كانت في نظر بلاشير

→ H. Grimme , Mohammed , 2e partie (Munster. 1895):

cf. Blachere, Intro , 250.

١ - انظر بعض مواطن تلاقيه مع نُولْدِكِه في 73 Geachichte des qorans,

٢ - و يمكن دراسة هذه المحاولة في كتابين من تأليف مُوِير أحدهما:

Life of Mahomet (London , 1858 - 61)

و قد طبع هذا الكتاب طبعة مزيّدة منقّحة سنة (١٩٢٣) في أدنبرغ Edinbourg بإشراف T. H. Weir

والثاني: The Coran . its composition and Teaching (London. 1878)

Cf. Blach, Intro . cor . 248-٣

٤ - و ذلك في كتاب: G.Weil , Historisch - Kritische

«الطريقة الوحيدة المثمرة حقاً»^١، وكانت من قبله في نظر «نولدكه» نقطة الانطلاق في إجراء محاولة لترتيب القرآن، فيها أخذ وعلى كثير من أسسها بنى دراسته. وكان «ويل» قد قسم المراحل القرآنية إلى أربع: ثلاث في مكة واربعة في المدينة، فتابعه على ذلك «نولدكه» سنة (١٨٦٠) عندما ظهر كتابه عن «تاريخ القرآن»^٢ للمرة الأولى، مع إجراء بعض التعديلات الطفيفة في محتويات كل مرحلة على حدة، ثم تابعه مرة ثانية مع نظائر هذه التعديلات عندما شاركه «شفالي» في نشر الكتاب منقحاً مزيداً. وقد تأثر بهذه الطريقة كل من «بل»^٣ «ورودويل»^٤ و«بلاشير»^٥، وتظل ترجمة بلاشير للقرآن في نظرنا أدقّ الترجمات، للروح العلمي الذي يسودها، لا يغضّ من قيمتها إلا الترتيب الزمني للسور القرآنية بطريقة يعترف «بلاشير» نفسه بأنها لا تخلو من تعسف في إطلاق الأحكام^٦، دعا إليه ما يعتقده من أنّ القرآن وحده نقطة الانطلاق في تعاقب المراحل الإسلامية، و ترتيب السور، وتدرّج التعاليم، وأنّ سيرة الرسول ﷺ والأخبار التي يروها الصحابة عنه لا يمكن أن تستقلّ وحدها بإيضاح شيء سكت عنه القرآن، وإنّما تكمل تكميلاً ثانوياً ما جاء في نصّ القرآن^٧.

أما نحن فلانترتاب قطّ - بعد الذي عرضناه من تشدّد علمائنا في استقصاء كلّ ما يتعلّق بالمكي والمدني - في أنّ الرواية الصحيحة هي الطريقة الوحيدة إلى ترتيب القرآن أمثل ترتيب زمني وأصلحه وأدقّه. والروايات في هذا المجال لم ترد إلاّ عن الصحابة الذين شاهدوا مكان الوحي وعرفوا زمانه، أو التّابعين الذين سمعوا وصف ذلك وتفصيله

→ Einleitung in Koran (Bielefeld , 1844; 2e ed. Leipzig, 1872)

١ - انظر Blanch , Intro . cor , 251

٢ - وهو كتابه المشهور الذي كثيرًا ما رجعنا إليه في مباحثنا هذه:

Geschichte des Qorans.

٣ - R. Bell , the Qur'an. Translated

With a critical re . arrangement of the Surahs (Edinburgh, 1937 sq.)

٤ - A.Rodwell. the Koran. Translation with the suras arranged in. chronological order London 1861.

٥ - 51 - Blachere . Le coran, Traduction selon un essai de reclassement des sourates, paris 1949

Id., ibid., 253 - v

٦ - انظر Blanch ., Intro, cor., 254

من الصحابة. وأما رسول الله ﷺ فلم يرد عنه شيء من هذا القبيل؛ لأنه ﷺ كما يقول القاضي أبو بكر في «الانتصار»: لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة^١. ولا ريب أن كثيراً من الصحابة كانوا على علم كامل بالمكي والمدني، به استطاعوا أن يستقصوا تلك الجزئيات الدقيقة التي حفلت بها كتب التفسير بالمأثور والمؤلفات الكثيرة في علوم القرآن، وقد أشرنا إلى جملة صالحة منها على سبيل التمثيل والاستشهاد. وفي وسعنا أن نكون فكرة عن غزارة علم الصحابة في هذه الموضوعات من خلال قول ابن مسعود: «والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت»^٢. ولكن ابن مسعود - مهما نصف من سعة علمه - ليس الرجل الوحيد الذي أقسم هذا القسم منفرداً به من بين سائر الصحابة، فقد أقسم نحوه من قسمه علي أيضاً، وقد كان بين الصحابة بلالريب من أتيح له أن يشهد ما شهد هذان الصحابيَّان الجليلان، وربما رأى بعضهم أكثر ممَّا رآياه، بل نحن لا نستبعد أن يكون بين مجاهيل الصحابة من يكمل برواية تحملها شيئاً فأت علماء الصحابة ومشاهيرهم^٣. لذلك لم يكن الاعتماد على الرواية الصحيحة متنافياً مع إعمال الفكر والاجتهاد، ولا سيما في الموضوعات التي لا تكون فيها الرواية نصّاً صريحاً، ولهذا الاجتهاد صور وأشكال متنوعة في مبحث المكي والمدني. فقد يقع الاختلاف في مكيّة بعض السور أو مدنيّتها، وفي استثناء آيات مكيّة من سورة مدنيّة أو آيات مدنيّة من سورة مكيّة، وفي ترتيب منازل بمكة أو المدينة، وفي الخصائص الأسلوبية أو الموضوعية لكل من المكي والمدني ثم لا يفصل في الاختلاف إلا بضرب ممن الاجتهاد.

فإذا زعم النحّاس أن سورة النساء مكيّة... [وذكر كما تقدّم عن الشيوطي ثم قال:] وإذا كان في كلّ من المكي والمدني آيات مستثناة، فمن العلماء من اعتمد في استثنائها على الاجتهاد دون الثقل^٤. ولا يعارض هذا ما ورد عن ابن عباس: كانت إذا

١ - البرهان ١: ١٩١، وانظر الإتيان ١: ١٤.

٢ - الإتيان ١: ١٤.

٣ - راجع ما ذكرناه في فصل «علم أسباب النزول» عن علم الصحابة بهذه القضايا.

٤ - الإتيان ١: ٢٣.

نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة، ثمّ يزيد الله فيها ما شاء؛ لأنّ إلحاق المكيّ بالمدينيّ أو المدينيّ بالمكيّ يُعرف وجه الحكمة فيه حينئذ عن طريق الاجتهاد، مثاله سورة الإسراء، فهي مكيّة، إلا أنّهم استثنوا منها: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْعَيْنَا إِلَيْكَ﴾^١، فرجّحوا أنّها آية مدنيّة، نزلت في وفد ثقيف، أتوا النبيّ ﷺ فسألوه شططاً، وقالوا: متّعنا بالهتنا حتّى نأخذ ما يهدى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وحرّمنا وادينا كما حرّمت مكة حتّى تعرف العرب فضلنا عليهم^٢.

و يعيّن العلماء - تبعاً للروايات والأسانيد - السور المكيّة والسور المدنيّة^٣، ثمّ يرتّبونها حسب تعاقبها في النزول، وإذا هم يتردّدون في أوّل منازل وآخرها، ويصل بهم الأمر إلى الاختلاف في سورة الفاتحة التي يرتّلها المسلمون في كلّ ركعة من ركعات الصّلاة، فيرى بعضهم أنّها مكيّة وآخرون أنّها مدنيّة^٤، ويؤثر فريق ثالث القول بنزولها مرّتين^٥، ثمّ يرجّح بعضهم أنّها أوّل ما نزل بمكة، فهي إذن أوّل منزل على الإطلاق^٦، ويرجّح آخرون أنّ عدداً من السور كان أسبق منها في النزول، ففي مثل هذه المواطن يتنافس العلماء في إيراد الحجج والبراهين، وهي حجج إلى الاجتهاد أقرب منها إلى الثقل، فهذا عالم كالواحيديّ يستبعد مثلاً أن يقوم الرسول ﷺ خلال بضع عشرة سنة بمكة يؤدّي الصّلاة من غير الفاتحة^٧؛ والواحيديّ - كما نعلم - لم يقم دراسته لأسباب النزول في كتابه المشهور إلاّ على الروايات والأسانيد، لكنّ باب الاجتهاد والاستنباط مفتوح دائماً على مصراعيه حتّى عند أصحاب الثقل والنصّ!

والمستشرق «بلاشير» بدلاً من أن يرى تفكير الواحيديّ هنا محاولةً للاجتهاد والاستنباط، يستشعر فيه ضرباً من استسلام اليأس الذي انقطع كلّ رجاء عنده في

١ - الإسراء: ٧٣.

٢ - الجامع لأحكام القرآن ٩: ٢٩٩.

٣ - وقد نظّم ابن الحصار في «الناسخ والمنسوخ» أبياتاً في ذلك... [راجع نصّ السيوطي في الفصل العاشر]

٤ - انظر على سبيل المثال البرهان ١: ١٩٣ - ١٩٤ والزركشيّ يردّ إلى القسم المدنيّ أكثر السور المختلف فيها، فيكون عدد السور المكيّة عنده خمساً وثمانين، بينما تكون السور المدنيّة تسعاً وعشرين.

٥ - قال ابن عباس والضّحّاك ومقاتل وغطاء: إنّها مكيّة، وقال مجاهد: مدنيّة، والبرهان ١: ١٩٤.

٦ - البرهان ١: ٢٩١.

٧ - الإنفاق ١: ١٨ وقارن بالبرهان ١: ٢٠٧.

٨ - أسباب النزول: ١٣.

معالجة الموضوع، فاعترف بجهله، و وجد السّلامة في هذا الاعتراف!١. ولا نرى «بلاشير» في هذا إلا مغالياً، فليس من شأن العلماء أن يقطعوا جازمين في أمر خطير كالذي يتعلّق بترتيب الوحي القرآني، وإنما حسبهم أن يحاولوا - كما صنع الواحدي - ترجيح شيءٍ على شيءٍ، والجهل لا يعالج دائماً بالقطعيّ من الأمور، فالترجيح وحده كافٍ لتحصيل العلم والمعرفة. وليست غايتنا هنا الدّفاع عن الواحدي، بل التّنبية على أنّ كثيراً من جزئيات المكيّ والمدنيّ انتهت به العلم إلينا عن طريق الاجتهاد، وأنّ العقل كالنقل، والقياس كالسمع، في ثبوت العلم بالشيء. وقد لاحظ الجعبريّ هذا حين قال: لمعرفة المكيّ والمدنيّ طريقان: سماعيّ وقياسيّ٢، وعرف السّماعيّ بأنّه ما وصل إلينا نزوله بأحدهما، ثمّ أنشأ يذكر أمثلة وشواهد على القياسيّ. وإذا قارنّا أمثلته بأمثلة العلماء الذين مارسوا القرآن وتذوّقوا فنونه وأساليبه استنبطنا من مجموعها ضابطاً قياسيّاً نستطيع به أن نميّز السّور المكيّة والمدنيّة، ونتعرّف إلى طابع كلّ منها وخصائصه، وسنرى أنّ هذا الضّابط قلماً يتخلّف عند التّطبيق، فمن خصائص السّور المكيّة تبعاً لهذا الضّابط ... [ثمّ ذكر خصائص السّور المكيّة كما تقدّم عن الزّرقانيّ، ثمّ قال:]

وهذه الخصائص الستّ - إذا حفظ ما اسّني منها جانباً - أمارات قطعيّة لا تتخلّف. هناك أمارات غالبية رُجّح امتياز القسم المكيّ بها. فمما يكثر في السّور المكيّة ويشيع:

١- قصر الآيات والسّور وإيجازها، وحرارة تعبيرها، وتجانسها الصّوتي.

٢- الدّعوة إلى أصول الإيمان بالله واليوم الآخر، و تصوير الجنة والنّار.

٣- الدّعوة إلى التمسّك بالأخلاق الكريمة، والاستقامة على الخير.

٤- مجادلة المشركين - و تسفيه أحلامهم.

٥- كثرة القسم جريّاً على أساليب العرب٣.

وأما السّور المدنيّة فمن خصائصها القطعيّة:

٢- البرهان ١: ١٨٩ و الإنشاق ١: ٢٩.

١- انظر 263، cor.، Blachere, Intro.

٣- ولبروكلمان Brockelmann في دائرة المعارف الإسلاميّة آراء طريفة حول هذه الأمارات الغالبة، أكثرها صحيح من ناحية الدّراسة الأسلوبية.

[ثمّ ذكر خصائص السّور المكيّة كما تقدّم عن الرُّقانيّ، فقال:]

ومن الأمارات الغالبة^١ التي يَرَجَحُ امتياز القسم المدنيّ بها؛

١- طول أكثر سوره وبعض آياته وإطنابها، وأسلوبها التّشريعيّ الهادي.

٢- تفصيل البراهين والأدلة على الحقائق الدّينيّة.

وهذه الخصائص الموضوعيّة والأسلوبيّة، سواء أكانت قطعيّة، أم أغلبيّة، تصوّر الحطىّ الحكيمة المتدرّجة التي كان يخطوها الإسلام في تشريعه، فخطاب أهل المدينة لا يمكن أن يكون ممثلاً لخطاب أهل مكّة؛ لأنّ البيئّة الجديدة في المدينة أصبحت تستدعي التّفصيل في التّشريع وفي بناء المجتمع الجديد. فكان لا بدّ أن يطنب القرآن بعد الإيجاز، ويفصّل بعد الإجمال، يراعي حال المخاطبين في كلّ آياته وسوره.

كان في مكّة قوم طغاة معاندون، يضطهدون رسول الله والمؤمنين، فناسب أن ينزل على الرّسول في مكّة مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾^٢، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾^٣ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّن السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعُجْجُونَ﴾^٤ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكُوْتُ ابْصَارِنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ^٥. وهكذا كثر في مكّة نزول الآيات التي تفرّغ المشركين، وتشدّد في تسفيه أحلامهم، وتسلّي الرّسول والمؤمنين وتعلّمهم السّماحة والصّفح الجميل. أمّا المدينة فكان فيها بعد الهجرة ثلاثة أصناف من النّاس: المؤمنين من مهاجرين وأنصار، ثمّ المنافقون، ثمّ اليهود. فأما اليهود فجادلهم القرآن ودعاهم إلى كلمة سواء، وأما المنافقون ففضّحهم وكشف مساوئهم، وأما المؤمنون فشجّعهم - من ناحية - على المضيّ في الصّراط المستقيم، وشرع لهم - من ناحية ثانية - ما يتعلّق بالسّلم والحرب، وبحيّة الفرد والمجموع، وبالسّياسة والاقتصاد. هذه الزّكاة مثلاً لا معنى لفرضها في مكّة والقوم مضطهدون. وتلك صلاة الخوف التي لا تكون إلّا في الحرب لا يمكن أن تشرّع في مكّة؛ لأنّ المؤمنين لم يؤذن لهم بالقتال إلّا

١ - وآراء بلاشير - في هذا الموضوع - لا تخلو من طرافة لولا أنّه يرمي من ورائها إلى غاية لا تتفق وروح الدّعوة

الإسلاميّة، انظر: (Blachere . coran, Traduction , 2e vol , 722 - 28)

٣ - الأنعام / ٣٤.

٢ - الأنعام / ٣٣.

٤ - الحجر / ١٤ - ١٥.

في المدينة، وقد خلت السُور المكيّة خلوةً تاماً من ذكر الجهاد وكلّ ما يتعلّق بالحرب. ولو أخذنا برأي أبي القاسم التيسابوريّ الذي التزم المنهج التاريخيّ الزمّنيّ في ترتيب المكيّ والمدنيّ لكان علينا - تطبيقاً له وتأثيراً به - أن نقسّم كلاً من السُور المكيّة والسُور المدنيّة إلى ثلاث مراحل: ابتدائيّة، ومتوسطة، وختاميّة، ولانتجسّم كبير عناء في تعيين هاتيك المراحل إذا عوّلنا على أصحّ الأسانيد، وأخذنا بمقاييس النقاد المحدثين وتردّدنا في القسم المدنيّ سوف يكون يسيراً، بل لا يكاد يكون شيئاً مذكوراً؛ إذا انتشر في المدينة الإسلام، وحفظ القرآن، وكثر القراء الكاتبون، وتيسّرت وسائل النسخ والنقل والرواية والتّفقه في الدين. أمّا القسم المكيّ فقد كان منطق الأحداث نفسه يقتضي وقوع التردّد في تصوير مراحله، ولا سيّما في أوائله، لأنّ الإسلام بدأ بمكة غريباً، ولم يؤمن برسول الله ﷺ في أعوام الوحي الأولى إلّا نفر قليل، فلم يتيسّر لغير السابقين الأوّلين منهم تقصّي أطوار التنزيل، وتحزّي أوائلها على وجه التّحديد.

بيد أنّنا إن ندع جانباً ماختلف العلماء المحقّقون في ترتيبه الزمّنيّ، وعجزوا فيه عن تعيين السّابق والمسبوق، لا يتعذّر علينا أن نضع أيدينا على زمر متشابهة، وفصائل متماثلة، تبرز فيها ملامح صريحة نجزم معها بأنّها مرحلة أولى أو متوسطة أو نهائيّة في مكة أو في المدينة.

فمن السُور التي اتّفق المؤرّخون والمفسّرون على أنّها من أوائل الوحي، أو أنّها بعبارة الحديث من المرحلة المكيّة الأولى: العلق، والمدّثر، والتّكوير، والأعلى، والليل، والشرح، والعاديات، والتّكاثّر، والنّجم.

ومن المرحلة المتوسطة في مكة: عبّس، والتّين، والقارعة، والقيامة، والمرسلات، والبلد، والحجر.

ومن المرحلة الختاميّة في مكة: الصّافات، والزّخرف، والدّخان، والذّاريات، والكهف، وإبراهيم، والسّجدة.

وهذه الزّمر الثّلاث - وإن بدت سمات المكيّ واضحة عليها - تتفاوت تفاوتاً يسيراً فكرة وأسلوباً، حتّى لتبدو كلّ زمرة منها، بل كلّ سورة منها وحدة فكريّة إيقاعيّة قائمة

بذاتها. وما سنلمحه في تحليلنا الخاطف لها لا يعدو الإيماء إلى أبرز ما يتمثّل في ألفاظها و فواصلها، والعقائد التي انطوت عليها آياتها المعجزات... (١٦٧ - ١٨٦)
 [ثمّ ذكر فحوى كلّ سورة من تلك السّور المتقدّمة نعطف عن ذكرها احترازًا عن التّطويل، وإن شئت فراجعها].

الفصل الثالث والعشرون

نص الشيخ الصَّعِيدِيّ (مُعَاصِرٌ) فِي «مَجْلَّةِ رِسَالَةِ الْإِسْلَامِ»

نظرة جَدِيدَة فِي مَكِّي السُّور وَمَدِينَهَا

- ١ -

المشهور بين العلماء أَنَّ سور القرآن الكريم على ثلاثة أقسام: قسم مَكِّي، وقسم مدنيّ، وقسم بعضه مَكِّي وبعضه مدنيّ. وإِنِّي أَرَى أَنَّهُا قِسْمَانِ فَقَطْ لَا ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: مَكِّي خَالِصٌ، وَمَدَنِيّ خَالِصٌ وَأَنَّهُا لَيْسَ فِيهَا مَا بَعْضُهُ مَكِّيّ وَبَعْضُهُ مَدَنِيّ؛ لِأَنَّ كُلَّ سُورَةٍ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ جَاءَتْ مُنَاسِبَةً لِمَنْ نَزَلَهَا، وَلِكُلِّ مِنَ الْقِسْمِ الْمَكِّيِّ وَالْقِسْمِ الْمَدَنِيِّ مُمَيَّزَاتُهُ، فَلَا يَكُونُ مِنَ الْمُنَاسِبِ لِرِتْبَاطِ آيَاتِ سُورِهِ وَضَعُ بَعْضٍ مِمَّا نَزَلَ مِنْهُمَا فِي الْآخِرِ، وَلَا سِيَّمَا وَضَعُ الْمَكِّيِّ فِي الْمَدَنِيِّ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي أَنْ تَبْقَى آيَةٌ أَوْ آيَتَانِ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ مَتْرُوكَةٌ سِنِينَ طَوِيلَةً مِنْ غَيْرِ أَنْ تَلْحَقَ بِسُورَةٍ، ثُمَّ تَسْتَمِرَّ مَتْرُوكَةً إِلَى أَنْ تَنْزَلَ سُورَةٌ بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ فَتَلْحَقَ بِهَا، فَإِنَّهَا لَا تَلْحَقُ بِهَا إِلَّا إِذَا كَانَتْ مُنَاسِبَةً لَهَا، وَحِينَئِذٍ لَا يَكُونُ هُنَاكَ حَاجَةٌ لِتَقْدِيمِ نَزُولِهَا عَلَيْهَا، بَلْ يَكُونُ الْمَقْبُولُ فِي بَدَاهَةِ الْعَقْلِ تَأْخِيرُ نَزُولِهَا إِلَى نَزُولِ السُّورَةِ الَّتِي تَلْحَقُ بِهَا وَهَذَا إِجْمَالٌ لَا نَكْتَفِي بِهِ فِي ذَلِكَ، وَسَيَكُونُ لَهُ تَفْصِيلٌ تَوْخِذُ فِيهِ كُلِّ سُورَةٍ مَكِّيَّةٍ قِيلَ: إِنَّ فِيهَا آيَاتٍ مَدَنِيَّةٍ، وَتَوْخِذُ فِيهِ كُلِّ سُورَةٍ مَدَنِيَّةٍ، قِيلَ: إِنَّ فِيهَا آيَاتٍ مَكِّيَّةٍ، لِنَنْظَرُ فِي هَذَا عَلَى ذَلِكَ الْأَسَاسِ السَّابِقِ، وَنَعْرِفَ مَقْدَارَ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ رَأْيُنَا السَّابِقُ فِيهِ، فَإِذَا أَمَكُنَ تَوْجِيهَهَا عَلَيْهِ كَانَ هُوَ الرَّأْيُ الرَّاجِحُ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَاعٍ إِلَى إِقْحَامِ بَعْضِ كُلِّ مِنَ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ فِي الْآخِرِ مَعَ اخْتِلَافِ مُمَيَّزَاتِهِمَا عَلَى مَا سَبَقَ.

وَهَذَا إِذَا جَرَيْنَا عَلَى أَنَّ آيَاتِ كُلِّ سُورَةٍ مُرْتَبِطَةٌ بِبَعْضِهَا بِبَعْضٍ ارْتِبَاطًا يَجْعَلُهَا كَأَنَّهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً، مُنْسَقَّةٌ الْمَعَانِي، مُنْتَظِمَةٌ الْمَبَانِي، فَإِذَا جَرَيْنَا عَلَى مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ بَعْضُ

المفسّرين من أنّه لا ارتباط بين آيات السُّور القرآنيّة، كان الاستبعاد أظهر في القسم الثالث السّابق، وهو السُّور التي بعضها مكِّيّ وبعضها مدنيّ؛ لأنّه إذا لم يكن هناك ارتباط بين آيات السُّور لم تكن هنا سورة مكّيّة متمنّعة على ما يوضع من الآيات المكّيّة في السُّور المدنيّة، وكذلك الأمر في عكس ذلك، فلا يكون هناك حاجة لوضع أحدهما في الآخر. ولكن يجب قبل أن نأخذ في التّفصيل السّابق أن نذكر - أوّلاً - خلافهم في حقيقة كلّ من المكّيّ والمدنيّ من السُّور؛ لأنّ هذا الخلاف يفيدنا كثيرًا في هذا التّفصيل. وللعلماء في المكّيّ والمدنيّ من السُّور اصطلاحات ثلاثة... [وذكر كما تقدّم عن السيوطيّ، ثم قال:]

و يجب أن نذكر قبل هذا التّفصيل - ثانيًا - أنّه يرجع في معرفة المكّيّ والمدنيّ من السُّور إلى حفظ الصحابة والتّابعين؛ لأنّه لم يرد عن النّبي ﷺ في ذلك قول، لأنّه لم يؤمر، ولم يجعل الله تعالى علم ذلك من فرائض الأُمّة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة النّاسخ من المنسوخ؛ لأنّ منازل من ذلك بمكّة يكون متقدّمًا، و منازل بالمدينة يكون متأخّرًا، على ما هو الأشهر من الاصطلاحات الثلاثة السّابقة، والمتأخّر هو الذي ينسخ المتقدّم؛ لأنّ معرفة هذا قد يكون بغير نصّ الرّسول ﷺ، أي بالاجتهاد في سياق الآيات وحظّها من مميّزات المكّيّ والمدنيّ، و حينئذ لا يكون النصّ عليه واجبًا.

و يجب أن نذكر قبل هذا التّفصيل - ثالثًا - أنّ لهم ضوابط في معرفة المكّيّ والمدنيّ من السُّور، وأنّهم مختلفون في هذه الضّوابط، وأنّها قائمة على اجتهادهم، ولم يرد فيها نصّ يقطع الخلاف فيها بينهم، فأخرج الحاكم في مستدرّكه، والبيهقيّ في الدّلائل، والبرّار في مسنده عن علقمة، عن عبد الله، قال: ما كان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أنزل بالمدينة، وما كان ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أنزل بمكّة. وقيل: ما كان في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أو ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ فإنّه مكّيّ، وما كان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنّه مدنيّ.

قال ابن عطية وغيره: هو في ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صحيح، وأمّا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فقد يأتي في المدنيّ، كما في سورة النساء، فإنّها مدنيّة، وأولّها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وكذلك

البقرة مدنية، وفيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اغْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾^١، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾^٢ وكذلك في كثير من السور المكية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فلا يكون صحيحاً أيضاً.
وأخرج البيهقي في «الدلائل» عن هشام بن عروة، عن أبيه: كل شيء نزل من القرآن في ذكر الأمم والقرون فإنما نزل بمكة، وما كان من الفرائض والسّنن فإنما نزل بالمدينة، إلى غير هذا من الضوابط التي لا تطرد مثل الضابط الأول، ولا تميّز المكي من المدني تمييزاً قاطعاً.

ولهذا كله كثر اختلافهم فيما هو مكي وما هو مدني من السور، فروي عن ابن عباس أنه قال: سألت أبي بن كعب عما نزل من القرآن بالمدينة، فقال: نزل بها سبع وعشرون سورة، وسائرهما بمكة وقال أبو الحسن بن الحصار في كتابه «الناسخ والمنسوخ»: المدني باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك مكي باتفاق.
وقد عقد السيوطي في «الإتقان» فصلاً في تحرير السور المختلف فيها، فذكرها على الترتيب الآتي... [وذكر كما تقدّم عنه، ثم قال:]

فعدّد السور المختلف فيها على هذا اثنان و ثلاثون سورة، وهذا يخالف القول السابق: إن المدني باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك مكي باتفاق ولعلّ هناك أقوالاً أخرى في ذلك غير هذين القولين، و سبب كثرة هذه الأقوال ما سبق من أنه لا يوجد نصّ قاطع في ذلك، وإنما يرجع الأمر فيه إلى اجتهاد العلماء. وهم يبنونه على ضوابط مختلفة في التمييز بين المكي والمدني، وقد سبق أن كلّ ما وضعوه من هذه الضوابط غير مُطرّد، وحينئذ لا يصحّ التعويل عليها في هذا التمييز. ولا شكّ أن اختلافهم وعدم تعويلهم على نصّ قاطع، بل على ضوابط غير مطّردة يسوّغ لنا أن نجتهد بعدهم فيما اختلفوا فيه، وأن نحاول في وسط اختلافهم الوصول إلى ما نراه من تقسيم السور إلى قسمين فقط: مكي خالص، ومدني خالص، حتّى لا يكون هناك قسم ثالث بعضه مكي وبعضه مدني؛ لما سبق من الأسباب التي تدعو إلى عدم قبوله، وأهمّها أن ما يقع من المدني في المكي وبالعكس يبدو ناشئاً فيهما، خارجاً على

سياقه، غير ملائم لزمته، وقد يتّخذ منه أعداء الإسلام مطعنا في القرآن، فإذا وردت مثلاً آية مدنيّة في سورة مكّيّة كآية الرّعد التي قيل: إنّ المراد بقوله تعالى فيها: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^١ عبد الله بن سلّام، قالوا: إنّ هذا خطأ؛ لأنّ السّورة مكّيّة، وعبد الله لم يسلم إلّا بعد الهجرة، فإذا قيل لهم: إنّ هذه الآية مدنيّة، لم يكن كافياً لإقناعهم، ولا يكون موقفنا معهم كموقفنا إذا قلنا: إنّ الآية مكّيّة كسورتها، ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ورّقه بن نوفل من أهل مكّة أو غيره. (العدد: ٣ - ٤، السّنة: ١٣٨٠، الصّفحة: ٣٥٦)

- ٢ -

لم يبق بعد تمهيد ما سبق إلّا أن نأخذ في تفصيل ما أجملناه، وننظر في كلّ سورة قيل: إنّها تجمع بين المكّيّ والمدنيّ، ولا نريد أن نشعّب القول في ذلك تشعيباً، ولا أن نستقصي كلّ ما قاله فيه المفسّرون؛ لئلاّ يؤدّي بنا هذا إلى أن نطوّل فيه تطويلاً مملاً، وقد آثرنا لهذا أن نقتصر على ما ورد في أوّل كلّ سورة في المصحّف من الإشارة إلى ما ورد من الآيات المكّيّة فيما هو مدنيّ، ومن الآيات المدنيّة فيما هو مكّيّ، وقد تجاوز هذا قليلاً إذا اقتضى المقام ممّا أن نجاوز، وسنرتّب الكلام في هذا على ترتيب تلك السّور في المصحّف، لنأخذها في هذا التّرتيب سورة بعد سورة.

١- سورة الفاتحة: هذه السّورة أنسب السّور لوضعها من القرآن موضع المقدّمة له، كما أنّها أنسب السّور للقراءة في الصّلاة، فهي إمّا أن تكون نزلت بمكّة مع تشريع الصّلاة لكونها ركناً من أركانها، وإمّا أن تكون نزلت بالمدينة عند قرب تكامل القرآن لتكون مقدّمة له، ولا معنى للقول بأنّها نزلت مرّتين بمكّة والمدينة جمعاً بين القولين^٢؛ لأنّ الجمع بين القولين ليس بواجب، ولا يصحّ ممّا أن نقبله على حساب التّاريخ؛ لأنّه يكون حينئذ غير صحيح.

٢- سورة البقرة: قيل: إنّها مدنيّة إلّا الآية: ٢٨١ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فنزلت بمنى في حجة الوداع، فإذا رجعنا إلى ما

١ - الرّعد / ٤٣.

٢ - يشبه أن يكون القول بأنّ نصفها الأوّل نزل بمكّة والثاني بالمدينة جمعاً بين القولين أيضاً.

سبق لم نجد مثل هذا قيل في سورة البقرة كما قيل في غيرها، وحينئذ لا يكون هذا الاستثناء محل اتفاق بينهم، وليس في الآية ما يدل على مكان نزولها، ولو سلم أنها نزلت بمنى في حجة الوداع فإنها تكون مدنية أيضاً، على ما هو الأشهر في المكي والمدني كما سبق.

٣- سورة النساء: هي مدنية إلا الآية: ٥٨ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ فإنها نزلت بمكة عام الفتح في مفتاح الكعبة، وهي في هذا كآية السابقة في البقرة سواء بسواء؛ لأنها نزلت بعد الهجرة مثلها، فلا يؤثر نزولها بمكة في كونها مدنية^١.

٤- سورة المائدة: هي مدنية إلا الآية: ٣ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ فنزلت بعرفات في حجة الوداع، شأنها في هذا مثل شأن آية البقرة أيضاً، وهذا إلى أنه ليس في الآية ما يبين زمن نزولها.

٥- سورة الأنعام: هي مكية إلا الآيات: ٢٠، ٢٣، ٩١، ٩٣، ١١٤، ١٤١، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣ فمدنية، فأما الآية (٢٠) فهي: ﴿الَّذِينَ اتَّيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَغْرِفُونَهُ كَمَا يَغْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ولا سبب لجعلها مدنية عند من ذهب إليه إلا حمل ما فيها على مسلمي أهل الكتاب بعد الهجرة، مثل عبدالله بن سلام وغيره ممن أسلم من يهود المدينة، وحملها عليهم غير متعين؛ لأنه يمكن حملها على ورقة بن نوفل وغيره ممن كان عندهم علم بالكتاب من أهل مكة، وهذا إلى أن المشهور في سورة الأنعام أنها نزلت جملة بمكة، وهذا ظاهر في أن جميع آياتها مكية، وهذا يقال في الآيات الآتية أيضاً.

وأما الآية: ٢٣ ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فهي متصلة بما قبلها وما بعدها اتصالاً يبعد معه تأخر نزولها عنهما.

وأما الآية: ٩١ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ - إِلَى - يَلْعَبُونَ﴾.

فسبب جعلها مدنية دعوى بعضهم أن المحاورة فيها مع بعض يهود المدينة وبيعه قوله: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ لأن هذا لا يصح أن يقولوه اليهود المعترفون بنبوّة موسى وغيره من رسلهم ولو على سبيل العناد، لأن العناد في مثله لا يصح أن يقع منهم، و

١ - وهذا إلى أن الأمانات فيها مطلقة غير مقيد بمفتاح الكعبة وغيره.

إنّما يصحّ أن يقع من مشركي قُريش ونحوهم وعلى هذا يكون قوله بعده: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ إلزامًا لهم؛ لأنّه كان من المشاهير الذّائعة عندهم على أنّه كان خاصًّا باليهود، ولهذا كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾^١، والخطاب في قوله بعده: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأَاطِيسَ﴾ للمشرّكين أيضًا، وإن كان جعلها قراطيس من اليهود لانهم؛ لأنّ اعترافهم بالتّوراة على ما سبق يسوّغ إضافة هذا إليهم، فقد جاء فيها البشارة بالنبي ﷺ واعترافهم بها يوجب عليهم الإيمان به، فإذا لم يؤمنوا به فقد جعلوها قراطيس أيضًا، ومما يؤيد أنّ الخطاب في هذا المشرّكي قُريش قوله بعده: ﴿وَعَلَّمْنُم مَّالِمَ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ لأنّ الخطاب فيه لهم قطعًا.

وأما الآية ٩٣ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، فليس فيها مثل ما في الآية السابقة ممّا يصحّ الاعتماد عليه في جعلها مدنيّة، فلا يكون هناك وجه لجعلها مدنيّة لا مكّيّة مثل باقي آيات السّورة. وأما الآية: ١١٤ ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ اتَّيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ فالمراد ﴿بِالَّذِينَ اتَّيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ فيها ورّقة بن نوّفل ونحوه من أهل مكّة، لا عبدالله بن سلّام ونحوه من أهل المدينة، وبهذا تكون مكّيّة لا مدنيّة.

وأما الآية: ١٤١ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، فمن جعلها مدنيّة استند إلى قوله فيها: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾؛ لأنّه حقّ الزّكاة، وقد وجبت الزّكاة في المدينة لا في مكّة، وكان الحصاد أيضًا في المدينة لا في مكّة؛ لأنّها في وادٍ غير ذي زرع، وقد أجاب من ذهب إلى أنّها مكّيّة عن هذا بأنّ وجوب الزّكاة في المدينة لا يمنع وجوبها في مكّة أيضًا، ولعلّ الذي حصل في المدينة تفصيل أحكامها، وبيان أنصبتها، وبأنّه يجوز أن يكون ما في الآية غير حقّ الزّكاة، وقد قال مجاهد: إذا حصدت فحضرت المساكين فاطرح لهم منه، وإذا دسسته و

ذريته فاطرح لهم منه، وإذا كربلته^١ فاطرح لهم منه، وإذا عرفت كيله فأعزل زكاته، وقيل: إن هذا كان قبل وجوب الزكاة، فلما وجبت نسخ بها، وكان لبعض أهل مكة زرع في الطائف والأودية المجاورة لهم.

وأما الآيات ١٥١ - ١٥٣ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ...﴾ الآيات، فلعل السبب في جعلها مدنيّة ما سبق في سورة المطففين من السور المختلف في أنّها مكّيّة أو مدنيّة، وأن من ذهب إلى أنّها مدنيّة اعتمد على أنّ أهل المدينة كانوا يطففون الكيل والميزان فنزلت فيهم، والاعتماد على هذا ضعيف، لأنّ التطفيف عيب منتشر في كلّ القرى والمدن لغلبة الطمع على النفوس، ولا يختصّ بأهل المدينة وحدهم.

٦- سورة الأعراف: مكّيّة إلا من آية ١٦٣ إلى غاية آية: ١٧٠ فمدنيّة، وهي بتبدىء بقوله تعالى: ﴿وَسُئِلَهُمْ عَنِ الْقُرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبُحَيْرِ﴾ والآيات بعدها في قصّة هذه القرية، وعقاب الله لها على اعتدائها في السبب، وهي من قصص بني إسرائيل المذكورة في هذه السورة قبل هذه الآيات، وهي خاتمة قصصها فيها، فيجب أن تكون مكّيّة مثلها، ولهذا لم تذكر سورة الأعراف فيما سبق من السور المختلف في أنّها مكّيّة أو مدنيّة.

٧- سورة الأنفال: مدنيّة إلا الآيات (٣٠-٣٦) فمكّيّة، وتبتدىء بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُزُ بِكِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآيات وهي معطوفة على قوله قبلها: ﴿وَإِذْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ فَعَلَيْكُمُ الْمَلْحَمَةُ﴾ الآية، فيذكرهم بعد انتصارهم على المشركين في بدر بأحوالهم معهم في مكة قبل هجرتهم منها، ليعرفوا فضله عليهم في هذا النصر بعد ما كان من قتلهم واستضعافهم وتأمير المشركين وتعنتهم عليهم في مكة، وبهذا تكون الآيات مدنيّة متمشّية مع سياق السورة، ولا معنى لجعلها مكّيّة بعد قوله في بدئها: ﴿وَإِذْ يَمْكُزُ﴾: لأنّه صريح في نزولها في المدينة، لأنّه معمول لا ذكر مقدّرة.

٨- سورة التوبة: مدنيّة إلا الآيتين الأخيرتين فمكّيّتان، وهما قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ الآيتين، وهما بعد كلام كثير مع المنافقين من أهل المدينة، وكانوا عرباً مثل مشركي مكة، فيصحّ أن يكون الخطاب لأولئك المنافقين أو للعرب

١- كربلته: الكريلة: تهذيب الحنطة وتقيها.

جميعاً؛ لأنّه ﷺ منهم أيضاً، ومّا يؤيد هذا ما ذهب إليه أبيّ بن كعب والحسن وسعيد بن جبّير أنّ الآيتين آخر ما نزل من القرآن.

٩- سورة يونس: مَكِّيَّة إِلَّا الْآيَات (٤٠، ٩٤، ٩٥، ٩٦) فمَدَنِيَّة، فأما الآية: ٤٠ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾، فهي جارية على سياق ما قبلها وما بعدها من الآيات. ولا شيء فيها يمنع كونها مَكِّيَّة مثلها؛ لما سبق أنّ الأمر في هذا مرجعه إلى الاجتهاد، وأما الآيات (٩٤ - ٩٦) فتبتدىء بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ومن ذهب إلى أنّها مدنيّة فهم أنّ المراد بمن يقرأون الكتاب من قبله عبدالله بن سلّام ونحوه ممّن أسلم من يهود المدينة، وهذا غير متعيّن فيها، بل الأولى حملة على وَرَقَةَ بن نَوْفَل ونحوه من أهل مكّة، وحينئذ تكون الآيات الثلاث مَكِّيَّة لا مدنيّة مثل باقي السّورة.

(العدد: ٥٠، السّنة: ١٣٨١، الصّفحة: ١٨٥)

- ٣ -

وصلت فيما سبق إلى إثبات رأيي فيما قبل سورة هود أنّ السّور إمّا مَكِّيَّة خالصة، وإمّا مدنيّة خالصة، وسأمضي هنا في إثباته في سورة هود وما بعدها.

١٠- سورة هود: مَكِّيَّة إِلَّا الْآيَات (١٢، ١٧، ١١٤) فمَدَنِيَّة، فأما الآية: ١٢ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ مَا يُوْحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ﴾ الآية، فهي في مشركي مكّة، ولا وجه لجعلها مدنيّة.

وأما الآية: ١٧ ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الآية، فمن جعلها مدنيّة حمل قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ على عبدالله بن سلّام ونحوه ممّن أسلم من يهود المدينة، وقد سبق في مثله أنّه يمكن حملة على وَرَقَةَ بن نَوْفَل ونحوه من أهل مكّة، وبهذا تكون الآية مَكِّيَّة مثل ما قبلها وما بعدها من الآيات.

وأما الآية: ١١٤ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾، فشانها شأن الآية: ١٢

سواء بسواء.

١١- يوسف: مَكِّيَّةٌ إِلَّا الْآيَاتُ (١، ٢، ٣، ٧) فمَدَنِيَّةٌ، فَأَمَّا الْآيَاتُ: ١ - ٣ ﴿أَوَلَمْ يَرْسَلْنَاكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ الْآيَاتُ، فَلَا وَجْهَ لَجْعَلِهَا مَدَنِيَّةً؛ لِأَنَّ طَابِعَهَا مَكِّيٌّ لَامَدَنِيٌّ، وَكَذَلِكَ الْآيَةُ: ٧ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ﴾؛ لِأَنَّهَا مَتَمَشِيَّةٌ مَعَ سِيَاقِهَا، وَلَا مَعْنَى لَجْعَلِهَا مَدَنِيَّةً فِي وَسْطِهِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ السَّائِلَ فِيهَا حَبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى لِمَنْ يَرِيدُ أَنْ يَسْأَلَ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ.

١٢- سورة الرعد: قَالَ الْأَصَمُّ: مَدَنِيَّةٌ بِالْإِجْمَاعِ سِوَى آيَةِ ٣١: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ وَدَعَا الْإِجْمَاعَ غَيْرَ صَحِيحَةٍ؛ لِأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّهَا مَكِّيَّةٌ سِوَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، وَهُوَ الرَّاجِحُ عِنْدِي بِلَا اسْتِثْنَاءٍ فَأَمَّا الْآيَةُ الْأُولَى: ٣١ ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾، فَسَبَبُ جَعْلِهَا مَدَنِيَّةً عِنْدَ بَعْضِهِمْ حَمْلُهُ الْقَارِعَةَ عَلَى مَا كَانَ يَصِيبُهُمْ مِنْ سَرَايَا الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ هَجْرَتِهِمْ. وَالْأُولَى حَمَلُهَا عَلَى مَا كَانَ يَصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَايَا وَالْحُرُوبِ بِسَبَبِ تَفَرُّقِهِمْ وَانْقِسَامِهِمْ إِلَى قِبَائِلٍ مُتَعَادِيَةٍ مُتَخَاصِمَةٍ، وَلَا مُنْجَاةَ لَهُمْ مِنْ هَذَا إِلَّا بِدِينٍ يَجْمَعُهُمْ وَمِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْآيَةُ: ٤١ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، فَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِهَا أَرْضَ مَكَّةَ يَنْقُصُهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَطْرَافِهَا بَعْدَ هَجْرَتِهِمْ مِنْهَا، وَالْحَقُّ عِنْدِي أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا أَرْضَ الْعَرَبِ يَنْقُصُهَا دَوْلَتَا فَارِسَ وَالرُّومَ مِنْ أَطْرَافِهَا، وَهُوَ تَحْذِيرٌ لِمُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ مِنْ اسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى تَفَرُّقِهِمْ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُمْكِنُ لِلدَّوْلَتَيْنِ مِنْهُنَّ، وَلَا يَنْقُضُهُنَّ مِنْ هَذَا إِلَّا دِينٌ يَجْمَعُ كَلِمَتَهُنَّ. وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَّةُ: ٤٣ ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، فَلَا يَتَعَيَّنُ فِيهَا أَنْ يَكُونَ مِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ عَلَى مَا سَبَقَ فِي نَظِيرِهِ.

١٣- سورة إبراهيم: مَكِّيَّةٌ إِلَّا آيَتِي (٢٨، ٢٩) فمَدَنِيَّتَانِ، وَالْآيَتَانِ هُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ الْآيَتَيْنِ، وَهُمَا أَهْلُ مَكَّةَ، أَسْكَنَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى حَرَمَهُ الْأَمْنِ، وَجَعَلَ فِي السَّعَةِ، فَكَفَرُوا بِهِ، وَجَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ مِنْ أَصْنَامِهِمْ، وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي أَنَّهُمَا مَكِّيَّتَانِ لَامَدَنِيَّتَانِ.

١٤- سورة الحجر: مَكِّيَّةٌ إِلَّا آيَةُ (٨٧) فمَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَاكَ سَبْعًا

مِنَ الْمَقَابِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ»، و من ذهب إلى أنّها مدنيّة حمل السّبع المثنائي على السّبع الطّوال، وفيها سور مدنيّة كما سبق، فتكون الآية مدنيّة أيضاً، ولكن أرجح الأقوال في السّبع المثنائي أنّها سورة الفاتحة؛ لأنّها سبع آيات، وقيل: إنّها القرآن كلّ، وعلى هذا تكون الآية مكّيّة مثل باقي آيات السّورة.

١٥- سورة النّحل: قيل إنّها مكّيّة غير ثلاث آيات في آخرها، وحكى الأصمّ عن بعضهم أنّها كلّها مدنيّة، وقال آخرون: من أوّلها إلى قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾^١ مدنيّ، وما سواه فمكيّ، وعن قتادة بالعكس. ولا وجه لهذا الاضطراب عندي، وإنّي أرى أنّ طابعها مكّيّ من أوّلها إلى آخرها، وسأثبت في الآيات التي يظنّ فيها خلاف هذا أنّها مكّيّة.

و أوّلها - قوله تعالى في الآية: ٤١ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ الآية، فحمل من ذهب إلى أنّها مدنيّة الهجرة فيها إلى هجرة المدينة، ويجب عندي حملها على هجرة الحبشة؛ لتكون الآية مكّيّة على سياق السّورة.

و ثانيها - الآيات: ٩١ - ٩٦ ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ الآيات، فحمل العهد فيها من ظنّ أنّها مدنيّة على عهد الهدنة بين المسلمين وغيرهم بعد شرع القتال في المدينة، والحقّ عندي أنّ هذا العهد لا يتعيّن في عهد الهدنة؛ لأنّ هناك عهداً كثيرة في جميع المعاملات يجب الوفاء بها، و حينئذ تكون هذه الآيات مكّيّة أيضاً.

و ثالثها - قوله تعالى في الآية: ١١٠ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ الآية، وقد سبق أنّ الهجرة هنا هجرة الحبشة لاهجرة المدينة، وكذلك الجهاد في الآية هو الجهاد بالمال وبالصّبر على أذى المشركين في مكّة، ولا يتعيّن أن يكون الجهاد بالقتال الذي شرّع بعد الهجرة إلى المدينة.

و رابعها: الآيات: ١٢٦ - ١٢٨ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ الآيات، قيل إنّها نزلت في غزوة أحد حينما مثل المشركون بحمزة، فقال النّبي ﷺ: والله لأمتلنّ بسبعين منهم، والحقّ عندي أنّ العقاب في الآية عامّ يشمل الضّرب والسّتم ونحوهما ممّا كان قبل شرع القتال في المدينة، فالمقصود من الآية نهى المظلوم عن استيفاء الزّيادة من

الظالم، كما قال ابن سيرين: إن أخذ منك رجل شيئاً فخذ منه مثله، وحينئذ تكون الآيات مكيّة لا مدنيّة.

١٦- سورة الإسراء: مكيّة إلا الآيات (٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧)، والآيات (٧٣ - ٨٠) فمدنيّة، وسأثبت أن هذه الآيات مكيّة أيضاً مثل باقي آيات السّورة.

فأمّا الآيات (٢٦، ٣٢، ٣٣) فقد وردت في جملة وصايا ابتدأت بالآية: ٢٣ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وانتهت بالآية ٣٩ ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾، وسياق هذه الوصايا واحد، فلا وجه لجعل بعضها مدنيّاً وبعضها مكيّاً.

وأما الآيات (٧٣ - ٨٠) فتبتدئ بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيَنا إِلَيْكَ لِفَتَرَةٍ عَلَيْنَا غَيْرَةٍ﴾ إلى أن يقول: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ والخطاب في هذا كله لمشركي قريش وما كان من شأنهم بعد بسببها لشدة إنكارهم لها، وحينئذ يكون سياقها مكيّاً أيضاً، وهو ما ذهب إليه كثير من المفسرين.

١٧- سورة الكهف: مكيّة إلا الآيات (٢٨) والآيات (٨٣ - ١٠١) فمدنيّة، وعن قتادة أنّها مكيّة من غير استثناء، وهذا هو الأرجح عندي.

فأمّا الآيات: ٢٨ ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعُدْوَةِ وَالْعَيشِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ الآية، فإنّها نزلت في شأن قريش حين قال أكابرهم للنبي ﷺ: إن أردت أن نؤمن بك فاطرد من عندك هؤلاء الفقراء الذين آمنوا بك، وحينئذ تكون هذه الآية مكيّة لا مدنيّة.

وأما الآيات: ٨٣ - ١٠١ ﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ الآيات، فهي في قصّة ذي القرنين، والسائلون فيها هم مشركوا قريش، كما هو مشهور، وحينئذ تكون هذه الآيات مكيّة أيضاً.

١٨- سورة مريم: مكيّة إلا الآيتين (٥٨ - ٧١) فمدنيّتان، فأمّا الآية: ٥٨ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية، فهي واردة بعد قصص أنبياء سابقين عليها، فتكون هذه الآية مكيّة مثل الآيات السابقة عليها في هؤلاء الأنبياء.

وأما الآية: ٧١ ﴿وَأَن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ الآية، فالضمير في ﴿وَارِدُهَا﴾ يعود على النار في الآيات قبلها، وحينئذ تكون متصلة بها كلّ الاتّصال، ولا يكون فيها شيء يشعر بأنّها مدنيّة.

١٩- سورة طه: مَكِّيَّةٌ إِلَّا الْآيَتَيْنِ (١٣٠، ١٣١) فمَدَنِيَّتَانِ، وهما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ الْآيَتَيْنِ، وَالضَّمِيرُ فِي (مِنْهُمْ) عَائِدٌ إِلَى الْمَذْكُورِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وَهُمْ مُشْرِكُوا قُرَيْشٍ، فَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ مَكِّيَّةً أَيْضًا وَفَاقًا لِسِيَاقِهَا.

٢٠- سورة الحج: وَاسْتَنْتَى بَعْضُهُمُ: الْآيَاتِ (٥٢ - ٥٤)؛ لِأَنَّهَا نَزَلَتْ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَقَدْ سَبَقَ أَنَّ الْمَكَانَ لَا شَأْنَ لَهُ فِي تَمْيِيزِ الْمَكِّيِّ مِنَ الْمَدَنِيِّ، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ فِي هَذَا لَمَّا نَزَلَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَبَعْدَهَا. وَقِيلَ: إِنَّهَا مَدَنِيَّةٌ إِلَّا الْآيَاتِ (١٩ - ٢٤) وَهِيَ ﴿هَٰذَانِ خَصَمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ الْآيَاتِ، وَالْإِشَارَةُ فِيهِ (هَٰذَانِ) إِلَى أَهْلِ الْأَدْيَانِ السَّتَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ الْآيَةِ، فَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَاتُ مَكِّيَّةً مِثْلَهُ، وَلِهَذَا لَمْ تَسْتَنْتَ فِي الْقَوْلِ الْأَوَّلِ مَعَ مَا اسْتَنْتِي فِيهِ.

٢١- سورة الفرقان: مَكِّيَّةٌ إِلَّا الْآيَاتِ (٦٨ - ٧٠) فَمَدَنِيَّةٌ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ تَبْتَدِئُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الْآيَاتِ، وَهِيَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ: ٦٣ ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ الْآيَةِ، وَكُلُّهَا سِيَاقٌ وَاحِدٌ مَكِّيٌّ، وَلَا مَعْنَى لَجْعَلِ بَعْضَهُ مَكِّيًّا وَبَعْضَهُ مَدَنِيًّا.

٢٢- سورة الشعراء: مَكِّيَّةٌ إِلَّا الْآيَةِ (١٩٧) وَالْآيَاتِ (٢٢٤ - ٢٢٧) فَمَدَنِيَّةٌ، فَأَمَّا الْآيَةُ: ١٩٧ ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَغْلِبَهُمْ عُلَمَاؤُا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، فَمَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهَا مَدَنِيَّةٌ حَمَلَ ﴿عُلَمَاؤُا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ عَلَى مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْهُمْ بَعْدَ الْهَجْرَةِ مِثْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَلَكِنَّ الْآيَةَ لَيْسَ فِيهَا إِيمَانُهُمْ بِهِ، وَإِنَّمَا فِيهَا عِلْمُهُمْ مَا جَاءَ فِيهِ، أَيْ مِنَ التَّوْحِيدِ وَنَحْوِهِ، وَبَطْلَانُ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَحِينَئِذٍ لَا يَكُونُ فِي الْآيَةِ مَا يَجْعَلُهَا مَدَنِيَّةً لَا مَكِّيَّةً؛ لِأَنَّ الْاِحْتِجَاجَ بِعِلْمِهِمْ بِهَذَا يَصَحُّ مَعَ كَوْنِهَا مَكِّيَّةً لَا مَدَنِيَّةً.

وَأَمَّا الْآيَاتِ: ٢٢٤ - ٢٢٧ ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فَمَنْ جَعَلَهَا مَدَنِيَّةً حَمَلَ الَّذِينَ اسْتَنْتَوْا مِنَ الشُّعْرَاءِ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ وَحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَكَعْبَ بْنِ زُهَيْرٍ، وَكَانَ إِسْلَامُهُمْ بَعْدَ الْهَجْرَةِ، وَلَا يَتَبَيَّنُ عِنْدِي حَمْلُ هَذَا عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ وَرَدَتْ رَدًّا عَلَى قَوْلِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ: لَمْ لَا يَجُوزُ أَنْ

يكون القرآن من تنزيل الشياطين على محمد كتنزيلهم الشعر على الشعراء؟ فأجيب بالفرق بين ما يدعو إليه في القرآن، وما يدعون إليه في الشعر، ولا بد أن هذا الجواب نزل بمكة عقب قولهم: «لأنه لا يصح تركه هذه المدة الطويلة من غير جواب، وهذا الاستثناء لا بد منه، ولو لم يؤمن بعضهم بالفعل: «لأنه لا يصح ذم الشعر والشعراء على الإطلاق في مقام التشريع، لأن من الشعر ما يقال في الحكم ونحوها، وهو شعر صالح يجب استثناءه من ذلك الذم، وحينئذ تكون هذه الآيات مكية أيضاً.

٢٣- سورة القصص: مكية إلا الآيات (٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٨٥) فمدنية، فأما الآيات (٥٥، ٥٢) فتبتدىء بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ الآيات، فمن جعلها مدنية حملها على عبدالله بن سلام ونحوه من يهود المدينة، وقد سبق أن هذا ليس بمتعين؛ لأنها يجوز حملها على ورقة بن نوفل ونحوه من أهل مكة، وأزيد هنا أن مشركي قريش كانوا يبعثون قبل الهجرة إلى هؤلاء اليهود يستفتونهم في محمد، فكان بعضهم يفتهم بأنه يجد نفعه في توراتهم، فيمكن حمل هذه الآية وما سبق من نظائرها عليهم. وأما الآية ٨٥: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ الآية فليس فيها ما يدل على أنها مدنية إلا حمل المعاد على مكة، أي لرادك إليها بعد هجرتك منها بفتحها، وهذا ليس بتعين في الآية؛ لأن كثيراً من المفسرين ذهب إلى أن المراد بالمعاد القيامة، وهو المناسب لسياق ما قبله وما بعده، فيكون مكياً مثله.

٢٤- سورة العنكبوت: مكية، وقيل مدنية، وقيل: نزلت من أولها إلى رأس عشر آيات بمكة، وبقايا بالمدينة، وقيل بعكس هذا، وهذا اضطراب كثير، سببه أن في السورة طابعاً من المدني، وطابعاً من المكي، وسبب جمعها بين الطابعين أنها نزلت بعد أن هاجر بعض المسلمين إلى المدينة، وكان النبي ﷺ لا يزال بمكة، فكان يحث من لم يهاجر على الهجرة وما يكون بعدها من جهاد في سبيل الله، وقد استجاب له المسلمون إلا قليلاً منهم صعبت عليه الهجرة والجهاد، وهم المنافقون الذين ورد ذكرهم في أول السورة، وهم منافقو مكة لانفاقو المدينة، ولهذا أختار ما ذهب إليه بعضهم من أن السورة كلها مكية.

فأما الآيات الأولى منها فتبتدىء بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ * أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أي يختبرون بالهجرة والجهاد، ثم مضى الكلام في هذا وفيمن

صعب عليه من أولئك المنافقين، وفي بيان أن هذا كان سبيل من قبلهم من اتباع الرسل، وكان هذا سبباً في الانتقال منه إلى ذكر قصص بعضهم تفصيلاً بعد الإشارة إليه إجمالاً.

ثم جاء بعد هذا في الآية: ٤٦ ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الآية طابع مدني؛ لأن الإسلام كان قد انتشر بالمدينة، وفيها يهود قبل أن يهاجر النبي ﷺ إليها، فهي توصية لمن أسلم من أهل المدينة ومن هاجر قبله.

ثم عاد الترغيب في الهجرة بقوله في الآية ٥٦: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون﴾ ومضى الكلام فيه إلى آخر السورة.

٢٥- سورة الزوم: مكية إلا الآية (١٧) فمدنية، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ وليس فيها شيء يقتضي جعلها مدنية دون ما قبلها وما بعدها من الآيات، وحينئذ تكون مكية أيضاً.

٢٦- سورة لقمان: مكية إلا الآيات (٢٧-٢٩) فمدنية. وقيل: إنها مكية إلا الآية (٤) ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الآية؛ لأن الصلاة والزكاة نزلتا بالمدينة، ولا شك أن هذا غير صحيح في الصلاة؛ لأنها نزلت بمكة، وأما الزكاة فقد سبق أنها كانت واجبة فيها أيضاً أو مندوبة على الأقل، فيكون الذي نزل بالمدينة فرضها، أو تفصيل أحكامها.

(العدد: ٥١ - ٥٢، العام: ١٣٨٢: ٣٢٢)

الفصل الرابع والعشرون

نص الخطيب (معاصر) في «التفسير القرآني للقرآن»

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ...﴾ النحل: ١٠١

[عقب المؤلف بعد ذكر أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية و نقدها بقوله:]

و إذن فما تأويل هذه الآية؟ وما المراد بالتبديل لآية مكان آية؟

الجواب - والله أعلم - أن المراد بتبديل آية مكان آية هنا هو ما كان يحدث في ترتيب الآيات في السور، ووضع الآية بمكانها من السورة، كما أمر الله سبحانه وتعالى. وذلك أن آيات كثيرة كانت مما نزل بالمدينة وقد وضعت في سورة مكية، كما أن آيات مما كان قد نزل بمكة أُلحقت بالقرآن المدني.

وهذا الذي حدث بين القرآن المكي والمدني، من تبادل الأمكنة للآيات بينهما، قد حدث في القرآن المكي والمدني كل على حدة، فكانت السورة المكية مثلاً تنزل على فترات متباعدة، فتتزل فاتحتها، ثم تنزل بعد ذلك آيات آيات حتى يتم بناءها.

وعلى هذا، فإن تبديل آية مكان آية هو وضع آية نزلت حديثاً بمكانها الذي يأمر الله سبحانه وتعالى أن توضع فيه بين آيات سبقتها بزمن قد يكون عدة سنين.

فقد اتفق علماء القرآن على أن آيات نزلت بمكة، ثم حين نزل من القرآن في المدينة ما يناسبها أخذت مكانها فيه. وهذا يعني أنها نقلت من مكانها في السورة المكية إلى مكانها الذي كانت تنتظره أو كان ينتظرها في السورة المدنية.

و من أمثلة هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾^١ فهذه الآية مكيّة باتفاق، وقد وضعت في سورة الأنفال، وهي مدنيّة باتفاق أيضاً.

و هذا يعني أنّ الآية من هذه الآيات كانت تأخذ مكانها مؤقتاً في السورة المكيّة، حتّى إذا نزلت سورتها المدنيّة أخذت مكانها الذي لها في تلك السورة.

و من هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ...﴾ إلى آخر السورة،^٢ وهاتان الآيتان مكيّتان، وقد وضعنا بمكانهما فمن آخر التوبة، وهي مدنيّة.

وهكذا كان الشأن في السور المكيّة، فإنّها كانت تستقبل جديداً من الآيات المدنيّة، وتأخذ مكانها المناسب لها بين آيات السورة حيث يأمر الله، وذلك كثير في القرآن الكريم، وقلّ أن تخلو سورة مكيّة من دخول آية أو آيات مدنيّة على بنائها.

فهذا التّدير السّماويّ لبناء القرآن الكريم، و ترتيب الآيات في السور اقتضى أن تأخذ بعض الآيات أمكنة ثابتة دائمة بدلاً من أمكنتها الموقوتة التي كانت تأخذها بين آيات أخرى غير تلك الآيات التي استقرّت آخر الأمر معها.

ولاشكّ أنّ كثيراً من المشركين والمنافقين ومرضى القلوب - كانوا ينظرون إلى هذا التّبديل والتّغيير الذي كان يؤذّن النّبيّ أصحابه وكتّاب الوحي به - كانوا ينظرون إليه نظر اتّهام للنّبيّ بأنّه إنّما يعيد بناء قرآنه، ويغيّر ويبدّل فيه، ويصلح من أمره ما يراه غير مستقيم عنده، شأنه في هذا شأن الشّاعر، ينشئ القصيدة، ثمّ يجري عليها من التّعديل والتّبديل ما يبدوله حتّى تستقيم لنظره، وتقع موقع الرّضا من نفسه، هكذا فكروا وقدرّوا.

و إذن، فما محمّد والقرآن الذي معه - والذي يجري عليه هذه التّسوية بالتّبديل والتّغيير في بنائه - إلّا واحداً من هؤلاء الشّعراء الذين يجودون شعرهم، ويسوون وجوهه، فيكون لهم من ذلك تلك القصائد المعروفة بالحواليات التي يعيش الشّاعر معها حولاً كاملاً، يعالج ما فيها من عوج حتّى تستقيم له.

و إذن، فما دعوى محمّد بأنّ هذا القرآن من عند الله إلّا محض كذب وافتراء.

هكذا كان يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض في النّبيّ الكريم حين كانوا

يَرَوْنَهُ يَصْنَعُ هَذَا الصَّنِيعَ فِي تَرْتِيبِ الآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي سُورِهَا حَسَبَ الْوَحْيِ السَّمَائِيِّ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ مِنْ رَبِّهِ.

و قد ردَّ الله سبحانه وتعالى على هؤلاء السَّفَهَاءِ بقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^١

و روح القدس هو جبريل عليه السلام، وهو السِّفِيرُ بَيْنَ اللَّهِ سبحانه وتعالى وبين النَّبِيِّ الكَرِيمِ بهذا القرآن الكريم.

وقوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ليربط على قلوبهم، ويقوّي عزائمهم، ويثبت أقدامهم على طريق الإيمان، بما ينزل عليهم من آياتٍ تؤنس وحشتهم، وتكشف لهم عن العاقبة المسعدة التي ينتهي إليها صراعهم مع قوَى البغي والعدوان. فالثابت من تاريخ القرآن - كما قلنا - أنّ آياتٍ كثيرة نزلت، ثم لم تأخذ مكانها في السُّور التي هي منها إلا بعد زمن امتدّ بضع سنين.

فهذه الآيات التي سبقت سُورها إنّما كانت للتّعجيل بِبُشْرِيَّاتِ النَّبِيِّ وللمؤمنين معه. فسورة الأنفال مثلاً - وهي مدنيّة باتّفاق - قد ضمَّ إليها سبع آيات كانت قد نزلت بمكّة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُزُّ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُزُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ...﴾^٢.

ففي ظلِّ هذه الآيات استروح النَّبِيُّ والمؤمنون - وهم في مكّة - أرواح الأمل والرَّجاء، ومن تلقاء هذه الآيات استقبل النَّبِيُّ والمؤمنون بشارات النَّصْرِ لهذا الدِّين الذي تلقَّى على يد المشركين ألواناً من الكيد والمكر، وضروباً من السَّفَاهَةِ والجهل. لقد كانت تلك الآيات، وكثيرٌ غيرها، هي الزَّاد الذي يتزوّد به النَّبِيُّ والمؤمنون أثناء تلك الرِّحلة القاسية التي قطعها النَّبِيُّ والمؤمنون معه في شِعَابِ مكّة ودروبها من أوّل البعثة إلى أن أذن الله سبحانه وتعالى له بالهجرة.

وبهذا الزَّاد تقوّى النَّبِيُّ والمؤمنون معه على حمل هذا العبء الثَّقِيلِ خلال تلك الرِّحلة المضنيّة القاسية، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ

بِالْحَقِّ لِيُنَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا^١. وقد اختصَّ الذين آمنوا بالذكر هنا؛ لأنَّهم كانوا في حاجةٍ ماسةٍ إلى هذا الرِّاد، ليثبتوا مواقفهم، وليصبروا على هذا البلاء الذي كانوا فيه، انتظاراً لهذا الوعد الكريم الذي وعدهم الله سبحانه وتعالى به فيما سيأخذ به المشركين من خزي وخذلان كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصِدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْشِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ^٢﴾. ولم يذكر النَّبِيَّ الكريم هنا؛ لأنَّه صلوات الله وسلامه عليه محفوظ دائماً بالطف ربه، وعلى يقين راسخ من نصر الله، فهو صلوات الله وسلامه عليه، يحمل في كيانه من قُوَى الحق والإيمان ما لا تتال منه الدُّنيا كلُّها لواجتماع أهلها على حربه والكيد له. وفي هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه لعمِّه أبي طالب: «والله ياعم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته».

وهذه الظَّاهرة في القرآن الكريم، من تبادل الآيات أماكنها خلال الفترة التي نزل فيها، تقابلها ظاهرة أخرى، وهي نزول القرآن منجَّماً خلال ثلاث وعشرين سنة؛ حيث لم ينزل جملةً واحدةً، وإنَّما نزل آيةً آيةً، وآياتٍ آياتٍ، حتَّى كُملَ وتَمَّ بناؤه على الصُّورة التي أرادها عليها سبحانه وتعالى، كما تلقَّاه النَّبِيُّ الكريم من جبريل في العُرْضة الأخيرة التي كانت بينهما، بعد أن تمَّ نزول القرآن قُبيل وفاة النَّبِيِّ بزم من قليل.

فهناك إذن عمليَّتان قام عليهما بناء القرآن الكريم، وهما:

أولاً - نزوله منجَّماً، أي مفرَّقاً.

ثانياً - نزوله غير مرتَّب الآيات في السُّور.

وقد كشف الله سبحانه وتعالى عن السَّبب الذي من أجله كان بناء القرآن على هذا الأسلوب.

أمَّا عن نزول القرآن مفرَّقاً فالله سبحانه وتعالى يقول ردًّا على المشركين الذين أنكروا أن يجي القرآن على هذا الأسلوب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَانْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ جُمْلَةً

وَاحِدَةً...^١

فنتبئت فؤاد النَّبِيِّ هو من بعض ما في نزول القرآن على تلك الصورة من حكمة. وأما عن نزول القرآن غير مرتَّب الآتي فقد رأينا أنَّ من حكمته تثبيت قلوب المؤمنين، بما تحمل إليهم الآيات التي تسبق سورها من بُشْرَيَات، كما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. الآيتين^٢. ففي هذا التدبير من نزول القرآن الكريم غير مرتَّب الآتي، في هذا ما يسمح بنزول بعض الآيات متقدِّمة زمنًا على سورها التي ستلتقي بها، وتأخذ مكانها فيها بعد أن يتم نزول القرآن كله.

وفي هذه الآيات التي كانت تنزل متقدِّمة زمنًا على سورها تثبيت لقلوب المؤمنين، وهدى لهم، وُبُشْرَى بالمستقبل المسعد الذي ينتظر الإسلام و ينتظرهم معه...^٣

(٧: ٣٦٣ - ٣٦٨)

(سورة الأحزاب) مناسبتها لما قبلها

مع أنَّ هذه السورة مدنيّة، ومع أنَّ السورة التي قبلها (السجدة) مكّيّة، ومع الفاصل الزماني الممتد بينهما، فقد اتّصلت السورتان بعضها ببعض، والتقى ختام السابقتين منهما ببدء التالية، حتّى لكأنّهما سورة واحدة، وهذا ممّا يدلّ على أنَّ ترتيب السور في المصحف توقيفيّ كترتيب الآيات في السور، وهذا يعني أنَّ الصورة التي نزل عليها القرآن تختلف جمعًا و ترتيبًا - وإن لم تختلف مادّةً وموضوعًا - عن الصورة التي انتظم عليها نظام القرآن، بعد أن تمّ نزوله في العرصة الأخيرة التي كانت بين جبريل وبين النَّبِيِّ صلوات الله وسلامه عليهما، على ما سنرى ذلك عند تفسير السورة. وهنا يلقانا أمر نحبُّ أن نقف عنده وننظر فيه وفي الآثار التي تنجم عنه.

١ - الفرقان / ٣٢ - ٣٣.

٢ - النحل / ١٠١ - ١٠٢.

٣ - ذكر المؤلف مثل هذا النص في كتاب آخر باسم «من قضايا القرآن».

فتنة الترتيب النزولي للقرآن

فهناك دعوة جديدة محمومة بدأت تظهر في آفاق مختلفة في محيط العالم الإسلامي، وفي خارج هذا المحيط، تدعو إلى إعادة نظم القرآن وجمعه على حسب ترتيب نزوله، بمعنى أن يكون المصحف القرآني المقترح مبتدئاً بأول آية تلقاها النبي الكريم وحياً من ربه، ثم الآية التي تليها، وهكذا آية آية، وآيات آيات، حتى آخر آية نزلت على النبي.

وهذا أمر يبدو في ظاهره أنه دراسة من الدراسات التي تخدم القرآن مثل تلك الدراسات التي قامت حول الكتاب الكريم، كأسباب النزول، والتاسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، والتهايري والليلي، وما نزل ببيت المقدس وما نزل بالطائف، وما نزل بالسفر، وما نزل بالحضر، إلى غير ذلك من تلك الدراسات الكثيرة التي تدور في فلك القرآن، ولا تمس الصميم منه.

ومن هنا كان خطر هذه الدعوة، التي قد ينخدع لها كثير من المسلمين، والتي ربما اندفع في تيارها بعض العلماء عن نية حسنة ومقصد سليم؛ إذ كان الأمر في ظاهره دراسة في كتاب الله وفتحاً جديداً، يعدّ كشفاً من كشف العلم الحديث في دراسة القرآن. ويبدو الخطر الذي يهدّد القرآن من الفتنة مائلاً من وجوه:

فأولاً - استحالة ضبط صورة القرآن على حسب الترتيب النزولي لآياته؛ حيث لم يُعرف الترتيب النزولي إلا لعدد محدود من آيات القرآن، لا تمثل إلا أقلّ القليل منه، قد لا تتجاوز بضع آيات، أو عشرات من الآيات على أكثر تقدير. وحتى هذا القليل الذي يقال: إنه معروف الترتيب، لم يقع الإجماع بين العلماء عليه، وحتى أنهم لم يتفقوا على أول ما نزل به الوحي، كما لم يتفقوا على آخر ما نزل به فبينما يقول أكثرهم: إن أول ما تلقى النبي من وحي هو قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ - إلى قوله - مَا لَمْ يَعْلَمْ.

بينما يقول أكثرهم هذه - يقول بعضهم - كما في صحيح مسلم - إن أول ما نزل من القرآن الفاتحة، ثم نزل بعدها المدثر، ثم الآيات الثلاث الأولى من سورة نوح.

وبينما يقول أكثر العلماء: إن آخر القرآن نزولاً هو قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ

دِينَكُمْ وَاتَّمَعْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا^١

إذ يقول آخرون: إِنَّ آخر ما نزل من القرآن هو: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ و يقول غيرهم: إِنَّ آخر القرآن نزولاً هو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^٢ و في البخاري: أَنَّ آخر القرآن نزولاً: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾^٣.

فإذا كان المسلمون لم يتفقوا على أول آيات نزلت من القرآن، كما لم يتفقوا على آخر ما نزل منه، فكيف يقع اتفاقهم فيما وراء ذلك؟ و المعروف أَنَّ أوائل الأمور و أواخر أكثر إلفاتاً للناس و أشدّاً لا تنباههم، و إيقاضاً لمشاعرهم و تعلقاً بذاكرتهم من غيرها.

ثانياً - لو سارت هذه الفتنة إلى غايتها، و سُلم لأصحابها أن يمضوا بها كما يشاءون - و مع افتراض الثبوت الحسن فيهم - فإنَّ الذي سيحدث من هذا هو أن تتغير صورة القرآن تغيراً كبيراً، لا يصبح معه القرآن قرآنًا، بل سيكون هناك عشرات، بل مئات و ألوف من المصاحف التي تسمى قرآنًا، و التي لا يلتقي واحد منها مع آخر، و كل ما فيها أنها آيات القرآن انفرط عقدها، و تناثرت آياتها، كما تتناثر أجزاء آلة من الآلات الميكانيكية أو الكهربائية، ثم تتناولها أيدي أطفال، يجمعونها و يفرقونها كما يشاءون.

و نضرب لهذا مثلاً من القرآن، لصورة من تلك الصور التي يمكن أن تجيء عليها سورة كسورة العلق مثلاً، و هي التي يكاد يتفق العلماء على أَنَّ الآيات الأولى منها كانت أول ما نزل من الوحي، و هي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ - إلى قوله تعالى - عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. ثم فصل هذه الآيات بما قيل: إِنَّه كان أول ما تلقاه النبي بعدها من آيات، و هي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ - إلى - فَاضْبِرْ، ثم لنصل بها ما كان تالياً لها في النزول، و هي الآيات الثلاث من أول سورة نوح. و نقرأ هذا القرآن:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ - إلى - مَا لَمْ يَعْلَمْ^٤ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ - إلى - فَاضْبِرْ^٥ ﴿وَإِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ - إلى - لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^٦.

١ - المائدة / ٣.

٢ - البقرة / ٢٨١.

٣ - النساء / ١٧٦.

٤ - العلق / ١ - ٥.

٥ - المدثر / ١ - ٧.

٦ - نوح / ١ - ٤.

هذه صورة أو سورة مما يمكن أن يقرأ عليه القرآن، لو أخذ بالترتيب النزولي، الذي تدعو إليه تلك الفتنة، وذلك على قول واحد من تلك الأقوال الكثيرة المختلفة في هذا الترتيب، فكيف لو أخذ بكل قول؟ ثم كيف لو أخذ بالأقوال المختلفة كلها في القرآن كله في ترتيب نزوله؟ إنه - والأمر كذلك - لا تكاد تجتمع آية؛ حيث لا تلتقي رواية على رواية، ولا يتفق قول مع قول. وبهذا يكون أي ترتيب لآيات القرآن صالحاً لأن يقبل [و] أي دعوى تدعي أنه الترتيب الذي نزل عليه، وتستوي في هذا جميع الدعاوي التي تدعي؛ إذ كانت كلها ترجع إلى غير مستند صحيح يعول عليه. ومن هنا يتسع المجال للكيد، وتنفس السبيل للأهواء، وإذا الذي في أيدي المسلمين أعداد لا تحصى من كتاب الله، حتى ليكاد يكون لكل مسلم قرآن يقرأه على الترتيب الذي يراه.

وانظر ماذا يكون وراء هذا من بلاء وفتنة؟ فمثلاً إذا قرأ قارئ آية، ثم أتبعها أخرى، وجد مئات وألوفاً من الخلاف عليه، هذا يقول: إن الآية التالية هي كذا، وذاك يقول: إنها هكذا، وثالث، ورابع... إلى مئات المقولات وألوفها. وحسب المسلمين من هذا فرقة وشتاتاً، مع أن هذا أقل ما يرد عليهم من شرور هذه الفتنة، إذا كان هذا الخلاف في غير آيات الأحكام، أما إذا وقع ذلك في آيات الأحكام - وهو واقع لا محالة - فهيهات أن تقوم للمسلمين شريعة، أو ينتظم لهم له رأي في حكم من أحكام دينهم.

وخذ مثلاً لهذا الآيات الواردة في الخمر أو الربا، والتي روعي في نزولها أخذ المسلمين بالرفق والحكمة في تحريم هذين المنكرين، فجاء الحكم في تحريمهما متدرجاً، من التنزه والتعفف، إلى الكراهية، ثم إلى التحريم. إن لقائل أن يقول: إن آيات الخمر نزلت على هذا الترتيب:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^١ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى - إِلَى قَوْلِهِ - كَانَ عَفْوًا غَفُورًا﴾^٢. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا

أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا - إلى قوله: - إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^١.

وإن لقائل هذا القول لمنطقاً؛ أن له أن يقول: إن آيات الخمر نزلت جملةً واحدةً، جمعت أطراف الأمر كله وعلى هذا يكون النظر في حرمة الخمر وحلّه. ثم إن له أن يقول - وإن لقوله لمنطقاً -: إن الخمر ليس حراماً حرمة مطلقة إلا أن يسكر منه شارب، ثم يصلي وهو سكران.

ويقال هذا كذلك في الرِّبَا، على اعتبار أن آخر الآيات نزولاً هي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾^٢، فالربا لا يكون على هذا الاعتبار حراماً إلا إذا كان أضْعَافًا مضاعفة.

وهكذا يمكن أن تعرض أحكام الشريعة كلها على آيات القرآن، وتستدار لها الآيات على أي وجه يقيمه الناس عليه.

و ثالثاً - لو سلّم جدلاً بإمكان ترتيب القرآن ترتيباً زمنياً بحسب نزوله - وهو أمر مستحيل استحالة مطلقة - فما جدوى هذا؟ وماذا يعود على دارسي القرآن منه؟.

لقد أشرنا إلى بعض الأخطار المزلة التي تهدد الإسلام - شريعة وعقيدة - من هذا الفتنة، فهل وراء هذه المجازفة شيء من الخير، يقوم إلى جوار هذه الشرور العظيمة الناجمة منها؟ إن كل شرّ يقوم إلى جواره بعض الخير الذي قد يجعل للشرّ وجهاً يحتمل عليه و يبرّر الأخذ به فهل في هذا الشرّ أئمة لمحة من لمحات الخير؟.

و الذي تقطع به أن هذا العمل شرّ محض، وإن زين أهله ظاهره بهذا الطلاء الزائف تحت شعار الدراسة التاريخية للقرآن على نحو الدراسة الجغرافية، أو الدراسة النفسية، أو غير ذلك من الدراسات التي تضاف إلى القرآن، وتدور في فلكه دون أن تمسّ الصميم منه.

ولاتقف طويلاً في مواجهة هذه الفتنة، ولانمعن النظر كثيراً في وجهها الكشيب المشؤم، ونظر في كتاب الله الذي في أيدينا نظراً مباشراً، على ما تركه فينا من أنزل إليه هذا الكتاب (صلوات الله وسلامه عليه) فهذا هو القرآن الذي أمرنا بالتعبد به تلاوة، والعمل بأحكامه وآدابه على ما نتلوه عليه. فهذا هو قرآننا، وهذا هودينا الذي نتلقاه من

كتابنا وإن آية تلاوة تقوم على غير هذا الوجه، هي كلام لا قرآن، وهذا الوجه هي كلام لا قرآن، وإن آية شريعة تقوم على غير هذه التلاوة ليست من شريعة الإسلام، ولا من دين الله، سواء التقت مع شريعة الله أو لم تلتق معها، وسواء أوافقت دين الإسلام أو خالفته. نقول: هذا ونحن على علم وعلى إيمان بأن القرآن الكريم نزل منجماً ولم ينزل جملةً واحدةً، وأنه كان في مرحلة نزوله على ترتيب غير هذا الترتيب الذي انتهى إليه بعد أن تم نزوله.

فهناك دوران قام عليهما بناء القرآن الكريم: دور الدعوة ثم الدور الذي تلاها، ولكل من الدورين أسلوبه وغايته.

القرآن في دور الدعوة

و نزول القرآن في دور الدعوة قام على أسلوب خاص، من حيث تنجيم النزول وترتيبه معاً.

فمن حيث التنجيم، لم ينزل القرآن جملةً واحدةً، بل نزل آية آية، وآيات آيات، حسب مقتضيات الدعوة ومستلزمات أحداثها. وقد بين الله سبحانه وتعالى الحكمة في هذا، فقال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنُزْلُنَاهُ تُزِيلُ الْكُفْرَ بِهَ بَيِّنَاتٍ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا...﴾^٢.

ومن حيث ترتيب النزول، فقد نزل القرآن لغاية تحقق أمرين؛ أولهما - اقتلاع الشرك الذي كان قد استولى على الحياة الإنسانية كلها، واغتال مواطن الإيمان في كل بقعة منها؛ ليقم في الأرض مكاناً للإيمان بالله، حتى يعتدل ميزان الإنسانية، ويكون لها نهار يدرو في فلکها، مع هذا الليل الطويل الذي تعيش فيه. وثانيهما - إقامة شريعة في تلك المواطن التي قام فيها الإيمان، حتى تثبت أصوله، وتطلع ثمراته، فيكون منها زاد طيب لأهل الإيمان يعيشون فيه وتطيب لهم وللناس الحياة معه.

ولتحقيق الأمر الأول كانت معركة الإسلام الأولى منحصرة في ميدان الشُّرك، و من هنا كانت آياته التي تنزل في هذه المرحلة من مراحل الدَّعوة جنْدًا مرسله من الله، تدكُّ معاقل الشُّرك، و تهدم حصونه، و تفتح للعقول والقلوب الطريق إلى الله.

و قد استغرقت هذه المرحلة الجزء الأكبر من الدَّعوة الإسلاميَّة و في إقامة الحجج على وجود الله، و كشف البراهين على وحدانيَّته، و ماله سبحانه من صفات الكمال والجلال، ثمَّ في فضح الشُّرك، و تعرية آلهة المشركين من كلِّ ما ألقوه عليهم من أوهام و ضلالات.

و في أثناء هذا الدَّور كانت تنزِّل بعض الآيات في الدَّعوة إلى مكارم الأخلاق، و في إقامة مشاعر النَّاس على الأخوة الإنسانيَّة و على الصَّبْر و الرِّفق و الإحسان، إلى غير ذلك ممَّا يليق بمن يعرف الله و يؤمن به، و يدخل في زمرة عباده الَّذِينَ يستغنون مرضاته، و يرجون رحمته.

فلمَّا انكسرت شوكة الشُّرك، و أوشكت دولته أن تدول، أخذت آيات الله تستنزل بأحكام الشَّريعة التي تقوم عليها الحياة الرُّوحية و الماديَّة لهذا المجتمع الَّذي آمن بالله، و أجلى الشُّرك من موطنه، فكان ما ينزل من آيات الله في هذا الدَّور يكاد يكون مقصورًا على بناء أحكام الشَّريعة، من عبادات و معاملات و حدود و من سلم و حرب و غنائم، و غير ذلك ممَّا ينتظمه قانون الشَّريعة الإسلاميَّة.

و كان من مقتضيات حكمة الشَّريعة القائمة على اليسر و رفع الحرج، أن جاءت كثير من أحكام الشَّريعة متدرِّجة في تكاليفها من السَّهل إلى الصَّعب؛ لأنَّها كانت تتعامل مع أناس قطعوا شطرًا كبيرًا من حياتهم في الجاهليَّة، و رسب في نفوسهم، و اختلط بمشاعرهم كثير من ضلالتهم. فكان ممَّا اقتضته الحكمة الإلهيَّة أخذ هؤلاء الَّذِينَ لقى بهم الإسلام على أوَّل دعوته بالرفق و التلطُّف، حتَّى يألفوا هذا الدِّين، و يتعلَّقوا أحكامه، و يأخذوا أنفسهم بها و لو أخذوا بغير هذا الأسلوب، لتغيَّر موقفهم من الشَّريعة، و لما أحدثت فيهم هذه الآثار العظيمة التي أخرجت منهم خير أُمَّة أخرجت للنَّاس.

هذا هو الخطُّ الَّذي قامت عليه سيرة الدَّعوة الإسلاميَّة، و على هذه المسيرة كانت

تتنزل آيات الله بالزاد الذي تحتاج إليه كل مرحلة، حتى كانت آخر آية نزلت من كتاب الله، كانت الدعوة قد بلغت غايتها و آتت الثمر المرجو منها، فنزل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾^١، مؤذنًا بمصافحة السماء للأرض مصافحة وداع، بعد أن أودعت فيها هذا الزاد العتيق. ثم كانت آية الختام: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^٢.

القرآن بعد دور الدعوة

و إلى هنا كان الرسول قد تلقى القرآن الكريم كله من ربه، وحفظه في قلبه، كما حفظه كثير من المسلمين معه، كما كان كتاب الوحي قد استكملوا كتابته.

والسؤال هنا: على أية صورة كان القرآن عند آخر آية نزلت؟ وهل كان على ترتيب النزول، أم على هذا الترتيب الذي هو عليه الآن؟

والجواب على هذا:

أولاً - من المقطوع به أن القرآن عندما نزلت آخر آية منه لم يكن على هذا الترتيب الذي هو عليه الآن، كما أنه لم يكن على ترتيب النزول، وذلك أن الرسول - يوحى من ربه - كان خلال العشرين سنة أو تزيد التي نزل فيها القرآن، يرتب الآيات، فيضع - بوحى من ربه - آيات مدنيّة في سور مكّيّة، كما يضع آيات مكّيّة في سور مدنيّة، فكانت عملية النقل هذه تغير من صورة السور، طولاً وقصراً، فينقل من هذه السورة آيات إلى تلك، ومن تلك إلى أخرى، وهكذا في اتصال دائم بدوام نزول القرآن.

و ثانياً - بعد أن تمّ نزول القرآن، ولم تعد ثمة آيات أخرى يوحى بها، كان عمل الوحي مع النبي صلوات الله وسلامه عليه هو ترتيب القرآن على هذا الترتيب الذي أراه الله سبحانه وتعالى عليه، وهو ما نجده بين دفتي المصحف كما تركه الرسول بعد تلك العرصة أو العرضتين أو الثلاث التي كانت بين جبريل وبين النبي.

و ثالثاً - لم يترك النَّبِيُّ ﷺ هذه الدُّنْيَا و يلحق بالرَّفِيقِ الأعلى حتَّى كان صحابة رسول الله، و حتَّى كان كُتَّابُ الوحي، قد أخذوا الصُّورةَ الكاملةَ في تحديد دقيق للقرآن الكريم، و عرفوا مكان كلِّ آية من سورتها، و مبدأ كلِّ سورة و ختامها، و ما بين بدنها و ختامها. و من الموافقات العجيبة الَّتِي نَعُدُّها نفحة من نفحات القرآن الكريم.

أُننا نعرض لهذا البحث - من غير تدبير - في سورة الأحزاب، ففي سورة الأحزاب هذه مقولات تقال و روايات تُروى.

ففي مسند أحمد عن زُرَّين حَبِيش، قال: قال لي أَبِي بن كعب: كائن (أي كم) تقرأ سورة الأحزاب، أو كائن (أي كم) تَعُدُّها؟ قلت: ثلاثاً و سبعين آية فقال (أي أَبِي): لقد رأيتها و إنها لتعادل سورة البقرة، و لقد قرأنا فيها: «الشَّيْخُ و الشَّيْخَةُ إِذَا زَنِيا فَاجْلِدُوهُمَا أَلْبَتَّةَ نِكَالاً من الله و الله عزيز حكيم» فَرُفِعَ فيما رُفِعَ.

ولقد بُني على هذه الرواية أنَّ قرآنًا كثيرًا نسخ تلاوة، و أنَّ قرآنًا آخر نسخ تلاوة و لم ينسخ حكمًا، كهذه الَّتِي يقال: إنها كانت آية قرآنيَّة «الشَّيْخُ و الشَّيْخَةُ» و قد عرضنا لموضوع النسخ في أكثر من موضع، فلا تعرض له هنا.

و إمَّا الَّذِي نفق عنده من هذه الخبر - على اعتبار صحَّته - هو: كيف كانت سورة الأحزاب تعادل سورة البقرة؟ فما تأويل هذا؟ و كيف أصبحت سورة الأحزاب ثلاثاً و سبعين آية بينما سورة البقرة تبلغ مائتين و ستاً و ثمانين آية؟.

و الجواب على هذا أنَّ سورة الأحزاب كانت تعدل في طولها أو امتدادها سورة البقرة، و أنَّه في العُرْضَةِ أو العَرْضَاتِ الَّتِي كانت بين جبريل و بين النَّبِيِّ أَخَذَتْ كثير من الآيات في سورة الأحزاب مواضعها من سور القرآن المَكِّيَّ أو المدني، حتَّى صارت على هذه الصُّورة الَّتِي هي عليها.

و على هذا فلم يكن قرآن رُفِعَ منها رفع نسخ تلاوةً و حكمًا، بل الَّذِي كان هو قرآن رفع منها إلى مواضع أُخرى من القرآن، كما حدث ذلك في كثير من آيات القرآن.

و نعود إلى ما كُنَّا فيه من ترتيب القرآن بعد دور الدَّعوة، فنقول: إنَّه و قد انتهى دور الدَّعوة، و أدَّى الرُّسُولُ رسالة ربِّه، و دالت دولة الشُّرك، و دخل النَّاسُ في دين الله أفواجًا، كان لا بدَّ أن ترتب آيات الله على هذا التَّرتيب الَّذِي أمر الله به، بعد أن نزلت آخر آية من

القرآن الكريم فقد كان الترتيب التزويقي مقدراً بحاجة الدعوة في مسيرتها من مبدئها إلى ختامها، وموقتاً بهذا الوقت الذي يكمل فيه نزول القرآن. فلما تمّ نزول القرآن، وختم الرسول دعوته، أخذ القرآن هذا الترتيب السماوي الذي يعيش في ظلّه مجتمع مسلم آمن بالله، وبآيات الله ورسول الله ولم يعدّ من تدبير القرآن أن يواجه الناس آية آية، أو آيات آيات، أو يلقاهاهم حالاً بعد حالٍ، وحدثاً إثر حدث، وإنّما الذي يلقاهاهم منذ ختام الرسالة كتاب الله جميعه، كأنّه آية واحدة هي شريعة الله ودستور المسلمين.

لقد كان القرآن في دور الدعوة بعمل في أكثر من جبهة، فهناك جبهة المشركين، ثمّ جبهة أهل الكتاب وخاصة اليهود، ثمّ جبهة المنافقين. ثمّ قبل هؤلاء وأولئك جميعاً جبهة المؤمنين الذين يتلقون هدى السماء، وينشئون في حجر الإسلام فكان للقرآن مع كلّ جبهة موقف، وإلى كلّ طائفة قول فلما أتمّ القرآن رسالته، لم تعدّ إلاّ جبهة المؤمنين، هي وحدها التي يعنيه أمرها، وهي التي ستصحبه وتعيش في ظلّه جيلاً بعد جيل إلى يرث الله الأرض ومن عليها فكان هذا الترتيب الذي رُتب عليه القرآن بأمر الله إغناء لعنصر الزّمن الذي يحدّد بدء القرآن ونهايته ومولده وفطامه، فهو كلام الله القديم أزلاً الخالد أبداً.

وبعد، فإنّ هذه الفتنة أخطر سلاح يحارب به الإسلام، ويُرْمى به في الصّميم منه، وأنّه لو قدر لها - لا قدر الله - أن تجد في المسلمين من يستمع لها، أو يغمض العين عنها، لأنّت على الإسلام، ولنالت منه مالم تنله السيوف والحراّب التي وجّهها أعداء الإسلام من يوم أن ظهر الإسلام إلى يوم النّاس هذا فليتنبّه المسلمون إلى هذا الخطر، وليرصدوا له كلّ ما لديهم من إيمان بالله وبكتاب الله، وليضربوا على الأيدي التي تمتدّ إلى كتاب الله بهذه الفتنة بكلّ ما يملكون من أموال وأنفس، ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^١

(١١: ٦٣٢ - ٦٤٤)

[وله جدول في ترتيب السور المكيّة والمدنيّة فراجع، الرّقم ١٧ في آخر هذا الجزء].

الفصل الخامس والعشرون

نص الدكتور العطار (معاصر) في «موجز علوم القرآن»

معرفة المكي والمدني

تواضع العلماء على استعمال إصطلاح المكي على قسم من القرآن الكريم، والمدني على القسم الآخر منه... [ثم ذكر أرقام السور المكية والمدنية، كما تقدّم عن يعقوب، إلى أن قال:]

مصادر معرفة المكي والمدني

اعتمد أكثر الباحثين في التمييز بين مكي القرآن ومدنيّه بادي الأمر على الروايات والنصوص المنقولة التي تورّخ السورة أو الآية، أو تشير إلى زمن نزولها أو مكانه، وعلى الأحداث التاريخية المهمة التي عاصرت النزول، أو كان النزول بسببها، وهذا ما سلكه المستشرق الألماني «نولدكه» في بحثه تاريخ القرآن.

ثم عكفوا على دراسة ما عرفوا من مكي القرآن ومدنيّه بالطريقة السابقة، فاستطاعوا أن يتعرفوا على خصائص شائعة غالبية في مكي وأخرى في المدني، تمكّنوا عن طريقها من معرفة وتمييز عدد كبير من السور والآيات، وصنّفوها إلى مكي ومدني، ودوّنها في كتب المصاحف والتفاسير، وأصبحت هذه الكتب من مصادر معرفة المكي والمدني أيضاً. وبهذا تكونت طريقتان لمعرفة المكي والمدني.

الأولى - الطريقة الاستقرائية التي تعتمد على الثقل، وقد تسمّى السماعيّة.

الثانية - الطريقة الاستنباطيّة التي تعتمد على العقل، وقد تسمّى القياسيّة.

فالذين اتّبّعوا طريقة الاستقراء توقّفوا عند الروايات والنصوص والأحداث التي

تشير أو تؤرّخ السُّور والآيات، فيعرف المكيّ منها والمدنيّ. أمّا الذين اتّبعوا طريقة الاستنباط فقد استندوا على ما تعرّفوا عليه من خصائص للمكيّ والمدنيّ من حيث أسلوب وموضوعات السُّور والآيات، ثمّ ميّزوا بينها بناء على اجتهادهم. ولعلّ أرحح الطريقتين هو الجمع بين الاستقراء والاستنباط، فإنّه بهذا الجمع تكون النتائج أقرب إلى العلم، وأبعد عن الظنّ والتّخمين؛ إذ أنّ الطريقة الاستقرائية عاجزة تقريباً عن تمييز كثير من السُّور والآيات المكيّة، لفقد انها الأحداث المهمّة، والنصوص التي تعوّل عليها في التّمييز. كما أنّ الطريقة الاستنباطيّة طريقة قياسيةّ أو تخمينيّة، فالخصائص المستنبطة إنّما هي غالبية، وليست قطعيّة خاصّة بالمكيّ أو بالمدنيّ، لذا رجح لدينا الجمع بين السّماع والقياس في التّمييز.

أُسُس التّمييز بين المكيّ والمدنيّ

حاول العلماء اعتبار أساس فاصل يتميّز بين المكيّ والمدنيّ من القرآن، فمنهم من جعل الخطاب الوارد في الآيات هو الأساس في التّمييز، ومنهم من جعل من مكان الرّسول ﷺ هو الأساس، والرّهط الثّالث اعتمد هجرة الرّسول أساساً. [ثمّ ذكر شرح تلك الأسُس كما تقدّم نحوه عن الرّزقانيّ والأشّيقريّ وآخرين، فقال:]

مناقشة الاتجاهات الثلاثة

لا بدّ من بيان أنّ لفظ مكيّ أو مدنيّ ليس لفظاً شرعيّاً، وليس من فرائض الأُمّة التي حدّدها الإسلام و وضع له مفهوماً، ليدور النقّاش والترجيح بين مذاهب العلماء على أساسه، بل هو ماتواضع عليه الباحثون، وسلكوا الاتجاهات الثلاثة السابقة للتّمييز بين المكيّ والمدنيّ.

غير أنّنا لانستطيع تصويب الأساس الشّخصيّ؛ لأنّ الخطاب حين يرد «يأَيُّهَا النَّاسُ» لا يراد به أهل مكّة ليكون خطاباً لهم فحسب، وحين يرد «يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» أو «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ» أو «مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ...» لا يراد به أهل المدينة من المسلمين وأهل الكتاب والمنافقين فحسب، بل يبقى العامّ على عمومه يشمل تطبيقاته في كلّ زمانٍ ومكانٍ.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى ليس كل الآيات والسُور فيها خطاب ليكون أسلوب الخطاب أساساً للتمييز. ومن جهة ثالثة فإن في السُور المكيّة خطاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كما في سورة الحج: ٧٧، وفي السُور المدنيّة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ كما في سورة البقرة: ٢١.

وإن الأساس المكانيّ يرد عليه أنّه حتّى لو أدخلنا منازل بعرفات ومنى والحُدَيْبِيَّة ضمن الآيات المكيّة، ومنازل بيدر وأحد وسلع ضمن الآيات المدنيّة، تبقى لدينا آيات لامكيّة ولامدنيّة بحسب الأساس المكانيّ، نظير الآيات التي نزلت على النبي ﷺ في إسرائه. أمّا الأساس الزمانيّ الذي جعل الهجرة فيصلاً بين المكيّ والمدنيّ، فإنّه يشمل الآيات والسُور جميعها؛ إذ ما من آية أو سورة إلّا ونزلت إمّا قبل الهجرة وإمّا بعدها، فما نزل قبل الهجرة فهو مكيّ، وما نزل بعد الهجرة فهو مدنيّ بهذا الاعتبار.

الترجيح بين الاتجاهات الثلاثة

يبدو أنّه لامجال للتّردّد في ترجيح الأساس الزمانيّ وجعل الهجرة حدّاً فاصلاً لتقسيم السُور والآيات إلى مكيّ ومدنيّ؛ لما أوردناه على الاتجاهين الآخرين من نقد، ولما امتاز هذا الأساس من الدقّة والشمول، كما أنّ هذا الأساس يوضّح بجلاء مراحل دعوة الرّسول ﷺ.

فلم تكن الهجرة النبويّة حدثاً عابراً في حياة الرّسالة الغراء والدّعوة المباركة، بل هي حدّ فيصل بين مرحلتين من حياتها؛ الأولى: مرحلة التّغيير والكفاح العقائديّ ومقاومة الشّرك والوثنيّة، وتكوين القاعدة الملتزمة من المؤمنين والتّصاقها بالقيادة النبويّة، والثّانية، مرحلة الحكم والقضاء والإدارة ضمن دولة ذات سيادة وسلطان. ومن خلال معرفة المكيّ والمدنيّ نستطيع مواكبة تطوّر سير الدّعوة، وإدراك الأصول العامّة لنظرية التّغيير الاجتماعيّ على أساس الفكر الإسلاميّ طبقاً لعمل الرّسول ﷺ في مكّة والمدينة، وبحسب منازل من مكيّ القرآن ومدنيّه^١.

١ - لا يغوتنا أنّ نذكر أنّ فترة الوحي المكيّ استقرت ثلاث عشرة سنة تقريباً، نزل خلالها ثلثا القرآن، إنّ فترة الوحي المدنيّ استقرت عشر سنوات تقريباً نزل خلالها ثلث القرآن.

وأما ما يقال من قدرة الأساس الرّمانيّ (الهجرة) على التّمييز بين النّاسخ والمنسوخ من الآيات ففيه نظر؛ إذ أنّ الآية المنسوخة والنّاسخة لو فرضنا نزولهما قبل الهجرة فهما مكّيتان، ولا مجال - بحسب هذا الأساس - لمعرفة السّابقة لتكون منسوخة، واللاحقة لتكون ناسخة. وكذلك لو فرضنا نزولها بعد الهجرة فهما مدنيّتان، ولا مجال - بحسب الأساس أيضًا - لمعرفة النّاسخ والمنسوخ منهما. هذا بالإضافة إلى أنّ الرّأي الرّاجح أنّ النّسخ في القرآن لم يقع إلّا في مجالين^١؛ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوِيكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطِيعُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»^٢ وهي آية لم يعمل بها إلّا الإمام عليّ عليه السلام ثمّ نسخت. وقد نسختها الآية «وَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوِيكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تُفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقْبِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»^٣ وهاتان آيتان في سورة المجادلة اللّتي آياتها مدنيّة كلّها. والمجال الثّاني: قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ خُذْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ»^٤ وقد نسختها الآية اللّتي تليها «الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»^٥ والسّورة كلّها مدنيّة.

خصائص المكيّ والمدنيّ

ليست الخصائص اللّتي سنذكرها، لا سيّما الأسلوبية منها، واللّتي تميّز - بصورة عامّة - الآيات والسّور المكيّة عن المدنيّة هي من الدّقة والضّبط؛ بحيث تشمل جميع آيات القرآن الكريم وسوره، بل هي تؤدّي دور التّرجيح، فتقوّي أحد الاحتمالين على آخر في الآيات والسّور اللّتي لم يرد بشأنها نصّ صحيح متّناً وسنداً، واللّتي لم ترتبط بواقعة أو حادثة تاريخيّة مشهورة تشخّص هويّتها.

١ - انظر التّشريع الجنائيّ الإسلاميّ - عبد القادر عودة، تعليق السيّد إسماعيل الصّدّر، ١: ٣١١.

٢ - المجادلة / ١٣.

٣ - المجادلة / ١٢.

٤ - الأنفال / ٦٦.

٥ - الأنفال / ٦٥.

فمن الممكن جداً أن تنزل سورة مدنيّة وهي تحمل بعض خصائص الأسلوب الشائع في السور المكيّة، أو تنزل سورة مكّيّة وهي تحمل بعض خصائص الأسلوب الشائع في السور المدنيّة. لذلك لا مجال للتّعويل على الظنّ، ولا يصحّ وسم السورة أو الآية بِسْمَةِ الْمَكِّيِّ أو المدنيّ بلا علم. غير أنّ هناك من الخصائص الموضوعيّة ما قد يؤدّي إلى القطع بِسْمَةِ الْآيَةِ أو السورة دون تردّد أو شكّ، كآيات المشرّعة لأحكام الحرب وقواعد القانون الدوّليّ والحقوق السياسيّة ونحوها، ممّا تدلّ بموضوعها دلالة محدّدة أنّها من سور وآيات المدينة، والتي نزلت بعد قيام الدّولة هناك.

كما توجد بعض الخصائص الأسلوبيّة ما تقوّي ترجيح احتمال على آخر، كالقوّة الفياضة في البيان والأسلوب الخطابيّ، وقصر الآيات التي تمتاز بها الآيات المكيّة الدّاعية إلى تركيز العقيدة والدّعوة إلى التّوحيد في حين يشيع - على الغالب - في القسم المدنيّ الهدوء والتّرسل والتّفصيل والطّول والدّعوة إلى التّكاليف الشرعيّة. ويمكن إيجاز الخصائص الأسلوبيّة والموضوعيّة الشائعة في المكيّ، والأخرى الشائعة في القسم المدنيّ فيما يلي ... [ثمّ ذكر الخصائص الشائعة في أغلب القسم المكيّ والمدنيّ كما تقدّم نحوه عن ضُبْحِي الصّالح والزّرقانيّ فقال:]

تنبيهات ضروريّة

الأوّل - أنّ هذه الخصائص، في حالة انطباقها على عموم سورة من السور، فلا يعني ذلك أنّ كلّ آياتها مكّيّة أو مدنيّة؛ إذ قد تستثني من السورة المدنيّة آيات مكّيّة^١ ومن السور المكيّة آيات مدنيّة^٢.

الثاني - أنّ بعض الآيات أو السور قد تكون مدنيّة، ولكن تنطبق عليها بعض الخصائص الأسلوبيّة الشائعة في القسم المكيّ، مثاله سورة البقرة، وهي مدنيّة، وفيها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ...﴾ آية ٢١/، وكذلك فيها ﴿يَا أَيُّهَا

١ - فسورة التوبة مدنيّة، بينما الآيتان الأخيرتان مكيّتان. سورة البقرة مدنيّة في قول الجميع إلّا آية، وهي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ آية ٢٨١، فإنّها نزلت يوم النحر في حجة الوداع بمكة. ٢ - فسورة الزمر مكيّة بينما آياتها (٥٤، ٥٣، ٢٥) مدنيّة. بنعي.

النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا... ﴿ آية / ١٦٨. وسورة النساء مدنيّة أيضاً وفيها قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ انْقِبَاءً رَّبُّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ...﴾ آية / ١ وفيها: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ...﴾ آية / ١٣٣.

الثالث - أن بعض الخصائص الشائعة في القسم المدني نجدها في السور المكيّة مثالها سورة الحج، وهي مكّيّة، وفيها قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ آية / ٧٧. الرابع - أن امتياز السور والآيات المكيّة بالقصر والإيجاز، والقسم المدني بالطول والإسهاب لا يعني أن جميع المكيّة على هذا النحو، وجميع المدنيّ بهذه السمة، فسورة النصر - مثلاً - وهي ثلاث آيات، والزلزلة ثمان آيات، والبيّنة ثمان آيات وهي سور مدنيّة، في حين أن الأنعام والأعراف مكّيّة إلاّ بعض آياتهما، وهما من السور الطوال. الخامس - أن هذه الخصائص لا يمكن اتّخاذها مثار شبهات لاتّهام القرآن بالتأثّر بالبيئة، ومن ثمّ التّدليل على شبهة (بشريّة القرآن)، بل أن هذه الفوارق الغالبة في القسم المكيّ والمدنيّ، الأسلوبية منها والموضوعيّة، كانت مراعاة لظروف الدّعوة الإسلاميّة التي لم تألُ جهداً باتّخاذ كلّ الوسائل الفعّالة المشروعة والمؤثّرة؛ لضمان انتشارها وتأثيرها في البيئة التي تحلّ فيها، وبالتالي فهي من مقتضيات حكمة الله تعالى ﴿... الَّذِي اتَّقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾^١ (ص: ١٣٧ - ١٤٥)

الفصل السادس والعشرون

نصّ الشيخ معرفة (معاصر) في كتابه: «التمهيد في علوم القرآن»

المكي والمدني

لمعرفة المكي من المدني - سواء أكانت سورة أم آية - فائدة كبيرة تمسّ جوانب أسباب النزول، وتمدّ المفسّر والفقهاء في تعيين اتجاه الآية، وفي مجال معرفة الناسخ من المنسوخ، والخاص من العام، والقيد من الإطلاق وما أشبه ومن ثمّ حاول العلماء جهدهم في تعيين المكّيات من المدنيّات، ووقع إجماعهم على قسم كبير، واختلفوا في البقية كما استثنوا آيات مدنيّة في سور مكّيّة أو بالعكس، ولذلك تفصيل طريف يأتي.

والملاك في تعيين المكي والمدنيّ مختلف حسب اختلاف الآراء والأنظار في ذلك، وفيما يلي ثلاث نظريّات جاءت مشهورة؛

الأول - اعتبار ذلك بهجرة النبي ﷺ و وصوله إلى المدينة المنورة، فما نزل قبل الهجرة أو في أثناء الطريق قبل وصوله إلى المدينة فهو مكّي، وما نزل بعد ذلك فهو مدنيّ. والملاك على هذا الاعتبار ملاك زمنيّ، فما نزل قبل وقت الهجرة، ولو في غير مكّة فهو مكّيّ وما نزل بعد الهجرة ولو في غير المدينة، حتّى ولو نزل في مكّة عام الفتح أو في حجة الوداع، فهو مدنيّ باعتبار نزوله بعد الهجرة وعلى هذا الاصطلاح فجميع الآيات النازلة في الحروب وفي أسفاره ﷺ بما أنّها نزلت بعد الهجرة، كلّها مدنيّات. [ثمّ ذكر قول يحيى بن سلام، كما تقدّم عن السيوطي، فقال:]

الثاني - ما نزل بمكّة وحواليها - ولو بعد الهجرة - فهو مكّي، وما نزل بالمدينة وحواليها فهو مدنيّ وما نزل خارج البلدين، بعيداً عنهما فهو لامكي ولا مدنيّ، كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ

يَكْفُرُونَ بِالَّذِينَ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ^١. قيل: نزلت بالحُدَيْيَّة حينما صالح النَّبِيُّ ﷺ مشركي قُريش، فقال رسول الله ﷺ لعليّ ﷺ: اكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فقال سهيل بن عمرو و سائر المشركين: ما نعرف الرَّحْمَان إِلَّا صَاحِبَ الْيَمَامَةِ، يعنون مُسَيِّلِمَةَ الْكَذَّابِ، فنزلت الآية^٢ وهكذا آية الأنفال^٣، نزلت في بدر عندما اختصم المسلمون في تقسيم الغنائم،^٤ لا مَكِّيَّة ولا مَدِينِيَّة على هذا الاصطلاح.

الثالث - ما كان خطاباً لأهل مَكَّة فهو مَكِّيٌّ، وما كان خطاباً لأهل المدينة فهو مَدِينِيٌّ. وهذا الاصطلاح مأخوذ من كلام ابن مسعود: كلُّ شيءٍ نزل فيه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهو بمَكَّة، وكلُّ شيءٍ نزل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو بالمدينة^٥، قال الزُّكَّشِيُّ: لأنَّ الغالب على أهل مَكَّة الكفر، وغالب على أهل المدينة الإيمان^٦.

وهذا الاختلاف في تحديد المَكِّيِّ والمَدِينِيِّ أوجب اختلافاً في كثير من آيات وسور أنَّها مَكِّيَّة أم مَدِينِيَّة^٧ غير أنَّ المعتمد من هذه المصطلحات هو الأول، وهو المشهور الَّذي جرى عليه أكثرية أهل العلم^٨، وكان تحديدنا الآتي في نظم السُّور حسب ترتيب نزولها معتمداً على هذا الاصطلاح.

نعم، الطريق إلى معرفة مواقع النَّزول أنَّها كانت بمَكَّة أو بالمدينة أو بغيرهما، قليل جداً؛ لأنَّ الأوائل لم يعيروا هذه النَّاحِيَّة المهمَّة اهتماماً معتدلاً به، سوى ما ذكره في عرض الكلام استطراداً، وهي استفادة ضئيلة للغاية، ومن ثمَّ يجب لمعرفة ذلك ملاحظة شواهد وقرائن من لفظ الآية أو استفادة من لهجة الكلام خطاباً مع نوعيَّة موقف الموجه إليهم، أكان في حرب أم في سلم، وعد أم وعيد، إرشاد أو تكليف؟ فيما إذا أوجب ذلك علماً أو حلاً لمشكلة في لفظ الآية، كما في قوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّ النَّبِيَّتَ أَوْ اغْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾^٩، فإنَّ مشكلة دلالتها على مطلق التَّرخيص دون الإلزام والإيجاب تنحلَّ

١ - مجمع البيان ٢٩٣/٦.

٢ - الزُّعَد / ٣٠.

٣ - الأنفال ١/١.

٤ - راجع السِّيرة لابن هشام ٣٢٢:٢.

٥ - البرهان ١: ١٨٧.

٦ - مستدرک الحاكم ١٨: ٣.

٧ - كما في آية الأمانات من سورة النساء، ٥٨، زعمها النَّحَّاسُ مَكِّيَّة: لرواية ابن جُرَيْج، راجع مجمع البيان ٦٣: ٣.

٨ - راجع البرهان للزُّكَّشِيِّ ١: ١٨٧ والإِتقان ١: ٩٠. ٩ - البقرة / ١٥٨.

بما أثر في سبب نزولها^١، الأمر الذي يوجب الثقة بصحة الأثر، مع غض النظر عن ملاحظة السند، و من ثمّ فهي مدنية. [ثم ذكر قول الجعفي والقاضي أبي بكر والزركشي، كما تقدّم عن الزركشي، فقال:]

ترتيب النزول

اعتمدنا في هذا العرض على عدّة روايات متفق عليها، وثق بها العلماء أكثر، وعمدتها رواية ابن عباس بطرق وأسانيد اعترف بها أئمة الفن^٢، قال الإمام بدر الدين الزركشي: وعلى هذا الترتيب استقرت الرواية من الثقات^٣ وقد أخذناها الأصل الأول في هذا العرض، وأكملنا ما سقط منها على رواية جابر بن زيد وغيره، وكذا نصوص تاريخية معتمدة^٤. نعم، كان بينها بعض الاختلاف، إمّا للاختلاف في تحديد المكّي والمدني، أو في عدد المكيات من المدنيات، و من ثمّ جاء اختلافهم في نيّف و ثلاثين سورة أنّها مكيات أم مدنيات.

والنظر في هذا العرض كان إلى مفتتح السور، فالسورة إذا نزلت من أولها بضع آيات، ثمّ نزلت أخرى، و بعدها اكتملت الأولى، كانت الأولى متقدمة على الثانية في ترتيب النزول حسب هذا المصطلح.

و إليك قائمة السور المكيّة، وعددها ستّ و ثمانون سورة، متقدمة على السور المدنيّة، وعددها ثمان و عشرون سورة. مع غضّ النظر عن سور مختلف فيها، و سنتكلّم عن ذلك في فصل قادم.^٥ (١: ٩٩ - ١٠٣)

[ثمّ ذكر ترتيب السور المكيّة و المدنيّة فراجع الجدول، الرقم ١٥ و ١٦ (نصّ عزّة دُرُوزَة و أبو عبدالله الزّنجانيّ في آخر هذا الجزء)]

١ - كان المسلمون يتحرّجون السعي بين الصّفا و المروة، زعمًا أنّها إعادة جاهليّة تكرّمًا بمقام أساف و نائلة، فنزلت الآية دفعًا لهذا الوهم. راجع مجمع البيان ١: ٢٤٠.

٢ - راجع مجمع البيان ١٠: ٤٠٥ - ٤٠٦ و الإنقان ١: ١٠ - ١١ و ٢٥: ١.

٣ - البرهان لبدر الدين الزركشي ١: ١٩٣ - ١٩٤.

٤ - راجع الفهرست لابن النديم: ٢٨، و تاريخ ابن واضح اليعقوبي ٢: ٢٨.

٥ - أعرضنا عن ذكرها للاختصار، و من أراد الاطلاع عليها فليراجع نفس المصدر: التمهيد ١: ١١٤ (م).

الفصل السابع والعشرون

نصّ أبي شهبه (مُعاصرٌ) في «المدخل لدراسة القرآن»

المكّي والمدني

معرفة المكّي من المباحث المهمّة التي يحتاج إليها المفسّر لكتاب الله، و من نصب نفسه للاجتهاد والفتيا والقضاء؛ كي يمكنهم التّوصّل إلى الحقّ والصّواب... [ثمّ ذكر قول النّيسابوري، كما تقدّم عن الزّركشي، فقال:]

قال السيوطي: وقد أشبعت الكلام على هذه الأوجه، فمنها ما أفردته بنوع، ومنها ما تكلمت عليه في ضمن بعض الأنواع.

وقد أفرد المكّي والمدنيّ بعض العلماء كمكّي والعزّ الدُرَيْنيّ، وليس من شأننا في هذا البحث تتبّع الجزئيات واستقراء السُّور والآيات المكيّة والمدنيّة، فذلك بالتأليف المستقلّ الصّق، وإنّما قصدنا ذكر أحكام كليّة، وسمات وخصائص للمكّي والمدنيّ، ومعارف متّصلة بهما من شأنها أن تنير الطّريق لدارسي القرآن، وردّ الشُّبه التي أوردها على المكّي والمدنيّ بعض المبشّرين والمستشرقين ومتابعيهم من الكتّاب المعاصرين. [ثمّ ذكر فوائد العلم بالمكّي والمدنيّ، والطّريق إلى معرفتهما وتعريفهما، كما تقدّم عن الزّرقانيّ، فقال:]

قال الإمام الرّازي في تفسيره^١ تعقيباً على هذا الاصطلاح الأخير: قال القاضي: إن كان الرّجوع في هذا إلى الثّقل فمسلم، وإن كان السّبب فيه حصول المؤمنين بالمدينة على الكثرة دون مكّة فضعيف؛ إذ يجوز أن يخاطب المؤمنين بصفتهم وباسم جنسهم، ويؤمر

من ليس بمؤمن بالعبادة كما يؤمر المؤمن بالاستمرار عليها والازدياد منها، فالخطاب في الجميع ممكن.

فإن قال قائل: إن مراد هؤلاء بمقاتلتهم هذه أن الغالب والكثير كذلك. قلنا: إن ذلك لا يفيد في التقاسيم والتعاريف، إذ مبناها على الضبط والانحصار والاضطراب.

أنواع السور المكيّة والمدنيّة

القرآن الكريم على أربعة أنواع: ١- مكّي خالص. ٢- مدنيّ خالص. ٣- مكّي بعضه مدنيّ. ٤- مدنيّ بعضه مكّي.

أما المكّي الخالص فمثل سورة إقراء والمدثر والقيامة.

وأما المدنيّ الخالص فمثل سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة.

وأما المكّي الذي بعضه مدنيّ فمثل سورة الأعراف، فإنها مكّيّة إلّا قوله تعالى: ﴿وَسَلُّهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ الآية^١، إلى خمس آيات أو ثمان بعدها، فإنها مدنيّة. ومثل سورة الإسراء، فإنها مكّيّة إلّا قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...﴾ الآية^٢ فإنها مدنيّة كما يدلّ على ذلك ما رواه البخاريّ في صحيحه عن ابن مسعود، وقد تقدّم في «أسباب النزول» ومثل سورة هود، فإنها مكّيّة إلى قوله تعالى: ﴿وَاقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ الآية^٣، فقد صحّ أنها نزلت بالمدينة في قصّة أبي اليسر.

وأما المدنيّ الذي بعضه مكّي فمثل سورة الأنفال، فإنها مدنيّة إلّا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُزُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية^٤، فقد روي عن مقاتل أنها مكّيّة، واستثنى أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ثَمَلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ إلى غاية آية (٣٦) فمكيّات^٥. وقد روي عن ابن عباس أن آية ﴿وَإِذْ يَمْكُزُ﴾ نزلت على النبي ﷺ بعد قدومه المدينة تذكيراً له بنعمة الله عليه، فهي مدنيّة.

ومثل سورة براءة، فهي مدنيّة إلّا قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا

١- الأعراف / ١٦٣.

٢- الإسراء / ٨٥.

٣- هود / ١١٤.

٤- الأنفال / ٣٠.

٥- أسباب النزول (للسيوطي) ١: ٧٧ على هامش الجلالين، الإتيان ١: ١٥٠.

لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ ﴿١﴾ الْآيَةُ ١، فَالصَّحِيحُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ لَعَمْرَهُ أَبِي طَالِبٍ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُحِ عَنْكَ» ٢.

وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ اعْتِمَادَهُمْ فِي وَصْفِ السُّورَةِ بِكُونِهَا مَكِّيَّةً أَوْ مَدِينِيَّةً إِنَّمَا يَكُونُ تَبَعًا لِمَا يَغْلِبُ فِيهَا، أَوْ تَبَعًا لِفَاتِحَتِهَا، فَقَدْ وَرَدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ إِذَا نَزَلَتْ فَاتِحَةُ سُورَةٍ بِمَكَّةَ كَتَبَتْ مَكِّيَّةً، ثُمَّ يَزِيدُ اللَّهُ فِيهَا مَا شَاءَ. [ثُمَّ ذَكَرَ قَوْلَ الْبَيْهَقِيِّ وَابْنِ الْحَصَّارِ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ السِّيُوطِيِّ، وَذَكَرَ عَقِبَهُ أَيْضًا قَوْلَ ابْنِ خَبَرٍ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْهُ].

وَتَرْتِيبُ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ لَيْسَ عَلَى حَسَبِ نَزُولِهَا وَتَرْتِيبِهَا الزَّمَنِيِّ إِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى الْمُنَاسِبَاتِ الَّتِي تَقُومُ عَلَى ارْتِبَاطِ الْمَعَانِي وَتَمَاسُكِهَا، وَوَحْدَةِ الْفِكْرَةِ أَوْ نَجَاحِهَا، فَلَا عَجَبُ إِذَا أُنْ بُدِيَ بِبَعْضِ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ آيَاتٍ مَدِينِيَّةٍ أَوْ الْعَكْسِ. وَلَيْسَ أَدَلُّ عَلَى هَذَا مِنْ أَنَّ بَعْضَ الْآيَاتِ وَضَعَتْ بِجَانِبِ بَعْضِ الْآيَاتِ الْأُخْرَى مَعَ وَجُودِ فَاصِلٍ زَمَنِيِّ بَيْنَهُمَا نَحْوُ بَضْعِ سَنِينَ، كَمَا قَدَّمْنَا فِي «أَسْبَابِ النَّزُولِ».

المَكِّيُّ وَالْمَدِينِيُّ مِنَ السُّورِ

قَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي بَيَانِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدِينِيِّ مِنَ السُّورِ عَلَى أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ ذَكَرَهَا السِّيُوطِيُّ فِي إِتْقَانِهِ ٣، وَمِنَ السُّورِ مَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى مَكِّيَّتِهَا أَوْ مَدِينِيَّتِهَا، وَمِنْهَا مَا اخْتَلَفُوا فِي كَوْنِهِ مَكِّيًّا أَوْ مَدِينِيًّا وَلَا يَهْوُلُكَ تَشَعُّبُ الْاِخْتِلَافِ فِي هَذَا، فَمَرَدُّ مَعْرِفَةِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدِينِيِّ إِلَى الْأَحْوَالِ وَالْقِرَائِنِ وَالْمَلَابَسَاتِ، وَمِثْلُ هَذِهِ مِمَّا تَخْتَلِفُ فِيهَا الْأَنْظَارُ، وَتَتَنَوَّعُ الْأَسْتِنَاجَاتُ. وَلَعَلَّ أَوْفَقَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَأَقْرَبُهَا إِلَى الصَّوَابِ مَا ذَكَرَهُ أَبُو الْحَسَنِ الْحَصَّارُ: قَالَ: إِنَّ الْمَدِينِيَّ بِاتِّفَاقِ عَشْرُونَ سُورَةً... [وَذَكَرَ كَمَا تَقَدَّمَ عَنِ السِّيُوطِيِّ، ثُمَّ قَالَ:] أَقُولُ: إِنَّ بَعْضَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْحَصَّارِ غَيْرَ مُسَلَّمٍ؛ لِأَنَّ عَلَى رَأْيِهِ تَكُونُ سُورَةُ الْحَجِّ مَكِّيَّةً بِاتِّفَاقٍ، مَعَ أَنَّهُ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمَا أَنَّهَا مَدِينِيَّةٌ، وَهُوَ الْأَرْجَحُ، وَلَيْسَ مِنَ الْمُسْتَسَاغِ أَنْ نَعْتَبِرَ أَنَّ هَذَا الْخِلَافَ كِلَاخِلَافٍ، إِلَّا إِذَا سِيرْنَا عَلَى مَنَهِجِهِ...

المَكِّيَّ والمدنيَّ على ترتيب النُّزول

وكما عنى العلماء ببيان المَكِّيَّ والمدنيَّ من السُّور عنوا أيضاً بترتيب السُّور المَكِّيَّة والمدنيَّة على حسب النُّزول، فقد أخرج ابن الصُّرَيْس في «فضائل القرآن» رواية عن ابن عَبَّاس في هذا التَّرتيب^١، وقد سقط من هذه الرواية فاتحة الكتاب فيما نزل بمكَّة، كما أخرج أبو بكر محمد بن الحارث بن أبيض في جزئه المشهور رواية عن جابر بن زيد^٢، و جابر بن زيد من علماء التَّابعين بالقرآن، وقد اعتمد البرهان الجَعْفَرِيَّ على هذا الأثر في قصيدته الَّتِي سَمَّاها تقريب المأمول في ترتيب النُّزول، وتكاد تتفق الروايتان فيما ذكرناه من ترتيب، ولم تفتقرا إلَّا في القليل.

ومِمَّا يُؤخذ على هاتين الروايتين أَنَّهُمَا اتَّفَقتا على أَن أوَّل ما نزل: إقرأ، ثُمَّ ن وَالْقَلَمُ ثُمَّ ياءُ يَها المُرْمَلُ ثُمَّ ياءُ يَها المُدَّثَرُ... وهو يخالف ما حقَّقناه سابقاً من أَن أوَّل ما نزل بعد صدر سورة اقرأ هو صدر سورة المدَّثَر، وكان ذلك بعد فترة الوحي. ولعلَّ النَّظرة الفاحصة في أوائل ن والمزمل والمدَّثَر تهدينا إلى أَن المدَّثَر هي الأنسب بالتَّقديم عن أختيها؛ إذ قد اشتمل صدرها على الأمر بالإنذار، وهو الأليق بالتَّقديم. ولعلَّ هذا التَّنقُّد الَّذِي ذكرته هو ما أشار إليه الإمام السيوطي؛ حيث قال بعد أن ذكر رواية جابر بن زيد: هذا سياق غريب، وفي هذا التَّرتيب نظر.

[ثُمَّ ذكر ضوابط المَكِّيَّ والمدنيَّ ومميَّزاتهما، ونقض شُبُهات حول هذا الموضوع، كما

تقدَّم عن الزُّرقاني] (ص: ٢١٩ - ٢٢٧)

الفصل الثامن والعشرون

نص الدكتور حجّتي (معاصرٌ) في «مختصر تاريخ القرآن الكريم»

فائدة معرفة المكي والمدني

إنّ للتمييز بين المكي والمدني من الآيات والسُور في تاريخ القرآن أهميته، ولذلك أفرد بعض العلماء كتبًا خاصّة بهذا الموضوع. ومن فوائد معرفة المكي والمدني مواكبة خطوات الإسلام على طريق الدّعوة متواكبة مع الظّروف والأوضاع والبيئات المختلفة. [ثمّ ذكر قول السيوطي في فوائد معرفتهما، كما تقدّم عنه].

التمييز بين المكي والمدني

تعمّق العلماء في دراسة سبل التّمييز بين المكي والمدني، واختلفوا في معايير هذا التّمييز، فمنهم من قال: إنّ المعيار زمنيّ، ومنهم من قال: إنّهُ مكانيّ، ومنهم من أقام المعيار على أساس الأشخاص، ومن هنا تعدّدت نظريّاتهم في معرفة المكي والمدني، وهذه أهمّ النظريات... [ثمّ وضح المعايير الثلاثة، كما تقدّم نحوه عن السيوطي، فقال:]
و ثمة نظريّات أخرى تقيم معيار التّمييز بين المكي والمدني على أساس الحكم والموضوع^١.

الخصائص العامّة للسُور والآيات المكيّة

وضع العلماء مقاييس وضوابط لمعرفة الآيات والسُور المكيّة، ومع أنّها يمكن أن تكون عامّة فهي مقيدة إلى حدّ ما في التّشخيص. وقد ذكروا لمعرفة المكي ستّ

خصائص... [وذكر كما تقدّم عن الرُّقاني].

أُسلوب السُّور والآيات المكيّة

هناك علائم غالبية مرجّحة لتشخيص المكيّ، منها:

- ١- قصر الآيات والسُّور، وحرارة التّعبير فيها، ورويّها المتجانس.
 - ٢- الدّعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، والحديث عن الجنّة والنّار.
 - ٣- الدّعوة إلى التّمسك بالأخلاق الفاضلة، والاستقامة على طريق الصّلاح.
 - ٤- مجادلة المشركين و تسخيف أفكارهم.
 - ٥- كثرة القسم انسجامًا مع أساليب المخاطبات عند العرب.
- ### الخصائص العامّة للآيات والسُّور المدنيّة
- ١- كلّ سورة فيها أمرٌ بالجهاد أو ذكر له وبيان لأحكامه فمديّة.
 - ٢- كلّ سورة فيها أحكام الحدود والفرائض والحقوق والقوانين المدنيّة والاجتماعيّة والسياسيّة بشكل تفصيليّ فمديّة^١.
 - ٣- كلّ سورة فيها ذكر للمنافقين فهي مديّة، عدا سورة العنكبوت فهي مكيّة^٢ مع اشتغالها على ذكر المنافقين.

٤- مجادلة أهل الكتاب ودعوتهم إلى نبذ التّعصّب والغلو^٣

أُسلوب السُّور والآيات المدنيّة

- ١- طول السُّور وبعض الآيات، ولحنها الهادي، وكثرة التّفاصيل القانونيّة فيها.
 - ٢- التّفصيل في البراهين والأدلة المتعلّقة بالحقائق الدّينيّة.
- وسنذكر عند حديثنا عن المصاحف مزيدًا من التّفصيل حول هذا الموضوع، ونختم هذا الفصل بنقل قول ابن الحَصَّار الذي ذكره في كتابه «النّاسخ والمنسوخ» وهو يقول:
- المدنيّ باتّفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك مكيّ باتّفاق. (ص: ٤١ - ٤٤)

١ - مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصّالح: ١٨٣ والإتيان: ١: ٢٩.

٢ - البرهان: ١: ١٨٨.

٣ - وهذا ما نراه في سور البقرة، آل عمران، النّساء، المائدة والتّوبة.

الفصل التاسع والعشرون

نص السيّد الحكيم (مُعاصِرٌ) في «علوم القرآن»

المكيّ والمدنيّ

ينقسم البحث حول المكيّ والمدنيّ من القرآن إلى ثلاثة بحوث:

أولاً - معنى المكيّ والمدنيّ

يقسّم القرآن في عرف العلماء التفسير إلى مكيّ ومدنيّ، فبعض آياته مكيّة وبعض آياته مدنيّة وتوجد في التفسير اتجاهات عديدة لتفسير هذا المصطلح؛ [ثمّ شرح هذه الاتجاهات الثلاثة كما تقدّم عن الزُرْقانيّ وغيره، فقال:]

الترجيح بين الاتجاهات الثلاثة

وإذا أردنا أن نقارن بين هذه الاتجاهات الثلاثة لنختار واحدًا منها فيجب أن نطرح منذ البدء الاتجاه الثالث؛ لأنّه يقوم على أساس خاطيء، وهو الاعتقاد بأنّ من الآيات ما يكون خطابًا لأهل مكّة خاصّة، ومنها ما يكون خطابًا لأهل المدينة. وليس هذا بصحيح، فإنّ الخطابات القرآنيّة عامّة، وانطباقها حين نزولها على أهل مكّة أو على أهل المدينة لا يعني كونها خطابًا لهم خاصّة، أو اختصاص ما تشتمل عليه من توجيه أو نصّح أو حكم شرعيّ بهم، بل هي عامّة مادام اللفظ فيها عامًّا.

والواقع أنّ لفظ المكيّ والمدنيّ ليس لفظًا شرعيًّا حدّد النبيّ مفهومه؛ لكي نحاول اكتشاف ذلك المفهوم، وإنّما هو مجرد اصطلاح تواضع عليه علماء التفسير، وما ريب في أنّ كلّ أحد له الحقّ في أن يصطلح كما يشاء ولا نريد هنا أن نخطئ الاتجاه الأوّل أو الاتجاه الثاني مادام لا يعبر كلّ منهما إلّا عن اصطلاح من حقّ أصحاب ذلك الاتجاه أن

يضعوه، ولكنّا نرى أنّ وضع مصطلح المكيّ والمدنيّ على أساس الترتيب الزمنيّ، كما يقرّره الاتجاه الأول أنفع وأفيد للدراسات القرآنيّة لأنّ التميّز من ناحية زمنيّة بين ما أنزل من القرآن قبل الهجرة، وما أنزل بعدها أكثر أهميّة للبحوث القرآنيّة من التميّز على أساس المكان بين ما أنزل على النّبيّ في مكّة وما أنزل عليه في المدينة، فكان جعل الزّمن أساساً للتمييز بين المكيّ والمدنيّ واستخدام هذا المصطلح لتحديد النّاحية الزّمنيّة أوفق بالهدف.

و تتجلى أهميّة التّمييز الزّمنيّ المكانيّ في نقطتين؛

إحدهما - فقهيّة، أي أنّها ترتبط بعلم الفقه ومعرفة الأحكام الشرعيّة، وهي أنّ تقسيم الآيات على أساس الزّمن إلى مكّيّة ومدنيّة، وتحديد منازل قبل الهجرة ومنازل بعد الهجرة يساعدنا على معرفة النّاسخ والمنسوخ؛ لأنّ النّاسخ متأخّر بطبيعته على المنسوخ زماناً، فإذا وجدنا حكّمين ينسخ أحدهما الآخر استطعنا أن نعرف النّاسخ عن طريق التّوقيت الزّمنيّ، فيكون المدنيّ منهما ناسخاً للمكيّ؛ لأجل تأخّره عنه زماناً.

والأخرى - هي أنّ التّقسيم للآيات إلى مكّيّة ومدنيّة يجعلنا نتعرّف على مراحل الدّعوة التي مرّ بها الإسلام على يد النّبيّ، فإنّ الهجرة المباركة ليست مجرد حادث عابر في حياة الدّعوة، وإنّما هي حدّ فاصل بين مرحلتين من عمر الدّعوة، وهما مرحلة العمل الفرديّ، ومرحلة العمل ضمن دولة. ولئن كان بالإمكان تقسيم كلّ من هاتين المرحلتين بدورها أيضاً فمن الواضح على أيّ حال أنّ التّقسيم الرّئيسيّ هو التّقسيم على أساس الهجرة، فإذا ميّزنا بين الآيات النّازلة قبل الهجرة، ومنازل منها بعد الهجرة استطعنا أن نواكب تطوّرات الدّعوة والخصائص العامّة التي تجلّت فيها خلال كلّ من المرحلتين.

وأما مجرد أخذ مكان التّزول بعين الاعتبار، وإهمال عامل الزّمن فهو لايمدّنا بفكرة مفصّلة عن هاتين المرحلتين، ويجعلنا نخلط بينهما، كما يحرّمنا من تمييز النّاسخ عن المنسوخ من النّاحية الفقهيّة.

لهذاكلّه نؤثّر الاتجاه الأوّل في تفسير المكيّ والمدنيّ، وعلى هذا الأساس سوف نستعمل هذين المصطلحين.

ثانيًا - طريقة معرفة المكي والمدني

بدأ المفسّرون عند محاولة التمييز بين المكي والمدني بالاعتماد على الروايات والنصوص التاريخية التي تؤرّخ السّورة أو الآية، وتشير إلى نزولها قبل الهجرة أو بعدها، وعن طريق تلك الروايات والنصوص التي تتبّعها المفسّرون واستوعبوها استطاعوا أن يعرفوا عددًا كبيرًا من السّور والآيات المكيّة والمدنيّة ويميّزوا بينها.

وبعد أن توفّرت لهم المعرفة بذلك اتّجه كثير من المفسّرين الذين عنوا بمعرفة المكي والمدني إلى دراسة مقارنة لتلك الآيات والسّور المكيّة والمدنيّة التي اكتشفوا تأريخها عن طريق النصوص، وخرجوا من دراستهم المقارنة باكتشاف خصائص عامّة في السّور والآيات المكيّة، وخصائص عامّة أخرى في المدني من الآيات والسّور، ففعلوا من تلك الخصائص العامّة مقاييس يقيسون بها سائر الآيات والسّور التي لم يؤثر توقيتها الزماني في الروايات والنصوص، فما كان منها يتفق مع الخصائص العامّة للآيات والسّور المكيّة حكموا بأنّه مكي، وما كان أقرب إلى الخصائص العامّة للمدني وأكثر انسجامًا معها أدرجوه ضمن المدني من الآيات بالسّور.

وهذه الخصائص العامّة التي حدّدت المكي والمدني بعضها يرتبط بأسلوب الآية والسّورة، كقولهم: إنّ قصر الآيات والسّور وتجانسها الصّوتي من خصائص القسم المكي وبعضها يرتبط بموضوع النصّ القرآني، كقولهم مثلاً: إنّ مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم من خصائص السّور المكيّة.

ويمكن تلخيص ما ذكره من الخصائص الأسلوبية والموضوعية للقسم المكي فيما يأتي ... [ثمّ ذكر خصائص السّور المكيّة والمدنيّة، وكما تقدّم عن الزّرقاني وصبحي الصّالح والدكتور الطّار].

موقفنا من هذه الخصائص

وما من ريب أنّ هذه المقاييس المستمدّة من تلك الخصائص العامّة تلقي ضوء على الموضوع، وقد تؤدّي إلى ترجيح لأحد الاحتمالين على الآخر في السّور التي لم يرد نصّ بأنّها مكيّة أو مدنيّة، فإذا كانت إحدى هذه السّور تتفق مثلاً مع السّور في أسلوبها

وإيجازها وتجانسها الصوتي، وتنديدها بالمشركون، وتشفية أحلامهم، فالأرجح أن تكون سورة مكيّة؛ لاشتغالها على هذه الخصائص العامّة للسورة المكيّة.

ولكنّ الاعتماد على تلك المقاييس إنّما يجوز إذا أدّت إلى العلم، ولا يجوز الأخذ بها لمجرد الظنّ ففي المثال المتقدّم حين نجد سورة تتفق مع السور المكيّة في أسلوبها وإيجازها لا نستطيع أن نقول بأنّها مكيّة لأجل ذلك؛ إذ من الممكن أن تنزل سورة مدنيّة وهي تحمل بعض خصائص الأسلوب الشائع في القسم المكيّ، صحيح أنّه يغلب على الظنّ أنّ السورة مكيّة لقصرها وإيجازها، ولكن الأخذ بالظنّ لا يجوز؛ لأنّه قول من دون علم.

وأما إذا أدّت تلك المقاييس إلى الاطمئنان والتأكّد من تاريخ السورة، وأنّها مكيّة أو مدنيّة فلا بأس بالاعتماد عليها عند ذلك ومثاله النصوص القرآنيّة التي تشتمل على تشريعات للحرب والدولة مثلاً، فإنّ هذه الخصيصة الموضوعيّة تدلّ على أنّ النصّ مدنيّ؛ لأنّ طبيعة الدّعوة في المرحلة الأولى التي عاشتها قبل الهجرة لا تتسجم إطلاقاً مع التشريعات الدّوليّة، فنعرف من أجل هذا أنّ النصّ مدنيّ نزل في المرحلة الثانية من الدّعوة، أي في عصر الدولة.

ثالثاً - الشّبهات المثارة حول المكيّ والمدنيّ

لقد كان موضوع المكيّ والمدنيّ من جملة الموضوعات القرآنيّة التي أثيرت حولها الشّبهة والجدل، وتنطلق الشّبهة هنا من أساس، هي أنّ الفروق والميزات التي تلاحظ بين القسم المكيّ من القرآن الكريم والقسم المدنيّ منه تدعو في نظر بعض المستشرقين إلى الاعتقاد بأنّ القرآن قد خضع لظروف بشريّة مختلفة اجتماعيّة وشخصيّة، تركت آثارها على أسلوب القرآن وطريقة عرضه وعلى مادّته والموضوعات التي عني بها.

و يجدر بنا قبل أن ندخل في الحديث عن الشّبهات ومناقشتها أن نلاحظ الأمرين التّالين؛ لما لهما من تأثير في فهم البحث ومعرفة نتائجه:

الأوّل - أنّه لا بدّ لنا أن نفرّق منذ البدء بين فكرة تأثر القرآن الكريم وانفعاله بالظّروف الموضوعيّة من البيئة وغيرها بمعنى انطباعه بها، وبين فكرة مراعاة القرآن لهذه الظّروف بقصد تأثيره فيها وتطويرها لصالح الدّعوة، فإنّ الفكرة الأولى تعني في الحقيقة

بشريّة القرآن؛ حيث تفرض القرآن في مستوى الواقع المعاش و جزء من البيئة الاجتماعية يتأثر بها كما يؤثر فيها، بخلاف الفكرة الثانية، فإنّها لا تغني شيئاً من ذلك؛ لأنّ طبيعة الموقف القرآنيّ الذي يستهدف التّغيير و طبيعة الأهداف و الغايات التي يرمي القرآن إلى تحقيقها قد تفرض هذه المراعاة، حيث تحدّد الغاية و الهدف طبيعة الأسلوب الذي يجب سلوكه للوصول إليها.

فهناك فرق بين أن تفرض الظروف و الواقع نفسها على الرّسالة، و بين أن تفرض الأهداف و الغايات التي ترمي الرّسالة إلى تحقيقها من خلال الواقع أسلوباً و منهجاً للرّسالة؛ لأنّ الهدف و الغاية ليساشيئين منفصلين عن الرّسالة، ليكون تأثيرهما عليها تأثيراً مفروضاً من الخارج.

فنحن في الوقت الذي نرفض فيه الفكرة الأولى بالنّسبة إلى القرآن نجد أنفسنا لا تأبى التمسك بالفكرة الثانية في تفسير الظواهر القرآنيّة المختلفة، سواء ما يرتبط منها بالأسلوب القرآنيّ، أو الموضوع و المادّة المعروضة فيه.

الثاني - أنّ تفسير وجود الظاهرة القرآنيّة لا بدّ أن يعتبر هو المصدر الأساس في جميع الأحكام التي تصدر على محتوى القرآن و أسلوب العرض فيه. فقد تكون النّقطة الواحدة في القرآن الكريم سبباً في إصدار حكمين مختلفين نتيجة للاختلاف في تفسير أصل وجود القرآن. وسوف نورد بعض الأمثلة لهذا الاختلاف في الحكم عندما نذكر من شروط في المفسّر للقرآن أن يكون ذا ذهنيّة إسلاميّة.

و من أجل ذلك فنحن لا نسوّغ لأنفسنا أن نقبل حكماً ما في تفسير نقطة حول القرآن الكريم، لمجرّد انسجام هذا الحكم مع تلك النّقطة، بل لا بدّ لنا أن ننظر أيضاً - بشكل مسبق - إلى مدى انسجام الحكم مع التّفسير الصّحيح، لوجود الظاهرة القرآنيّة نفسها.

إنّ الظاهرة القرآنيّة كما سنشرحه في البحوث القادمة ليست نتاجاً شخصياً لمحمّد ﷺ، و بالتالي ليست نتاجاً بشريّاً مطلقاً، و إنّما هي نتاج إلهيّ مرتبط بالسّماء. و على هذا الأساس يمكننا أن نجزم بشكل مسبق ببطان جميع الشّبهات التي تثار حول المكّي والمدنيّ، لأنّها في الحقيقة تفسيرات لظاهرة الفرق بين المكّي والمدنيّ على

أساس أن القرآن الكريم نتاج بشري.

وبالأحرى يجب أن يقال: إن شبهات المكي والمدني ترتبط في الحقيقة بالشبهات التي أثيرت حول الوحي ارتباطاً موضوعياً؛ لأنها ترتبط بفكرة إنكار الوحي، ولذا فسوف نناقش هذه الشبهات بعد التحدث عنها؛ لإيضاح بطلانها من ناحية، وتقديم التفسير الصحيح للفرق بين المكي والمدني بعد ذلك من ناحية ثانية. [ثم ذكر الشبهات حول المكي والمدني التي لا يحتاج ذكرها هنا، وإن شئت فراجع].

الفروق الحقيقية بين المكي والمدني

ولم نجد في الشبهات التي تناولناها، ولا نجد في غيرها ما يمكنه أن يصمد أمام النقد العلمي أو الدرس الموضوعي، ومن كل ذلك يجدر بنا أن نقدم تفسيراً منطقياً لظاهرة الفرق بين القسم المكي والقسم المدني، وإن كنا قد ألمحنا إلى جانب من هذا التفسير عندما تناولنا الشبهات بالنقد والمناقشة.

ويحسن بنا أن نذكر الفروق الحقيقية التي امتاز بها المكي عن المدني، سواء ما يتعلق بالأسلوب أو بالموضوع الذي تناوله القرآن. ثم نفسر هذه الفروق على أساس الفكرة التي أشرنا إليها في صدر البحث، والتي تقول: إن هذه الفروق كان نتيجة لمراعات ظروف الدعوة والأهداف التي تسعى إلى تحقيقها؛ لأن الهدف والغاية يلقيان - في كثير من الأحيان - بظلهما على طريق العرض والمادة المعروضة.

وتلخص هذه الفروق والخصائص التي يمتاز بها المكي عن المدني غالباً بالأمور التالية:^١
١- إن المكي عالج بشكل أساسي مبادئ الشرك والوثنية وأسسهما النفسية والفكرية ومؤداهما الأخلاقي والاجتماعي.

٢- وقد أكد على ما في الكون من بدائع الخلقة وعجائب التكوين، الأمر الذي يشهد بوجود الخالق المدبر لها، كما أكد على عالم الغيب والبعث والجزاء والوحي والنبوءات، وشرح ما يرتبط بذلك من أدلة وبراهين، كما خاطب الوجدان الإنساني، وما أودعه الله

١ - سبق أن أشرنا إلى هذه الميزات وغيرها عند البحث عن المكي والمدني.

فيه من عقل وحكمة وشعور.

٣- وإلى جانب ذلك تحدّث عن الأخلاق بمفاهيمها العامّة، مع ملاحظة الجانب التّطبيقيّ منها، وحذّر من الانحراف فيها كالكفر والعصيان والجهل والعدوان وسفك الدّماء ووادّ البنات واستباحة الأعراض وأكل أموال اليتامى إلى غير ذلك وعرض إلى جانب ذلك الوجه الصّحيح للأخلاق، كالإيمان بالله والطّاعة له والعلم والمحبة والرّحمة والعفو والصّبر والإخلاص واحترام الآخرين وبرّ الوالدين وإكرام الجارّ ونظافة اللّسان والصّدق في المعاملة والتّوكّل على الله وغير ذلك.

٤- وقد تحدّث عن قصص الأنبياء والرّسل والمواقف المختلفة الّتي كانوا يواجهونها من قبل أقوامهم وأُممهم، وما يستنبط من ذلك من العبر والمواعظ.

٥- أنّه سلك طريق الإيقاع الصّوتيّ والإيجاز في الخطاب، سواء في الآيات أو السّور، ويكاد أن يكون المدنيّ بخلاف ذلك على الغالب وإن كان قد امتاز بالأمرين التّالين.

١- دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام مع مناقشتهم، وبيان انحرافهم عن العقيدة والمناهج الحقّة الّتي أنزلت على أنبيائهم.

٢- بيان التّفصيلات في التّشريع والنّظام، ومعالجة مشاكل العلاقات المختلفة في المجتمع الإنسانيّ.

التفسير الصّحيح للفرق بين المكيّ والمدنيّ

و حين نريد أن ندرس ظاهرة الفرق بين المكيّ والمدنيّ من خلال هذه الحصانصر والميزات نجد:

أولاً- إنّ هذه الفروق لا تشكّل حدّاً فاصلاً بين هذين القسمين في القرآن الكريم، و إنّما هي طابع عام لكلّ من القسمين، وإلّا فنحن نلاحظ أنّ كلّاً من القسمين تناول بعض أو كلّ الجوانب الأخرى لنقسم الثّاني بشكل أو بآخر انسجاماً مع الأسلوب القرآنيّ العام، الّذي تميّز بمزج الأفكار والمفاهيم ليجد منها هذا التّرتيب الفريد المؤثّر في عمليّة التّغيير كما أسلفنا.

ثانياً - أن الدعوة الإسلامية بدأت في مكة وعاشت فيها ثلاث عشرة سنة، وهذه الفترة منسوبة إلى زمن نزول القرآن، تعتبر في الحقيقة فترة إرساء أسس العقيدة الإسلامية بجوانبها المختلفة، سواء ما يتعلق بالجانب الإلهي أو الغيبي أو الأخلاقي أو الاجتماعي، وسواء ما يتعلق بالجانب الإيجابي، كعرض مفاهيمها عن الكون والحياة والأخلاق والمجتمع، أو ما يتعلق بالجانب السلبي، كمناقشة الأفكار الكافرة التي كانت التي كانت تسود المجتمع آنذاك.

وهذه الحقيقة تفرض - بطبيعة الحال - أن يكون القسم المكّي أكثر شمولاً واتساعاً من جانب، وأن يكون مرتبطاً بمادته وموضوعاته بالأسس والركائز للرسالة الجديدة من جانب آخر. وهذا هو الذي يفسر لنا غلبة المكّي على المدني من الناحية الكمّية، مع أن الفترة المدنيّة تبدو - تاريخياً - وكأنّها ذاخرة بالأحداث الجسام، والمجتمع المدني أكثر تعقيداً ومشاكل. كما أن هذا بنفسه بالإضافة إلى الفكرة التي أشرنا إليها، وهي مراعاة الظروف التي تسير بها الدعوة، يفسر لنا هذه الخصائص والميزات التي غلبت على المكّي من جانب والمدني من جانب آخر.

ثالثاً - إن عملية التغيير الاجتماعي كانت بحاجة - على أساس الفكرة التي أشرنا إليها في بداية هذا الفصل - إلى أن تهتم بمراعاة الظروف وطبيعة المجتمع التي تتناولها عملية التغيير، وتركز على القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية، والأمراض الأخلاقية التي يعيشها ذلك المجتمع، حتى يتحقق هذا التغيير بشكل مناسب. وبذلك يمكن تفسير الخصائص السابقة التي أشرنا إليها في الفرق بين المكّي والمدني.

فأما بالنسبة إلى الخصيصة الأولى نلاحظ أن المجتمع المكّي كان مجتمعاً يتسم بطابع الوثنيّة في الجانب العقيدي، بالإضافة إلى أن إيضاح الموقف تجاهها يشكل نقطة أساسية في القاعدة للرسالة الجديدة؛ لأنّها تتبنّى التوحيد الخالص كأساس لكل جوانبها وتفصيلاتها الأخرى. فكان من الطبيعي التأكيد على فكرة رفض الشرك والوثنيّة، والدخول في مناقشة طويلة معها بشتى الأساليب والطرق.

وبالنسبة إلى الخصيصة الثانية نلاحظ أن المجتمع المكّي لم يكن يؤمن بفكرة الإله

الواحد، كما لا يؤمن بعوالم الغيب والبعث والجزاء والوحي وغير ذلك، وهذه الأفكار من القواعد الأساسية للرسالة والعقيدة الإسلامية، بالإضافة إلى أنّ مجتمع أهل الكتاب كان يؤمن بهذه الأصول جميعها فكان من الضروري أن يؤكد القسم المكيّ على ذلك انسجاماً مع طبيعة المرحلة المكيّة التي تعتبر مرحلة متقدّمة، كما أنّ بيانها في هذه المرحلة يجعل المرحلة الثانية في غنى عن بيانها مرّةً أخرى.

وبالنسبة إلى الخصيصة الثالثة فلعلّ التأكيد على الأخلاق في القسم المكيّ دون المدنيّ كان بسبب العوامل الثلاثة التالية:

أ - أنّ الأخلاق تعتبر قاعدة النظام الاجتماعيّ، فالتأكيد عليها يعني في الحقيقة إرساء لقاعدة النظام الاجتماعيّ الذي يستهدفه القرآن.

ب - كما أنّ الدّعوة كانت بحاجة - من أجل نجاحها - إلى استثارة العواطف الإنسانية الخيرة؛ ليكون نفوذها في المجتمع وتأثيرها في الأفراد عن طريق مخاطبة هذه العواطف والأخلاق هي أساس الحقيقيّ لكلّ هذه العواطف، وهي الرّصيد الذي يمدّها بالحياة والنموّ.

ج - أنّ المجتمع المدنيّ كان يمارس الأخلاق من خلال التّطبيق الذي كان يباشره الرّسول محمد ﷺ بنفسه، فلم يكن بحاجة كبيرة إلى التأكيد على المفاهيم الأخلاقية، على العكس من المجتمع المكيّ الذي كان يعيش فيه المسلمون حياة الاضطهاد، وكان يمارس التّطبيق فيه الأخلاق الجاهليّة.

وبالنسبة إلى الخصيصة الرابعة نجد القصص تتناول من حيث الموضوع أكثر التّواحي التي عالجه القرآن الكريم، من العقيدة بالإله الواحد وعالم الغيب والوحي والأخلاق والبعث والجزاء بالإضافة إلى أنّها تصوّر المراحل المتعدّدة للدّعوة، والمواقف المختلفة منها، والقوانين الاجتماعيّة التي تتحكّم فيها وفي نتائجها، والمصير الذي يواجهه أعداؤها، وإلى جانب ذلك تعتبر القصّة في القرآن أحد أسباب الإعجاز فيه، وأحد الأدلّة على ارتباطه بالسّماء.

وكلّ هذه الأمور لها صلة وثيقة بالظّروف التي كانت تمرّ بها الدّعوة في مكّة، ولها تأثير كبير في تطويرها لصالح الدّعوة وأهدافها الرئيسيّة.

ومع كل هذا لم يهمل القسم المدنيّ القصّة مطلقاً، بل تناولها بالشكل الذي ينسجم مع طبيعة المرحلة التي تمرّ بها، كما سوف نتعرّف على ذلك عند دراستنا للقصّة. وبالنسبة إلى الخصيصة الخامسة فقد كان لها ارتباط وثيق بجوانب مرحليّة وإعجازيّة؛ لأنّ المرحلة كانت تفرض كسر طوق الأفكار الجاهليّة الذي كان مضروباً على المجتمع، فكان لهذا الأسلوب الصّاعق الحادّ تأثير فعّال في تذليل الصّعوبات، وتحطيم معنويّات المقاومة العنيفة.

وحين يتحدّى القرآن الكريم العرب في أن يأتوا بسورة منه يكون الإيجاز في السّورة أبلغ في إيضاح الإعجاز القرآنيّ، ه أعمق تأثيراً. وأعد مدنيّ وقد كانت المعركة إلى ذلك كلّها في أولّها معركة شعارات و توطيد مفاهيم عامّة عن الكون والحياة، والإيجاز والقصر ينسجم مع واقع المعركة وإطارها أكثر من الدّخول في تفصيلات واسعة، ولهذا نشاهد السّور القصيرة تُمثّل المرحلة الأولى تقريباً من مراحل القسم المكيّ.

وهذه الملاحظات لم تكن تتوفّر في مجتمع المدينة بعد أن أصبح الإسلام هو الحاكم المسيطر على المجتمع، وبعد أن أصبحت مسألة الوحيّ والاتّصال بالسّماء مسألة واضحة، وبعد أن جاء دور آخر للمعركة يفرض أسلوباً آخر في العرض والبيان. ومن هذا الدّرس لخصائص ومميّزات القسم المكيّ تتّضح مبرّرات خصائص القسم المدنيّ من الدّخول في تفصيلات الأحكام الشرعيّة والأنظمة الاجتماعيّة، أو مناقشة أهل الكتاب في عقائدهم وانحرافاتهم؛ حيث فرضت ظروف الحكم في المدينة، والحاجة إلى تنظيم العلاقات بين النّاس إلى بيان هذه التفصيلات في الأنظمة. كما أنّ المعركة في المدينة انتقلت من الأصول والأسس العامّة للعقيدة إلى جوانب تفصيليّة منها ترتبط بحدودها وأشكالها، وبالعامل على تقويم الانحراف الذي وضعه أهل الكتاب فيها. وبهذا نفسر الفرق بين المكيّ والمدنيّ بالشكل الذي ينسجم مع فكرتنا عن القرآن، وفكرتنا عن مراعاته للظّروف من أجل تحقيق أهدافه وغاياته. (ص: ٤٣ - ٦٥)

الفصل الثلاثون

نصّ الأبياريّ (معاصر) في «الموسوعة القرآنيّة»

نزول الوحي

قد تقدّم أنّ ابتداء نزول الوحي كان في السّابع عشر من رمضان، من السّنة الحادية والأربعين من ميلاد الرّسول، وأنّ قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ أَمْنْتُمْ بِاللّهِ مَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾^١ يُشير إلى ذلك، فالتقاء الجمعَيْن - أعني المسلمين والمشركين بيدر - كان في السّابع عشر من رمضان من السّنة الثّانية للهجرة، وفي مثلها من السّنة الحادية والأربعين من مولده كان ابتداء نزول الفرقان، ينضمّ إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾^٢.

والصّحيح أنّ أوّل ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^٣، ثمّ كانت فترة الوحي التي أشرنا إليها من قبل والتي مكثت سنين ثلاثاً وبعدها أخذ القرآن ينزل على الرّسول منجّماً، فنزلت: ن والقلم، ثمّ المرّمل، ثمّ المدثر، إلى غير ذلك ممّا نزل مُقَامَهُ ﷺ نمكة منذُ بُعث إلى أن هاجر، وكان ذلك اثنتي عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً، أي منذ اليوم السّابع عشر من رمضان من سنة إحدى وأربعين من مولده إلى اليوم الأوّل من شهر ربيع الأوّل من سنة أربع وخمسين من مولده.

وقد ذكر ابن التّديم بإسناده عن محمّد بن عُمان بن بشير السّوريّ على ترتيب نزولها المكيّ والمدنيّ، وقد عرض لهذا أيضاً البقاعيّ إبراهيم بن عمر (٨٨٥هـ) في كتابه: «نظم الدرر في تناسب الآي والسور» غير أنّ بين ما ساق ابن التّديم وبين ما ساق البقاعيّ خلافاً.

و نعمة جداول تنظم ترتيب ابن النديم المكي ثم المدني، كما تنظم ترتيب البقاعي المكي والمدني، ومن المساقين نستطيع أن نتبين هذا الخلاف.... [ثم ذكر ترتيب السور عنهما، كما سيجيء عن ابن النديم في قسم الجداول، الرقم ٤ و ٥].

عدد المكي والمدني

والمتفق عليه، و عليه المصحف الذي بين أيدينا، أن المدني من سور القرآن ثمان وعشرون سورة هي... [و ذكر كما تقدم عن عزة ذرورة، ثم قال:]
و ما بعد هذه السور الثماني والعشرين فهو مكي، أعني نزل بمكة و ما حواليلها. أما على رأي من يقول: إن المراد بالمكي هو ما جاء خطاباً لأهل مكة، وأن المدني هو ما جاء خطاباً لأهل المدينة، فالأمر يختلف. وإذا عرفنا أن سور القرآن عددها أربع عشرة و مائة سورة، كان ما نزل بمكة هو ست و ثمانون سورة.

وإذا شئت مزيداً من الحصر فعدد آيات السور المدنية الثماني والعشرين هو ثلاث وعشرون و ستمائة و ألف آية (١٦٢٣)، و عدد آيات السور المكية الست و الثمانين هو ثلاث عشرة و ستمائة و أربعة آلاف آية (٤٦١٣)، فيكون مجموع آي القرآن مدنية و مكية ستاً و ثلاثين و مائتين و ستة آلاف (٦٣٢٦)، و هذا هو المعتد به.
و أنت بهذا تجد أن أكثر القرآن نزل بمكة قبل الهجرة، و أن السور المدنية تكاد تعدل الثلث من مجموع السور المكية، تزيد على الثلث قليلاً، و أن مجموع آيات السور المدنية يكاد يعدل الثلث من مجموع آيات السور المكية، ينقص عن الثلث قليلاً [إلى أن قال:]

ترتيب الآيات

و كما كان ضبط الآيات بفواصلها توقيفياً كذلك كان وضعها في مواضعها توقيفياً، دليل ذلك الآية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ البقرة: ٢٨١، كانت آخر ما نزل، فوضعها النبي عن وحي من ربه بين آيتي الرّبا و الدّين من سورة البقرة، و هكذا كان الأمر في سائر الآيات. [ثم ذكر ترتيب السور المكية و المدنية و استثنائات الآيات فيهما كما سيجيء نحوه عن الزّنجاني في الجدول الرقم ١٥].

ترتيب السور

أما عن ترتيب السور، فمن السلف من يقول: إنه توقيفي، ويستدل على ذلك بورود الحواميم مرتبة ولاء، وكذا الطواسين، على حين لم ترتب المسبحات ولاء، بل جاءت مفصولاً بين سورها، وفصل بين «طسم» الشعراء و«طسم» القصص بـ«طس»، مع أنها أقصر منها، ولو كان الترتيب اجتهاداً لذكرت المسبحات ولاء وأخرت «طس» عن «القصص».

كما يجعلون فيما نقله الشهرستاني محمد بن عبد الكريم في تفسيره «مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار» الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنشَأْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ هي السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، دليلاً على أن هذا الترتيب كان بتوقيف من النبي ﷺ.

والذين يقولون: إن ترتيب السور اجتهادي يستدلون على ذلك بورود السور مختلفة الترتيب في المصاحف الخمسة التي أثرت عن خمسة من كبار الصحابة، هم علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وأبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق^١.

أما عن مصحف علي فيعزى إليه أنه رأى من الناس طيرة عند وفاة النبي ﷺ، فأقسم ألا يضع على ظهره رداءه حتى يجمع القرآن، فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمع القرآن، فكان أول مصحف جمع فيه القرآن من قلبه...

وأما عن مصحف أبي فيقول ابن النديم: قال الفضل بن شاذان: أخبرنا الثقة من أصحابنا، قال: كان تأليف السور في قراءة أبي بن كعب بالبصرة في قرية يقال لها: قرية الأنصار، على رأس فرسخين، عند محمد بن عبد الملك الأنصاري، أخرج إلينا مصحفاً، وقال: هو مصحف أبي رويناه عن آبائنا فنظرت فيه فاستخرجت أوائل السور وخواتم الرسل و عدد الآي. ثم مضى يذكر السور مرتبة كما جاء في هذا المصحف.

١ - ما ذكره سهو لأن أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ليس صحابياً بل هو سادس أئمة أهل البيت عليه السلام، وُلد عام:

وَأَمَّا عَنْ مُصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَيَنْقُلُ ابْنُ النَّدِيمِ عَنِ الْفَضْلِ بْنِ شَاذَانَ أَيْضًا،
فَيَقُولُ: قَالَ وَجَدْتُ فِي مُصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ تَأْلِيفَ سُورِ الْقُرْآنِ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ ثُمَّ
يَسُوقُ ابْنُ النَّدِيمِ هَذَا التَّرْتِيبَ.

ثُمَّ يَقُولُ ابْنُ النَّدِيمِ: قَالَ ابْنُ شَاذَانَ: قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ
لَا يَكْتُبُ الْمُعَوِّذَتَيْنِ فِي مُصْحَفِهِ، وَلَا فَاتِحَةَ الْكِتَابِ.

ثُمَّ يَقُولُ ابْنُ النَّدِيمِ: رَأَيْتُ عِدَّةَ مَصَاحِفَ ذَكَرْتُ سَاخِهَا أَنَّهَا مُصْحَفُ ابْنِ مَسْعُودٍ، لَيْسَ
فِيهَا مُصْحَفَانِ مُتَّفَقَانِ، وَأَكْثَرُهَا فِي رِقِّ كَثِيرِ النَّسْخِ. وَقَدْ رَأَيْتُ مُصْحَفًا قَدْ كُتِبَ مِنْذُ نَحْوِ
مِائَتِي سَنَةٍ فِيهِ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ.

وَأَمَّا عَنْ مُصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ (٦٨ هـ) وَكَانَ رَأْسَ الْمَفْسَّرِينَ، فَقَدْ ذَكَرَ
الشَّهْرِسْتَانِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ (٥٤٨ هـ) هَذَا التَّرْتِيبَ فِي مُقَدِّمَةِ تَفْسِيرِهِ «مَفَاتِيحِ
الْأَسْرَارِ وَمَصَابِيحِ الْأَبْرَارِ».

وَأَمَّا عَنْ مُصْحَفِ الْإِمَامِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْبَاقِرِ بْنِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ
بْنِ الْحُسَيْنِ (١٤٨ هـ) فَقَدْ ذَكَرَهُ الشَّهْرِسْتَانِيُّ أَيْضًا فِي مُقَدِّمَةِ تَفْسِيرِهِ «مَفَاتِيحِ الْأَسْرَارِ
وَمَصَابِيحِ الْأَبْرَارِ»... [وَذَكَرَ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْهُ]. (١: ٣٢٦ - ٣٤٠)

الفصل الحادي والثلاثون

نصّ السيّد مير محمّديّ (معاصر) في كتابه: «بحوث في تاريخ القرآن وعلومه»

المكيّ والمدنيّ في القرآن

فائدة هذا البحث

يمكن تلخيصها بالنقاط التالية

الأولى - أن المعروف بين المسلمين هو أن في كتاب الله ناسخاً ومنسوخاً، بل لقد قال بعض المحقّقين: إن نسخ الحكم دون التلاوة هو المشهور بين العلماء والمفسّرين^١، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا...﴾^٢. وما رواه سُلَيْم بن قَيْس عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «إنّ أمر النّبّي مثل القرآن، منه ناسخ ومنسوخ وخاصّ وعامٌّ»^٣.

وحيث أنّه لا بدّ من تأخّر النّاسخ عن المنسوخ، فإنّ ذلك يتوقّف إلى حدّ بعيد على بحثنا هذا، ومعرفة أنّ أيّ الآيتين مكّيّة متقدّمة، والأخرى مدنيّة متأخّرة؛ لتكون هذه ناسخة لتلك، فيما لولم يمكن الجمع بينهما.

الثّانية - قد يحتاج ظهور الكلام - أيّ كلام - وضعاً أو عرفاً إلى معرفة القرائن المفهمة، كالعلم بمكان الصّدور وزمانه، ومعرفة المخاطب - بالفتح - بهذا الكلام، والجوّ الذي ورد فيه، فإذا عرف كلّ ذلك ينعقد للكلام ظهور في المعنى المقصود منه.

٢ - البقرة / ٨٠٦.

١ - البيان في تفسير القرآن: ١٩٦.

٣ - كنى سُلَيْم بن قيس ط النجف: ٨٥/.

و لعلّ القرآن الكريم لا يشدّ عن هذه الضابطة، فكثيراً ما يكون العلم بكون الآية مكّيّة أو مدنيّة، وبأنّها نزلت قبل الهجرة أو بعدها قرينة مبيّنة للمعنى المقصود، و يكون ذلك معيّناً للمفسّر على فهم المراد من كلام الله تعالى. [ثمّ ذكر قول النيسابوريّ دليلاً على قوله، كما تقدّم عن الزركشي].

الثالثة - معرفة تواريخ الوقائع والأحكام على وجه الإجمال، ممّا يفيد في معرفة صحّة وفساد بعض المنقولات غير المسوّلة من بعض المؤرّخين المأجورين أو المغفلين أو المتعصّبين. فمعرفة المكّيّ والمدنيّ تدلّ على أنّ ما ذكر في المكّيّ كان قد وقع قبل الهجرة، و ما في المدنيّ وقع بعدها.

الرابعة - قال الزرقانيّ: ومن فوائده أيضاً الثّقة بهذا القرآن... [و ذكر كما تقدّم عنه].

المراد من المكّيّ والمدنيّ

قال في «الإتقان»: اعلم أنّ للنّاس في المكّيّ والمدنيّ اصطلاحات ثلاثة... [و ذكر كما تقدّم عن الشّيوطيّ، ثمّ قال]:

وأما نحن فنختار الاصطلاح الأوّل، ونسير في بحثنا على وفقه؛ لأنّه مضافاً إلى شهرته هو تعريف جامع لا يشدّ عنه أيّ من الموارد، وذلك لأنّ التقسيم على هذا الاصطلاح يكون من قبيل الحصر العقليّ الدائر بين النّفي والإثبات دون أن يكون هناك واسطة، بخلاف التّعريفين: الثّاني والثّالث، فإنّهما غير شاملين لبعض السّور كسورة الفتح مثلاً، فإنّها بتمامها أو بعضها نزلت بين مكّة والمدينة عند رجوع النّبيّ ﷺ من الحديبيّة، فالاصطلاح الثّاني إذن لا يشملها؛ لأنّها لم تنزل في مكّة ولا في المدينة.

وأما على الاصطلاح الثّالث فلائها غير مصدّرة بيا أيّها النّاس؛ لتكون مكّيّة، ولا بيا أيّها الذين آمنوا؛ لتكون مدنيّة، وأما على المختار فهي مدنيّة؛ لزلوها بعد الهجرة.

ضوابط تعيين المكّيّ والمدنيّ

ووجهات النّظر في ذلك متعدّدة، ونذكر منها

الأولى - قال القاضي أبو بكر في الإنصار... [و ذكر كما تقدّم عن الشّيوطيّ، ثمّ أحسن

قول الزرقاني في المقام كما تقدّم عنه، فقال: [.

ثمّ إنّهُ ربّما نجد في كتب الإماميّة بعض الروايات عن أئمة أهل البيت - وإن كانت قليلة و ربّما ضعيفة سنداً - يستفاد منها. أو نصّ فيها على أنّ هذه السّورة أو الآية مكّيّة أو مدنيّة، مثل:

١- ما رواه العياشي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «نزلت سورة المائدة قبل أن يقبض النّبيّ ﷺ بشهرين أو ثلاثة»^١.

٢- و ما رواه في الكافي عن محمد بن سالم، عن أبي جعفر عليه السلام وفيه: «ثمّ بعث الله محمّداً ﷺ وهو بمكة عشر سنين. فلم يمت في تلك العشر سنين أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً رسول الله ﷺ إلاّ أدخله الله الجنّة بإقراره، وهو إيمان التّصديق»، إلى أن قال عليه السلام: «و تصديق ذلك أنّ الله (عزّ وجلّ) أنزل عليه في سورة بني إسرائيل بمكة ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾^٢. ثمّ بعد أنّ عدّد عليه السلام بعض ما أنزله الله في مكة قال: «فلما أذن الله لمحمّد ﷺ في الخروج من مكة إلى المدينة بني الإسلام على خمس»، إلى أن قال: «وأنزل في المدينة في بيان القتال»، و عدّد بعض ما أنزل في المدينة، ثمّ قال: «وأنزل بالمدينة ﴿الزّاهي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً إلخ...﴾^٣ و نزل بالمدينة: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾^٤، و سورة النّور نزلت بعد سورة النّساء» الحديث^٥.

٣- ما رواه الأمين الطّبرسي عن عليّ بن إبراهيم أنّ أباه حدّثه عن عليّ بن ميمون، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان عند فاطمة شعيّر فجعلوه عصيدة، فلما أنضجوها ووضعوها بين أيديهم جاء مسكين، فقال المسكين: رحمكم الله. فقام عليّ عليه السلام فأعطاه ثلثها»^٦ وفي هذا دلالة على أنّ السّورة مدنيّة كما نقل عن ابن عبّاس.

الثّانية - [ثمّ ذكر رواية الحاكم والبيهقيّ و التّبرّاز و رواية ميمون بن مهران، كما تقدّم عن الشّيوطي، فقال: [ولكن هذا الكلام لا يصحّ على إطلاقه لأمر؛

١ - تفسير العياشي، سورة المائدة.

٢ - الإسراء / ٢٣.

٣ - النّور / ٣.

٤ - النّور / ٤.

٥ - أصول الكافي لثقة الإسلام الكليني ط قديم: ٣٢٠. ٦ - تفسير مجمع البيان سورة (الإنسان).

أولاً - فلقد راجعت «المعجم المفهرس» ألفاظ القرآن الكريم»، فرأيت أن كل ما كان فيه: ﴿يَاءُيُهَا النَّاسُ﴾ قد كُتِبَ في قبالة أنه مكِّي وكل ما كان فيه: ﴿يَاءُيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قد كُتِبَ في قبالة أنه مدني، إلا في موارد، وهي الآيات التالية:

١- ﴿يَاءُيُهَا النَّاسُ اغْبُدُوا رَبِّكُمْ﴾^١

٢- ﴿يَاءُيُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾^٢

٣- ﴿يَاءُيُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ﴾^٣

٤- ﴿يَاءُيُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ﴾^٤

٥- ﴿يَاءُيُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾^٥

فإن هذه الآيات جميعاً قد كُتِبَ في قبالتها أنها مدنيّة، و وقعت في السُّور المدنيّة. ولكنهم لم يستثنوها في المصحف الأميري، ولكن ما كان فيه ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ قد كُتِبَ في المعجم الفهرس أنه مكِّي.

و ثانياً - أن هذه الضابطة على فرض صحتها غير مطردة في جميع القرآن، فهي أخص من المدعى، فإنها لا تبين لنا حال الآيات - وهي كثيرة - التي ليس فيها: ﴿يَاءُيُهَا النَّاسُ﴾ ولا ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ ولا ﴿يَاءُيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فنحتاج في تمييزها إلى ضوابط وعلامات أخرى.

و ثالثاً - أن كل تلك العلامات المذكورة إنما جعلت بعد أن فهمنا المكِّي والمدني من الآثار المنقولة عن الأصحاب كابن عباس وغيره، وبعبارة أخرى بعد أن ميّزنا المكِّي عن المدني من السُّور ولا حظناها فوجدنا المكِّي منها يشتمل على ﴿يَاءُيُهَا النَّاسُ﴾ و ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، وليس فيه ﴿يَاءُيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والمدني بالعكس.

وعليه فمعرفة أن المكِّي فيه هذه الجملة دون تلك، والمدني بعكسه متوقّف على الثقل والآثار، لا إننا إذا رأينا كلمة ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ مثلاً عرفنا أن السُّورة مكِّيّة مباشرة.

٢- النساء / ١.

١- البقرة / ٢١.

٤- النساء / ١٧٤.

٣- النساء / ١٧٠.

٥- الحج / ١.

ولعلّ هذا القائل تخيّل أنّ قلّة المسلمين في مكّة لا تناسب توجيه الخطاب إليهم، بل المناسب الخطاب للأكثر، ولكنّ كثرتهم في المدينة أوجبت صحّة توجيه الخطاب إليهم بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

ولكن هذا مجرد تخيّل و حدس لا يوجب الاطمئنان، بل الاطمئنان حاصل بخلافه، وذلك لأنّ خطابات القرآن ليس على نحو القضية الخارجية.

وإنّما هي على نحو القضية الحقيقيّة التي لا يفرق فيها بين كثرة الموجودين وقلّتهم. بل كلّ من دخل تحت عنوان الخطاب، ولو بعد سنين يكون مشمولاً له نعم، ربّما يقال: إنّ الخطاب المشتمل على بعض الأحكام كالجهاد ونحوه، ممّا يحتاج إلى القدرة والتمكّن المفقود عند مسلمي مكّة لا يكون توجيهه إليهم مناسباً.

الثالثة: ما قيل من أنّ فيه أحكاماً فرعيّة فهو مدنيّ. وهذه العلامة وإن كانت صادقة بنحو جزئيّ، إلّا أنّها أيضاً لا يمكن الاعتماد عليها؛ لأنّها أخصّ من المدعى؛ إذ إنّ ثبوت أنّ هذه الآية مدنيّة لا يلزمه ثبوت كون تلك مدنيّة.

هذا بالإضافة إلى أنّنا نجد في السور المكيّة أحكاماً فرعيّة كالسور المدنيّة. وإن كانت بالنسبة إليها قليلة. فنجد أنّ: قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^١. وقوله ﴿لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾^٢. وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾^٣. وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^٤. وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْبَيِّنَاتِ حَتَّىٰ أَحْسَنَ﴾^٥. وقوله ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾^٦.

نجد أنّ كلّ هذه الآيات المتضمنة لأحكام فرعيّة قد وردت في سورة الأنعام وهي مكيّة. كما أنّ: قوله تعالى: ﴿مَنْ حَزَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾^٧. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾^٨.

قد ورد في سورة الأعراف وهي مكيّة، وأيضاً فإنّ: قوله ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾

١- الأنعام / ٧٢.

٢- الأنعام / ١٥١.

٣- الأنعام / ١٥٢.

٤- الأعراف / ٣٢.

٥- الأنعام / ١٥٢.

٦- الأعراف / ٣٢.

٧- الأعراف / ٣٢.

٨- الأعراف / ٣٢.

يَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ^١، قد ورد في سورة إبراهيم وهي مكيّة. و ورد في سورة الإسراء المكيّة؛ قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَا﴾ وفي سورة المؤمنون المكيّة؛ قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾^٢ وأمر الناس بالسجود في سورة التّجم وهي مكيّة. وأمّا سوى ذلك من السُّور المكيّة فلم أجد فيه ما يدلّ على أحكام فرعيّة في هذه العجالة.

الرّابعة - ما قيل من أنّ ما فيه كلمة ﴿كَلَّا﴾ فهو مكّي. وهذا حقّ كما يظهر لمن لاحظ «المعجم الفهرس»، فإنّه قد كتب أمام كلّ الآيات المتضمّنة لكلمة (كَلَّا) أنّها مكيّة.

ولكن قد ذكرنا أنّ ذلك لم يعلم إلّا بعد تمييز المكّي عن المدنيّ بالنقل عن ابن عبّاس وغيره، ولولا ذلك لم يستطيع أحد أن يفهم، ولا جاز له أن يميّز بين المكّي والمدنيّ بوجود (كَلَّا) وعدم وجودها هذا عدا عن أنّ ذلك لو صحّ كونه مميّزاً فإنّما يقتضي تعيّن بعض الآيات، ويبقى الباقي بحاجة إلى مميّز آخر.

وعليه فإنّنا نخلص من كلّ ما تقدّم إلى أنّ القول الحقّ هو أنّ تمييز المكّي عن المدنيّ يحتاج إلى الأثر والنقل، وأنّ ما سواه ممّا ذكر ضابطاً ومميّزاً لا يصلح لذلك.

هل هناك آيات مدنيّة في سورة مكيّة أو بالعكس؟

بقي أن نشير هنا إلى أنّ من البعيد جدّاً وجود آيات مكيّة في سورة مدنيّة، وكذلك العكس، بناء على الإصطلاح المشهور في المكّي والمدنيّ.

ولست أدري لماذا إذاً نزلت آية في مكّة لسبب اقتضى نزولها - لماذا - لا تجعل هذه الآية جزء لسورة مكيّة نزلت في ظروف مشابهة؟ ولماذا ينتظر الشّهور والأعوام حتّى يسافر النّبي ﷺ المدينة، ثمّ تجعل حينئذ جزء لسورة مدنيّة؟

ولماذا يصرف النّظر عن الجمع بين منازل في عصر واحد ومحيط واحد ومكان واحد إلى الخلط والتّشريك بين آيات نزلت في ظروف وأجواء مختلفة؟

هذا بالإضافة إلى أنّ القائل بذلك - أي بوجود آيات مدنيّة في سور مكيّة والعكس. لم يتمسك لإثبات وجهة نظره بشيء ماثور، ولا وصل إليه دليل لا من الرّسول ﷺ ولا من

الأئمة عليهم السلام، بل إنّما استند إلى مجرد اجتهادات ظنيّة، ممّا يشجعنا على القول بأنّه لا دليل على هذا الاستثناء ولا حجة عليه.

ومن الموارد التي قيل فيها بوجود آيات مدنيّة في سورة مكيّة سورة الرعد، فإنّها على ما نقله مجاهد عن ابن عباس مكيّة كلّها. ولكن استثنى الكلبي ومقاتل الآية الأخيرة منها. وهي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^١؛ حيث أنّهم يقولون: إنّ هذه الآية قد نزلت في عبدالله بن سلام، وهو إنّما أسلم بعد الهجرة، فلا يمكن أن تكون هذه الآية المقصود بها عبدالله بن سلام مكيّة.

ولكن الحقيقة أنّ هذا توهم محض، فإنّه من الممكن جداً أن يكون المقصود بالآية غير عبدالله بن سلام، ممّن أسلم في مكّة المكرّمة، وتكون السورة كلّها مكيّة؛ قال الشيخ عبدالمتعال الصّعيديّ: هذا وأمثاله ممّا يتّخذ... [وذكر كما تقدّم عنه، فقال:]

وفي «الدّر المنثور» عن سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنّحاس أنّ سعيد بن جبّير أنكر نزول هذه الآية في ابن سلام. وقال الشّعبيّ: ما نزل في ابن سلام شيء من القرآن. وثمة روايات أخرى أخرجهما في الدّر المنثور ٤: ٦٩ تبعد نزول هذه الآية في عبدالله بن سلام المذكور.

المأثور في تمييز المكيّ والمدنيّ

قد تقدّم بعض ما نقل عن أئمّتنا في بيان بعض الموارد، وننقل هنا ما نقل عن بعض الأصحاب، فنقول:

روي في «الإتقان» عن «فضائل القرآن» لابن ضُرَيْس بسند ذكره عن ابن عباس؛ قال: كانت إذا نزلت فاتحة... [وذكر كما تقدّم عن السيوطي، ثم قال:]

وهذا الحديث كما تراه قد سقطت منه سورة الفاتحة، مع أنّها أوّل سورة نزلت بمكّة على ما نقل في «الإتقان» عن «الكشاف» عن أكثر المفسّرين.^٢ ونقل أيضاً عن جابر بن

زيد أن أول ما نزل بمكة: ﴿إِذَا بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ثم ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ثم الفاتحة الخ. ولا تفوتنا هنا الإشارة إلى أن الأمين الطبرسي قد روى حديث ابن عباس الآنف في مجمع البيان^١، لكنه «ره» قد اشتبه وعُدَّ سورة القمر وسورة اقتربت سورتين، مع أنهما واحدة. ويمكن ذلك الاشتباه من النَّاسخ، يؤيِّده قوله فيما بعد: وهي خمس وثمانون سورة، فإنه لو فرض تعدد السورة عنده بتعدد الاسمين لصار عدد السور عنده ستاً وثمانين سورة، كما أن ابن التديم قد أورد رواية ابن عباس المذكورة في فهرسته، فلتراجع^٢.

نظرة في المصاحف المطبوعة اليوم

ثم لا يخفى أن المصاحف المطبوعة متفاوتة بالنسبة إلى ما روي عن ابن عباس، فنلاحظ:
أ- إن القرآن الذي أعده عبد الوُدود يوسف وطبع بموافقة دار الإفتاء ووزارة الإعلام السورية بتاريخ ١٠/٨/١٩٧٥ قد وافق رواية ابن عباس الآنف، حتَّى في عدم استثناء بعض الآيات، فعنَّ السورة كلها بمكيَّة أو مدنيَّة من دون أن يستثنى شيئاً.
ب- إنَّ المصحف المطبوع في إيران بخط طاهر خوشنويس، وقوبل مع القرآن السلطاني^٣ قد وافق رواية ابن عباس، إلَّا في موارد هي:

- ١- سورة الحمد: فإنَّها لم ترد في الرواية، ولكن جاء في المصحف السلطاني أنها مكيَّة.
- ٢- سورة الرَّحْمَن: مدنيَّة في الرواية، مكيَّة في السلطاني.
- ٣- سورة التَّحْرِيم: مدنيَّة في الرواية، مكيَّة في السلطاني.
- ٤- سورة النَّاس: مكيَّة في الرواية، مدنيَّة في السلطاني.

ج- إنَّ المصحف الذي طبع في القاهرة بخط «قُدْرَغَ لي»، وقوبل بالمصحف الأميري الذي أقرته اللجَّة المعيّنة من قبل «فؤاد الأوَّل» ملك مصر في وقته، تحت إشراف مشيخة الأزهر، هذا المصحف قد وافق رواية ابن عباس، إلَّا أنَّه قد استثنى فيه بعض الآيات، مثلاً كتبوا في المصحف: سورة البقرة مدنيَّة، إلَّا آية (٢٨١) فمكيَّة، لكنَّا قلنا: إنَّ

٢- الفهرست: ٤٥.

١- ١٠: ٤٠٥.

٣- كتب القرآن السلطاني في عصر السلطان سليم بعد فتحه مصر، وكان قد استقدم جميع الخطاطين والفنانين والرَّسَّامين إلى عاصمته فكتبوه (التهيد في علوم القرآن ١: ٣٥٦).

هذا الاستثناء لا دليل عليه، إلا رواية عن ابن عباس تقول: إنها نزلت بمنى قبل وفاة النبي ﷺ بواحد وثمانين يوماً، ولكنها معارضة بما يدل على خلاف ذلك^١.
ولو سلم فقد قلنا: إن المقياس المشهور والمنصور هو تسمية منازل قبل الهجرة مكّيّاً، ومانزل بعدها مدنيّاً، لا مانزل في مكّة والمدينة كما تقدّم، فهي مدنيّة على هذا القول الأصحّ.

د - وثمة مُصحف مطبوع في تركيا لسنة ١٣٤٢ هـ بإشراف لجنة، وهو أيضاً لم تستثن فيه آيات أصلاً. وهذا علّه هو طريقة أكثر المصاحف المطبوعة كما يظهر لمن لاحظها. فتحصل أنّ (٨٦) سورة معها سورة الفاتحة كلّها مكّيّة، و (٢٨) سورة كلّها مدنيّة من دون استثناء، وأنّ المراد بالمكّي ما أنزله الله قبل الهجرة، وبالمدني ما أنزله الله بعدها، وهو الإصطلاح المعروف والمشهور. (٣٣٩ - ٣٢٥)

الفصل الثاني والثلاثون

نص الدكتور الصغير (مُعاصرٌ) في دراسات قرآنية (تاريخ القرآن)

المكِّي والمدني

كان نتيجة هذا التدرّج في النزول أن استوعب نزول القرآن الكريم حياة النبي ﷺ في الرسالة، وكانت رسالته قد اتخذت مرحلتين: مرحلة الفترة المكيّة قبل الهجرة، ومرحلة الفترة المدنيّة بعد الهجرة وفي الضوء اقتضى أن ينقسم القرآن الكريم إلى مرحلتين تبعًا لمرحلتي الرسالة؛ لاستمراره بالنزول فيهما، وهما المرحلة المكيّة، والمرحلة المدنيّة، وهو تقسيم روعي فيه النظر إلى الزمان والمكان، وللباحثين فيه ثلاثة اصطلاحات: [ثم ذكر في بيان اصطلاحات الثلاثة، كما تقدّم عن الزركشيّ والسّيوطيّ وصبحي الصّالح والعطار وغيرهم فقال:]

والحق أنّ علمائنا القدامى قد عونا في هذا الجانب عناية فائقة، تتناسب مع جلال القرآن وعظمته، واعتبروا علم نزول القرآن زمانياً ومكانياً من أشرف علوم القرآن، حتّى ذهبوا إلى من لم يعرف مواطن النزول وأماكنه وأزمته، ويميّز بينها لم يحلّ له أن يتكلّم في كتاب الله. [ثم ذكر قول محدّد بن حبيب التيسابوريّ حول نزول القرآن بأمكنة مختلفة وحكمها، كما تقدّم عن الزركشيّ، فقال:]

والحق أنّ ابن حبيب التيسابوريّ قد نبّه إلى جزئيات وحيثيّات مهمّة، مضافاً إلى تقسيمه المكيّ ومثله المدنيّ إلى مراحل أوليّة ووسطيّة ونهائيّة، وهي تقديرات تعني بالتاريخ الدقيق لنزول سور القرآن وآياته، وكأنّه بهذا قد فتح الطّريق أمام المستشرقين للخوض في هذه التفصيلات في محاولة لترتيب القرآن زمنياً، ووصف كلّ ما يتعلّق بمراحل نزول الوحي القرآنيّ، وقد علّقوا على ذلك أهميّة كبرى، وكان المستشرق

الألماني الأستاذ تيوردنولدكه (١٨٣٦ م - ١٩٣٠ م) من أبرز المقتنعين في هذا المنهج وضرورة استقصائه، وقد أخضع في ضوءه الحوادث الهامشيّة في الحروب والمغازي والمراسلات والوقائع لاستنتاجاته العلميّة.

وقد سلك في كشف تاريخ السّور مسلّكاً قويمًا يهدي إلى الحقّ أحياناً، فإنّه جعل الحروب والغزوات الحادثة في زمن النّبي ﷺ و علم تأريخها كحرب بدر والخندق وصُلح الحُدَيْبِيَّة وأشباهها من المدارك لفهم تأريخ منازل من القرآن، وجعل اختلاف لهجة القرآن وأسلوبه الخطابيّ دليلاً آخر لتأريخ آياته، وهو يرتاب في بحثه التحليليّ في الرّوايات والأحاديث وأقوال المفسّرين في تأريخ القرآن، وفي عين الحال يأخذ من مجموعها ما يضيء فكره، ويرشده إلى تأريخ السّور والآيات ونظمها أحياناً. وقد ظهرت في أوروبا في منتصف القرن الثّاسع عشر محاولات لترتيب سور القرآن، ودراسة مراحلها التّاريخيّة... [وذكر كما تقدّم عن صُبحي الصّالح ثمّ قال:]

إلّا أنّ هؤلاء جميعاً قد رفضوا الأثر والرّوايات في تأريخ النّزول، ممّا خالفوا به مصدرًا رئيسيًّا من مصادر التّعيين في ترتيب النّزول، وذلك عن طريق الجمع بين الرّوايات وغربلتها والأخذ بأوثقها.

وقد أورد ابن حجر عن الإمام عليّ عليه السلام أنّه جمع القرآن على ترتيب النّزول عقب موت النّبي ﷺ وخرّجه ابن أبي داود.^٢ وأيد وجود ذلك صاحب الميزان وتحدّث عن خصوصيّاته.^٣

وقد أثبت في كتاب «المباني لنظم المعاني» جدول لهذا التّرتيب الرّمزيّ.^٤ إلّا أنّه يختلف عن ترتيبه فيما ورد بأصل النّسخة المطبوعة في ليبسك (١٨٧١ - ١٨٧٢ م) ولما أثبتّه الرّنّجانيّ في تقسيمه لجمع الإمام عليّ عليه السلام للمصحف في سبعة أجزاء.^٥ وإذا صحّت هذه الرّواية فقد فاتنا تأريخ دقيق عن النّزول يستند إلى أعظم رواية قد

١ - ظ: المؤلّف، المستشرقون و الدّراسات القرآنيّة: ٨٨ وما بعدها.

٢ - الإنفان ١: ٢٠٢، تأريخ القرآن: ٤٨.

٣ - القرآن في الإسلام: ١٣٤ - ١٣٨.

٤ - تأريخ القرآن: ٦٩ وما بعدها.

٥ - مقدّمتان في علوم القرآن: ١٤.

شاهد عصر التنزيل و صاحب مسيرته، و بذلك يكون الإمام علي عليه السلام أول من حقق في تثبيت نزول القرآن تاريخياً. و ليس أمامنا طريق إلى تعيين تاريخ النزول إلا من جهتين؛ الأولى - الرواية الصحيحة الثابتة المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وآله أو أهل البيت عليه السلام أو الصحابة رضي الله عنهم الذين شاهدوا قرائن الأحوال، و تتبّعوا مسيرة الوحي من بدايته إلى نهايته، و قد كان جزء من ذلك متوافراً فيما نلمسه من روايات و آثار في كتب التفسير و علوم القرآن، من نصوص يوردها الأنبيات و يتناقلها الثقات، و إن كان بعضها لا يخلو من تضارب، أما رسول الله صلى الله عليه وآله فقد أنه لم يؤمر به، و لم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة^١. الثانية - الاستنباط الاجتهادي القائم على أساس إعمال الفكر، و دراسة الأحداث، و معرفة أسباب النزول، و المقارنه بين الآيات نفسها و اعتبار القرائن الحالية و المقالية، و السياق و التّظّم، و وحدة السّورة الموضوعيّة، و ما مائل ذلك أدلة تقريبيّة على ذلك، لا سيّما فيما لانصّ عليه، فتتعيّن معرفته عن طريق الأدلة و البراهين و المرجّحات، فيؤخذ بأقواها حجّة، و أبرمها دليلاً، و هذا مانشاهده في شأن الآيات و السّور المختلف بنزولها الزّمنيّ أو المكانيّ.

و قد استأنس العلماء و المحقّقون بعلائم و إمارات و خصائص، تميّز بها كلّ من السّور المكيّة و المدنيّة، ففرّقوا بينها على أساس هذا الفهم و النّظر في ذلك، كضوابط قابلة للانطباق في أكثر تجاربها، إلا أنّها ليست حتميّة، و لكنّها إمارات غالبية؛ لتوافر استثناءات في بعضها. [ثمّ ذكر ضوابط معرفة السّور المكيّة و المدنيّة كما تقدّم نحوه عن العطار، فقال:] و الحقّ أنّ هذه الضّوابط يمكن اعتبارها ضوابط استقرائية للأعمّ الأغلب فيما وقف عليه العلماء من كتاب الله، و قد يضاف إليها بعض الضّوابط الأخرى ناظرة في الأسلوب أو العرض أو الموضوع، أو القصر أو الطّول، أو الشّدّة أو اللّين، يستضاء بها و يسترشد إلى تمييز المكيّ من المدنيّ و بالعكس.

وسواء أكانت هذه الضّوابط نقلية أم اجتهادية فإنّ لها استثناءات في حدود، و تماثلاً بين القسمين في بعض الوجوه. و عليه فلا طريق لنا إلى القطع بالمكيّ أو المدنيّ، إلاّ

الرواية الصحيحة الثابتة، أو الأحداث التاريخية المتناولة لها سورة ما، و تقتضي التعيين الزماني أو التحديد المكاني، أو معرفة أسباب النزول بأشخاصه وأماكنه وقائمه، لا دواعيه ومآثراته ولوازمه، وبذلك يكون التدوين التاريخي لقسمي القرآن مكّيه ومدنيّه، أمثل ترتيباً وأكثر صحّةً.

على أن تلك الضوابط - ولا ننكر أهميتها - تشير إلى خصائص قيمة في مسيرة الوحي القرآني من الإجمال إلى التفصيل، ومن العموميّات إلى الجزئيات، ومن الإشارة إلى التصريح، وهي بالأخير تنبّه إلى الإيمان بالمرحليّة الزمانيّة والمكانيّة في التشريع والقوانين والأنظمة، وتبرهن على تطوّر أساليب الرسالة ومقتضياتها.

وبديهي أن النزول إمّا أن يكون ابتدائيّاً، أو على أثر سؤال أو حادث أو استفتاء، فما كان منه ابتدائيّاً فيمكن اعتباره الأصل الأوّل في الدين، والأساس في أركان التشريع العامّة، وحجر الزواية في تنظيم العالم من قبل الله تفضلاً منه وتحنّناً ورحمةً وما جاء عقب واقعة فإمّا أن يكون حكماً جديداً لا عهد لهم به، أو نبأ مجهولاً عند السائلين، أو تفضيلاً في حدود وفرائض أجملت من ذي قبل، وفيه تتجلّى حكمة التشريع وبواعث الحكم، وعنه نشأ علم أسباب النزول، والعلم بالسبب يورث العلم بالمسبّب، واستفيد منه إنسانيّة القرآن، وعالميّة دعوته، وشموليّة أحكامه؛ لأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويعرف به الناسخ من المنسوخ في بعض الحالات، وفيه تعيين تاريخي للأحداث، وتقويم عامّ للمشكلات، وطريقه الأمثل هو النقل الصحيح القطعيّ. قال الواحدي: لا يحلّ القول في أسباب نزول الكتاب إلّا بالرواية والسمع ممّن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها.^١

و يجب الحذر التحرّز تجاه أسباب النزول، فلا تؤخذ على علّتها، بل يجب عرضها على القرآن نفسه، فما وافق القرآن أخذ به، وما عارض القرآن طرح، فهناك التناقض الكثير في بعض الروايات، وهناك القصص الخرافيّة في جانب منه، وهناك الإسرائيليّات المطوّلة التي لا يحتملها النصّ القرآني، بل وهناك مالا يوحى بالسبب فيسمّى سبباً، وقد

يطلق في هذا الصّوّ السّبب على اللازم والمتعلّق وهو غير السّبب، وقد يطلق السّبب على ما يعتبر من باب الجرى وقيل الانطباق وليس من الأسباب.
ولو سلّمت أسباب النزول من هذه الثّغرات لكانت خير منار لتتبّع كثير من تأريخية النزول على أتمّ وجه وأفضل سبيل للكشف عن كثير الحالات النفسيّة والقابليّات العقليّة التي عليها القوم.

إنّ هذا الجانب غنيّ ببحوث القدامى، فقد أفاض به كلّ من الواحديّ والزركشيّ والسيوطيّ وأضرابهم، ونقلوا فيه آراء السلف، ولنا بحاجة إلى نقدها ولا إلى سردها.^١ والحقّ أنّ تعيين أسباب النزول يعين كثيرًا على معرفة المكّيّ من المدنيّ في وجه من الوجوه، لارتباطه بالأحداث والتّاريخ والأشخاص، ولكن أغلب ذلك في الآيات لا في السور، والروايات فيه متضاربة ومتعارضة.

وتأريخية النزول تقتضي أن نعطي تقسيمًا للسور المكيّة والسور المدنيّة، وقد سبق أن أفضنا أن لا سبيل لذلك إلّا الرواية الثّابتة، وأنّي لنا ذلك؟ فهناك اختلاف كثير في النقول بهذا الجانب، وذكر جميع التّفصيلات تطويل بغير طائل، ولكننا سنلقي بالمسؤوليّة على الزّركشيّ فنثبت ما أثبتّه.

[ثمّ ذكر ترتيب السور المكيّة والمدنيّة نقلاً عن الزّركشيّ كما تقدّم عنه، فقال:]
ولعلّ من المفيد حقّاً أن نضع جدولاً بحسب ترتيب السور القرآنيّة في المصحّف الشريف، نشير فيه إلى رقم السورة من المصحف، ثمّ نذكر اسمها المشهور، ثمّ نكتب عدد آياتها، ثمّ نشير إلى مكان النزول، ثمّ نتبّع تأريخ النزول معتمدين بذلك على ترتيب المصحّف الإمام، ومحققين في المعلومات المدوّنة على أوثق المصادر وأثبتها، ومن ثمّ نعقب في الهامش بالآيات المستثناة من السور مكيّة ومدنيّة اعتماداً على الروايات القائلة بذلك.^٢

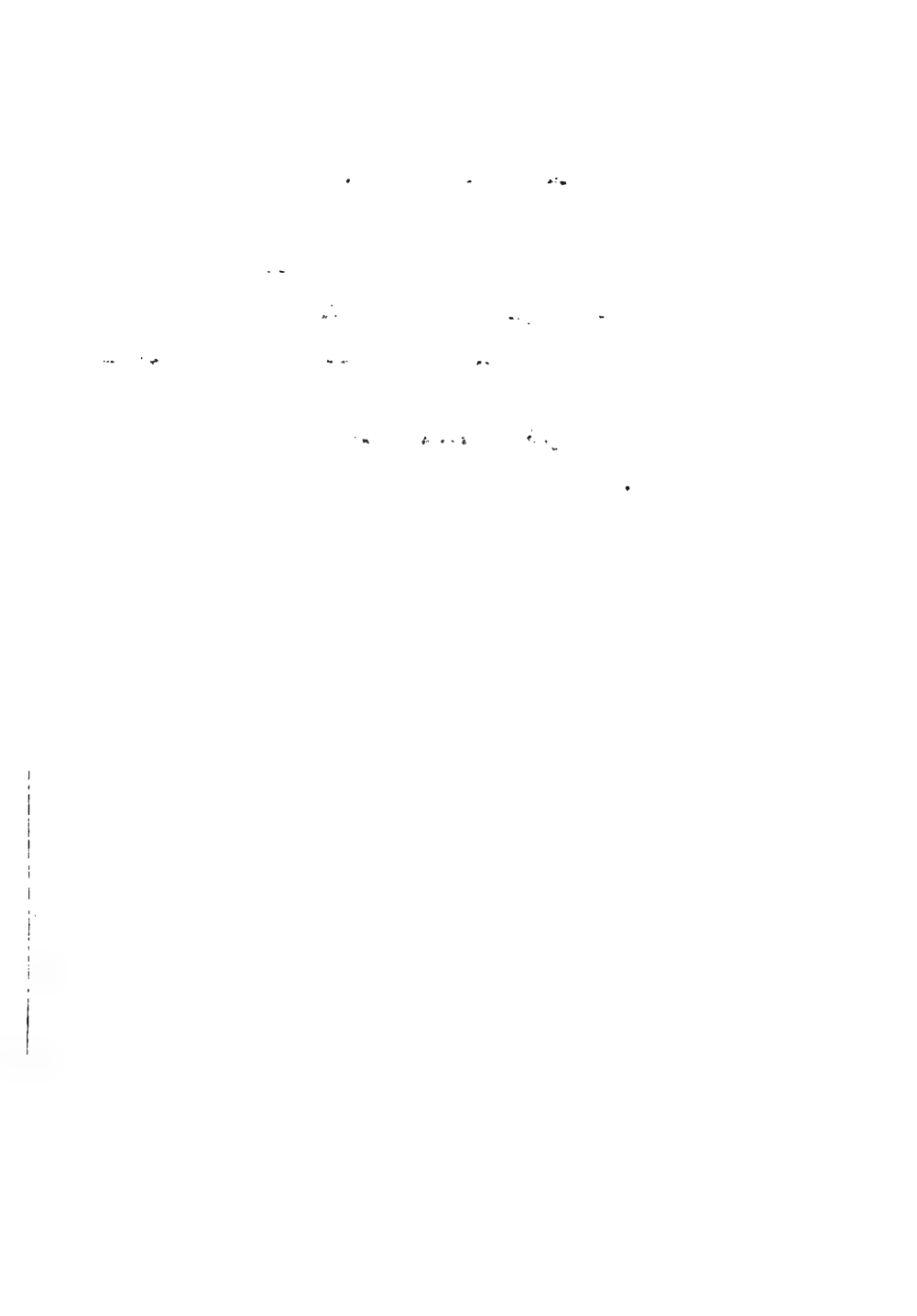
١ - ط: تفصيل ذلك في كلّ من أسباب النزول، البرهان ١: ٢٢ - ٣٣، الإتيان ١: ٨٢ - ٩٨.

٢ - يقارن ذلك في كلّ من جامع البيان، مجمع البيان، الإتيان ١: ٢٥ - ٣٧، مقدّمتان في علوم القرآن: ٨ - ١٦، تأريخ القرآن: ٤٩ (للزّنجاني) القرآن المجيد: ٤٤ (للشّر قاوي)

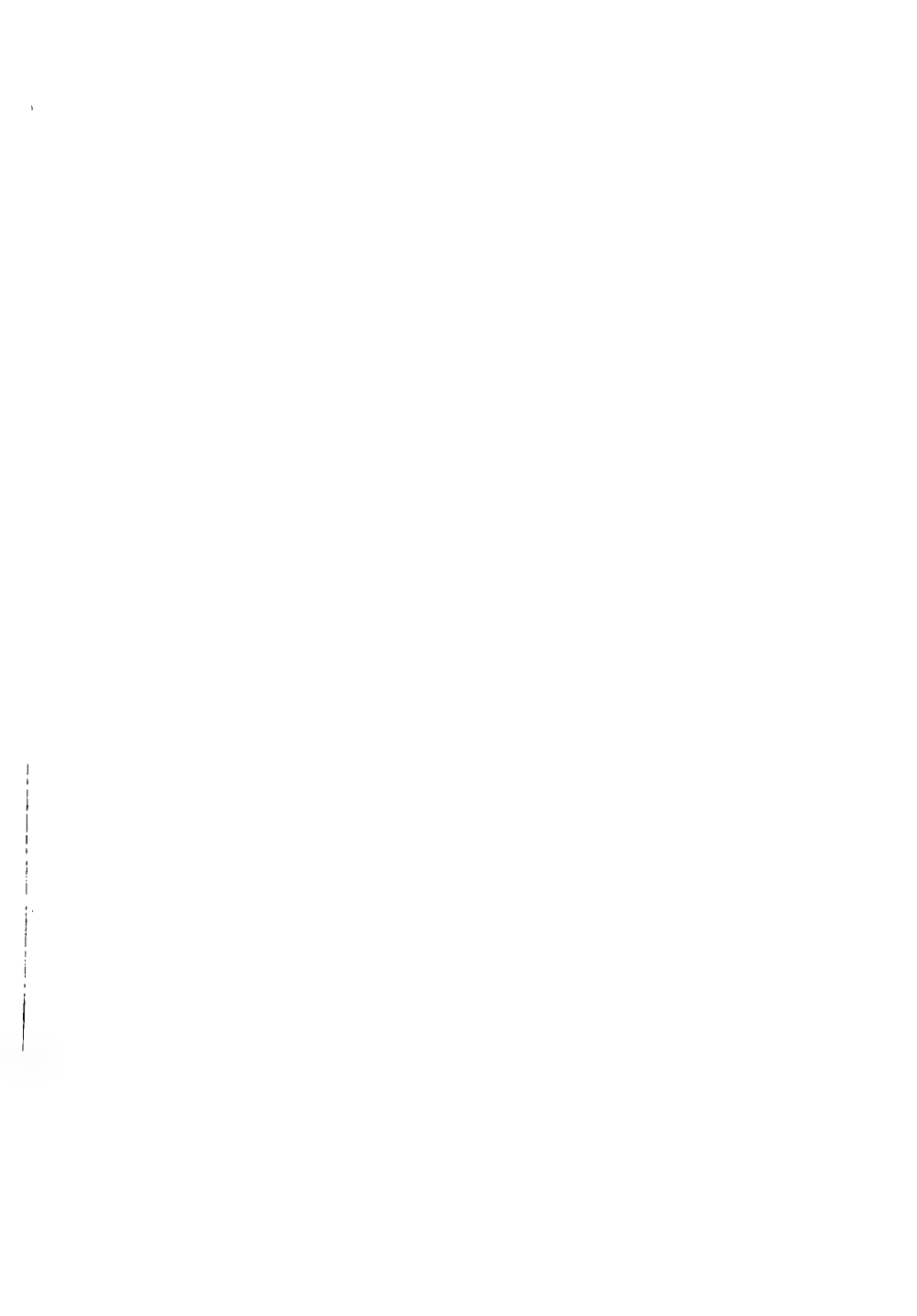
على أنّ ما تقدّمه من عرض قد لا يجد قبولاً عند بعض الباحثين، لا سيّما في استثناء الآيات المكيّة من السُّور المدنيّة، والآيات المدنيّة من السُّور المكيّة، فقد ناقش صاحب الميزان في أغلب ذلك، واعتبار السّياق لا يساعد على جملة منها، بل ولا أدلّة نظميّة عليه، وطريقته في تعيين ذلك تعتمد النّظم والسّياق أولاً وأساساً^١، ومهما يكن من أمر، فهو يتفق معنا في الأصل المشار إليه كما في التّرتيب التّالي: (٤٩ - ٥٩)

ترتيب سور القرآن العدديّ والمكانيّ والزّمنيّ ...

[و ذكر كما سيّجيء نحوه عن الزّنجانيّ الجدول الرّقم ١٥].



جداول السّور المكيّة والمدنيّة
وترتيب نزولها



جدول الرّقم ١

ترتيب السّور عند اليعقوبيّ برواية أبي صالح عن ابن عباس

ترتيب السّور المكيّة

التّسلسل	أسماء السّور	التّسلسل	أسماء السّور
١	إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ	١٨	أَلَمْ تَرَ...
٢	نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ	١٩	وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ
٣	وَالضُّحَىٰ	٢٠	عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ
٤	يَاءِ يُهَا الْمَرْمَلُ	٢١	إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
٥	يَاءِ يُهَا الْمُدَّثِّرُ	٢٢	وَالشَّمْسِ
٦	فَاتِحَةُ الْكِتَابِ	٢٣	وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ
٧	تَبَّتْ	٢٤	وَالنَّهْرِ وَالزَّيْتُونِ
٨	إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ	٢٥	لَا يَلَافِ فُريشِ
٩	سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ	٢٦	الْقَارِعَةِ
١٠	وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ	٢٧	لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ
١١	وَالْفَجْرِ	٢٨	وَبَلِّ لِكُلِّ هَمَزَةٍ
١٢	أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ	٢٩	وَالنُّزُلَاتِ عُرْفًا
١٣	الرَّحْمَنِ	٣٠	ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ
١٤	وَالْعَصْرِ	٣١	لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ
١٥	إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ	٣٢	وَالطَّارِقِ
١٦	أَلْهَيْكُمْ التَّكَاثُرُ	٣٣	افْتَرَبَتِ السَّاعَةُ
١٧	أَرَأَيْتَ الَّذِي...	٣٤	ص وَالْقُرْآنِ

التسلسل	أسماء السُّور	التسلسل	أسماء السُّور
٣٥	الأعراف	٥٨	تنزيل الزُّمَر
٣٦	الجنّ	٥٩	حمّ الدّخان
٣٧	يسّ	٦٠	حمّ الشّريعة
٣٨	تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ	٦١	الأحقاف
٣٩	حَمْدُ الْمَلَائِكَةِ	٦٢	وَالذَّارِيَاتِ
٤٠	مريم	٦٣	هَلْ أَتَاكَ
٤١	طه	٦٤	الكهف
٤٢	طسّم الشعراء	٦٥	النّحل
٤٣	طسّ النمل	٦٦	نوح
٤٤	طسّم القصص	٦٧	ابراهيم
٤٥	بنى إسرائيل	٦٨	إِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ
٤٦	يونس	٦٩	قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ
٤٧	هُود	٧٠	الرّعد
٤٨	يُوسُف	٧١	والطور
٤٩	الحجر	٧٢	الملك
٥٠	الأنعام	٧٣	الحاقة
٥١	الصّافات	٧٤	سَقَلِ سَائِلِ
٥٢	لقمان	٧٥	عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ
٥٣	حمّ المؤمن	٧٦	وَالنَّازِعَاتِ
٥٤	حمّ السّجدة	٧٧	إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ
٥٥	حمّ عسق	٧٨	الرُّوم
٥٦	الرّحُوف	٧٩	العنكبوت
٥٧	حمد سبأ		

ترتيب السور المدنيّة

التسلسل	أسماء السور	التسلسل	أسماء السور
١	وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ	١٧	الجمعة
٢	البقرة	١٨	تنزيل السجدة
٣	الأنفال	١٩	المؤمن
٤	آل عمران	٢٠	إِذَا جَاءَكَ الْمُنافِقُونَ
٥	الحشر	٢١	المجادلة
٦	الأحزاب	٢٢	الحجرات
٧	التور	٢٣	التحریم
٨	المتحنة	٢٤	التغابن
٩	إِنَّا فَتَحْنَا	٢٥	الصف
١٠	النساء	٢٦	المائدة
١١	الحجّ	٢٧	البراءة
١٢	الحديد	٢٨	إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ
١٣	محمد(ص)	٢٩	الواقعة
١٤	الإنسان	٣٠	والعاديات
١٥	الطلاق	٣١ و ٣٢	المعوذتان جميعاً
١٦	لم يكن		

جدول الرّقم ٢

[أجزاء القرآن و ترتيب سورہ في مُصحف امام عليّ ؑ برواية يعقوبيّ]

وروى بعضهم: أنّ عليّ بن أبي طالب ؑ كان جمعه لما قبض رسول الله و أتى به يحمله على جملٍ، فقال ؑ: هذا القرآن قد جمعته، و كان قد جرّاه سبعة أجزاء [فهو مايلي في جداول]:

الجزء الأول	الجزء الثاني	الجزء الثالث	الجزء الرابع
١- البقرة	١- آل عمران	١- النساء	١- المائدة
٢- يوسف	٢- هود	٢- النحل	٢- يونس
٣- العنكبوت	٣- الحج	٣- المؤمنون	٣- مريم
٤- الرّوم	٤- الحجر	٤- يس	٤- طسم الشعراء
٥- لقمان	٥- الأحزاب	٥- حمّسق	٥- الزّخرف
٦- حمّ السّجدة	٦- الدّخان	٦- الواقعة	٦- الحجرات
٧- الذّاريات	٧- الرّحمن	٧- تبارك الملك	٧- ق...
٨- هل أتى	٨- الحاقة	٨- المدثر	٨- اقتربت الساعة
٩-	٩- سأل سائل	٩- أرايت	٩- الممتحنة
١٠- تنزيل السجدة	١٠- عبس وتولّى	١٠- تبت	١٠- والسّماء والطّارق
١١- النّازعات	١١- والشمس	١١- قل هو الله احد	١١- لا أقسم...
١٢- إذا الشمس كورت	١٢- إنا أنزلناه	١٢- والعصر	١٢- ألم نشرح
١٣- إذا السّماء انفطرت	١٣- إذا زلزلت	١٣- الفارعة	١٣- والعاديات
١٤- إذا السّماء انشقت	١٤- همزة	١٤- البروج	١٤- الكوثر
١٥- الأعلى	١٥- ألم تر	١٥- والتّين	١٥- الكافرون
١٥- لم يكن	١٦- لا يلاف قريش	١٦- طس النّمل	

فذلك جزء البقرة	فذلك جزء آل عمران	فذلك جزء النساء	فذلك جزء المائدة
ثمانمائة وستّ و ثمانون آية و هو خمس عشرة سورة	ثمانمائة وستّ و ثمانون آية و هو ستّ عشر سورة	ثمانمائة وستّ وثمانون آية، و هو ستّ عشرة سورة	ثمانمائة وستّ و ثمانون آية و هو خمس عشرة سورة

الجزء الخامس	الجزء السادس	الجزء السابع
١- الأنعام	١- الأعراف	١- الأنفال
٢- سبحان	٢- ابراهيم	٢- براءة
٣- اقترب	٣- الكهف	٣- طه
٤- الفرقان	٤- النور	٤- الملائكة
٥- موسى فرعون	٥- صّ	٥- الصّافات
٦- حمّ المؤمن	٦- الزّمر	٦- الأحقاف
٧- المجادلة	٧- الشريعة	٧- الفتح
٨- الحشر	٨- الَّذِينَ كَفَرُوا	٨- الطّور
٩- الجُمعة	٩- الحديد	٩- النّجم
١٠- المنافقون	١٠- الْمُزَّمِّل	١٠- الصّف
١١- نّ و القلم	١١- لَا أَقْسَمُ...	١١- التّغَابُن
١٢- إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا	١٢- عَمّ يَتَسَاءَلُونَ	١٢- الطّلاق
١٣- قُلْ أَوْحِي	١٣- الغاشية	١٣- الْمُطَفِّفِينَ
١٤- المرسلات	١٤- والفجر	١٤ و ١٥- المعوذتين
١٥- والضّحى	١٥- وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى	
١٦- الهيكَم	١٦- إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ	

فذلك جزء الأنعام	فذلك جزء الأعراف	فذلك جزء الأنفال
ثمانمائة وستّ و ثمانون آية و هو ستّ عشرة سورة ^٣	ثمانمائة وستّ و ثمانون آية و هو ستّ عشرة سورة ^٤	ثمانمائة وستّ و ثمانون آية، و هو خمس عشرة سورة

جدول الرّقم ٣

ترتيب السّور عند ابن التّديم برواية الزّهريّ عن حمّد بن نَعمان

نزول القرآن بمكّة

التّسلسل	أسماء السّور	التسلسل	أسماء السّور
١	إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ إِلَى قَوْلِهِ: مَا لَمْ يَعْلَمْ.	١٥	الْهَيْكُمُ
٢	نَ وَالْقَلَمِ	١٦	أَرَأَيْتَ الَّذِي
٣	يَاءُ يُّهَا الْمَزْمَلِ، وَ آخِرَهَا بِطَرِيقِ مَكَّةَ	١٧	قُلْ يَاءُ يُّهَا الْكَافِرُونَ
٤	الْمَدَنَرِ	١٨	أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ
٥	عن مجاهد: نزلت بَيَّتَ يَدَا أَبِي لَهَبٍ	١٩	قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ
٦	إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ	٢٠	قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْقَلْقِ
٧	سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْآعْلَى	٢١	قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ
٨	أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ	٢٢	وَالنَّجْمِ.
٩	وَالنَّعْصِرِ	٢٣	عَبَسَ وَتَوَلَّى
١٠	وَالْفَجْرِ	٢٤	إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
١١	وَالضُّحَى	٢٥	وَالشَّمْسِ وَضُحَيْهَا
١٢	وَاللَّيْلِ	٢٦	وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ
١٣	وَالْعَادِيَّاتِ ضَبْعًا	٢٧	وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ
١٤	إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ	٢٨	لَا يَلَافِ قُرَيْشٌ

٢٩	القَارَعَة	٥٣	الصفّات
٣٠	لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ	٥٤	لقمان، آخرها مدني
٣١	وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ	٥٥	قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ
٣٢	المرسلات	٥٦	سبأ
٣٣	ق وَالْقُرْآنِ	٥٧	الأنبياء
٣٤	لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ	٥٨	الزُّمَر
٣٥	الرَّحْمَنُ	٥٩	حَمِ الْمُؤْمِن
٣٦	قُلْ أُوْحِي	٦٠	حَمِ السَّجْدَة
٣٧	يَسْ	٦١	حَمِ السَّجْدَة
٣٨	الْمَصّ	٦٢	حَمِ الزُّخْرُف
٣٩	تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ	٦٣	حَمِ الدَّخَان
٤٠	الملائكة	٦٤	حَمِ الشَّرِيعَة
٤١	الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ	٦٥	حَمِ الْأَحْقَاف، فيها آي مدنيّة
٤٢	مَرْيَمَ	٦٦	وَالذَّارِيَاتِ
٤٣	طه	٦٧	هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ
٤٤	إِذَا وَقَعَتْ	٦٨	الكهف، آخرها مدني
٤٥	طسّم الشعراء	٦٩	الأَنْعَام، فيها آي مدنيّة
٤٦	طس	٧٠	النَّحْل، آخرها مدني
٤٧	طسّم الآخرة	٧١	نوح
٤٨	بني إسرائيل	٧٢	ابراهيم
٤٩	هود	٧٣	السَّجْدَة
٥٠	يوسف	٧٤	الطَّوْر
٥١	يونس	٧٥	تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ
٥٢	الحِجْر	٧٦	الحاقة

٧٧	سَأَلَ سَائِلٌ	٨٢	الرَّوم
٧٨	عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ	٨٣	العنكبوت
٧٩	التَّارِزَاتِ	٨٤	وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، وَيُقَالُ: إِنَّهَا مَدِينَةٌ
٨٠	إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ	٨٥	اقتربت الساعةُ وانشقَّ القمرُ
٨١	إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ	٨٦	وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ

نزول القرآن بالمدينة

٨٧	البقرة	١٠١	إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ
٨٨	الأَنْفَالِ	١٠٢	التَّوْر
٨٩	الأَعْرَافِ	١٠٣	الحجَّ
٩٠	آل عمران	١٠٤	المنافقون
٩١	الممتحنة	١٠٥	المجادلة
٩٢	النساء	١٠٦	الحجرات
٩٣	إِذَا زُلْزِلَتْ	١٠٧	يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ
٩٤	الحديد	١٠٨	الجمعة
٩٥	الَّذِينَ كَفَرُوا	١٠٩	التَّائِبِينَ
٩٦	الرَّعد	١١٠	الحواريين
٩٧	هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ الرَّعْدُ	١١١	الفتح
٩٨	يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ	١١٢	المائدة
٩٩	لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا	١١٣	التوبة
١٠٠	الحشر		

جدول الرّقم ٤

ترتيب القرآن عند ابن النّديم في مُصحف عبد الله بن مسعود برواية ابن شاذان

قال الفضل بن شاذان وجدت في مُصحف عبد الله بن مسعود تأليف سُور القرآن على هذا التّرتيب:

التّسلسل	الأسماء	التّسلسل	الأسماء	التّسلسل	الأسماء
١	البقرة	١٥	الشُّعراء	٢٩	الملائكة
٢	النّساء	١٦	الصّافات	٣٠	ابراهيم
٣	آل عمران	١٧	الأحزاب	٣١	ص
٤	آل عمران	١٨	القَصص	٣٢	الَّذِينَ كَفَرُوا
٥	الأنعام	١٩	النّور	٣٣	القمر
٦	المائدة	٢٠	الأنفال	٣٤	الرّؤم
٧	يونس	٢١	مريم	٣٥	الحواميم المسبّحات
٨	براءة	٢٢	العنكبوت	٣٦	حم المؤمن
٩	التّحل	٢٣	الرّوم	٣٧	حم الزّخرف
١٠	هُود	٢٤	يس	٣٨	السّجدة
١١	يوسف	٢٥	الفرقان	٣٩	الأحقاف
١٢	بني اسرائيل	٢٦	الحجّ	٤٠	الحاجّية
١٣	الأنبياء	٢٧	الرّعد	٤١	الدّخان
١٤	المؤمنون	٢٨	سبا	٤٢	أنا فتحنا

التسلسل	الأسماء	التسلسل	الأسماء	التسلسل	الأسماء
٤٣	الحديد	٦٦	الحاقّة	٨٩	والضحى
٤٤	سبح	٦٧	إذا وقعت	٩٠	الم نشرح
٤٥	الحشر	٦٨	نّ والقلم	٩١	والسماء والطارق
٤٦	تنزيل	٦٩	التّازعات	٩٢	والغاديات
٤٧	السّجدة	٧٠	سأل سائل	٩٣	أرأيت
٤٨	ق	٧١	المُدّثر	٩٤	الفارعة
٤٩	الطلاق	٧٢	المُرّمّل	٩٥	لم يكن الذين كفروا
٥٠	الحجرات	٧٣	المُطَفِّفين	٩٦	والشمس وضحيها
٥١	تبارك الذي بيده الملك	٧٤	عبَسَ	٩٧	التّين
٥٢	التّغابن	٧٥	الدّهر	٩٨	ويل لكلّ همزة
٥٣	المنافقون	٧٦	القيامة	٩٩	الفيل
٥٤	الجُمعة	٧٧	المرسلات	١٠٠	لا يلاف قريش
٥٥	الحواريون	٧٨	عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ	١٠١	التّكاثّر
٥٦	قل أوحى	٧٩	التّكوير	١٠٢	أنا أنزلناه
٥٧	أنا أرسلنا نوحًا	٨٠	الانفطار	١٠٣	والعصر
٥٨	المجادلة	٨١	هل أتيناك حديث القاضية	١٠٤	إذا جاء نصر الله
٥٩	الممتحنة	٨٢	سبح اسم ربك الأعلى	١٠٥	الكوثر
٦٠	يا أيها النبيّ لم يحرّم	٨٣	والليل إذا يغشى	١٠٦	الكافرون
٦١	الرّحمن	٨٤	الفجر	١٠٧	المسد (تبتّ)
٦٢	النّجم	٨٥	البّروج	١٠٨	قل هو الله أحد
٦٣	الذّاريات	٨٦	انشقّت		
٦٤	الطور	٨٧	اقربا باسم ربك		
٦٥	اقتربت الساعة	٨٨	لأقسم بهذا البلد		

فذلك مائة وعشر سور^١

وفي رواية أخرى الطّور قبل الذّاريات، قال أبو شاذان قال ابن سيرين وكان عبدالله بن مسعود لا يكتب المَعَوّذتين في مُصحفه ولا فاتحة الكتاب وروى الفضل بإسناده عن الأعمش قال في قوله في قراءة عبدالله حمّسق قال محمّد بن إسحاق رأيت عدّة مصاحف ذكر نُساخها أنّها مُصحف ابن مسعود ليس فيها مُصحفين متفقين وأكثرها في رقّ كثير النّسخ وقد رأيت مُصحفًا قد كتب منذ نحو مائتي سنة فيه فاتحة الكتاب والفضل بن شاذان أحد الأئمّة في القرآن والروايات فلذلك ذكرنا ما قاله دون ما شهدناه.

١ - كذا في الفهرست وهو لا يوافق العدد المذكور في الجدول.

٢ - كذا في الأصل، والظاهر: ابن شاذان.

جدول الرّقم ٥

ترتيب القرآن عند ابن النّديم في مُصحف أبيّ بن كعب برواية ابن شاذان

قال الفّضل بن شاذان: أخبرنا الثّقّة من أصحابنا قال كان تأليف السّور في قراءة أبيّ بن كعب بالبصرة في قرية يقال لها قرية الأنصار على رأس فرسخين عند محمّد بن عبد الملك الأنصاريّ أخرج إلينا مُصحفًا وقال هو مُصحف أبيّ رويناه عن آبائنا فنظرت فيه فاستخرجت أوائل السّور و خواتيم السّور و عدد الآي فأوله فاتحة الكتاب....

١	فاتحة الكتاب	١٤	يُوسِفُ	٢٧	طَسَمَ
٢	البقرة	١٥	الكهف	٢٨	القصص
٣	النّساء	١٦	النّحل	٢٩	طس
٤	آل عمران	١٧	الأحزاب	٣٠	سُلَيْمَان
٥	الأنعام	١٨	بنِي إِسْرَائِيلَ	٣١	الصّافّات
٦	الأعراف	١٩	الرّؤم	٣٢	داود
٧	المائدة ^١	٢٠	حمّ تنزيل	٣٣	ص
٨	الأنفال	٢١	طه	٣٤	يس
٩	التّوبة	٢٢	الأنبياء	٣٥	أصحاب الحجر
١٠	هُود	٢٣	النّور	٣٦	حمّ عسق
١١	مريم	٢٤	المؤمنون	٣٧	الرّوم
١٢	الشّعراء	٢٥	حمّ المؤمن	٣٨	الرّؤف
١٣	الحجّ	٢٦	الرّعد		

٣٩	حَمَّ السَّجْدَةِ	٦٣	لَا أَقْسَمُ	٨٧	الْمَنْشَرَح
٤٠	إِبْرَاهِيمَ	٦٤	كُوِّرَتْ	٨٨	الْقَارِعَةِ
٤١	الْمَلَائِكَةِ	٦٥	النَّازِعَاتِ	٨٩	التَّكْوِينِ
٤٢	الْفَتْحِ	٦٦	عَبَسَ	٩٠	الْخَلْعِ
٤٣	مُحَمَّدَ (ص)	٦٧	الْمُطَفِّفِينَ	٩١	الْجِيدِ
٤٤	الْحَدِيدِ	٦٨	إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ	٩٢	اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ
٤٥	الظُّهَارِ	٦٩	التَّيْنِ	٩٣	إِذَا زُلْزِلَتْ
٤٦	تَبَارَكَ	٧٠	اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ	٩٤	الْعَادِيَاتِ
٤٧	الْفُرْقَانِ	٧١	الْحُجُرَاتِ	٩٥	أَصْحَابِ الْفِيلِ
٤٨	الْمَنْتَزِيلِ	٧٢	الْمُنَافِقُونَ	٩٦	التَّيْنِ
٤٩	نُوحٍ	٧٣	الْجُمُعَةِ	٩٧	الْكَوْثَرِ
٥٠	الْأَحْقَافِ	٧٤	النَّبِيِّ (ص)	٩٨	الْقَدْرِ
٥١	قِيَامِ	٧٥	الْفَجْرِ	٩٩	الْكَافِرُونَ
٥٢	الرَّحْمَنِ	٧٦	الْمُلْكِ	١٠٠	النَّصْرِ
٥٣	الْوَاقِعَةِ	٧٧	وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى	١٠١	أَبَى لَهَبٍ
٥٤	الْجَنِّ	٧٨	إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ	١٠٢	قُرَيْشٍ
٥٥	النَّجْمِ	٧٩	وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا	١٠٣	الصَّمَدِ
٥٦	نَارِ	٨٠	وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ	١٠٤	الْفَلَقِ
٥٧	الْحَاقَّةِ	٨١	الطَّارِقِ	١٠٥	النَّاسِ
٥٨	الْحَشْرِ	٨٢	سُبْحِ اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى		
٥٩	الْمُمْتَحِنَةِ	٨٣	الْغَاشِيَةِ		
٦٠	الْمُرْسَلَاتِ	٨٤	عَبَسَ		
٦١	عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ	٨٥	الْصَّفِّ		
٦٢	الْإِنْسَانِ	٨٦	الضُّحَى		

١ - و آخرها بالكفّار ملحق بالمرز

فذلك مائة وست عشرة سُورَة.^١

قال إلى هاهنا أصبْتُ في مُصَحَّف أُبَيِّ بن كعب، وجميع آي القرآن في قول أُبَيِّ بن كعب ستّة آلاف آية و مائتان و عشر آيات، وجميع عدد سور القرآن في قول عطاء بن يَسَار مائة و أربع عشرة سُورَة و آياته ستّة آلاف و مائة و سبعون آية، و كلماته سبعة و سبعون ألفاً و أربعمائة و تسعة و ثلاثون كلمة، و حروفه ثلثمائة ألف حرف و ثلاثة و عشرون ألفاً و خمسة عشر حرفاً.

و في قول عاصم الجَحْدَرِيّ: مائة و ثلاثة عشر سورة و جميع آيات القرآن في قول يحيى بن الحارث الذَّمَارِيّ ستّة آلاف و مائتان و ستّة و عشرون آية، و حروفه ثلثمائة ألف حرف واحد و عشرون ألف حرف و خمسمائة و ثلاثون حرفاً.

١ - كذا في الفهرست و هو لا يوافق العدد المذكور في الجدول.

جدول الرّقم ٦

ترتيب السّور عند صاحب «المباني» برواية أبي صالح عن ابن عبّاس

أول شيءٍ نزل بمكّة

١٩	وَالنَّجْمِ
٢٠	عَبَسَ وَتَوَلَّى
٢١	إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
٢٢	الْحَجِّ
٢٣	وَالشَّمْسِ
٢٤	وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ
٢٥	وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ
٢٦	لَا يَلَاF
٢٧	القارعة
٢٨	القيمة
٢٩	هُمزة
٣٠	وَالْمُرْسَلَاتِ
٣١	قَ
٣٢	البلد
٣٣	وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ
٣٤	إِفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ
٣٥	ص
٣٦	الأعراف

١	إِفْرَأْ
٢	نَ وَالْقَلَمِ
٣	وَالضُّحَى
٤	بَاءُيْهَا الْمُرَّمَّلُ
٥	بَاءُيْهَا الْمُدَّثِّرُ
٦	نَبَّتْ يَدَا
٧	إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ
٨	الأعلى
٩	وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى
١٠	وَالْفَجْرِ
١١	أَلَمْ نَشْرَحْ
١٢	وَالْعَصْرِ
١٣	إِنَّا آَعَطَيْنَاكَ
١٤	أَلْهَيْكُمْ التَّكَاثُرَ
١٥	أَرَأَيْتِ الَّذِي
١٦	أَلَمْ تَرَ
١٧	قُلْ بَاءُيْهَا الْكَافِرُونَ
١٨	قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ

٦٢	الأحقاف
٦٣	الذَّارِيَات
٦٤	هَلْ أَتَيْكَ
٦٥	الكهف
٦٦	النَّحْل
٦٧	نوح
٦٨	إبراهيم
٦٩	اقتربت ^١
٧٠	الأنبياء
٧١	المؤمنون
٧٢	آلَمَ السَّجْدَة
٧٣	الرَّعد
٧٤	الطُّور
٧٥	تبارك المُلْك
٧٦	الحاقة
٧٧	سَأَلَ سَائِلٌ
٧٨	عَمَّ يَسْتَأْذِنُونَ
٧٩	التَّارِغَات
٨٠	إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ
٨١	إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ
٨٢	الرَّوم
٨٣	العنكبوت

٣٧	قُلْ أَوْحَى
٣٨	يَسَّ وَالْقُرْآنِ
٣٩	الْفُرْقَان
٤٠	الملائكة
٤١	مريم
٤٢	سورة موسى
٤٣	الشُّعراء
٤٤	النَّمْل
٤٥	القصص
٤٦	بنی اسرائیل
٤٧	يونس
٤٨	هود
٤٩	يوسف
٥٠	الحِجْر
٥١	الأنعام
٥٢	الصَّافَّات
٥٣	لُقْمَان
٥٤	سبأ
٥٥	الغرف (تنزيل - الزُّمَر)
٥٦	حمّ المؤمن
٥٧	حمّ السَّجْدَة
٥٨	عسَق
٥٩	الزُّحُرْف
٦٠	الدَّخَان
٦١	الجاثية

١ - كذا في الأصل، والمراد سورة الرحمن.

أول شيء نزل بالمدينة:

الحشر	١٤
إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ	١٥
إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنُونَ	١٦
النور	١٧
المجادلة	١٨
الحجرات	١٩
لم تحرّم	٢٠
الجمعة	٢١
التغابن	٢٢
الصف	٢٣
الفتح	٢٤
المائدة	٢٥
التوبة ^١	٢٦

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ	١
البقرة	٢
الأنفال	٣
آل عمران	٤
الأحزاب	٥
المتحنة	٦
النساء	٧
إِذَا زُلْزِلَتْ	٨
الحديد	٩
سورة محمد (ص)	١٠
هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ	١١
الطلاق	١٢
سورة لم يكن	١٣

١ - وهي آخر القرآن أو سورة المائدة.

جدول الرّقم ٧

ترتيب السّور عند صاحب «المباني» برواية عثمان بن عطاء عن ابن عباس
ما أنزل بمكة

٢٠	قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ
٢١	قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ
٢٢	وَالنَّجْمِ
٢٣	عَبَسَ
٢٤	إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
٢٥	وَالشَّمْسِ
٢٦	الْبُرُوجِ
٢٧	التِّينِ
٢٨	لَا يَلَافِ
٢٩	القَارِعَةِ
٣٠	الْقِيَمَةِ
٣١	الْهُمَزَةِ
٣٢	وَالْمُرْسَلَاتِ
٣٣	قِي
٣٤	الْبَلَدِ
٣٥	الطَّارِقِ
٣٦	إِفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ
٣٧	صَ
٣٨	الأعراف

١	إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ
٢	نَ وَالْقَلَمِ
٣	الْمِرْثَلِ
٤	الْمَدَثَرِ
٥	تَبَّتْ
٦	إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ
٧	سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ
٨	وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى
٩	وَالْفَجْرِ
١٠	وَالضُّحَى
١١	أَلَمْ نَشْرَحْ
١٢	وَالْعَصْرِ
١٣	وَالْعَادِيَّاتِ
١٤	إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ
١٥	أَلْهَيْكُمْ
١٦	أَرَأَيْتَ
١٧	الكَافِرُونَ
١٨	أَلَمْ تَرَ
١٩	قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْقَلْبِ

٦٤	حمّ الجاثية
٦٥	حمّ الأحقاف
٦٦	الذّاريات
٦٧	الغاشية
٦٨	الكهف
٦٩	التّحلّ
٧٠	نوح
٧١	ابراهيم
٧٢	الأنبيا
٧٣	المؤمنون
٧٤	المّ تنزيل
٧٥	الطّور
٧٦	المّلّك
٧٧	الحاقة
٧٨	ذى المعارج
٧٩	عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ
٨٠	النّازعات
٨١	انفطرت
٨٢	انشقّت
٨٣	الرّوم
٨٤	العنكبوت
٨٥	المطفّفين

٣٩	قُلْ أَوْحَى
٤٠	يسّ
٤١	الفرقان
٤٢	الملائكة
٤٣	كهيعصّ
٤٤	طه
٤٥	إِذَا وَقَعَتِ
٤٦	الشّعراء
٤٧	النمل
٤٨	القصص
٤٩	بنى اسرائيل
٥٠	يونس
٥١	هود
٥٢	يوسف
٥٣	الحجر
٥٤	الأنعام
٥٥	الصّافات
٥٦	لقمان
٥٧	سبا
٥٨	الرّؤمر
٥٩	حمّ المؤمن
٦٠	حمّ السّجدة
٦١	حمّ عسق
٦٢	حمّ الرّؤخرف
٦٣	حمّ الدّخان

فهذه ما أنزلت بمكّة، وهي خمس
وثمانون سورة.

وما أنزل بالمدينة

١٣	الطلاق
١٤	لَمْ يَكُنْ
١٥	الحشر
١٦	إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ
١٧	النور
١٨	الحجّ
١٩	المنافقون
٢٠	المجادلة
٢١	الحجرات
٢٢	لِمَ تُحَرِّمُ
٢٣	الجمعة
٢٤	التغابن

١	البقرة
٢	الأنفال
٣	آل عمران
٤	الأحزاب
٥	المتحنة
٦	النساء
٧	إِذَا زُلْزِلَتْ
٨	الحديد
٩	محمد (ص)
١٠	الرعد
١١	الرحمن
١٢	هل أتى

فجميع سور القرآن مائة و ثلاث عشرة سورة.^١

١ - ولكن لم يذكر سوى مائة و تسع سور، و سقط منه أربع سور، هي: سورة الصف و الفتح و المائدة و التوبة (م)

جدول الرّقم ٨

ترتيب السّور عند صاحب «المباني» برواية عليّ عليه السلام عن رسول الله ﷺ

ما أنزل بمكة

المص	٣٧
قُلْ أُوحِيَ	٣٨
يس	٣٩
الفرقان	٤٠
الملائكة	٤١
كهيعص	٤٢
طه	٤٣
الواقعة	٤٤
الشعراء	٤٥
النمل	٤٦
القصاص	٤٧
سُبْحَانَ	٤٨
يونس	٤٩
هُود	٥٠
يُوسُف	٥١
الجبر	٥٢
الأنعام	٥٣
الصافات	٥٤

الفلق	١٩
الناس	٢٠
الإخلاص	٢١
عبس	٢٢
إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ	٢٣
وَالشَّمْسِ	٢٤
البروج	٢٥
والتيين	٢٦
لَا يَلَافِ	٢٧
القارعة	٢٨
القيمة	٢٩
همزة	٣٠
المُرسلات	٣١
ق	٣٢
البلد	٣٣
الطلاق	٣٤
الساعة	٣٥
ص	٣٦

الفاتحة	١
إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ	٢
ن وَالْقَلَمِ	٣
يَاءُيْهَا الْمُدَّثِّرُ	٤
يَاءُيْهَا الْمُرَّمِّلُ	٥
إِذَا الشَّمْسُ	٦
سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ	٧
وَاللَّيْلِ	٨
وَالْفَجْرِ	٩
وَالضُّحَى	١٠
أَلَمْ نَشْرَحْ	١١
وَالْعَصْرِ	١٢
وَالْعَادِيَّاتِ	١٣
الكوثر	١٤
أَلْهَيْكُمْ	١٥
أَرَأَيْتَ	١٦
الكافرون	١٧
أَلَمْ تَرَ	١٨

٥٥	لُقْمَان	٦٣	إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ	٧١	سَالَّ سَانِلٌ
٥٦	سَبَأُ	٦٤	إِبْرَاهِيمَ	٧٢	عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ
٥٧	الزُّمَرُ	٦٥	الْأَنْبِيَاءِ	٧٣	النَّازِعَاتِ
٥٨	الْحَوَامِمَاتِ	٦٦	الْمُؤْمِنُونَ	٧٤	انْفَطَرَتْ
٥٩	وَالذَّارِيَاتِ	٦٧	آلَمَ السَّجْدَةِ	٧٥	الرُّومِ
٦٠	الْعَاشِيَةِ	٦٨	وَالطُّورِ	٧٦	الْعَنَكَبُوتِ
٦١	الْكَهْفِ	٦٩	الْمُلْكِ	٧٧	الْمُطَفِّفِينَ
٦٢	النَّمْلِ	٧٠	الْحَاقَّةِ	٧٨	اِنْشَقَّتْ

وما أنزل بالمدينة

١	الْبَقَرَةِ	١٧	التَّوْرِ
٢	الْأَنْفَالِ	١٨	الْحَجِّ
٣	آلِ عِمْرَانَ	١٩	الْمَنَافِقِينَ
٤	الْأَحْزَابِ	٢٠	الْمَجَادِلَةِ
٥	الْمَمْتَحِنَةِ	٢١	الْحُجُرَاتِ
٦	النِّسَاءِ	٢٢	التَّحْرِيمِ
٧	إِذَا زُلْزِلَتْ	٢٣	الْجُمُعَةِ
٨	الْحَدِيدِ	٢٤	التَّقْوَانِ
٩	مُحَمَّدٍ (ص)	٢٥	الْفَتْحِ
١٠	الرَّعْدِ	٢٦	الْمَائِدَةِ
١١	الرَّحْمَنِ	٢٧	التَّوْبَةِ
١٢	هَلْ أَتَى	٢٨	النَّجْمِ ^١
١٣	الطَّلَاقِ		
١٤	لَمْ يَكُنْ		
١٥	الْحَشْرِ		
١٦	إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ		

١ - لا يوجد في هذا الجدول سورة الصف ولا سورة المسد.

جدول الرّقم ٩

ترتيب السّور عند الشّهرستاني برواياتٍ مختلفة كما يلي

التسلسل	العدد	مُقاتل عن رجاله	مُقاتل عن أمير المؤمنين كُرم الله وجهه	عن ابن عباس	ابن والد	عن الصادق عليه السلام
١	ا	إقرأ	إقرأ	إقرأ	إقرأ	إقرأ
٢	ب	ن	ن	ن	ن	ن
٣	ج	والضحى	المزمل	والضحى	المزمل	المزمل
٤	د	المزمل	المدثر	المزمل	المدثر	المدثر
٥	هـ	المدثر	تبت	المدثر	تبت	تبت
٦	و	تبت	كُورت	الفاتحة	كُورت	كُورت
٧	ز	كُورت	الأعلى	تبت	الأعلى	الأعلى
٨	ح	الأعلى	والليل	كُورت	والليل	والليل
٩	ط	والليل	والفجر	الأعلى	والفجر	والفجر
١٠	ى	والفجر	والضحى	والليل	والضحى	والضحى
١١	يا	آلم نشرح	آلم نشرح	والفجر	آلم نشرح	آلم نشرح
١٢	يب	الرّحمن	والعصر	آلم نشرح	والعصر	والعصر
١٣	يج	الكوثر	الكوثر	الرّحمن	والعادات	والعادات
١٤	يد	التّكاثر	الدّين	والعصر	الكوثر	الكوثر
١٥	يه	الدّين	الكافرون	الكوثر	التّكاثر	التّكاثر
١٦	يو	الفيل	الفيل	التّكاثر	الدّين	الدّين
١٧	ين	الكافرون	الإخلاص	الدّين	الكافرون	الكافرون
١٨	يح	الإخلاص	التّكاثر	الفيل	الفيل	الفيل
١٩	يط	والنّجم	والنّجم	الكافرون	الفلق	الفلق
٢٠	ك	الأعوى	الأعوى	الإخلاص	النّاس	النّاس

التسلسل	العدد	مُقاتل عن رجاله	مُقاتل عن أمير المؤمنين كزّم الله وجهه	عن ابن عباس	ابن والد	من الصادق عليه السلام
٢١	كا	والشّمس	قريش	والنّجم	الإخلاص	الإخلاص
٢٢	كب	البروج	القارعة	الأعمى	والنّجم	والنّجم
٢٣	كج	التيّن	القيّنة	القدر	الأعمى	الأعمى
٢٤	كد	قريش	الهَمْزة	والشّمس	القدر	القدر
٢٥	كه	القارعة	والمرسلات	البروج	والشّمس	والشّمس
٢٦	كو	القيّنة	ق	والتيّن	البروج	البروج
٢٧	كز	الهَمْزة	الطّارق	قريش	والتيّن	والتيّن
٢٨	كح	والمرسلات	القمر	القارعة	قريش	قريش
٢٩	كط	ق	ص	القيّنة	القارعة	القارعة
٣٠	ل	البلد	الجنّ	الهَمْزة	القيّنة	القيّنة
٣١	لا	الطّارق	يس	والمرسلات	الهَمْزة	الهَمْزة
٣٢	لب	القمر	الفرقان	ق	والمرسلات	المرسلات
٣٣	لج	ص	الملائكة	البلد	ق	ق
٣٤	لد	الأعراف	مريم	الطّارق	البلد	البلد
٣٥	له	الجنّ	طه	القمر	الطّارق	الطّارق
٣٦	لو	يس	الواقعة	ص	القمر	القمر
٣٧	لز	الفرقان	الشّعراء	الأعراف	ص	ص
٣٨	لح	الملائكة	النمل	الجن	الأعراف	الأعراف
٣٩	لط	مريم	القَصص	يس	الجنّ	الجنّ
٤٠	م	طه	هود	الفرقان	يس	يس
٤١	ما	الشّعراء	يوسف	الملائكة	الفرقان	الفرقان
٤٢	مب	النمل	الحجّ	مريم	الملائكة	الملائكة
٤٣	مج	القَصص	الأنعام	طه	مريم	مريم
٤٤	مد	بني إسرائيل	والصّافات	الشّعراء	طه	طه
٤٥	مه	يونس	لقمان	النمل	الواقعة	الواقعة
٤٦	مو	هود	سبأ	القَصص	الشّعراء	الشّعراء
٤٧	مز	يوسف	الرّوم	بني إسرائيل	النمل	النمل
٤٨	مح	الحِجَر	القدر	يونس	القَصص	القَصص

التسلسل	العدد	مَقَالٌ عَنْ رَجَالَةٍ	مَقَالٌ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ	عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ	ابْنُ وَالِدٍ	عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
٤٩	مط	الأنعام	والشمس	هود	بني إسرائيل	بني إسرائيل
٥٠	ن	والصّافات	البروج	يوسف	يونس	يونس
٥١	نا	لقمان	والتين	الحجر	هود	هود
٥٢	نـب	سبأ	المؤمن	الأنعام	يوسف	يوسف
٥٣	نـج	آلَم السّجدة	حمّ السّجدة	والصّافات	الحجر	الحجر
٥٤	ند	حمّ المؤمن	الدّخان	لقمان	الأنعام	الأنعام
٥٥	نه	حمّ السّجدة	حمّ عَسَق	سبأ	والصّافات	والصّافات
٥٦	نو	حمّ عَسَق	الجاثية	الرّؤم	لقمان	لقمان
٥٧	نز	الرّؤف	الأحقاف	المؤمن	سبأ	سبأ
٥٨	نـح	الدّخان	الكهف	حمّ السّجدة	الرّؤم	الرّؤم
٥٩	نـظ	الجاثية	آلَم السّجدة	حمّ عَسَق	المؤمن	المؤمن
٦٠	س	الأحقاف	الأنبياء	الرّؤف	حمّ السّجدة	حمّ السّجدة
٦١	سا	الذّاريات	التّحل	الدّخان	حمّ عَسَق	حمّ عَسَق
٦٢	سـب	الغاشية	نوح	الجاثية	الرّؤف	الرّؤف
٦٣	سـج	الكهف	إبراهيم	الأحقاف	الدّخان	الدّخان
٦٤	سـد	التّحل	هُود	والذّاريات	الجاثية	الجاثية
٦٥	سـه	نوح	المُلْك	الغاشية	الأحقاف	الأحقاف
٦٦	سو	إبراهيم	الحاقة	الكهف	والذّاريات	والذّاريات
٦٧	سـز	النّبا	المعارج	التّحل	الغاشية	الغاشية
٦٨	سـح	المؤمن	النّبا	نوح	الكهف	الكهف
٦٩	سـط	الرّعد	والنّازعات	إبراهيم	التّحل	التّحل
٧٠	ع	الطّور	والذّاريات	الأنبياء	نوح	نوح
٧١	عا	المُلْك	انشَقَّت	المؤمنون	إبراهيم	إبراهيم
٧٢	عب	الحاقة	انفطرت	الرّعد	الأنبياء	الأنبياء
٧٣	عـج	المعارج	الرّؤم	الطّور	المؤمنون	المؤمنون
٧٤	عد	النّبا	العنكبوت	المُلْك	آلَم السّجدة	آلَم السّجدة
٧٥	عه	والنّازعات	يونس	الحاقة	الطّور	هود
٧٦	عو	انفطرت	الحجر	المعارج	المُلْك	المُلْك

التسلسل	العدد	مقاتل عن رجاله	مقاتل عن أمير المؤمنين كرم الله وجهه	عن ابن عباس	ابن والد	عن الصادق عليه السلام
٧٧	عز	انشقت	المؤمنون	النبا	الحاقة	الحاقة
٧٨	عح	الزوم	المطففون	والتازعات	المعارج	المعارج
٧٩	عط	العنكبوت	الأطفال	انفطرت	النبا	النبا
٨٠	ف	الإنسان	البقرة	انشقت	والتازعات	والتازعات
٨١	فا	الزمر	آل عمران	الزوم	انفطرت	انفطرت
٨٢	فب	الواقعة	النساء	العنكبوت	انشقت	انشقت
٨٣	فج	المطففون	المائدة	المطففون	الزوم	الزوم
٨٤	فد	الفاتحة	الأحزاب	البقرة	العنكبوت	العنكبوت
٨٥	فه	البقرة	المتحنة	الأطفال	المطففون	المطففون
٨٦	فو	الأطفال	الحديد	آل عمران	البقرة	البقرة
٨٧	فز	آل عمران	محمد (ص)	الحشر	الأطفال	الأطفال
٨٨	فح	الحشر	الرعد	الأحزاب	آل عمران	آل عمران
٨٩	فط	الأحزاب	الرحمن	التور	الأحزاب	الأحزاب
٩٠	ص	التور	الإنسان	المتحنة	المتحنة	المتحنة
٩١	صا	الصمد	الطلاق	الفتح	النساء	النساء
٩٢	صب	الفتح	لم يكن	النساء	إذا زُلزِلت	إذا زُلزِلت
٩٣	صح	النساء	الشمس	إذا زُلزِلت	الحديد	الحديد
٩٤	صد	إذا زُلزِلت	إذا زُلزِلت	الحج	محمد (ص)	محمد (ص)
٩٥	صه	والعصر	النصر	الحديد	الرعد	الرعد
٩٦	صو	الحج	التور	محمد (ص)	الرحمن	الرحمن
٩٧	صز	الحديد	المنافقون	الإنسان	الإنسان	الإنسان
٩٨	صح	محمد (ص)	المجادلة	الطلاق	الطلاق	الطلاق
٩٩	صط	الطلاق	الحجرات	لم يكن	لم يكن	لم يكن
١٠٠	ق	القدر	المتحرم	الجمعة	الحشر	الحشر
١٠١	قا	لم يكن	الجمعة	آل السجدة	النصر	النصر
١٠٢	قب	الجمعة	الصف	المنافقون	التور	التور
١٠٣	قج	المنافقون	التوبة	المجادلة	الحج	الحج
١٠٤	قد	المجادلة	الفلق	الحجرات	المنافقون	المنافقون

التسلسل	العدد	مقاتل عن رجالة	مقاتل عن أمير المؤمنين كرم الله وجهه	عن ابن عباس	ابن والد	عن الصادق عليه السلام
١٠٥	قه	الحُجُرَات	النَّاس	المتحرّم	المجادلة	المجادلة
١٠٦	قط	المتحرّم	الفتح	التَّغَابِن	الحُجُرَات	الحجرات
١٠٧	قر	التَّغَابِن	القارعة	الصَّفّ	المتحرّم	المتحرّم
١٠٨	قح	الصَّفّ	والعاديّات	المائدة	الصَّفّ	الصَّفّ
١٠٩	قط	المائدة	الأعراف	التَّوْبَة	الجُمُعَة	الجُمُعَة
١١٠	قي	التَّوْبَة	بني اسرائيل	النَّصْر	التَّغَابِن	التَّغَابِن
١١١	قيا	النَّصْر	الغاشية ^١	الواقعة	الفتح	الفتح
١١٢	قيب	العاديّات		والعاديّات	التَّوْبَة	التَّوْبَة
١١٣	قيج	الفلق		الفلق	المائدة ^٢	المائدة ^٣
١١٤	قيد	النَّاس		النَّاس		

١ - سقط منه الزُّخْرُفُ وَ التَّغَابِن وَ الْبَلَد.

٢ - سقط منه الْفَاتِحَة لِاخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا إِلَّا فِي هَذِهِ السُّورَة.

٣ - لَمْ يَذْكُرِ الْفَاتِحَة قَالَ هِيَ: وَ الْبَقَرَة فِي كِرَاسَة مَفْرَدَة وَ الْجُمْلَة حَرْقًا (كَذَا) وَ الْمَعْوِذَتَانِ عَلَى الْحَاشِيَة.

جدول الرّقم ١٠

ترتيب السّور عند ابن طاووس

السّور الّتي نزلت كلّها بمكّة فهي تسع و أربعون سورة وهي ١:

٣٣	والشّمس
٣٤	واللّيل
٣٥	والضحى
٣٦	ألّم نشرح
٣٧	والتين
٣٨	العلق
٣٩	التقدر
٤٠	العاديات
٤١	والقارعة
٤٢	التكاثّر
٤٣	والعصر
٤٤	الهّمزة
٤٥	الفيل
٤٦	قريش
٤٧	الكوثر
٤٨	والكافرون

١٧	نوح
١٨	الجنّ
١٩	المدّثر
٢٠	القيّمة
٢١	المُرسلات
٢٢	الصّافات
٢٣	النّازعات
٢٤	عبّس
٢٥	العشار
٢٦	الانفطار
٢٧	الانشقاق
٢٨	البُرّوج
٢٩	الطّارق
٣٠	الأعلى
٣١	الغاشية
٣٢	والفّجر

١	يوسف
٢	الأنبياء
٣	النّمل
٤	الرّوم
٥	سبأ
٦	فاطر
٧	الصّافات
٨	صّ
٩	حمّ السّجدة
١٠	الدّخان
١١	الذّاريات
١٢	الطّور
١٣	المؤلك
١٤	الحاقة
١٥	القلم
١٦	المعارج

السور التي نزلت بمكة إلا آيات منها نزلت بالمدينة فهي
تسع وعشرون سورة وهي:^١

١٤	السجدة	إلا ثلاث آيات
١٥	يس	إلا آية
١٦	الزمر	إلا ثلاث آيات
١٧	حم المؤمن	إلا آيتين
١٨	الزخرف	إلا آية
١٩	عبس	إلا سبع آيات
٢٠	الجاثية	إلا آية
٢١	الأحقاف	إلا ست آيات
٢٢	ق	إلا آية
٢٣	التجم	إلا تسع آيات
٢٤	القمر	إلا آيتين
٢٥	الواقعة	إلا أربع آيات
٢٦	المطففين	إلا ست آيات

١	الأنعام	إلا ست آيات
٢	هود	إلا آية
٣	الجحر	إلا آية
٤	التحل	إلا خمس آيات
٥	بنو إسرائيل	إلا خمس آيات
٦	الكهف	إلا آية
٧	مريم	إلا آية
٨	طه	إلا آية
٩	المؤمنون	إلا أربع عشرة آية
١٠	الفرقان	إلا ثلاث آيات
١١	الشعراء	إلا أربع آيات
١٢	القصاص	إلا آية
١٣	لقمان	إلا آيتين

١ - ولكن إحصاءها طبق نصه ست وعشرون سورة

وَأَمَّا السُّورُ الَّتِي نَزَلَتْ كُلُّهَا بِالْمَدِينَةِ فَهِيَ اثْنَتَا عَشْرَةَ سُورَةً، وَهِيَ:

١	آل عمران	٧	الحَشْر
٢	التَّوْبَةُ	٨	الجُمُعَة
٣	النُّور	٩	الْمَنَافِقُون
٤	الْأَحْزَاب	١٠	الطَّلَاق
٥	الْقِتَال	١١	التَّحْرِيم
٦	الْحُجُرَات	١٢	النَّصْر

وَأَمَّا السُّورُ الَّتِي نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ إِلَّا آيَاتُهَا مِنْهَا نَزَلَتْ بِمَكَّةَ وَهِيَ ثَمَانُ سُورٍ:

١	البقرة إِلَّا خَمْسَ آيَاتٍ	٥	الفتح إِلَّا ثَلَاثَ آيَاتٍ
٢	النِّسَاء إِلَّا آيَتَيْنِ	٦	المُجَادَلَة إِلَّا آيَةً
٣	المائدة إِلَّا آيَةً	٧	المُودَّة إِلَّا آيَةً
٤	الْأَنْفَال إِلَّا آيَتَيْنِ	٨	التَّغَايُن إِلَّا ثَلَاثَ آيَاتٍ

جدول الرّقم ١١

ترتيب السّور عند الخازن

مانزل من القرآن بمكّة

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ	١٩
وَالنَّجْمِ	٢٠
عَبَسَ	٢١
القدر	٢٢
البُروج	٢٣
التّين	٢٤
لايلاف قُرَيْشٍ	٢٥
القارعة	٢٦
القيّمة	٢٧
الهُمزة	٢٨
المُرسلات	٢٩
ق	٣٠
البَلَد	٣١
الطّارق	٣٢
اِقْرَبَتِ السّاعَة	٣٣
ص	٣٤
الأعراف	٣٥
الجنّ	٣٦

إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ	١
ن وَالْقَلَمِ	٢
يَاءُ يُهَا الْمُزَّمِّلُ	٣
يَاءُ يُهَا الْمُدَدِّرُ	٤
تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ	٥
إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ	٦
سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى	٧
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى	٨
وَالْفَجْرِ	٩
وَالضُّحَى	١٠
أَلَمْ نَشْرَحْ	١١
وَالْعَصْرِ	١٢
وَالْعَادِيَاتِ	١٣
إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ	١٤
الْهَيْكُمُ النَّكَّاتُ	١٥
أَرَأَيْتَ الَّذِي	١٦
قُلْ يَاءُ يُهَا الْكَافِرُونَ	١٧
الفيل	١٨

الجاثية	٦١
الأحقاف	٦٢
الذاريات	٦٣
الغاشية	٦٤
الكهف	٦٥
النحل	٦٦
نوح	٦٧
إبراهيم	٦٨
قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ	٦٩
تنزيل السجدة	٧٠
الطور	٧١
المُلْك	٧٢
الحاقة	٧٣
سَأَلَ سَائِلٌ	٧٤
عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ	٧٥
النازعات	٧٦
إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ	٧٧
إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ	٧٨
الرُّوم	٧٩
العنكبوت	٨٠

يس	٣٧
الفرقان	٣٨
فاطر	٣٩
مريم	٤٠
طه	٤١
الواقعة	٤٢
الشعراء	٤٣
الزلزل	٤٤
القصاص	٤٥
بني اسرائيل	٤٦
يونس	٤٧
هود	٤٨
يوسف	٤٩
الحجر	٥٠
الأنعام	٥١
وَالصَّافَّاتِ	٥٢
لقمان	٥٣
سبا	٥٤
الرُّم	٥٥
المؤمن	٥٦
السجدة	٥٧
حم عسق	٥٨
الرُّخُوف	٥٩
الدُّخان	٦٠

مانزل بالمدينة

١	البقرة	١٦	الفلق
٢	الأنفال	١٧	الناس
٣	آل عمران	١٨	إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ
٤	الأحزاب	١٩	الفتح
٥	الممتحنة	٢٠	الحج
٦	النساء	٢١	إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ
٧	إِذَا زُلْزِلَتْ	٢٢	المجادلة
٨	الحديد	٢٣	الحجرات
٩	محمد (ص)	٢٤	التحریم
١٠	الرعد	٢٥	الصف
١١	الرحمن	٢٦	الجمعة
١٢	هل أتى	٢٧	التغابن
١٣	الطلاق	٢٨	التوبة
١٤	لم يكن	٢٩	المائدة
١٥	الحشر		

جدول الرّقم ١٢

ترتيب السّور عند السيوطي برواية يزيد النّحوي عن عكرمة و الحسن

ما أنزل الله من القرآن بمكة

٢٠	قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ
٢١	قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ
٢٢	وَالنَّجْمِ
٢٣	عَبَسَ
٢٤	إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
٢٥	وَالشَّمْسِ وَضُحَيْهَا
٢٦	وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ
٢٧	وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ
٢٨	لَا يَلَافُ فُريش
٢٩	القارعة
٣٠	لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ
٣١	الهمزة
٣٢	المُرسلات
٣٣	ق
٣٤	لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ
٣٥	وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ
٣٦	اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ
٣٧	ص

١	إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ
٢	ن وَالْقَلَمِ
٣	الْمِرْمَلِ
٤	المدثر
٥	تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ
٦	إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ
٧	سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى
٨	وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى
٩	وَالْفَجْرِ
١٠	وَالضُّحَى
١١	أَلَمْ نَشْرَحْ
١٢	وَالْعَصْرِ
١٣	وَالْعَادِيَاتِ
١٤	الكوثر
١٥	الْهَيْكُمُ التَّكَاثُرُ
١٦	أَرَأَيْتَ
١٧	قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ
١٨	أصحاب الفيل
١٩	الفرق

الذّاريات	٦٤
الغاشية	٦٥
أصحاب الكهف	٦٦
التّحلّ	٦٧
نوح	٦٨
ابراهيم	٦٩
الأنبياء	٧٠
المؤمنون	٧١
الم السّجدة	٧٢
الطّور	٧٣
تبارك	٧٤
الحاقة	٧٥
سأل	٧٦
عمّ يتسانلون	٧٧
التّازعات	٧٨
إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ	٧٩
إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ	٨٠
الرّوم	٨١
العنكبوت	٨٢

١ - يُريد بها سورة يونس.

الجنّ	٣٨
يُس	٣٩
الفرقان	٤٠
الملائكة	٤١
طه	٤٢
الواقعة	٤٣
طسّم	٤٤
طسّ	٤٥
طسّم	٤٦
بنّي اسرائيل	٤٧
التّاسعة ^١	٤٨
هود	٤٩
يوسف	٥٠
أصحاب الحجر	٥١
الأنعام	٥٢
الصّافات	٥٣
لقمان	٥٤
سبا	٥٥
الرّؤمر	٥٦
حَمّ المؤمن	٥٧
حَمّ الدّخان	٥٨
حَمّ السّجدة	٥٩
حَمّ عسّق	٦٠
حَمّ الرّؤخرف	٦١
الجاثية	٦٢
الأحقاف	٦٣

وما نزل بالمدينة

لم يكن	١٦
الحشر	١٧
إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ	١٨
النور	١٩
الحجّ	٢٠
المنافقون	٢١
المجادلة	٢٢
الحُجُرَات	٢٣
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ	٢٤
الصِّفِّ	٢٥
الْجُمُعَةِ	٢٦
التَّغَابُنِ	٢٧
الفتح	٢٨
براءة ^١	٢٩

وَيَلُ لِّلْمُطَفِّفِينَ	١
البقرة	٢
آل عمران	٣
الأَنْفَال	٤
الأحزاب	٥
المائدة	٦
الْمُمْتَحِنَةِ	٧
النِّسَاءِ	٨
إِذَا زُلْزِلَتْ	٩
الحديد	١٠
محمّد(ص)	١١
الرَّعْدِ	١٢
الرَّحْمَنِ	١٣
هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ	١٤
الطَّلَاقِ	١٥

١ - البيهقي: وقد سقط من هذه الرواية، الفاتحة و
الأعراف وكتبت فيما نزل بمكة.

جدول الرّقم ١٣

ترتيب السّور عند السيوطي برواية أميّة الأزدي عن جابر بن يزيد

ما أنزل الله من القرآن بمكة

١٩	أَلَمْ تَرَ كَيْفَ
٢٠	قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ
٢١	قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ
٢٢	قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ
٢٣	النَّجْمِ
٢٤	عَبَسَ
٢٥	إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
٢٦	وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا
٢٧	البروج
٢٨	والتَّيْنِ
٢٩	لَا يَلَافِي
٣٠	القَارِعَةِ
٣١	الْقَيْمَةِ
٣٢	وَيُلْ لِكُلِّ هُمْزَةٍ
٣٣	والمرسلات
٣٤	قِ
٣٥	البلد
٣٦	الطَّارِقِ

١	إِذَا بِاسْمِ رَبِّكَ
٢	نَ وَالْقَلَمِ
٣	يَاءِ يَهَا الْمُرْمَلُ
٤	يَاءِ يَهَا الْمُدَّثِّرُ
٥	الفاتحة
٦	تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ
٧	إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ
٨	سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى
٩	وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى
١٠	وَالْفَجْرِ
١١	وَالصُّحَى
١٢	أَلَمْ نَشْرَحْ
١٣	وَالْعَصْرِ
١٤	وَالْعَادِيَاتِ
١٥	الكوثر
١٦	أَلْهَيْكُمْ
١٧	أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ
١٨	الكَافِرُونَ

٦٣	حَمَّ الدَّخَانِ
٦٤	حَمَّ الْجَائِيَةِ
٦٥	حَمَّ الْأَحْقَافِ
٦٦	الدَّارِيَاتِ
٦٧	الغَاشِيَةِ
٦٨	الكَهْفِ
٦٩	حَمَّ عَتَقَ
٧٠	تَنْزِيلِ السَّجْدَةِ
٧١	الْأَنْبِيَاءِ
٧٢	النَّحْلِ
٧٣	إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا
٧٤	الطُّورِ
٧٥	الْمُؤْمِنِينَ
٧٦	تَبَارَكَ
٧٧	الْحَاقَّةِ
٧٨	سَأَلَ
٧٩	عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ
٨٠	وَالنَّازِعَاتِ
٨١	إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ
٨٢	إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ
٨٣	الرُّومِ
٨٤	العنكبوتِ
٨٥	وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ

٣٧	اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ
٣٨	صَّ
٣٩	الأعرافِ
٤٠	الْجَنِّ
٤١	يَسَّ
٤٢	الفرقانِ
٤٣	الملائكةِ
٤٤	كَهَيْعَتِ
٤٥	طُهُ
٤٦	الواقعةِ
٤٧	الشُّعَرَاءِ
٤٨	طُسَّ سُلَيْمَانُ
٤٩	طُسِمَ الْقَصَصُ
٥٠	بَنِي إِسْرَائِيلَ
٥١	التَّاسِعَةُ (يُونُسَ)
٥٢	هُودَ
٥٣	يُوسُفَ
٥٤	الْحِجْرِ
٥٥	الأنعامِ
٥٦	الصَّافَّاتِ
٥٧	لُقْمَانَ
٥٨	سَبَأَ
٥٩	الرُّمَّ
٦٠	حَمَّ الْمُؤْمِنِ
٦١	حَمَّ السَّجْدَةِ
٦٢	حَمَّ الزُّحُرْفِ

وَأَمَّا مَا أُنزِلَ بِالْمَدِينَةِ

البقرة	١٠	المُنافقون	١
آل عمران	١١	المُجادلة	٢
الأنفال	١٢	التَّحريم	٣
الأحزاب	١٣	الجُمعة	٤
المائدة	١٤	التَّغَابُن	٥
المُمتحنة	١٥	سَبَّحَ الْحَوَارِيُّينَ	٦
إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ	١٦	الفتح	٧
الحجّ	١٧	التَّوْبَةُ (خاتمة القرآن)	٨
البقرة			٩

جدول الرّقم ١٤

[أسماء السّور المكيّة والمدنيّة بحسب سنوات نزولها]

عند الحسيني المولوي في «كشف الآيات» ص: ٤٨٦

[سميت لكل مجموعة من سور القرآن التي نزلت خلال سنة واحدة من سنوات نزول القرآن - سواءً منها النّازلة في ١٣ سنة في مكّة أو ١٠ سنوات في المدينة - باسم خاص، وفقاً لاسم أول سورة أو وفقاً لمضمون بارز فيها، كما في الجدول التالي:]

١- أسما السّور المكيّة

سنة النّزول	اسم المجموعة	عدد السّور	أسماء السّور المنزلة
السّنة الأولى	الافتتاحيّة	٢٦ سورة	١- الفاتحة ٢- النّاس ٣- الفلق ٤- الاخلاص ٥- تبتّ (المسد) ٦- النّصر ٧- الكافرون ٨- الكوثر ٩- الماعون ١٠- قريش ١١- الفيل ١٢- الهُمزة ١٣- والعصر ١٤- التّكاثر ١٥- القارعة ١٦- والعاديات ١٧- الزّلزال ١٨- العلق ١٩- التّين ٢٠- الانشراح ٢١- والضّحى ٢٢- واليل ٢٣- والشّمس ٢٤- البلد ٢٥- الفجر ٢٦- الغاشية
السّنة الثّانيّة	الاستعلائيّة	١٣ سورة	١- الأعلى ٢- الطّارق ٣- البروج ٤- الانشقاق ٥- التّطيف ٦- الانفطار ٧- التّكوير ٨- عبس ٩- والنّازعات ١٠- النّبأ ١١- المرسلات ١٢- الدّهر ١٣- القيمة

سنة النزول	اسم المجموعة	عدد السور	أسماء السور المنزلة
السنة الثالثة	الدّثاريّة	٨ سورة	١- المدثر ٢- المزمل ٣- الجن ٤- نوح ٥- المعارج ٦- الحاقة ٧- القلم ٨- الملوك
السنة الرابعة	الواقعيّة	٧ سورة	١- الواقعة ٢- الرحمن ٣- القمر ٤- النجم ٥- الطور ٦- الذاريات ٧- ق
السنة الخامسة	الاحقافيّة	٤ سورة	١- الأحقاف ٢- الجاثية ٣- الذخان ٤- الزخرف
السنة الستة	الشّواريّة	٤ سورة	١- الشورى ٢- فصلت ٣- المؤمن ٤- الزمر
السنة السابعة	الدّاوديّة	٥ سورة	١- ص ٢- الصافات ٣- يس ٤- الفاطر ٥- سبأ
السنة الثامنة	اللاميّة	٤ سورة	١- السجدة ٢- لقمان ٣- الروم ٤- العنكبوت
السنة التاسعة	الطائيّة	٣ سورة	١- القصص ٢- النحل ٣- الشعراء
السنة العاشرة	الفرقانيّة	٣ سورة	١- الفرقان ٢- المؤمنون ٣- الأنبياء
السنة العادية عشرة	السامريّة	٤ سورة	١- طه ٢- مريم ٣- الكهف ٤- الإسراء
السنة الثانية عشرة	التّحليّة	٥ سورة	١- النحل ٢- الحجر ٣- إبراهيم ٤- الرعد ٥- يوسف
السنة الثالثة عشرة	الهوديّة	٤ سورة	١- هود ٢- يونس ٣- الأعراف ٤- الأنعام

٢- أسماء السور المدنيّة

سنة النزول	اسم المجموعة	عدد السور	أسماء السور المنزلة
السنة الأولى	الهجريّة	٤ سورة	١- القدر ٢- التغابن ٣- المنافقون ٤- الجمعة
السنة الثانية	البديّة	٣ سورة	١- البيّنة ٢- الصف ٣- الحديد
السنة الثالثة	الأحديّة	٢ سورة	١- محمد ٢- المجادلة
السنة الرابعة	النّظيريّة	٢ سورة	١- الحشر ٢- الممتحنة
السنة الخامسة	الخندقيّة	٢ سورة	١- الحجرات ٢- الحجّ
السنة السادسة	الحديبيّة	٢ سورة	١- النساء ٢- النور
السنة السابعة	الخيريّة	٣ سورة	١- الطلاق ٢- التّحريم ٣- الأحزاب
السنة الثامنة	الفتحيّة	٢ سورة	١- الفتح ٢- الأنفال
السنة التاسعة	التّبوكيّة	٢ سورة	١- التوبة ٢- البقرة
السنة العاشرة	الوداعيّة	٢ سورة	١- آل عمران ٢- المائدة

جدول الرّقم ١٥

ترتيب السّور عند أبي عبد الله الزّنجانيّ

تاريخ نزول السّور

العدد	السّور المكيّة	السّور المدنيّة	تاريخ النّزول
١	الحمد	نزلت بعد المدّثر
٢		البقرة، إلّا آية ٢٨١ فنزلت بمنى في حجّة الوداع	أول سورة نزلت بالمدينة
٣	آل عمران	بعد الأنفال ...
٤	النّساء	بعد الممتحنة ...
٥	المائدة، إلّا آية ٣ فنزلت بعرفات في حجّة الوداع	بعد الفتح
٦	الأنعام، إلّا الآيات: ٢٠ و ٢٣ و ٩١ و ٩٣ و ١١٤ و ١٤١ و ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٣ فمدنيّة	بعد الحجر
٧	الأعراف، إلّا من آية: ١٦٣ إلى غاية آية: ١٧٠ فمدنيّة	بعد ص
٨		الأنفال، إلّا من آية: ٣٠ إلى غاية آية: ٣٦ فمكيّة	بعد البقرة

العدد	السور المكيّة	السور المدنيّة	تاريخ النزول
٩		التوبة، إلّا الآيتين الأخيرتين فمكّيتان	بعد المائدة
١٠	يونس، إلّا الآيات: ٤٠ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ فمدنيّة		بعد الإسراء
١١	هود، إلّا الآيات: ١٢ و ١٧ و ١١٤ فمدنيّة		بعد يونس
١٢	يوسف، إلّا الآيات: ١ و ٢ و ٣ و ٧ فمدنيّة		بعد هود
١٣		الرعد	بعد محمّد
١٤	ابراهيم، إلّا آيتي: ٢٨ و ٢٩ فمدنيتان		بعد نوح
١٥	الحجر، إلّا آية ٨٧ فمدنيّة		بعد يوسف
١٦	التحل، إلّا الآيات الثلاث الأخيرة		بعد الكهف
١٧	الإسراء، إلّا الآيات: ٢٦ و ٣٢ و ٣٣ و ٥٧ و من آية: ٧٣ إلى غاية آية: ٨٠ فمدنيّة		بعد القصص
١٨	الكهف، إلّا آية: ٢٨ و من آية: ٨٣ إلى غاية آية: ١٠١ فمدنيّة		بعد العاشية
١٩	مريم، إلّا آيتي: ٥٨ و ٧١ فمدنيتان		بعد قاطر
٢٠	طه، إلّا آيتي: ١٣٠ و ١٣١ فمدنيتان		بعد مريم

العدد	السور المكيّة	السور المدنيّة	تاريخ النزول
٢١	الأنبياء		بعد إبراهيم
٢٢		الحجّ، إلّا الآيات: ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ فيين مكّة و المدينة	بعد التّور
٢٣	المؤمنون		بعد الأنبياء
٢٤		التّور	بعد الحشر
٢٥	الفرقان، إلّا الآيات: ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ فمدنيّة		بعد يسّ
٢٦	الشّعراء، إلّا آية: ١٩٧ ومن ٢٢٤ إلى آخر السّورة فمدنيّة		بعد الواقعة
٢٧	التمل		بعد الشّعراء
٢٨	القصاص، إلّا من آية: ٥٢ إلى غاية آية: ٥٥ فمدنيّة. و آية: ٨٥ فبالجُحفة أثناء الهجرة		بعد التمل
٢٩	العنكبوت، إلّا من آية: ١ إلى ١١ فمدنيّة		بعد الرّوم
٣٠	الرّوم، إلّا آية: ١٧ فمدنيّة		بعد الأنشقاق
٣١	لقمان، إلّا الآيات: ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ فمدنيّة		بعد الصّافات
٣٢	السّجدة، إلّا من آية: ١٦ إلى غاية آية: ٢٠ فمدنيّة		بعد المؤمنون
٣٣		الأحزاب	بعد آل عمران
٣٤	سبا، إلّا آية: ٦ فمدنيّة		بعد لقمان
٣٥	فاطر		بعد الفرقان

العدد	السور المكيّة	السور المدنيّة	تاريخ النزول
٣٦	يس، إلّا آية: ٤٥ فمدنيّة		بعد الجنّ
٣٧	الصّافات		بعد الأنعام
٣٨	ص		بعد القمر
٣٩	الرّؤم إلّا الآيات: ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ فمدنيّة		بعد سبأ
٤٠	غافر، إلّا آيتي: ٥٦ و ٥٧ فمدنيتان		بعد الرّؤم
٤١	فصلت		بعد غافر
٤٢	الشّورى، إلّا الآيات: ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٧ فمدنيّة		بعد فصلت
٤٣	الرّزخرف، إلّا آية: ٥٤ فمدنيّة		بعد الشّورى
٤٤	الدّخان		بعد الرّزخرف
٤٥	الجاثية، إلّا آية: ١٤ فمدنيّة		بعد الدّخان
٤٦	الأحقاف، إلّا الآيات: ١٠ و ١٥ و ٣٥ فمدنيّة		بعد الجاثية
٤٧		محّمّد (ص)، إلّا آية: ١٣ فنزلت في الطّريق أثناء الهجرة	بعد الحديد
٤٨		الفتح، نزلت في الطّريق عند الانصراف من الحديبيّة	بعد الجُمعة
٤٩		الحجّرات	بعد المُجادلة
٥٠	ق، إلّا آية: ٣٨ فمدنيّة		بعد المرسلات

العدد	السور المكيّة	السور المدنيّة	تاريخ النزول
٥١	الذّاريات		بعد الأحقاف
٥٢	الطّور		بعد السّجدة
٥٣	النّجم، إلّا آية: ٣٢ فمديّنة		بعد الإخلاص
٥٤	القمر، إلّا الآيات: ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ فمديّنة		بعد الطّارق
٥٥		الرّحمن	بعد الرّعد
٥٦	الواقعة، إلّا آيتي: ٨١ و ٨٢ فمديّنتان		بعد طه
٥٧		الحديد	بعد الزّلزلة
٥٨		المجادلة	بعد المنافقون
٥٩		الحشر	بعد البيّنة
٦٠		المتّحنة	بعد الأحزاب
٦١		الصّفّ	بعد التّغابن
٦٢		الجُمعة	بعد الصّفّ
٦٣		المنافقون	بعد الحجّ
٦٤		التّغابن	بعد التّحريم
٦٥		الطّلاق	بعد الإنسان
٦٦		التّحريم	بعد الحُجرات
٦٧	المُلْك		بعد الطّور
٦٨	القلم، إلّا من آية: ١٧ إلى غاية آية: ٣٣، و من آية: ٤٨ إلى غاية آية: ٥٠ فمديّنة		بعد العلق
٦٩	الحاقة		بعد المُلْك

العدد	السور المكيّة	السور المدنيّة	تاريخ النزول
٧٠	المعارج		بعد الحاقة
٧١	نوح		بعد التحل
٧٢	الجنّ		بعد الأعراف
٧٣	المزمل، إلاّ الآيات: ١٠ و ١١ و ٢٠ فمدنيّة		بعد القلم
٧٤	المدثر		بعد المزمل
٧٥	القيمة		بعد القارعة
٧٦		الإنسان	بعد الرحمن
٧٧	المُرسلات، إلاّ آية: ٤٨ فمدنيّة		بعد الهُمزة
٧٨	التبأ		بعد المعارج
٧٩	التّازعات		بعد التّبأ
٨٠	عبس		بعد التّجم
٨١	التّكوير		بعد المسد
٨٢	الانفطار		بعد التّازعات
٨٣	المطفّفين، وهي آخر سورة نزلت بمكة		بعد العنكبوت
٨٤	الانشقاق		بعد الانفطار
٨٥	البروج		بعد الشّمس
٨٦	الطّارق		بعد البلد
٨٧	الأعلى		بعد التّكوير
٨٨	الغاشية		بعد الدّاريات
٨٩	الفجر		بعد الّيل
٩٠	البلد		بعد ق

العدد	السُّور المَكِّيَّة	السُّور المدنيَّة	تاريخ النَّزول
٩١	الشَّمْس		بعد القدر
٩٢	الْبَلَد		بعد الأعلى
٩٣	الضُّحَى		بعد الفجر
٩٤	أَلَمْ نَشْرَحْ		بعد الضُّحَى
٩٥	التِّين		بعد البروج
٩٦	العلق، وهي أول ما نزل من القرآن		
٩٧	القدر		بعد عَبَسَ
٩٨		البَيِّنَة	بعد الطَّلَاق
٩٩		الزَّلْزَلَة	بعد النَّسَاء
١٠٠	العاديات		بعد العصر
١٠١	القارعة		بعد قُرَيْش
١٠٢	التَّكْوِيْن		بعد الكوثر
١٠٣	العصر		بعد أَلَمْ نَشْرَحْ
١٠٤	الهَمِزَة		بعد القِيَمَة
١٠٥	الفيل		بعد الكافرون
١٠٦	قريش		بعد التِّين
١٠٧	الماعون، الثلاث الآيات الأولى، والبقية مدنيَّة		بعد التَّكْوِيْن
١٠٨	الكوثر		بعد العاديات
١٠٩	الكافرون		بعد الماعون
١١٠		النَّصْر، نزلت بمعنى في حجة الوداع، فتعدَّ مدنيَّة	وهي آخر ما نزل من السُّور
١١١	المَسَد		بعد الفاتحة
١١٢	الإِخْلَاص		بعد النَّاس
١١٣	الفلق		بعد الفيل
١١٤	النَّاس		بعد الفلق

جدول الرّقم ١٦

ترتيب السّور عند عِرَّة دَرَوَزَة بمصادر مختلفة

السّور المكيّة

اسم السّورة	رقم ترتيب نزولها	رقم ترتيبها في المُصحف	اسم السّورة	رقم ترتيب نزولها	رقم ترتيبها في المُصحف
العلق	١	٩٦	الإخلاص	٢٢	١١٢
القلم	٢	٦٨	النّجم	٢٣	٥٣
المزمل	٣	٧٣	عبس	٢٤	٨٠
المدثر	٤	٧٤	القدر	٢٥	٩٧
الفاتحة	٥	١	الشّمس	٢٦	٩١
المسد	٦	١١١	البّروج	٢٧	٨٥
التّكوير	٧	٨١	التّين	٢٨	٩٥
الأعلى	٨	٨٧	قُرَيْش	٢٩	١٠٦
الّيل	٩	٩٢	القارعة	٣٠	١٠١
الفجر	١٠	٨٩	القيّمة	٣١	٧٥
الضحى	١١	٩٣	الهُمزة	٣٢	١٠٤
الشّرح	١٢	٩٤	المرسلات	٣٣	٧٧
العصر	١٣	١٠٣	قَـ	٣٤	٥٠
العاديات	١٤	١٠٠	البلد	٣٥	٩٠
الكوثر	١٥	١٠٨	الطّارق	٣٦	٨٦
التّكاثر	١٦	١٠٢	القمر	٣٧	٥٤
الماعون	١٧	١٠٧	صَـ	٣٨	٣٨
الكافرون	١٨	١٠٩	الأعراف	٣٩	٧
الفيل	١٩	١٠٥	الجنّ	٤٠	٧٢
الفلق	٢٠	١١٣	يسّـ	٤١	٣٦
النّاس	٢١	١١٤	الفرقان	٤٢	٢٥

اسم السورة	رقم ترتيب نزولها	رقم ترتيبها في المصحف	اسم السورة	رقم ترتيب نزولها	رقم ترتيبها في المصحف
فاطر	٤٣	٣٥	الجاثية	٦٥	٤٥
مريم	٤٤	١٩	الأحقاف	٦٦	٤٦
طه	٤٥	٢٠	الذاريات	٦٧	٥١
الواقعة	٤٦	٥٦	الغاشية	٦٨	٨٨
الشعراء	٤٧	٢٦	الكهف	٦٩	١٨
النمل	٤٨	٢٧	النحل	٧٠	١٦
التقصص	٤٩	٢٨	نوح	٧١	٧١
الاسراء	٥٠	١٧	ابراهيم	٧٢	١٤
يونس	٥١	١٠	الأنبياء	٧٣	٢١
هود	٥٢	١١	المؤمنون	٧٤	٢٣
يوسف	٥٣	١٢	السجدة	٧٥	٣٢
الحجر	٥٤	١٥	الطور	٧٦	٥٢
الأنعام	٥٥	٦	الملك	٧٧	٦٧
الصافات	٥٦	٣٧	الحاقة	٧٨	٦٩
لقمان	٥٧	٣١	المعارج	٧٩	٧٠
سبا	٥٨	٣٤	التبا	٨٠	٧٨
الرؤم	٥٩	٣٩	التازعات	٨١	٧٩
غافر	٦٠	٤٠	الانفطار	٨٢	٨٢
فصلت	٦١	٤١	الانشقاق	٨٣	٨٤
الشورى	٦٢	٤٢	الرؤم	٨٤	٣٠
الزخرف	٦٣	٤٣	العنكبوت	٨٥	٢٩
الدخان	٦٤	٤٤	المطففون	٨٦	٨٣

السور المدنيّة

اسم السورة	رقم ترتيب نزولها	رقم ترتيبها في المصحف	اسم السورة	رقم ترتيب نزولها	رقم ترتيبها في المصحف
البقرة	٨٧	٢	الحشر	١٠١	٥٩
الأنفال	٨٨	٨	التور	١٠٢	٢٤
آل عمران	٨٩	٣	الحجّ	١٠٣	٢٢
الأحزاب	٩٠	٣٣	المنافقون	١٠٤	٦٣
المتحنة	٩١	٦٠	المجادلة	١٠٥	٥٨
النساء	٩٢	٤	الحجرات	١٠٦	٤٩
الزلزلة	٩٣	٩٩	التحریم	١٠٧	٦٦
الحديد	٩٤	٥٧	التغابن	١٠٨	٦٤
محمد (ص)	٩٥	٤٧	الصفّ	١٠٩	٦١
الرعد	٩٦	١٣	الجمعة	١١٠	٦٢
الرحمن	٩٧	٥٥	الفتح	١١١	٤٨
الانسان	٩٨	٧٦	المائدة	١١٢	٥
الطلاق	٩٩	٦٥	التوبة	١١٣	٩
البيّنة	١٠٠	٩٨	النصر	١١٤	١١٠

جدول الرّقم ١٧

ترتيب السّور عند الخطيب

السّور المكيّة

أسماء السّور	التسلسل
الطّارق	٣٥
القمر	٣٦
صّ	٣٧
الأعراف	٣٨
الجنّ	٣٩
يسّ	٤٠
الفرقان	٤١
المعارج	٤٢
مريم	٤٣
طه	٤٤
الواقعة	٤٥
الشّعراء	٤٦
النمل	٤٧
القصاص	٤٨
الإسراء	٤٩
يونس	٥٠
هود	٥١

أسماء السّور	التسلسل
الفيل	١٨
القلق	١٩
النّاس	٢٠
الإخلاص	٢١
النّجم	٢٢
عبّس	٢٣
القدر	٢٤
الشّمس	٢٥
البّروج	٢٦
التّين	٢٧
قُرَيْش	٢٨
الفارقة	٢٩
القيّمة	٣٠
الهّمزة	٣١
المرسلات	٣٢
ق	٣٣
البلد	٣٤

أسماء السّور	التسلسل
إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ	١
نَ	٢
المزّمّل	٣
المدثّر	٤
المسدّد	٥
التّكوير	٦
الأعلى	٧
اليل	٨
الفجر	٩
الضحى	١٠
الْمَنَ شَرَحَ	١١
العصر	١٢
العاديات	١٣
الكوثر	١٤
التّكاثر	١٥
الماعون	١٦
الكاغرون	١٧

أَسْمَاءُ السُّور	التَّسْلُس
المُلْك	٧٦
الحَاقَّة	٧٧
المَعَارِج	٧٨
النُّبَأ	٧٩
النَّازِعَات	٨٠
الانْفِطَار	٨١
الانْشِقَاق	٨٢
الرُّوم	٨٣
العنْكَبُوت	٨٤
المُطَفِّفُون	٨٥

أَسْمَاءُ السُّور	التَّسْلُس
الجَاثِيَّة	٦٤
الأَحْقَاف	٦٥
الذَّارِيَات	٦٦
الغَاشِيَّة	٦٧
الكَهْف	٦٨
النَّحْل	٦٩
نُوح	٧٠
إِبْرَاهِيم	٧١
الْأَنْبِيَاء	٧٢
المُؤْمِنُون	٧٣
الْم(السَّجْدَة)	٧٤
الطَّوْر	٧٥

أَسْمَاءُ السُّور	التَّسْلُس
يُوسُف	٥٢
الحِجْر	٥٣
الْأَنْعَام	٥٤
الصَّافَّات	٥٥
لُقْمَان	٥٦
سَبَأ	٥٧
الزُّمَر	٥٨
المُؤْمِن	٥٩
حَم(السَّجْدَة)	٦٠
حَمَّ عَسَق	٦١
الزُّخْرُف	٦٢
الدُّخَان	٦٣

السُّور المَدَنِيَّة

أَسْمَاءُ السُّور	التَّسْلُس
النِّسَاء	٩١
الزَّلْزَلَة	٩٢
الحَدِيد	٩٣
مُحَمَّد(ص)	٩٤
الرَّعْد	٩٥

أَسْمَاءُ السُّور	التَّسْلُس
البَقَرَة	٨٦
الْأَنْفَال	٨٧
آل عِمْرَان	٨٨
الأَحْزَاب	٨٩
المَمْتَحَنَة	٩٠

التسلسل	أسماء السُّور
١٠٦	الحُجُرَات
١٠٧	التَّحْرِيم
١٠٨	الجُمُعَة
١٠٩	التَّغَابِن
١١٠	الصَّف
١١١	الْفَتْح
١١٢	التَّوْبَة
١١٣	المَائِدَة
١١٤	فاتحة الكتاب ^١

(١٣:١)

التسلسل	أسماء السُّور
٩٦	الرَّحْمَن
٩٧	الْإِنْسَان
٩٨	الطَّلَاق
٩٩	البَيِّنَة
١٠٠	الحَشْر
١٠١	النَّصْر
١٠٢	النُّور
١٠٣	الحَجَّ
١٠٤	الْمَنَافِقُون
١٠٥	الْمَجَادِلَة

١ - اختلف في نزولها بمكة أو بالمدينة و قيل إنها نزلت مرتين: مرة بمكة و مرة بالمدينة.

فهرس الموضوعات

الباب الثاني من القسم الأول: كيفية نزول الوحي

معنى الوحي وكيفية وأقسامه ١٥، ٢١، ٣٤، ٣٧، ٤٤، ٤٨،

٥٤، ٦٣، ٧٨، ١٢٢، ١٣٩، ١٩٥، ٢٠٣، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٤،

٢١٩، ٢٢١

معنى الوحي وأقسامه في القرآن ١٦٣

١- نفس المعنى اللغوي ١٦٣

٢- تركيز عزيري فطري ١٦٣

٣- إلهام نفسي ١٦٤

٤- الوحي الرسالي ١٦٥

أنحاء الوحي الرسالي ١٦٦

١- الرؤيا الصادقة ١٦٧

٢- نزول جبرائيل ١٧٠

٣- الوحي المباشر ١٧٣

كيفية وحي الله إلى جبريل وكيفية نزوله

على النبي ﷺ

في كيفية صدور الوحي ونزول جبريل؟ ٦٨، ١١٢، ٢١٩

كيفية وحي الله إلى ملائكته؟ ٢٠٤

طريقة سماع جبريل كلام الله تعالى ٨٣

كيف كان جبريل يتلقى الوحي؟ ١٩٥، ٢٠٧

تصدير بقلم العلامة آية الله واعظ زاده ١١

الآيات وتفسيرها

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ

أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا...﴾

١٥، ٢٨، ٣٤، ٦٠، ٦٣، ٧١، ١١٢، ١٢٢، ١٤٢، ٢٦٣

﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مُلْكٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا

عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ ٣٥

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ *

وَحَفِظْنَاَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ...﴾ ٥٥

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَاهَا مُلْتَ حَرًّا شَدِيدًا

وَشُهْبًا...﴾ ٥٦، ٦٢

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ

قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ

الْكَبِيرُ﴾ ١٦، ٢٤، ٥٩

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

الْمُنذِرِينَ﴾ ١٤٩

معنى الوحي وكيفية وأقسامه

الوحي لغة واصطلاحاً ١٦٢، ٢٠٩

استراق السَّمْع قبل نزول الوحي على

النَّبِيِّ ﷺ

كان الشياطين يسترقون السَّمْع قبل بعثة النَّبِيِّ ﷺ ٥٥

كيفية الوحي واستراق السَّمْع قبل نزوله ١٦، ٢٤، ٨٠

منع صعود الشياطين إلى كلِّ السَّماء حين نزول القرآن ٦١

نقض بعض روايات الوحي

موقف النَّبِيِّ ﷺ من الوحي ١٧٧

النبوة مقرونة بدلائل نبوة ١٧٨

قصة ورقة بن نوفل [ونقده] ١٨١

الوحي لا يحتمل التباساً ١٨٤

أسطورة الغرائق ١٨٦

نقد الحديث سنداً ١٨٨

نقد الحديث مدلولاً ١٩٠

١- مناقضته مع القرآن ١٩١

٢- منافاته لمقام العصمة ١٩٢

٣- تهافته مع آي السورة ١٩٣

كيف كان يتلقى النَّبِيُّ القرآن؟ ١٩٧

كيف كان لقاء جبرائيل للنَّبِيِّ ﷺ؟ ٢١٣

مألَّذي نزل به جبريل على النَّبِيِّ [أم اللَّفْظ والمعنى أو

المعنى دون اللَّفْظ؟] ٢٠٠

دور جبريل في الوحي ١٤٠

بأي صورة كان يأتي جبريل على النَّبِيِّ؟ ١١٦، ٢١٥

الجمع بين الأقوال ٢١٨

رؤية علي عليه السلام جبريل بصورة دحية ٥٧

كيفية رؤيته ﷺ جبريل بصورته الأصلية ٦٠

موضع نزول جبريل في مكة ٣٠

نزول جبريل بالسنة ٢٠١

وحي السنة ٢٠١

كيفية الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام

طبقات الأنبياء ٣١

في كيفية إنزال الوحي على الأنبياء ٨٣، ٢٠٦

الفرق بين النَّبِيِّ والرَّسول والإمام في الوحي ١٧، ٣٢، ٨٩

قنوات المعرفة الثلاث ٢١١

الباب الثالث من القسم الأول: بدء الوحي، أوّل و آخر ما نزل

بدء الوحي وكيفية

فيما لاقى من الكفار في رسالته ٢٩١

كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ٢٣١، ٢٣٩

نقض حديث بدء الوحي

٣١١، ٢٥٢

مناقشة حديث بدء الوحي ٤٨٥

حديث بدء نزول الوحي ٢٣٥، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٥٩، ٢٨٠

أساطير وخرافات ٤٥٩

٣٢٨، ٣٥٦، ٤٠٨، ٤٢٨، ٤٨١، ٤٨٢

٢٧٨، ٢٨٣، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٣، ٢٩٥، ٢٩٨، ٣٠٢،

٣٠٨، ٣٤٢، ٣٥٤، ٣٦٤، ٣٦٨، ٣٧٦، ٣٨١، ٣٩٦، ٤٠٢

آخر سورة نزلت من القرآن ٢٥١، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧٨،

٢٨٣، ٢٨٩، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٤، ٣١٠، ٣٤٣، ٣٥٥،

٣٦١، ٣٦٥، ٣٧١، ٣٨٥، ٣٩٨، ٤٠٣، ٤٠٤

نقض الشبهة في آية الإكمال

التنبيه إلى خطأ مشهور ٤٤٦

بم يفسر الإكمال في الآية؟ ٤٤٦

بعثة النبي ﷺ

في مبعث النبي ﷺ ٢٦٥، ٢٩٠، ٤٧٥

تاريخ البعثة واختلاف أهل السير فيه ٤١٢، ٤٧٩

سير التشريع الإسلامي

سير التشريع الإسلامي في تحريم الخمر وأول ما نزل فيه

و آخره ٤٢٥

تشريع القتال وأول ما نزل فيه و آخره ٤٢٧

فرع في أوائل مخصوصة ٣٤٦

مثلان من أوائل وأواخر مخصوصة ٣٩٣

أمثلة لأوائل وأواخر مقيدة ٤٤٨

شبهة في هذا المقام ٣٩٤

فوائد أول ما نزل و آخر ما نزل ٣٨٢

نظرة تحليلية حول هذه النصوص ٤٦٢

قربة انقطاع الوحي و فتوره ٤٦٤

و من الطعن في النبوة أيضاً ٤٩٤

ما هو الصحيح في قضية بدء الوحي؟ ٤٩٥

لماذا الكذب و الافتعال إذن؟ ٤٩٦

النتيجة ٤٩٩

أول و آخر ما نزل من القرآن

أول ما نزل من القرآن ٢٣٢، ٢٤٤، ٢٥٢، ٢٦٩، ٢٧١،

٢٧٥، ٢٩٣، ٢٩٥، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٢٤، ٣٢٨، ٣٣٩، ٣٤٤،

٣٥١، ٣٥٣، ٣٧٢، ٣٧٩، ٣٨٨، ٤٠٤، ٤١٧، ٤٣٢، ٤٣٧،

٤٥١، ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٧٠، ٤٧٧، ٥٠٥

أول آية نزلت من القرآن ٢٤٤، ٢٦٧، ٢٧٧، ٢٨٠،

٣٧٥، ٣٧٩

أول سورة نزلت من القرآن ٢٤٧، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٨١، ٢٨٥،

٢٨٧، ٣٠٦، ٣٣٩، ٣٦٢، ٣٦٧، ٣٧٧، ٣٩٥، ٥٠٠

القول في آية التسمية و بيان نزولها ٢٧١، ٤١٥،

الفاتحة من أوائل ما نزل من القرآن ٢٧٣، ٤٥٥

آخر ما نزل من القرآن ٢٣٧، ٢٧٥، ٣٢٦، ٣٣٦، ٣٤٧،

٣٥٣، ٣٩٠، ٤٢١، ٤٣٤، ٤٤١، ٤٥٢، ٤٥٩، ٤٧٠

آخر آية نزلت من القرآن ٢٤٦، ٢٥٠، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧٥،

الباب الرابع من القسم الأول: السور المكيّة والمدنيّة و ترتيب نزولها

- ترتيب السور المكيّة والمدنيّة
 منازل من القرآن بمكة ٥١٧، ٦٢٣
- منازل من القرآن بالمدينة ٥١٧، ٦٢٣
- ترتيب نزول القرآن [في مكة والمدينة] ٥٠٥، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢٧، ٥٤٠، ٥٧١، ٥٧٧، ٦٨٠، ٦٩٩
- ترتيب القسم المكي والمدني على رأي تولدكه ٥٨٠
- اختلاف الرؤا في ترتيب نزول سور القرآن ٥٢٦
- كتابة ترتيب نزول السور القرآنيّة ٥٩٥
- تاريخ نزول السور ٥٧٧
- رأي بعض علماء الإفرنج في تاريخ سور القرآن ٥٧٩
- المكي والمدني على ترتيب النزول ٦٨٤
- فئة الترتيب النزولي للقرآن ٦٦٣
- نظرة جديدة في [ترتيب] مكي السور ومدنيها ٦٤٤
- معرفة المكي والمدني وضابطهما
- معرفة المكي والمدني ٥٤٣، ٥٥٢، ٥٥٤، ٦٢٨، ٦٧٢
- مصادر معرفة المكي والمدني ٦٧٢
- ضرورة معرفة المكي والمدني ٥٤٣
- الطريق الموصلة إلى معرفة المكي والمدني ٥٨٥، ٦٨٩
- فائدة معرفة المكي والمدني ٦٨٥، ٧٠١
- ضوابط التي يعرف بها المكي والمدني ٥٦٨، ٥٨٦، ٧٠٢
- المستثنيات من السور المكيّة والمدنيّة
- الآيات المستثناة من السور المكيّة والمدنيّة ٥٢٨، ٥٦١
- هل هناك آيات مدنيّة في سورة مكيّة أو بالعكس؟ ٧٠٦
- منازل بمكة وحكمه مدني وبالعكس ٥٤٤، ٥٤٥
- ما يشبه تنزيل المدني في السور المكيّة ٥٤٥
- ما يشبه تنزيل مكة في السور المدنيّة ٥٤٦
- تعليق على روايات الآيات المدنيّة في السور المكيّة ٦٠٤
- نزول القرآن في مواضع مختلفه وحمله إلى مواضع أخرى
- منازل في الجحفة ٥٤٦
- منازل بيت المقدس ٥٤٦
- منازل بالطائف ٥٤٦
- منازل بالحدبيّة ٥٤٦
- ما حيل من مكة إلى المدينة وبالعكس ٥٤٩، ٥٥٠
- ما حيل من المدينة إلى الحبشة ٥٥١
- المراد من المكي والمدني وفائدتهما
- الاصطلاحات في معنى المكي والمدني ٥٨٣
- المراد من المكي والمدني ٧٠٢

ترتيب السور في المصاحف

- ترتيب السور في مُصحف الإمام علي عليه السلام ٥٨٠
 ترتيب السور في مُصحف أبي بن كعب عليه السلام ٥٨١
 ترتيب السور في مُصحف ابن مسعود عليه السلام ٥٨١
 ترتيب السور في مُصحف ابن عباس عليه السلام ٥٨١
 ترتيب السور في مُصحف الإمام الصادق عليه السلام ٥٨٢

العناوين المتفرقة

- خصائص المكي والمدني ٦٨٥، ٦٧٥
 الشبهات المثارة حول المكي والمدني ٦٩٠
 نظرة في المصاحف المطبوعة اليوم ٧٠٨

القرآن في دور الدعوة ٦٦٧

القرآن بعد دورا لدعوة ٦٦٩

جداول السور المكية والمدنية

- جدول طبق ترتيب السور عند يعقوب ٧١٩
 جدول أجزاء القرآن طبق مُصحف الإمام علي عليه السلام
 عند يعقوب ٧٢١
 جدول طبق ترتيب السور عند ابن التديم برواية
 الزهري ٧٢٤
 جدول ترتيب السور طبق مُصحف ابن مسعود برواية
 ابن شاذان ٧٢٧
 جدول ترتيب السور طبق مُصحف أبي بن كعب برواية
 ابن شاذان ٧٣٠

في أن المدني من السور منزل في الفهم على المكي ٥٧٣

الفرق بين المكي والمدني

- الفروق الحقيقية بين المكي والمدني ٥٩٨، ٦٩٢، ٦٩٣
 وجوه تتعلق بالمكي والمدني ٥٨٨
 تميز الأسلوب المكي والأسلوب المدني ٥٩٣، ٦١٩
 ٦٨٦، ٦٨٥، ٦٧٣

المأثور في تمييز المكي والمدني ٧٠٧

مناقشة الاتجاهات الثلاثة ٦٨٥، ٦٧٣

الترجيح بين الاتجاهات الثلاثة ٦٧٤، ٦٨٧

أقسام عهد نزول القرآن

أقسام الآيات والسور القرآنية ٦١٦

أنواع السور المكية والمدنية ٥٨٧، ٦٨٢

عهد نزول القرآن ينقسم إلى مدتين متميزتين ٦١٨

التشريع الإسلامي في حياة رسول الله ﷺ

التشريع في حياة رسول الله ﷺ الكتاب والسنة ٦١٨

أساس التشريع الإسلامي في القرآن ٦٢٠

التدرج في التشريع ٦٢٢

تقليل التكاليف ٦٢١

عدد المكي والمدني وعدد الآيات فيهما

الأقوال في عدد الآيات في السور المدنية ٥٣٦

عدد المكي والمدني ٦٩٨

جدول طبق ترتيب السور عند السيوطي برواية عكرمة والحسن ٧٥٢	جدول طبق ترتيب السور عند صاحب المباني برواية أبي صالح ٧٣٣
جدول طبق ترتيب السور عند السيوطي برواية جابر ابن يزيد ٧٥٥	جدول طبق ترتيب السور عند صاحب المباني برواية ابن عطاء ٧٣٦
جدول أسامي السور المكية والمدنية بحسب سنوات نزولها عند المولوي ٧٥٨	جدول طبق ترتيب السور عند صاحب المباني برواية علي بن أبي طالب ٧٣٩
جدول طبق ترتيب السور عند أبي عبد الله الزنجاني ٧٦٠	جدول طبق ترتيب السور عند الشهرستاني بروايات مختلفة ٧٤١
جدول طبق ترتيب السور عند عزه دروزة ٧٦٧	جدول طبق ترتيب السور عند ابن طائوس ٧٤٦
جدول طبق ترتيب السور عند الخطيب ٧٧٠	جدول طبق ترتيب السور عند الخازن ٧٤٩